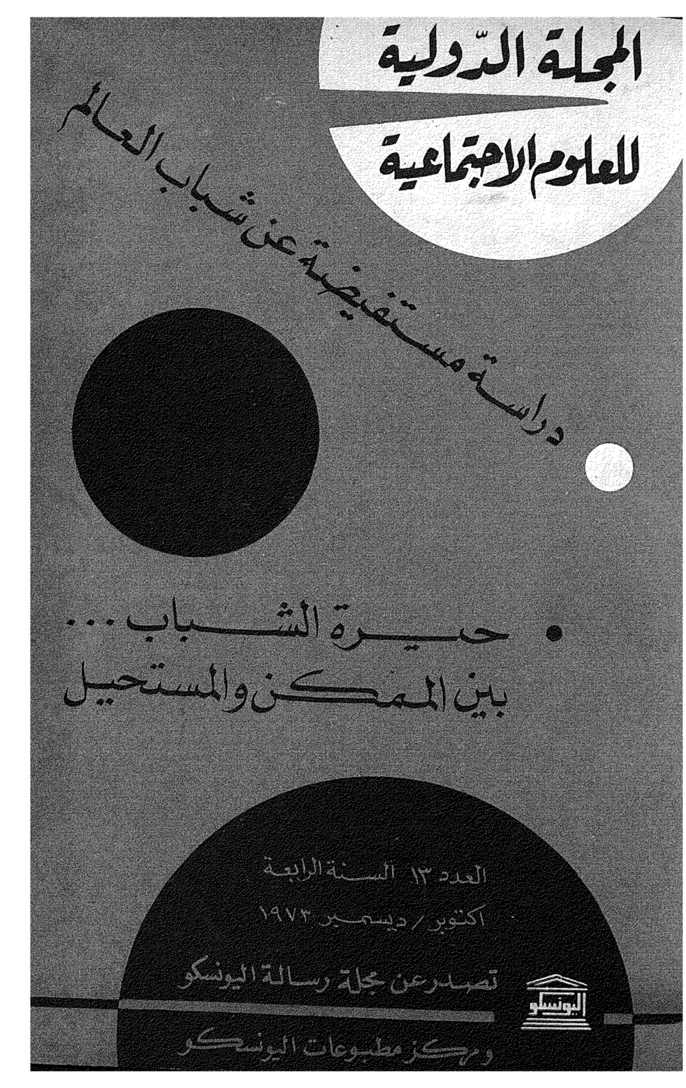



المجلة الدّولية
للعلوم الاجتماعية
دراسة مستفيضة عن شباب العالم
حيرة الشباب...
بين الممكن والمستحيل
العدد ١٣ السنة الرابعة
اكتوبر / ديسمبر ١٩٧٢
تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو
اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو



العدد الثالث عشر
السنة الرابعة
٨ رمضان ١٣٩٣
٥ أكتوبر ١٩٧٣
٥ تشرين الأول ١٩٧٣

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو
١ شارع طلعت حرب بميدان التحرير
بالقاهرة
تليفون : ٢٢٤٠٢

محتويات العدد

شبـــاب العـــالم :

حركات الشباب التى أقلقت المفكرين ، فى أواخر العقد الماضى ، وأثارت كثيرا من الجدل والمناقشة والحوار ، وامتدت على اتساع قارتى اوربا وامريكا ، وكادت تنتقل بكل ما فيها من عنف الى قارات العـالم الأخرى .

هذه الحركات قد كانت ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى التفت اليها العالم فى شىء غير قليل من الانتباه ، كذلك فان الدارسين والعلماء قد أولوها جانبا كبيرا من الاهتمام ، فخرجت كتب عديدة ، مشحونة بالتحليلات والبيانات والاحصاءات ، لتفسير هذه الظاهرة ، وكشف جذورها ، وتبين أهدافها .

وبرغم أوجه الخلاف فى آراء المفسرين والمحللين فان الظاهرة ظلت مع هذا قائمة ، تقابل حينا بالقلق ، وحينا آخر بالارتياح .

والذى لا شك فيه أن أغلب الذين تناولوها أعطوها حيزا أكبر مما تشغله فى الواقع ، وفسروها تفسيرات بدت فى بعض الأحيان مفزعة ، تهدد بالخطر ، كأنما هذا العالم على حافة حرب أهلية بين الأجيال .

ووصفها بعض الدارسين بأنهـا حالة من حالات التمرد ، ومظهر

بين الممكن والمستحيل

من مظاهر رفض كل ما هـو قائم ، ورغبـة فى استـبدال نظم جديدة لا يدرك أحد حدودها ولا أهدافها بالنظم الاجتماعية السائدة .

ورجع آخـرون أن هـذه الحركات ليست الا مظاهرة موقوتة ، لا تلبث أن تزول ، وان الشباب يقبل عليها كما يقبـل على الموضـات الجديدة ، تعلقا بكل جديد .

وبين الرأيين تعلقت انفاس الملايين من سـائر أنحاء العـالم ترقب وتنتظر ماذا تسفر عنه هذه الظاهرة الجديدة وماذا تنتهى اليه .

والذى لا شك فيه أن هذه الظاهرة قد خفت ، أو انها تجردت من العنف الذي سيطر عليها ، عندما بدأت فى قلب أوربا ، وانتقلت منها الى بعض العواصم والمدن الأخرى فى أوربا وامريكا .

واذا كانت هذه الظاهرة تكتفى اليوم ببعض المظاهر الغريبة ، فى الملابس ، واطالة الشعور ، والسـلوك العام ، الا ان تجردها من العنف ينتقل بها من حالة الايجابية التى كادت تصل الى حد التمرد الى حالة السلبية القانعة بالوضع الاجتماعي ، وإن اتجهت الى التجرد فى بعض المظاهر والأشكال .

وعندما تكون الحالة فى شــدتها فان دراســتها تصبح عســيرة وصعبة ، لكنها بعد أن تخف تتحول الى مادة تصلح للدرس والبحث والتحرى ، للوصول الى توصيف لها ، على أساس علمى يحكمه المنطق.

ولقــد أخذت الدراســة اشكالا شتى ، وأخذ العلمــاء يحللون ويفسرون ، ليصلوا الى جذور المشكلة ، والى حلول لها .

ولعلنا لو تتبعنا هذه الظاهرة فى تطورها نجد أنها تختلف فى العالم المتقدم عنها فى العالم النامى .

وبودى أن أسبق هنا الى ان أقرر أن ظاهرة الشباب فى العــالم المتقدم كانت اثرا من آثار الرخاء .

ان التقدم الصناعى قد رفع مستوى الحياة فى العالم المتقــدم ، ومع ارتفاع مستوى الحياة ترتفع الأسعار ، ومع ارتفاع الأسعار يزداد العبء على الأفراد وعلى الأسر ، ويشعر رب البيت انه مطالب بتوفير التكاليف الباهظة التى تفرضها عليه التزاماته . ولكى يتمكن رب الأسرة من القيام بهذه الأعباء فعليه أن يضــاعف من انتــاجه ، وأن يزيد من أوقات عمله ، بل انه يضطر فى كثير من الحالات الى أن يسمح لزوجته بأن تعمل ، وعندئذ يضعف سلطان الأسرة على افرادها ، ويفتقد الأولاد والبنات الجوالعائلى الذى ينمو فيه الشعور بالارتبــاط بقيم معينــة ، وولاء معين للاب وللام وللكبار من الأخوة .

ويجد الشباب أنفسهم فرادى ، بلا رقابة مباشرة أو غير مباشرة .

وعندما تخف رقابة الوالدين على الشباب فان حجم الحريةالتى يتمتعون بها يتضاعف .

عندئذ تتكون منهم مجموعات تتبادل آراء لا ضابط لها ، وتسلك سلوكا بلا قيود .

وفى مثل هذا الجو تتولد أفكار غريبة ، وتهب رياح هوج، وتتشكل ارادة الشباب فى اطار صاغوه لأنفسهم .

ومع تعقد العــلاقات الاجتماعيــة ، وضغط التركيب الاجتماعى المتوتر ، وتلوث البيئة ، وحياة الصخب ، وبريق الأضواء ، لا يضمن احد ماذا يكون رد الفعل لهذا كله على سلوك الشباب .

قد يؤدى افتقاد الأسرة الى فراغ ، وقد يؤدى الفراغ الى البحث عن الاثارة .

فى الوقت نفســه فان ازدحام المدارس والجامعــات بالطلاب قد ادى الى انشغال الاساتذة والمعلمين عن طلابهم، فافتقدت جموع الشباب ضوابط الأسرة ، كما افتقدت ضوابط الفصول والمدرجات فى المدارس والجامعات .

وهنا يصبح الفراغ هائلا ، لا البيت يملأه ، ولا المدرسة تقلل من حجمه ، واذا النتيجة فراغ من كل جانب ، وحياة بلا رقابة ولا توجيه .

وفى مثل هذا التحلل من أى قيد فان أحدا لا يتوقع أن يحــافظ الشباب على قيم موروثة ، أو تقاليد راسخة ، أو ضوابط من أى نوع، تمثل المحاذير فى حياة الشباب .

ومع هذا فماذا كان شباب العقد الماضى يســتهدف من الظاهرة المفزعة التى راقبها العالم فى اشفاق ؟

هل كان يعنى تحطيم كل القيم والقواعد والقوانين ؟

لا شك أن دراسة الوضع على هذه الصورة يؤدى بنا الى ان هذه الظاهرة قد كانت نوعا من المرض الذى تعرض له الشباب . والمريض قد يصرخ من ألمه ، وقد يحطم العنبر الذى ينزل فيه فى أحد المستشفيات، وقد يثير أطباءه وممرضيه بسلوكه ، وقد يستفز معالجيــه بتصرفات متطرفة خارجة على ما تعارف عليه هؤلاء المعالجون .

لكن يخطىء الطبيب ، ويخطىء المرضون ، ويخطىء المشرفون على العلاج ، لو فهموا أن هــذه التصرفات مظهر من مظاهر الخصــومة ، تقتضيهم أن يتخذوا منه موقف عداء . والأجدر بهم أن يعالجوه ، بدلا من أن يعادوه . حينئذ يهدأ ويستريح ويستعيد الصحة والمقدرة على ضبط النفس .

ولو حللنا هذا المرض ، كما يجب أن يكون التحليل ، لنضــع له العلاج المناسب ، لأصبح على الذين يتصــدون لمشــكلات الشباب أن يفهموا أنه لا يستهدف تحطيم القوانين ، ولا اســتبدال المجتمع القائم بمجتمع سواه . ان الشباب يدرك أنه لا بديل لهذا المجتمع الذى يحيا فيه ، وأنه اذا هدم ما بناه الانسان ســيكون أول من يدفع ثمن هــذا الهدم ، لأنه لن يجد المسكن ولا المشرب ولا المأكل ولا الملبس ولا الدواء .

وليس الشباب من الغباء والسذاجة الى هذا الحد . لكنه يريد ببســاطة أن يدخل هذا المجتمع الذى اغلق دونه . اغلقه عليه أبوه حين

هجره ، واغلقته عليه أمه حين فضلت العمل على البيت ، وأغلقه عليه أساتذته حين انشغلوا عنه بالحياة المعقدة المركبة التى اثرت على طبيعة المدارس والجامعات .

والشباب الذى لم يبدأ بعد ممارسة المسئولية ، ولم ينشغل بعد بأعباء الأسرة والأولاد والاضطرار الى مضاعفة الجهد ، ليواجه تكاليف الحياة ، الشباب ، وحوله محيط من فراغ ، يصبح من حقه أن يطرق باب المجتمع ، متوسلا أن يدخل فيه ، ليملأ حياته بمسئولية تنسيه ما هو فيه من فراغ ، يولد عنده بلا جدال شعورا بعدم الأهمية والضياع .

ولو عنى المجتمع بأن يلتفت الى عنصر الشباب ، وأن يفتح له الباب ليشارك فى تحمل المسئولية ، لانضم بدوره الى ركب البناء والانتاج ، بدلا من أن يظل خارج الأسوار ، يطرق الأبواب ، والآذان مغلقة ، والعيون مرهفة ، والأبدان مكدودة ، لا تلتفت حتى لهذه الطرقات .

ولقد كانت وسيلة الشباب فى بعض الأحيان عنيفة ، بل مسرفة فى العنف ، فى بعض المجتمعات .

لكنها كانت خافتة فى مجتمعات أخرى .

وعندما انحسرت الموجة العنيفة ظل الشباب مع هذا يسلك سلوكا شاذا وغريبا ، لتظل مع هذا طرقاته على الأبواب تصيح انه موجود ، وأنه يريد أن يدخل الى المجتمع ، لا أن يحطم هذا المجتمع ويغيره بسواه .

هذا عن المجتمعات المتقدمة .

اما المجتمعات النامية فقد تعرضت بدورها لشىء من هذا القبيل . فلا شك أن هذه المجتمعات قد اتجهت لتنفيذ برامج للتنمية ، والتنمية تعتمد فى المقام الأول على الصناعة والتصنيع ، والتصنيع فى العادة يكون مكثفا فى المدينة . عندئذ يجد الشباب أن عليه أن يهاجر من الريف الى المدينة ، وفى المدينة ينعزل عن مجتمع القرية ، ويتصل بعناصر شابة أخرى منعزلة بدورها عن جذورها فى الريف ، بعيدة عن أسرها ، وتتولد

للشباب مجتمعات خاصة ، لا تحكمها الرقابة ، ولا تشدها ما اعتادته من ولاء للاسرة وللاقارب .

وفى هذا الجو المطلق من الروابط الأسرية تبدأ تشكيلات الشباب تتجه نحو البحث عن الاثارة لتملأ ما تشعر به فى المدينة من فراغ .

وتكون النتيجة بعض انحرافات .

كل هذا يؤدى بنا الى تشخيص المشكلة بأنهـا مشـكلة فراغ فى حقيقتها ، برغم اختلاف أسبابها ودوافعها والعناصر التى تتشكل منها.

وكل هذا يؤدى بنا الى أن الحل الصحيح هو أن يعترف المسئولون من ابناء هذا الجيل بأنهم هم المسئولون عما آلت اليه أمور الشباب .

هم تركوهم وحدهم ، وهم أخلوا ما بين الشـباب ومسـئوليات المجتمع ، وهم تسببوا لهم فى هـذا الجو المفزع من الفراغ ، وعليهم وحدهم تقع المسئولية . ولو انهم عنوا بأن يفتحوا للشباب باب المجتمع ، ليدخلوه مشاركين فى تحمل تبعاته ، لشعروا بأن العبء عليهم عسير ، وبأنهم شركاء فى الخير والشر على حد سواء ، وبأنهم فى النهاية جزء من المجتمع ، لا هم متفرجون ، ولا هم منتظرون على محطـة من محطات الترام .

هل نستطيع بعد هذا أن نقرر أن هذه المشكلة من صنعنا ، وأن علينا أن نحلها بأيدينا ؟

ان الشباب يقف اليوم أمام الممكن والمستحيل .

ان مشاركتهم فى تحمل المسـئولية يجعلهم أمام التحـدى الذى يتعرض له المجتمع .

عندئذ يقبلون على مسـئولياتهم لأداء الممـكن ، ولا يثورون على المجتمع ، فى سبيل المستحيل .

فاذا لم يشاركوا فى اداء الممـكن فاعذروهم اذن اذا هم فكروا فى المستحيل .

والفرق بين الممكن والمستحيل هو الفرق بين الواقع والخيال .

فلتدعوا أجيال الشباب تواجه الواقع ، بدلا من أن تحلم بالمستقبل

عبد المنعم الصاوى

محاولات جديدة

في دراسة المشكلات الاجتماعية للشباب

الأوجه النظرية والمنهجية لدراسة المشكلات الاجتماعية للشباب

في أوربا الغربية والولايات المتحدة أصابت الظواهر الحديثة لانتشار الاستياء والقلق بين الشباب الاخصائيين الاجتماعيين في شؤون الشباب بصدمة كبيرة ، ودفعتهم لاعادة النظر في محاولة فهمهم نظريا ومنهجيا ، فوجدوا أنفسهم كغيرهم من خبراء مشاكل الشباب مواجهين بالتطورات السياسية التي توقعها قلة منهم . ولا شك أن أحدا منهم لم يتنبأ بالدرجة التي ستصل اليها معارضتهم .

وقد يكون من السهل أن ننسى أن الشباب قد وجه اليه انتقاد كثير ، ولكن بدرجة أقل مما كان منذ عشر سنوات مضت ، بسبب عدم تعهدهم بما يقيد الحريات :

« في المجتمع العصرى كف الطلبة عمليا عن أن يكونوا عاملا منتجا للقلق ، ولم يعودوا يهتمون بتغيير حياتهم ، وتركوا العالم وشأنه ، ولو أنه يسعدهم أن يقبلوا ما يقدم لهم من خدمات ، فهم يتقبلون العالم كما هو ، ويتطلعون الى الوضع اللائق بعيدا عن التورط ، ذلك أن الطلبة محافظون أكثر منهم ثوريين ، فهم يتجنبون عدم الالتزام السياسى مثلما يرفضون عدم الالتزام الاجتماعى » .

فالطلبة العصريون « معرضون لخطر أن يصبحوا وهم في العشرين شيوخا حذرين » .

بقلم : ليوبولد روزنماير

أستاذ علم الاجتماع بجامعة فينا . كتب بتوسع عن مشكلات الشباب ، وفي كتبه مقالات عديدة ، واسهامات في مؤلفات مرجعية ، وكتب . وله مقالات سابقة في هذه المجلة منهــا مقال عن « الشيخوخة والأسرة » .

ترجمة : الدكتور أحمد عبد الرحيم أبو زيد

مدرس الأدب اللاتيني واليوناني بكلية الآداب بجامعة القاهرة . حاصل على الدكتوراه في الأدب اللاتيني من جامعة أدنبرة . من مؤلفاته « تاريخ الأدب الروماني » ، و « دراسات في التراجيديا اليونانية » ، و « مختارات من أشعار الشاعر اللاتيني هورس » ، و « المدخل الى اللغة اللاتينية » .

لقد تنبأ هلموت شلسكي في ١٩٥٧ بأن الحركات الثورية ســوف تنفجر على فترات لتخمد ثانية ، انه على الأقل قد عرف الظاهرة ، ولو أنه قد رأى أن مثـل هذه المعارضة ليست سوى « عامل مساعد للتغيير الاجتماعي » .

واذا كانت الأبحاث الاجتماعية قد حققت قليــلا من النجــاح في التنبؤ أو في تقويم السلوك الفعلي للشـبـاب كأفراد أو كأعضــاء في مجموعات المعترضــين فان المعلومات المكتسبة وأساليب المقابلات المستخدمة موضعا للتساؤل ، وبذلك يمكن استنباط عدد مناسب من الأحكام .

يجب أن ترسم الخطوط الفاصلة بين الأوضــاع العــامة والأوضــاع المتصلة بالتصرف بما هو أكثر دقة ، ويجب أن تصبح الأبحــاث الاجتماعية الخاصة باتخاذ القرارات النموذجية بين الصغار فرعا مستقلا من الدراسة ، ويجب أن تدخل طريقة البحث في حساباتها المشكلات العفوية ، ودرجات الحرية التي ينعم بهــا الأفراد أو المجموعات المتحدث اليها والموضوعة تحت الملاحظة ، ويجب أن تبحث كل العناصر الأساسية لتعاليم الجبرية الاجتماعية الرفيعة والمغرية بطريقة متزايدة ، ذلك أن العوامل الاجتماعية الاقتصادية مســئولة عن نماذج الســلوك الشــخصي والتفوق الذاتي . ويجب أن تكون التغيرات التي يمكن ان تحدث في الأوضاع الاجتماعية أثناء المقابلة (أي في غضون عملية البحث) موضوعا لبحث أكبر الى حد ابعد من الحالة القائمة . وبدلا من التركيز على البيانات التي سردها الفرد عن نفسه ردا على أسئلة

بفيلها فانه من الضرورى أن تدرس بواعث القرارات والتصرفات بالنسبة للخلفية « التاريخية » ، ويتضمن ذلك تفسيراتها المبنية على أساس تاريخ حياة الأفراد .

ان علم اجتماع الشباب ــ سواء كان متعلقا بأى شكل بالتلاميذ المراهقين والغلمان المهنيين أو بالشباب كالطلبة ــ سوف يحتاج بنحو متزايد الى دراسات ممتدة لكى يحدد قواعد أساسية للنمو فيما يتعلق بدورة الحياة . هذه الطريقة التى تلاحظ وتدرس أشخاصا ومجموعات متماثلة خلال فترة متصلة من الأمن لكى نحصل على معلومات موثوق بها عن التغييرات المنسوبة لتأثيرات معينة أكثر من تلك التى تعطينا اياها الدراسات على العينات المقتطفة هى طريقة لا تخلو من المشكلات الداخلية الخاصة بها . فتقدم الطرق والاختبارات المستعملة فى المراحل المختلفة من الدراسة بتأثيراتها التعليمية طاقة من المعلومات لها مميزات العمل المستنبط .

ويجب فى المقام الأول أن يتوسع الى حد بعيد فى التعاون الانضباطى بين التاريخ الاجتماعى وطب النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع ليسمح للاستنتاجات النظرية المناسبة بأن تستنبط بقدر من الثقة ، تلك الاستنتاجات التى سوف تكون مستحيلة بدون مثل هذه الطريقة التوفيقية . ويجب أن يكون هناك استخدام جيد للمعلومات الاجتماعية والاقتصادية الخلفية والبيانات الاجتماعية الواسعة ، وكذلك للصلات المقامة بين هذه الأشياء وبين البحث الاجتماعى التجريبى ، ومع ذلك تثير التجارب المتعلقة بالطب النفسى أو بمفاهيم التحليل النفسى مثلا مشكلة اضافية لعلم الاجتماع ، اذ هل يمكن من الناحية التاريخية أن تدرس الطرق المتغيرة بواسطة نماذج شخصية ثابتة ؟

ونحن نزكى احلال الدراسات محل البناء النظرى السطحى غير الوافى ، مطالبين بأن تتمثل هذه الدراسات داخل أمة معينة ، وأن تكون مدروسة على سبيل المقارنة ، مثل ما بين الأمم والثقافات المختلفة ، وتغطى من خلال خطة طويلة الأجل موضوعا محددا بدقة ومصمما فى البداية كدراسة حالة اقليمية وثقافية . ولن يكون من السهل علميا أن نغطى طلب المنظمات الدولية للاستقصاء والتخطيط المقارن على مستوى خارج الاقليمية أو على مستوى « الانتشار العالمى » حتى تتيسر شبكات لهذه الدراسات ذات الكفاءة . ونسدى النصح للمنظمات الدولية كى تعطى الأسبقية لدراسات الحالات ذات الموضوع المحدد الذى يغطى مناطق ومجالات ثقافية محدودة . وبهذه الطريقة تستطيع الأبحاث العالمية للشباب أن تتقدم الى الأمام تدريجا ومنطقيا . وبدون الدعم الضرورى للتعاون التنظيمى الراسخ وخدمات الباحثين المدربين فانه يجب على المنظمات الدولية أن تمسك عن نشر التقارير العالمية المعدة بسرعة ، والتى ليس لها استعمال عاجل ، بل هى مشاهد فحسب ، أو تبرئة لنشاطها الخاص ، الا أننا يجب أن لا ننسى الحاجة الى المساواة الدولية الكبرى ، ويجب أن تقام الصلات مع المنظمات الدولية ومراكز التوثيق وبينها، بقدر ما ترعى تلك المنظمات والمراكز هذا التطور .

وكثيرا ما تعمم النتائج المبنية على الدراسة التى تتم فى المدارس العليا الامريكية الى أبعد بكثير من مجال مفعولها التجريبى والثقافى . والحقيقة التى تتجاهل - رغم أن الاخصائيين الاجتماعيين يجب أن لا يقعوا اطلاقا فى مثل هذا الخطأ - هى أن الأشكال التنظيمية المختلفة فى المؤسسات التعليمية لها صلات مختلفة بالأدوار المتاحة للصغار فى مجتمع معين . وبتأكيد النص على فئة الأعمار نجد أن البناء الطبقى للمجتمعات لم يهمل أو يستغل فحسب ، بل ان العوامل التاريخية التى تقرر التباين بين آفاق الخبرة للاجيال المتعاقبة قد صرف عنها النظر أيضا .

ومن المؤسف خاصة أن نفتقد الدراسات المقارنة التى تغطى بلاد غرب أوربا ووسط أوربا والدول الاشتراكية ، اذ لم نسمع مؤخرا عن اية دراسات تجريبية عن الطاقات السياسية للشباب فى الدول الاشتراكية ، لأن اضطرابات وتحركات الطلاب ينظر اليها على انها ظاهرة مميزة للنظم الرأسمالية . ونحن نجد فى النظم السياسية السائدة اليوم فى المجتمعات الاشتراكية أن سبل التوجيه والرقابة الاجتماعية منتشرة وفعالة بدرجة تكفى لاعطاء مثل هذا التحديد المتصور فاعلية تجريبية . ان مشكلة الاضطراب فيما بين الشباب لا تقوم من اجل البحوث التجريبية عن الشباب فى الدول الاشتراكية ، ولهذا فهى تدرس ، باستثناء قلة منها . أما المشاكل الأيديولوجية والأخلاقية التى لم يؤخذ فى الاعتبار تفاعلها مع الواقع الممارس ، أو التى تركز على المشاكل التى تشمل رضا الشباب عن المهنة او الوظيفة التى يختارها، وكذلك هجرة الشباب من الريف الى المدن ، الخ ، فمهمتها الرئيسية هى « أن توفق بين الرغبات الشخصية لمجموعات مختلفة من الشباب وبين صالح المجتمع » والمقصود وراء ذلك هو أن تضع الظواهر المضادة للمجتمع (مثل الجريمة وادمان الخمر الخ) تحت رقابتها ، الى جانب الحصول على نتائج اقتصادية ، فاذا أمكن التقليل من تذبذب الشباب وهجرتهم واستيعاب الشباب بطريقة أكثر سرعة وفاعلية فى مجالات الانتاج فان الانتاج يتصاعد . وقد كان للبحث الذى قام به ف . شوبكن عن اختيار المهنة بين الشباب السوفيتى قيمة منهجية كبرى ، فى حين يقوم ايجور كون الباحث الاجتماعى الأول فى الاتحاد السوفيتى بدراسة الشباب من زاوية نظرية الشخصية والتطور التاريخى (انظر كتاب **Soziologie der Personli Shkeit** براين ١٩٧١) . فالمعلومات الخاصة بالأنشطة السياسية وميول الشباب السياسية ليس لها ترابط اقتصادى ، فاذا جمعت فانما تجمع على المستوى المحلى ، وغالبا تبقى دون نشر . وعلى اية حال فاننا نفتقر الى وجود معلومات تساعدنا فى الوصول الى استنتاج تجريبى لوجود ظواهر خفية فى الدول الاشتراكية يمكن مقارنتها بما هو معروف عموما « بقلق الشباب » فى المجتمعات الصناعية الغربية .

وتوجد حاجة ملحة فى بلاد العالم الثالث الى وجود رأى علمى عن الشباب . فمن ناحية نجد أن انشطة الطلاب السياسية لها من استمرارها الدائم ، وخاصة فى امريكا اللاتينية ، ما يجعلها تفقد عنصر المفاجأة ، فى حين انه فى الظروف الاجتماعية

والاقتصادية المؤلمة للعالم الثالث ـ حتى فى المناطق القريبة من أوربا مثل شمال افريقية والشرق الأوسط ـ نجد الصورة العامة يشوبها النقص فى أصول التربية ، مثل القراءة والكتابة ، وعدم توافر وظائف للمهرة من القوى العاملة ، ولذا تكون النتيجة خسارة فادحة فى القدرة على العمل ، ويترتب على ذلك حتما نقص فى التصميم الجاد التواق للتقدم الاقتصادى والاجتماعى ، ورغبة فردية فى التحرك الاجتماعى . فمشكلة المعارضة الكلية للنظام لاتقوم لها قائمة بمجرد القضاء على الاستعمار ، بشرط أن لايثير هذا كفاحا قوميا أو عرقيا أو قبليا خطيرا من أجل البقاء أو تنازع الشخصيات ، ...

وما زالت ظروف المشاركة السياسية والابتكار السياسى للشباب فى العالم الثالث غير مدروسة دراسة كافية ، ويتحسن هذا الموقف تحسنا بطيئا، فالمشروعات التى تتفق كيفا مع مستوى الأبحاث الاجتماعية ، مثل الدراسة الهامة لشعب أوغندا الواردة فى تقرير « والاس » و « ويكس » ، قلما تتقدم بدرجة تكفى لتقديم نتائج موثوق بها .

ان دراسة التاريخ وعلم الاجتماع لمدلول كلمة « الشباب » فى العالم الثالث لها اهمية قصوى ، ولكن هذه الدراسة لا تزال تحبو .

وفيما يلى بعض الموضوعات المهمة من الأبحاث الاجتماعية التى أجريت فى العالم الثالث :

تدبير علم رمزى عام بسيط ، ولكن عملى ، عن المشاكل الاجتماعية عبر المناطق والثقافات يضم من وجهات أخرى :

١ ـ تفكك الأسر ، وهجر الشباب البالغين للأسرة تحت ظروف التمدن السريعة ، والهجرة من الريف الى الحضر : ينتج عنه تجمع الشباب المنبوذ وغير المسيطر عليه ، مكونا عصابات من الأحداث ، مما يؤثر تأثيرا سلبيا على أمانى الجيل الصاعد الاجتماعية والتربوية العامة .

٢ ـ النهوض البطىء فى التعليم ، وسببه ضعف مستوى المدارس الأولية . فهناك موانع تعترض التدريب المهنى فى داخل الاطار الموضوع لشخصية الحدث (يلاحظ فيه غياب حوافز الانجاز) ، وكذلك النقص فى عدد المدرسين المدربين . وبالاضافة الى هذا فان المراكز التعليمية ، كما لاحظ ريمى فان وينبرج ، عاجزة عن أن تحل محل التدريب خلال العمل ، لأن هذه المهمة تعتمد فى الواقع على جهاز صناعى وحرفى ثابت .

٣ ـ الصعوبات التى تواجهها الشابات عند محاولاتهن الهرب من حالتهن المعدمة ومن القيود المفروضة عليهن .

٤ ـ « السلبية الحائرة » للجموع الحضرية من المراهقين المهاجرين من المناطق الريفية او الجيل القديم ، الطبقة الدنيا والصغار المقلدين لسكان المدن ، وكذلك

الهوة الكائنة بين التخطيط وتطوير الأنشطة الصادرة من الهيئات العليا وبين مدى تقبل الشباب لها .

٥ ــ النسبة العالية من الأطفال والشباب فى معظم بلدان العالم الثالث (خمسون فى المئة وأكثر قليلا منهم تبلغ أعمارهم العشرين أو أقل من ذلك) هى التى تزيد من خطر المشاكل السابق ذكرها . وقد قامت عدة مؤسسات خلال الخمس السنوات الماضية بعدة محاولات لدراسة الشباب فى مراحل تطوره ، فان من اهم واجبات الدراسات الاجتماعية عن الشباب لأغراض نظرية التقويم والتجميع للمادة المتحصلة من خلال دراسات المشاكل الاجتماعية الراسخة ، وان انشاء علم اجتماع عام عن الشباب يجب أن يحث على وضع النظريات ذات المقياس المتوسط والمحدد ، والتى يتحتم عليها فى النهاية أن تحسن الأبحاث الراسخة عن طريق حسن اختيار الموضوع وترتيب المناهج .

وعلى هذه الأسس قد يبدو فعلا انه من الممكن ــ ولو على سبيل المثال ــ أن نجد اثناء حركات التحرير واكتساب الحريات ومحاربة الاستعمار (وهذه كلها تختلف فى أساسها عن التغييرات السياسية والاقتصادية الجذرية والفرعية للثورة الصينية مثلا ، كما تختلف حتى عن التغييرات الحاسمة التى مرت بها نظم بلدان شرق أوربا بعد الحرب العالمية الثانية) أن الجيل الجديد ان يكن واعيا ومطلعا فمن الأرجح أن يثبت أنه خميرة فعالة .

وستحتاج الدراسات الاجتماعية للشباب الى مزيد من الارتكاز على التحليل المنقح المستمر للايديولوجيات. كما يجب أن نعلم أن المفاهيم الأيديولوجية للمضمون العاطفى الكامن فى مفهوم الشباب لا تخلو من التأثير على وجهات نظر الباحث نفسه . ولذا يجب أن ينص دائما : من أجل من ؟ ولأى غرض ؟ وبأى الوسائل تتم الأبحاث الخاصة بالشباب ؟ ويجب أن لا تبقى الدراسات الاجتماعية للشباب سرا يحتفظ به للخبراء ، بل ان النشر العام لنتائج مثل هذه الأبحاث وتعميمها واشاعتها أمر يجب أن يكون موضوع دراسة علمية ، اذ أن الأوصاف والتوضيحات التى يعمم نشرها عن أنماط السلوك تميل بطبيعتها لاكتساب صبغة ظاهرية من السلطة والتأثير . وهنا نلاحظ مرة اخرى أن الفكرة التحليلية « لنبوءة تحقيق الذات » ــ التى شرحها علماء الاجتماع ، والتى بمقتضاها تصبح تدريجا أوصاف الحالات أو الاتجاهات تحديات ترمى الى كشف الحقيقة المتنبأ بها ــ مازالت سائدة .

ان تعريفات الذات التى توصل اليها الشباب فى الهيئات والمؤتمرات والاجتماعات والمهرجانات الخ يجب أن تؤخذ بمزيد من الاعتبار . الا انه يجب أن نفهم أن هذا الوجود الاجتماعى للذات ، بما فى ذلك من تعبير لفظى للاهتمامات والأهداف (الاحتياجات والاستحقاقات) ، هو دائما نتاج التنظيمات التى يتجمع فيها أو يقف ضدها الشباب . فان الظروف المركبة التى يعيشون فيها وأشكال واجراءات الاتصالات الشخصية والجماعية لها تأثير أعظم على التلقائية المباشرة

لأشكال تعبيرهم الذاتى وعلى أوهامهم وتخيلاتهم ، أعظم مما يتصوره المشتركون الصغار انفسهم .

وهناك تكمن حاجة ملحة لتطوير وتحسين الأساليب ، وذلك عن طريق ربط وسائل التحقيق والملاحظة المباشرة بالمعلومات « غير المباشرة » وكذلك مزج «الملح» و غير « الملح » من المعلومات .

ان تخصيص التحقيقات ـ وذلك مثلا بتحديد علامة واضحة وعملية « إلى حد ما فى مضمون الكشف عن نجاح أو فشل معايير معينة » ـ قد يكون مهما فى المرحلة الحالية من البحث .

ويجب اعطاء مزيد من العناية للعلاقة الكائنة بين البحث والتخطيط. فالتخطيط للشباب والتخطيط مع الشباب لن يجنى فائدة ما من التحقيقات السطحية التى قد تثير مواقف متكررة على نحو لا يتغير مع نوع من التعبير عن النفس يتصف بالسطحية والتأليف من جانب الشباب . وأخذ الآراء عن طريق الاستفتاءات التى تجمع فى التقارير الوطنية ووضع الافتراضات القائمة حول مواقف وأمانى الشباب يغلف غالبا بغلاف سلطة ظاهرية ، وهى فى الواقع لا تتعدى أن تكون كلها زائفة .

وقد اظهر تمرد الشباب وتنازعه ـ الظاهر منه والباطن ـ خلال العقد الماضى وجود آراء انتقادية كامنة . كما احدث سخطا شديدا بين الراشدين والمراهقين من الشباب يفوق فى كثير من الوجوه ما هو مصور فى التخطيطات التقليدية .

فهناك اذن حاجة حقيقية لاعادة تقدير علمى وفاحص للمفهوم الساذج والبسيط للشباب الذى بنيت عليه أبحاث عديدة ، ولتعميم التعريفات النظرية اخذ فى الاعتبار جديا تطبيقات الأجهزة الاقتصادية والادارية والسياسية للتغيير الاجتماعى وكذلك الصراع مع الشباب من حيث كونه صراعا سياسيا .

ومن المهم بوجه خاص أن يكون هناك وعى بوسائل معينة بديلة أو مكملة لخط المعالجة ، اذا قدر للباحثين الاجتماعيين للشباب أن يتمكنوا من فتح اتجاهات جديدة .

ومن أهم هذه الوسائل ما يلى (ويتم تحليلها فى مختصر يرد فى آخر هذا المقال) : (أ) نظرية التجمع النظامى للشباب ، (ب) علم اجتماع للشباب مبنى على فكرة الجيل ، (جـ) نظرية الشباب مركزة على المضمون الاجتماعى ، (د) نظرية الشباب كنظرية للتغيير الاجتماعى تحددها مجموعات منحرفة اجتماعية ، (هـ) علم اجتماع للشباب مبنى على المقارنة بين دوافع الشباب وأمانيه وبين مستقبل المجتمع وتحدياته ، (و) نظرية ماركسية حديثة للشباب .

لاعادة النظر فى تعريف علم اجتماع الشباب

ان دراسة الشباب لا يمكن تسميتها دراسة اجتماعية الا اذا أمكن ابداء أن بعض تصنيفات المعالم المختارة (كمتغيرات مستقلة) (أ) تنتمى نظريا لسلطة علم

الاجتماع ، وهكذا فان الحجم الجسمانى والحالة الصحية أو الحالة النفسية الغالبة ــ حتى ولو كان لهذه الأشياء صلة بالاعتبارات الاجتماعية ــ لا تعتبر مقاييس لعلم الاجتماع بدرجة أكثر مما لو أخذنا فى الاعتبار عوامل مثل الذكاء أو التقارير المدرسية ، (ب) ان لهذه المعالم ما تكفى دلالته لأغراض أبحاث التخصيص أو للموضوع تحت البحث .

ويمكن تعريف علم اجتماع الشباب بأنه تحليل يعتمد داخليا وخارجيا على نظام مكيف وفقا للظروف والأوضاع (بمعنى أن التحليل يكون بحجة تحديد خصائص النظام وقانونيته) . كما يعتمد التحليل ، ان أمكن ، على الارتباطات العارضة للتفاعل والعلاقات بين البالغين والشباب الى مدى مايكونون عليه من تفاعل أو تقارب كأفراد وجماعات أو تجمعات أجتماعية ، مادامت تقرر مصيرهم وتؤثر عليهم نظم اجتماعية وتربوية .

وعلم اجتماع الشباب يدرس (أو يجب ان يدرس) العلاقات والآراء الاجتماعية المتبادلة بين الأفراد والجماعات والتجمعات (المكونة من الصغار والشباب) وبين فئات العمر الاخرى والهيئات والنظم ، والمجتمع ككل .

كما أن كلا من الخصائص الاجتماعية الملحوظة فى الافراد البالغين والبيانات «الجماعية» للفئات والنظم ومنظمات الشباب تدرس أيضا . وبهذه الطريقة يجب أن تبذل محاولة للوصول الى تركيب لعلم اجتماع يشمل كل صغيرة وكبيرة .

ويقتضى علم الاجتماع للشباب أيضا البحث فى المجموعات التى تكونت من المواقف العامة أو الأحوال التشريعية المتشابهة (كالتلاميذ فى فصل خاص ، والغلمان المهنيين فى شركة صناعية ، وكالأعضاء فى منظمة للشباب ، وكطلاب علم يقرأون موضوعا واحدا) ، أو يسمو أعضاؤها الى أهداف مشتركة . كما يهتم علم الاجتماع للشباب أيضا بالتربية الأولية للشباب ، التى يجب أن تقدر من حيث أهميتها كمحيط اجتماعى لتنمية الشخصية المثقفة اجتماعيا ، وعلى الاخص لتعلمها والتحقق منها وامكان التعرف عليها ، لما لها من سلوك معبر ، وتحقيق الامكانيات والبواعث وهلم جرا .

ويتضمن علم الاجتماع للشباب البحث فى السلوك والآراء (لأن متوسط عمر الفئات يحتم الاهتمام بالتطلعات والأمانى) فى المجموعات الاجتماعية ، والوحدات والتجمعات غير الرسمية للمراهقين وصغار البالغين . كما يجب دراسة البرامج والأنشطة وأنواع التجميع والاختيار والعلاقات (التنازع ، والتعاون ، أو انعدام الاتصال) التى تنمو فى هذه الوحدات أو بينها ، وكذلك بين هذه الوحدات وبين المنظمات ذات المستوى الأعلى والمعاهد الاجتماعية ككل .

كما يتضمن هذا العلم البحث المبنى على المقارنات الثقافية والأثنولوجية والتاريخية للبالغين وحقوقهم وواجباتهم (ويمكن اتمام هذه الدراسات بطريقة نافعة وذلك بالتحليل المقارن لأوجه سن المراهقة عند الحيوانات وبني الانسان) . ويجب

أن يذهب علم الاجتماع للشباب الى أبعد من المقارنات الأثنولوجية والتاريخية ، فيحاول أن يؤكد تفاصيل المساعدات والخدمات المادية والثقافية التى تؤدى للشباب بواسطة المعاهد والمؤسسات ، وكذلك التحقق من الروح التى تتقبل هذه الخدمات ، اذ أن الاعتراض والرفض لايمكن دراستهما فقط الا فى ضوء مثل هذه التسهيلات العلمية فقط . وهذه حجة للاحتفاظ بالمفهوم العام عن «تنقيح المذهب العملى» .

والواجب اما أن يساهم علم الاجتماع للشباب مساهمة مميزة فى النظرية الاجتماعية المنظمة ، أو يبنى على أسس من المفهوم العام لتلك النظرية التى تقتبس من التاريخ والتحليل النفسى ونظرية الحالة الاجتماعية من حيث أفكارها ومفهومها العام . أما فيما يختص ببعض المشكلات التى يعانى منها العالم الثالث فيجب أن تؤخذ فى الاعتبار الحقيقة القائلة بأنه فى المراحل الاقتصادية والثقافية الاولى للتطور نجد أن المراهقة كمانعرفها فى ثقافاتنا المتقدمة لم توجد بين أغلبية أعضاء المجتمع المنتجين بطريقة مباشرة ، فهؤلاء لم يقضوا فى التلمذة الصناعية غير مدة قصيرة كانت تعد فى العادة فترة رمزية . ويحدث الانتقال من عدم النضج الى مرحلة النضج «حالا» خلال فترة تجريبية أو مراسم ابتدائية . وبذا يكون «الميلاد الثانى» الذى يحول الانسان الى عضو مكتمل فى المجتمع ، وهذا يحدث فى الثقافات البدائية عادة فجاءة وبسرعة . وبالمقارنة بين مثل هذه الانتقالات الفاجئة والتقليدية مقارنة تفصل بوضوح حالة الشباب عن حالة المراهق أو الشخص الصغير السن يتضح أمامنا حالة يمكن تسميتها «البلوغ الناضج» لصغار السن فى المجتمعات الصناعية أو فى المجتمعات التالية لانتشار الصناعة . والآن وقد أصبحت التربية المستمرة حيوية ــ بمعنى استمرار اعادة تقدير المعرفة والحصول على الجديد منها ــ فانه ما من فرد ليس فى غير حاجة الى التطور والوصول الى نوع من الاستقرار التام مع نموه فى السن . وهكذا نجد أن الوضوح المميز بين عدم النضج والنضج قد أصبح مهزوزا . ان المجتمع الذى يعد نفسه للتغيير المستمر بسبب تطور تكنولوجى أو تنظيمى وتبدل القيم يقود مبدئيا ــ ووفقا لمقياس إخلاقى ومعيارى معقول ــ الى وجود فرد متغير يبحث عن شخصيته فى داخل اطار الشخصية (على المستوى الخاص) ، وذلك عن طريق التجديد المستمر ،وقد لايوجد فى مجتمع يتسم بالتغيير الدائم (والتدريجى) فارق ظاهر محدد بين الفئات المختلفة الأعمار . وذلك كما فى القطاع الاقتصادى تماما ، حيث كان نوع العمل يحدد بالمهارة ، فخبت الروح عندما أصبح العمل أكثر تخصصا وتداخلا ، وأصبح عنصر الزمن لايفيد فى أغراض تصنيف القوى الموجودة فى مراحل مختلفة من حياتنا . ان فكرة المعرفة المستمرة يجب أن يصاحبها من حيث المفهوم الاجتماعى السيكولوجى مثيلها فى مراحل البلوغ التى نمارسها على مدى الحياة كلما اكتسبنا شخصيات جديدة . ولهذا يجب أن تعبر نظرية الاجتماع عن هذا الاتجاه .

ان علم اجتماع الشباب هو دراسة متداخلة نظاميا وتنظيميا ، فمهمته هى

وصف وتوضيح أثر النظم الاجتماعية المعاصرة على الشباب من وجهتى النظر الاختلافية والتنظيمية . فاذا أردنا أن نضفى على مفهوم «المحاولة الشاملة لتحليل المجتمع» معنى أوسع من أجل أغراض علم اجتماع الشباب فانه يمكن دراسة الشباب كدور للاعتماد المتبادل للفئات العمرية والنظم وكذلك لدورة الحياة العائلية .

وقد تساعد المحاولة الشاملة لفهم المجتمع على شرح أساليب العلاقة بين الصغار والمجتمع حتى يمكن تطبيق هذا الاسلوب الفكرى كمبدأ عام لجميع أنواع العلاقات بين الصغار والمجتمع (مثل العلاقات فى العمل والعطلة ، والحياة العائلية ، والمدرسة ، والمحافظة على الشعائر الدينية ، الخ) . ومما يعتبر ذا أهمية خاصة من ناحية المنهج المدروس ، وعلى الأقل من وجهة نظر البحث ، نقطة البداية «للمجتمع الشامل» المتخصص ، وهذه يجب أن توسع بعد ذلك تدريجيا . ويجب أن تتطور أفرع علم اجتماع الشباب الخاصة من وجهة نظر النظم والمنظمات (العائلة والمدرسة والجيش الخ) ، ولاتنحصر فى حيز سلوك الحدث ، ولهذا أهمية خاصة فيما يتعلق بمشاكل الشباب فى العالم الثالث .

وعند هذه النقطة يبرز سؤال : أى المفاهيم التحليلية للمجتمع (مقتضيات للآراء العلمية الفعالة) يمكن استخدامها كمواضيع يمكن الرجوع اليها لتحديد موقف ، وماهى نفوذ السلوك الفعلى للشباب وأمانيه ، وماهى أنماط ذلك السلوك . على الباحث الاجتماعى للشباب أن يرسم طبقات اجتماعية عامة (مفاهيم تحليلية عن المجتمع) حتى ينمى علم اجتماع عاما منظما عن الشباب . وفى هذا المضمون يجب أن تحلل مشاكل الجماعات الاستراتيجية (العمال ، الشباب ، التلاميذ ، الطلبة ، فى أنحاء البلدان الصناعية أو فى بلدان العالم الثالث ، سواء فى الريف أو التكوينات الحضرية الخ) .

فان لم تتم محاولة تنظيمية لتحديد المفاهيم التحليلية للمجتمع فان علم اجتماع الشباب لن يقدر على تفادى الخضوع للتتابع السريع للمشاكل الملحة والالتجاء الى التعميمات المتسرعة . وبناء على ذلك فانى أتقدم بمجمل أساسى لمثل هذه المفاهيم التحليلية للمجتمع . ان تداخل العلاقة فيما بينها واحتمال تداخل أنشطتها الوظيفية أمر يجب أن يكون موضعا لمزيد من نظم نظرية لكل من المجتمع ، تكامل اتساعه ، ووحداته الفرعية ، وتكويناته ونظمه *.

ومن أجل أغراض البحث يمكن لهذه الأنواع التحليلية (بل يجب) أن «تترجم» الى أبعاد للمشكلة ، وتقود فى النهاية الى تعريفات فعالة ، قابلة للتغيير ، وتعتبر من المؤثرات .

ويبدو أنه من الضرورى لتحليل مشاكل الشباب اتباع اجراء متعدد الوجوه .

فأولا : يجب تحديد الآتى :

الأنواع المقومة (أ) أسلوب الانتاج ، توزيع الايرادات (التكوينات الخاصة بالأسلوب التكنولوجي والاقتصادى ، وحصص الأفراد والجماعات) . (ب) أنماط الفرص (التعليم الثانوى والعالى ، الخدمة الاجتماعية) ، التسهيلات البيئية والتربوية للتأمين الصحى والاجتماعى فى داخل اطار الاختيار . (ج) التمثيل السياسى واتخاذ القرارات (التكوينات مركزية ولا مركزية وأساليب المشاركة) .

ان الميزة الرئيسية للتكوين الطبقى وللمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية الكبيرة تعتمد كثيرا على تأثير هذه الأنواع .

الأنواع المنظمة : (أ) التقويم والترتيب (التحديدات والمعايير الخاصة بالتمييز الاجتماعى ، والهيبة والرغبة) . (ب) التكوينات القياسية (المعايير القانونية والخارجة عن نطاق القانون ، ضبط الاعتداء والشهوة ، المعايير العمومية وغير الرسمية والخاصة بالعلاقة بين الأشخاص) . (ج) تدبير المعلومات (اختيار وتحديد البرامج فى التعليم ، وطرق ابتكار المعلومات ، والحوافز ووسائل التعليم الجماعى والمنتشر ، وتشكيل وضبط الوسائل الجماعية) .

ان الانواع المقومة والمنظمة الخاصة بالآراء العلمية تحدد محيط الاشياء المتغيرة التابعة لها .

وتحتاج الخطوة التالية الى تخطيط الانواع «الرمزية» ، فهى تميز فى خطوط ثابتة مضمون العلاقات والتكوينات الاجتماعية ، وتحدد محيط الاشياء المتغيرة التابعة .

الأنواع الرمزية : (أ) العلاقات بالنسبة للأشياء والأشخاص (أنواع الأهداف، دوافع لتداخل الأنشطة ، الشعور بالوجود الجماعى ، العلاقة بالنسبة للأشياء وتبادلها ، مظهر سلوك المستهلك) . (ب) المثل التربوية ، رموز التعبير عن النفس (وسائل التعلم ، التعريف بواسطة الرموز والقيم ، الخلق الفنى ، النقد كوظيفة سيكولوجية واجتماعية) . (ج) مواجهة مشقات الحياة وحل المشاكل (الخيبة ، الاحتمال ، تنظيم التحصيل ، عقلية العمل ، وتوجيه المستقبل) .

ان دراسة الشباب يجب أن تبدأ أولا باختبار سلوك البالغين والأحداث واختبار أمانيهم الخ ، وذلك فى داخل اطار الأنواع الرمزية التابعة ، وكنماذج للسلوك الاجتماعى بوجه عام .

ثانيا : يجب أن يعرف الشباب بمدى ما للأنواع المقومة والمنظمة من تأثير مباشر عليه .

وزيادة على ذلك فان هذه النظرة العلمية تحدد وضع الشباب على أنه انتاج للمجتمع بتكويناته وتنظيماته الخ، ومايشمله من أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية

وثقافية . وتعرف حالة الترتيب الزمنى (الذى يعتبر الشباب واحدا منه) فى حدود المقتضيات والضغوط الراسخة فى داخل المجتمع ، فهى نتاج «النظام» ، الصراع (أو الشذوذ ، أو هما معا) . ان التوتر أو الثغرات المتعاقبة جيلا بعد جيل ليست نتائج أولية أو « طبيعية » مستقلة ، اذ أن دور الزمن ، مثل دور الجنس ، كلاهما خلقته ظروف اجتماعية سياسية ، رغم أن لهما مكونات بيولوجية . وتضفى العناصر الاقتصادية والتكنولوجية المؤسسة على الشباب شكلا يتناسب مع الأنواع المنظمة والأنواع الرمزية . ان الابتكارات التكنولوجية السريعة « الأجيال » التى لها انتاج فنى يجب أن تدرس من حيث تأثيرها على الأنماط المتغيرة ، ويجب أن يعد كلاهما من عوامل ازدياد توتر الجيل أو تغيره .

ان الخطوة الأخيرة ، الفاصلة فى التحليل ، هى أن تكون دراسة الشباب دراسة لمجموعة عوامل . وهذا يتطلب دراسة الخلفية الملقنة للشباب حسب عناصر المجتمع الرمزية ومن خلالها حسب العناصر المنظمة والمقومة .

ان سلوك وأمانى الشباب تؤثر على سلوك وأمانى المجتمع بوجه شامل . فالشباب يتصرف فى قدرات تكوين الرأى ونشر الأنماط . فالتغييرات فى أمانى المجتمع تؤثر فى انماط الفرص والمستويات التقويمية والمعيارية . ومع ذلك فللشباب ، تحت ظروف معينة ، تأثيرات مباشرة على العناصر المقومة والمنظمة ، فتحديات الشباب تحاول أن تختصر اجراءات تكوين الآراء والابتكارات الاجتماعية العامة .

والى جانب هذا فالبحث ضرورى للتفريق بين الدور الابتكارى والاثارى والمقوى الذى يؤديه الشباب . ونحن عادة نجمع الدورين الأخيرين معا ، ونعتبر الصغار « مجددين » فقط ، بدلا من أن نفطن الى أن النماذج والتخطيطات للابتكار فى السلوك السياسى والاقتصادى والاستهلاكى أو الجنسى لا تنبعث مع الصغار الذين (رغم انهم من أول من يقويها) يكونون هم المقتبسين الأوائل ويؤدون دورا خاصا فى المعرفة الاجتماعية العامة والمجالات المتشعبة .

لقد ابرزنا المشاكل التى تخص علم الاجتماع العام للشباب والتى يجب أن لا نخلطها بالدراسة المتخصصة — المشار اليها آنفا — فى العلاقة بين الصغار والتنظيمات الخاصة أو المؤسسات . وهكذا ، على سبيل المثال ، فان دراسة مواقف الصغار تجاه المدارس وأصحاب الأعمال وأماكن العمل ، ومنازل الطلبة ، والخدمة الاجتماعية ، وتنظيمات الشباب ، وكذلك الدراسات التى تشمل الروابط العائلية ، والعلاقات القائمة بين مجموعات مماثلة ، والاتصالات الجنسية ، ثم مواقفهم تجاه المؤسسات الدينية والسياسية والثقافية ، كل ذلك يتصل بمجالات اختصاص علم الاجتماع .

ويلغى الحد الفاصل بين هذه المجالات وبين علم الاجتماع العام للشباب عندما يدرس عدد من التأثيرات التأسيسية المختلفة عن طريق المقارنة والتحليل . وتستعمل الدراسات المتخصصة المتضمنة كأساس لنتائج مبنية على الوزن النسبى الذى يضفى

عوامل مثل الاشتراكية فى الشباب وتكوينات مجموعات الأحداث والتجميع والتغيير وأدوار العمل والنزاع على تلك الأدوار .

ان الخلفية الملقنة من علم الاجتماع للشباب الى تطور النظريات العامة لعلم الاجتماع لم تزل الى الآن غير كافية ، لأن نظرية علم الاجتماع للشباب كانت من ناحية مبنية لمدة طويلة على علم النفس أو الطب النفسى للشباب ، ولأن جزءا كبيرا من الخلفية الايضاحية للبحوث التى أجريت تضمنت من ناحية أخرى تجميع المعلومات عن مجالات السلوك والمواقف ، وقد يكون أحسن وصف لها هو أن تقرن ببساطة بكلمة الشباب (كقولنا مثلا : الشباب والقراءة ، الشباب والموسيقى ، الشباب والرياضة ، الخ) ، غير أن الدراسات التى من هذا النوع لاترقى الى اعتبارها فروعا من علم اجتماع للشباب ، وذلك لسبب بسيط ، هو أنها تعقد مقارنات بين سلوك ومواقف مجموعات مختلفة من الصغار (فى المدن وفى الريف وفى المدارس وفى المهن اليدوية) فى هذه المجالات أو ما شابهها . وقد مكث علم اجتماع الشباب طوال سنين عديدة مرتبطا بمضمون الفكرة البسيطة التى سبق شرحها ، مع التركيز شبه المطلق على انعقاد دراسات شاملة كالنموذج المشار اليه ، التى حولت بعد ذلك الى تقارير وطنية أو دولية .

أبعاد مفهوم ((الشباب))

ان تسمية « الشباب » تعبر عن طور من التطور الفردى من ناحية ، كما تطلق من ناحية اخرى على جماعة من المجتمع تحاول كيفما كان اشباع فترة معينة من العمر .

ان الحد الأدنى لعمر «الشباب» كجماعة اجتماعية يحدد دائما فى البحث العادى ببداية النضج الجنسى الذى يحدث بالطبع فى أعمال مختلفة . وحتى هذا التعريف لا يبدو مقنعا لأن الأطفال من سن ١١ سنة و ١٢ سنة مثلا قد يحتذون نموذج سلوك خاصا بالمراهقين ، وذلك بمرافقة الفتيات قبل بلوغهم النضج الجنسى . ولايمكن اعطاء تعريف محدد لمفهوم الشباب بمداول بيولوجى أو بتحديد قاطع بالسن ، بل يجب تحديده من ناحية بالنسبة لأنواع متكررة من السلوك عن طريق التجربة والاختبار (وتصل الى أبعاد تبدو قريبة) فى عمر محدد على وجه التقريب، ثم من ناحية بالنسبة لوجود الفرد فى حدود اجتماعية واقتصادية لايخضع لها الكبار .

ان تعريف الشباب من حيث الوضع يدل على أن الحد الأعلى الذى يتعلق بالانتقال الى المراهقة يجب أن يشار اليه بلفظ المراهق أو البالغ الصغير ، ويعرف الأخير بأنه وصل بالفعل الى مواقف لا يرقى اليها المراهقون . هذا الى جانب أن البالغ الصغير ، ولايزيد فى ذلك عن المراهقين ، لايتمتع بعد بوضع الشخص المكتمل سن البلوغ فى الوصول الى الحقوق الكاملة من الجنس والعائلة ورعاية البيت والوظيفة والسياسة . و «الشباب» تحت مفهوم «المراهق» و «البالغ الصغير»

هو فى هذا المضمون مفهوم ثابت . وهذه البديهيات تعقد الأمور ، لأنها تدل ، فى كل مجتمع يدرس ، على أن مفهوم «المراهق» و «البالغ الصغير» يجب معرفته بدقة من حيث صلته بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والشرعية ، وهذا يستلزم اجراءات قيمة حين يراد عمل مقارنات بين المجتمع والثقافة . وعلى أية حال فان هذه البديهيات لازمة من أجل خواص الأفراد المصقولة والنافعة اجتماعيا أو التجمعات النظرية Theoritical collectives التى يجب أن تعطى فيما بعد معلومات لها وزنها عن السلوك والآراء ، الخ .

والواقع أن التأكيد النظرى على أهلية هذا المدخل يثير أيضا فكرة السن فى المفهوم الشامل . وتعتبر التخطيطات الديموجرافية الاجتماعية ضرورية لتقرير مدى التوزيع والتحديد مثل سن زواج النشىء أو السن التى يتم فيها التدريب المهنى . وأى متغيرات أخرى تدخل على نظام التصنيف يجب أن تدرس مقدما حتى يمكن توزيعها حسب ترتيبها التاريخى .

ويجب اعتبار «الشباب» كالفياق الأساسى ، أو اعتباره جيلا معرضا لظروف عامة وخبرات نتيجة لمرور الزمن ونتيجة لأنشطة عامة خلاقة . على أنه يجب التركيز دائما على وحدات الأجيال ذات التكوين المختلف من حيث طبقات المجتمع والمضمون الاجتماعى والفكرى .

وأخيرا فان كلمة « الشباب » فى معناها اللغوى المعتاد والاجتماعى المتداول تميل الى حمل نبرة من التحدى الدينى والسياسى معا ، وكذلك تستعمل بمعنى واسع نوعا لتوحى برغبة ومقدرة على التجديد ، دون اهتمام كبير بالاعتبارات البيولوجية والتاريخية الصارمة . ان القيم التى يدعو لها المجتمع المستفيد والميسرة طبيا عن طريق وجود النظم الخيرية التى تقدمها الدولة قد شجعت الناس (وعلى الأخص النساء) على الاستمرار فى التعبد فى محراب الشباب على طول رحلة قد تمتد فتصل الى منتصف العمر بنتائج ثابتة لمواقف وأطماع فيما يختص بالجنس و «التقدم فى العمر» الى غير ذلك من أوجه الحياة الأخرى . وبهذا المعنى تستعمل كلمة « الشباب » بمفهوم قيمة تعبر فى المقام الأول عن يقظة فكرية متطلعة الى المستقبل ، الخ . واربما يكون من الأوضح أن نتكلم عن فيض الشباب بدلا من الشباب فى هذا المجال .

ان هذه المحاولات المختلفة حول المفهوم يجب أن تؤخذ على انها مجالاتمتداخلة باتفاق الآراء وملحوظة بمعنى أن الشباب ينظر اليه (أ) كظاهرة فى دورة حياة الفرد، (ب) كوضع غير كامل ، (د) كجيل مكون اجتماعيا (وحدة جيلية) ، (هـ) مفهوم قيمة مثالى (فيض الشباب) .

وقد كان للاتجاه من جانب المجتمع ككل الى تأكيد المحاولة (هـ) (مفهوم قيمة مثالى) ، فى حين يتمسك بالمحاولة الثالثة (جـ) وهى «وضع غير كامل» ، آثار عميقة لسياسة التحويل الاشتراكى ووسائل نقد « الشباب الثائر » ، وكذلك من أجل

اهدافه السياسية المثالية . وقد كان لزيادة التركيز أو مضاعفة الخصائص المميزة فى تطوير أساليب تمثيل الذات للشباب أهمية مماثلة من أجل نمو حالة وعى معينة، ومن هنا تولدت رغبة عارمة فى الالتجاء للحركة .

نظريات بديلة ومكملة فى علم اجتماع الشباب

نظرية الوحدة الانشائية للنشء

يرى س.ن. ايزنشتاد فى انشاء وتنظيم المجموعات المكونة حسب سن الشباب انه عبارة عن دائرة اتصالية فيما بين العائلة ودوائر المجتمع الأخرى الانشائية (السياسية والاقتصادية الخ) ، وأن الدائرة الاتصالية تصل بين منشآت مختلفة.

ويقرر ايزنشتاد أن هدف الأمانى المعلقة فى قطاع انشائى واحد لايمكن أن يشبع تماما فى حدود قطاع آخر ، فالدائرة الاتصالية يشبع بعضها بعضا على الأقل ، كما أنها تقود النشء نحو توقع أمانى جديدة من المنشآت التى بدأوا الآن الالتحاق بها . ولهذا فهو يعتقد أن « دائرة الاتصال » تؤدى دورا نحو الاستقرار الاجتماعى .

ولهذا نجد أن الجماعات المكونة حسب السن تحقق الى حد ما دور الأمانى الذى يتعلمه الطفل والمراهق فى المدرسة ، وتقود المراهق والبالغ الصغير نحو عالم ملىء بالنشاط المهنى والمسئولية العامة . ووفقا لرأى ايزنشتاد تكون مهمة «شباب» الجماعة المكونة حسب السن ــ «الدائرة الاتصالية» المعينة هى موضع اهتمامنا هنا ــ هى خلق توازن بين شخصية ذاتية موحدة الاهتمامات ومعبرة وبين العلاقات المساعدة . وتساعد هذه النظرية بالتأكيد على القاء الضوء على المجتمعات الأثنولوجية والزراعية وذات الطابع العسكرى ، وكذلك تلقى الضوء الى حد ما على منظمات الشباب التقليدية ، غير أن تأثيرها أقل على الثورات والقلاقل التى حدثت بين النشء فى امريكا واوربا خلال العقد الأخير . وليس لحركات الشباب المنشق أى من الخصائص والأغراض التى يصفها ايزنشتاد بمفهومه عن «الدائرة الاتصالية» . فاليوم يعترض « الشباب السياسى الجديد » وينفعل ضد عالم البالغين وضد مؤسساتهم ومنشآتهم بصفة عامة . وبذا يمكن القول بأنهم يرفضونها أكثر مما يرتبطون بها . وتأييدا لنظرية ايزنشتاد يمكن بالطبع الاشارة الى انه حتى الجماعات الثائرة فى حركات الطلاب لها مهمة خلق (مستترة على الأقل) ان لم تكن مهمة اتصالية ، فهى على أية حال دائرة « انتقالية » تشجع الجماعات الثائرة فى محيطها الطلبة على الانفصال عن بيئتهم التقليدية وتعطيهم شعورا معينا بالشخصية وتعدهم لأدوارهم (حتى ولو كانوا على اعتقاد غامض بها) المتعلقة بالتغييرات الانشائية وبالمشاركة الخ ، أو بمعنى آخر تعدهم لأدوار ذات صبغة سياسية . غير أن «دائرة انتقالية» من هذا النوع لاتفى بالغرض الذى يربطه ايزنشتاد نظريا «بالدائرة الاتصالية » ، الا وهو تثبيت النظام . والغرض ــ خاصة لدوافع متطرفة ــ ليس لتثبيت النظام ولكن لحله . ولكن نتيجة تفاعل المحاولات الجذرية (المتطرفة) التى

يقوم بها المصلح ازاء التغيير ومقاومة المنشآت سوف تعتبر تغيرا وتحولا فى النظام بصفة عامة . وقد سمح ايزنشتاد لنفسه بالقول بأنه توجد فى اى مجتمع حديث «ظروف تكوينية» تخلق أنواعا متباينة وتكوينات من السلوك المنحرف فى النشء ، وهو يميز بين أربعة أنواع من الانحرافات : (أ) مجموعات غير منظمة من الشباب المنحرف تنشأ فى مواقف « الاتصال الثقافى » ، (ب) مجموعات من الأحداث على درجات مختلفة من النظام والفوضى ، (جـ) تنظيمات شباب الحركات الثورية والأحزاب ، (د) حركات الشباب الثائر (فى الأصل حركات الشباب الألمانى فى مظهر من مظاهرها الأساسية) .

ويطبق على جميع أنواع هذه الانحرافات مفهوم موحد للتمرد . غير أننا نجد ان مفهوم القيادة الفاضلة ضد التكوينات الاستبدادية يضع خطا تحت (جـ) و (د) ، فى حين أن (أ) يشرح على أنه تقهقر لنقص أو فشل فى محاولة لاكتشاف الشخصية. أما عن (ب) فهو موجه ضد « الوسائل العادية لمجتمع لا ضد قيمه المطلقة » .

والواضح من هذا العرض المختصر أن محاولة ايزنشتاد مبنية على مفهوم لنظام ثابت للمجتمع تنبع منه انحرافات مختلفة .

أهمية مفهوم الجيل ومشاكله المتأصلة

من الممكن مضاهاة محاولة ايزنشتاد العملية بتلك التى قام بها هلموت شيلسكى المبنية على نظرية الجيل كجزء من مفهوم التخطيط للتغيير الاجتماعى .

وحتى يمكننا توضيح علاقة مفهوم الجيل بعلم اجتماع الشباب يجب علينا الرجوع الى حركة الشباب التى ظهرت فى ألمانيا فى بداية القرن والتنبيه الى القيم الخاصة المرتبطة بالشباب وسط الأقليات النشيطة فى الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٣٠ . ففى المنشور الذى أصدروه فى عام ١٩١٣ (وهو المنشور المعروف باسم Manifesto Vom Hoken Meissner كان أعضاء حركة هذا النشء أو «تحالف» هذا النشء ــ ومعظمهم فى ذلك العهد من ابناء الطبقة الموسرة المتوسطة ــ أول من اعترضوا جهارا ضد مجتمع منظم من البالغين ، وطالبوا بنموذج معين من الحياة يلبى حاجة الشباب، وتكاتف الشباب ليكون جماعة منفصلة فى المجتمع. ويمكننا أن نتفق عن يقين مع هلموت شيلسكى حين ينسب فى كتابه المهم الصادر تحت اسم « الجيل المرتاب » الى هذه الأقلية النشيطة ، التى ينظر اليها كجيل حركة الشباب (حوالى ١٩٠٠ ــ ١٩٣٠) ، مجموعة معينة من المواقف والخبرات التى أسهمت جزئيا فى تزكية استعمال مفهوم الجيل ، وخاصة أن المجموعة التى نحن بصددها نظرت الى نفسها بوضوح على أنها جيل . وفى الحالة التى سادت من ١٩٣٠ الى ١٩٤٥ ووصفها شيلسكى بأنها جيل « الشباب السياسى » كان هناك جماعة ذات خبرات ، ولكن وجود المواقف العامة كان يشوبه الشك ، لأن طبيعة العضوية الاجبارية فى « شباب هتلر» وماتلاها من أعمال مختلفة واتحادات عسكرية ، لم يكن فيها مايشابه اطلاقا

نوع تكوينات مجموعات الجيل المميزة للحركات التى حدثت من قبل . وفى حالة «انجيل المرتاب» فيما بعد الحرب ــ وهذا الاسم لايزال يطبقه على الشباب الألمانى حين ظهر كتابه فى عام ١٩٥٧ ــ كان من المستحيل الكلام عن المواقف العامة أو (باستثناء الفترة البطولية التى عقبت عام ١٩٥٤ مباشرة حين أصبح البلد خرابا) عن الخبرة المشتركة .

وفى الفترة مابين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ ــ وهى فترة كان وسط أوربا يعتبر فيها مركزا للبناء الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ــ تضاءلت الظروف التاريخية التى تحكم تطور الشباب ، الى أن صارت عددا من العوامل المحيطة الحاسمة ، وازدادت أهمية اختلاف التكوين الاجتماعى (أى الطبقى) الى درجة فقد عندها مفهوم الجيل كثيرا من ارتباطه الاجتماعى .

لقد نتج عن تمييز شيلسكى للفترات المتتالية (١٩٠٠/١٩٣٠ ، ١٩٣٠/١٩٤٥، ١٩٤٥ الى أن نشر كتابه) حقب أو « مراحل تاريخية » تعكس أجيالا (مثل « تعبير عن الأمانى الأساسية للشباب ») ، وتتسم محاولته هذه باستعماله الشخصى لعبارة « التكوين الحقبى الاجتماعى » . ومفهوم « حقب » عند شيلسكى هو فترات مميزة فى تاريخ الشباب .

ان الحوادث السياسية التاريخية التى حدثت فى المجتمع الألمانى المعاصر بالاضافة الى الدور النشيط جدا الذى أداه الشباب الألمانى فى تشكيلها قد نتج عنها انعكاس لمسار تشكيل السلوك الاجتماعى فى نماذج محددة بوضوح ــ عادة متطرفة جدا ــ من السلوك فى الأجيال الفردية التى يمكن عزاها رمزيا كمراحل فى التغيير التكوينى الشامل .

وتكشف الفقرة السابقة من التباين فى مفهومى « حقبة » و « جيل » . ومن وجهة نظر الكاتب الحالى يجب أن توصف الأجيال وتوضح تاريخيا من ناحية ولكن من ناحية أخرى من حيث علاقتهما المعاصرة من ضغط وتفاعل ازاء الأجيال الأصغر أو الأجيال الأقدم . وببساطة فان توكيد الاختلافات المتوالية ووضعها فى شكل متجاوز ليست بكافية لتحليل المعالم العامة فى تعبير جيلى اجتماعى مناسب. اذ يجب وضع تمييز واضح بين الحقبة كوحدة تاريخية والجيل كفياق أعظم له عديد من الخبرات المرتبطة بالمجموعات المعاصرة من مختلف الأعمار .

وقد اعتقد سيجريد بيرنفيلد أنه لدراسة الشباب كجيل يجب أن تبحث العلاقة مع فيالق من أعمار أخرى أيضا ، وان البحث فى النشء يجب أن يأخذ فى الاعتبار علاقته المؤثرة مع البالغين . ووفقا للنظرية التى تقدم بها فى رسالته العلمية بفينا (١) (ولو أنها ليست بالنص المستعمل هنا تماما) لايمكن عمل دراسة للنشء دون بحث توتر العلاقات التى تنشأ بين الأجيال الفردية وخبرتهم وشخصيتهم التعاونية وبين المجتمع ككل .

(١) S. Bernfeld, Uber den Begriff derJugend, Vienna, 1914/15 (Theses)

وأخيرا يجب أن يوجه النقد الى شيلسكى لاعتقاده فى ظاهرة كاملة أو حقبة من شباب مابعد الحرب دون تفرقة كافية بالنسبة لطبقات اجتماعية أو لبيئة اجتماعية. وبمعنى آخر فقد فشل فى تلبية المتطلبات الاخرى التى كونتها بالفعل محاولة بيرنفلد، وهى النظرية التى تنص على أن مفهوم الشباب يجب تفسيره دائما بالاشارة الى الطريقة الخاصة التى بها يصبح النشء جزءا مكملا فى المجتمع ككل ، أى (على حد التعبير الحديث) من وجهة نظرية مفهوم نظرية التحول الاشتراكى .

وقد كتب بيرنفلد يقول : « ان مفهوم علم الاجتماع عن الشباب هو التعبير العام عن القوانين التى بمقتضاها تكون هناك أشكال معينة لتوحيد النشء فى نظام اجتماعى وارتباط هذه الأشكال بهذا النظام» .

وهذا يعنى أن الطريقة التى بها يصل العمال الشباب الى مرحلة البلوغ بعد فترة من التدريب والنمو تختلف اختلافا ملحوظا عن تلك التى يكمل بها النشء الذى أتم دورة التعليم الثانوية المرحلة الانتقالية الى البلوغ . والفقرة التالية مقتبسة مما كتبه بيرنفلد حول الوضع فى عام ١٩١٩ :

« ان نسبة ضئيلة فقط من النشء بصورة عامة هى التى تصل الى المعاهد ، وهى القوى العقلية التى يصفها الأوربيون دواما فى كلمات طيبة بأنها ضرورية ومفيدة بوجه عام . ان مجال الدراسة الكامل مفتوح فقط أمام مجموعة ضئيلة من السكان. فالمدارس قد قسمت الى مراحل أولية ومتوسطة وعليا ، وتفتح المراحل الأولية أبوابها لجميع الناس، فى حين يقتصر المستويان المتوسط والعالى على طبقة خاصة» .

والطريق الذى تمنح فيه حالة البلوغ امكان الوصول الى التربية فى المدارس والتدريب يمثل أيضا تفرقة عميقة ضرورية من أجل تكوين الأجيال . وعلى أية حال يجب فسح المجال لهذه التفرقة دائما عند وضع نظرياتنا . وبناء عليه فانه يمكننى أن ألخص نقدى الموجه الى شيلسكى فيما يلى :

١ ـ أن المراحل الثلاث التى يتقدم بها شيلسكى على أنها أجيال هى فى الواقع حقب تاريخية : كانت بعض مقاييس الأجيال كتلك فى فترة حركة الشباب الألمانى فقط (ان كانت كذلك وقتئذ) تتم بالتضامن الضرورى بين المواقف والخبرات (وكذلك الى حد ما بالتعبير الذاتى الجماعى) . أما عن المرحلة التى دامت من ١٩٣٠ الى ١٩٤٥ فانه من الممكن الكلام عن الخبرة الجماعية (التى لم تكن بالاختيار الشخصى) لا عن المواقف الاجتماعية ، فى حين أنه فى « فترة ما بعد الحرب » لم يوجد على حد تعريف شيلسكى أى من الأنواع الجماعية .

٢ ـ وهناك سبب آخر للتنويه بتكوين الاجيال فيما يختص بالفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٣٠ ينحصر فى أن العلاقة مع مجتمع البالغين كانت الأقلية النشيطة من حركة الشباب الألمانى تنظر اليها كمشكلة ، وهذا واضح فى منشور هوهر ميسنر . وبناء

عليه فان بناء الأجيال يتم بواسطة علاقات المعارضة المتعددة والشاملة ، بما فى ذلك التوتر مع المجموعات المعاصرة .

٣ ـ ان مفهوم الجيل تعقده حقيقة أن التفاوت وعدم التكافؤ فى المجتمع والتكوين الطبقى « لشباب » المجموعة العليا وتكرار حدوث المعارضة السياسية والفكرية بين وحدات الأجيال لابد أن يعمل حسابها ، وهى تستلزم غالبا هذا التباين بالنسبة لجمهور الطلبة ، فقد صرح بأن الطلبة لا يزالون يكونون جزءا من المجتمع ككل ، ولذلك كان لزاما عليهم دائما أن يمثلوا التجمعات السياسية الشاملة فى المجتمع

نظرية ملاءمة التكوين والمضمون الاشتراكيين لنماذج سلوك النشء وآرائه

ان مفهوم وحدة جيل يعنى أنه فى داخل فيلق معين يحدد اعضاؤه بترتيب السن (كهؤلاء الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ سنة و ٣٠ سنة ، ولأفراده عدة خبرات مشتركة ، مثل الحروب ، والحروب المدنية ، واعلان الاستقلال ، والازدهار الاقتصادى ، ونشر التعليم ، وانتشار السيارات) توجد اختلافات وافية مبنية على أسس تكوينات اقتصادية وثقافية وسياسية لعائلات أصيلة ، والتدريب الدراسى والمهنى ، أو التوجيه الفكرى لمنظمات الشباب لخلق آراء متباينة أو حتى متعارضة وسط المجموعات المكونة للجماعة . وهناك دراسات كثيرة تدل بوضوح على أن نظرية عامة لنزاع جيل أو « وجود ثغرة فى جيل » ، كما أوضحتها مارجريت ميد التى تفترض وجود وحدة منفردة مغلقة من الآراء وفقا للتركيب الرأسى للسن، لا تستطيع شرح الأديان التى يمكن اثباتها بالبراهين وشرح المجموعات العقائدية والسياسية المتعاقبة على مر الأجيال (ومنها على سبيل المثال الجناح الأيمن المتطرف والأحرار واليساريون) المشروطة بدوام وجود الأسرة والمنظمات الخاصة والمعاهد التى تظهر نفسها على المستوى الأفقى المتدرج الهرمى للعمر ، وبناء عليه فان مثل هذه النظرية يجب رفضها لكونها غير قابلة للتطبيق .

وعلى ضوء الدراسات ــ التى قامت بها شارلوت بوهلر مع سيجريد بيرنفلد وبول ف . لازارسفيلد ــ قمت بخطوة للاسهام فى وضع علم اجتماع للشباب الأوربى فيما بعد الحرب ، وذلك باستنباط فكرة « ربط العادات اليومية المختلفة » التى يمارسها النشء « بالحقائق الاجتماعية والاقتصادية » للحصول على صورة شاملة مكونة وفقا لطبقات ومجموعات من السكان (النمساويين) .

وقد انحصرت فكرتى الاساسية فى أن النشء كان كمثله من الجماعات الأخرى خاضعا لمجموعة عوامل اجتماعية وفى حاجة الى محاولات تختلف عما تقدمه الفكرة الشاملة عن «جيل» . وقد افصحت مقارنة تفصيلية شملت العلاقات الأسرية وعادات شغل أوقات الفراغ والنوادى والأنشطة الثقافية والاهتمامات التربوية بين العمال الصغار والطلبة المتماثلين فى السن عن السلطات الفعالة والرادعة التى تطبقها مختلف النظم الأسرية والمدرسية والتربوية فى الطبقات الاجتماعية المختلفة . وقد

اتضح أيضا أن التباين ليس بين السلطات الفعالة والرادعة فحسب ، بل كان من الممكن أيضا تحديد نوعين من الاستقلال أو الانفصال عن التأثير العائلى والبيئى ، ففى حالة المتلمذين فى الصناعات تبدو سهولة ملاحظة الاستقلال العملى فى شغل أوقات فراغهم وعاداتهم الاستهلاكية المبنية على تساهل فى الرقابة ، ولكن أيضا مع قلة التشجيع على الثقافة من جانب الآباء . أما فى حالة الطلبة فالرقابة الأبوية أشد فاعلية ، ولكن يوجد أيضا استقلال شخصى أكبر ، والى حد ما استقلال فكرى بدوافع ثقافية أكثر تشددا من جانب الآباء والمدارس .

وقد وجدنا أن مستوى الأنشطة المتفتحة والمنتجة فى نطاق الرمز الثقافى يعتمد على البيئة التى ينتمى اليها الأفراد . أن كلا من اهتمامات وأنشطة البالغين داخل المدرسة وخارجها ترجع جذورها الى مفهوم مركب عريضلخصائص أبوية : اللغة ، والتربية ، والمهنة ، والسعى المحلى فى بلوغ الأمل ، والدخل ، وعادات الاستهلاك ، وماشابه ذلك . وهذه هى خلفية اختيار المستقبل المدرسى والنظراء ، رغم أن كلا من المدرسة والأصدقاء لهم أهمية متزايدة تطغى فى بعض وجوهها على تأثير الآباء على البالغين كلما كبرت سنهم. ونجد فى مضمون هذه الشروط العامة وحدها أن «ثقافة الشباب الفرعية » التى يغذيها جمهور البيئة أو تطبق على « دوائر اجتماعية » معينة يمكن أن تؤثر على سلوك وآراء النشء . وقد كان من أهم نتائج دراساتها عن الأنشطة الثقافية للنشء التحقق من أن التأثيرات البيئية المشار اليها آنفا لاتقف عند تقرير الوضع فى وقت معروف بل تتعداه أيضا الى التطور فى المستقبل .

وقد تمكنا من التعرف على بعض نماذج أساسية معينة تحدث بصفة منتظمة فى مرحلة التربية الاجتماعية للمراهقين ، كما عرفنا أن التخطيط والرقابة وأهداف الوالدين فى الأسرة والمدرسة لا تحدد مستوى معينا فحسب ، ولكنها تؤثر أيضا فى التغيرات التصاعدية والتنازلية التى تطرأ على المستوى بمرور الوقت . وقد وجد أيضا على سبيل المثال أن التقدم الاجتماعى والتربوى يستلزم « تحديد دور » للطفل والبالغ . وقد أوصلنا ذلك الى أن ندرس ، على أساس كل من البواعث النظرية والتجريبية ، خطة المعيشة التى يرسمها الوالدان والمدرسة والنظراء للبالغين . وكان ذلك مجرد خطوة قصيرة نحو مسألة الأدوار التى يختارها النشء لنفسه ، وكذلك كيف ومتى يختارها . وامتدادا للدراسات والنتائج الخاصة بمختلف أنواع النمو الاجتماعى والثقافى فى فترة المراهقة اتضح أنه من المرغوب فيه بحث مختلف النماذج المرتقبة ، على أن تكون بداية للتقدم من الملاحظة حتى الاخراج الى حيز الوجود . ولم تكن المؤثرات على الأفراد هى وحدها التى أظهرت تطلب الاهتمام ، بل كانت هناك الى جانبها مؤثرات على أهداف الحياة التى ينميها الأفراد أنفسهم . وتعتبر الأسرة بالنسبة للنشء (الذى تتفاوت درجة احتمالات وجوده فى طبقات اجتماعية مختلفة ، بمعنى أنه كلما ارتفعت الطبقة كان الاحتمال أكبر) نقطة تحول للمصادر المتاحة ، باعتبار أن الأسرة من الخصائص المميزة للطبقة ، ولهذا فهى أيضا نقطة البداية للتحرك التربوى والاجتماعى .

وعلى أية حال فان دور الأسرة فى نقل قيم الرمز الثقافى يجب تقديره بحرص زائد . فقد وجد مثلا أن اختيار مسلك مدرسى معين يعتمد لمدى واسع على خلفية الأسرة ، ولكن حيث يكون الانخراط فى سلك الدراسات الأكثر تقدما ممكنا للنشء من الطبقات الدنيا فان النظام المدرسى يصبح دستور الدليل الاجتماعى للتطور التربوى والثقافى .

وانه لمن الصعب جدا، من الزاوية النظرية والمنهجية فى علم الاجتماع الحديث، التمييز بين تأثير الوسط العائلى من ناحية وبين تأثير المدرسة من ناحية أخرى . غير أنه يمكن وضع قياس يصل الى الدرجة التى تسود فيها القيادة والتربية غير المباشرة فى الطبقات الاجتماعية العليا ، ومن المحتمل أن يكون هذا لازما لتطوير عادة تقدير النفس المستقلة . ان مسحا لمختلف حقول تجاربنا يوحى بأن الشعور بالأمان الذى يجعل الانسان يعتمد على نفسه ويقاوم الضغوط من أجل الاصلاح ينمو من خليط من الرقابة الحكيمة من ناحية ويقظة وعناية أقوى (فيها مزيد من العاطفة) فى معنى القيادة غير المباشرة من ناحية أخرى . وقد يبدو من التناقض (على سبيل المثال) أن البالغين القادمين من بيئات فيها مشاركة اجتماعية من هذا النوع يمكنهم أن يظهروا أسلوبا عقليا وتقديرا متفائلا لأمانيهم فى الحياة بطريقة نقدية أكثر من هؤلاء الذين تكون مشاركتهم الاجتماعية أقل تمهيدا وأكثر مباشرة ، ونعنى بذلك النشء فى الأسر التى تكون فيها كفاءة الآباء قليلة من الوجهة المهنية .

ان اختلاف المشاركة الاجتماعية فى الطبقة الوسطى عنها فى الطبقة الدنيا يتميز فيما يتميز به من أشياء أخرى باستعداد أكبر لنقد الفكرة التى تقول بأن للفرد وضعا خاصا فى الحياة مرسوما له بالفعل . ان مزج الأهداف والتأثير غير المباشر الموجود فى بيئة الطبقات الوسطى والعليا من المحتمل أن يؤثر على نماذج الأمانى بطريقتين . فنجد من ناحية أن الفرد يتبنى مسلكا واعيا وسلسا نحو مجال واسع لامكانيات المستقبل ، ومن ناحية أخرى يكون وعيه بهذه الأمانى أقوى بكثير منه تحت ظروف المشاركة الاجتماعية التى تفتقر الى الأهداف والأساليب غير المباشرة ، وذلك لثقته الكبرى بنفسه واعتقاده بأنه يمكن قطعا التأثير على مستقبله الخاص عن طريق موارده الخاصة .

وقد أيدت الدراسات التى أجريت مؤخرا فى علم الاجتماع السياسى بشدة أهمية تحليل النشء فى المفهوم الاجتماعى لتنظيم الطبقات والمراتب ، أى المشاركة الاجتماعية المتباينة . ولم يكن تأييد حركة مايو فى باريس عام ١٩٦٨ قد تقرر قطعا بالسن فقط ، بل كذلك بالتعليم الى حد كبير . وقد حدث خلال حوادث مايو أن تطورت نماذج العلاقات التى يمكن التعرف عليها الآن فى جميع بلدان أوربا الغربية ، اذ اتضح أن تأييد تحركات الاحتجاج ذات الطابع الطلابى بلغ مدى قوته فى وسط النشء الذى نال قسطا من التعليم العالى . ويوضح هذا الدليل أنه من الخطأ الكلام عن الشباب «الساخط» بصفة عامة ، مثلما خرج التعميم الذى نادى «بجيل الشك» عن الحد فأربك مصادر التعليم الاجتماعى ، فى حين تمكن علم اجتماع الشباب المبسط

الذى صدر فى العقد السادس من هذا القرن من تعميم نتائجه بسهولة أكبر تشمل نطاقا أبعد من الجمهور الذى من أجله وضع هذا العلم . غير أنه من الواضح اليوم أن الحال لم يعد كما كان . وزيادة على ذلك فان المعلومات والنظريات التى ترى اليوم أن التحركات والمواقف الثورية المجـددة تعتمد على التعليم تؤيد نتائج الدراسـات السابقة على مجموعات المراهقين المتميزة واستقلالهم الأكبر وتحررهم المحتمل . كما تؤيد أيضا الافتراض بأنه فى الحضارة العلمية والتكنولوجية يمكن أن يثبت الاتجـاه نحو التجديد والثورة بخاصة نجاحه حتى بدون الاعتماد على تأييد الأغلبية مادامت له جذور بين الصفوة المثقفة .

ان الدراسة التى كتب عن نتائجها ماكس كازى تتيح عمل مقارنة بين الاتجاهات السياسية ونماذج سلوك الطلبة والمراهقين والشعب بأكمله فى جمهورية ألمانيا الاتحادية. فهى تكشف عن أن المواقف السياسية للطلاب تختلف كثيرا عن تلك الخاصة بالمراهقين الآخرين ، وهى حقا أكثر بكثير من مواقف الفئة الأخيرة واختلافها عن تلك التى تخص الجمهور بوجه عام .

ان الأبحاث والأساليب الخاصة بعدد كبير من الدراسات التجريبية التى قام بها مارتن ليبست وكينث كينستون فى الولايات المتحـدة ، والتى لايمكننا فحصـها بالتفصيل فى هذا المجال ، تؤكد النظرية القائلة بأن درجة الاستقلالية تختلف مع مستوى المزايا الاجتماعية ، فنجد مثلا أن الافكار المتطرفة (وفقا لكينستون) ستكون الأقوى ، حيث هيبة الجامعة هى الأعلى ، والحرية التى يتمتع بها طلابها عظيمة ، كما أن قواعد الانتظام بها يقوم على اختيار دقيق . وحدث فى الولايات المتحدة أن وجهت أعنف الحملات ضد تلك الكليات التى اعتبرت مقصرة فى كبح جماح طلابها .

وينحدر الطلبة المتطرفون لدرجة متفاوتة من أسر تعمل فى الصفوف الامامية من الخدمة المدنية والادارة الصناعية والمهن الحرة الخ ، وتبعا لقول كينستون وجد فى أمريكا أن «أولياء أمور الطلبة المتطرفين لهم نشاط سياسى، ولديهم ميول يسارية». ففى الولايات المتحدة على الأقل يجب أن ينظر الى التطرف على أنه اعتراض موجه ضد أولياء الأمور ، أكثر من كونه تصعيدا للتقاليد السياسية لبيت العائلة على مستوى أكثر تطرفا . ويكمن الخلاف بين أولياء الأمور فى الأوساط التعليمية والاجتماعية العليا وبين أولادهم ، ان الأولاد يرغبون فعلا فى أن يحيوا وفق قيم يؤيدها الآباء فكريا وعاطفيا ، ولكن دون العمل بها .

ويؤكد كينستون الحقيقة القائلة بأن ثورة الطلاب فى الولايات المتحـدة تمثل تحديا لكل من النظرية الاجتماعية البورجوازية والماركسية . وكلما أصبح الكفاح من أجل الرقابة على الظروف المادية والاقتصـادية أقل أهمية ـ على الأقل بالنسـبة للمجموعات الكبيرة من السكان فى المجتمعات التى تم تصنيعها تصنيعا عاليا ـ فان العلاقة الاجتماعية للعوامل المادية اللازمة لشرح البواعث والحركات تميل الى النقصان. وبازدياد مستوى التعليم والوعى بالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية نجد أن الباعث

على الحركة ينتقل من محيط التجربة الاقتصادى البحت الى ادراك مشاكل العدل والمساواة وتقويمها . وقد اتصفت الاعتبارات الأدبية بمزيد من الاستقلالية أكثر مما كانت عليه فى الماضى حينما بدت متصلة اتصالا مباشرا بالعوامل الاقتصادية .

الشباب ((كمجموعة منحرفة اجتماعيا))

وبوضع افتراض آخر ، هو فكرة الانحراف الاجتماعى ، توصل دافيد ماتزا الى تعريف عن الشباب ، فقد أجرى تمييزا بين النشء المطيع للغاية ، وهم الذين يصفهم بأنهم «حريصون» نتيجة طاعتهم الدقيقة، وبين النشء ذى«الطموح الحماسى»، وهؤلاء أيضا مطيعون ، ولكنهم ينزوون على هيئة زمرة ومجموعات غير رسمية كوقاية ضد الطاعة التامة والعمياء من النوع القائم فى المجموعة الاولى . ويمضى ماتزا يصف نوعا ثالثا من الشباب الثائر ، ويقسمه الى ثلاث مجموعات فرعية : (أ) الجانح (من الأحداث) . (ب) البوهيمى . (ج) المتطرف . وبمقارنة الجنوح والانحراف الثائر يضع ماتزا القاعدة العامة لثقافة فرعية لها تكوين متشابه فى حالة النوعين كليهما .

وماتزا ، على عكس ايزنشتاد ، لايأخذ بأسلوب له اكتفاء ذاتى كنقطة بداية ، ولكنه يبنى تحليله على الدوافع وأهداف سلوك البالغين وصغار المراهقين . انه يعرف الشباب بأنه فترة الحياة التى فيها يصل احتمال الثورة أقصى مداه .

وهو يرى ان التطرف صفة للنشء عندما يصل الى قمة السلم التعليمى تواقا الى المراكز المرموقة . وينتج عن ذلك النموذج الأصلى لغير المطيع . ولاتجد القوى الثورية الكامنة مخرجا عن طريق الجريمة ، بل فى خليط من المثالية والتهكم على هيئة «عمل سياسى غير مألوف» . والتطرف يخالف وجهة نظر النشء البوهيمى الذى يعتقد فى عبقرية الفرد ويحققها فى قوالب شاذة من «حب الظهور» ، والنتيجة نوع من العزلة الرهبانية (فريدريش هير أيضا يذكر ذلك عن «الرهبان المصريين») .

وفى خلال السنوات الأخيرة الماضية أجرى عدد لايستهان به من الدراسات ، أخصها تلك التى تناولت أصحاب الآراء المتطرفة . وقد قادت هذه الدراسات ماتزا الى مزيد من تطوير لأبحاثه ، فسجل أن جان بلوك يميز بين الثوريين والمنشقين وأن س.م. ليبست يتكلم عن المتطرفين والمتنكرين .

أما مشكلة الجنوح (جنوح الاحداث) فلم تدرج ضمن هذه الأبحاث ، كما حدث أيضا مع زعماء القوة السوداء من الطلبة **Black Power**، حيث أن الدارسين لم ينحصر اهتمامهم بالثورة والتغيير المتطرف أو الرفض السلبى للحكم بقدر ما اهتموا بتحسين موقف صغار المراهقين .

ان الشباب الأبيض يبغى الحفاظ على المجتمع التقليدى ، وهم يعتقدون أن تعهداته تنتزعها الحركات التحررية ، وهو وحدة الجيل الأساسية فى أمريكا ، ثم هو بعد قد اصطدم بوحدة عظمى أخرى مكونة من هؤلاء الذين يريدون تغيير المجتمع التقليدى بدرجة تسمح لهم بالدخول اليه لأول مرة ، وهم يشتملون على أغلبية

الشباب السود . ويتضح أنه ما من استفتاء أو دراسات يطلع عليها المرء الا جوبه بأن ثلاثة أرباع الشباب السود الحاقدين لايغيظهم النظام بقدر مايغيظهم فشلهم فى الدخول فيه .

ولهذا فان الأهمية النظرية والعملية للتعريف بقادة الرأى والثوريين واضحة . ورغم أن المضمون الاجتماعى للانقلاب الثورى (والكليات الكبيرة والمتحررة التى تمتلك أحدث المعدات تضمنت نسبة عالية من المتطرفين) قد وضعت له خطط على نحو واضح نسبيا فهناك رأيان عن المتطرفين قد وضعا مؤخرا موضع التساؤل الجدى على أساس القيام بمزيد من الأبحاث .

والبيانات الحديثة (التى نسجلها دون التمكن من فحصها فحصا منهجيا) تقوض الافتراضات حول التفوق العلمى للمتطرفين ، وكذلك عن صحتهم النفسية . وقد تولد انطباع دور التفوق العلمى من الدراسات التى تستعمل نسبا من المستويات المحصلة ذاتيا ، وكانت نظرية «الصحة الأفضل أو المستوية» مبنية فى أغلبيتها على اجراءات السلطة والجزمية ، وهى مقاييس لم يكن للمتطرفين فيها نصيب كبير .

وانه لمن السخرية بمكان ، كما بين جزء من بحث أجرى مؤخرا ، أن المتطرفين المحاربين (عند مقارنتهم بالمجموعات الموضوعة تحت الرقابة) كانوا مهتزين نفسيا للغاية ، وعلى قدر كبير من قلة الفاعلية ، ويكفلهم مكتب حكومى .

وكما يلاحظ ليبست نجد أنه حتى دراسة معارضة السلطة والتحرر من جانب المتطرفين تصبح فى غاية الصعوبة :

«ان أفكارهم (أفكار المتطرفين) ، أكثر من مشاعرهم الحقيقية ، تملى الاجابات، ذلك أن اليساريين الذين اظهروا تعصبا ولمسات من سلوك التسلط عند التطبيق قد يستخدمون من حيث المبدأ صوتهم أو أقلامهم للقيم المتحررة » .

ويجب أن يكون السياسيون فى ساحتهم ، والطلبة الثوريون على وعى كبير بوسائل الاختبارات ، كما يجب على بعضهم ، وخاصة هؤلاء الذين يتخرجون من كليات الفنون والعلوم الاجتماعية والسياسية ، أن يكونوا مزودين الى أبعد مدى بما يكفل لهم الاجابة استراتيجيا و «سياسيا» على الاستفتاءات ، وكذلك مواجهة عمق الاستجوابات .

ويبقى نقد واحد أخير ولكنه ذو أهمية قصوى ، ويخص نوعا نمطيا من الأبحاث المنتشرة حول الثوريين . واغلب الأبحاث التى من هذا النوع تستبعد نظرية أوديب فيما يختص برفض الأب ، وذلك لأن الظن ينص على أن الثوريين ينحدرون غالبا من عائلات متحررة ، ويطبقون أفكار وأحلام أولياء أمورهم الذين يعتبرون «فقط» متطرفين فكريا ومنشقين دون أن يصبحوا أفرادا نشيطين سياسيا وطبيعيا .

وهذا الظن الذى يسانده ك. كينستون وغيره لايعترف بما يكفى بنظرية فرويد التى تفسح المجال لاستمرار وجود الأب وتقليده مع رفضه (حتى فى عنف) . وزيادة

على ذلك فان رفض الأب يكون ظهوره بوضوح أكثر احتمالا اذا كان تدريب الأب له (وكذلك الأم) لمرحلة الطفولة متساهلا ومتحررا .

ولسوء الحظ لايوجد لدينا معلومات عن ذلك من خلال الأبحاث الأوربية ، الا أن عددا كافيا من الملاحظات يدعو الى الظن بأن الاعتراض والنشاط المنشق لايمكن شرحه دون أخذ رفض الأب في الاعتبار . ان الثورة لتحطيم النظام يجب اعتبارها أيضا رفضا موجها بدرجات متفاوتة ضد أشخاص لهم صفة الأب مثل المدرسين والأساتذة وغيرهم من أصحاب «السلطة» . ولهذا يجب علينا أن نتوخى الحرص بخصوص تعميم الظن لاستمرار الأسرة فيما يتعلق بالمتطرفين كما ينادى بذلك ك . كينستون وغيره من المؤلفين الامريكيين .

ان جذور نظريات الانحراف متعمقة في الافتراض الضمني لمجتمعات ثابتة التكوين حتى لو عدلت نظرية ايزنشتاد الخاصة بالنظم الثابتة ، فالتغيير غير معترف به بما فيه الكفاية كعنصر للمجتمع نفسه . وبناء عليه فان الرغبة فيه تفسر بسهولة بأنها سلوك من منشقين . وبدلا من وضع تكوين شامل وثابت للقيم والمستويات التى منها يحدث الانحراف يجب علينا : (أ) أن نفكر في نظام يكون اطارا ثابتا لعمليات التأثير والمشاركة في الانشطة الاجتماعية . (ب) وأن نعتبر هذا النظام حالة للتغيير المستمر .

مشاركة الشباب في عملية المشاركة في النشاط الاجتماعي لنظام متغير

تتخذ دراستنا في هذا المجال وجهتين ، فمن ناحية ندخل في اعتبارنا الأفراد ومشاركتهم الاجتماعية وماكسبوا ويكتسبون من قيم والمسالك الذى عن طريقه تتم تلك العملية . ومن ناحية أخرى ندرس التكوين الاجتماعى الذى يعطى أمانى أو «فرصا» واضحة نوعا ما في مجالات العمل والتعليم وأوقات الفراغ ومجالات الثقافة العامة .

ان المشاركة الاجتماعية مسلك من التعلم وتحقيق الذات الذى من خلاله تكتسب الدوافع والآمال والأمانى التى يقدمها المجتمع بمختلف تكويناته ونظمه ، ولهذا فان هذه الفرص التى يقدمها المجتمع يمكن اقتناصها بفضل ما للفرد من امكانيات وقدرات أخرى .

اذن فالأمانى المكتسبة من ناحية والفرص المتاحة عن طريق التكوين الاجتماعى من ناحية أخرى تخلق التوتر الذى يجب أن ندخل فيه الآن مشكلة المجموعات حسب السن والأجيال .

ثم ان مستويات السلوك والأمانى التى تصل للأفراد عن طريق المشاركة الاجتماعية تمكنهم من التعرف على الفرص واقتناصها بدرجات متباينة .

وتخلق الفرص الاجتماعية تحديات المواقف ، غير أن مكونات الشخصية التى

بنيت منذ الطفولة لم تعد كافية لمواجهة هذه التحديات ، فعوامل الشخصية يجب اكتسابها لهذا الغرض كرد فعل لتحديات المواقف ، وتبنى على أساس الخبرات البيئية المباشرة ، وتستعمل لكسب مزيد من السيادة الفعالة على الوجود المتطلب ، نتيجة للتغيرات الاجتماعية .

ان اهمية المشاركة الاجتماعية التى تخلقها الصلات القريبة فى محيط العائلة والتى يمكن شرحها بأنها عمق سيكولوجى تقل بوضوح اذا قورنت بردود الفعل «لتحديات المواقف» المكتسبة خلال عمليات قصيرة المدى ، وبذا يفقد الشكل الأول للمشاركة الاجتماعية اهميته الفعلية ، وخلال التغيير الاجتماعى السريع (مع ملاحظة أن هذه التغييرات غير مرضية تماما) لم تعد مكونات ومجالات أو طبقات الشخصية المتكونة فى الطفولة والبلوغ وسن الشباب على أساس انها مناهج اخلاقية تقليدية ونماذج للسلوك كافية لتمكين الفرد من انتهاز واكتشاف الفرص التى يتيحها له المجتمع أو قوانينه فى المجالات المهنية والتعليمية وغيرها من المجالات الاخرى .

ونتيجة لذلك فان دورة رد الفعل بين الشخصية والأمانى الاجتماعية تقصر الى درجة كبيرة . ان الدورة المغذية تصبح أقصر . ولهذا فان تقليل المسافة بين الأفراد وبين التكوينات الاجتماعية (أو الفرص التى تتيحها الأخيرة لتلبية الاحتياجات) ، وتضييق الثغرة الاجتماعية السيكولوجية ، تساعد ايضا على القضاء على تأخر الوقت .

وبناء عليه نجد أنه فى فترات التغيير الاجتماعى السريع والشامل تقلل امكانية التطبيق وبالتالى قوة نماذج السلوك المكتسبة ، وبذا تصبح العمليات والنظم الآلية الخاصة بالتجاوب المباشر مع المواقف المتغيرة أكثر اهمية وأكثر قوة .

وخلال هذه الفترات الانتقالية تقدر أعمال الأفراد عن طريق نظم القيم الذاتية والميزات الشخصية التقليدية بدرجة أقل مما يحدث عن طريق أكثر فاعلية وتكرارا، هو طريق تحديات المواقف مع الفرص التى تتيحها .

وهناك أيضا قلة من المعايير الاجتماعية المعترف بها، الخاصة بتحديات المواقف هذه ، وذلك لأن ارتباطها بالتقاليد غير وثيق . ان تقدير هذه الفرص والتحديات الخاصة بالمواقف وقبولها ورفضها وكذلك نقدها مرتبطة الى مدى محدود بعوامل اجتماعية ، ففى الفترات السريعة للتغيير الاجتماعى تكون مجموعات حسب السن من المراهقين واعية لمدى التوتر بين التقاليد وامكانيات المواقف ، أى بين القيم الذاتية ونماذج النوع والرمز وبين الدوافع التى تصل اليهم ، وكأنما انظمة المستوى تأتى مباشرة من التكوين الاجتماعى (المتغير بسرعة) .

ان ادراك هذه الضغوط بين ، وهو عامل جديد يزيد من اضعاف تأثير نماذج السلوك المكتسبة وأحكام القيم الذاتية .

ان تشعب الطرق الذى حدث بين المشاركة الاجتماعية عن طريق الأسرة

والمدرسة من ناحية وبين التطور الاجتماعى الشامل من ناحية اخرى قد خلق مستوى عاليا من التزعزع ، ونشر بين المراهقين والبالغين الصغار السن نوعا معينا من الانفتاح . ان النظام الاجتماعى الجديد هو نتيجة تغيير الأوضاع المهنية الأنشطة المشاركة الاجتماعية الأساسية من أنظمة « تقليدية » الى تنظيمات جديدة ووسائل نشر . وهذا الاتجاه الجديد سيمارس حتما من الناحيتين كفجوة فى جيل أو صدع بين اجيال . ونواجه بتباين كائن فى المجتمع وفى قدرة هذا المجتمع المتغيرة من أجل المشاركة الاجتماعية . وينعكس هذا التباين بالطبع فى فجوة فى جيل ، وهى ان أعطيت مجموعة ظروف مواتية يمكن أن تصبح صلدة ، فتكون نزاع جيل

وهنا يبرز الموقف المنطقى الذى يمكن فيه مناقشة فكرة مارجريت ميد الخاصة بالثقافة السبقية «التى فيها يتعلم الكبار أيضا من اطفالهم» ، اذ أن ميد تجد أن عكس مثل هذا الاتجاه للمشاركة الاجتماعية يخلق توترا ، وفى رأيها أن الخطوة الأولى لجعل هذا مقبولا هى تحليل الحقائق الجديدة وتقبلها :

« حالما ترسخ حقيقة فجوة فى جيل لها ذيوع عالمى ، ولم يسبق لها مثيل فى اذهان كل من الصغار والكبار ، فانه يسهل انشاء الاتصال مرة أخرى» ، أما فى الثقافات ذات الطابع اللاحق ، ما دامت حدثت فى مجتمعات زراعية وحرفية ، فان التغيير يحدد فى قالب تقاليد يضعها الكبار للصغار . ووفقا لما تقوله ميد « يحاول الكبار فى مجتمعنا أيضا تعقيد عناصر هذا النوع الثقافى ، ويكون ذلك مثلا بمحاولة فهم الصغار بالاستشهاد بمرحلة شبابهم الشخصى » .

وترى مارجيت ميد فى الثقافة ذات الطابع المشترك أنها نظام فيه يعتبر الكبار والصغار أنه من «الطبيعى» أن يختلف سلوك كل جيل عن مثيله فى الجيل السابق. ولهذا فالأطفال والبالغون يتعلمون ممن يكبرهم . وفى الثقافات السبقية والمعاصرة فان الكبار لا يعرفون ما يعرفه أطفالهم .

« فى الماضى كان بعض الكبار يعرفون دائما أكثر من كل الأطفال ، وذلك بحكم خبرتهم ، حيث أنهم نشأوا فى ظل نظام ثقافى . اما اليوم فلا وجود لهم . فلا يوجد كبار لهم من المعرفة مثل ما لهؤلاء الذين نشأوا خلال العشرين عاما الأخيرة . فالكبار منفصلون عنهم بحكم انهم يعتبرون كذلك جيلا غريبا معزولا . ولم يوجد قط جيل قد عرف وخبر واندمج فى مثل هذه التغييرات السريعة ، وشاهد مصادر القوة ، ووسائل المواصلات ، وتعريف الانسانية ، وحدود كشف عالمهم ، وحقائق مطلقة عن عالم معروف ومحدود ، والحتمية الأساسية للحياة والموت ، جميع هذه التغييرات أمام اعينهم ، فهم يعرفون عن التغييرات أكثر مما كان يعرفه اى جيل ، ولهذا يقفون عاليا معارضين ومتباعدين للغاية عن الصغار الذين اضطروا بحكم حتمية طبيعة موقفهم الى رفض ماضى من يكبرهم . وعلينا ان نفطن الى أنه ما من جيل آخر سيمر بالخبرة التى مارسناها نحن ، وفى هذا المعنى نفسه يجب أن نعلم أنه لن يكون لنا خلف ، كما أنه لن يكون لأطفالنا سلف » .

وهنا يبدو من المستحيل تحليل موقف ميد بالتفصيل . فقد تقدمنـا به حتى يمكننا تأكيـد ما نرجوه بهـذا البحث ، الا وهـو أن السـلوك ، فى ظروف التغيير التكنولوجى التنظيمى والاجتماعى الاقتصادى المفاجىء والمستمر ، لا يمكن عموما وعلى نحو مشترك الاعتماد عليـه أو تثبيت أسسـه على قيم ومستويات مشكلة بتكوينات حقبية سالفة .

ويمكن استعمال رأى مارجريت ميد لتوضيح كيف انه فى حالات استهلاك البضائع ، وعلى الأخص التكنولوجى منها (فان المستهلك تؤثر عليه عاداته ، وذوقه الترفيهى ، واظهاره للذات ، وعاداته الجنسية ، وتصوراته المعينة عن العلاقات الشخصيةالذاتية للصداقة)، نجد انه علىالصغار أن يعتمدوا على استنباط معنوياتهم الذاتية ، وقد يصبحون لعدة اعتبارات من محدثى المشاركة الاجتماعية لمن يكبرهم ولأولياء أمورهم . فعلاقاتهم الوثيقة بوسائل الاعلام والوسط الاجتماعى تهيئهم لأن يصبحوا قادة رأى ، وتعكس اتجاه المشاركة الاجتماعية فيما تسميه ميـد بالثقافة ذات الطابع اللاحق . غير أن هذا لا يتعرض لصعوبة كبح جماح بعض قواعد « الأنا العليا» التى لاتقبل التغيير ، ولايتعرض بدرجة ما لصعوبة تحديد المستقبل فى الطفولة المبكرة نسبيا . ولا يمكن عكس اتجاه المشاركة الاجتماعية كلية ، بل يمكن تحقيق أبعاد معينة فقط ، خاصة تلك التى تعتمد على تجديد المعرفة . وقد يضعف ويتفتت الاستمرار العاطفى والفكرى خلال الأسر والقبائل والثقافات الفرعية أو الجماعات الأثنولوجية ، غير أن معلوماتنا عن معارضة سياسة الطلبة تظهر مرة أخرى فجوات جيلية متداخلة (على هيئة اختلافات بين وحدات أجيال وتعاقب فيما بين الأجيال) .

وزيادة على ذلك فان تحليل اجتماع الطلاب ، والأوربيون منهم خاصة ، وكذلك طرق التحدى فى داخل الجامعات ، لا توجد بالطبع تصنيف مثـل هـذ الأنشطة كمجرد ردود فعل تجاه كبار فشلوا فى تفهم جيل جديد . ان ما يبدو كأنه ثورة جيل يحاول بوعى كامل تقديم نفسه على انه كذلك ـــ من أجل صورة جذابة مليئة بحيوية الشباب فى الأوساط الجماعية أمام جمهور يتصف بالسـذاجة نسبيا ـــ ما هـو فى الواقع الا قوى سياسية لجناح اليسار ، ومعارضـة برلمانيـة ، واعتراضـات على الاتحادات التجارية ، وتطرف « جمهورية المجالس » .

ورغم أن س . ن . ايزنشتاد قد بنى نظرياته حسب السن والتكوين والمهنة فانه قدم نظريات فى مقال نشر حديثا يبرز بوضوح كيف أن التغييرات الاجتماعيـة الكبيرة فى «الهيئة السياسية» تتقارب مع نزاع الأجيال .

« وعلى عكس حركات الاحتجاج الكلاسيكية فى المدنية الأولى (معظم الحركات الاجتماعية والوطنية ، وجميعها كانت تميل الى اعتقاد أن اطار ومراكز دولة الوطن كونت الجزء الأكبر من الثقافة والملامح الاجتماعية للشخصية الذاتيـة والتوجيـه الفاضل لبعض الأنظمة الاجتماعية الثقافية . والمهمة الأساسية للمجتمعات الحديثـة كانت تسهيل وصول طبقات أعرض من المجتمع الى هذه المراكز) نجـد أن حركات

الاحتجاج الجديدة امتازت بتخوفها من المراكز الحديثة وتقصيرها فى الالتزام نحوها وباستعدادها لعدم الشعور بالمسئولية تجاهها وكذلك نحو أجهزة هذه المراكز الادارية والتنظيمية . ويميل مركز الاحتجاج الى الانتقال من المطالبة بمشاركة أكبر فى المراكز الوطنية والسياسية أو من محاولات للتأثير على سياستها الاجتماعية الاقتصادية الى اتجاهات جديدة . ويبدو أن أهم هذه الاتجاهات تنحصر أولا فى محاولات «لتعرية» هذه المراكز من شرعية عمل الخير وربما من اية شرعية على الاطلاق ، وثانيا فى أبحاث مستمرة عن مصادر جديدة للمشاركة بكل معانيها الى ما وراء هذه المراكز الاجتماعية السياسية القائمة والمحاولات المصاحبة لخلق مراكز جديدة تكون مستقلة عنها . وثالثا فى محاولات للتعبير عن نماذج المشاركة فى المراكز المناسبة لا فى منطق اجتماعى سياسى او اقتصادى فحسب بل يتعداه الى رموز مشاركة أساسية او اجتماعية مباشرة » .

ويسمى ايزنشتاد الهجوم على الجامعات (الذى يرد فى مضمون الميول والخطط التى وضعها) « بالتناقض الفكرى » . ولذا يصبح تحليل جذور وأهداف هذا التناقض الفكرى واحدا من أهم الأعمال الموكولة لعلم الاجتماع لدى الشباب الأكاديمى ومعاهد التعليم العليا والصفوة الممتازة كى يحلوا جذور وأهداف هذا التناقض الفكرى الى مدى أبعد باعتراضهم على دولة الوطن (وقد رفض كثير من الأكاديميين سياسة هذه الدولة الخارجية والعسكرية) ، فان «التناقض الفكرى» الأمريكى وحد الأساتذة والطلبة ، وعلى الأخص من كان منهم فى المدارس الكبيرة الفكرية المجددة . وقد كان الصعيد الأوربى مختلفا جد الاختلاف فى هذه الناحية . ومع أن مجموعة لها أهميتها من الماركسيين أو من أعضاء بعض الكليات فى فرنسا من المعارضين لديجول قد تضامنوا مع الطلبة أثناء بعض مراحل الحركات الطلابية ، وخاصة فى مايو ١٩٦٨ ، فان مثيلاتها كانت أقل صدقا فى ايطاليا ، وجمهورية المانيا الاتحادية ، والأراضى المنخفضة ، وبلجيكا ، وسويسرا ، واستراليا ، والمملكة المتحدة ، واسكندينافيا . أما عن العلاقات بين الرسميين وطلبة الكليات فى البلدان الانجلوسكسونية والاسكندينافية فلم تقم لها قائمة قط بمثل الدرجة التى اصطبغت بها نظم التعليم العالى فى وسط وغرب أوربا . ويرجع الغياب النسبى لواجهة مترابطة للجماعة الاكاديمية فى أوربا الى أن التناقض الفكرى لم يكن ضد الاعلان الصريح لحقوق الانسان أو التمييز العنصرى وما الى ذلك ، كما حدث فى الولايات المتحدة . وقد تضمنت الموجة الأولى لاحتجاج الطلبة وانشطتهم بعض عناصر محبة للخير والتحرر ومعارضة السلطة ، غير أنه فى هذه الحركة سرعان ما حاولت عناصر متطرفة فى معارضتها للحكم الغيابى الحصول على مكان داخل الجامعة من أجل ترسيخ قدمها فى معهد يتصف على الأقل ببعض التحرر فى مجالات معينة (على الأخص فى مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية وفن المعمار والفنون الجميلة) ، وذلك فى محاولة «لنسف نظام التعليم العالى» ، ثم تثير من تلك القاعدة سلسلة من ردود الفعل السياسية فى المجتمعات التى أصبح فيها التعليم والمؤهلات وكذلك « العلوم كقوة للانتاج » هدفا استراتيجيا .

وابتـداء من ١٩٦٩ قوي الاتحـاد بين المتطرفين فى الجـامعة وبين المجموعات الماركسية اللينينية والأحزاب فى السياسـات الوطنيـة فى قارة أوربا على الرغم من وجود اختلافات معينة بين اتباع مذهب لينين والمتطرفين فى مسائل «الرعب الفردى» واحتقار اتحادات التجارة أو الحكم النيابى كقاعدة للعمل السياسى . وعلى أسـاس كل هذه التطورات يبدو انه من المستحسن أن تحتاج صيغة « التناقض الفـكرى » التى ينادى بها ايزنشتاد الى اتقان مهذب اذا كان لها أن تستخدم كتوضيح لحركات الاحتجاج والاستراتيجية التى سادت فى أواخر العقد السابع وأوائل العقـد الثامن الحالى . ومع استعداد مصعد لنقد السلطات ورفض نماذج الحياة التقليدية (التى يسـودها التبـاين بين القيم المصرح بهـا وتلك التى تكتسب بالخبرة ، وربط ذلك باستجابة دورة الخلفية المغذية للتحديات المبـاشرة) نجد أن الانحراف والاحتجاج والثورة تبدأ فى الظهور بمظهر « طبيعى » متزايد ، وهناك أيضا التأثير الواضح الفعال لنجاح أقلية نشيطة تجعل ، تحت ظروف متحررة ، قبول الدعوة للتحدى محببة . فاذا أصبحت الاستجابة للمواقف ، بمعنى احتجاج وثورة مثلا ، تعد من الناحيـة السياسية « ضرورية » (حديثـة) أو حتى اذا خضعت لعـدة تعـديلات معينـة « متضامنة معها » فان التنظيمـات التقليدية (أو العـوامل التقليدية مثـل الأسرة والكنيسة والمدرسة) تترك بلا شىء سوى مهام رقابية مرفوضة شعوريا ولا شعوريا، وكل ما يتبقى منها « مشاعر قيادية » وقيم ظاهرة غير صحيحة تبدو ملائمة لأغراض عملية متباينة للغاية . وهكذا تفقد ما قد يتبقى لها من دقة وتعطى الفرص والامكانيات الاجتماعية الاقتصادية القائمة النابعة من المواقف المعترف بهـا ـ من حيث كونهـا حقيقية وظاهرة أو هكذا تبدو ـ بديلا «أحسن وأكثر ضمانا» من عدة وجوه من المواقف الأساسية التى كان من الواجب استخلاصها بصفة مسـتمرة من المبـادىء الأولى ، وهى مهمة قلما يتأتى للفرد الوقت الـكافى أو القوة لانجـازها ، وهكذا قد تصبح الأقليات النشيطة من واضعى المبادىء ، تحت ضغط ظروف معينة ، عوامل لها خطرها فى فرض تأثيرات قاطعة على القرارات ، واصدار اجراءات سـياسية بل تشريعية ، رغم أن الأغلبية الصامتة تتمسك بمبادىء مختلفة تماما ولكنها « تحـذو حذوها » فقط تحت ضغط معايير (دستورية) مستحدثة .

ان التمييز بين نماذج السلوك المكتسب الكامن فى داخـل الأفراد نتيجة النظم وبين تلك التى تتيحها « فرص وتحديات المواقف » يقودنا الى نظرية النظم المتغيرة . فنموذج النظام المحدد هنا بتطبيقه من أجل نظرية للشباب والمشاركة الاجتماعيـة يقصد منه أن تكون له نظريا قوته بالنسبة لمختلف وحدات الأجيال والطبقات الخ ، اذ كلما تكررت وعمقت عملية تجديد المؤثرات ازدادت قوتها ثباتا .

وقد تستعمل نظريتنا من أجل شرح مسلك وطبيعة ما قد يرى أو يفسر بأنه ثورات أو انقلابات ، وماهو الا انعكاس لتغييرات تمت أو مبتدئة (ولكنها الى حد ما لا تزال كامنة) فى مجتمعات صناعية متطورة للغاية . ويجب النظر اليها على انهـا رد فعل لعوامل اقتصادية وتكنولوجية معينة ، وأنها كذلك استجابة لفرض مواقف

من جانب مجموعات أكثر استعدادا من غيرها من باقى الجماعة لاعادة التفكير فى النظريات الأيديولوجية القائمة . وخلال اجراءات التغيير العامة فى المستويات والقيم التى تحدث فى داخل التكوينات الاجتماعية ، وخاصة ما يجرى منها على النظم ، فان النشء وفى مقدمتهم صغار البالغين يستعجلون التغيير الاجتماعى عن طريق مواقفهم ازاء الفرص المتاحة . وسواء أردنا ذلك أم كرهناه فان تطرف الطلبة يستعجل التيارات اليسارية فى المجتمع ويمكن من تقوية مركزهم الاجتماعى السياسى بسرعة أكبر . ان هؤلاء الطلاب يرفضون قيما ومستويات معينة ، وكذلك أساليب حياة مخصوصة وأنواعا من التنظيمات السائدة فى المجتمعات الغنية ، ولكنهم لا يهاجمون هذه المجتمعات الغنية لكونها كذلك ، بل على العكس يتبنون الكثير من مميزاتها ـ مثل مبدأ اللذة التى يمكن أن تنشأ عن فيض الثروة التى تتمتع بها الأجواء الصناعية ـ ويمزجون هذه العوامل بما يعتبرونه وجها جديدا «للتحرك الانسانى» .

ان ما يعتبر جديدا بشأن « الشباب السياسى » فى العقد السابع خاصا بادراكهم واستغلالهم «للفرص الانتهازية» كان فى الواقع هو قيامهم بالمطالبة بالسلطة ودعمها بشحنة جديدة من المثالية . وهؤلاء الشباب لم ينحصر اهتمامهم فى اكتشاف الفرص المتاحة للتصعيد ، بل تعداه الى استغلال معين وشرعى لهذه الامكانيات بطريقة أيديولوجية ذات علاقة بالمفاهيم ، بمعنى أنها لا تنصب فقط على كسب المزايا والسلطة فقط ، بل تشمل أيضا شكلا معينا من الحكم مضافا الى ذلك مبرراته الادراكية ومقاييسه الداخلية ومعدلات نشاطه . وبمعنى آخر كان اهتمامهم بالشرعية وبنظام اجتماعى وأيضا باعتبارات السلطة والمنصب أكثر من المعرفة على أساس أنه يمكن خلق ظروف ملائمة لنظام « صحيح » للمعرفة عن طريق تعديل النظام الاجتماعى . وهذا من وجهة نظرنا غير مقنع .

النظرية الماركسية الحديثة عن الشباب

قدمت لنا الباحثة الاجتماعية الفرنسية نيقول عبود تفسيرها الخاص عن مغزى نظرية التغيير الاجتماعى للدراسة الاجتماعية للشباب . وتكمن القيمة النظرية لعملها فى تقريرها أنها قامت بدراسة أهمية الدور الذى قامت به الدولة فى عزل الشباب قبل ظهور الاضرابات والثورات فى أواخر العقد السابع . وكانت دعواها النهائية : أنه كلما عظمت قدرة الدولة على اقامة اتفاق جماعى سياسى فى المجتمع قل الانغماس السياسى للممارسة الاجتماعية فى التكوينات السياسية مثل الأحزاب ، والهيئات البرلمانية ، والمؤسسات الاقتصادية والثقافية ، وكذلك يقل وجود «الشباب» كفئة اجتماعية فعالة فى المضمون العام للتنظيم السياسى للمجتمع ، كما أنه لا يوجد أيضا كموضوع فكرى .

كان هذا هو الوضع السائد فى فرنسا ، كما تقول نيقول عبود ، فى الفترة مابين الحربين العالميتين . فلم يوجد الشباب كعامل اجتماعى منفصل ، اذ أن جميع التنظيمات السياسية والجماعات الدينية كان لها تحركات « شبابية » ، وكلما

حاولت الدولة أن « تنظم حياة سياسية وثقافية لتلتف حولها » قل وجود الشباب فيصبح «مجموعة وفق السن» . وكما تقول نيقول عبود كان هذا هو أصل المحاولات الحقيقية «لتغريب الشباب» . وفى الفترة مابين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٦٧ حين ساد النظام الرأسمالى التكنوقراطى الجديد ، حيث يدار المجتمع من قبل الاختصاصيين التقنيين، وضع العمل فى طبقة من الشباب كان ينظر اليها كشىء مجرد تماما لا تعبير له وليس له أدنى علاقة بالسياسة العملية ، وبهذه الطريقة قامت محاولة لتدعيم «شعور خاطىء» بالانتماء الى «مجموعة واحدة متوافقة فى العمر» . فالتطور الفكرى والتقدم الفنى وكذلك الابتعاد عن الانغماس فى السياسة تضافرت جميعها فجاءت قمة التكوين المميز لهذه المحاولة فى ظل رقابة على الشباب من دولة تدعى الديمقراطية . ولكن عندما اتضح أن الدولة لم تتمكن من خلق اتفاق جماعى سياسى « حولها » ، وكشف التطاحن الاجتماعى عن شرعية المنظمات التى خلقتها أو عضدتها الدولة ، توقف وجود « الشباب » كحقيقة اجتماعية . واليوم أصبح الشباب لا ينظرون الى أنفسهم البتة على أنهم مجموعة تنتمى الى فئة عمرية خاصة (ونحن لا نجارى نيقول عبود فى هذا الرأى) ، ولكن كطبقات اجتماعية اقتصادية بحتة ، أوسياسية فكرية فى نظام له صبغة سياسية متصاعدة . فالاستنتاج الكامن فى نظرية نيقول عبود هو أن الدولة بكونها قوة منظمة يجب أن يستبدل بها نظام تنشأ السياسة فيه من «أسفل» ، من مجالس أو هيئات مماثلة يكون «الشباب» فيها هو عامل التجديد والتلقائية ، غير انه من غير المعقول اطلاقا فى المجتمع الذى يحث الدولة على توفير الخدمات الاجتماعية ان نتوقع أن تحدد السياسات فقط ومنذ البداية من « أسفل » ، اذ أن التخطيط التربوى والاجتماعى للشباب وبالشباب يجب ان ينظم أيضا على مستويات أعلى ، جماعية ومحلية وعالمية . ولذا فان نظرية نيقول عبود تعتبر مثلا للحماسة لنوع من الماركسية المثالية النقابية . وحيث أننا قلنا ذلك فليس لدينا اعتراض أساسى على قيام النشاط من القاعدة . وبدلا من الاقتصار على ترديد صيغة جازمة مثل «أن أمانينا السياسية الخاصة طليعية» فلنقل انه يوجد بالمجتمع نقائص كبيرة تنتج عن بعض العوامل مثل النقص فى التوفيق بين تحويل المجتمع الى الاشتراكية وبين الفرص الكامنة فى مكونات المجتمع . والنتيجة أن فئات عمرية معينة تجابه بمشاكل تترجمها الى مواقف جدلية ، وتضعها فى أسلوب معين أو نمط مثل «صراع الجيل» ، خاصة اذا ضعفت سلطة الدولة والمصادر الرسمية الأخرى ، وازداد نشاط الشباب السياسى وسعوا الى تنظيم أنفسهم من « أسفل » ، وهذه حالة يحتمل أن تزداد ، ويزداد توقع حدوثها بطريقة دائمة فى حالة ارتفاع مستويات التعليم والتثقيف .

ملاحظات نحو تحليل تاريخى اجتماعى

عن الشباب فى المجتمع

ان فشل الأبحاث الاجتماعية عن الشباب فى التنبؤ بالمجهود الأقصى الذى بذلته الأقلية الطلابية فى الاسراع بالتغييرات التى حدثت فى السياسة الوطنية

(بالولايات المتحدة وكذلك ببعض الحوادث التى تفجرت فى جمهورية المانيا الاتحادية) وفى سياسة الجامعات فى كثير من بلدان أوربا الغربية (مثلما حدث أيضا فى أمريكا الجنوبية واليابان وأمريكا الشمالية) قد أدى الى الارتياب فى قيمة البحث الاجتماعى التجريبى المعتمد على الملاحظة دون النظر الى الفطريات العلمية فيما يختص بالانقلابات الاجتماعية .

ان فكرة التغاضى عن الدراسات الميدانية المتباينة عن طريق الاستفتاءات والاستعاضة عنها بالوسائل التاريخية لن يفى بالغرض طبعا . ان تقدم علم المنهج فيما يختص بمراعاة التقنية ، وعمق اجراء المقابلات ، ومعرفة تاريخ حياة الفرد موضوع المقابلة ، واكتشافها بطريق غير مباشر ، يعتبر مهما وضروريا معا . ومازالت الاستفتاءات وسيلة مهمة للابحاث ، فهى تسهل دراسة ردود الفعل الجماعية ازاء السياسات الوطنية أو المعايير الحيوية مثل التشريع والابتكارات التى تنعكس فى آراء وسلوك المجموعات موضوع الاهتمام . غير أن هذا الاصلاح المنهجى الضرورى لا يكفى من وجهة المستوى النظرى .

ويجب على علم اجتماع الشباب أن يذهب الى أبعد من ذلك ليكتشف القوى الجديدة والمتجددة الكامنة فى الموقف الفعال للشباب (قدرته على الاقتراب من الوسائل والفرص ومراكز السلطة الخ) حتى يتسنى وضع قياس واف لمجال الدراسة (ويتضمن ذلك الدراسات المتباينة) .

ان التحليل العملى ونظرية التصنيف نبعت أصلا من عدة مضمونات منها التاريخية والبيولوجية والانثروبولوجية ، ومن فترة وجيزة شملت حتى المفاهيم الميكانيكية والرياضيات . والآن أصبح من الأهمية القصوى أن تكتشف علوم الاجتماع الصلة الكائنة بين الطرق التاريخية والنظرية العملية أو التصنيفية . ان استعمال أنواع الاجراء النموذجى للاغراض التحليلية فى عرف ماكس أو تالكوت بارسونز « نماذج متغيرة » قد يسمح بنموذج معين للتصنيف المقارن ، ولو أنه لا يكاد يذهب الى أبعد من ذلك .

وعلى أية حال فان الأمر يحتاج الى مقارنة بين مجموعات خاصة من القرائن الاجتماعية الشاملة وكذلك نماذج معينة من الصراع وبين أشكال من النمو التاريخى وتذويبه من أجل تحليل وضع الشباب فى المجتمع وتأثيره فيه .

والنص التالى محاولة لتقديم الأمثلة ومواد الحالات . ومن الأبعاد الهامة فى تحليل وضع الشباب فى المجتمع ، التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار من أجل مزيد من الدراسات التاريخية ، اثنان : (أ) مدى تنظيم الشباب ، ويتضمن ذلك نماذج معينة من التنظيمات الذاتية ، (ب) ظهور الادراك الذاتى ونهايته عند الشباب كظاهرة اجتماعية نموذجية ومن نوع معين ومفعول ذلك التحديد الذاتى .

ويستحيل فى هذه المقالة معالجة المادة التاريخية بالتفصيل ، كما يستحيل

تطبيق هذا التصنيف خطوة بخطوة عند التحليل . وزيادة على ذلك نحن نحدد أنفسنا بالتاريخ الأوربى الذى لن يفى بالطبع لمزيد من الدراسات الشاملة .

وتحليلنا هنا لا يعنى أن مستوى تنظيمات الشباب والتنظيمات الذاتية له لا يوجد اطلاقا بينهما وبين استقلال الشباب فى المجتمع علاقة أكيدة .

فان مستوى تنظيمات الشباب الذاتية فيما قبل التاريخ كان منخفضا خارج الوسط العائلى أو المؤسسات الاجتماعية المماثلة ، كما أن استقلال الشباب فى المجتمع لم يكن له وجود .

وقد سار نمو فكرة المجتمع ونموذجه فى الثقافات التالية للعصور القديمة والأوربية الأولى جنبا الى جنب ينادى بتعريف معين للشباب ولتنظيمات الشباب غير الرسمية . أما الفترات التى لها صلة ببناء الامبراطوريات واستمرار أنظمة سيادة السلطة فقد أنتجت تعريفات رسمية لعامل السن وتنظيمات الشباب التى تعمل كمراكز للتعبئة والاختيار .

ومن المهم ملاحظة أن الاعتراف بوضع معين للشباب وبدء الاعتراف بالمثل التحررية للشباب حدث فى أوربا (وفى أمريكا فى القرن الثامن عشر) فى داخل المجتمعات المكونة تكونا تنظيميا . وارتبطت التغييرات التى طرأت على تعريفات الشباب بالاستعدادات الثورية للطبقة الوسطى فى القرن الثامن عشر والحركات الدستورية والسياسية والوطنية خلال حروب الاستقلال الوطنى وثورات منتصف القرن التاسع عشر .

ان الحركات الخاصة بحقوق الانسان والسلام، وكذلك الحركات ضد العنصرية فى العقد الماضى ، تكرر بطريقة ما نموذج القرن التاسع عشر للقضايا التى يعرفها الشباب ومجموعات أخرى من المجتمع ، غير أن ذلك كان أقل صدقا على الصعيد الأوربى فى العقد الماضى . فهناك كان الكفاح مركزا على وضع الشباب (وخاصة الطلبة) والتغيرات التى تطرأ على تشريعات الجامعة وادارات المدارس ، وقد زاد اتساع هذا الكفاح من عهد قريب فشمل مجالس خاصة للشباب فى المجالات الصناعية ، وأشكالا جديدة لمعالجة الأحداث ، وما شابه ذلك من أمور .

انه لمن التناقض أن الكفاح فى سبيل حقوق معينة للشباب وللنجاح الجزئى الذى يتحقق سيؤدى فى النهاية الى أن يغوص الشباب فى داخل المجتمع ، وينتج عن ذلك أفول وعى معين ومذهب فكرى للشباب .

وسيظهر حتما العديد من مشكلات جديدة متعلقة بالطب النفسى وعلم النفس الاجتماعى نتيجة لضعف تعريف الشباب فى محيط دورة الحياة . ان حركات التحرر تؤكد وتلقى ضوءا خاصا على هذه الحالات كما ظهرت ، وعلى أية حال فانه حالما تمنح حقوق معينة للنفوذ أو المشاركة فان الحالات التى تظهر يكتنفها ما يشابه اجراء ميكانيكيا من الضغوط والنفوذ .

ان المشاكل التالية لحركات التحرير الخاصة بالمجموعات والتى من أجلها قام كفاح التحرير لا تكون حتما جذابة ومحددة التعريف . ان التيارات السياسية التى تستخدم حركات الشباب لتطلعات معينة للسلطة ولسهولة حركة مريديهم يجب دراستها بدقة وتقويمها بواسطة علماء اجتماعيين يمتازون بالحساسية السياسية .

ولذا فان نظرية الاجراء الاجتماعى والسياسى يجب أن لا تتقبل أيديولوجية لتحرر أكثر بدون نقد وتمحيص ، وتتقبل بالأحرى خطة نظرية للتوازن الاجتماعى الذى يلزم تدعيمه .

وفيما يلى محاولة لدعم المفاهيم النظرية العامة الموضحة آنفا :

كان الابن فى المجتمعات القديمة خاضعا لأبيه خضوعا دائما وتاما ، كما كان مفهوم الولاء البنوى فى الثقافات الصينية نتيجة للترابط الموجود بين النظام الأسرى والدين الرسمى المعترف به (الكونفشيوسية) يعتبر مثلا دقيقا طيبا لذلك . وكان الرجل والمرأة فى بداية حياتهما الزوجية يخضعان لسيطرة رئيس « القبيلة » ، وكان استقلالهما الشخصى محدودا تماما . وقد سرى هذا المبدأ سريانا فعالا فى المجتمعات الشرقية القديمة (ومنها اليهودية والهندية) .

وكانت المجتمعات القديمة بتكوينها الأبوى الموقر وكذلك مناصب السلطة المحلية أو المراكز الكهنوتية (اى قبل أن تتطور المعيشة معا فى المكان الواحد) تتطلب الخضوع التام غير المشروط من الصغار للوالد (أو العشيرة أو لفرع القبيلة الخ) ، ولكنها كانت تذعن دائما لهيئة قانونية . وقد أدى نشوء دولة المدينة اليونانية القديمة الى ظهور دور معين للشباب بفكرة التربية التى تحتضنها طبقة عليا حضرية على أساس ما تستحوذ عليه من ممتلكات . وكان مسموحا بقدر من الحرية ، وكانت الفضائل تفرز فى نفوس الصغار، غير أن التبعية المشار اليها آنفا كانت لاتزال قائمة .

بنشوء طبقة النبلاء والطبقة المتوسطة الموسرة فى حضارة دولة المدينة اليونانية حوالى عام ٥٠٠ قبل الميلاد نشأت ظروف تمتع فى ظلها الشباب بحريات أكبر . ان أصول التربية بالنسبة لوضع مواطن مستقل قادر على أن يبدى آراءه بجرأة مستخدما مناقشات بليغة ومنطقية وقادر على ان يحصل على مراكز قيادية فى المجتمع يعنى حتما أن يخصص جزءا من حياته لهذه التربية ، ويمثل هذا خطوة مهمة نحو تطور مفهوم الشباب . وقد فتح نظام العائلات القديمة فى بعض طبقات المجتمع العليا أبوابه لتعاليم السفسطائية وبخاصة تعاليم أرسطو وافلاطون ، واتبع الشباب أفكار اله الحب « ايروس » والصداقة والجماعة والاصلاح السياسى والمبادرة . وهكذا زرعت بذور نوع من الغموض حول مفهوم الشباب منذ البدء ، ولأن مجموعات خاصة من النشء وهبوا أنفسهم للتربية والتثقيف والتجديدات المتعلقة بها أو « أفكار جديدة » فقد اعتبرت مثل هذه الاهتمامات حفاظا للشباب .

ولم يكن هناك حد أعلى واضح للسن ، اذ أن كل شخص استمر فى الاشتراك فى المجادلات والصداقة وممارسة الحياة التى تمارسها مدرسة الفلسفة فانه يعتبر بحكم طبيعة الحالة نفسها واحدا من النشء . وبناء عليه فان المفهوم المعين للشباب عن فترة ما من الحياة تتعادل مع عمل ثقافى خاص كان يتحدد بالرغبة فى التعليم والاصلاح الاجتماعى . وهكذا أصبحت تربية الشباب الرمز الحى للثقافة ومفهومها. وبدأ الفنانون يهتمون بتصوير أفراد النشء الذكور كرياضيين ومحاربين . وبالاضافة الى المجموعات غير الرسمية فان المعهد العام الخاص بالشباب كان يمثل منظمة كونت خصيصا لليافعين والمراهقين .

وبالمضاهاة نجد أن العوامل ذات الأهمية القصوى التى كان الرومان يخضعون لها فى موقفهم من الشباب هى :

ـ تأكيد اعتبار العائلة معهدا للتأسيس التربوى .

ـ عدم وجود نظام المدارس الخاصة أو العامة حتى لا تقوم قائمة لنظام شبيه بمجموعات الشباب فى مدن الاغريق الثقافية المميزة لاثينا أيام سقراط وافلاطون . وقد بدأ تكوين المجموعات غير الرسمية والجماعات فى أيام الامبراطورية الأخيرة ، وذلك فى المؤسسات التربوية العليا مثل مدارس الفلسفة والبلاغة التى وصفها سانت أوجستين فى كتابه «الاعترافات» .

ـ احترام « التقدم فى السن » المتوقع فى مجتمع تسود فيه الخبرة العسكرية والسياسية والأعمال العظيمة التى تحظى بدرجة سامية من التقدير .

ـ الاتجاه الى تنظيم تعاونى تام للجماعة . ولهذا وجدت طبقة عليا من النشء قبلت سلطة ثابتة ، وانتسبت الى جمعية الشباب ، وأعدت نفسها لحياة سياسية .

ومع ذلك فان فلسفة شيشيرون التربوية ـ مع ما لمفهوم موضوعها من توافق اجتماعى شامل وتعاون بين مجموعات العمر المختلفة (المكونة حسب مختلف الأعمار) والمدينة بالكثير لفلسفة الرواقيين ـ عارضت بالفعل هذا الاتجاه .

وفى أثناء العصر الهيلينستى وفى الوقت الذى وصلت فيه الامبراطورية الرومانية الى أوج سلطتها فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ظهرت خطوط فكرية جديدة ، وبطل حصر فكرة التجديد فى حيز جماعة ـ بلدا أو دولة معينة ـ وامتدت لتشمل الانسانية بصورة عامة ، انسانية عرف انها كانت تئن تحت ضغط القوى الهدامة ، وكان من المتوقع أن تجدد نفسها وشبابها عن طريق القدوة وبمساعدة منقذ من السماء . وفى التطورات السياسية والاقتصادية فى العصر الهيلينستى اكتسبت الطبقة الوسطى والدنيا من طبقات المجتمع اهمية ، وكانت هذه الطبقات من قبل تجد الطريق الطويل والصعب للتربية والتطوير الذاتى (على غرار أنماط الارستقراطية اليونانية) أقل جاذبية من أديان الخلاص التى كانت تقدم المعرفة الموحاة والأنشطة العقائدية كعنصر مساعد نحو تجديد الذات .

وكان التطلع لتجديد الشباب عظيما فى عصر كان يشعر بالشيخوخة والانهاك ولم يعد يرى فى حيوية الشباب مسألة « حب للحكمة » أو طريقا تصاعديا من التطور نحو الكمال يسهل الحصول عليه عن طريق التربية والصداقة ، كما كان الاغريق القدماء يعلمون . لقد أصبح يرى فيها عودة مليئة بايحاءات الخلاص واستعادة للجنة المفقودة .

وفى القرون الوسطى تسهل ملاحظة النمو المزدهر للقرى الاوربية بعد عام ١١٠٠ قم على أنه الحقبة الحاسمة فى تطور الشباب . فقد كان معنى تطور النظم الاقتصادية المعقدة مع متطلباتها التربوية الزائفة أن تطول مرحلة الشباب ثم « تصاعد » سن النضج ، اذ أن مجتمعات الطبقة البورجوازية بالحضر تطلبت ادارة وتوسعا للممتلكات التى تحتاج ــ أكثر بكثير مما كانت ثقافة الاقطاع الزراعى تحتاج ــ الى مقاومة التقلبات الديموغرافية والاقتصادية والخضوع لاجراء مستديم من التطبيق .

وكان للمؤسسات الثلاثة الآتية تأثيرها الخاص على تطور البالغين والمراهقين فى عالم القرون الوسطى : (أ) نظام الفرسان والاقطاعيين ، (ب) اتحاد الجامعة بعلاقته المميزة بين الأساتذة والطلبة ، (جـ) والنقابات .

وكان لكل هذه المؤسسات تصريحاتها الرمزية عن النضج ، مثل تقليد الفرسان والتخرج والخلاص من التتلمذ فى الحرف . وهذه نظرة مضيئة الى الأطفال والبالغين على أنهم « أشخاص مكتملون » أو اناس من نوع خاص ولكنه نوع تام الفاعلية قد رمز اليه من قبل فى المعاملة الحازمة الرحيمة للاطفال والنشء فى مدارس الرهبان فى العصور الوسطى . ولأن الأطفال أحباب الله فقد تقرر أن تصبح الطفولة أهلا للتقديس ، وكان هذا هو الأساس الدينى للفلسفة الاجتماعية الانسانية التى سادت عصر النهضة ونهاية القرن الثامن عشر .

كان لميلاد الدولة الحديثة فى القرن السادس عشر المميزة بمدارس الأمراء واكاديميات الفرسان المخصصة لتدريب موظفى الحكومة أن خلقت مجموعات الجيل من الأشخاص ذوى السلطة الادارية والسياسية من خريجى هذه المؤسسات التربوية . أما فيما يتعلق باحتفالات البلاط فى ذلك الوقت فقد زود هذا النظام كثيرا من أسس الثقافة الأولية للمراهقين . فأصبحت طريقة الحياة الشجاعة والمهذبة نموذجا لشباب الطبقة العليا ، وتركت أثرا كبيرا على حياة الأعضاء الشبان من طبقة الأعيان . واستمر هذا الاتجاه الاجتماعى حتى القرن الثامن عشر . وكان أن بحثت هذه الطريقة فى الحياة المقتبسة من الدولة المهيبة المستبدة بواسطة قيم للمعرفة الأخلاقية والتأثيرية بغية : (أ) استبدال الاستقامة الأخلاقية بالسلوك التقليدى ، (ب) «الجدل المعقول» للتوصل الى وعى مستنير وتحرر من الطاعة العمياء الى الحث على السيادة ، (جـ) تشجيع « الفطرة » وتحقيق الرغبات ،

اعتقادا أنه حالما يتحرر الرجال من النظام المتقن ، المهذب ، الفروسى ، الشهم ، الذى لايخـرج عن كونه تظاهرا بالطاعة ، فان طبيعة «المرح والقوة» التى للطبيعة الانسانية المعتقد أنها مهذبة تصبح حرة لتزدهر . وقد وردت صورة عن الشباب النموذجى رسمها كل من كريستيان فورتشيجوت جيليرت وفردريش جوتليب كلوبستوك فى قصائدهم الغنائية عن صـداقة الشـباب تعطى نموذجا للفتى المراهق الذى أصبح يمثل بصورة مكتملة بديلا جديدا للرجل الشهم . وكان الاتجاه الذى سلكته المعرفة فى المانيا بمثابة تمهيد للطريق أمام الرومانسـية . وكان الشـباب « المفعم بالأمل » يمكن تسميته كذلك لسببين : أنه كان قادرا على التطلع للحيـاة بنظرة من التفاؤل الصافى من ناحية ، وأنه أعطى المراهقين « سببا للامل » أيضا .

وهذه الفكرة الجديدة لا يمكن تفهمها بالنسبة لروسو ، اذ وفقا لروسو نجد ان المجتمع لا يمكن صبغه بالانسانية الا اذا نزع عنه القناع أولا . غير أنه يجب قبل كل شيء أن يجنب الأطفال والبالغون الشـقاق الداخلى والتحـول الذى يتصف به الرجـل الذى يعيش بالتظاهر بدلا من أن يكون كمـا هـو . وكيف يتأتى له ذلك ؟ بالتعليم المناسب ، وفى عرف روسو بالتعليم الطويل الأمد .

« ان الانتفاع بمرحلة الطفولة لا يهم كثيرا . غير أن هـذا لا ينطبق على الفترة الأولى من حياة الرجل ، أى الفترة التى يبدأ فيها الشعور بالحيـاة فعلا . وهـذه المرحلة لا تكون عادة بالطول الكافى الذى يسمح بالانتفاع الكامل منها ، وتصل أهمية هذه المرحلة الى درجة تحتم توخى الحذر المتواصل . وقد حدا بى هذا الى تأكيـد فن اطالة الأمد ، فان من أفضل مبادىء التربية الصحيحة اطالة أمد كل شيء الى أبعد ما يمكن » .

ان « الميلاد الثـانى » الذى يمارسـه الفرد فى مجتمع الجمـاعات الذى خلق بمقتضى تعاليم كتاب روسو « العقد الاجتماعى » يجب أن يصبح حقيقة تربوية لكل جيل جديد . فأفكار التجديد والانعاش والخلاص تتخذ فى الحال صفة سياسـية وتربوية مطابقة .

ويفسر روسو « المجتمع الجديد » بالمقارنة مع الشباب بأنه نتاج لميلاد ثان . والشباب ــ كتحقيق ذاتى كامل وتطور من خلال التربية ــ يمكن وجوده فى المجتمع الشـورى فقط ، كما انه لا يعترف به اعترافا كاملا لمجموعة متماسـكة الا فى مجتمع « حديث الولادة » .

ان التحرر الأخلاقى للنشء تلته تلك المأساة العاطفية للشباب فى القرن الثامن عشر ، وتركز التأكيد على الفرد الصغير السن السريع التأثر المتسـامح الذى يؤول العالم بطريقة جديدة وأكثر صدقا من خلال تجاربه الحزينة . وقد لا يمكن تصور قصة التطور الانسانى دون أن يكون هناك استعداد عام لمثل هذا النوع من التحليل النفسى الاجتماعى بواسطة الفرد الصغير السن وما مر به من سنين يتتلمذ فيها فى العمل ويتعلم من أسفاره .

وحتى أسلوب البطل الصغير يعتبر أيضا رسولا للخلاص :

كثيرا ما قلت لك :
الليل والبرد يتلصصان فوق الأرض ،
ويسئمان الروح ،
فتذبل من الفكر ،
ما لم تبعث الآلهة من وقت لآخر من فيضها .
مثل هذا الشباب ينعش من حياة الرجل الذابلة
فريدريش هولديرلين

وبعدها انضم الشباب «الرقيق الشعور المجدد للحياة» ، كفرد يظهر وحيدا أو فى صحبة صديق أو مع مجموعة من الأصدقاء ، الى جماعة الشباب شبه العسكرية، الوطنية ، أو الثائرة اجتماعيا ، المعروفة باسم الرابطة .

وجاء فى مضمون نظام الطبقات الذى امتازت به مقومات مجتمع وسط أوربا فى ذلك الوقت أن «العواطف العنيفة» (أ.م. أرندت) التى بعثتها حروب التحرير ضد نابليون وصيغت فى مرسوم وارتبورج لعام ١٨١٧ قد وجدت لها مخططا فى «جمعيات الطلاب» ، وقد اقتصرت الفكرة الأساسية للرابطة الآن (التى كانت قد احتضنت الأساتذة والطلاب على حد سواء) على الهيئة الطلابية ، فأبعدت الأساتذة ، وبذلك مهدت الطريق لحركات اعتراض الطلاب ذات الصبغة السياسية ، وذلك فى عام ١٨٤٨ وبعدها .

وكانت الدوافع الأساسية فى تكوينات « الشباب » كفريق فى المجتمع مبعثها الفلسفة التربوية لروسو ومن خلفه . وثمة دافع آخر حدث فيما بعد هو الاعتراف السياسى الذى أعلن فى الفترة التى خلفت الثورات وحروب التحرير فى عام ١٨٤٨ . هنا ارتبطت حماسة المواقف الوطنية التحريرية والانفعالية منذ البداية بالأمانى الاجتماعية ، اذ أن الطلبة الثائرين قد تكاتفوا ــ وان لم يحدث ذلك الا فى خلال الاسابيع القليلة للثورة ــ مع العمال الذين انحصر همهم الأول فى تلك المرحلة فى الحصول على تحسينات لأحوالهم المادية . ولكن الرابطة ــ التى أسست أصلا وفق نموذج شعوب العصور الوسطى ــ بقيت قائمة كمؤسسات اجتماعية ، أولا كمجموعات وطنية للمبارزين ، ثم يليها كفريق معارض لها الاتحادات الكاثوليكية بالجامعات ، خاصة فى ايطاليا والنمسا وفرنسا وأسبانيا .

وقد تأسست حركة واندرفوجل فى العقد الأول للقرن العشرين كحلف صداقة بين الشباب ورد فعل للاسرة والمدرسة . وقد تبنت هذه الحركة ، التى جندت أعضاءها من بين أبناء كبار الموظفين المدنيين وغيرهم من أبناء أسر الطبقة الوسطى الموسرة ، مختلف الشعارات والرموز التى كان يستعملها الطلبة الثائرون اثناء حركة الاستقلال الوطنى .

وكان لحركة واندر فوجل ، التى قامت أساسا كانفعال للطبقة المتوسطة (لا انفعالا لطبقة العمال) ضد نماذج حياة الطبقة المتوسطة ، صفات تاريخية معينة . وما ان تكونت حتى انتشرت رموزها وانتشر سلوكها فى الحياة انتشار اللهب فى

الهشيم وسط أكثر الجماعات الدينية والفلسفية والسياسية المختلفة ، ونشأت حركات الشباب العمالية والاشتراكية والبروتستانتية والكاثوليكية جنبا الى جنب مع الحركات الوطنية . وكان لهذه الجماعات كلها صفة مشتركة هي المطالبة باستقلال الشباب كجزء من المجتمع ، كما حاولوا جميعا وضع حجر الأساس لهذا الاستقلال فى الأوساط التربوية .

ان حركة الشباب التى قامت فى العقد الأول من القرن العشرين كانت تبحث عن التجديد الروحى فى هدوء الغابات والجبال ، أو فى الاحتفالات الليلية والمخيمات فى الهواء الطلق .

ولم يكن مقدرا لهذه الحركة أن ترى النور بدون التوسع الملحوظ فى القاعدة التعليمية الذى تحقق بنمو المدارس الثانوية . وعلى كل حال فقد كان روادها الأوائل هم تلامذة المدارس الثانوية من ذوى الكفاءات النفسية الضرورية للجمع بين المعارضة الوجودية الفلسفية وبين ما جبل عليه آخر القرن من بوهيمية عبادة الطبيعة . وجاءت حركة واندرفوجل برحلاتها بعيدا عن نظام الطبقة الوسطى (البرجوازية) وحضارتها فى منتصف الطريق بين البوهيمية والاتحادات شبه العسكرية ، فقد ارتأوا فى أنفسهم قادة لمستوى من نوع ثقافى خاص كون جزءا من النمو الثقافى العام (منشور هوهر مينر فى عام ١٩١٣) ، وقدر له أن يسهم فى تحسين حياة النشء .

وتقول احدى الفقرات المهمة من المنشور :

« ان النشء الذى لم يتعد الى الآن كونه ملحقا للجيل الأقدم ، المحروم من الحياة العامة ، المقصور دوره السلبى على الدراسة والمرح التافه ، قد بدأ تطوير دور خاص به ، فهو يحاول تشكيل حياته الذاتية دون التأثر بعادات من هم أكبر سنا أو بسلوكهم أو بما تفرضه التقاليد التى يحتقرونها ، وهم يطمعون فى أسلوب للحياة يتمشى مع طبيعتهم الشابة ، ويمكنهم فى الوقت نفسه من أخذ أنفسهم وانشطتهم مأخذ الجد والعثور على وضعهم كعامل مرموق فى المنهج الثقافى العام» .

ولقد جاءت موجة الاحتجاجات التى نادى بها طلبة المدارس الثانوية والجامعات فى أواخر العقد الماضى مختلفة تماما عن هذه الحركات السابقة :

١ ـ لم يعد النشء يحاول تحسين معيشته فى المجتمع ، بل أصبح ينتقد المجتمع ككل ، بما فى ذلك قوانينه وتنظيماته ، فهم ينادون بتغييرات لها مدى بعيد ، وخاصة فى الجامعات والمدارس : يجب أن يتغير المجتمع ، لا النشء .

٢ ـ لم يعد النشء يبحث عن حياة تليق بالشباب ، كما كان الحال فى عام ١٩١٣ ، ولكنهم يحاولون أن يحصلوا على أقصى فرصة ممكنة للتوصل الى مراكز اتخاذ القرارات فى المجتمع .

٣ ـ ووفقا لمنشور هوهر ميسنر يرغب النشء فى أن يرتبط بالمنهج الثقافى العام ، ولم يعد يدعو للارتباط بالمجتمع ، بل انه يدعو لتطبيق آرائهم الخاصة ، وهذا فى نظرهم سيقودهم الى التحرر : فالتحرر فى الثقافة والتعليم هو هدف الحركة الحديثة . غير انه على النقيض من ذلك نجد أن الخطة السياسية الكاملة هي التى تستخدم للوصول الى هذه الأهداف .

ان كفاح الشباب فى العقد الماضى والآثار التى خلفها تعتبر جوهرية ، اذ أن المواجهة التى كانوا يسعون اليها ونالوها لم تكن فى المجتمع بل معه أيضا . واذا نحن مواجهون بتكوين جديد لظاهرة تاريخية لم يسبق لها مثيل تمثل تجاوبا أو تحديا لتطور جديد فى التربية والادارة وتجمعات القوى الدولية والمنشآت الاجتماعية التى لم تعد كفؤا لتأدية مهمتها .

ان اعادة تعمير أوربا بعد الحرب ، مع استمرار الحرب الباردة ونماذج السلطة القديمة ، وكذلك السلوك الجنسى ، تدل جميعها على أنه حتى منتصف العقد الماضى كان التقدم التكنولوجى وتحسين الاستهلاك الاجتماعى الاقتصادى ومستويات الانعاش هى التى بقيت كعوامل أساسية للنمو الاجتماعى .

وفى الوقت نفسه فان استمرار التجمد ، أو التوازن فى الفزع بين أقطاب القوة وتأثيرها الذى قلل من حدته الألفة معه ، واضفت تأثيرا « مهدئا » ، شجع على الانحلال الداخلى للتكوينات الاجتماعية . وقد كان هذا الاجراء مفتوحا ومستمرا فى الغرب ، متذبذبا ، وسرعان ما قضى عليه فى براغ ووارسو وبلجراد . أما فى الشرق فقد أسىء فهم هذه التكوينات الاجتماعية ، أو أنكرت تماما ، واستمرت فى التواجد على شكل سيكولوجى خفى ، حيث من المحتمل ان تكون عاملا دائما — ولو أنه مراقب مراقبة شاملة — للتغيير فى النظام الاشتراكى .

وقد بدأت الثورة على هيئة أزمات وتوترات ثقافية ترجع من ناحية الى شعبية التعليم واشتداد استياء الشباب من أوضاعهم ، كما ترجع من ناحية أخرى الى ازدياد الوعى فى العالم ككل والوعى بمشاكل السلم كذلك .

وقد أسفرت الخطابة الثقافية والمناقشات العلمية فى الأدب والعلوم السلوكية والاجتماعية وفى النقد الثقافى والاجتماعى وفى الصحافة الجادة عن خلق أقطاب من جناح اليسار أو « التقدميين » وتابعين لهم من الطلبة « والمريدين » . ثم ان هناك أيضا فى أقصى الطرف المقابل لهذا التركيز الفكرى أغلبية ظلت صامتة حتى ما قبل الثورة ، ولم يكن لديها لا القوة ولا الرغبة فى التعبير عن نفسها فى أسلوب فكرى أو سياسى مناسب ، ومهما يكن هناك من أسباب فالواقع أن المناصب السياسية للجناح الأيمن والمحافظين قد جذبت الانتباه الفكرى والعلمى فى أواسط أوربا خلال العقد الأخير ، وفجأة أصبحت الأقلية الفكرية فى جناح اليسار — فى المحيط الأدبى فى البداية وقتئذ ثم سياسيا أيضا عندما هبطت الثورة (كما حدث فى جمهورية ألمانيا الاتحادية) — هى الاتجاه النشيط والفعال الوحيد فعلا ، وبذلك تمكنت من الضغط على الزناد والسيطرة على مرحلة الحماسة ذات العقيدة الأئتلافية التى تلتها .

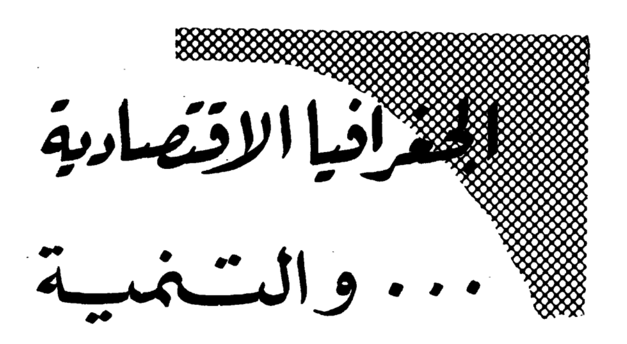
وفجأة برزت مطالب ، مثل المساواة وحق الفرد فى أن يحقق ذاته ، من الاطار التاريخى للقرن الثامن عشر ، وكانت هناك حاجة للصفات الانسانية فى التنظيمات والمؤسسات ، واصبحت الحريات غير المباشرة وتصعيد الوعى الاجتماعى والتعاون والتصميم الجماعى هى الهدف المركزى للاشتراكية «الجماعية» التى تتصف باعتقادها فى عدم المركزية وكذلك بديناميكية المجموعة الصغيرة . ان شدة هذه الظاهرة التى لم يسبق لها مثيل قد كذبت التفاهات التى طالما ترددت عن أن النشء يسعى

دائما الى التغيير ، وأنه ثورى «أتوماتيكيا» ، وانه يمهد السبيل مرارا الى نزاع الأجيال ، وهلم جرا .

وفى لحةواحدة بذرت الحركة ، رغم افتقارها للتجانس الاجتماعى والفكرى ، بذور الثورة الاشتراكية فى المجتمع العلمى فى وسط أوربا ، ثم حدث مايمكن وصفه بحركة متعمدة للاسراع بالتطور الاجتماعى ، أو بدرجة أدق استغلال من جانب قوات جناح اليسار للتوترات التى سببها وجود مورثات عتيقة أو رجعية فى البرلمانات والجامعات والمدارس .

ونحن الآن نجد قوى متطرفة او ثورية قد تأصلت ، يعضدها ويعارضها بالتبادل ديموقراطيون اجتماعيون أوربيون . فهل من الممكن «لثورة التحرر» فى المهن الهامة ، والتأرجح الى اليسار وسط الطبقة المثقفة التقنية وغيرها من الجماعات المختارة المهمة ، أن تضم قواها الى شعور التجمعات العمالية بانتظامهم كما فى وضعهم الراهن فى النقابات العمالية والنظم التى ترعى مصالحهم ؟ انه من المحتمل أن تؤثر على طبقة ذوى الياقات البيضاء . وقد أصبح هناك صعوبة متزايدة فى الوصول الى نتائج معقولة فيما يختص بالنزاع بين تأجيل المكافآت وبين الضغوط التى يمارسها البالغون والمراهقون الصغار السن مطالبين بالاستجابة السريعة . فالشباب يعانى من التقلبات والاختلافات فى أوضاعه الراهنة معاناة مباشرة . ان مجتمع البالغين يواجه ردود الفعل التى تحدث من الشباب نتيجة لهذه التقلبات والاختلافات ، فى شكل ظواهر مثل الكفاح المتصاعد والسلوك العدوانى يصاحبه برنامج (له قاعدة فكرية) لتسوية اختلافات الوضع ، وذلك عن طريق الشباب المتآلف ، حتى ولو بلغ الوضع الراهن اقصى مداه ، مما يساعد على تخفيف توتر الصغار ، غير أن أنشطتهم سواء فى الحاضر او فى الماضى ليست مركزة على اهتماماتهم فقط ، وذلك مثل موجات المظاهرات الشبابية وخاصة فى الولايات المتحدة .

وعلى أية حال فان عرض برامج مجموعات المتطرفين على الشعب ينظر اليه غالبا على أنه الخطوة الأولى المهمة نحو الغاء الاختلافات الخاصة بالوضع ، وتقديم فرص جديدة ، وضمان لمشاركة ذات هدف فى اتخاذ القرارات الاجتماعية . وقد اكتسبت المناقشات العامة والمطالب الخاصة «بالحكومة المفتوحة» والغاء السرية أهمية كسلاح استراتيجى ومصدر للاكتفاء السيكيولوجى والاجتماعى . وهكذا نجد أنه فى مراحل معينة من الثورات استغلت كل الامكانيات بما فى ذلك الدعاية حتى تلك التى تعد من النوع التطفلى . ان المعلومات العامة من خلال انعكاسها على الوسائل الجماعية تكتسب نفوذا يبقى تأثيره المتزايد وحصيلته من الاقتناع محلا للبحث التجريبى . وعن طريق المعلومات تقوى التكوينات المعيارية ويعبأ التماسك الدولى . وقد كان هذا هو العامل الأساسى فى تكثيف ظاهرة الاحتجاج والثورة ، وكان له تأثير ضخم وواضح للغاية . ان الطريقة التى يتقرر فيها الوعى الاجتماعى للنشء بنفسه عن طريق الاجراءات المختارة لوسائل الاتصال الجماعى موضوع يحتاج الى مزيد من الدراسات المستفيضة .



الجغرافيا الاقتصادية علم اجتماعى

ان العلوم الجغرافية ذات المجالات المتسعة ، التى تنمو نموا سريعا ، تضم ميدانا متشعبا من العلاقات بين المجتمع الانسانى وبيئاته الجغرافية . فمهما بلغ تقدم المجتمع علميا وتكنولوجيا لاتزال الطبيعة ــ سواء بشكلها الفطرى أو معدلة بيد الانسان ــ هى بيئة الناس وموطنهم والاساس الوحيد لخلق ثروتهم المادية ومصدر رزقهم . ومن ثم كانت المهمة الملقاة على عاتق الانسان هى ايجاد أفضل الطرق لاستخدام الطبيعة بمعاونة القوى الانتاجية التى يخلقها المجتمع ، كوسائل الابداع التى يقدمها الرجال والنساء بقدر ما لديهم من وسائل المعرفة والمهارة ووسائل الانتاج وطرقه .

هذا هو موضوع العلوم الجغرافية ، سواء من ناحية دراسة القوانين التى تحكم تطور الظاهرات الطبيعية المعقدة واكتشاف امكانات استخداماتها (الجغرافيا الطبيعية نظريا وتطبيقيا) أو من ناحية دراسة القوانين الاجتماعية التى تحدد طرق استخدام اليد العاملة والموارد الطبيعية والشكل الخاص الذى يتخذ الانتاج ووظيفته فى المجال الجغرافى (الجغرافيا الاقتصادية أو كما تسمى احياناجغرافية الانسان) .

اذن فالجغرافيا الاقتصادية علم اجتماعى يدرس التوزيع المكانى وتضافر القوى الانتاجية وتداخلها فى استخدام المجتمع الانسانى للبيئة الجغرافية خلال مراحل نموه المختلفة .

بقلم : الدكتور ڤيكتور ڤولسكى

مدير معهد الدراسات الأمريكية اللاتينية بأكاديمية العلوم بالاتحــاد السوفيتى بموســكو ، ورئيس قسم الجغرافيا الاقتصادية الخارجية بجامعة موسكو . ومن أهم اعماله ماكتبه عن جغرافية البترول ودول أمريكا اللاتينية . وتشمل المشاكل الرئيسية الاقليمية الجغرافية الاقتصادية فى البرازيل(١٩٥٨)، واطلس أمريكا اللاتينية (١٩٦٨) ، والجغرافيا الاقتصادية للدول المكتملة النمو (١٩٧١) .

ترجمة : الدكتور محمد السيد غلاب

رئيس قسم الجغرافيــا وعميد معهد البحوث والدراســات الأفريقية بجامعة القاهرة

وقد أثبتت الجغرافيا الاقتصادية بما لايدع مجالا للشك العلاقة القائمة بين استخدام الموارد البشرية والطبيعية والمكان ومجموعة العوامل الانتاجية المتداخلة من ناحية وبين خواص العلاقات الموجــودة فى المجتمع من حيث علاقته بالارض والموارد الطبيعية الأخرى ووسائل الانتاج وطرقه من ناحية اخــرى . فاســتخدام الموارد الطبيعية يتوقف عــلى من يمتلك المــوارد ، ولمصــلحة من تســتخدم . اذ تختلف استخدامات الارض باختلاف الذى يمتلكها ، فالفلاح الصغير يستخدمها لانتاج قوته ، وصاحب العزبة التقليدى يستخدم فيها اقتصادا يحتاج لأقل قدر من راس المال ونيل اكبر عائد من الأرض . فبوصفها راس مال يفكر هل يؤجرها ، أو كيف يدفع أجر من يستأجرهم من العمال ، الخ . والمالك الراسمالى يوجــه انتاجه الزراعى توجها كاملا نحو السوق حتى يحصل على اكبر قدر من الفائدة من رأس المال الذى يستثمره فيها ، وفى الوقت نفسه يزيد استثماراته ليحصل على ربح افضل ، وذلك ــ فى أغلب الاحيان ــ على حساب مزيد من تكثيف الزراعة .

وكلمــا كانت القوى الانتاجية أكثر تقــدما كانت امكانات اســتخدام البيئــة الجغرافية ارحب واكثر اتساعا . غير أن لكل بناء اجتماعى ولكل نمط من انمــاط المجتمع سبيله الخاص فى وضع مقياس موضوعى معين يقيس به مدى كفاءة قــواه الانتاجية ومدى نجاحه فى استخدام الموارد الطبيعية . وهذا يؤدى الى قيام انماط

معينة من الاقتصاد بملامحه الخاصة ومايتصل به من توزيع للسكان ، وهذه الأنماط هي محل دراسة الجغرافيا الاقتصادية .

ولانستطيع هنا أن نمنع انفسنا ـ دون الدخول فى تفاصيل مشاكل الأبنية الاقتصادية الخاصة من حيث سويتها أو ثباتها وما الى ذلك ـ من أن نشير الى أن أشكال الاستخدام الاقتصادي العشوائية وغير العلمية للأرض ، التى لاتعنى الا بمصالح جماعات معينة من السكان ، قد تؤدى الى نتائج وخيمة على كل من الطبيعة والمجتمع . وتظهر هذه النتائج السلبية على كل مستوى ، على المستوى المحلى والاقليمى (مثل استنزاف موارد البيئة الطبيعية والاخلال الشنيع بالتوازن الطبيعى ، وتحطيم الغابات وتخريبها ، وجرف التربة وانهاكها ، وتلويث المياه والجو ، والأزمات الاقتصادية ، ونزوح السكان ، وما الى ذلك ، كما تظهر هذه النتائج السلبية أيضا على المستوى القومى (مثل التخبط فى أنحاء أجزاء مختلفة من الوطن ، وزيادة فائض السكان ، وافساد الزراعة ، وازدياد الاعتماد على المساعدات الخارجية ، وما الى ذلك) .

وتستطيع الجغرافيا الاقتصادية بالدراسة الموضوعية للتجارب المختلفة أن تهىء نفسها لتحليل الظاهرات السلبية فى تكوين الاقتصاديات المختلفة ، وأن تصل الى أحسن الحلول للتغلب عليها . والجغرافيا الاقتصادية فى الوقت نفسه ، وعلى خلاف العلوم المشابهة (مستخدمة معطياتها) ، تعمل على أساس التقريب بين نهجين مختلفين بقدر الامكان ، وهما : أفضل توزيع مكانى لجميع القوى الانتاجية واضعة فى الاعتبار حاجات المجتمع الملحة والاختناقات الموجودة فيه نتيجة تراثه التاريخى وجميع المشاكل الاقليمية والقومية المختلفة للسكان والاقتصاد من ناحية ، والتقدير الكامل لجميع خصائص وصفات البيئات الطبيعية التى يستخدمها الانسان ، مع تقدير أفضل وأكمل استخدام للموارد الطبيعية تقديرا قائما على معرفة هذه البيئات وأسلم وسائل استغلالها .

وقد استطعنا بدراسة التوزيع المكانى للسكان على كوكبنا أن نجمع قدرا كبيرا من المعرفة تسمح لنا بالانتقال من المنهج الوصفى والمقارن الى المنهج الكمى والنمطى والانتقال من وصف الظاهرة وتقويمها الى التنبؤ والتخطيط .

مشاكل التنمية والجغرافيا الاقتصادية

ان عبرة التاريخ ، وخاصة فى الفترة التالية للحرب ، تبين ان التطور الطبيعى لايؤدى الى حل لمشاكل عدم المساواة الاقتصادى بين الدول . فبحسبة بسيطة نستطيع أن نقول ان الدول النامية عليها أن تضاعف انتاجها السنوى بمعدلات تفوق المعدل العالمى عدة مرات حتى تستطيع أن تحافظ على نصيبها الحالى من الاقتصاد العالمى ، حيث أن نموها السكانى يفوق معدل النمو السكانى للعالم . فبالنسبة لأمريكا اللاتينية مثلا ينمو سكانها بمعدل ٣٪ سنويا ، فى حين أن معدل نمو سكان،

العالم هو ١٫٨٪ ، ومعدل النمو الاقتصادى للعالم هو ٧٪ ، ومن ثم فلابد لدول امريكا اللاتينية كى تحافظ على مركزها الاقتصادى فى العالم فى الوقت الحاضر من أن تنمى اقتصادها بهذه النسبة : $\frac{٣ \times ٧}{١٫٨} = ١١٫٧$

وحيث أن معدلات النمو الاقتصادى فى أمريكا اللاتينية اقل من ذلك ، وليس هذا فقط ، بل هى كذلك أقل من المعدل العالمى ، فان نصيب أمريكا اللاتينية من الاقتصاد العالمى يتدهور باطراد . وهذا امر واضح حتى فى المجال الصناعى ، وهو احسن حظا من القطاعات الاقتصادية الأخرى فى القارة . اذ أن نصيب أمريكا اللاتينية من الانتاج الصناعى فى العالم غير الاشتراكى قد انخفض من ٤٫٣٪ عام ١٩٤٨ الى ٣٫٦٪ عام ١٩٦٦ . وهذا يعنى تدهورا أكبر فى متوسطات نصيب الفرد بالنسبة للمعدلات العالمية ، ويعنى ايضا ازدياد الهوة بين الدول المتقدمة وبين الدول النامية .

ويرى بعض الباحثين والقادة أن سر المشكلة يكمن فى فيض «السكان» وفرط نموهم فى الدول النامية . وملاءمة معدل النمو السكانى مع معدل النمو الاقتصادى أسهل من العمل على زيادة معدل النمو الاقتصادى زيادة كبيرة . وهم يرون أن تنظيم الأسرة هو أفضل الحلول لهذه المشكلة . وهذا موضوع يحتاج الى شىء من التعليق .

أولا : من دراسة السكان وملاحظة التطور السكانى خلال مئة عام قد تبين أن معدل المواليد ومتوسط حجم الاسرة يتناسبان تناسبا عكسيا مع مستوى المعيشة والحياة الثقافية للأمة وتعتمدان عليهما . فمع ارتفاع مستوى المعيشة والمستوى الثقافى ينخفض معدل المواليد ، ولا جدوى من محاولة علاج نتائج انخفاض مستوى المعيشة دون علاج أسبابها ، فهذا امر لافائدة منه ، بل هو فى النهاية أمر ضار ، لأن هذا يحول الاعتمادات المالية والجهود والوعى من أهدافها الحقيقية والوحيدة التى يمكن أن تؤدى الى نتيجة .

ثانيا : ان تجارب الأمم قد اثبتت أن معدلات المواليد المنخفضة لا تحول دون مشاكل البطالة ، ولا تحول دون تزايد فيض السكان، ولا تحول دون انخفاض معدلات التنمية اطلاقا . ففى فرنسا مثلا سجلت البطالة أعلى ارقامها فى التاريخ خلال العقد الرابع من هذا القرن ، وهى فترة توقفت فيها فرنسا عن الزيادة السكانية . أما عن الدول النامية فان معدلات المواليد المنخفضة فى بعضها يصحبها انخفاض مواز فى معدلات النمو الاقتصادى (مثل الأرجنتين وأوروجواى) .

وهذا ماحدا ببعض الباحثين الى النظر الى انخفاض معدل المواليد والزيادة الطبيعية ومايصحبها من مشاكل سكانية بشىء من الذعر (١) .

---

(١) انظر مثلا « الأرجنتين عام ٢٠٠٠ أمة شبه مقفرة » بوينس ايرس ١٩٦٩

ثالثا : الانسان هو العامل المنتج الرئيسي . ومن الواضح أن عمل شخص واحد يستطيع أن يكفل لعدة أشخاص أسباب المعيشة الرئيسية . وقد أدى التقدم الكبير فى انتاجية العامل واستحداث وسائل جديدة وامكانات واسعة فى الصناعة بعد الحرب الى ارتفاع قيمة انتاج العامل فى كثير من الأقطار ارتفاعا مطردا كبيرا . وأى هبوط فى معدلات الانتاج السنوى والعجز عن توفير العمالة فى مثل هذه الظروف يشير الى فشل فى التوفيق بين نظام العمل وادارته وبين مستوى نمو القرى الانتاجية .

ولايقتصر الأمر مع ذلك على مجرد تغيير المؤشرات الكمية ، فهى فى حد ذاتهـا يمكن بل يجب أن تستخدم فى تحديد درجة التخلف الاجتماعى والاقتصادى ، وذلك اذا استطاعت ان تساعدنا على التعرف على القيم الكيفية والخصائص النوعية لهذه الظاهرة فى الاقطار المختلفة ، واذا ساعدتنا على اكتشاف سلسلة الأسباب والعوامل الرئيسية التى تؤثر فى سير عملية التنمية . ونحن فى هذا المجال لانستطيع أن نقر بفائدة المحاولات التى ترتب اقطار العالم حسب مستوى الانتاج القومى ، أو نصيب الفرد من الدخل القومى ، أو عمل مؤشر احصـائى متكامل من حيث الشـكل ثم نستخدمه معيارا لجميع الأقطار (١) . ولا يزال المجـال متسعا للبحث عن معـايير التخلف والكيفية التى يمكن تعيينها بمجرد استخدام عدد من المؤشرات الكمية .

وهذه هى بعض سمات التخلف .

التبية الاقتصادية بأشكالها المختلفة .

التصدير غير التعويضى لجزء من الانتاج القومى .

التخصص فى انتاج مادة خام زراعية فى مجال التقسيم الدولى للعمل .

تشوه البناء الداخلى للاقتصاد ووجود درجة كبيرة من الانفصالية الاقتصاديه على مستوى القطاع والاقليم .

وجود اختلافات كبيرة فى درجة انتاجية العامل فى القطاعات والفروع المختلفة (وخاصة بين التصدير والفروع التقليدية) مع زيادة نقص الانتاجية زيادة شاملة .

ثنائية البنيان الاقتصادى الاجتماعى مع بقاء جزء كبير من الاقتصاد التقليدى والأساليب القديمة فى استخدام العمل والموارد الطبيعية .

وارتفاع نصيب الفرد السريع من الدخل القومى فى أقطار مثل فنزويلا وليبيا والكويت لم يحررها من الصفات اللاصقة بالدول الأقل تنمية .

---

(١) لايعتبر دليل التنمية العام الذى ابتدع على أساس ثمانية عشر مؤشرا احصائيا فى معهد الأمم المتحدة لأبحاث التنمية الاجتماعية بجنيف كافيا . وانظر :

Institute des investigationes de las Nationes Unidas para el Desaratlo social, Boletin de investigacienes, No. 2. Geneva, Julio 1969.

وقد وضع فيه المؤلفون دليلا لثمان وخمسين دولة يتدرج من ١١١ للولايات المتحدة الى ١٠ لتايلاند .

ان حل مشكلة التخلف الاقتصادى غير ممكن الا عندما تستطيع الدول أن تتخلص من معوقات سنوات طويلة من التخلف والأخذ بخطوات التغيير الجذرى الشامل لتأمين :

ا ــ افضل حشد للقوى العاملة فى اعمال انتاجية .

ب ــ توجيه مصادر الدولة المادية لأغراض التنمية .

جـ ــ رفع انتاجية العمل بسرعة واطراد فى جميع مجالات الانتاج .

د ــ ازالة المعوقات الاجتماعية والجغرافية .

وتستطيع الجغرافيا الاقتصادية ــ بوصفها علما وموضوعا ثقافيا ــ أن تقدم اسهامات هامة فى جميع مراحل التنمية الصعبة .

تشكيل هدف التنمية

نستطيع ان نستخلص ثلاث مراحل أساسية فى تشكيل هدف التنمية لأى قطر من الاقطار :

١ ــ تعيين اهم المشاكل والاختناقات المتعلقة بالسكان والاقتصاد وترتيبها وتداخلها مبتدئين من المقارنات الدولية حتى وضع التعاريف على المستوى الاقليمى (تحليل الموقف ووصفه) .

٢ ــ تعيين وتحديد كل الموارد المتاحة للتنمية وامكاناتها وتسجيلها وتقويمها (تقدير الامكانات) .

٣ ــ وضع السياسات الطويلة الأجل ووضع خطط معينة للتنمية (وضع اهداف) .

وربما اقتصرت اسهامات الجغرافيا الاقتصادية على البحث وجمع المعلومات على النحو التالى :

أولا : البحث فى الاتجاهات العالمية الرئيسية والأنماط المختلفة للاستغلال الاقتصادى والمؤشرات العالمية فى استخدام البيئات الجغرافية واستغلال مواردها ، والترابط بين الصناعات فى الاقتصاد والتركيب الجغرافى ومدى كفاءة استخدام القوى الانتاجية (ومن الممكن استخدام نمط الانتاج فى الجغرافية الاقتصادية الخاص بالدول النامية فى مثل هذا البحث) ، وتقويم مدى كفاءة استخدام الموارد البشرية والتركيب الاقتصادى المعقد ، وتقدير طبيعة ومدى عدم التوازن «الرأسى» ، وتحليل التوزيع الجغرافى للسكان والاقتصاد ، ووصف الاقاليم الاقتصادية الحالية أو المنبثقة، وتقدير طبيعة ومدى عدم التوازن الجغرافى (الأفقى) ، وتقدير اتجاهات التنمية الاقتصادية والاقليمية ، أو التنبؤ بالتغيرات الممكنة تحت ظروف التطور الاقتصادى .

والغرض هو تحديد الاتجاهات الرئيسية واولويات التدخل الحكومى فى عملية التنمية .

ثانيا ــ تقويم الوسائل الممكنة والمكتملة لتنشيط الكفاءة الاقتصادية للقوى الانتاجية القائمة عن طريق :

ا ــ تحديد الأهداف والمعايير لتقدير امكانات اكتشاف الموارد الطبيعية واولوياتها والاشتراك فى البحث عن الموارد وتنظيم مواقعها .

ب ــ التقويم الاقتصادى المتكامل للموارد الطبيعية ، على أن يؤخذ فى الاعتبار حاجات الاستهلاك المحلى وامكانية الانتاج للسوق العالمى .

ثالثا ــ المساهمة فى وضع الأهداف الاقتصادية الطويلة المدى (١٥ سنة ــ ٢٠ سنة) وخاصة فى نطاق العلاقات البيئية بين الانسان والأرض ، والمساهمة فى وضع أهداف متوسطة المدى (٣ سنوات ــ ٥ سنوات) للاستثمار المباشر لرأس المال الحكومى ، والتدخل غير المباشر فى الاقتصاد ، بغرض وضع قواعد لتغيير اقتصادى شامل للمركب الاقتصادى الاجتماعى للدولة ، ووضع مشاريع التخطيط الاقليمى ، والتنبؤ بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والوضع العلمى للبدائل الملاءمة التنمية الاقتصادية الاقليمية بخطط التنمية البشرية ، وتعبئة القوى الانتاجية ، ووضع توصيات تعديل الحدود الادارية حتى تنسجم مع الحدود الاقتصادية وتقريبها بالحدود السياسية لتسهيل ادارة الاستغلال الاقتصادى جغرافيا .

هذه القائمة تبين الدور الهام الذى تستطيع الجغرافيا الاقتصادية أن تؤديه فى البحث العلمى ووضع البدائل للطرق المثلى المؤدية للتقدم الاجتماعى والاقتصادى .

ولابد ان نؤكد ان النتيجة التى نحصل عليها من التطبيق العملى للجغرافيا الاقتصادية على الدول النامية يمكن أن تصبح اكبر قيمة مما نحصل عليه من تطبيقها على الدول المتقدمة . ففى حالة هذه الدول المتقدمة يقتصر عمل الجغرافى الاقتصادى على محاولة ايجاد الوسائل التى يتخلص بها من الاختناقات الآتية التى تنجم من حين الى آخر فى نظام راسخ من القوى الانتاجية الموزعة توزيعا جغرافيا . فالموارد الطبيعية قد استغلت استغلالا كبيرا فعلا ، ومن غير المحتمل ان تكتشف موارد طبيعية جديدة يمكن ان تقلب الاقتصاد الاقليمى رأسا على عقب وتتيح لتلك الموارد فرصة تغيير تخصصها .

وعلى العكس من ذلك فى الدول النامية ، فان درجة استخدام موارد البيئة الجغرافية منخفضة للغاية (فيما عدا استثناءات نادرة عندما يتعلق الأمر باستخراج المعادن للتصدير) . وليس هناك تعقدات فى استخدام الأرض ، كما انها ابعد ماتكون عن الاستقرار ، ومن ثم فنحن نتوقع اكتشاف مصادر رئيسية للثروة وانتاجها ، كما نتوقع أن يؤدى تنظيمها علميا الى تكوين مركبات اقتصادية جديدة ، وخاصة اذا

وضعنا فى الاعتبار الاحتياجات الاقليمية ، وهذه الأقطار لم تصل بعد الى الحد الأمثل فى استغلال الموارد الطبيعية .

وسائل تنفيذ خطط التنمية

نحن نعرف من خبرتنا التاريخية ان أى دفعة نحو التنمية تأتى بعد فترة طويلة من التطور البطىء أو الركود ترتبط ارتباطا وثيقا بتغيرات كيفية فى التركيب الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع . فاستخدام العمل والموارد المادية استخداما اقتصاديا كبيرا وسريعا لايمكن أن يتم الا بعد احداث تغييرات كبيرة المدى فى استخدام القوى الانتاجية ، وهذه بدورها لايمكن أن تحدث الا بعد احداث تغرات اجتماعية كبيرة أيضا . فمثلا لايمكن احداث تكيف فى الزراعة ، مع الاحتفاظ بنظام الملكيات الخاصة الكبيرة أو الصغيرة . كما أنه من الواضح ان القرارات العلمية أو الاجراءات التى تقوم بها الأجهزة الحكومية قاصرة تماما عن احداث تغييرات فى التركيب الاجتماعى فلا بد من التأييد الايجابى لأغلبية السكان ، فهو أمر ضرورى .

من هذه الناحية يمكن أن تعتبر الجغرافيا الاقتصادية ، سواء كانت موضوعا تربويا عاما أو علما ، فى غاية الأهمية فى التأثير على الرأى العام . فلابد أن تبث الجغرافيا منذ عهد الدراسة الاول اتجاها ذكيا نحو ثروة البلاد ، وتحث الناس على أن يفكروا فى امكان تعديل الطبيعة والاقتصاد ، وتقدم لهم تجارب الأقطار الأخرى وما وصلت اليه من تقدم .

غير انه مما يؤسف له أن تعليم الجغرافيا فى معظم الاقطار النامية لايزال متخلفا ، ولايزال المنهج الوصفى التقليدى هو المتبع دون أن يدفع الطلبة الى اتخاذ مواقف نشيط نحو البيئة والموارد . فلم تدخل الطرق البنائية أو الكشفية فى الدرس الا تدريجا فى الجغرافيا الاقتصادية العلمية فى بعض الأقطار . ولايوجد فى معظم الدول النامية أى تدريب حقيقى للجغرافى الاقتصادى المحترف اطلاقا ، رغم الحاح الحاجة اليهم لكى يساهموا فى وضع برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

والجغرافيا الاقتصادية هامة جدا فى وضع وسائل الخطة أيضا . ونستطيع أن نحدد ذلك فى ثلاثة أمور هامة :

١ ـ ضوابط لفحص مدى نجاح الخطط على جميع المستويات ، من الاقتصاد الكبير الى الاقتصاد الصغير ، ودرجة ملاءمة الخطط للعوامل الداخلية والخارجية .

٢ ـ تصحيح وتعديل النماذج الاقليمية للجغرافيا الانتاجية .

٣ ـ تنمية وصياغة الآراء المتعلقة بالخطط القصيرة الاجل التى يجب أن توضع فى ظل الخطة العامة وبوحى منها .

كل هذه الجوانب متصلة اتصالا وثيقا بأهم مبادىء أى خطة ، وهى الاستمرار . وأى انقطاع بين النظرية والتطبيق ينتهى بها الى طريق مسدود ، وعدم وضوح

الرؤية ، والتخبط فى اتخاذ القرارات دون أساس صحيح ، كما يؤدى أولا وقبل كل شىء الى العقم فى التفكير الذى لاجدوى منه .

فلابد أن يعاون كل من النظرية والتطبيق الآخر ويثريه .

ولم تنشر بعد على نطاق واسع التجارب العلمية الدولية فى الجغرافيا الاقتصادية فى البحث أو فى اصدار التوصيات فيما يتعلق بتحديد الأهداف ووضع خطط التنمية كما وضعناها من قبل . وهذا يرجع الى أن البحث فى وسائل التنمية وتنشيطها لم يحتل ما يستحقه من مكانة الا أخيرا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى التقابل الجغرافى الاقتصادى فى الأقطار المتقدمة ، حيث المستوى العلمى فى ذروته ، مشاكل تختلف اختلافا جذريا عن المشاكل التى تقابل الدول النامية التى لم تكد الجغرافيا البناءة فيها تخطو أولى خطواتها بعد . بل حتى فى الأقطار التى تقدمت فيها الأبحاث الجغرافية ، مثل البرازيل والمكسيك والأرجنتين والهند ، لم تتعد هذه الأبحاث مرحلة تحليل الموقف .

وقد تجمع فى الاتحاد السوفيتى قدر كبير من التجربة العملية فى الجغرافيا الاقليمية بقصد تنشيط وسائل التنمية ، وهذا يرجع الى مساحة البلاد من ناحية ، وطبيعة اقتصادها القائم على التخطيط ، وضرورة الاستفادة من المبادرة ، والذاتية الاقليمية ، من ناحية أخرى . وربما استفادت الدول النامية من تجربة تنمية اقتصاد وثقافة اقطار كانت تعد من قبل من أكثر البلاد تخلفا فى ظل القيصرية ، وهى جمهوريات وسط آسيا وياقوتيا الخ .

فشعوب هذه الأقطار عبرت الهوة السحيقة بين الاقطاع (والعلاقات القبلية احيانا) والعزلة الى التكامل التام مع اقتصاد الاتحاد كله على مستوى عال لا يبارى من التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

مقارنات دولية

تعد المقارنات الدولية دون شك من الوسائل الهامة التى توضح حقيقة الأمة ، وهى فى الوقت نفسه تسهل كثيرا مسائل تنظيم وتنسيق التعاون الدولى فى مجال التنمية .

وتهدف المقارنات الاقتصادية عادة الى قياس المستوى النسبى لتنمية الدول ومعدل هذه التنمية ، ومقدار كفاءة استخدام العمل ورأس المال ، ومجال العلاقات التجارية الخارجية وطبيعتها . وتتضمن المقارنات الجغرافية الاقتصادية اختيار المؤشرات التى قد تميز — كميا وكيفيا — الصفة الخاصة لاستخدام الانسان للبيئة الجغرافية ومواردها فى عملية الانتاج .

مثل هذا الاتجاه يكشف بشىء من الوضوح مجالات نشاط الانسان الانتاجى وحاجته الدائمة الى اعادة التنظيم واجراء تحسينات جوهرية فى سبيل الوصول الى

اعلى انتاج من العمل . كما أن هذه المقارنات من شأنها تشجيع تراكم المعرفة المستمر والتعرف الى الأسباب العرضية واكتشاف المسائل التى ينبغى اجراء بحوث عنها بوسائل جديدة .

ولاتزال المقارنات الدولية محددة للغاية ، وذلك لندرة الاحصاءات وخاصة فى دول آسيا وافريقيا الحديثة . كما لابد من فحص المؤشرات الاحصائية المتباحة . كذلك على أية حال ، داخل تلك الامكانات ، لابد من اختيار المؤشرات الضرورية للمقارنة حتى يمكن ان ننشىء صورة متعددة الجوانب للاقتصاد بوجه عام من ناحية ولقطاعاته المختلفة من ناحية أخرى ، من حيث علاقته بالموارد ومستوى التنمية ونمط الاقتصاد والمنتج الناجم عنه . وعلينا أن نميز بين المؤشرات الأساسية ، اى التى تبين الأسباب والنتائج ، وبين المؤشرات العشوائية .

ويجب على التحليل الجغرافى الاقتصادى المتعدد العناصر ان لا يشغل بحالات فردية او علاقات عشوائية وان لايركن الى تبسيط العوامل المتداخلة المعقدة باستخدام مؤشر عالمى واحد . ويهدف تحليل حالة من حالات التنمية الاقتصادية الى التعرف الى اقصى حد ممكن الى نقاط الضعف والقوة فى الاقتصاد واكتشاف أسبابها عن طريق تحليل معاملات الارتباط بين عوامله تحليلا ديناميا مضبوطا . ويجب أن لا نفضل الوظائف العامة التقريبية التى يمكن تطبيقها فى كل دولة ، بل يجب أن نعمل على الاهتداء الى المتغيرات الأكثر دقة التى تؤثر فى الانتاج وفى نمط الاقتصاد موضوع الدراسة .

ولابد ان نبدأ بتصنيف الدول والاقتصاديات ، فهذه خطوة أولية ضرورية يجب أن نقوم بها قبل اجراء اى مقارنات دولية . ومن المهم جدا مقارنة المؤشرات التى تؤدى الى انتاج منخفض فى بعض الدول والى انتاج مرتفع فى دول أخرى ؛ لتحديد الاختناقات وامكانات التنمية الاجتماعية والاقتصادية . على أنه من الضرورى فحص المقارنات ، فالمؤشرات الاقتصادية الصغيرة يمكن مقارنتها بمثيلاتها مقارنة مطلقة (مثل الاهتمام بالاحتياجات التكنولوجية التى تفرضها الظروف الطبيعية) . ولا يمكن عقد مقارنات اقتصادية شاملة الا بين الدول ذات الحجم الواحد . فنحن لا يمكن ان نطلب من دولة ذات ثلاثة ملايين نسمة أو خمسة ملايين نسمة أن تقيم بناء صناعيا يشبه صناعة الولايات المتحدة تنوعا ونموا . ولكن يجب أن نقارن درجة انتاجية العامل فى صناعات أو أعمال متشابهة ، ويمكن مثلا مقارنة وزن الخنزير فى اكوادور (٣٧ كيلو جراما) بنظيره فى جارتها كولومبيا (٦٠ كيلو جراما) التى تسودها ظروف طبيعية مماثلة . ليس هذا فحسب ، كما يمكن أن يقارن أيضا بوزن الخنزير فى بلجيكا وايطاليا (أكثر من ٨٠ كيلوجراما) .

وتبين المقارنات الدولية المدى الشاسع بين الدول المختلفة من الناحيتين الراسية (بناء الاقتصاد وقطاعاته المختلفة) والجغرافية . وهذا التباين يؤدى بدوره الى تحديد طبيعته ومعالمه تحديدا دقيقا ، كما يؤدى الى أن نضع أيدينا على عدم

التوازن الاقتصادى فى كل دولة ، واكتشاف الطرق الرئيسية التى تؤدى الى تغيير تنميتها الاقتصادية .

الاقليمية الاجتماعية الاقتصادية

ان البحث عن العوامل الجغرافية التى تؤثر فى الظاهرات الاجتماعية الاقتصادية وتحديد مناطق التنمية هو من صميم منهج الجغرافيا الاقتصادية . فالتنوع فى الموارد الطبيعية ودرجة استخدامها وتوزيعها والتباين فى تجميع الموارد البشرية واستخدامها ، والاختلاف فى البنيان الاجتماعى والمشاكل الاقتصادية التى تواجه كل مجتمع ، كل هذا يستدعى انتهاج طرق مختلفة لمعالجة مشكلات التنمية فى كل اقليم .

والاقليم الاجتماعى الاقتصادى مركب فريد قائم أو فى سبيله الى الظهور يتكون من القوى الانتاجية التى تتحدد خصائصها المميزة بتوزيع جغرافى لبنيان اجتماعى معين . ولا يستطيع الباحث أن يرسم حدودا حسنة أو سيئة لهذا الاقليم . ولكنه يكتفى بالحدود الاقليمية الموجودة ، سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة .

وتميز الجغرافيا الاقتصادية بين الأقاليم القطاعية (زراعية أو صناعية أو مواصلات) وبين الأقاليم المتكاملة . وليست الأقاليم الأولى سوى أجزاء من اقليم اقتصادى متكامل تقع ضمن حدوده ، وقد نقع أحيانا فى أخطاء فكرية معينة ، فنتصور ان التجانس فى الانتاج أو التخصص فيه أو غيرهما من الصفات تميز الاقليم . والواقع أن الاقليم لا يتميز بالتجانس بل بالوحدة التى تضم مختلف عناصر الحياة الاقتصادية ، مكونة مركبا معينا له روابطه الداخلية والخارجية الثابتة .

ويتكون الأساس الاقتصادى للاقليم من الاتجاه نحو تحقيق أكبر قدر من الاكتفاء الذاتى والتكامل (الذى لا يمكن الوصول اليه) من ناحية والتخصص بالنسبة للاقاليم الاقتصادية الأخرى من ناحية أخرى . ولا نقصد بالتخصص مجرد انتاج سلع معينة ، ولكن الانتاج بأعلى كفاءة وانتاجية ممكنة ، بمقارنتها بمعدل الانتاجية لهذا القطاع فى أجزاء القطر الأخرى . ولاتختلف الأقاليم بعضها عن البعض الآخر فيما تنتجه ، ولكن كيف يتم هذا الانتاج ، ولأى مستهلك ، ولمصلحة من ، الخ . فلو أن اقليما ما سبق الأقاليم الأخرى فى درجة الانتاجية لسلعة ما فانه ، تحت ظروف تحكم السوق ، قد يصاب بأزمة اقتصادية ، مما يؤدى الى هبوط فى الانتاج، واخيرا يفقد تخصصه التقليدى على مستوى الأمة . وهذا هو السبب فى صعوبة تحديد اقليمين من أقاليم الذرة أو ثلاثة لتكون مناطق منتجة للقطن فى دولة ما ، دون شرح الفروق الجوهرية بينها وبيان صفاتها المميزة ، والا تحولت فكرة الاقليم الى مجرد مناطق توزيع للذرة او القطن ولا شىء غير ذلك .

فالاقليم اذن جزء متخصص من كل ، تهتم معظم القطاعات فيه بتلبية الاحتياجات المتبادلة بين الأقاليم وبين قطاع واحد أو أكثر ، وتهتم باحتياجات الأمة

داخليا وخارجيا (والفضل فى ذلك يرجع الى درجة الانتاجية للعامل التى وصل اليها الاقليم) .

ولما كان الاقليم جزءا مكونا من كل فان الاقليم لا يمكن أن يقوم دون تفاعل جميع الأقاليم ، ويجب أن لاينظر اليه كشيء منعزل مكتف بذاته .

ولا نحتاج أن نقول ان مقارنات مستويات انتاجية العمل اقليميا على مستوى الأمة وبالتالي تكوين الأقاليم الاقتصادية المتخصصة لا تتم الا فى ظل درجة كبيرة من تكامل اقتصاد جميع أجزاء الاقليم ، وبشرط أن يشارك السكان جميعهم أو أغلبيتهم الكبرى فى سوق وطنى واحد وعلاقات سلعية نقدية نامية بشكل كاف .

ومن الممكن قياس توافر هذه الشروط ودرجة تكامل الدولة اقتصاديا بعدة مقاييس مختلفة ، مثل بيانات الاحصاءات التجارية ، والتمييز الاقليمى فى أجور العمال ، وطبيعة الهجرات بين الأقاليم ، ونمط شبكة السكك الحديدية ، ومدى استفادة الأقاليم والسكان والانتاج من هذه الشبكة ، الخ .

ويجب أن نؤكد أن الاقليم ليس جزءا من أرض الدولة ، ولكنه جزء من اقتصادها . وهذا هو السبب فى اقتصار الأقاليم الاقتصادية فى الأقطار التى تتقدم بعض أجزائها بقية أرض الدولة على تلك الأجزاء المتقدمة اقتصاديا وترابط أجزاؤها بوشائج عديدة فحسب .

أما فى الأقطار غير المتكاملة ، أو الضعيفة التكامل ، فاننا لانستطيع أن نتحدث عن أقاليم محدودة . هى فى أحسن حالاتها أقاليم فى دور التكوين ، كما انها لا تزال فى دور التنمية من حيث البناء الداخلى والتخصص والعلاقة بينها وبين أجزاء الدولة الأخرى، ويحدث غالبا أن تصل درجة عزلة بعض أجزاء الدولة عن بقية أجزائها الأخرى الى حد تصبح فيه أكثر ارتباطا بالخارج وبالسوق العالمى منها بقلب الدولة الاقتصادى ، وتصبح مثل هذه الأجزاء أحيانا جزءا هامشيا (بالنسبة لبقية الاقليم) ومصدرا للتمويل التعويضى .

ويتضمن وضع حدود الأقاليم الاقتصادية دراسة التوزيع الجغرافى للوحدات الاجتماعية الاقتصادية المعقدة ، اى دراسة الجغرافيا الاجتماعية . والتشابه الاجتماعى هو الذى يكمن وراء تكوين المناطق الاقتصادية ، لأنه يؤدى الى تشابه مستوى انتاجية العمل ، والأمل فى رفع مستويات المعيشة والاستهلاك وبالتالى الأمل فى اقامة سوق اقليمية .

ان المركب الاقتصادى للاقليم سواء كان متقدما أو متخلفا يعتمد على التركيب الاجتماعى الداخلى لبنائه . ففى كل اقليم تؤدى العلاقات الاجتماعية الأكثر تقدما الى أعلى انتاجية فى العمل (بالمقارنة مع المعدل الاقليمى العام) فى القطاعات المعينة من الاقتصاد التى تعتبر أساس التخصص الاقليمى .

وتعتبر طبيعة ملكية الأرض وحيازتها أفضل مؤشر فى توزيع علاقات اجتماعية

يمكن مقارنتها بعضها ببعض . وهذه المؤشرات أكثر التصاقا بالاقليم ، وتلقى الضوء على أسباب التخلف أو التنمية ، وهذا شيء هام عند وضع القرار .

ولابد أيضا من البحث عن مؤشرات أخرى تستخدم فى الصناعة (نوع المشروع ، معالم تركيز رأس المال المميزة ، نسبة الصناعات اليدوية للصناعات المصنعية ، رأس المال الوطنى والأجنبى ، وماشابه ذلك) .

وتستخدم مؤشرات اخرى أيضا استخداما واسعا، مثل نتائج البناء الاجتماعى:

اى نسبة الأمية فى السكان الريفيين ، ومستوى الكسب ، والدخل الفردى، والدخل الأسرى ، ونصيب الفرد من الدخل القومى ، وعدد الأطباء والمدرسين والزراعيين والمهندسين بالنسبة للسكان ، ومتوسط الأعمار ، الخ .

وتستخدم أيضا الطريقة الاقليمية فى التحليل الاقتصادى الاقليمى . وهذا منهج تجريبى صرف لا علاقة له بمحاولات الوصول الى الأسباب والمسببات . وهو منهج يلجأ اليه فقط عندما نكف عن محاولة الوصول الى افضل واكمل اشتراطات اجتماعية للتنمية الاقليمية ، ونقنع بمجرد تحسين الظروف التكنواقتصادية داخل النظم الاجتماعية القائمة ، وتتكون هذه الطريقة من ترتيب المراكز الحضرية ترتيبا تصاعديا وتحديد أقاليم كل مركز حضرى ونطاق نفوذه . ومنها أيضا دراسة معالم الهجرات الداخلية ومراكز الجذب الحضرى التى يتجه اليها المهاجرون من الريف ، وتدفق حركة البضائع ومراكز تجارة الجملة ومحيطها ، ومناطق الجذب للجامعات المختلفة ، الخ .

ولابد من ان نلجأ الى جميع الوسائل فى وقت واحد لكى نرسم بدقة حدود الأقاليم الاجتماعية الاقتصادية . ومن المستحسن هنا أن نحاول الحصول على بيانات عن أصغر الوحدات الإدارية ، ولا نلجأ الى الأقسام الادارية الكبرى .

ولابد أن نتذكر أن حدود الأقاليم الاجتماعية الاقتصادية ليست خطوطا محدودة قاطعة مثل الحدود السياسية ، ولكنها حدود متداخلة متشابكة بعضها بالبعض الآخر .

أن رسم حدود الأقاليم الاقتصادية هو خطوة ضرورية لدراسة التحليل الاقتصادى المقارن ، ويؤدى التحليل الاقتصادى عادة الى انشاء جداول موازنة ثابتة ومتحركة عن الموارد البشرية ، وموازنات بين القطاعات الاقتصادية المختلفة وبين الصناعات المختلفة فى النوع والقيمة ، وموازنة فى الاستثمارات ، الخ .

ولكى تحدد مدى كفاءة المركب الاقتصادى الاقليمى من وجهة نظر استخدام العمل ورأس المال يستخدم أيضا تحليل موازنة نمط الاستهلاك والانتاج . ومهمة التحليل الجغرافى الاقتصادى هى تحديد كفاءة الاقتصاد من وجهة نظر استخدام الخام وموارد الطاقة والموارد المائية الخ بالنسبة للأسواق . والهدف النهائى البيئة الجغرافية ومواردها ، وتوطن مراكز الانتاج بالنسبة لليد العاملة والموارد

لمثل هذا التحليل هو اقامة العلاقات المتبادلة بين استخدام الموارد الطبيعية وتوطن مراكز الانتاج تبعا لنمط الاقتصاد الخاص بالاقليم من ناحية وانتاجيــة العمــل من ناحية أخرى .

وربما أصبح التحليل الاقليمى أساسا لتحديد اتجاهات الدولة الرئيســية فى التدخل فى عملية التنمية الاقتصادية الاجتماعية المحلية . وتصبح هــذه الاتجاهات اكثر وضوحا اذا استخدمت المادة التحليلية فى التنبؤ بالتنمية الاقليمية . ومن أجل التنبؤ الجغرافى الاقتصادى لابد من استخدام طرق قيــاس اقتصــادية تعتمد على الاستقرار وعلى وضع نماذج للبرمجة الموجهة ، ولا يمكن بطبيعة الحال الاعتماد على مثل هذه التنبؤات ان لم تؤخذ فى الاعتبار التنبؤات المتعلقة بالسوق العالمى والتنمية الاقتصادية للقطر بأكمله .

الا أن تحديد الاتجاهات لأجل قيادة الاقتصاد أحسن قيادة واكفأها لا يقــدم لنا المقياس الصحيح لاتخاذ القرار الحاسم . وقبل أن نصل الى هذه المرحلة التى يتم فيها وضع الأهداف النهائية للتنمية لابد من أن نوضح ونقــدر امكانات الموارد المتاحة للقطر .

تقويم الموارد والامكانات

يقوم الاقتصاديون بأهم دور ، فعليهم أن يقدروا ويتنبأوا بالموارد ومدى امكان تمويل التنمية ، وهذا أمر هام فى رسم الخطط المتوسطة المدى لأجل تدخل الدولة فى الاقتصاد .

وتستطيع الجغرافيا الاقتصادية أن تقوم بدور كبير فى تحديد وسائل حشــد الامكانات والموارد لاستمرار التدفق المالى ولتدعيم كفاءة الاقتصاد ككل .

وتسير الأبحاث عادة على ثلاثة مبادىء :

١ ــ تقويم الاحتياطيات لأجل تكثيف الانتاج عن طريق تغيير التركيب الاجتماعى الذى يحكم استخدام القوى الانتاجية (مثلا تقدير اتجاهات وآثار الاصلاح الزراعى فى المناطق المختلفة ، والتقويم المقارن لاستغلال بعض الموارد برؤوس اموال اجنبية ووطنية ، واثر ذلك فى الداخل والخــارج ، واســتخدام رأس المــال الخــاص أو العام ، الخ) .

٢ ــ تقدير امكانات الاقتصاد الأمثل بتوطين أفضــل وتوزيع أحسن للقــوى الانتاجية داخل الاقليم او خلاله (اثر تقريب الانتاج من موارد الموادالخام والأسواق، وازالة وسائل النقل غير الملائمة ، والتخصص والتعاون فى الانتاج ، وازالة الفجوات الجغرافية بين انتاج المواد الخام محليا واستخدامها النهائى ، وخلق دوائر انتاجية كاملة متداخلة) .

٣ ــ تقويم امكان استغلال موارد طبيعية جديدة ، ومقارنة الكفاءة الاقتصادية لوسائل استخدامها المختلفة .

وحشد الامكانات المذكورة فى البندين الأولين أكثر فائدة ، لأن نسبة حاجتها الى رأس المال أقل من نسبة النتائج التى تعطيها ، ولأنها تؤدى الى عائد أسرع ، وتقدم حافزا ديناميا نحو تنمية المجتمع بأكمله ، لا نحو اقليم واحد، الا انها تتضمن سياسة ثابتة لادخال تغيرات أساسية متغلبة على مقاومة القوى الاجتماعية والاقتصادية المحافظة والتقليدية .

أما موضوع البند الثالث فان كل الحكومات مستعدة عمليا أن تقوم به . الا أن فتح مجالات للموارد الطبيعية الجديدة أمر محفوف بالأخطار والنتائج السلبية ،وهذا قد يؤدى ــ تحت اغراء رأس المال الخاص ولا سيما الأجنبى ــ الى تخصص فى انتاج المواد الخام ، والى زيادة الاعتماد على السوق العالمى ، والى ضعف الاقتصاد القومى ضعفا شديدا . وعلى العكس من ذلك قد يكون استخدام الموارد الطبيعية استخداما شاملا على مقياس كبير ، مع مراعاة النقط المشار اليها فى البندين الأولين ، آثار ايجابية جدا . وهذا هو السبب فى ضرورة معالجة هذه الموضوعات بمرونة وبعد نظر ، وتنظيم الدراسة الشاملة تنظيما علميا ، وتقويم الموارد الطبيعية فى الأقطار الضعيفة النمو ، وذات الحظ الضئيل فى هذه الموارد ، وذلك بسبب نقص العاملين .

واليك الخطوات الأساسية والمشاكل الرئيسية المرتبطة بدراسة الموارد الطبيعية واستخدامها .

متطلبات تقدير الموارد

المهم أن تحدد أولويات فى البحث عن الموارد الطبيعية ذات الطابع المعين ، ومن الضرورى أن تحدد المقاييس التكنولوجية والاقتصادية والمعايير التى يجب أن تقاس بها هذه الموارد ، وتحديد الأقاليم التى هى فى حاجة الى موارد معينة .

ويجب أن لا تحدد المتطلبات على أساس العرض والطلب فى الوقت الحاضر ، بل يجب أن نضع فى ذهننا تنبؤات عن الانتاج العالمى والسوق المالية ، وان تقدر أيضا اتجاهات التكنولوجيا الحديثة فى طرق استخدام الموارد وامكان ايجاد بدائل لها .

وعند تحديد الأولويات فى دراسة الموارد من الضررورى أن نتذكر ما يشوب الدراسات الجغرافية فى الأقطار النامية من نقص شديد وعدم تجانس وقصور فى معرفة البيئة الجغرافية أو عدم التكامل فيها ، اذ لا يعرف معرفة حقيقية نسبيا الا الموارد التى تهم رأس المال الأجنبى ، مثل زيت البترول، وخامات المعادن ، الخ. أما الموارد غير القابلة للتصدير ، والقابلة للتجديد (مثل التربة والماء والمناخ والنبات ، الخ) ، التى كثيرا ما تقل اهميتها ، فهى غير مدروسة دراسة جيدة .

التقديرات العامة للموارد الطبيعية

يجب أن تشمل هذه التقديرات القطر كله ، وأن تهدف الى تحديد أولويات اقليمية لدراسات تفصيلية تالية . ولابد أن تكون هذه التقديرات عامة بشكل كبير ،

ويمكن ان تكون جهودا مشتركة من الجغرافيين الاقتصاديين والجغرافيين الطبيعيين من أصحاب النظرات الشاملة .

الكشف عن الموارد الأساسية

تتم هذه فى الجهات الأولية الخاصة . ورغم ان البحث يجب أن يتم فى كل منطقة على حدة على مورد معين من الموارد الطبيعية فمن المهم بصفة خاصة ومن المجدى اقتصاديا أن يتم البحث والكشف عن جميع الموارد الطبيعية المحلية . وهذا يسهل عملية استخدام أدوات البحث استخداما شاملا (فمن الممكن مثلا عند رسم صور جوية أن تعمل مساحة جوية مغناطيسية وقياس لدرجة الجاذبية ، الى جانب اكتشاف الموارد الكامنة المبشرة بأنها ستكون من الطراز الأول والموارد الثانوية ، واكتشاف خصائص الجمع بينها ، وأنواع الموارد « المساعدة » الأخرى الناقصة والضرورية لاستغلال الموارد الرئيسية .

التوزيع الاقليمى للموارد وحصرها

تتم هذه عادة طبقا لمعلومات الكشف الأساسية . وهى تبدأ من المنطقة المختارة وتتسع حتى تشمل القطر كله . وتوزيع الموارد توزيعا اقليميا أمر بالغ الأهمية . وهو يهدف الى معرفة الموارد الرئيسية لاقليم ما ، ورسم حدود توزيعها ، ومراكز جاذبية كل منها . الى جانب قران الموارد الرئيسية بالموارد المساعدة الاضافية . ولا يمكن حل مشاكل التخطيط الاقليمى دون أن تكون لدينا فكرة واضحة عن التوزيع الاقليمى للموارد . وعندما نحتاج لاستخدام مورد ما استخداما متكاملا مع غيره لابد من تعديل حدود الاقليم الاقتصادى ليلائم أغراض التخطيط ، وفى حالات أخرى يستخدم مورد الماء استخداما جزئيا فى عدة أقاليم (النهر مثلا) ، وهنا لابد من معرفة أثر استخدامه فى منطقة ما على امكانات استخدامه فى مناطق أخرى . وهذا التوزيع الاقليمى للموارد يجب أن يقدم المشورة حول افضل استخدام للموارد من وجهة نظر الطبيعة ، وللمورد الطبيعى فى حالته السائدة ، حتى نتحاشى الآثار السلبية فى مثل هذه العمليات .

وحصر الموارد يجب أن يمد المخططين ببيانات كرتوجرافية وكمية وكيفية ، لأنواع الموارد ، ولأقاليم الموارد ، والأقاليم الاقتصادية والادارية .

الكشف شبه التفصيلى للموارد لأجل التخطيط الاقتصادى

يتم هذا بالنسبة لأقاليم مختارة . ويهدف الى اعطاء تقدير اقتصادى لطاقة الموارد الطبيعية ، وهذا قد يحدد تكاليف استغلاله . ويجب ايضا تقدير العوامل التى لا ترتبط مباشرة بالمورد (مثل توافر اليد العاملة ، ووجود العوامل الاقتصادية المساعدة وقيمتها ، والبعد عن المستهلكين ، وامكان الحصول على موارد مساعدة ،

وتكاليف ذلك ، الخ) . ويجب تقدير تكاليف حلول المشاكل التكنولوجية والمكانية الاضافية .

ومجرد سرد الخطوات المبدئية والأسئلة الرئيسية التى يجب أن يشملها البحث عن الموارد يبين تعقد مشاكلها وتداخلها وتعدد جوانبها وضرورة أن يعالجها اشخاص مدربون اخصائيون يتكونون من المتخصصين العامين والخبراء فى نواح معينة . ولا نحتاج الى أن نقول ان مثل هذا العمل لا يمكن القيام به الا من مركز واحد ، ولا يمكن أن يؤتى ثماره الا بتعاون أقسام علمية وعملية تعاونا منظما متناسقا . مثل هذه المعالجة فقط يمكن أن تتحاشىالنظرة الضيقة أو غير الموضوعية التى تميل الى المغالاة فى تقدير بعض العوامل والتقليل من شأن عوامل أخرى ، وهى التى يمكن أن تمد المخطط بمادة ذات قيمة عالية غير متحيزة يمكن استخدامها .

الجغرافية الاقتصادية ومشاكل تخطيط التنمية

يجب أن تساهم العلوم الجغرافية فى حل مشاكل التنمية ، والمتناقضات العديدة التى تجابه العلماء فيما يتعلق بتقويم مسائل التنمية وتوطين العوامل الانتاجية وبصفة خاصة استخدام الموارد الطبيعية . ولابد من أن يعطى الاهتمام الكافى فى جميع المراحل لمسائل تقويم المتناقضات وتحديدها ، مثل ما هو موجود بين : (أ) وجهة النظر الحكومية ووجهة نظر القطاع الخاص ، (ب) المعالجة الجزئية والمعالجة الكلية ، (جـ) وجهة النظر الاقليمية والمحلية والوطنية ، (د) استخراج أكبر قدر ممكن من النتائج الاقتصادية من استغلال الموارد الطبيعية وعواقب ذلك الاستغلال فى المستقبل .

وتتحدد أهداف التخطيط الجغرافية الاقتصادية بالقران الفريد بين العوامل الجغرافية الثابتة (مساحة القطر وعدد سكانه ، طبيعة البيئة الجغرافية ومواردها، التوزيع الجغرافى للسكان ، الخ) والبنيان الاجتماعى الاقتصادى الداخلى وأثره الخارجى . ومن الواضح أن قران هذه العوامل يحدد أيضا التنمية التلقائية .

نتيجة لذلك فان استراتيجية التنمية الطويلة الأجل ينبغى أن تحدد أىالعوامل يجب أن تستغل ، والى أى مدى ، وبأية وسائل ، حتى يمكن الحصول على أفضل النتائج الممكنة .

ويهدف التخطيط الاقليمى على المستويين الوطنى والاقليمى الى : (أ) ترابط جميع أجزاء القطر والتغلب على مشاكل النقل والعزلة الاقتصادية والحضارية التى تعانيها اجزاؤه ، (ب) تسوية الظروف الاجتماعية والاقتصادية للحياة فى جميع أنحاء القطر بقدر الامكان ، (جـ) التخلص من عوامل عدم التوازن الجغرافى واشكال الشذوذ فى التنمية وتوطين الانتاج فى الوحدات الانتاجية ، (د) استخدام اليد العاملة والموارد الطبيعية فى جميع أنحاء القطر أفضل استخدام ، (هـ) تشجيع التخصص الاقليمى والوصول بجميع أوجه التكامل الاقتصادى الى أقصى مرحلة من

التكامل والترابط ، (و) تحسين توزيع القوى الانتاجية توزيعا مكانيا لمنافسة آثار الروابط الاقتصادية الخارجية .

وقد أظهرت التجربة أن توزيع أدنى حد من الخدمات الاجتماعية بين الأقاليم (مثل مرحلة التعليم الالزامى) يجب أن يكون من بين المتطلبات الأولى لحالة المعيشة بينها ، ومن ثم لا ينفق شيء من الاستثمار على تسوية الأحوال الاجتماعية فيما بينها . وأهم من ذلك انشاء مراكز للتنمية ليشجع نمو الاقليم ويحدث ثورة فى القوى الانتاجية به . وهذا هو السبب فى أن تسوية القطاعات الأساسية للقوى الانتاجية وتوزيع الخدمات الرئيسية توزيعا عادلا تعتبر من صلب الخطة . ولابد أن تراعى كل الخطط الوطنية هذه المسألة ، ولابد أن ينبع التخطيط الاقليمى من اهداف وميزانيات الخطة الوطنية العامة ، كما لابد أن ترسم فى ضوء الاعتبارات الآتية :

ـ خلق مركب صناعات اقليمى مرتبط بالصناعات الوطنية الأساسية مستخدمة الى اقصى حد ممكن منتجاتها الجانبية وامكاناتها الهامشية .

ـ استخدام الموارد الطبيعية المحلية أفضل استخدام لتغذية القطاعات الجانبية ، وتنمية الصناعات المحلية التى لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالصناعات الرئيسية .

ـ المحافظة على الموارد القابلة للتجديد .

ـ منع تلوث الماء أو الجو أو المنظر الطبيعى .

ـ المحافظة على المنظر الطبيعى ، وتنظيم الاحتياطات ، وانشاء مناطق للترفيه والسياحة .

فالمعالجة الجغرافية لمشاكل التنمية تجعلها أكثر واقعية بصفة عامة . وهى تعطى خطط التنمية نظرة أوسع ، بشريا وعنصريا واجتماعيا واقتصاديا ، كما أنها تحيط بالمعالم الطبيعية للاقليم وتمنحنا القدرة على حل كثير من مشاكل البيئة فى كل اقليم ، وبذلك نستطيع تحسين القطر كله عاملين على تحقيق كفاءة الاقتصاد كله ورفع مستوى المعيشة *



بدأ الاهتمام بمشكلات التنمية مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويمكن تبرير هذا الاهتمام اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى جوانب ثلاثة عميقة فى تأثيرها ، وأول هذه الجوانب يتمثل فى التمرد العام على الأوضاع الناتجة عن التبعية الاستعمارية ، والدعوة لمناقشة التبعية والضعف الاقتصادى ، ومواجهة التغيرات الراديكالية التى أثرت فى كل المجتمعات . ويتعلق الاعتبار الثانى بالاتجاهات الجديدة التى فرضت نفسها على العلوم الاجتماعية ، واخيرا اصطلاح التنمية الذى استوجب فروعا جديدة للدراسة ، فى مجالات الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة ، ويشير تعبير التنمية الى نوع عرض واسع من الأفكار وأيضا أنماط المجتمعات ، فتعبير أو اصطلاح العالم الثالث (١) الذى تشكل وفقا لوجود مقدرة أو قوة ثالثة يركز على الاهمية السياسة لغايات وأنشطة هذا العالم ، وأما اصطلاحا «الدولة النامية» و «الدولة التى تمر بعملية التنمية» فهما اصطلاحان محايدان ، أو يعتبران طريقة تشاؤمية للتعبير عن المعوقات التى فرضتها العقبات التى تحدث أثناء عملية التنمية .

---

(١) بعد أن نشرت مؤلفا بهذا العنوان فى سنة ١٩٥٦ كنت مسئولا عنه أصبح هذا التعبير واسع الانتشار والاستعمال ، وتبنته المجتمعات الناطقة بالانجليزية ، انظر على سبيل المثال :

Le Tiers. Mond., Sous developpement et Developpement 1st ed., Paris, Presses universitaires de France, 1956.

بقلم : چورچ بالاندیه

أستاذ في السوربون ومدير مدرسة الدراسات العليا التطبيقية بجامعة باريس ، عمل أستاذا زائرا بجامعة ديوك . ومن مؤلفاته « علم الاجتماع للواقع الاجتماعى للقارة الافريقية السوداء » الطبعة الثالثة ، عام ١٩٧١ ، والطبعة الأخيرة من كتابه « أفريقيا فى الميزان » عام ١٩٦٩ ، والطبعة الثانية من مؤلفه « علم الأنثروبولوجيا السياسية » عام ١٩٦٩ ، وكتابه عن « الديناميات الاجتماعية » عام ١٩٧١ .

ترجمة : الدكتور أحمد الخشاب

أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة .

التنمية وعلم الاجتماع

قدم لنا البحث فى التنمية فى فترة وجيزة جدا تراثا علميا وافرا وكبيرا ، فثمة قائمة بيليوجرافية غير منشورة أعدت خلال عام ١٩٥٠ ، وتحتوى أكثر من عشرة آلاف عنوان منشور ترتبط كلها مباشرة بالانساق الاقتصادية ومجتمعات العالم الثالث . وهناك أيضا عمل حديث قدمه ج . فريسنت حول فكرة التنمية ، اشار فيه الى أكثر من خمسمئة دراسة ضرورية فى تعريف التنمية ، كما انه يمكن عد النقارير المتخصصة فى هذا الصدد بالآلاف .

وفيما يتعلق بالاعلام حول هذا الموضوع يبدو انه وافر وكثير ، ويبدو أيضا أنه يعتمد اعتمادا كبيرا على دراسات أولية وتقويمات للمشروعات المكتملة حول التنمية أو التى فى طريقها للاكتمال . وكل هذا فى واقع الأمر يوجد القدرة على تقدير الصعاب والعقبات التى تتعلق بالتنمية .

ويمكن أن تعزى هذه العقبات بصفة مبدئية الى طبيعة الظروف التى أشير اليها فى بداية تقرير بيرسون ، ومنها : الهوة الواسعة بين الدول النامية والدول المتقدمة ، هذا بجانب ملاحظة السكرتير العام للامم المتحدة فى سنة ١٩٦٨ وهى أن متوسط معدل النمو السنوى للفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ أصبح ٤ر٥٪ فى حوالى ٥٤ دولة تمثل ٨٧٪ من سكان العالم الثالث ، وكان الحد الادنى الموضوعى ثابتا

لدى نسبة ٥٪ (٢) . ولقد نظر بعض علماء السياسة والاجتماع الى هذا التفاوت بطريقة درامية ، ومن ثم اهتموا بدخول المجتمعات التى يمكن تسميتها متقدمة عصر ما بعد الصناعة أو عصر التكنيترونك ، فى اللحظة التى لاتزال فيها الدولة الآخذة فى التنمية تقترب او توشك أن تقترب من العصر الصناعى . وقارن بريزينسكى مناطق الفقر التى سماها عالم الأقليات ايربان جيتوز بالاقليات الحضرية ، وضمن مقارنته : انه من الصعوبة بمكان أن نتنبأ بما سوف يكون عليه التطور الاقتصادى والسياسى للدول النامية . ولكن التوقع العام لا يدعو الى التفاؤل (١) . واما عن الاعتراضات التى تتعلق بالمستقبل فقلما يتم تأكيدها ، ففى سنة ١٩٦٥ كان ناتج الدخل فى الدول المتقدمة اكثر من اثنى عشر مثلا لدخل الدول النامية ، كما أن التقدير المتوقع يشير الى انه فى حوالى سنة ٢٠٠٠ سوف يكون الفراق بين النوعين من الدول ثمانى عشرة مثلا (٢) .

وبهذا يكون السياق العام فى الوقت نفسه تطبيقيا (بالاضافة الى كونه سياسيا وعلميا فى طابعه) . وفيما يتعلق بالنقطة الأخيرة الخاصة بالطابع العلمى فان عدم التيقن قائم بالرغم من البحوث والدراسات التى تم انجازها خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، وخاصة ما انجز منها فى نطاق العلوم الاجتماعية . وتمثل الدول التى تمر بعملية التنمية وبتلك التى اخذت بالأساليب الحديثة أغلبية عظمى من المجتمعات وعددا كبيرا من السكان . ولذلك فهى فى حاجة الى اقامة نوع جديد من المعرفة التى ترتبط بتنوعها وموقفها الذى يمكن أن نسميه موقفا «انتقاليا» ، وترتبط ايضا بمشكلاتها المباشرة . غير أن هناك صعوبة أخرى تأتى من أن العلوم الاجتماعية قامت على أساس من الخبرة المحدودة ـ التى تتحدد بالمجتمعات التى عرفت بأنها مجتمعات غربية ـ وارتبطت بنموذج خاص من المجتمعات كالمجتمع الصناعى الذى يعد أصيلا فى أوربا . ونتيجة لهذه الظروف برهنت المفهومات والنظريات وطرق البحث وأساليبه الفنية على أنها غير ملائمة للتطبيق فى مثل حالة مجتمعات العالم الثالث .

ونتيجة لهذا فان علم اجتماع التنمية بالرغم من انه نسق علمى جديد اصبح موضوعا للنقد الشديد . فان أ . ج . فرانك ، على سبيل المثال ، يعيب على هذا العلم انه اصبح اكثر اقترابا للتخلف مما هو دون التنمية ، شأنه فى ذلك شأن المجتمعات التى يعنى بالتطبيق فيها . واتهم هذا العلم لأنه أصبح أقل ملاءمة لهذه

---

(١) الأمم المتحدة « نحو استراتيجية عالمية للتنمية » تقرير قدمه السكرتير العام لمؤتمر التجارة والتنمية ، نيويورك ١٩٦٨ .

(٢) Z. Brzezinsti, «Between Two Ages», 1970

(٣) H. Kahnand A. Wiener, The year 2000, 1967.

المجتمعات لمبررات أمبريقية ونظرية وسياسية (١) . ان هذا النقد نقد قاس ، غير انه ليس نقدا بغير أساس . فقد قام به متخصصون ينتمون الى دول العالم الثالث الذين يهتمون بالاختلافات بين الموضوعات (الخاصة بالمجتمعات الغربية والمجتمعات غير الغربية) وعدم ملاءمة المناهج أو المداخل العلمية ، فقد حاول أ . عبد الملك أن يحدد مستقبل النظرية الاجتماعية ، بل نقد هذه النظرية بناء على موقفها الراهن ، وذلك على أساس أن عمومية النموذج التصوري الميكانيكي للعلوم الاجتماعية تدعو الى التساؤل والمراجعة ، كما ان النتيجتين اللتين تتعلقان بعدم ملاءمة هذا النموذج والاختلافات بين المجتمعات يجب أن تعرف كحقيقة قائمة ، أو تعد واضح على جزء من العالم الواقعى (٢) . ولمواجهة هذه الصعوبة جزئيا أو مرحليا حاول بعض المؤلفين أن يميزوا بين الانثروبولوجيا التطبيقية وعلم اجتماع التنمية . فباستيد يقارن كلا منهما بالآخر ، على اعتبار انهما نوعان من المنطق متعارضان فى طابعهما . وفى هذه الوجهة من النظر تميل الاولى الى تأكيد أهمية العوامل الثقافية والنظرة العامة ، التى يجب أن تتغير أولا ، حتى يترتب عليها تغيرات فى الأبنية الاجتماعية ، واما الثانى (علم اجتماع التنمية) فيركز من جانب آخر على التغيرات الاقتصادية التى تفضى الى تغيرات فى البناء الاجتماعى . ومن خلال هذه المتغيرات الاقتصادية تحدث تغيرات فى النظرة العامة . فواحد منهما يعنى بما هو جوهرى كيفى والآخر كمى ولكنه يرتبط بالتصور النوعى للتنمية .

وقد ذهب ر. باستيد الى ابعد من مجرد المقارنة بين النسقين العلميين ، باقتراحه قائمة بالمهام التى تعد مهمة لعلم اجتماع التنمية ، والتى تتمثل فى : (أ) تحديد معيار للمجتمع الذى يكون فى حالة دون التنمية ، والذى قد يكون معيارا اقتصاديا او ديموجرافيا أو مرتبطا بطابع اجتماعى . (ب) تعيين المعوقات الداخلية والبنائية للتنمية الاقتصادية . (جـ) تحديد معيار التنمية الاجتماعية ، أو بعبارة أخرى تأثيرات التغيرات الاقتصادية على الأبنية الاجتماعية . (د) الاعلام المنسق حول الهيئات الاجتماعية (الفردية والجماعية) ، وبالنظر الى احتياجاتها وتطلعاتها وتصوراتها للمستقبل وقدرتها على العمل من خلال اطار المجتمع ككل . (هـ) صوغ استراتيجية التنمية . (و) دراسة المشكلات المتضمنة فى التخطيط للتنمية وملاحظتها . (ز) تحديد المدى الذى ترتبط وفقا له التنمية بالعلاقات الدولية ، وبذلك يعطى البرنامج مجالا واسعا ، كما أن متضمناته ومشتملاته التطبيقية واضحة (٣) .

---

(١) A. G. Frank, «Sociology of Development and Underdevelopment of Sociology». Catalyst (Univ. Buffalo vol. 3-1967, p. 20-73

(٢) A. Abdel Malek, L'Avenir de la Théorie Sociale, Cahiers Internatonauix de Sociologie, vol. L. P., 23-40.

(٣) R. Bastide, Anthropologie Appliquée, Paris, Payot, 1971.

ومما يمكننا من القيام بسلسلة من الملاحظات النهائية المتقدمة أن نهتم ، قبل اهتمامنا بفعل محدد حول الجزء الخاص بعلم اجتماع التنمية ، بأن نحـدد بدقـة الظروف والمتطلبات التى تحدد الفاعلية العلمية لهذا العلم . فهناك أربعة من هـذه الظـروف والمتطلبات . وأى دراسـة تضطلع بمجتمعات العالم الثالث تهتم بمـا يأتى :

أ ـ بحث الخصائص البنائية التى تميز هذه المجموعة من المجتمعات ، والتى بالنسبة لها تبنى الانثروبولوجيون والسوسيولوجيون اصطلاح «المجتمع التقليدى» نتيجة لتأثرهم « بماكس فيبر » الذى لم يقدم تعريفا دقيقا لهذا الاصطلاح (١) .

ب ـ تعيين الديناميات والقوى ، التى تحدث داخل هذه الأبنية ، وتكون قادرة أساسا على احداث التغييرات فيها .

جـ ـ توضيح وتعيين العمليات المستمرة التى تعمـل على التغيير فى الأنماط الاجتماعية والثقافية .

د ـ واخيرا تحديد العلاقات الخارجية التى تؤثر فى النمو التدريجى للمجتمعات التى تمر بعملية التنمية والتحديث ، وخاصة علاقات التبعية (التى تتضمن التبعية التكنولوجية) التى يعزى اليها أن هذه المجتمعات غـير قادرة تمـاما على التحكم فى مستقبلها المباشر . وفى الحقيقة يبدو علم اجتماع التنمية علم اجتماع يمـر بعملية التكوين والتشكيل ، فهو غير قادر بعبارة أخرى على النظر الى عدد من المجتمعات المتنوعة وغير قادر أيضا على الالتزام بدراسة هذه المجتمعات بصفة أساسـية من وجهة نظر تغيراتهـا البنائية ، فهـذه المجتمعات تواجهنا بأنماط لم تزل فى مرحلة التشكيل والبلورة ، ومن ثم فبواسطة هـذه المجتمعات تتشـكل دواع من أنواع مختلفة ، تجعل من غير الممكن أن نتهرب من الالتزام ببناء علم اجتماع جديد وعلم اجتماع يكون فى وقت واحد ديناميا وفعالا ومثمرا .

المـداخل

يتمثل غرض المدخل الأول بصفة أساسية فى توضيح وتعيين وتحديد معيار خاص بمجتمعات العالم الثالث ، وتحديد المؤشرات التى تجعـل من الممكن قياس الحالات التى دون التنمية . وتحدد هذه الحالات فى المقام الأول بعلاماتها الظـاهرة المميزة الديموجرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى يضـاف اليها غالبا العلامات التى ترتبط بطريقة عامة بانماء الأبنية الاجتماعية وانماط السلوك . وهذه

---

(١) The work by E. Hagen, Centred on the definition of a state of Society (and type of outbook and personality) Known as traditional, provides implicit evidence of this inadequancy. C.I.E.E. Hagen on the theory of Social Change, London, Tav istack, publications. 1964.

المقادير ترتبط بوضع معيار علمى ، غير أنه يبدو أن طريقة تركيب المعيار غير ملائمة وغير دقيقة ومشكوك فى صدقها ، ويتحدد هذا المقياس باضافة معايير متباينة ، مثل البيانات الاحصائية (كمعدلات نمو السكان ، والدخل ، الخ) والخصائص البنائية (للبناءات التفصيلية الفرعية والازدواج البنائى الخ) والمظاهر التى تعتبر عامة مشتركه والتى تعتبر خاصة . والنتيجة لهذا المدخل تصور استاتيكى لحد ما ـ لأنه يشير الى حالة خاصة من مجتمعات العالم الثالث ـ فى الوقت الذى تتطلب فيه التنمية دراسة دينامية ومعرفة بالعمليات التى يمكن أن يدعم بها الانتقال من تكوين اجتماعى الى آخر . ويجعل اعتبار المركب من السهل توضيح حالات دون التنمية ، كما إنه يساعد على وصف مظاهرها وأغراضها أكثر من توضيحها ، ويمكن أن يسهم هذا المنهج فى معرفة أشكال حالات دون التنمية ، غير أنه لايقدم سوى اعلام قليل اذا نظر الى ميكانيزمه . وعلى هذا يكون من الصواب القول بأن وضع مقياس علمى ليس أكثر من اهتمام بالأبعاد المورفولوجية ، فى الوقت الذى تتطلب فيه دراسة الدول النامية أكثر من أى دراسة أخرى توضح الابعاد الفسيولوجية .

واما المدخل الثانى فيرتبط بالتخطيط القائم على الفروق والاختلافات . فلتسهيل ضبط التفسير السوسيولوجى حاول عدد من المؤلفين اختزال تنوع المجتمعات الآخذة بالتنمية الى نموذج أو نمط واحد ، كنموذج للمجتمع التقليدى ، أو مجتمع ما قبل التنمية . ولقد تم بناء هذا النموذج على أساس الإختلافات أو الفروق ليناظر نموذج المجتمع الحديث الذى يشير الى المجتمعات الصناعية والتكنولوجية المتقدمة ككل ، وقد ظهر بذلك أن المجتمع التقليدى تصور عكسى للمجتمع الحديث . وعادة يتم التعبير عن هذه الرؤية من خلال ثلاثة مستويات ، المستوى الثقافى (العام/والخاص) ، والمستوى النفسى الاجتماعى (الانتقال/عدم الانتقال والفاعلية) ، والمستوى الاجتماعى الاقتصادى (التوزيع الوظيفى العام/والتخصص الوظيفى) . ولقد ظل التضاد تصوريا ، بالاضافة الى أنه أصبح محرفا وقليل الصدق .

ولقد بذلت محاولات أخيرة للوصول الى تصور مبسط حول المجتمع التقليدى، وينطبق هذا على العمل الذى وضع به أ. هاجن نظريته حول التغير الاجتماعى التى دعمها بدراسات الحالة . فبينما لاحظ أن هذه المجتمعات محكومة بالاتجاه التقليدى من جانب فانه يرى أنها متباينة من جانب آخر ، لأن هناك عدة مظاهر فى كل مجتمع تتميز بالاتجاه التقليدى . ومع ذلك فان هاجن جد فى وضع تعريف للمجتمع التقليدى . لقد لاحظ خمس خصائص أساسية أو ذات ملامح محددة :
(أ) طرق السلوك التى تستمر بتغير قليل وتنتقل من جيل الى جيل . (ب) السلوك الذى يكون محكوما بالعرف لا بالقانون . (جـ) النسق الاجتماعى الذى يؤثر بالتدرج الثابت فى العلاقات الاجتماعية الأساسية . (د) يكون وضع الفرد فى المجتمع عادة موروثا أكثر منه مكتسبا . (هـ) انخفاض الانتاجية الاقتصادية .

وبعد حصر هذه النقاط أوضح هاجن ان نظام المجتمع التقليدى لايمكن قلبه الا عن طريق نقل القوى التى تحدث اضطرابا قويا ، والتى تتعادل مع معرفة أن التغيرات التى تعمل فى اتجاه التحديث والتمدين هى تغيرات ثورية فى طابعها . ويوجد قدر من مقاومة التغير فى الارتباط بالمعوقات الاساسية (التى تتضمن سيطرة البيئة وما وراء الطبيعة) ،وبالأبنية الاجتماعية من النوع الجماعى التسلطى، وبناء الشخصية الذى يكون فى ذاته بناء تسلطيا معتمدا فى طابعه . فهناك تناظر وتماثل فى العلاقة بين هذه النظم البنائية الثلاثة التى تساعد على الحفاظ على علاقة السيطرة والامتثال ، فهى تترابط معا لمقاومة قوى الحفاظ والتغير . وهذا التصور ملموس للمجتمع التقليدى بين بعض الجوانب التى تكون مميزة للمجتمعات فى حالة ماقبل التنمية ، غير أنها تظل خصائص تصورية (١) .

وأما المدخل الثالث فهو الذى يهتم بعرض المشكلات المتأصلة فى التنمية من خلال اصطلاحات العمليات أو المراحل المتتابعة فى سلسلة تطورية واحدة (أو عدة سلاسل وحلقات) . وهذا المدخل هو مايسمى بالتطورية الحديثة ، ولعل من المحاولات المعروفة فى هذا الصدد تلك التى قام بها و.و. روستو ، وهى وان كانت تقوم على التفسير العام من خلال لغة الاقتصاد تتضمن بصفة خاصة بيانات سوسيولوجية(٢). وتميز محاولة روستو بين خمس مراحل يمر بها كل مجتمع بنظام لا مفر منه : المرحلة الأولى التى تتطابق مع حالة المجتمع التقليدى ، حيث يمكن التعبير عن النمو فيها بمسافة تبدأ من حالة صفرية ، وأما المرحلة الاخيرة فهى التى تتميز باستهلاك جماهيرى عال . وأما المراحل الثلاث الاولى فى تتابعها التاريخى فهى : مرحلة التقليد ومرحلة الانتقال ، ومرحلة قلع القديم **Take-off** او الانطلاق . ويترتب على ذلك أن يصبح النسق الاجتماعى ديناميكيا ميكانيكيا يتجه نحو مراحل النضج والاستهلاك المرتفع . ويتمسك روستو بنوع من التطورية يسير فى خط واحد ، ويحكم على المجتمعات النامية بتكرار العمليات والمسارات التى دعمت تقدم مجتمعات متقدمة معينة فى هذه الأيام . هذا بالاضافة الى أن نظرية روستو لم تتبين امكان ظهور مجتمعات وانساق اقتصادية لم تعرف حتى الآن . وعلى نقيض من نظرية روستو هناك بعض البحوث السوسيولوجية الاكثر تحديدا ، وقد اهتمت بتوضيح الاختلافات والفروق بين المجتمعات ، ومنها على سبيل المثال ملاحظة س.ن. اسيزنتادت التى مؤداها ان عملية التحديث من المحتمل أن تضعف ويصيبها الوهن ، فقد تؤدى هذه العملية الى ابنية متنوعة ، وقد تحدث وفقا لخطوط أو مراحل مختلفة وفقا لحقب التاريخ (٣) ، ففى حالة تلك المجتمعات تمر الآن بعملية التنمية والتحديث قد يحدث التغير بطريقة مغايرة لتلك التى أفضت لنمو الجيل الاول من الدول الصناعية.

---

(١) E.E. Hagen, Op. Cit.,

(٢) W.W. Raslow, *Stages of Economic Growth*, Cambridge University, Press 1960.

(٣) S.N. Eisentadt, *Mondernization: Protest and Change»* Englewood cloffs, N.J., Prentice-Hall, 1967.

فالتحضر السريع ، والتطلعات الجديدة ، والحاجات ، والنظام السياسى والادارى الحديث ، والالتزامات الدولية ، كل تلك العوامل مجتمعة تفرض ضروراتها ، ووضع آثارها أمام الأبنية الاقتصادية والثقافية للدولة النامية حتى تكون أبنية متماسكة ، كما أنها أمام اتجاهها الدينامى يمكن أن تقوم بدورها أوتوماتيكيا ، أو بفعل تسيير ذاتى ، وعلى هذا يكون الناتج تحديثا غير كامل فى نشأته وانتشاره ، ويظل مشتتا، ويكون محكوما عليه بالضعف والوهن . ويبدو أن المقارنة بين أشكال التنمية وفقا للمرحلة التى تحدث من خلالها التنمية مثمرة ومفيدة ، لأنها تفتح آفاقا جديدة وتقدم فرصا امام علم اجتماع التنمية .

ولقد شهدت السنوات القليلة الاخيرة نشر دراسات متتابعة حول التحديث ، مما ادى فى أنساق نظرية مختلفة الى زيادة التحليلات الدينامية والمقارنة ، فقلل من قيمة أو كفاءة الاتجاه الوظيفى أو التحليل البنائى الوظيفى . فالتحليل البنائى الوظيفى كما لاحظ س. بلاك يتضمن تحيزا أصيلا فى اتجاه التوازن ، وتحليل المجتمع فى ضوء التوازن سوف يؤدى بالضرورة الى نتائج محدودة ، لأن المجتمعات ليست فى حالة من التوازن ، بل هى دائما تمر بعملية التغير ، الذى يعد سمة مميزة للعصر الحديث الذى يعتبر التغير فيه اكثر سرعة واستمرارا منه فى اى فترة اخرى من فترات التاريخ (١) ، وفى الوقت الذى تم فيه صوغ هذه الملاحظة أعاد ماريون ج . ليفى تنظيم نظريته «التراث البارسونى» مستعينا بأساليب المقارنة بين المجتمعات النسبية التحديث والمجتمعات التى لم يتم تحديثها (٢) . وكان الموضوع الرئيسى والمحورى للدراسة بطبيعة الحال هو مقارنة المشكلات التى توجدها مشكلات التحديث بتلك التى يوجدها الثبات .

وادت البحوث التى انجزت فى فترات تاريخ الأنثروبولوجيا غير الملتزمة (الامبريقية) الى الاهتمام بالجدل بين التقليد والتحديث. وينعكس هذا على دراسات حديثة لمؤلفين مختلفين مثل : د. أبتر ، و : ج. جيرتز ، و : و. ويرتيم . ففى دراسة حول التنمية السياسية فى الهند لفت رودلف الاهتمام الى الحاجة لتحطيم الثنائية بين التقليد والحداثة ، فلو أن التقليد والحداثة ــ كما تشير الحال ــ اعتبرا متصلا واحدا ، لا أمرين منفصلين انفصالا تاما وعلاقتهما جدلية لا ثنائية ، لكان من المهم فهم عمليات التحديث فى قطاعات من المجتمع التقليدى تحمل مقتضيات التغير عن المعايير والابنية القائمة .

وتجعل الاعتبارات السابقة من واجبنا أن نهتم بمدخل أخير ، هو المدخل الذى حاولت أن اصوغه واحدده ليتسق مع علم الاجتماع الدينامى الفعال . ففى المجتمعات

---

(١) C.E. Black, The Dynamics of Modernization: A Study Comparative History, N.Y. Harper and Row, 1966.

(٢) Marion J. Levy Jr. Modernization and the Structure of Societies: A setting for International Affairs Princetion. NKJ. Princetion Uni., Press. 1966. 2 vol.

النامية تبرز المشكلات المرتبطة بتساوق التكوينات الاجتماعية الخاصة بعصور مختلفة مرتبطة بوضوح بطريقة عملية . وتواجهنا هذه المشكلات بأنماط تمر بعملية التكوين والبلورة ، وتظهر كلها فى هذه العملية أهمية وجود مستويين تعمل من خلالهما القوى المختلفة ، كل فى المستوى الذى ترتبط به . وهذان المستويان هما المستوى السياسى (بمعناه الواسع) والقيم المستحدثة (المستوى الثقافى بمعناه الواسع) . فالمشكلات التى تواجه المجتمعات النامية فى الوقت الحاضر تلقى ضوءا على تلك المشكلات التى تتعلق بالمجتمعات الاكثر تقدما ، والعكس صحيح . ففى كلتا الحالتين يدرك المجتمع نفسه من خلال الجدل بين الاستمرار وعدم الاستمرار أو التقطع ، كخلق منصل مستمر ، قائم فى الحاضر ، ومتطلع الى المستقبل (١) .

التطبيقات

اتى علم اجتماع التنمية الى الوجود فى الوقت الذى نجح فيه علماء الاجتماع فى الاشتراك عمليا فى عدة مشروعات (أو برامج) تتعلق بدول العالم الثالث . وبسبب الحاح المشكلات لم يكن من الممكن الانتظار لصوغ نظريات للتنمية الاقتصادية والاجتماعية (ومناهج بحثها) . فسياسة التنمية ، التى تم اشتقاقها من بناء اعلامى موفق ومن عمليات نظرية مستحدثة ، قامت على اتجاه أمبريقى (تجريبى) فرضته الظروف ، بالمعنى الذى يتقدم فيه التطبيق صوغ نظام جديد وتكوينه . وهذا يوضح لماذا ضبط علماء الاجتماع فى البداية بحوثهم فى ضوء معرفتهم بالمجتمعات الصناعية المتقدمة .

ومهما يكن الأمر فهناك صعوبات من نوع آخر ، فقد أصبح من الشائع القول بأن مشكلات دول العالم الثالث ليست مقصورة عليها ، فبين المجتمعات الواقعة على الدرجات المختلفة من سلم التقدم المادى تظهر العلاقات القائمة بعضا من هذه المشكلات. فحالة ما دون التنمية لها مظهر علائقى ، ينظر اليه أحيانا نظرة مسبقة تستتر على الاستعمار والاستعمار الجديد ، وهذا مالايمكن انكاره أو التقليل من قيمته . ففى هذه الحالة تتجه العلاقات الخارجية وماتقتضيه من ديناميات الى التأثير فى الديناميات الداخلية وقيادتها . فالاقتصاديون ــ داخل اطار نسقهم العلمى ــ كانوا أول من حاول صوغ نظرية حول هذه العلاقات ، عندما اهتموا بالاقتصاد الدولى ودور المنظمات الدولية للاعمال . ووفقا للتقويم النقدى عرفوا الاقتصاديات النامية كاقتصاديات مزدوجة ، مثل الاقتصاديات المحكومة بآثار السيطرة العاكسة والاقتصاديات المحكومة بآثار السيطرة ، أو بنتائج التبادل غير المتساوى ، وأشكال الرأسمالية الخارجية ، وما الى ذلك . وفى هذا السياق الأخير ينظر الى العلاقات بين المركز والخارج أوالبؤرة والخارج كتكبير للخصائص النباتية لحالة ما دون التنمية، ومثل هذا قد يقال بالنسبة للنمو ، ويكون تحليل الأشكال السوسيولوجية الكبرى

---

(١) وفى هذا الصدد هناك توثيق حول دراسات تحت اشراف اليونسكو ، ومن أجل مناهج البحث انظر :
R. Carlelead J. C. Passeron, Education, Development et Démocratie, Paris, Mouton, 1967.

لهذه العلاقات ومتضمناتها التطبيقية والسياسية غير مستفيض او قاصر بالرغم من تركيز الاهتمام عليها مبكرا منذ ١٩٥٠ . واخيرا فان ج.ب. نيتل ، و.ر. روبرتسون قد ذكرانا بهذه الحاجة ، وقاما بأول اسهام فى هذا الصدد يوضح نظرية حول النسق الدولى . وتتضمن المناقشات الأخيرة للتطور والتصنيع والتنمية والتحديث وما الى ذلك اشارات ضمنية (قلما كانت واضحة) للعلاقات بين المجتمعات الدولية التى أصبحت ذات ضرورة مطلقة لعالم الاجتماع ، كى يضمن العلاقات الدولية داخل اطار ادراكه ، باعتبارها قسما عاديا مؤلفا من اطاره المرجعى ، ففى هذا المجال الهام يجب أن يستمر العمل النظرى ، ولكن مع ادراك أن المهام التطبيقية التى يمارسها عالم الاجتماع هى فى مستوى أقل استقطابا .

ولو سلمنا بأن أى تنمية (كما هى مميزة عن النمو) ثورية فى طابعها اكثر منها تطورية ارتقائية فيجب أن تعرف أيضا أن ذلك يعنى على الاقل ثلاث ثورات : واحدة تكنولوجية اقتصادية ، وأخرى سياسية ، والثالثة ثقافية . ولعلم الاجتماع دور تطبيقى يقوم به على هذه المستويات الثلاثة ، وذلك بالاسهام فى بناء نسق اعلامى أو صوغه ، وتحديد الظروف والآثار الاجتماعية ، وتقويم الخطط المتكاملة ونتائجها .

والمستوى الأول من هذه المستويات يهتم أكثر مايهتم بالطابع الرياضى لهذاالفرع المتخصص من فروع علم الاجتماع ، هذا فى الوقت الذى يبين فيه حدود المدخل أو المنهج . ويتم تحقيق هذا بصفة خاصة عندما يدرس المتخصصون برامج مختلفة توضع بقصد الوصول الى استنتاجات واستدلالات منها ، أو عندما يصوغ هؤلاء المتخصصون حبكات تتسق والمستقبل الممكن ، وبهذا يقدمون للحكومات الوسائل التى تجعل اختيارهم مستندا الى معرفة كاملة بالوقائع . غير أن أى سياسة طوعية تبدو غير قادرة على الدفاع عن نفسها فى مواجهة مقاومة الجماهير ، ولذلك فدراسة هذه القوى المفروضة (أو ذات التوجيه المختلف) تأتى داخل اطار البحث أو الدراسة الكيفية . ويميل المدخل الكمى أيضا الى أن يكون ملائما لوضع استراتيجية للتنمية. ويتضح ذلك فى الانتاج والاجور وديناميات الحاجات والدخول ، والتوافق مع التغير ومستوى التدريب ،وردود فعل الرأى العامللاختراعات التكنولوجية أو الاقتصادية، الخ . وفى هذه المجالات أيضا يكون التحليل الكيفى ضروريا ، لا لتقدير المعوقات الداخلية التى تؤثر فى المشروعات فقط ، ولكن كذلك لتحديد الدور الذى تؤديه الظروف الثقافية ومتطلبات النظرة الجمعية .

وقد حقق المتخصصون فى علم اجتماع التنمية ، فى بعض القطاعات الخاصة وبالتعاون مع الدراسات الانثروبولوجية ، نتائج ذات اهمية تطبيقية مباشرة ، كما هو مثلا فى حالة الارتباط بين التنمية الاقتصادية (والتصنيع) والتغير فى أبنية السكان وتوزيعهم ، وبناء الجماعة الاجتماعية الاولية (الاسرة والقرابة) وتنظيمها ، والعلاقة بين جماعات النوع والسن أو الاجيال الخ . فنماذج التغير يمكن صوغها على أساس البحوث الوصفية أو تلك التى من النوع المسحى .

ووفقا للمدى الذى يصبح فيه العالم الثالث فى نضال من أجل التمرد الريفى تكون القرى هى المجال الذى تجد فيه المشكلات أصدق تعبير ، ويمكن ادراكها بكل شدتها . ويهتم السوسيولوجيون والأنثروبولوجيون ، بالاضافة الى ذلك ، بديناميات مجتمعات القرية (١) ، وبالمسألة الزراعية ، وتبنى الوسائل الفنية الجديدة ، واعادة تنظيم الأنشطة الزراعية ، وخاصة أشكال التعاون وما الى ذلك . وتساعد دراسة البطالة الريفية المقنعة والواضحة بجانب دراسة طرق الحراك القروى على فحص مشكلة استثمارات المصادر البشرية . نتيجة استثمارات معينة ينظر اليها كوسائل لتعديل الموقف السلبى (النمو السكانى والبطالة الريفية الى آخر ايجابى (تكوين راس المال وبناء دينامية التنمية) . وقد أوضحت المسوح الحديثة أنه من المهم تجنب اتجاهين على درجة من الخطورة : الأول المبالغة فى تبسيط المشكلة التى تعزى الى عدم دقة ادراك المشكلات ، والثانى عدم كفاءة التقويم النقدى للوسائل من جانب، وسوء تقدير المكنات التى يقدمها هذا الاسلوب للاستثمار ، الذى يصاحبه غالبا سوء تقدير للممكنات التى يقدمها التصنيع ، من جانب آخر . وبالموافقة على هذا البحث يجب الاهتمام ببحث تقدير الوقت تصورا وتناولا ، فمن مثل هذا البحث نستطيع أن نتبين الى أى مدى تتحدد هذه التصورات وهذا التناول بالثقافة ، وبأى سياسة للتنمية تدعو الى تبنى اتجاه جديد نحو الوقت .

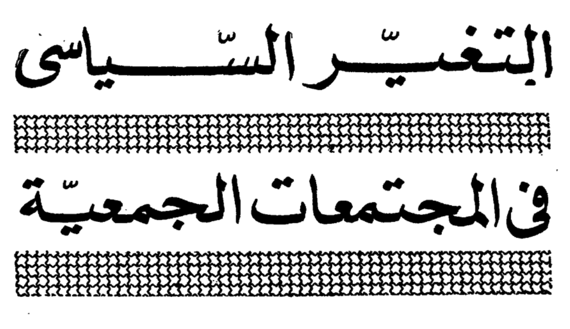
وهناك أيضا عدة دراسات عن التصنيع والتحضر : الظروف السابقة لهما ، والآثار المترتبة عليهما ، وبعض من هذه الدراسات ذو طابع عام ، فهى تهتم بعوامل التحديث وهيئاته ،التى ترتبط بالصناعة والبيئة الحضرية ،وبدور الهيئات المختلفة، تبعا لمراحل التنمية ، وتهتم أيضا باستراتيجيات استغلال المصادر البشرية الخ . وهناك دراسات أخرى أكثر تحديدا فى طابعها ، فهى تهتم بالصفوة من رجال الاقتصاد والاختيارات التى أمامهم وعلاقتهم بالدولة ، وتهتم بصفوة رجال المقاولات ، والتدرجات الاجتماعية الجديدة ، واعادة توزيع القوى السياسية ، الخ . وأخيرا ينبغى أن نذكر — من أجل قطاعات هامة وتحليلات منفصلة — الدراسات التى تم اجراؤها حول مشروعات التعليم والتنمية والسياسة والتنمية ، وبالنظر الى المشروعات الأخيرة هناك قدر كبير من التوثيق قائم فى شكل دراسات عامة تقترح تفسيرا نظريا للتنمية السياسية (عمليات واشكال ووظائف الدولة الحديثة والبيروقراطية) ودراسات خاصة (منها أمثلة حول الابنية الدولية) . وبعض من هذه الدراسات يقع على المنطقة أو الخط المشترك بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسى وذلك بفحصها للعلاقات بين التقليد والحداثة ، ومشكلات تكيف سلطة القرية مع نسق الادارة ، الذى وضعه حكام الدول الجديدة .

---

(١) تم انجاز دراسات عدة فى معظم نماذج المجتمع بما فى ذلك المجتمعات الاشتراكية . ومنها على سبيل المثال:

J. Myrdal, Report from a chinese Village, N.Y. Pantheon Books 1969 and 1965, N.T. American Library, 1960, London Penguin Books 1967.

وباختصار فان مقتضيات التنمية ـ لا مجرد النمو ـ تضع امامنا سؤالا ذا أهمية مبدئية : كيف يمكن تحقيق تغير ايجابى فى النسق الاجتماعى والاقتصادى بأقل تكلفة ؟ لقد قدمت بعض الدراسات السوسيولوجية بناء للاعلام حول اجابة هذا السؤال وعناصره . فقد بدأت لهم بمعرفة افضل حول المشكلات المتضمنة فى مرحلة الانتقال ، وحول الحركات الاجتماعية المعبرة عن الحاجة الى العلاقات الاجتماعية المتغيرة ، أو الفشل فى مواجهة التغير (أو الثورة) الذى لايتم بنمو افضل ، وحول آثار خلل التنظيم الاجتماعى الناتج عن التنمية الاقتصادية . فخلف هذه المشكلات العظيمة يكمن الشك الأساسى القائم داخل كل مجتمع ، وهو يتضح من الفهم (الوسائل التى يحدد بها المجتمع هويتها ويحافظ عليها) ومن القوة (الوسائل التى يحقق بها المجتمع نجاحه المادى ويستغل هذا النجاح) ، فدول العالم الثالث فى حاجة الى وسائل القوة المادية (نمو الانتاج) فى الوقت الذى تناضل فيه من أجل الحفاظ على الشخصية الجمعية ـ بمعنى الفعل الجمعى ـ التى لم تزل غريبة على هذه المجتمعات *



التغيّر السّياسى فى المجتمعات الجمعيّة

مشكلات فى الجمعية العنصرية

ان النظريات الاساسية الملائمة للتغير السياسى فى نطاق المجتمعات الجمعية عنصريا ، وهى المجتمعات التى اهتم بها هنا بصفة خاصة ، هى النظريات الماركسية عن الصراع الطبقى ، وتطبيقات نظرية دوركايم عن التغير التطورى من التضامن الميكانيكى الى التضامن العنصرى ، ونظريات المجتمع الجمعى او الجمعية ، ودفع كل منها الى استعمالات أيديولوجية مختلفة ، ليست بالضرورة متضمنة فى النظريات نفسها .

ان النظرية الماركسية فى تأكيدها على الصراع الطبقى ، باعتباره المحدد الكبير للتغير السياسى ، ترى فى الاستقلال والتمييز العنصرى خاصية للعلاقات الطبقية . وفى اطار هذا الافق سوف يكون من المحتمل حل الصراع العنصرى واقامة المساواة العنصرية كجزء من الثورة البروليتارية العالمية . وعلى أية حال فأن تطبيق هذه النظرية فى صورتها البحتة على مواقف معينة للصراع العنصرى يثير صعوبات خطيرة. فليس هناك اخفاق فقط فى التضامن بين العمال ذوى الأجناس المختلفة ، ولكن كثيرا ما مايطالب عمال الجنس المسيطر بأقصى أشكال التمييز العنصرى تطرفا ، وفضلا عن ذلك يكون أفراد الجنس التابع بصفة عامة مميزين اقتصاديا ، ولايكونون طبقة بعينها ، ولذلك تضم فى صراعاتها الثورية ضد السيطرة .

وتهتم نماذج دوركايم بالعلاقة الداخلة بين أعضاء القطاعات المجزاة باعتبارها الأساس لأشكال جديدة من التضامن تتجاوز الانقسامات القديمة . ويمكن أن تتكون

بقلم : ليو كوبر

أستاذ علم الاجتماع ومدير مركز الدراسات الأفريقية بجامعة كاليفورنيا بلوس انجيلس • وهو متخصص فى علم الاجتماع السياسى والعلاقات بين الأجناس • ومن مؤلفاته الحديثة : البورجوازية الافريقية (١٩٦٥) ، والجمعية فى افريقيا (بالاشتراك مع م• ج• سميث) (١٩٧٠)

ترجمة : الدكتور محمود إسماعيل

مدرس العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة • تشمل مؤلفاته كتاب : دراسات فى العلوم السياسية (١٩٧٢) ، وبحثا عن استخدام القوة المسلحة فى العصر النووى بمجلة السياسة الدولية (عداد ابرايل ١٩٧٢)

الأجزاء بواسطة مجموعات منعزلة طبيعيا بعضها عن بعض فى اقاليمها الذاتيــة ، أو المنفصلة هرميا ، عن طريق التمييز فى المهنة وعن طريق العزل النظامى . ان نموذج دوركايم هو أساســا نموذج التغير التطورى ، ولكن النظرية الأســاسـية تبلورت فى مجتمعات متجانسة عنصريا فى عملية التصنيع ، وبصفة عامة فان مدى امكان تطبيقها على مجتمعات جمعية عنصريا قد يكون موضع شك نوعا ما . ومن الصعوبة بمكان معرفة الاهمية التى تعزى للعلاقات بين الأشخاص وصور التضامن بين أعضـــاء القطاعات العنصرية المختلفة حينما يوجد ادماج سياسى غير متكافىء للقطاعات العنصرية كمجتمعات . وفضلا عن ذلك فان قابلية الانتماء الطبيعى فى مجتمع جمعى عنصريا بمثابة هوية أكثر بقاء من عضوية الطبقة فى مجتمع متجانس صـــناعيا ، وقــد يكون للحراك نتائج مختلفة تماما .

وتشدد نظريات المجتمع الجمعى أو الجمعية على الانشقاقات أو الانقطاعات بين القطاعات المفرقة بواسطة العنصر أو العرقية أو الدين أو الثقافة ، ولاينظر الى أسس التفرقة هذه على انها اصلية : انهــا تتكون اجتماعيا فى عملية التفاعل . فالاختلاف العنصرى ليس له أهمية اجتماعية أولية . انه لايكتسب أهميته الاجتماعية الا عندما يتبلور فى نظم الضم السياسى التفضيلى ، والتمييز الاقتصادى ، والعزل العنصرى . وبما أن نظرية المجتمعات الجمعية مشتقة من تحليل الانشقاق الحاد المستمر فانهــا

تتجه الى تأكيد الطبيعة الدائمة للانقسامات الجمعية والاحتمال الكبير للعنف فى عملية التغير السياسى .

وعلى المستوى الأيديولوجى تؤكد نظريتا ماركس ودوركايم التضامن بين الأجناس . وفى حالة النظرية الماركسية يكون التضامن بين الاجناس بين أشخاص مختلفين فى العنصر يؤدون وظائف متماثلة فى عملية الانتاج . وفى نظرية دوركايم ينبع التضامن بين الأجناس من تنوع كبير للعلاقات التى تدخل فى كافة القطاعات . ورغم أن الصعوبات فى تطبيق نظرية الطبقة على مجتمعات جمعية عنصريا تكمن بكل دقة فى فشل التضامن الطبقى ، ورغم أن نظرية الطبقة قد تستعمل لتصعيد الصراع عن طريق تحديد الأجناس بطبقات مختلفة ، فان النظرية نفسها ، مع ذلك ، تقدم ايديولوجية لتداخل الأجناس ، تقيد التعبير عن العنصرية وتوجه التحرك نحو التعاون العنصرى . وبالمثل فان نظرية دوركايم تشجع أيديولوجيات التضامن بين الأجناس ، رغم التأكد من أن خشية عواقب العلاقات المتقاطعة قد تدفع بمجموعة مسيطرة الى تطبيق سياسة التمييز والعزل العنصرى الشمولى النظامى ، كما هو شأن سياسة الابرتيد فى جنوب افريقيا . ويعد الادراك الخلقى حقيقة أصلية فى كل من نظرية ماركس ونظرية دوركايم ، ففى النظرية الماركسية ادراك للسير نحو المساواة عن طريق ديالكتيكية التغيير الثورى ، وفى نظرية دوركايم ادراك للالتحام المتزايد والارتباط المتناسق والزوال المطرد لعدم المساواة العنصرية ، عن طريق عملية التغير التطورى . وعلى المستوى السياسى تطابق هذه النظريات الأيديولوجيات فى الشيوعية والليبرالية .

ومن الناحية الاخرى لايوجد فى نظريات المجتمع الجمعى عنصريا وعد بالتحرك نحو التضامن العنصرى أو الى المساواة العنصرية . ان الآفاق مظلمة نوعا ما ، والنظريات تسلم نفسها بسرعة للتحريف الايديولوجى . ويمكن أن تركز المجموعات العنصرية المسيطرة على انتشار الصراع العنصرى والعرقى باعتباره أساسا لتأكيد أن الجمعية العنصرية جزء من النظام الطبيعى ، ويمكنها أن تخرج من هذا بنتيجة مؤداها تبرير السيطرة العنصرية . وقد تجد المجموعات العنصرية التابعة فى المذهب بعض التشجيع على تعبير غير مقيد للتناقض العنصرى . وقد تسعى أيديولوجيات الاغراء المتباين لتفسير النظرية على أنها تفترض تناقضا عنصريا أو عرقيا فطريا وشديدا . وكافة هذه التفسيرات غريبة تماما على نظريات المجتمعات الجمعية . وفى الحقيقة تحرفها بالكامل . ولكنها تنشأ من الاهتمام فى هذه النظريات بالانشقاق والصراع ، ومن حقيقة أن النظريات لاتتضمن أية مدركات معنوية . والواقع أن الاهتمام بالمجتمعات الجمعية يمكن أن ينمو من التزام خلقىقوى يتجنب الصراعات الاجتماعية المدمرة ، وبالبحث عن وسائل التغير السلمى الى التناسق والمساواة . الا أن الالتزام الخلقى ليس أصيلا فى النظريات التى لاتستطيع الا أن تدعى أنها ربما تقدم مسلكا اكثر واقعية لدراسة المجتمعات الجمعية .

ان مفهوم المجتمع الجمعى أو الجمعية ذو تفسيرات متنوعة . وكذلك تستعمل مصطلحات اخرى لوصف ظاهرة المجتمع الجمعى ، مثل المجتمعات المركبة ، والمجتمعات الاقطاعية ذات التشعب الحضارى ، والمجتمعات المتنوعة ، والمجتمعات المجزاة ، والمجتمعات المقطعة ، والازدواجية الاحتمالية ، والمجتمعات ذات التجمعات المتنوعة . ويشير هذا التنوع الكبير للمفاهيم والتفسيرات الى وجود ظاهرة متميزة تدعو المحلل الى صياغات نظرية جديدة ، وتحتوى الحالة الأولية نوعا ما للنظرية فى هذا الميدان . وفى تطور نظرية المجتمع الجمعى كان هناك تحرك نحو صياغات اكثر شمولا ومرونة . وبما أن فورنيفال قد طور النظرية فى مؤلفه « الممارسة والسياسة الاسنعمارية : دراسة مقارنة لبورما وأندونيسيا » فانها تطبق على المجتمعات الاستوائية الاستعمارية . وتفرض السيطرة الاستعمارية بناء علويا غريبا للاعمال والادارة يطلق العنان نسبيا للتنافس الاقتصادى فى وضع يتميز بتباين حضارى اجتماعى وعنصرى . وليس ثمة ارادة عامة أو اجتماعية تربط مختلف الشعوب التى تحيا بواسطة عقيدتها وثقافتها أو لغتها . وبدلا من ذلك فانها تتجمع عن طريق الضغط الذى تمارسه من الخارج القوة الاستعمارية ، وقوة الظروف الاقتصادية . وتتميز العلاقات بين القطاعات المختلفة بالخصام وعدم الاستقرار المتوارث ، ويثير التحرر من الحكم الاستعمارى مشكلة ايجاد مبدأ خلقى ، ذى شرعية سامية على المصلحة الاقتصادية كأساس للاجماع والاندماج .

وانتزع م. ج. سميث مفهوم فورنيفال عن المجتمع الجمعى من قالبه الاستعمارى ليعطيه اهمية أكثر شمولا . وفى الوقت نفسه يختفى من النظرية نقد فورنيفال للظواهر التاريخية للاستعمار الرأسمالى . وفضلا عن ذلك فانه فى عملية اختفاء صفة الشمول على المفهوم ينعدم عنصره المعنوى . ويختفى من النظرية أيضا التركيز على العلاقات العنصرية . ويحل محله ، فى صياغة م . ج . سميث الأولى ، تركيز على الجمعية الثقافية ، والاختلافات العنصرية التى تشتق مغزاها من الجمعية الثقافية ، وفى الصياغات الأخيرة يحل محله تكافؤ على المستوى التحليلى ، بين الجمعية العنصرية والجمعيات الأخرى .

ان صياغة م . ج . سميث الأولى لنظرية المجتمع الجمعى والجدل الذى ولدته خاصة بين علماء الكاريبى لهما اهمية تاريخية كبيرة . وفى هذه الصياغة يحيل الأولوية الى الجمعية الثقافية ، ويقصد بها ممارسة صور مختلفة ومتباينة من المؤسسات الاجبارية بواسطة القطاعات المكونة للمجتمع الجمعى ، ويرى ان الجمعية الثقافية تفرض ضرورة السيطرة الجزئية بواسطة قطاع ثقافى . ان المجتمع الجمعى يتكون حينما يكون القطاع الثقافى بمثابة اقلية ، وهذا موقف تجد فيه الدلالات الهيكلية للجمعية الثقافية تعبيرها الأكثر تطرفا . وترتبط المجتمعات عن طريق الأمر أكثر من ارتباطها عن طريق الاجماع . وتفترض التغيرات فى الهيكل الاجتماعى تغيرات سياسية ، وتتخذ فى العادة صورة عنيفة .

وقد انتقدت نظرية دوركايم هذه الصياغة على أساس أنها تقلل الى أدنى حد من أهمية المؤسسات المشتركة والعلاقات الداخلة التى تنمو فى التلاحم بين القطاعات، وتنتقدها النظرية الماركسية ، أو نظرية الطبقة ، على أنها تغلغل روابط المصلحة المشتركة التى تنشأ استنادا الى المشابهات فى الوضع الطبقى ، وينتقدها التحليل الداخلى للنظرية نفسها على اعتبار أنها لا تقدم أساسا كافيا لتحديد وجود الجمعية الثقافية أو ابعادها ، وتبالغ فى تأكيد أهمية الاختلافات والقيم الثقافية . ومهما يكن من أمر فان الصياغة تهتم بقيمتها كأساس للجمعية الثقافية على الرغم من تجاوزها فى نظرية المجتمع الجمعى .

ان صياغة م . ج . سميث الأخيرة للنظرية أكثر مرونة ، وهى تهتم بالهيكل السياسى أكثر من اهتمامها بالاختلاف الثقافى . فهو يدخل أسلوب الضم السياسى كمفهوم أساسى . وفى ظل الضم الشامل أو المتماثل يكتسب الأفراد مواطنتهم مباشرة ، لا عن طريق الانتماء القطاعى ، بل على أساس المساواة ، فى حين أنه فى ظل الضم المتكافىء أو المكمل، وفى ظل الضم التفضيلى، يرتبط الأفراد بالكيان السياسى، وتحدد حقوقهم وواجباتهم من خلال عضويتهم القطاعية . وفى الضم المتكافىء (أو المتمم) يتكون المجتمع كعشيرة من الفصائل المنضمة المكملة أو المتكافئة ، ولكنها متضادة تبادليا ، والعضوية فى أحدها مطلب مسبق للمواطنة فى وحدة أوسع . وفى الضم التفضيلى يتكون المجتمع كنظام من القطاعات المنضمة المتضادة وغير المتكافئة هيكليا ، اى كنظام جمعى واضح .

ويرتبط مفهوم أسلوب الضم بالتمييز بين مستويات ثلاثة للجمعية : الجمعية الثقافية ،والاجتماعية ، والهيكلية . وتشير الجمعية الثقافية ببساطة الى الخلافات التأسيسية دون تفرقة جماعية مماثلة ، ويمكن أن توجد فى مجتمعات مكونة على أساس أسلوب الضم المتماثل . والجمعية الاجتماعية هى الحالة التى فيها تتوافق التفرقة التأسيسية مع ضم المجتمع فى سلسلة من القطاعات والأقسام الاجتماعية المغلقة فعليا والمحددة بصراحة . وتتكون الجمعية الهيكلية من ربط الجمعية الثقافية والاجتماعية بالضم التفضيلى . ان المجتمع الجمعى فى الشكل الكلاسيكى الذى وصفه فورنيفال مجتمع يتميز بجمعية هيكلية ، فيها تكون المجموعة المسيطرة أقلية عددية .

وتستند الصياغات الأكثر مرونة على مفهوم الجمعية منظورا اليها كمتغير مستمر لا كمتغير منقطع .

ومن الأبعاد الكبرى للجمعية يحدد فان برجى (١٩٦٩ ، ص ٦٩ — ٧٢) المتغيرات الديمقراطية الثقافية والايديولوجية ، والنماذج المتغيرة للجمعية الاجتماعية على مستوى المجموعة والمستوى التأسيسى والمستوى الفردى .

وفى صياغتى الخاصة (١٩٦٩ ب ، ص ٤٦٩ — ٤٧٩) أميز بين اربعة ابعاد للجمعية ، وهى : (أ) التخصيص والشمول ، وهما أساسا بمثابة أسلوب الضم ،

وقد فسر بشكل واسع ليشمل التفرقة لا فى الهيكل السياسى العام للمجتمع فقط ، وانما ايضا فى سلطة الهياكل التأسيسية مثل المنشآت الصناعية التعليمية والدينية ؛ (ب) العزل والتذويب، وهو مطابقة لمقدار الجمعية الثقافية والاجتماعية ، (جـ) التنوع الثقافى والتجانس الثقافى ، وهو مطابق لمقدار الجمعية الثقـافية ، (د) عـدم المساواة والمساواة فى الحصـول على التـوزيع التفضيلى للسـلطة والمركز والموارد المادية .

ويمكن استنادا الى هـذه المتغيرات اقتراح مقياسـين مختصرين للجمعيـة . فالانقطاع والاسـتمرارية مقيـاس لدرجة عدم المسـاواة فى الضم ، لمـدى العـزل والاختلافات فى الثقافة ، وفى ملكية القوة والموارد ، فالانقطاعات كميـة كما فى حالة الأجور الصناعية التفضيلية المدفوعة للعمال ذوى الأجناس المختلفة ، وكيفية كما هو شأن الأدوار المتميزة المسندة لأعضاء القطاعات المختلفة . ان «الغرض» و «الفصل» (المشتق من داهرندورف ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٣ وما بعدها و ٢١٣ ـــ ٢١٧) مقياس للحد الذى عنده تتوافق أو تتباعد خطوط الانشقاق داخل هياكل المجتمع . وحتى حينما يعتمد المسلك على الجمعية كمتغير مستمر فانه من المفيد أن نحتفظ بمفهوم المجتمع الجمعى على أساس انه يمثل صورة متطرفة للجمعية .

والقاسم المشترك بين هذه المدلولات للمجتمع الجمعى والجمعية هو انها تطبق على اى مجتمع متحد سياسيا عن طريق خضوعه لسلطة سياسية عليا واحدة أو لديه تنظيم موحد فى العلاقة بالعالم عن طريق اية اجراءات هيكليـة أخرى ، ولكنه مكون داخليا من مجموعات متباينة عنصريا أو عرقيا أو ثقافيا تحتفظ بأساليب حيـاة منفصلة بشكل متميز .

ويمكن أن ينظر الى المجتمعات الجمعية على انها أصلية ، أو على انها تتسم فى صـورة اكثر تطرفا بظواهر الانشـقاق أو الانقطاع الموجودة فى كافة المجتمعـات . وسواء أخذنا بوجهة النظر الأولى أو الثانية فان تحليـل المجتمعات الجمعيـة يثير تساؤلات عن نظريات التغيير السياسى التى تحظى عموما بمزيد من القبول .

ان هناك مشكلات عديدة فى تطبيق النظريات الماركسية على المجتمعات الجمعية عنصريا ، تلك النظريات التى تتناول العلاقة بين النظم الاقتصـادية والسياسـية ، وعالمية الصراع الطبقى ، وديالكتيكية التغيير الثورى . وتتولد هذه المشكلات جزئيا من حقيقة انه على حين تتميز المجتمعـات الجمعيـة عنصريا بالتفرقة الاقتصـادية والتقسيم العنصرى لا تتفق حدود العنصر والطبقة بدقة ، ولذلك يظهر الغموض فى الوضع الاجتماعى . وفى هذا السياق تتجه نظرية المجتمع الجمعى الى تأكيد الهيكل العنصرى نفسه وأسلوب الضم التفضيلى ، سواء كان قانونيا كما فى جنوب أفريقيا أو واقعيا كما فى الولايات المتحدة ، والى التشكيك فى الاولوية لا فى الأهمية ، وبخاصة العوامل الاقتصادية .

وليست المؤسسات السياسية فى المجتمعات الجمعية بنيانا علويا قائما على علاقات الانتاج ، وعلى العكس فان القوى المشتقة من المؤسسات السياسية هى التى تحدد تحديدا كبيرا قيم الارتباط بوسائل الانتاج . ولعل الفشل فى التضامن بين عمال الأجناس المسيطرة والخاضعة ، الذى كان مصدر الارتياح بين الثوريين السود (كروز ، ١٩٦٨ ، ص ١٣٩ ــ ١٥٥ ، سيمونز وسيمونز ، ١٩٦٩ ص ٦٢١) قد يمكن التوفيق بينه وبين النظرية الماركسية عن طريق مط مذهب ارستقراطية العمل ، الا أن كثيرا من عمال الجنس السائد فى مجتمع جمعى عنصريا يكونون فى الحقيقة أرستقراطية عمالية ، وهم يفعلون ذلك بفضل اتحادهم العنصرى التفضيلى، وموقعهم السياسى المسيطر ، لا بفضل ارتباط واضح بوسائل الانتاج .

لقد وهن الالتزام بمبدأ عالمية الصراع الطبقى نوعا ما تحت وطأة النقد الذى وجهه زعماء حركات التحرر الوطنى . ويثير كابرال (١٩٦٩ ص ٧٧) القضية من زاوية واحدة حينما يعلق بأن تصور التاريخ بادئا بالصراع الطبقى يعنى اعتبارا ان المجموعات البشرية المختلفة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية عندما أخضعت لنير الاستعمار كانت تحيا دون تاريخ أو خارج التاريخ .

ويجد كثير من زعماء حركات التحرر فى المجتمعات الجمعية الاستعمارية ، والمجتمعات التى استقر فيها البيض ، من الصعب أن يوفقوا بين صراعهم والصراع الطبقى ، فى موقف يتميز بفشل التضامن بين عمال الاجناس المختلفة ، وفيه يستدعى الصراع تعبئة كل القطاعات فى المجموعة الخاضعة ، وفيه يتحدد الخصوم بشكل قيم بوساطة معايير سياسية ، مثل المستعمر والمستعمر ، أو الجنس الحاكم والجنس الخاضع .

وفى التوفيق بين النظرية المركزية والواقع ، لأن الأولوية ربما ماتزال تعطى للصراع الطبقى فى مرحلة التحرك الوطنى ، عن طريق تأكيد الدور التقدمى أو الثورى لطبقات معينة داخل حركة التحرر ، وهذا مسلك أدى الى ظهور مؤلفات لها قيمتها جدليا . أو قد يكون الالتجاء الى مدلولى الثورة الثنائية المراحل ، فالبورجوازية الوطنية أو الثورة الديمقراطية ، وتعقبها الثورة الاشتراكية ، ومن ثم تنحول العلاقة بين الطبقة والجنس فى المجتمعات الجمعية عنصرية بحيث أنه بدلا من أن تكون الثورة الطبقية هى الشرط المسبق لمساواة العنصرية ، فان الثورة الديمقراطية الاجتماعية هى الشرط المصلح للثورة الاشتراكية ، أو أخيرا قد يفهم الصراع الطبقى فى اطار عالمى كصراع بين الأمم الاستعمارية والأمم المظلومة ، أو بين عمال الأمم الاستعمارية وشعوب العالم المظلومة والبلدان الاشتراكية من ناحية ، والملاك البورجوازيين الدوليين لوسائل الانتاج من ناحية أخرى .

ويتضمن كل من هذه المسالك التسليم بقدر له قيمته من التضامن بين الطبقات فى الامم المظلومة ، عند اى معدل فى الصراع الداخلى المباشر ، ولهذا دلالات بالنسبة

لنظرية الثورية الماركسية عن استقطاب الطبقات فى الارتباط بوسائل الانتاج . ومن افق المجتمع الجمعى يمكن النظر الى الخاصية المحددة فى ديالكتيكية الصراع فى اطار سياسى على انها الارتباط بوسائل القوة ، ومثيرات الثورة بمثابة اى عوامل تؤثر على هيئة العلاقات . هذا وانها ليست بالضرورة تغييرا أو عملية اقتصادية .

ان استمرار علاقات النمط الاقطاعى فى مجتمع صناعى ، والتغيير الجذرى فى المؤسسات الاقتصادية مع بقاء المؤسسات السياسية نسبيا دون تغيير ، ومواصلة الموقف الثورى ، وفق المصطلحات الماركسية دون تغيير ثورى : ان هذه كلها تتسق مع نظريات المجتمع الجمعى اكثر من اتساقها مع النظرية الماركسية (كوبر ، ١٩٧١ أ ، ب) .

وتظهر صعوبات مماثلة فى تطبيق نظريات دوركايم على المجتمعات الجمعية عنصريا . والعنصر المشترك فى هذه النظريات هو التأكيد على التغيير المطرد عن طريق تنمية العلاقات التى تخترق التقسيمات القطاعية الأساسية . والأساس الاجتماعى لهذه العلاقات القطاعية المتداخلة يمكن ان يكون قاسما كبيرا من ثقافة مشتركة ، أو مشاركة فى مؤسسات متماثلة ، أو علاقات اجتماعية متباينة بين أفراد ذوى خلفية عرقية أو عنصرية مختلفة . وتعلق الأهمية على العلاقات التى تخترق مختلف القطاعات باعتبار انها تؤدى الى الاندماج أو الاستقرار أو التحول نحو الديمقراطية .

ولعل الاشتراك فى عناصر كثيرة من ثقافة عامة يؤدى فى الغالب الى الاندماج والاستقرار ، رغم أنه من الواضح انه قد توجد تقسيمات حادة وصراع ثورى فى مجتمعات متجانسة نسبيا فى الثقافة ، كما يمكن أن يكون السعى نحو مبادىء مشتركة مصدرا للصراع (ماكنزى ، ١٩٦٦ ص ٥٩) . وفى المجتمعات الجمعية تصبح كل من الاختلافات الثقافية والتذويب الثقافى بؤرة صراع . وفى المجتمعات الاستعمارية وتلك التى يستقر فيها البيض تستعمل أيديولوجيات الاختلاف الثقافى لترشيد السيطرة . وفى الوقت نفسه فان فرصة اكتساب ثقافة القطاع المسيطر مقيدة بعناية ، والوعد بالمساواة فى المشاركة بالنسبة لمن يتم تذويبهم ثقافيا وعد أجوف . وعلى ذلك قد يجد الصراع تغييرا جزئيا فى المطالب والمطالب المضادة للسمو الثقافى وفى احياء الثقافة التقليدية وتصبح السياسة التعليمية مسألة سياسية . وقد يندفع من تم تذويبهم ثقافيا الى قيادة شعبهم فى الصراع الثورى .

وسوف تختلف نتائج المشاركة فى المؤسسات باختلاف طبيعة المؤسسة وعلاقاتها القطاعية المتداخلة ، وأسلوب تعبيرها داخل المجتمع . ويعلق كولبى وفان دين برجى (١٩٦٩ ص ١٨٣) بأنه من ناحية تعد المؤسسات المشتركة بمثابة الركائز الفعلية لاندماج المجتمع الجمعى ، ومن ناحية أخرى يؤدى عدم التناسق فى كثير من العلاقات العرقية التدخلة الى توليد الصراعات . وفى المجتمعات الجمعية ، بصفة

خاصة ، تكون العلاقات داخل النظام الاقتصادى غير متناسقة بشكل ملحوظ . ويمكن أن يكون التداخل الاقتصادى باعثا على الاستقرار والاندماج فى ظل ظروف معينة ، ولكن توقع ان النمو الاقتصادى الصناعى فى المجتمعات الجمعية سوف يؤدى تلقائيا الى الاندماج والتغيير الديمقراطى هو توقع غير حقيقى بشكل واضح ، مع العلم باستمرار صور التباين العنصرى فى الولايات المتحدة ، وفى جنوب افريقيا (أنظر بلومر ، ١٩٥٦ ، كوبر ، ١٩٦٩ج ، فوتز ١٩٧٠) وفى المجتمعات الجمعية قد تكون الاستجابة للضغوط الرامية الى مزيد من التكافؤ فى المشاركة ، وهى ضغوط يولدها النمو الاقتصادى ، مزيدا من القمع السياسى ، كما فى جنوب افريقية .

وبالتأكيد يمكن أن تكون الزيادة فى شبكات العلاقة الشخصية المتداخلة بين أفراد مجموعة عرقية أو عنصرية مختلفة ركيزة لاعادة بناء المجتمع ، الا أن الصعوبات تظهر من جديد فى المجتمعات الجمعية حيثما يكون هناك ضم تفضيلى للاجناس . ويذهب م . ج . سميث (١٩٦٩ ب ، ص ٥١) الى أنه فى ظل هذه الظروف الهيكلية لاتستطيع خطوط التنظيم او التصرفات الفردية أو تغير التقسيمات الاجتماعية . وقد انتهى محللون آخرون للمجتمع الاستعمارى الى ملاحظات مماثلة . وبالفعل تتسم روابط التضامن الشخصى المتداخل بعدم الفاعلية فى مواقع الجمعية المتطرفة والصراع العنيف كما كان سائدا فى الجزائر .

ان التقسيم العنصرى والعرقى فى المجتمعات الجمعية هو ظاهرة اجتماعية مختلفة تماما عن التقسيم الجزئى فى المجتمعات المتجانسة التى تصفها نظرية دوركايم . وفى المجتمعات الجمعية فان العلاقات الجديدة الناتجة من التقسيم المطرد للعمل قد تفرض بدرجة كبيرة فوق التقسيمات القديمة ، ومن ثم تؤدى الى بلورة الهيكل الجمعى للمجتمع اكثر من تغييره .

وفى ظل هذه الظروف فان الاستيعاب الحضارى والمشاركة فى المؤسسات المتماثلة والعلاقات الداخلة قد تؤدى الى التضامن القطاعى المتداخل ، ولكنها أيضا بمثابة مناطق صرع بين القطاعات الجمعية . ان النماذج المشتقة من نظرية دوركايم المتعلقة بالتحرك من التضامن الميكانيكى الى التضامن العضوى يمكن استعمالها فقط مع عديد من التعديلات والتحفظات فى تحليل التغير السياسى فى المجتمعات الجمعية .

ودون اثارة تساؤلات جوهرية فى تطبيق نظريتى ماركس ودوركايم يقدم منظرو المجتمع الجمعى نظرياتهم الذاتية المتميزة . وتنتج هذه النظريات من التأكيد على الانقطاعات أو الانشقاقات بين القطاعات المختلفة ، وتؤكد دور المؤسسات السياسية ، بما فى ذلك أسلوب الضم التفضيلى . وهذه النظريات صالحة الى حد كبير فى مناطق الجمعية العنصرية أو العرقية ، وهى المناطق التى تشكل الأغلبية العظمى من المجتمعات الجمعية .

ولا ينظر الى الانقطاعات على أنهـا تقـوم على المعطيات المفترضـة للوجـود الاجتماعى ، ولكن ينظر اليها على أنها تنشأ فى عملية التفاعل داخل المجتمع . وفى حالة الدولة غير القومية (ناش ، ١٩٥٨) يكون القطاع المسيطر فقط منظما منذ البداية على نطاق قومى ، بينما يتكون القطاع أو القطاعات الخاضعة من مجموعات محلية كثيرة . وقد يتحقق اندماج هذه المجموعات المحلية فى قطاع قومى من نشاطات المؤسسات الوسيطة مثل الاتحادات العرقية والاحـزاب السياسية (دسيريس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢ ــ ٢٧) ، أو قد تتحول الطبقات العرقية الى كتل عرقية عن طريق القومية والاستقلال السياسى (فريدمان ، ١٩٦٠ ، ص ١٩٦٧) ، أو قد تدفع عملية التحديث الى امتدادات ولاءات المجموعة المحلية الى المستوى العرقى القومى .

ويمكن ان يثير وجود الانقطاعات الشـاملة مشـكلات حادة بالنسبة لحفظ التماسك الذى يعتمد ، لا على قيم مشتركة ، وانما على الرقابة السياسية التى يمارسها القطاع المسيطر ، وعلى التداخل الاقتصادى بين القطاعات المختلفة (كولبى وفان دن برجى ، ١٩٦٩ ، ص ١٠ ــ ١٣) . ورغم توافر عنـاصر الاجماع التى قد تكون ذات قيمة كبيرة لايندمج المجتمع عن طريق الاجماع ، ولايستيقظ الاجمـاع من الهدوء . وفى المجتمعات الجمعية يمـكن أن يكون الصراع المحتمـل بين القطاعات المختلفة دافعا او مبررا لدولة الحزب الواحد أو للحكم الاسـتبدادى أو العسـكرى (أنظر مناقشـات فورتس ، ١٩٧٠ ، ص ١٦ ــ ١٨ ، وفان دن برجى ، ١٩٦٩ ، ص ٦٧ ــ ٨١) .

ورغم مشكلات التماسك والترابط التى تثيرها الانقطاعات المتغلغلة يمكن أن تكون المجتمعات الجمعية مستقرة نسبيا لفترات طويلة من الزمن . وعلى أية حال حينما تحدث حركة التغيير السياسى تتجه العمليات الى أن تكون صارمة وعنيفة . ويساعد عدد من العوامل على هذا الاتجاه . فأعضاء القطاع العنصرى الواحد يتبعون عديدا من الهياكل التأسيسية المختلفة ، بحيث يمكن أن يتحرك الصراع بسرعة من قطاع الى آخر بطريقة تبدو غير معقولة وغير محسوبة . وهـكذا قد يكون للاحداث الصغيرة المنزوية دوى كبير ، وقد تؤدى الى اثارة صراعات قطاعية متداخلة مجتمعية وهكذا أيضا تعم بسرعة قضايا الصراع بشكل يساعد على احتمال اندلاع العنف على زيادة حدته . وفوق ذلك كله فانه بما أن هنـاك ارتباطا وثيقا بين التنظيم السياسى والعملية الاجتماعية يكون للاضطراب والتغيير الاجتماعى انعكاسـاتهما على النظام السياسى المركزى .

وباتباع خطوط نموذج الاستقطاب الماركسى ، ولكن مع احلال التناقض العنصرى (أو العرقى) محل التناقض الطبقى ، قد يتخذ نموذج التغيير الثورى فى المجتمعات من الضم التفضيلى للقطاعات فى نظم التفاوت السياسى أساسا له . وعلى أساس هذا الضم السياسى التفضيلى تتشعب صور عدم المساواة داخل مؤسسات المجتمع ، وبشكل خاص فى المؤسسات الاقتصادية والتعليمية . وهكذا يشيد بنيان علوى شامل يؤدى الى قيام وضع عنصرى عام . ان اى حدث يؤثر على هذا الوضع العنصرى يمكن أن يشعل الصراع . وبما أن البنيان العلوى بأكمله يصان عن طريق السيطرة السياسية فان القطاع الحاكم يستجيب لأية ضغوط ترمى الى التغيير بالسعى الى زيادة قدرته السياسية لكى يحافظ على الوضع الراهن . وهكذا توجد علاقة دياليكتيكية بين الاجناس بخصوص مدى القدرة السياسية . ان الوعى العنصرى أو العرقى الذى يقوم وينمو هو بمثابة ظاهرة مختلفة تماما عن الوعى الطبقى ، فله جذور اجتماعية مختلفة ، وهو استجابة لتطلعات مختلفة ، ويتجسد فى مطامح مختلفة . ويحتمل أن تتغير اهدافه فى تقلد مراكز السلطة والثراء بصورة أكثر من احتمال التغيير الجذرى لأسلوب امتلاك وسائل الانتاج .

وينبنى هذا النموذج المتعلق بالتغير الثورى على افتراض ان القطاعات العنصرية أو العرقية يواجه بعضها بعضا ككتل متعارضة فى سباق شامل من الانقطاع المتطرف . ولكن توجد دوما الاستمرارية والتقطع فى المجتمعات الجمعية ، كما تشير الى ذلك بوضوح طريقة تحول العنف الثورى نحو الداخل ونحو الخارج ، وأمثلة ذلك الجزائر (فيراؤدن ١٩٦٢) ، وكينيا (بيوتنهويجس ، ١٩٦٩ ، الفصل الثانى عشر) . ان الجمع بين الاستمرارية والتقطع يؤدى الى غموض فى علاقات الاجناس أو القطاعات العرقية ، فليس ثمة استقطاب تلقائى . ومن ناحية أخرى فان الصراع ليس ببساطة نتاج دسائس الزعماء السياسيين ، على نحو ما تؤكده بعض النظريات المكيافيلية عن الصراع العرقى فى أفريقيا . وتوجد قوى اجتماعية تبعث على الصراع العنصرى او العرقى ، ولكنها ايضا تبعث فى ظل ظروف معينة على امكانية التغير الثورى المطرد . وبهذا تقدم امكانية الاختيار السياسى ، ولهذا السبب يقترح نموذجان للتغيير السياسى فى المجتمعات الجمعية ، موافقان للاتجاهات السياسية المختلفة فى القطاعات الجمعية التابعة . ويؤكد الأول على المصالحة والتغير الثورى وعن طريق الضم المطرد على أساس المساواة ، ، بينما ينشد الآخر حلا عن طريق توضيح الهوية القطاعية فى معارضة دياليكتيكية وتحد ثورى (كوبر ١٩٦٩ب) .

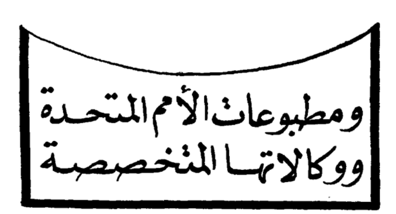
وفى محاولة تقدير امكانية التغيير السياسى الثورى لايمكن افتراض احتمال

التغير السياسى يزداد تلقائيا بتزايد الارتباطات بين القطاعات المختلفة فى الهيكل والثقافة وبصفة خاصة فان بعض توليفات الاستمرارية والتقطع قد تكون مثيرة للصراع . وفضلا عن ذلك فانه فى المجتمعات الجمعية العنصرية ، وبدرجة أقل فى المجتمعات الجمعية العرقية ، تكون الحركية الصاعدة للقطاع التابع قابلة للاسترداد فى الحال . وفى المجتمعات الجمعية بصفة عامة يكون العنف القطاعى المتداخل دافعا قويا للاستقطاب .

وقد يفيد الاطار الذى اقترحه بيلتران (١٩٦٩ ، ص ٩٣ ــ ١١٨) فى البحث عن امكانيات العنف الثورى أو التغيير الثورى المطرد . ويميز بيلتران الازدواج بين القطاعات التقليدية والحديثة ، الجمعية الأساسية أو الحضرية العرقية والجمعيات الثانوية التى تشمل الجمعية السياسية ، جمعية التقسيم الطبقى ، الجمعية الدينية والجمعية اللغوية . كما يحلل التفاعل بين الازدواجية والجمعيات ، قائلا بأن فرضها يساعد على الاستقطاب منبها الى امكانية تحقيق مستويات عليا من الاندماج بواسطة تقنين عند القاعدة يضمن لكل أفراد المجتمع مشاركة متكافئة تقريبا .

وأيا ما كان المسلك فان عمليات التغير السياسى فى المجتمعات الجمعية يجب أن ينظر اليها على أنها غير محددة . فهى تتأثر بالاختيارات السياسية التى يقوم بها رجال الحركة أنفسهم داخل المجتمع ، كما تتأثر بالتدخل الخارجى . وفى الفترة المعاصرة ، مع أن هذا التدخل أثار الصراع ، وصعد العنف بين القطاعات الجمعية، مع قيام الدول الكبرى بشن صراعاتها من أجل السيطرة السياسية فى بلدان الأمم الصغيرة ، فانه فى المستقبل ، ومع تطور مجتمع الأمم ، ربما يحرك أو يعضد عمليات التغير السياسى السلمى نحو المساواة فى المشاركة ❋

المؤتمرات الدولية القادمة



١٩٧٤

أوربا : الاتحاد العالمى للمربين عن السلام العالمى ، أول مؤتمر عالمى ٠

IAEWP, International Secretariat, Huntsville, Alabama 35762 (United States)

بوخارست : الاتحاد الدولى لدراسات شرقى أوربا : المؤتمر الثالث ٠

IASEES, 9, Rue I.C. Frimu, Bucharest (Romania).

١٨ ـ ٢٤ ابريل : الاتحاد الأمريكى للسكان ٠ الاجتماع السنوى :

نيويورك :

Mr. J.W. Bracket, PAA, Box 14182, Benjamin Franklin :
Station, Washington, D.C. 20044 (United States).

٥ ـ ٢٧ يونيه : منظمة العمل الدولية : المؤتمر العمل الدولى ، الدورة التاسعة والخمسون

جنيف :

ILO, 1211 Geneva 22 (Switzerland).

يوليه : المجلس الدولى للرفاهة الاجتماعية : المؤتمر الدولى السابع عشر ٠

نيروبى :

MsKate Katzki, ICSW, 345 East 46th Street, New York,
N.Y. 10017 (United States)

أغسطس : كوبنهاجن : الاتحـــاد الدولى للتـــاريخ الاقتصادى : المؤتمر السادس .

Professor Dr. J.F. Bergier, Rindermarket 6, 8001 Zurich
(Switzerland)

١٨ ـ ٢٤ أغسطس : الاتحاد الدولى لعلم الاجتماع : المؤتمر العالمى الثامن لعلم الاجتماع (الموضوع : علم
تورنتـــو : الاجتماع والثورة فى المجتمعات الراهنة) .

ISA, Via Daverio 7, 20122, Milan (Italy)

١٩ ـ ٣٠ أغسطس : ادارة الشئون الاقتصـــادية والاجتماعية التابعة للامم المتحدة : المؤتمر العـــالمى
نيويورك : الثالث للسكان .

Department of Economic and Social Affairs, United Nations, New York,
N.Y. 10017 (United States)

٢٦ ـ ٢٩ أغسطس : الاتحاد الامريكى لعلم الاجتماع: الاجتماع السنوى

منتريال :

U.SA, 1001 Connecticut Avenue, N.W., Washington D.C. 20036
(United States).

سبتمبر : الجمعية الاقتصادية . المؤتمر العـــالمى الثالث

الولايات المتحدة :

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 :
(United States)

١٩٧٥ : المجلس الدولى للرفاهية الاجتماعية : الحلقة الدراسية الاقليمية لآسيا وغرب المحيط الهادى .

هنج كونج :

Miss Shirly Lian, Hong Kong Committee ICSW, Ann:
Black Red Cross Building, Harcourt Road P.O. Box 474 Hong Kong.

٢٥ ـ ٢٨ أغسطس : الاتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع: الاجتماع السنوى .

سان فرنسسكو :

ASA, 1001 Connecticut Avenue, N.W., Washington
D.C. 20036 (United States)

ديسمبر : الجمعية الاقتصادية : المؤتمر السنوى .

الولايات المتحدة :

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520
(United States)

١٩٧٦ :

فرنســا : الاتحـــاد الدولى لعلم النفس : المؤتمر الحادى عشر .

Professor E. Jacobson, Secretary-General, Department of
Psychology, Michigan State Uniseraity, East Lansing,
Michigan (United States)

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسى : مؤتمر

الولايات المتحدة :

P.B. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520
(United States)

مطبوعات الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة

السكان والصحة والطعام :

الســـكان :

Methods of projecting the economically active population.

Manual v. (UN.ST/SOA/SER. A46)

أغسطس ١٩٧١ ، ١١٩ ص

يعالج هذا المجلد الطرق الأساسية لتخطيط العرض والطلب للقوة البشرية · التكهن بالشعب النشيط · الطلب ، ومن ثمة مطالب اقتصاد القوة البشرية · مقارنة بين العرض والطلب ·

Ad Hoc Committee of Experts on Methods of Revising of United Nations Model Life Tables : Morality models and demographic projections (UN/E/CN.9/AC.14/L2).

مارس ١٩٧٢ · ٢٧ ص

لم تستخدم الجمعية عند اجتماعها هذه الوثيقة وحدها ، بل وثائق أخرى عدة ، وكذلك مايتصـــل بالمشكلات التى ينطوى عليها تحسين محتوى ونطبيقات جداول الوفيات (وبخاصة دورها فى سياســـات الصحة) ·

Report of the joitn ECAFE/ILO Regitonal Seminar or Interrelation between Population and Manpower Problems (UN/E/CN.11/L.317).

ديسمبر سنة ١٩٧١ · ٥٣ ص·

السكان ونخطيط التنمية · السكان وسياسات القوى البشرية · تأثير أداء السلطات الشعبية على الوفيات ، والهجرات والنمو السكانى · تأثير التغيرات فى الوفيات والمواليد والهجرات على تركيب السكان على أساس العمر والقوة العاملة · التغيرات فى معدل النشاط على أساس العمر والجنس وفقا لمستوى التعليم والتدريب ·

The Asian Population Programme : Report on activities, with particular reference to preparations for the second Asian Population Conference. (UN/E/CN.11/L328).

فبراير ١٩٧٢ ، ٣٠ ص·

موقف السكان باقليم اللجنة الاقتصادية لآسيا والشرق الأقصى · تنفيذ البرنامج : الاجتمـــاعات ، الحلقات التدريبية ، والرحلات الدراسية ، والبحث والدراسات ، والنشرات ، والخدمات الاستشارية ، وخطط عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ ·

الصـــحة :

Control and prevention of occupational cancer, 1972.

٣٦ ص (منظمة العمل الدولية)

لمؤتمر العمل الدولى (الانعقاد الثامن والخمسون، جنيف ١٩٧٣) ملخص للتشريع والتطبيق فى دول مختلفة · امكانيات التنظيم الدولى · استفتاء يعقب الصياغة بقصد الاعداد لاداة دولية تدعى الحكومات للاجابة عليها وابداء الأسباب عن اجاباتها ·

Organization of local and intermediate healht administrations.

١٩٧٢ ، ٢٦ ص (منظمة الصحة العالمية)

(ق م) المبادىء التى تشكل هذه الادارات • الأغراض والوظائف • خدمات صـــحية كاملة على المستوى المحلى والمتوسط • اعادة تنظيم الخدمات الصحية • التوصيات •

Pesticide residues in food.

١٩٧٢ ، ٤٦ ص (WHO) = منظمـــة الصحة العالمية •

معلومات عن المبيدات ومتخلفاتهـــا وتعيين الجرعات اليومية الموافقة للانسان • التوصيات •

World Health Statistics Report.

المجموعة رقم ٥ لسنة ١٩٧٢ ٩٣ ص والمجلد ٢٥ رقم ٦ لسنة ١٩٧٢ ٥٠ ص•

(أ هـ) حلقة من سلسلة متصلة من الاحصاءات عن مدى حدوث مختلف الأمراض وهى تغطى كل العالم ، بالاضافة الى جداول أساسية المتكررة بانتظام، وتغطى كل حلقة دراسات خاصة ، ومن بينها يجب ذكر الاحصاءات الخاصة بانتشار الحالات المرضية وجداول البقاء على قيد الحياة فى رقم ٥ ، وعلى دراسة عن شلل الأطفال من سنة ١٩٦١ الى سنة ١٩٧٠ فى رقم ٦ •

الطعـــام :

Nutrition, a review of the WHO programme, 1965-1971.

١٩٧٢ ، ٣٥ ص (WHO) = منظمة الصحة العالمية •

(ق م) الأمراض الرئيسية المرتبطة بالغذاء ، ومعاونة منظمة الصحة العالمية فى هذا المجـــال • مشكلات التنسيق • البحث • التوقعات •

Planning and evaluation of applied nutrition programmes.

١٩٧٢ ــ ١٢٥ ص• منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة •

مضمون هذه البرامج ، وتحديد الأغراض ، تجميع بيانات المراجع ، والتخطيط التفصـــيلى • توسيع البرامج • والتطبيق •

البيئة :

Planet in peril ? Man and the biosphere today.

تأليف ر• ف• داسمان ١٣٦ ص ، ١٩٧٢ • مجموعة بنجوين/يونسكو

لنمو الســكان والصناعة أثر قوى على المحيط الحيوى ، أى الطبقة الأرضية الرقيقة نسبيا ، الهواء والماء حيث توجد الحياة • اشكال التخريب والتلوث• الحاجة الى معرفة جديدة • نحو برنامج دولى •

In partnership with nature : UNESCO and the environment. (UNESCO/SC.72/D.81).

تأليف دانيل بهرام ١٠٦ ص ، ١٩٧٢ .

ماتقوم به اليونسكو لحمية البيئة ، للقارىء بوجه عام .

الاقتصاديات :

الاحصاءات ، طرق الاحصاء .

A draft system of statistics of the distribution of income, consumption and accumulation. (UN/E/CN.3/425).

فبراير ١٩٧٢ – ١٢٢ ص .

هدف وطبيعة الاحصاءات الضرورية فى هـــذه المجالات . خطوط تمهيدية دولية موجهة . العلاقات بالحســـابات القومية وتوازن الأغطيـــة الورقيـــة . التعريفات والتصنيفات المقترحة . جداول نموذجية .

Handbook of international trade and development statistics, 1972. (UN/TD/Stat/4).

٣٧٦ ص. ١٩٧٢

كتب عن التجـــارة الدولية ، يتضمن جداول وفهارس .

A short manual on sampling. Vol. 1. Elements of sample survey theory. (UN/ST/STAT/SER.F/9 Rev. 1).

١٩٧٢ ، ٣٢٥ ص

مبادىء . العمليات النظرية التى يتضمنها أخذ العينات . أمثلة توضح المجموعات المنوعة للاجراءات. طريقة تنفيذ الحسابات .

Foreign trade statistics of Asia and the Far Eats 1967. (UN/E/CN.11/939).

١٩٦٧ – ١٩٧١ – ٦٤٧ ص.

احصاءات التجارة الخارجية لآسيا والشرق الأقصى .

Economic Commission for Asia and the Far East : Guid lines for children and Youth. (UN/E/CN.11/995).

١٩٧١ – ٨٢ ص .

الموارد المعتادة لهذه الاحصـــاءات . الطرق (المجموعة والفائدة) .

Development of Statistics in the ECAFE region : Report of the Acting Project Manager/Director, Asian Statistical Institute. (UN/E/CN.11/L332).

فبراير سنة ١٩٧٢ – ١٠ ص

يغطى عاما ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، المقررات التعليمية المعطاة – المنح الدراسية . الحلقـــات الدراسية الاقليمية ، المطبوعات .

Bibliography of African Statistical Publications. (UN/E/CN, 14/LIB/SER C/2/Add. 1)

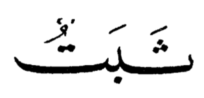
اغسطس سنة ١٩٧١ ، ١٩ ص

يشير هذا الملحق الى تلك المطبوعات التى تبحث فى باسوتولاند ، وبتسوانا ، وتشاد واثيوبيا وغانا وليبيريا . الاقتصاد والمشروعات الاجتماعية ، والسكان، والزراعة والتجارة الخارجية والصحة العامة والقوة البشرية والصناعة والمالية العامة والتعليم والنقل .

Collection of tourism in Africa (UN/E/CN. 14/Tras/47).

سبتمبر سنة ١٩٧١ ، ٧٣ ص.

جدول عام للاحصاءات السياحية المنساحة فى الدول الافريقية والفروق بينها وبين المبادىء التى نوصى بها الأمم المتحدة والاتحـــاد الدولى ومنظمات السياحة الرسمية ، وبه ملحق يتضمن معلومات عن بلاد معينة : الجزائر وبتشوانا وبوروندى والكمرون والكنغو وداهومى ، وجمهورية مصر العربية واثيوبيا وجابون وغانا وساحل العاج وكينيا ، ومالاوى ومالى وموريتانيا والمغرب ونيجير ونيجيريا ورواندا والسنغال وسيراليون والسودان وسوريا وأوغنده ، وفولتا العليا وتنزانيا وتونس وزامبيا .



المقال واسم الكاتب	العنوان الاجنبى واسم الكاتب	رقم العدد وتاريخه
◆ محاولات جديدة في دراسة المشكلات الاجتماعية للشباب بقلم : ليوبولد روزنماير	New theoretical approach to the sociological study of young people by Leopold Rosenmayer	المجلد : ٢٤ العدد الثانى ١٩٧٢
◆ الجغرافيا الاقتصادية والتنمية بقلم : فكتور فولسكى	Economic geography by Victor Volsky	المجلد : ٢٤ العدد الأول ١٩٧٢
◆ علم الاجتماع بقلم جورج بالانديه	Sociology by Georges Balandier	المجلد : ٢٤ العدد الأول ١٩٧٢
◆ التغير السياسى فى المجتمعات الجمعية مشكلات فى الجمعية العنصرية بقلم : ليوكوبر	Political change in plural societies : Problems in racial pluralism by Leo Kuper	المجلد : ٢٣ العدد الرابع ١٩٧١



THE MEMPHIS CHEMICAL CO.

THE STAMP OF
DEPENDABILITY

- تقوم الشركة بإنشاء أحدث مصنع للأدوية والخلاصات على مساحة ٢٠ فدان بمنطقة الأميرية بالقاهرة .
- تستخلص المواد الفعالة من النباتات الطبية المصرية وتصدرها إلى جميع أنحاء العالم مثل مواد الخللين من نبات الخلة ومواد الأميدين والأمويدين من نبات الخلة الشيطاني ومادة السولاسودين من نبات السولانم ومادة البكتين من قشر البرتقال ومادة الروتين من نبات الحنطة السوداء .
- تنشر أبحاثها العلمية في كبرى المجلات العلمية العالمية .

صفحات اضافية خاصة بالطبعة العربية



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٧٣

مركز مطبوعات اليونسكو
ومجلة رسالة اليونسكو

يقدم مجموعة من المجلات الدولية بأقلام كتاب متخصصين وأساتذة دارسين.
ويقوم باختيارها ونقلها إلى العربية نخبة متخصصة من الأساتذة العرب، لتصبح إضافة إلى المكتبة العربية تساهم في إثراء الفكر العربي، وتمكينه من ملاحقة البحث في قضايا العصر.

مجلة رسالة اليونسكو — تصدر شهريًا

المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية
مستقبل التربية
يناير / أبريل / يوليو / أكتوبر

مجلة اليونسكو للمكتبات
مجلة (ديوچين)
فبراير / مايو / أغسطس / نوفمبر

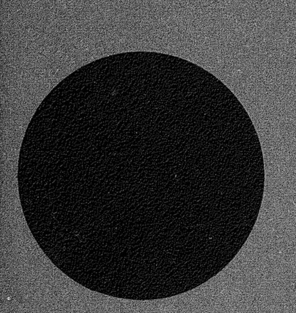
العلم والمجتمع
مارس / يونيو / سبتمبر / ديسمبر

مجموعة من المجلات تصدرها هيئة اليونسكو بلغاتها الدولية، وتصدر طبعاتها العربية بالاتفاق مع الشعبة القومية لليونسكو، وبمعاونة الشعب القومية العربية، ووزارة الثقافة والإعلام بجمهورية مصر العربية.

الثمن ١٠ قروش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجلة الدّولية للعلوم الاجتماعية



• الحاسب الألكترونى يتدخل فى علم الآثار •

العدد الرابع عشر - السنة الرابعة
يناير / مارس ١٩٧٤

تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو

اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو



العدد الرابع عشر
السنة الخامسة
١٢ ذي الحجة ١٣٩٣
٥ يناير ١٩٧٤
٥ كانون الثاني ١٩٧٤

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو
١ شارع طلعت حرب بميدان التحرير
بالقاهرة
تليفون : ٢٢٤٠٢

محتويات العدد

وسائل الاتصال الجماهيرية

اننـا محتاجون فى بداية هذا الحديث الى الاتفاق على تحديد وسائل الاتصال الجماهيرية ، والتعرف على طبيعتها ، وتحديد وظيفتها ، لنستطيع من خلال ذلك أن نقف على مدى قدرتها على مواجهة تحديات العصر الذى نعيش فيه .

والذى لا شك فيه ان هذه الوسائل قد حملت أكثر من اسم تعارف عليه الناس ، فهى مرة وسائل الأعلام ، وهى مرة طريق للأرشاد القومى ، وهى فى بعض الأحيان نوع من توزيع المعلومات عن طريق مراكز الثقافة الجماهيرية .

ولو أننا استعرضنا هذه المسميات جميعها لوجدنا أنها لا تستطيع أن تستوعب كل المقصود بوسائل الاتصال الجماهيرية . فالأعلام يقتصر على امداد المواطنين بالمعلومات التى تراها وسائل الأعلام لازمة لهم. وطرق الارشاد القومى تكتفى بما يتصل بالقضايا القومية ، فتركز اهتمامها عليه . ومراكز الثقافة الجماهيرية تستبعد من دائرة اهتمامها كل ما يتصل بالأحداث الجارية ، وتقدم للمواطنين المواد الثقافية التى لا ترتبط بهذه الأحداث .

وقد تكون هناك مسميات أخرى تطلق على الوسائل المختلفة التى تؤدى هذه الواجبات . ومع هذا فآن هذه الوسائل ، بكل ما تحويه من اختلاف فى التسمية ، لا تعطينا المفهوم الواسع لوسائل الاتصال الجماهيرية . ذلك أن كل وسيلة من الوسائل السابقة ، تعتبر جزءا من وسائل الاتصال الجماهيرية ، لكن كلا منها لا تكفى للدلالة على سعتها وشمولها .

وسائل الأعلام مثلا تقتصر على الأخبار الجارية ، تمد بها المواطنين، عن طريق الصحف والاذاعة المسموعة أو المرئية .

فى مواجهة تحديات العصر

والارشاد القومى يعنى أول ما يعنى بارشاد المواطنين الى قضاياهم القومية عن طريق الأخبار والمعلومات ، وأن يكن الأساس الذى تقوم عليه هو فى تفسير الأخبار ، وشرح المعلومات ، وشحذ المواطنين للسير فى طريق يراه المشرفون على هذه الوسائل أكفل طريق لتحقيق المصلحة القومية .

أما الثقافة الجماهيرية فان اهتمامها الأول بالمادة الثقافية التى تراها انسب لتكوين الوجدان العام ، وبهذا المفهوم لا تشعر أن مهمتها تتصل بالمعلومات الجارية ، ولا بتفسير هذه المعلومات ، فى حين أن وسائل الاتصال الجماهيرية أوسع وأشمل وأعم ، فهى تشمل كل وسائل الأعلام والارشاد القومى والثقافة الجماهيرية .

ولو أردنا أن نحصى هذه الوسائل لوجدنا أنها تشمل كل وسيلة من وسائل الربط بين أجزاء المجتمع ، بالكلمة المكتوبة أو المنطوقة أو المشكلة فى صور فنية مختلفة .

والذى لا شك فيه أن الحضارة الانسانية قد بدأت عندما صار الانسان قادرا على التعبير . واذا كان التعبير قد مر بأكثر من صورة ، عبر مراحل التطور الحضارى ، فان التعبير بالكلمة قد كان هو الصورة المتطورة لقدرات الانسان .

ذلك أن التعبير بالكلمة ما كان ليقوم بغير اهتداء الانسان الى لغة يتفاهم بها . والوصول الى اللغة ظاهرة اجتماعية تدل على وصول الانسان الى تكوين المجتمع ، فالفردية والعزلة والاغتراب ليست فى حاجة الى لغة ، لأن الانسان يتفاهم باللغة مع سواه ، لا مع نفسه ، ويوم تنشأ ضرورة التفاهم مع الغير فمعنى ذلك أن الانسان لم يعد وحيدا فى هذا الكون ، وأن حياته قد تطورت بالقدر الذى يلزمه

باستعمال لغة تخاطب ، يتعارف عليها مع أفراد آخرين ، يفهمون عنه ما يقوله ، ويفهم عنهم بالتالى ما يقولون .

وعندما تنتقل اللغة من مرحلة المشافهة الى مرحلة التسجيل ، فتلك خطوة اخرى جديدة ، على طريق التقدم .

وتنشأ وسائل نشر الكلمة المكتوبة مع اتساع المجتمع ، والشعور بعدم قدرة اللغة الشفهية على الانتشار فى المجتمع الجديد .

ومع كل اختراع جديد تتطور وسائل نشر الكلمة بين أفراد المجتمع ، حتى نصل فى النهاية الى تعدد هذه الوسائل ، مع تعدد المخترعات الجديدة .

والذى لا شك فيه أن كل وسيلة جديدة من وسائل التعبير بالكلمة تحدث تغييرات فى شكلها ومضمونها معا .

لكن تبقى الكلمة - مع هذا - فى اية صورة من صورها ، وبأى مضمون تحمله ، وعاء لفكر الانسان .

على أن الكلام فى هذا يطول ، ولعلنا مضطرون لأن نحصر الحديث فيما انتهت اليه وسائل الاتصال الجماهيرية ، لنتبين وظيفتها فى مواجهة تحديات العصر .

واذا كانت وسائل الاتصال الجماهيرية تشمل كل الأدوات القادرة على نشر الكلمة ، أو نشر الفكر الانسانى من خلال الكلمة ، وانها بهذا الفهم أوسع وأشمل وأعم من أن تقتصر على وسيلة واحدة ، أو عدد من الوسائل محدوده ، فان تحديات العصر تتسم بمثل هذا القدر من السعة والشمول والعمومية .

ولعلنا فى هذا الحديث أن نكتفى ببعض نماذج للتدليل على الواقع الذى نعيش فيه ، وما يواجهنا فيه من تحديات .

ولسنا نتجاوز الواقع اذا قررنا ان التزايد الهائل فى عدد سكان هذا الكوكب قد بات يشكل أكبر التحديات فى عصرنا ٠

ومع تزايد السكان تزداد أهمية وسـائل الاتصـال الجماهيرية ، للربط بين الملايين العديدة من المواطنين ، بفهم مشترك للقضايا العامة ، وتقدير مشترك لواجبات المواطنين فى هذا العصر ، وتبادل العلم بالمشكلات الأساسية التى لا يجوز الجهل بها .

واذا كان العـلم قد فرض بتطوره نوعا من التخصص ، تختلف درجاته باختلاف المجتمعات ودرجات تطورها ، فان دور وسائل الاتصال الجماهيرية يصبح أهم ، فى مواجهة نوع جديد من التحدى .

ان التخصص معناه أن يتخصص كل انسـان بجانب من جوانب الانتاج ٠ وفى مصنع واحد للسيارات مثـلا قـد يصل عدد التخصصات التى يشـهدها المصنع الواحد الى أكثر من مئة تخصص ٠ وقد يكون صاحب تخصص فى انتاج جزء من أجزاء السيارة لايدرى شيئا عن صاحب تخصص آخر فى انتاج جزء آخر . وقد يكونان متجاورين فى طابق واحـد .

معنى هذا أن كل فرد قد صـار منتجا لنوع معين ومحدود من انتاج ما .

لكنه ــ مع هذا ــ فرد فى مجتمع ، يحيا حياته الخاصة ، ويحتاج الى استهلاك كل أنواع الانتاج الأخرى ٠

هو من ناحية منتج لنوع معين من الانتاج . لكنه مستهلك لسائر أنواع الانتاج الأخرى .

ولعل هذا التخصص ، بمختلف صوره ودرجاته ، يضع الانسان أمام أحد تحديات العصر ٠

فهو محتاج الى أن يتعرف على جوانب الانتاج ، ليحدد موقفه منها بصفته مستهلكا لها .

عندئذ لا نجد صيغة أخرى أنسب من وسائل الاتصال الجماهيرية، لتؤدى دور تقديم ثمرات العلم ، وشرحها ، وبيان استعمالاتها ، للمستهلكين جميعا .

أن التكاثر السكانى من ناحية ، والتخصص الدقيق من ناحية ، قد فرضا على وسائل الاتصال الجماهيرية واجبات واضحة فى ربط الملايين بحد أدنى من المعلومات الضرورية لتكوين الرأى العام . كذلك فرض التطور العلمى ، وتخصصاته الدقيقة ، على هذه الوسائل أن تؤدى دور التعريف بانجازات العلم ، حتى يتم استهلاكها على أساس من العلم بها وبفائدتها لحياته الخاصة .

هناك بعد هذا نوع من التحدى أسفر عنه التطور .

أن العلم يتقدم فى عصرنا تقدما مذهلا ، ولكن هذا التقدم قد يغرى علماء العالم ، تحت ضغط الساسة ، أو استعراضا لقدراتهم ، باتجاهات مدمرة .

أن العالم الذى اخترع الطائرة ، لتيسير الانتقالات بين المسافات، هو نفسه الذى يخترع قاذفات القنابل ، والعالم الذى اكتشف الميكروبات ليقضى عليها حماية للانسان ، هو نفسه القادر على تكثيف هذه الميكروبات ليقضى بها على مجتمع آخر ، فى حالات الحرب المدمرة وغير الأخلاقية .

معنى هذا أن التطور العلمى محتاج الى نوع من الأخلاقيات ، يضبط هذا التطور ، ويحول بينه وبين الانحراف عن القصد .

والأخلاق ظاهرة اجتماعية . وعندما يسطع النور فى المجتمع الانسانى فان خط الجريمة يصبح أقل . ان اللص يسرق فى الظلام ، فاذا أضاء النور خاف أن يضبط متلبسا بما يسرق .

وهنا يتحتم على وسائل الاتصال الجماهيرية أن تعمل بجد لتثبيت نوازع الخير فى ضمائر العلماء .

والعلماء قبل أى شيء هم جزء من المجتمع ، فاذا نجحت وسائل الاتصال الجماهيرية فى أن تشيع ايمانا بأخلاقيات ثابتة ومقدسة فى

المجتمع فان العلماء سيجدون أنفسهم متجهين نحو هذه الأخلاقيات التى تكفل للعلم قدره وتوجهه نحو خير الانسانية ، لا نحو تدمير الحضارة .

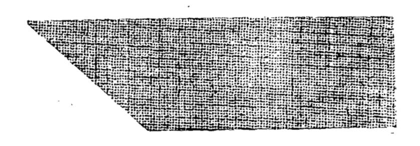
ومع هذا فنحن نعلم أن الذى ينفق على العلم هو الدول ، والذين يديرون الدول ساسة قد ينحرفون أو يتعصبون أو تعميهم أطماعهم ، فيرغمون العلماء على انجازات مدمرة .

لكن وسائل الاتصال الجماهيرية قادرة مع هذا على التأثير على الساسة أنفسهم ، ليصدروا قراراتهم متفقة مع ما تؤكده وسائل الاتصال الجماهيرية من القيم .

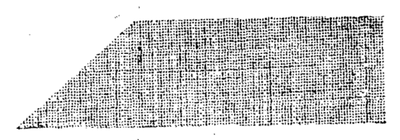
وهكذا فان وسائل الاتصال الجماهيرية تتحمل مسئولية كبرى فى العمل الاجتماعى ، وعليها أن تتهيأ لتحمل مزيد من المسئولية ، يفرضها تطور العلم والمجتمعات .

ان هذه الوسائل قد صارت تشكل كيانا له تأثيره على الجماهير فى كل مكان . ومن صالح الانسان أن يحيطها المجتمع بكل ضمانات الحرية ، لتؤدى دورها فى صدق وأمانة ، لتثبيت الأخلاقيات اللازمة لمنع الكوارث فى عالمنا .

عبد المنعم الصاوى



نحو بيئة حضارية مخططة



يحتاج التعمير الى تنظيم • ويؤدى التعمير السريع بدون تخطيط الى تخبط ، ويؤدى التصنيع والانفجار السكاني كعنصرين أساسيين الى النمو العمراني السريع وغير المنظم • وفي العقود القادمة سيبلغ معدل التعمير المخطط (١) وخاصة في البلاد النامية ما سيؤدى الى امتداد أبعد من كل قياس للاضافة المحتملة لبؤس الانسانية ما لم تبذل جهود كبيرة وتعاون لدراسة هذه المشكلة والتمكن منها •

المفهوم الحالي للتخطيط

ان الجهود المبذولة حتى الآن للتحكم وتنظيم واعادة بناء المدن القائمة غير كافية• وهناك مدن عديدة لها تخطيط شامل ، ولكن لم تتح لمعظم هذه المخططات حلول مرضية أو فعالة (٢) •

(١) الأمم المتحدة ، قسم الاقتصاد والشؤون الاجتماعية « النمو السكاني الحضرى والريفى » ١٩٢٠ – ٢٠٠٠ ، الأمم المتحدة ، نيويورك ، ١٩٦٩ « دراسات سكانية رقم ٤٤ الفصل الرابع » •

(٢) ت٠ت٠ب٠ كوه ، ووليم س٠و٠ ليم « قوانين ولوائح التخطيط بسنغافورة » النشرة القانونية بالملايو • المجلد ٢ لسنة ١٩٦٩ •

بقلم : وليم .س .و . ليم

مهندس معمارى ، وخبير فى تخطيط المدن ، ومستشار تنمية . محاضر غير متفرغ في العمارة وتخطيط المدن فى كلية الهندسة المعمارية وكلية الحقوق بجامعة سنغافورة . له عدة مؤلفات في مشاكل التعمير والتخطيط .

ترجمة : الدكتور محمد زكى حواس

أستاذ العمارة المساعد بكلية الهندسة بجامعة عين شمس . حاصل على دكتوراه التخطيط والعمارة من زيورخ بسويسرا فى ١٩٦٢ فى تخطيط المراكز الصناعية ، يقوم بعمل عـدة مشروعات تخطيطية ومعمارية بجمهورية مصر العربية . من مؤلفاته : فن البناء ، الكميات والمواصفات وشفرة التنفيذ ، كتاب الجيب للمهندسين . جداول حواس الهندسية ، الجداول التنفيذية ، المسطرة المعمارية الحاسبة ، مدخل فى الانشاء المعمارى (تحت الطبع) .

ومع ذلك فان هذه المخططات الشاملة قد منعت فى حالات كثيرة حـدوث ما هو أسوأ، وذلك بتنظيم أنواع النمو وشدته وبالابقاء على الأراضى الفضاء . وتختنق المدن بالسيارات اختناقا شديدا . وتحتاج اللوحات التخطيطية لاستعمالات الأراضى وتوزيع المناطق لاعادة تقويمها ، كما أن قيمة الحياة لم تتحسن ، وتعفنت كل البيئة المحيطة ، وأصبح الانتقال الى العمل ومنه يحتاج الى وقت أكثر ومسافات أطول . كما أن تلوث الهواء وحوادث المرور في ازدياد مطرد . وعموما فان منـاطق المدن الأكثر انسانية وأهميـة تتآكل أو تسـتبدل شيئا فشيئا . ومعظم المدن الجديدة المخططة والتى تم تنفيذها فى العقدين الأخيرين صغيرة نسبيا ، ولم تتطور بشـكل كاف يسمح بتقويم صحيح لها . وقد يساعد الأسلوب الفنى (التكتيك) المعاصر بتركيزه على جمع المعلومات وعمليات العقول الألكترونية على تصحيح بعض من عدم الدقة الاحصائية فى المشروعات التخطيطية . ومع ذلك فانه من المشكوك فيه أن تكون النتيجة الملموسة تحسينا محققا فى مفهوم التخطيط الحى ، حيث ان النظرية الأساسية للفكرة قد تصبح قديمة بتغير الظروف . ونقص المدارس اللازمة ومشروعات الاسكان والمناطق المفتوحة وتفاقم مشكلة المواصلات والاستخدام غير الاقتصـادى للأراضى المتاحة هى النتائج

المباشرة فى المدن غير المخططة أو المخططة تخطيطا سيئا · ونظريات النمو الشريطى (الخطى) المختلفة ومفهوم المتروبوليتان المركزية (١) قد تبدو هى النتيجة الحتمية والمنطقية لأسلوب النمو العمرانى فى المجتمعات الصناعية التى تقبل تحكم وسيطرة السيارة والاسكان ذى المرافق البسيطة نسبيا ·

السيارات الخاصة / الضواحى

ان السؤال هو : **أولا** ، هل علينا أن نقبل دون مناقشة الاعتماد على السيارات الخاصة للانتقال بها الى العمل والعودة بها منه ؟ **وثانيا**، هل الاسكان المنخفض الكثافة أساسى للطبيعة البشرية بدرجة يستحيل معها تنمية الاسكان بشكل أكثر تركيزا ؟

لقد واجهت المدن الاقبال المطرد البشرى على اقتناء السيارات الخاصة بمشاكل لا حل لها · والمحاولة التى لا بأس بها لحل هذه المشاكل وخاصة فى مناطق وسط المدينة أصبحت تجربة تحمل الفشل فى طياتها · ومع أن هذه المحاولات قاصرة عن ارضاء أصحاب السيارات الخاصة فانها كذلك قد أدت الى اتلاف عام فى وظيفة وسط المدينة وبيئتها المحيطة ، كما أن لها تأثيرا مضادا على الدخل وعلى كفاءة أداء النقل العام · ومن المشكوك فيه قدرة المدن على البقاء ، اذا استخدمت السيارات الخاصة وسيلة أساسية لنقل السواد الأعظم من الناس الى العمل ومنه · وامتداد الضواحى ونموها أمر يلقى تشجيعا بسبب الظروف المعيشية غير المرضية فى داخل المدينة (المناطق الحضرية) · وفى الوقت نفسه فان الاسكان المنخفض الكثافة كخاصية لنمو الضواحى يتطلب مزيدا من الطرق الأكثر اتساعا لاستيعاب السيارات الخاصة .

ان الضاحية لهى الهروب · وقد أثر انتشار الضواحى المستمر بشدة على وصول سكان المدن بسهولة الى الريف ، وعلى وقت الانتقال المتزايد ، والتصاعد المستمر فى نفقات المرافق ، والامتصاص المستمر لمساحات كبيرة من الأراضى الزراعية · وان التهافت على الضواحى لهو نتيجة حديثة لسهولة قدرة الحصول على سيارة خاصة فى مجتمع مزدهر · وأساسا فان الناس قد انتقلوا الى الضواحى ليكسبوا اتصالا سهلا بالريف · وقد خلقت الهجرة الجماعية للجماهير المتوسطة الدخل الى الضواحى نوعا معينا من الطبقية التى تخلو من الميزات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة ·

الحل الممكن : يقدم تقرير باخانان (٢) كمستند مفيد تعريفا واضحا لسيادة وأهمية الطرق ، ومشاكل المرور بالمدن والمناطق المتاخمة · ومع ذلك فان أحسن وجهة

---

(١) بيتر هول «مدن العالم» لندن ، مكتبة الجامعة العالمية ، ١٩٦٧ ·

(٢) حركة المرور فى المدن : دراسة فى مشاكل المرور بعيدة المدى فى المناطق الحضرية ، لندن هـم س و· ١٩٦٣ «تقارير عن قائدى السيارات والعاملين صادرة عن وزير النقل» ·

نظر فى التخطيط الطبيعى قد قدمها ايكيستيكس(١)متبلورة فى نظريات الانتوبيا(٢) والايكومينوبوليس (٣) : وقد صنف ايكيستيكس بدراية شاملة المستوطنات البشرية نوعيا وقياسيا ، وقد تبدو ناتجا حتميا غير قابل للمناقشة للتطور العـــالمى فى المستقبل • فقد عزلت السيارات وغيرها من وسائل الانتقال السريعة عن حركة المشاة ولم تعط أى تحديد بالنسبة لدرجة تطور أو نمو مرفق الاسكان • وقد اعتبرت أن التكنولوجيا والازدهار سوف يكونان عالميين على درجةكافية من التقدم لتيسير تحركات سريعة للاتصالات على مدى المسافات البعيدة . وعلى كل حال فقد اعترفت النظرية بأن نهج مخطط النمو يعتمد على المدينة الديناميكية ذات الخلايا الاستاتيكية ، وان تناول الحل انما هو بأسلوب التجربة والخطأ ، محددة نفسها بالتفكير فى خطوط مستقيمة فى حين أن التطور يتخذ مساره فى منحنيات (٤) .

ومن الضرورى أن نبين هل أساسات مفهوم ايكيستيكس تقدم حلا مرضيا يمكن تطبيقه عالميا ، فحتى مع ادخال معدل التعمير السريع فى الاعتبار فانه من المشكوك فيه أن تكون الشبكة المستمرة والشاسعة للتجمعات العمرانية ضرورية أو حتى مرغوبا فيها ، الا اذا كان الهدف هو تقديم مرافق اسكانية منخفضة الكثافة • اذ أن تكاليف المرافق الاسكانية باهظة وتتطلب اشرافا قويا وتعاونا وجهدا من السلطات • وسيكون من الصعب التنبؤ بالتقدم الاقتصادى على النطاق العالمى بالقدر الذى ييسر الحصـول على المواد الضرورية • وعلاوة على ذلك فان شبكة التعمير الكثيفة لن تؤدى الا الى خلق مراكز ثانوية متعددة والى لامركزية حتمية والى تحقيق مفهوم اللامدينة • وليس للبلاد النامية بديل لمواجهة التحدى فى عمليات التعمير فى العقود القادمة سوى البحث عن حلول أخرى فى المدى الذى يصل اليه مستوى المراحل المخططة والموارد المتاحة .

المدن/القطاع البيئى

هل يقدر للمدن بقاء ؟ ان المدينة مكان للمعاملات الانسانية ، كما أنها تعطى طاقة التغيير الدافعة ، وخاصة فى دولة نامية • وهى تعطى التعبير عن حبنا وكرهنا ، عن قوتنا ، عن خمولنا وعن قصورنا • وهى تظهر أحسن وأسوأ ما فينا ، وهى مكان للمحافظين والرهبان والهيبيز وآخرين غيرهم • انها مكان تخلق فيه الأفكار وتدور المناقشات الدسمة المتعددة على مختلف المستويات ، ويعبر عن الأفكار المتطرفة المنحرفة فى صورة ذات معالم حادة الوضوح .

---

(١) ايكيستيكس : نشرة عن مشـــاكل وعلم المستوطنات البشرية •

(٢) س• أ• دوكسيادس، بين ديستوبيا ويوتوبيا ص ٥١ ــ ٥٢ ، لندن ، فابر ، ١٩٦٨ •

(٣) س• أ• دوكسيادس ايكومنيوبوليس «تجمعات المســتقبل» أثينا مركز أثينا لايكيستكس ١٩٦٨ ، فصل أ ، المقدمة (أسى تقرير مجموعة مطبوعات **أسى** رقم ١) •

(٤) س أ دوكسيادس بين ديستوبيا ولوتوبيا •

هذه الصورة الضرورية للمدنية يجب أن نقدرها وأن نحافظ عليها ، ولا ريب أن هناك تغييرات يجب أن تأخذ مجراها ۰ ومهما يكن من عملية التغيير فيجب أن لا ندمر ماهو أحسن فعلا ، ويجب أن يكون لكل مدينة طابعها المميز ، فان المدن يمكنها أن تبقى فى هذا العالم السريع العمران اذا كانت مخططة بمقومات نمو ديناميكية ۰ ولن يكون التخطيط كافيا لمواجهة المتطلبات المتغيرة ۰ ويجب أن تظل المدينة في حالة تجدد ذاتي دائم الاستمرار ، ومتطورة بثبات لمواجهة العوامل المتغيرة ۰ ويستلزم ذلك اصدار قوانين ولوائح التخطيط اللازمة ، كما يتعين أن يكون فهم مبدأ اقتصاديات الأراضي أكثر وضوحا ، وخاصة فى الدول غير الاشتراكية ، فقد أصبح التحكم في توزيع المناطق الفاصلة طبقا لتخصصات مختلفة أمرا عفى عليه الزمن ۰

ويجب أن تكون الفواصل محددة فى نطاق كل قطاع بيئى بواسطة طرق مرور رئيسية ، وتنظيم استعمالاتها المسموح بها بالحساب طبقا لحجم المرور النابع من قلب القطاع ، وكذلك طبقا للعوامل البيئية الأخرى ، يعنى هذا أن قدرا خاصا من المرافق سيسمح به فى داخل كل قطاع لخدمة التقدم التجارى والسكنى وحتى الصناعى ۰ وسيكفل ذلك مرونة كبيرة فى نماذج ومعايير التقــدم فى كل قطاع ، كمـا ستتغير طبيعة الاستعمالات فى القطاعات وقيمتها ۰ وستكون القطاعات الواقعة فى المنطقـة المركزية للتجارة ، كما سيكون تغلب الاستعمالات السكنية فى المناطق البعيـدة عن المنطقـة المركزية ، وسوف يزيد التركيز فى كل قطـاع تبعا للتجديد والتطور فى النقل ، مثل نقل وسائل الجماهير بالجملة والنقل العام ۰

التصـنيع

يؤثر التصنيع على القيمة الانسانية وعلى التغيير الثقافى وعلى طبيعة التصرفات ومنهجها ۰ كما يخلق النمو التكنولوجى الازدهار الذى يخلق بدوره متغيرات أبعد ۰ وبصفة عامة فان التغيير يحـدث فى البلاد النامية متمشيا مع معدل النمو الصـناعى والتكنولوجى ۰ ولسوف يكون علينا تعديل وتوفيق القيم الثقافية والتاريخية لتلائم الظروف الجديدة ، فلا يمكن الاستمرار فيها بلا تغيير ۰ وقد يكون لزاما علينا تدميرها قبل أن تثبت بقصـــد أو بغير قصـــد ۰ فللتكنولوجيا معاييرها وقيمها الخاصة ، وكلها مؤثرة ۰

واذا كانت القيم الحضارية متعارضة مع المتطلبات التكنولوجية فان هذا سيتطلب تغييرها ، والا فان معدل التطور سوف يتأثر بصورة عكسية ۰ ومما لا مراء فيه أن البلاد النامية لا تستطيع التمسك لأى مدى زمنى بقيمها الثقافية والتاريخية على حساب تقدمها وتطورها ۰ وسوف تجد كل ثقافة طريقها للتعبير خلال دلائل وأساليب التطور التكنولوجى والصناعى ونتائج هذا التطور ۰

ان الأساس النظرى لتناول مشاكل أمراض المدن هو أساس عالمى مشترك . ولا بد أن يعتمد التنفيذ الواقعى على الموارد المتاحة وعلى المعرفة التكنولوجية لتصريف الأمور فى البلاد المختلفة . وتؤثر العوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية والمناخية بلا شك على مفهوم التخطيط والعمارة فى تفاصيلها الدقيقة . كما أن أسلوب التقدم فى النقل ومستواه سوف يؤثران جذريا فى قوة التطور ونوعياته واستعمالاته ، كما يؤثران فى تكنيك الانشاء وأسلوبه ، وفى المنهج الاقتصادى لاستعمالات الأراضى بداخل القطاعات . ولعله صحيح أن الموارد المحددة للبلاد النامية لا تتيح لها الا الحد الأدنى من الوحدات السكنية . وعلى أى حال فان قيمة البيئة سوف تعتمد بالضرورة على قدرة المصمم على خلق ما يتفاعل ويذوب فى الهيكل الاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

التجديد العمرانى

يعمد الى عمليات التجديد العمرانى كوسيلة لاعادة بعث الحياة فى المدن . وبالرغم من بلوغ أهداف محددة أحيانا كتوطين النمو التجارى فى المنطقة المركزية بالمدينة واعادة تبنى مشروعات الاسكان لمتوسطى الدخل فقد فشل التجديد العمرانى فشلا ذريعا فى حل أزمة الاسكان بالنسبة لمحدودى الدخل حتى فى المجتمعات المزدهرة ، وانه ليظن أنه اذا استمر برنامج التجديد العمرانى فى عمليات الهدم حتى آخر عشة أو خربة فان مشكلة الاسكان سوف تصبح أسوأ بشكل ليس له مثيل ، كما أن الظروف المعيشية السكنية لمحدودى الدخل ستزيد بؤسا مع كل عملية هدم (١) . وانها لضرورة اقتصادية أن يكون لدينا برنامج تجديد للتمكن من اعادة احياء المنطقة المركزية بالمدينة كى تقدم الأراضى اللازمة للتقدم التجارى ولتحسين الطرق والخدمات . ولكن من المشكوك فيه أن انشاء أعداد كبيرة من الوحدات السكنية الشعبية فى مكان المساكن العتيقة سوف يحقق أهدافا سياسية واجتماعية بسبب انخفاض مستوى الدخل نسبيا لساكنى الأحياء القديمة ، وخاصة فى الدول النامية . ويجب تفهم الواقع الاقتصادى لساكنى الأحياء العتيقة ، وأن يوضع ذلك فى الاعتبار لأن الناس لا يقطنون الأحياء العتيقة عموما الا لأنهم فقراء وليس فى مقدورهم سبيل آخر (٢) .

وسيكون من المستحيل تنفيذ أى مشروع ببرنامج تجديد عمرانى شامل يقتضى ويتضمن إنفاق مبالغ طائلة فى البلاد النامية ذات الموارد المالية المحدودة والدخول

---

(١) س. ابراهام «المدينة هى الحد الفاصل» ص. ١٧٩ ، نيويورك ، هابر ، درو ، ١٩٦٥ .

(٢) وليم. س.و. ليم «اعادة الاسكان : حل ممكن للاحياء العتيقة فى البلاد النامية» ، مجلة معهد المهندسين المعماريين بسنغافورة ، نوفمبر/ديسمبر ١٩٦٧ ، بحث مقدم للمؤتمر الأفريقي الآسيوى للاسكان بسنغافورة في أكتوبر ١٩٦٧ .

الفردية المنخفضة . ومن الواضح أن الدول النامية ستواجه بشكل مستمر مشكلة الأحياء العتيقة لعدة سنوات . والتجديد العمرانى الذى يتضمن ازالة تلك الأحياء على نطاق واسع واعادة التطوير والاصلاح بطريقة شاملة لا يصلح أن يكون أسلوبا مقبولا لتحسين حالة تلك الأحياء العتيقة فى الدول النامية . وما دمنا نتناول موضـــوع المتخلفين اجتماعيا وسياسيا ، وهم ليسوا بالضرورة أكثر أعضاء المجتمع الآن نشاطا وأصواتا ، فان هناك اتجاها قويا لعدم عمل أى شىء على الاطلاق لهؤلاء الناس فى فترة ما قبل التطوير الصناعى الكامل ، وبالتبعية زيادة نسبة دخل الفرد . وانه من المريح دائما اعتبار أنه لا يمكن أو لا يجوز عمل شىء بالمرة فى هذه اللحظة لتقويم تحسينات على الهامش نحو البيئة المعيشية فى الأحياء العتيقة .

التعمير بلا تصنيع

وتواجه عدة بلاد نامية لسوء الحظ معدلا سريعا من التعمير لا سابقة له ، وذلك بلا درجة مقابلة من التطوير أو التصنيع . ولا تخلق فرص العمل هنا بسرعة كافية فى المدن ، كما أن الانفجار السكانى قد حدث بفضل تطبيق العلوم الطبيـــة وهبوط نسبة الوفيات . كما زادت كذلك الهجرة من المناطق الريفية الى المدن ، ومعظم المهاجرين بلا أعمال وبدون وسائل اعاشة ، ومن ثم تتفاقم حالة الأحياء العتيقة . وأسـوأ من ذلك بالبلاد النـامية حالة اللامأوى فى عديد من مدنها الكبيرة . وهؤلاء النـــاس لا يستطيعون حتى الحصول على الحد الأدنى من المأوى ، وان محاولة تقديم مأوى لهؤلاء الناس لتتعدى نطاق الموارد الاقتصادية للحكومات وامكانياتها (١) .

وبعد عشرات السنين من الفكر المشوش عن الأزمات العمرانية فى البلاد النامية فانه من الممكن الآن تحديد المشاكل بصورة أكثر وضوحا . فيجب أن نحتفظ بالأحياء العتيقة ، كما يجب أن نحسن منـــاطق العشش ولا نزيلها . ويجب أن نقتصد فى الموارد ، وأن نعطى الأولوية لانشاء الحـد الأدنى من المساكن ، مع تشجيع التمويل السليم (٢) .

وعلى أية حال فلن يكون واقعيـــا افتراض أنه فى الامـكان التغلب على أزمة الاسكان ، حتى اذا كانت الموارد المالية والمساعدات الخارجية متاحة ويمكن الحصـول عليها . ويجب أن يكون معلوما أنه لا حل لأزمة الاسكان فى البلاد النامية بدون حل مشكلة البطالة أولا . فما هو الواجب عمله اذن ؟

قد يكون من الممكن تقديم حد أدنى من الخـدمات والمرافق مع شبكات الطرق

---

(١) الفريد ب. فان هايك «عمليات الاسكان للجماعات ذات الدخول الدنيا» .

(٢) تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة عن الاسكان ، البناء والتخطيط فى المرحلة الثانية للتنمية لهيئة الأمم المتحدة (وثيقة الأمم المتحدة E/C رقم ٦/٩٠) .

اللازمة وادخال المشروعات الذاتية المساعدة • وقد تكون أية محاولة لتصميم وبناء المأوى الأكثر بدائية أبعد من نطاق الامكانيات والموارد المتاحة • وقد يصمم المشروع لتيسير الحد الأدنى من الخدمات الصحية ومنع نشوب الحرائق ، كما قد توضع المخططات التى تتيح لهذه المناطق تكاملا من المجتمع ، وترفع من مستوى تطورها بالتدريج على فترة زمنية •

ولقد يكون حتى هذا المدخل أبعد من قدرات بعض الحكومات وامكانياتها • ولما كان هناك ميل من الناس للتدفق الى المدن الكبرى القائمة فيجب أن تفرض الرقابة لتنظيم معدل الهجرة، كما يجب بذل الجهود لتشجيع الهجرة للمدن الصغيرة؛ حيث أن انشاء المرافق للمدن الكبرى بلا شك باهظ التكاليف • فاذا كان هذا كله ما زال غير كاف فانه سيصبح من الضرورى التحكم تماما فى الهجرة الى المناطق الحضرية برمتها •

المشاركة العـــامة

تحضر المخططات وتعتمد كذلك وتنفذ بوســـاطة التكنولوجيين المتخصـــصين والسياسيين والاداريين • ومع تطور المجتمع فان تأثير التخطيط يتناول ويشمل عدة مجالات متعددة من الحياة العادية •

قد يكون هذا ممكنا اذا أصبحت عملية التخطيط أكثر شمولا ؟ يجب أن تكون المعلومات متاحة بلا قيود ، كما يجب أن تناقش المخططات والاتجاهات ، وأن تشجع المؤسسات المحلية على التجاوب مع التنمية فى برامج التنمية الصغيرة «الميكروبرامج» • ويمكن للمختصـــين المحترفين وللمجموعات المتعددة النشـــاط خارج السلطة الادارية تقديم التحليل والنقد اللازم ، لنكون مستندين الى قاعدة أكثر اتساعا • ولكن أيكون ذلك كافيا ؟ ربما لا ••• ولكن على أية حال فان الحكومات يجب أن تكون على بينة من ضرورة النقاش التخطيطى المستمر وفائدته ، وأن تقدم سبل اتصال مناسبة مع الجماهير ، بل تقدم ماهو أكثر من مجرد النصح للاحتياجات الواقعية • والا فان عملية التخطيط سوف تمضى قدما فى انعزالية متزايدة على أيدى المسئولين ، منفصلة عن الأحاسيس والمشاعر الجماهيرية ، كبعدها عن التأييد الممكن من المهنيين المختصين من الخارج ومن المجموعات المتعددة النشاط •

مفهوم التخطيط

لا يمكن خلق العمارة من فراغ • ان عمارتنا هى نحن أنفسنا ، فان كرهناها فانما ذلك لأننا نكره أنفســنا (١) • ويجب أن تصمم المبانى على أرفع مستوى معاصر من الأساليب والأفكار ، ويجب أن يكون ذلك مصحوبا بتسهيلات اجتماعية وترفيهية

أخرى • فاذا كان على المهندس المعمارى أن يركز جهده كله فى انتاج مبان شخصية أو فردية فان تأثيره وتداخله فى انبيئة العمرانية سيكون محدودا وغير فعال وستصبح المحاولات الواعية ضررية لندريب المهنيين واتاحة الفرص لهم لكى يعملوا فى مجموعات متعددة النشاط •

والبيئة العمرانية المرضية لا يمكن خلقها بالتكرار اللانهائى للنماذج العادية للمبانى ، وان كان هذا الأسلوب قد يقدم حلا مقبولا فى حالة المواجهة مع احتياجات انتفاعية محددة .

وفى حالة التطور الشامل ستنشأ الحاجة الى أساليب جديدة لمواجهة متطلبات أشد تعقدا • وسوف ينسب مدى التعقد ودرجة التطور الى الموارد التكنولوجية والاقتصادية المتوفرة • كما سيحتاج ذلك الى المجموعات المتعددة النشاط والمتكاملة من المهنيين لمواجهة هذا التحدى • وسوف يحتاج لمثل هذا الفريق ليلقى نظرة فاحصة على الامكانيات المعمارية ، كما يجب أن يتحرروا من التحكم فى التطور وتقييده فى حدود نماذج المبانى النمطية • وليس عليهم الا أن يقدموا الهيكل اللازم بأركان واضحة عن نوعية الاستعمال وكثافة التطور ، كوجوب توضيح المتطلبات الناتجة عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وخاصة فى مشروعات اسكان الجماعات الكبيرة ، حيث تقام بلوكات انتفاعية متكررة ، فان هذا الأمر هام حتى لو استخدمت طرق انشائية حديثة ، والا نتجت بيئة مملة وغير انسانية وغير جذابة كمساكن علب السردين الموجودة بالضواحى •

ان المعرفة عالمية ، ومع ذلك فان النقص فى الفنيين المهرة ذوى المستوى العالى الكافى فى الدول النامية هو السبب الأوحد والخطير فى مجهودات مواجهة مشاكل التعمير • والدراسة العلمية والتحليلات وقوانين التخطيط والاطار الادارى لعملية التخطيط هى أمور فى غاية الأهمية • ومع ذلك فان مجموعات المحترفين المتعددة النشاط والمتحمسة وعلى مستوى عال من المعرفة مطلوبون لاستيعاب المشاكل واتخاذ الحركة المطلوبة •

ويجب على كل دولة البحث عن الحل الخاص بها ، وهناك احساس باليأس وفقدان الأمل بسبب الامكانيات المحدودة الممكن الحصول عليها بالدول النامية ، وكذلك لأن من

---

(١) روبير فورنو جوردان : « آفاق معمارية » ، القرن العشرين ، صيف ١٩٦٢ •

المسئولين من لا يقدمون على اتخاذ قرار له خطورته ، تفاديا منهم لمواجهة التحدى وتحمل المسئولية ٠

وفى حالات كثيرة قدمت حلول غير عملية ــ قد يكون بعضها أحيانا من عمل خبراء من دول أجنبيــــة ــ ولكنها قدمت كاقتراحات لا توجد امكانيات تنفيــــذها وتحقيقها ٠

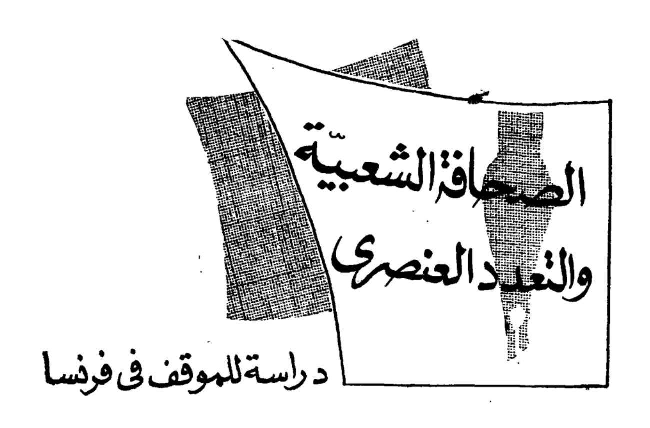
وبدون التعرض لنظريات التخطيط التحليلى والمؤتمرات والنـدوات الملحقة بالتدريب فى معظم المدارس المعمارية فى المناطق الحارة فانه لم يبذل حتى الآن أى مجهود شامل لتكوين نظرية تخطيطية فى مفهوم المواجهة لمعالجة أزمة التعمير فى البــلاد النامية ٠

الخلاصـــة

والخلاصــة أنه لمواجهة تحدى مشكلة التعمير الحضرى المتفاقمة يجب أن تبذل مجهودات عاجلة لاقامة فكرة أساسية للتخطيط وخاصة فى البلاد النامية ٠

أما اذا كانت فكرة التخطيط هذه قابلة للتطبيق عالميا فهذه مسألة تسـتحق البحث ٠ وعلى الحكومات أن تعير مشاكل التخطيط العمرانى اهتماما أكبر ، وأن تخطو خطوات واضحة فى سبيل التطبيق ٠ والمدخل المتعدد الجوانب سيكون هاما جدا فى محاولة الوصول الى حلول مناسبة لبيئة عمرانية مخططة ٠

ان الجهود العالمية والتعاون مطلوبان لتحريك برامج الأبحاث ، ولتقديم المعلومات الممكنة ، وزيادة فاعلية الخبرة والمعرفة ٠ وقد يكون من الممكن بل يجب تشــــجيع المشاركة العامة فى التخطيط ٠ وسيمكن تحدى الأزمات الحضرية فى العقود القادمة اذا ما وجدت الجهود الكبرى والعزيمة المخلصة الكافية ٠



هذا المقال هو المعاونة فى القاء الضوء على العلاقة بين لغة الصحافة والمجتمع الذى يتحدث تلك اللغة ، وهو مدخل غير عادى الى حد ما لدراسة العلاقات العنصرية ، ذلك أن الحاح المشكلات المدروسة يحول الانتباه بصفة عامة بعيدا عما يسمى باعتبارات الشكل ، ومع ذلك فاننى أرى أنه من الممكن القيام بمساهمة جديدة للبحث فى الموضوع عن طريق النظر فى المعانى ، لأن العلاقة بين اللغة والمجتمع ليست مجرد علاقة ارتباط ميكانيكى ، فعندما نتعمق تحت السطح نتكشف معنى العلاقات بين الجماعات • ففى مجتمعات عصرنا الصناعى تتخذ هذه الصلات زاوية معينة ، كما أنها تكتسب مضمونا عنصريا ، يكون فيه العنصر عاملا رئيسيا ضمن مجموعة مركبة من المعانى ، ولا تكون الحقيقة الاجتماعية الخام هى العنصر كخاصية طبيعية وانما كعلاقات عنصرية ، فليس العنصر سوى عامل دلالى ضمن موقف اجتماعى ، ولهذا السبب يمكن أن نأمل فى أن يسفر التحليل اللغوى ، بطريقة ايضاح خصائص العلاقات الاجتماعية من

بقلم : كوليت جيـــومان

الباحث بالمركز القومى للبحث العلمى بباريس • له مؤلفات عديدة فى العنصرية وعلم الاجتماع •

ترجمة : الدكتور إبراهيم إمام

عميد كلية الاعلام بجامعة القاهرة • خريج جامعات القاهرة ، واكستر ، وبرمنجهام ، واكسفورد • زميل معهد الصحافة الدولى باستراسبرج • عضو جماعة العلاقات العامة بلندن • تولى منصب رئيس مجلس ادارة وكالة أنباء الشرق الأوسط (١٩٦٣ ـ ١٩٦٦) • عمل رئيسا لقسم الصحافة بجـــامعة القاهرة ، ثم عميدا لمعهد الاعلام الذى تحول هذا العام الى كلية • له مؤلفات أهمها : تطور الصحافة الانجليزية ، فن الاخراج الصحفى ، فن العلاقات العامة والاعلام ، العلاقات العامة والمجتمع ، الاعلام والاتصال بالجماهير ، دراسات فى الفن الصحفى ، وكالات الأنباء •

حيث اتصالها بالمعانى ، عن معلومات جديدة ، مما يساعد على تبديد بعض نواحى الخلط الشائعة بين الظواهر الطبيعية والظواهر الدلالية •

ومن الواضح أن فكرة العنصر موجودة فى عالم اليوم ، كما أن مضمونها مستقر فى كل المجتمعات المتأثرة بالتوسع الصناعى الغربى على الأقل ، ولكنها تستخدم بطرق متنوعة ، فهى قد تغطى كل الجمـــاعات العنصرية الكثيرة فى مجتمع ما ، وهو أكثر الاستخدامات شيوعا ، ولكنها قد تستخدم بالنسبة لحالات محددة ، كما سيتضح من دراستنا للمعنى ، وسنرى أن ذلك يتضمن اختلافات فى النتائج العملية وفى العلاقات بين الجماعات .

أما الأسباب التى جعلتنا نفضل الصحف اليومية الكبرى على أى نوع آخر من المطبوعات للقيـــام بهذه الدراسة فيمكن تلخيصها فى أنهـــا ترتبط بطبيعة الصحافة الفرنسية • وسوف نبدأ أولا بمعرفة خصائص المجتمع الفرنسى المعاصر من الزاوية العنصرية ، دون أن يغيب عن بالنا أن الحالات العنصرية الاجتماعية تختلف فيما بينها كثيرا ، كمـــا أن العلاقات تتأثر بعدة عوامل كالتفوق العددى والتركيب الاقتصـــادى

الاجتماعي والسوابق التاريخية المختلفة في كل مجتمع من المجتمعات . ومن خلال ذلك كله نجد أن الصفات والملامح العنصرية تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا .

ما نوع المجتمع ذى العناصر المتعددة

ان التعـدد العنصرى هو من المفـاهيم التى تتضمن أكثر من معنى . فالمجتمع بتركيبه السـكانى والاجتماعى والاقتصادى يعطى لتعدده العنصرى شـكلا محددا بلا شك ، غير أن الأساس السياسى يعطى ذلك أيضا ، ولذلك فانه من الضرورى أن نبدأ بتوضيح أى نوع من المجتمعات نتحدث عنه هنا .

فالمجتمع الفرنسى غير عادى تماما بالنسـبة لتنوعه العنصرى ، فهو يتكون من جمـاعة الأغلبية التى تزيد زيادة كبيرة عن أى جمـاعة أخرى ، بالاضافة الى عدد من الجماعات الأخرى الصغيرة غير المحددة نسبيا ولا تشكل فى مجموعها جبهة متحدة فى مواجهة جماعة الأغلبية السائدة . وقد استمر الحال على هذا المنوال لمدة طويلة من الزمن ، وذلك فيما يبدو منذ مولد المجتمع الصناعى (١) . ويتجه العرف الى اعتبـار المجتمع كله قطعة واحدة بقليل من التنوع أو بلا تنوع بالمرة ، فهو مجتمع يتكون من أفراد أكثر منه مجتمعا يتـكون من جمـاعات عنصرية اجتماعية . وعبـارة « الشعب الفرنسى » تعنى جميع المواطنين ذوى الجنسية الفرنسية ، دون تمييز من حيث اللون أو الدين ، الخ . ومن الناحية النظرية يتمتع كل فرد بالحقوق السياسية والقانونية ، وهذه هى النظرة الغـالبة مع شىء من التنوع فى درجات النجاح وبعض النكسـات المؤقتة (٢) ، وهى الصورة التى كونها المجتمع الفرنسى عن نفسه ، بالرغم من تناقضها مع الحقائق . ولا تخلو هذه الصورة من الأهمية ، رغم أنها لا تجد التعبير عنهـا فى الواقع ، فهى على الأقل تفسر المبدأ المرشد للمجتمع الفرنسى ، وكذلك الفـكرة عنه التى يمكن أن يكتسبها المواطنون من الشباب أثناء سنوات تكوينهم .

وفى الواقع توجد مساواة قليلة بين حالة الجماعات الوطنية والجماعات الأجنبية التى يتكون منها المجتمع ، سواء بالنسبة للظروف المعيشية أو القوة العددية .

---

(١) كان المجتمع قبل ذلك متجانسا كوحدة واحدة ، لا عن طريق الاستيعاب وانما عن طريق الاستبعاد . فقـد كان الولاء المدنى والولاء الدينى للفرد متداخلين متكاملين (أما العنصر ـ بالمعنى المفهوم اليوم ـ فلم يكن له وجود) . وكان يرى فى الجماعات التى تمارس ديانات غير كاثوليكية كاليهود والبروتستانت أنها خارج المجتمع قانونا . أما الغجر الذين كانوا يدينون بالكاثوليكية فلم ير فيهم بوضوح جمـاعة متميزة ، ويتضح لنا ذلك من الصعوبة التى تواجهنا اليوم عندما نريد أن نتعرف عليهم فى الوثـائق القديمـة ، حيث يشار اليهم بأسماء كثـيرة مختلفة .

(٢) بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٤ ، مثلا ، أصدر نظام الحكم الذى عرف باسم «الدولة الفرنسية» قوانين عنصرية .

ففى فرنسا يوجد الى جانب المواطنين الفرنسيين جماعات أجنبية تمثل نحو ٦٪ من جميع السكان (١) ، وتختلف التقديرات اختلافا كبيرا باختلاف المصـــادر ، وعند القيام بالتعداد الرسمى لا يدخل جميع الأجانب ضمن هذا التعداد ، كما أن التقديرات الأخرى تختلف باختلاف درجة الكراهية التى يشعر بها المؤلفون نحو الأجانب . ومع ذلك فعند أخذ متوسط هذه التقديرات المختلفة يمكن افتراض وجود نحو ثلاثة ملايين شخص من غير ذوى الجنسية الفرنسية يعيشون فى فرنسا سنة ١٩٧١ .

وفى حقيقة الأمر يتكون السكان الأجانب من جماعات مختلفة أفريقية وأوربية أساسا ، وهى غير متجانسة من حيث الثقافة والدين والأصـــل الجغرافى ، كما أنها ـ كقاعدة عامة ـ ليس لديها نية البقاء فى البلاد أو الاستقرار فيها . والأغلبية العظمى تأتى الى فرنسا للعمل بصفة مؤقتة ، وتعود الى المجتمعات التى جاءت منها بعد بضعة شهور أو بضع سنوات . وبعض المهاجرين الأوربيين يستقرون فى فرنسا ، وبعد ثلاثة أجيال ينظر اليهم على أنهم قد اندمجوا ولم يصبحوا جماعة متميزة داخل المجتمع(٢) . ونلاحظ فى هذا الصدد أن أعضاء الجماعات الأجنبية يندمجون بلا شك سريعـــا فى المجتمع الفرنسى كأفراد ، بدلا من بقائهم كجماعات وفقا لأصولهم ، كما يحدث فى بلاد كثيرة كالولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، ومع ذلك فان هذا لا يصدق الا فى حالة الأشخاص المرتبطين ثقافيا ، وقد أوضحت البحوث التى أجريت على الأوربيين من البلجيك والاسبان والايطاليين والبولنديين ذلك الاتجاه بصورة جيدة ، وقد يصدق ذلك أيضا بالنسبة للأشخاص من غير الأصول الأوربية ، ممن استقروا فى فرنسا خلال الفترة نفسها ، أى أثناء العقدين الأولين من هذا القرن .

وقد أسفرت المواجهة بين جماعة الأغلبية فى المجتمع والجماعات الأجنبية عن أمرين : اما أن تعود هذه الجماعات الأخيرة الى الأماكن التى جاءت منها ، واما أن تندمج فى المجتمع ، وذلك بنسبة قليلة من الحالات . وينبغى ملاحظة أن هذه الجماعات هى أشد الجماعات تأثرا فى الوقت الحاضر بالتمييز والعدوان . مثال ذلك أنه بعد قطع العلاقات البترولية بين فرنسا والجزائر وقعت فى سنة ١٩٧١ عدة حوادث من الاعتداء المادى ، بما فى ذلك القتل ، ضد الأشخاص ذوى الجنسية الجزائرية ، كما أن صحافة

---

(١) هذه النسبة ثابتة بدرجة ملحوظة ، وكانت هى النسبة قبل الحرب العالمية الثانية ، أى قبل خمس وثلاثين سنة مضت .

(٢) راجع مثلا ماكتبه الان جيرار وجان ستوتزل بعنوان « فرنســيون ومهاجرون ، الاتجاه الفرنسى . تكيف الجزائريين والايطاليين والبولنديين » ، طبعة باريس ، المطابع الجامعية بفرنسا سنة ١٩٥٣/١٩٥٤ (جزءان) . وكذلك كتاب كريستيان بينيد بعنوان: « طراز من الهجرة السياسية فى وسط الاكويتين ، اللاجئون الأسبان فى القرن التاسع عشر » بمجلة الوقائع الجغرافية ، المجلد ٣٠ ، سنة ١٩٥٩ . وكتاب شارلوت رولان « من الجيتو الى الغرب » ، طبعة باريس (دى ينيوى) ١٩٦٢ .

الجناح اليمينى أخذت تصعد حملتها العنصرية المعادية للعرب ، وكانت بعض أنواع هذه المشاعر المعادية قد بدت زمن حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ (١) . وقد كانت اهمية مبدأ الجنسية ملحوظة فى رد الفعل عند الحكومة ازاء احتجاجات الجزائر ، فالحماية الممنوحة يجب أن تكون تلك التى يتمتع بهـا « المواطنون الفرنسيون » . والحساسية للجنسية تشتد كثيرا فى بلد له تقاليده الثورية والاندماجية ، ويصبح الاعتراض الغالب ضد أى شخص من الوجهة العنصرية أنه غير فرنسى ، وهذا مايعبر به المواطنون الفرنسيون من الزنوج واليهود ، وهو رد فعل مألوف ازاء أى ادراك للاختلاف .

واذا كان الطابع الأجنبى يختفى فى غضون جيلين أو ثلاثة فان هذه العملية تتم عن طريق الاندماج الدقيق ، ذلك أن صفة الاختـلاف تظل باقية حتى يتم التكامل نهائيا ، ومن الأفضل أن يأتى التزاوج بمثابة اقرار بذلك التكامل ، وأى شىء يبقى من رواسب الماضى يصبح متناقضا مع الجنسية الفرنسية .

وهكذا تكون الجنسية عاملا جوهريا محسوسا فى العلاقات العنصرية ، ومع ذلك توجد جماعات من الأقليات الوطنية أيضا ، وهى أصغر من بعض الجماعات الأجنبية ، كما أنه من الصعب تقدير حجمها ، وذلك لأن المجتمع المدنى القائم دستوريا على عدم التمييز لايقوم باحصاء على أساس لون الجلد أو العقيدة الدينية ، وباختصار على أساس الاختلافات العنصرية والاجتماعية . غير أن عددا من التقديرات التى كثيرا ماتقوم بها الجماعات نفسها تعطى فكرة تقريبية عن الجماعات الرئيسية . وبفرض أن هناك ثلاثا من تلك الجماعات (مع استبعاد البروتستانت الذين لايشكلون جماعة عنصرية اجتماعية وانما يشكلون جماعة خاصة من الناحية الدينية فقط) هى : الأشخاص القادمون من الأقاليم الفرنسية عبر البحار ، واليهود ، والغجر (٢) . ويحتمل أن يكون عددهم نحو ٥٠٠٫٠٠٠ من الزنوج ذوى الجنسية الفرنسية (بما فى ذلك ٢٠٠٫٠٠٠ من مواطنى جزر المارتنيك ، و١٥٠٫٠٠٠ من مواطنى جوادلوب ، و٨٥٫٠٠٠ من مواطنى روينيون ، و٢٥٫٠٠٠ من غيـانا) ، وموقف هؤلاء يختلف اختلافا كبيرا وفقا للمكان الذى يقطنونه فى فرنسـا وكذلك الأقاليم الأصلية التى أتوا منهـا . ولا تذكر الحولية الاحصائية لفرنسا أرقاما عن الهجرات الداخلية ، ولـكن يمـكن أن نفترض وجود عشرات الآلاف من هؤلاء الناس الذين يعيشون فى فرنسـا (أما الرقم الرسمى وهـو

---

(١) ومع أن الجماعة الجزائرية ليست أكبر الجماعات فقد كانت بلاشك أكثر الجماعات تعرضا للعدوان والعداء العنصرى ، ويتضح ذلك من الدراسات الميدانية والحوادث اليومية .

(٢) وهى جماعات تعتبر عنصرية من ناحيـة الثقافة ككل ، ولكن ذلك لا ينطبق على البروتستانت . وهناك أقليات أخرى ولكنها صغيرة للغاية ، كتلك التى تتكون من أشخاص قادمين من المستعمرات السابقة واكتسبوا الجنسـية الفرنسية واسـتقروا فى فرنسا .

٦٠٠٫٠٠٠ فهو أقل بكثير من الرقم الحقيقى (١) . ويبلغ عدد اليهود ٥٠٠٫٠٠٠ ، أما تقديرات عدد الغجر فتتذبذب بين ٢٠٠٫٠٠٠ وضعف هذا الرقم . وباختصار لا يتجاوز عدد أى جماعة من هذه الجماعات أكثر من نصف مليون شخص ، مقارنا بنحو خمسين مليون شخص يكونون جماعة الأغلبية . ويجدر بنا أن نتأمل النسبة لأنها تعطى للتعدد العنصرى صفة خاصة .

وتتكون جماعة الأغلبية من أكثر من ٩٥٪ من الوطنيين ذوى اللون الواحد ، كما انهم يدينون أساسا بدين واحد (ففى فرنسا يعمد ٨٣٪ من السكان تعميدا كاثوليكيا) وكذلك يشتركون فى الثقافة واللغة (٢) ٠ أما جماعات الأقلية وهى جماعات صغيرة جدا بالمقارنة مع الأغلبية فهى لا تحرز تماسكها الا كنتيجة للتمييز الذى تشعر به الأغلبية نحوها . والجماعة التى يمكن أن تبلغ أقصى درجات الاتحاد نتيجة لتمسكها الشديد بثقافتها – وهى الجماعة اليهودية – لها على الأقل اطاران مرجعيان مختلفان، أو ثقافتان ، اذا ما اعتبرنا أن طقوس الاشكناز والسفاراديم وتقاليدهما مختلفة ٠ وقد كانت نتائج هذا الموقف أشد وضوحا فى التاريخ المعاصر بسبب وصول ذوى الأقدام السود (٣) ، وبعضهم من اليهود السفاراديم ، مما أكد حدة الاختلاف ٠ أما القادمون من جزر الهند الغربية والمارتنيك وجوادلوب وغيانا فانهم لا يشتركون فى شىء مع القادمين من روينيون ، ومع ذلك فان جماعة الأغلبية ترى فيهم جميعا أنهم زنوج ٠ وهناك الجماعات الأفريقية القادمة من دول أخرى ، وهم الزنوج أيضا ، مما يضيف نوعا من الغموض حول المسميات العنصرية ٠ وقد تحمل لغة أهالى جزر الهند الغربية وثقافتهم وتطورهم السياسى على توقع أن يقوى التماسك بين جماعات الهند الغربية ، وربما الجماعات الغيانية والهندية الغربية ، لا بين جميع السكان الذين يعتبرون زنوجا . وكذلك نجد أن اصلاح النور أو الغجر يشتمل فى الحقيقة على ثلاث جماعات (الروم ، والكال ، والمانوش) (٤) الذين يقطنون ، بالاضافة الى ذلك ، فى مناطق مختلفة ٠

---

(١) جميع الأرقام المذكورة فى تواريخ بين سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧١ ، وكذلك الأرقام المأخوذة من مصادر مختلفة (، كالمعهد القومى للاحصاء ، وتقديرات الجاليات والحركات المناهضة للعنصرية وغيرها) ، هى أرقام تقريبية ٠ ولم تذكر هنا الا لأنها تشير الى النسب العددية بين الجماعات ، ولا يمكن القول بأنها دقيقة حسابيا ٠

(٢) بعث اللغات الاقليمية ظاهرة جديدة مؤخرا ، ففى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان معظم هذه اللغات قد اندثر ، وفى الوقت الحاضر لا تؤثر حركة البعث الا فى عدد قليل من الناس ٠

(٣) يستخدم هذا الاصطلاح عادة للاشارة الى الرعايا الفرنسيين العائدين من شمال أفريقيا ٠

(٤) اصطلاح الغجر يستخدم أيضا بالنسبة للتسيجان ، وهؤلاء مثل الروم والكال ينتسبون الى منطقة جغرافية وأصول ثقافية ٠ فالتسيجان والروم ينتسبون الى أواسط أوربا ، أما الكال فينتسبون الى حوض البحر الأبيض المتوسط ٠ وينطبق هذا أيضا على الاصطلاحين العبريين الاشكناز نسبة الى أوربا الشرقية والبلاد الجرمانية والسفاراديم نسبة لحوض البحر الأبيض المتوسط ٠

ولا شك أنه لا يوجد انفصال كامل بين جماعة الأغلبية فى فرنسا وجماعات الأقلية ، ذلك أن التعليم الالزامى لجميع المواطنين يؤدى دورا هاما ، بالرغم من أنه لا يصل الى جميع الغجر ، كما أن له صفات خاصة فى الأقاليم عبر البحار ، وتبقى الحقيقة قائمة وهى أن جماعات الأقلية الثلاث لها الى حد ما أوجه شبه فى المجالين الثقافى واللغوى ، مقارنة بالتجانس الثقافى فى جماعة الأغلبية (١) • ومع ذلك فهناك اختلافات أخرى واقعية بين جماعات الأغلبية والأقلية ، وهى اختلافات لها من الوزن أكثر مما للاختلافات الاجتماعية الثقافية ، كما سنرى فيما بعد •

وهناك نقطة هامة حول الانتماء الى جماعة معينة ، وهى مسألة الوضع القانونى • فأغلبية أعضاء جماعات الأقلية (لا جميعها ، وهذا أمر هام أيضا) يخضعون للوائح خاصة ، ذلك أن حقوقها وأوضاعها ليست هى الحقوق والأوضاع العادية التى يحق للاغلبية أن تتمتع بها بحكم وضعها القانونى • فمن بين الغجر قوم رحل (٣٥٪) يخضعون لنظام تسجيل خاص ولوائح تحكم الاقامة ووقوف المركبات وغيرها • وفى الأقاليم عبر البحار يوجد نظام خاص للمرتبات والتأمين ، كما أن هناك لوائح تشبه اللوائح الجمركية تحكم التبادلات الاقتصادية مع فرنسا ، وهكذا • ومن الناحية النظرية لا يشكل كون الشخص يهوديا أى عوائق قانونية ، ولكن الجمارك المقيدة التى يعمل بها ضد جماعات الأقلية ، مثل فقرة العدد ، لا ينجو منها اليهود ، وخاصة أنه لا توجد عقبات قانونية ، فالقيود القانونية ، فوق ذلك ، ليست سوى واحدة من أشكال كثيرة من السلوك العنصرى الذى يؤكد التمييز الواقعى •

يضاف الى ذلك أن التركيب السكانى لكل من جماعات الأقلية الأجنبية والأقلية الوطنية ليس مماثلا فى العادة لجماعة الأغلبية ، فهذا الأخير يشتمل على متنوع الأجيال من الأطفال والراشدين والشيوخ ومن الجنسين فيما يمكن اعتباره نسبا عادية (٢) • ويختلف الأمر عن هذا بالنسبة للجماعات الأخرى • فالأجانب ، من أى أصول كانت، لهم خاصية سكانية ، ربما ترجع الى الفترة المحدودة التى يقضونها فى البلاد ، والأغلبية العظمى منهم من الرجال • وكلما كانت بلادهم الأصلية بعيدة أصبحت الخصائص المميزة لهم أكثر وضوحا ، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك الملايين والموريتاليين والسنغاليين والأتراك ، فهذه الجماعات يمكن اعتبارها متجانسة من حيث قلة عدد الشيوخ والنساء والأطفال ، وهى جماعات تتكون من رجال غير متزوجين • ويصدق

---

(١) اللغات الخاصة بجماعات الأقلية مثل الكريول والرومانس واليديش وغيرها لا تستخدم فى الحياة اليومية الا فى بعض المناطق الجغرافية المحدودة، ولكنها لا تزال لغات حية • ومع ذلك فهناك اختلاف كبير بين الأجيال • ففى حين أن الكثير من كبار السن يتحدثون لغة الاقلية أفضل من اللغة الفرنسية نجد أن جيل الشباب يفهمها ولكنه قلما يتحدث بها •

(١) المقصود بالعادية أو الطبيعية المعنى الاحصائى طبعا •

ذلك أيضا الى حد ما على الأهالى القادمين من الأقاليم الفرنسية عبر البحار ، فيما عدا النسبة بين الجنسين فهى قريبة من النسبة العادية ، كما أن فيها رجالا ونساء . وقد يكون الأمر متشابها بالنسبة للجماعات الأجنبية القادمة من بلاد قريبة كالأسبان مثلا. أما جماعات الغجر واليهود فلا تتصف بتلك الخصائص المميزة ، اذ أن بناءها السكانى يشبه كثيرا بناء جماعة الأغلبية ، بالرغم من أنه يحتمل أن يكون متوسط العمر بين الغجر أقل منه بين جماعة الأغلبية • ومن هذه الناحية يمكن اعتبار الجماعة القادمة من جزر الهند الغربية جماعة مختلطة • ففى اقليمى المارتنيك وجوادلوب نجد أن البناء السكانى قريب من البناء السكانى فى بلاد العالم الثالث ، كما أن الأهالى صغار السن جدا ، أما فى فرنسا نفسها فان البناء السكانى لهذه الجماعة يشبه البناء السكانى للمهاجرين الأجانب •

يضاف الى ذلك أن البناء الاقتصادى الاجتماعى يختلف بعمق من جماعة الى أخرى• فجماعة الأغلبية تختلف فى تركيبها الطبقى اجتماعيا واقتصاديا اختلافا كبيرا ، على الرغم من التشابه الكبير بينها لغويا وعنصريا وثقافيا • ولما كانت هذه الجماعة تمثل الشعب كله تقريبا فانه من الصعب أن يكون الأمر غير ذلك ، ولو أنه من الممكن أن نتصور هذه الجماعة غير ممثلة فى طبقات معينة ، الا أن هذا ليس صحيحا فى واقع الأمر ، لأن هذه الجماعة تدخل فى كافة الطبقات والقطاعات الاقتصادية والأعمال والمستويات •

واذا كان التنوع الاقتصادى والاجتماعى فى الجماعة اليهودية يقترب الى حد كبير من تنوع جماعة الأغلبية دون أن يكون مساويا له تماما (فنسبة الحرفيين وتجار التجزئة أكبر فى حين أن نسبة المزارعين أقل) فان ذلك لا يصدق على الأقليات الأخرى • وجماعة الغجر تشتمل على نسبة مرتفعة من الباعة المتجولين (٣٧ ٪) والحرفيين (٣٢ ٪) وعدد قليل جدا من عمال الصناعة وأعضاء المهن الحرة (٥ ٪ و٣ ٪ على التوالى) (١) ، أما أهالى الأقاليم الفرنسية عبر البحار الذين يعيشون فى فرنسا نفسها فهم يعملون أساسا فى قطاعات معينة كمرافق المواصلات وخدمات البريد والصحة ، وبمعنى آخر فى قطاعات من الدرجة الثالثة •

وتنحصر الجماعات الأجنبية من جميع الجنسيات فى نطاق صغير من الأعمال : منها أولا أعمال القطاع الثانوى وخاصة صناعة البناء (٤٠٪) وصناعة التعدين (٢٠٪)

---

(١) لا يسمح المقام هنا بالدخول فى موضوع الأصول التاريخية والاقتصادية لهذه الخصائص التى تميز جماعات اليهود والغجر ، ولكن الاشارة الى أن هذا البناء يرجع فى الاصل الى طائفة من القيود الاقتصادية والاجتماعية والمهنية التى ترجع الى الماضى والتى لم تترك لهم أى امكانية للعمل فى غير الحرف أو التجارة • ولذلك فان الطرز النمطية لهذه الجماعات قد تأثرت بهذه القيود والمحظورات تأثرا عميقا •

ـ ولا يوجد سوى ١٠٪ فقط فى الخدمات العامة والزراعة ـ ثم يأتى فى المكان الثانى بعض الأعمال فى المجالات التى تعكس فيها مستويات الأجور ضعف المؤهلات ، ذلك أن ٨٨٪ من الأجانب هم من العمال العاديين أو المهرة (١) ٠

ومن النتائج الرئيســية لذلك الاختلاف بين التكوين الاقتصـادى والاجتماعى للجماعات أن معظم أفراد جماعات الأقلية ينقصهم المأوى المناسب ، فظروف الاسكان يرثى لها ، وهى تسهم الى حد كبير فى وصم هذه الجماعات ، على الطريقة التى يلام فيها ضحايا موقف معين للظروف الشائنة التى كتب عليهم أن يتحملوها (٢) ٠ وقد ينجح البعض فى الحصول على ظروف أفضل فى المساكن العامة من نوع أو آخر (المساكن أو الفنـادق المريحة أو الحجرات المفروشة) ، ولكن الأغلبية الساحقة منهم يسكنون فى العشش والأكواخ حيث يعيش البرتغاليون والجزائريون فى بنـــايات مؤقتة أو ورش مهجورة أو غيرها من المبانى التى يقطنها الملاويون والموريتانيون والسنغاليون ، وأحيانا فى الأراضى العامة مع قلة المرافق أو انعدامها ، وأحيانا أخرى بين أكوام القمامة ، حيث يضرب الغجر خيامهم ٠ ومن وقت لآخر تبلغ أخبار الوفيات الناجمة عن هذه الظروف أسماع الأغلبية التى قد تكون عاطفة أو كارهة أو غير مبالية ، وهى ظاهرة إقتصادية اجتماعية غير جديدة ، وقد كان اسكان الفقراء فاجعا منذ بداية نشأة الحضر فى البلاد الصـناعية ، وعنـــدما نقرأ أنه « لعدة سنوات كان ٥٤١ عاملا أفريقيا يعيشـــون محشورين فى احدى عشرة حجرة ٠٠٠٠ وأن كل شىء عفن ، وأن أحدا لا يستطيع أن يتحرك الا بصعوبة بين الأسرة المكومة بعضها فوق بعض » (٣) فانما نقرأ عن المهاجرين من الأقاليم فى القرن التاسع عشر « انهم محشورون معا ، ينام كل ثلاثة أو أربعة منهم على سرير ، ويوجد فى الحجرة الواحدة أربعة أسرة أو خمسة ٠ أما الحجرات فصغيرة رديئة التهوية ٠ وقد قدموا من كروز أو فيين العليا ٠٠٠ وهم يمكثون سنوات قليلة ثم يعودون ٠٠٠٠ » (٤) ٠

ولا يسع المرء الا أن يدهش لهذه العلاقة الثابتة المطردة بين الهجرة وانخفاض مستوى الاسكان ٠

---

(١) فى تصنيف العمال وفقا لمراتبهم فى فرنسا تستخدم عبارة « العمال المهرة » للدلالة على ادنى مستوى من المؤهلات يلى العمال غير المهرة مباشرة ٠

(٢) وقد أكد ذلك جان بيير بيتر بالنسبة للفلاحين فى القرن الثامن عشر بقوله : «فى كل مكان نجد الفظاعة والبؤس والموت ٠ وذلك ـ على حد قول الأطباء ـ نتيجة قرون الظلام التى كان فيها الظلم يخيم على الانسان ويدمر صميم انسانيته ٠ ثم انهم يعبرون عبثا عن ضيقهم بما يعتبرونه بحق نتيجة للظلم ، ولكنهم يردونه ضد الضحايا ويتمســكون به كشكوى ضدهم » (« جسم الجريمة » فى المجلة الجديدة للتحليل النفسى ، المجـــلد الثالث ، ١٩٧١) ٠

(٣) جـــاك تينسى فى « الحق والحريـة » العـــدد ٢٨٤ ٠

(٤) فيليب اريس ، تاريخ الشعوب الفرنسية ، صفحة ١٤٣ ـ ١٤٤ ، مطبوعات دو سوى ، ١٩٧١

فجماعات الأقلية ، اذن ، يتميزون بخصائص اجتماعية أكثر من تميزهم بملامح عنصرية · ومن الواضح أنه باستثناء اليهود الذين لهم بناء اقتصادى واجتماعى يقترب كثيرا من بناء الأغلبية ، دون أن يكون مطابقا له تماما ، فان الأقليات سواء الوطنية أو الأجنبية معزولة بفعل العوامل السكانية والاجتماعية والاقتصادية ونوع العمل · وهكذا تختلط المسميات العنصرية بهذه التقسيمات ، فكلما كانت الجماعة مغلقة على نفسها كان من المرجح أن ينظر اليها كعنصر · ويجدر بنا أن نذكر أن أوجه الاختلاف الواقعية فى الحياة العملية أكثر دلالة من لون الجلد أو بعض الفروق العنصرية الافتراضية (١) ·

أنواع الصحف

وبالرغم من أن فرنسا من البلاد التى تتمتع بنسبة مرتفعة من التعليم نجد أن استهلاك الصحف فيها ليس مرتفعا ارتفاعا كبيرا · وفى هذا المجال تأتى فرنسا فى المرتبة الثانية بعد البلاد المتحدثة بالانجليزية · ومع ذلك فتوزيع الصحف اليومية الكبرى مرتفع ، وأكثر الصحف توزيعا « فرانس سوار » ، وهى منتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، وتوزيعها ١٫٢٥٠٫٠٠٠ نسخة ، وأما « لوموند » فهى أرفع الصحف ثقافة ، ويعتبر البعض أن قراءتها صعبة ، وهى تبيع ٤٥٠٫٠٠٠ نسخة · وهناك عدد كبير من الصحف الاقليمية التى يتحصر قراؤها فى مناطق جغرافية أصغر ·

وتتضمن الصحف أيضا دوريات أسبوعية لها نوعها السياسى المتميز وتوزيعها الصغير ، مثل « الاكسبريس » (٦٥٠٫٠٠٠ نسخة) ، « وفرانس ابزرفاتور » (٢٥٠٫٠٠٠ نسخة) ، و « مينوت » (٢٢٥٫٠٠٠ نسخة) ، و » كارفور » (٤٥٫٠٠٠ نسخة) · وهى صحف تعبر عن الآراء ولكنها تركز اهتمامها على الأنباء · وبعض الصحف الأسبوعية الأخرى لا ترتبط ارتباطا وثيقا بالأخبار ، ولكنها تكرس جهودها للتصوير الفوتوغرافى لأحداث الساعة ، أو بعض الزوايا الخاصة من الحياة اليومية · وبعض هذه الصحف ذات توزيع كبير ، ولكنها محدودة الاهتمام بالنسبة لغرضنا ، ففيها اشارات الى العلاقات العنصرية أحيانا ، ولكنها غالبا نمطية للغاية ·

ومن ناحية أخرى يوجد عدد كبير من الدوريات التى يصل توزيعها الى بضع مئات من الآلاف ، ولكن ليس لها أقل اتصال بالأخبار أو قضايا الساعة ·

---

(١) ويظهر العيب فى الحجة القائمة بأن الجنس واضح فى الادراك المشوش ولكنه مؤكد عند التحديد الاقتصادى والاجتماعى للجماعات العنصرية من أهالى جزر الهند الغربية وأفريقية · فبالرغم من أنهم جميعا زنوج من الناحية النظرية فان حرفهم التى يشتغلون بها تجعل الناس ينظرون اليهم أحيانا بطريقة مختلفة · فبالرغم من وجود التشويش فالنتيجة هى حدوث بعض الشك ·

وقبل أن ننتقل الى الصحافة الشعبية يجب أن نذكر شيئا عن هذه الصحف التى تبدو ظاهرة عامة فى البلاد اللاتينية وتقرأها الجماهير • فهى تحتوى على القصص الغرامية والرومانسية والبوليسية وغيرها من القصص الخيالية ، وهى تعلق أهمية كبيرة على العنصر الذى تنتمى اليه كل شخصية (١) •

فموضوعات هذه الصحف بعيدة عن المواقف الواقعية ، ولذلك فاننا يمكن أن نفترض أنها تعالج عالما خياليا يعيش فيه الآخرون على المستوى الدلالى فقط • فمن الواضح أنها قصص قريبة من القصص الأسطورية • وفى هذه الدوريات والمجلات الشعبية من هذا الطراز تقدم العلاقات العنصرية فى شكل غير محدد الزمان أو المكان (واذا حدد المكان فانه يكون فى أراض بعيدة غير معروفة للقراء) ، وبذلك تختزل فى نوع من الهيكل الرمزى • ومن ناحية أخرى نجد أن صحف الرأى تضع العلاقات العنصرية فى اطار مفصل زمانا ومكانا ، وهى تفاصيل مألوفة ومعروفة للقارىء . وتبدو هذه العلاقات كحقائق لا أحلام . ولا يعنى ذلك بحال من الأحوال ان هذا النوع الثانى من الصحف يصف حقائق واقعية (فالحقائق ليست أكثر واقعية منها فى النوع الأول من المجلات) ، ولكنها تقدم وتتقبل على هذا الأساس . ولكل رسالة من الرسالتين معناها الاجتماعى المختلف : فالأولى تعالج القصة والأخرى تعالج المعلومات ، أما الأثر الذى يحدثه كل منهما فيختلف كما وكيفا ، والمعلومات أشد انفجارا من القصة على المدى القصير (٢) .

الصحافة الشعبية والتعدد العنصرى

وبعد أن قدمنا عرضا سريعا للمجتمع والصحافة نحاول بيان شىء عن العلاقة بينهما .

ويحاول الباحثون فى هذا الميدان عادة أن يقفوا على التأثير الذى قد تحدثه وسائل الاعلام على العلاقات بين الجماعات ، أو بالأحرى ــ على نطاق أضيق ــ معرفة اتجاهات جماعة الأغلبية نحو الجماعات الأخرى • ومن خلال الدراسات التى أجريت على هذا

---

(١) راجع كتاب وليم ماكلين « التصوير الشعبى للحب » باريس (ميزوتيف ولاروس) ، ١٩٧٠ ، وكذلك مقال ايفيلين سيليرو بعنوان « الصورة القصصية » فى كتاب « العنصرية والمجتمع » ، باريس (ماسبرو) ١٩٦٩ ، حيث يبرز سيليرو التناقض بين الاتجاهات الظاهرة المادية للعنصرية فى هذه المطبوعات وبين مضمونها الحقيقى الذى يبدو عند التحليل أنه عنصرى بلا شك فنجد تأكيدا على التدرج الهرمى وعلى السيطرة فى الحكم وعلى الاعتقاد بأن لكل شخص مكانه المناسب له وهكذا •

(٢) فى أثناء حديث لى مع جوليت راب عن مقال بعنوان « قصص الجاسوسية » ، وهو مقال كتبته المؤلفة فى مؤلف عنوانه « العنصرية والمجتمع » ، نجد أنها تقدم نظرية شائعة تقول أن للقصص الخيالية وظيفة ثانوية أو اشتقاقية ، ومع أننى لا أوافق على هذا التفسير فاننى أعتقد أنه من الضرورى للغاية ابراز الطبيعة الخاصة للقصة الخيالية بعكس الشىء الذى يقدم كواقع أو حقيقة •

الموضوع ، وخاصة تلك التى أجريت فى البلاد المتحدثة بالانجليزية (١) ، نرى أن مفهوم التأثير الذى تحدثه وسائل الاعلام يصعب تحديده ، وأن ما يحدث فى نهاية الأمر هو أن وسائل الاعلام تقوم بدعم الاتجاهات القائمة ولا تغيرها تغييرا جوهريا .

غير أن هناك مدخلا آخر للبحث ، اذ نستطيع أن ندرس مضمون مثل هذه الوسائل ، وخاصة الصحافة ، لأسباب تتعلق باليسر الفنى ، وذلك بالنسبة لواحدة أو أكثر من جماعات معينة من الأقلية . واذا ما فعلنا ذلك فاننا نستطيع بيان الصفات التى تعزى للجماعة موضوع الدراسة ، كما يمكن قياس حجم الاعلام أو الأخبار التى تخصص لهذه الجماعة فى وقت معين ، وفى النهاية — وربما يكون ذلك أهم مزايا هذا النوع من التحليل — القاء الضوء على الصورة الخاصة بهذه الجماعة .

وأخيرا هناك اتجاه فى تحليل المضمون — وهو اتجاه أوربى على وجه التحديد وقد استحدث مؤخرا — وهو يسعى لتحليل شكل الاعلام (٢) . وتحاول هذه الطريقة أن تستخرج من الصور الأيديولوجية الكامنة وراء الانتاج الاعلامى العلاقات بين الجماعات ومجالها المرجعى ، وبعبارة أخرى التعرف عليها من خلال العبارات المستخدمة .

والى أى مدى ينعكس التعدد العنصرى فى المجتمعات فى وسائل الأعلام ؟ يندر أن نفكر فى النظر الى هذه الوسائل على أنها أعراض، غير أنها ميدان ممتاز للملاحظة ، وهى تتعرض باستمرار لضغط الأحداث ، وتعبر عن اتجاهات الجماعات عندما يواجه بعضها البعض ، ولا يتم ذلك عن طريق الأخبار التى تنشر والصور التى تستخدم ، وانما عن طريق المداخل أو طريقة معالجة المشكلات والطريقة التى تروى بها الأحداث. فالصحف اليومية الكبرى تصور المجتمع ، وتتحدث باسمه ، ولا تقتصر دوافعها على التطورات السياسية ، وانما تشتمل على مراحل هامة من التطور الثقافى والاقتصادى. ففى أعمدتها نجد تقارير عن البطالة ، وبعض الفقرات من الأخبار القصيرة ، وبيانات عن مطالب الناس ورفضها جنبا الى جنب مع التغيرات الطفيفة أو العميقة التى يحدثها تطور التاريخ بأحداثه الضخمة ومتناقضاته أيضا . فالصحافة مرآة —

---

(١) راجع بالنسبة لفرنسا الدراسات العامة التالية : كتاب أولفيه برجلان بعنوان « الاتصال بالجماهير » (باريس) ١٩٧٠ . وكتاب جان كازنيف بعنوان « طاقات التلفزيون » (باريس) الناشر جاليمار سنة ١٩٧٠ . ومقالة آلان جيرار بعنوان « علم الاجتماع الاعلامى فى فرنسا ، المرحلة الحاضرة من البحث » المنشورة فى « المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية » ، الجزء الرابع عشر ، العدد الثانى ، سنة ١٩٦٢ .

(٢) راجع التحليل والعرض الذى قامت به مارى كريستين دينروج عن الطرق المختلفة لتحليل المضمون بعنوان « تحليل المضمون » ، وهو من مطبوعات دار النشر الجامعية فى باريس .

ولا شك انهـا مرآة تحريفيـة ـ غير ان التحريف هو الذى يجعلهـا تحمـل أعراض العلاقات بين الجماعات (١) ٠

وأول نقطة فى الموضوع هى الاتجاهات الصريحة لمختلف الصحف التى تتباين كثيرا وفقا لعدد مرات الصدور ٠ فالصحف اليومية تختلف عن الصحف الأسبوعية من ناحيـة درجة اهتمامها بالمسـائل العنصرية ، وربما يرجع ذلك الى درجة التزامهـا السياسى الذى يزيد بالنسبة للصحف الأسبوعية عنه فى الصحف اليـومية ، كمـا سبق أن لاحظنا من قبل ٠

وعلى الرغم من تعدد الاتجاهات فقلما تتحمس الصحف اليومية للمسائل العنصرية الاجتماعية ، وذلك على المستوى الشعورى الصريح على الأقل ، بل انه يمكن القول بأنها لا تكترث لمثل هذه المسـائل ٠ وتقوم الصحف اليومية ذات التوزيع المرتفع بدعم الاتجاهات الرسـمية فى المجتمع ، وذلك من حيث المبدأ ، لا بصفة مطلقة ٠ وأكثر الصحف حيادا ، أى تلك الصحيفة التى تظل أشـد قربا الى المعايير الواعية من المثل الأعلى قوميا، قد تكون أعلى الصحف توزيعا ، وهى « فرانس سوار » ؛ غير أن هناك محاولات على نطاق أوسع للتحليل والاعلام تقوم بها صحيفة ذات مكانة رفيعة ، وهى «لوموند». والصحافة اليومية على العموم ليست صحافة عنصرية عن قصد، ولاتعتبر نفسها كذلك ، ولكنها لا تنظر الى نفسها على أنها فوق مستوى تلك الأشياء ، وانما هى تفتخر بأنها تتصف بالانفتاح والذوق السليم ، أما فيما عدا ذلك فهى حريصة أشد الحرص فى تحريرها الذى تعتنى به ، وأكثر ما يتضح ذلك فى حالة الصحف الجادة ٠

أما الصحف الأسبوعية فليست كذلك ، كما أن آراءها عن العلاقات بين الجماعات أكثر تحديدا . ولما كانت صحفا أكثر التزاما وعناية بالمجادلات فهى أشد صراحة فى اتجاهاتها العنصرية أو المعادية للعنصرية ٠ غير أن هـذه الاتجاهات ثمرة لاختلاف السياسات العامة ٠ وتتحدث الصحف العنصرية عن الموقف الراهن هنا أكثر مما تحدث عن الموقف فى البلاد الأخرى (وقد تذهب الى أبعد مدى عند الاشارة بتأييد المجتمعات التى تتخذ موقفا عنصريا رسميا) ، ويظل اهتمامها الرئيسى حول مهاجمة الأقليات أو

---

(١) وفى هذه النقطة يمكن أن نلاحظ مشكلة طبيعة الجانب الواحد فى الانتـاج الصحفى ٠ فلا يمكن انكار ان جماعة الأغلبية وحدها هى التى تصنع الصحف الكبرى، من حيث أن صوت جماعة الأغلبية وحده هو الذى يسمع ، ولكن ذلك لا يعنى ، كما قد يظن أن النظام الذى ينعكس من خلال الصحافة لا يهم جماعات الأقلية بأية حال ٠ اذ أنه لما كان الشكل الغالب للتعبير هو الشكل المناسب للموقف كما هو ، أو بعبـارة أخرى اذا حاول هؤلاء المغلوبون على أمرهم أن يقيموا نظاما خاصا بهم ، بقدر ما تسمح به الظروف ، فان أول خطوة لهم هى القيام بهجوم مضاد ضد النظام الغالب ، وهكـذا يظلون أسرى الأيديولوجية التى يقيمها المجتمع كما هو ٠

أولئك الذين يعيشون فىَ فرنسا فى الوقت الحاضر ، أما الصحف المعادية للعناصر الأخرى فهى تتناول الحوادث العنصرية فى فرنسا وظروف معيشة الأقليات ، وحين تفعل ذلك نجد أنها تنفق أكثر وقتها فى شجب العنصرية الأجنبية ، فهل يصدر ذلك عن غباء يجعلها لا تستطيع أن ترى أو تسمع هنا فى الداخل تلك العنصرية التى لا تزال تستنكرها من حيث المبدأ ؟

ومهما يكن من شىء فان هذا النوع من الصحف يفضل الحديث عن الآخرين نظرا لاهتماماتها الأيديولوجية. ولذلك فان الصحف اليومية الأكثر حيادا من الوجهة النظرية هى التى تهمنا أكثر مما تهمنا الصحف الملتزمة صراحة ، لأن الصحف الملتزمة تركز اهتمامها أحيانا على الآخرين بطريقة لا تمكنها من القاء الضوء الكثير على الأشكال اليومية بين الجماعات ، اذ أنه لكى نفهم هذه العلاقات لا يكفى أن نعرف ماذا يعتقده المجتمع بالنسبة للآخرين وانما يجب أن نعرف أيضا ما يعتقده بالنسبة لنفسه ، وقد يكون بصفة خاصة ما يعتقده المجتمع فى نفسه عندما لا يركز على الآخرين . واذا ما بدأنا بحقيقة واضحة وهى أن جماعات الأقلية ليست منعزلة فى وسط صحراء كما أنها لا تشكل جماعات عديمة الروابط بالمجتمع الذى تعيش فيه ـ بل انها على العكس من ذلك جزء لا يتجزأ من المجتمع ـ فاننا لا نستطيع دراسة ما تقوله جماعة الأغلبية عن الأقليات دون أن نحاول معرفة ما تقوله هذه الجماعة عن نفسها ٠

فأية معلومة أو اى خبر يمكن أن يعرض بطرق مختلفة ، وفقا لصلته بجماعة الأغلبية أو باحدى جماعات الأقلية (١) ٠ ويتخذ هذا الاختلاف فى معالجة الأخبار أشكالا مختلفة :

١ ـ فى حالة الأخبار المتصلة بأفراد من الأقليات يذكر الأصل القومى أو العنصرى بانتظام ٠ أما فى حالة الأفراد من جماعة الأغلبية فلا يذكر الأصل ٠ وهذه نقطة تلفت النظر ، ولعلها ذات مغزى عميق ، اذا ما تذكرنا أهمية الجنسية كمعيار للعلاقات بين أعضاء جماعة الأغلبية وجماعات الأقلية ٠

وفى القصص الاخبارية يشار الى جنسية الشخص اذا كان أجنبيا فيقال مثلا

---

(١) الملاحظات التالية مبنية على ثلاث دراسات ميدانية عن الصحافة ٠ أما الدراسة الرئيسية الاولى فهى تتناول أكبر صحيفة يومية فى الفترة من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٦٠ ، وأما الدراستان الأخريان فهما تحليل للصحافة اليومية كلها فى يوم واحد هو يوم ٣١ مايو سنة ١٩٦٦ وتحليل مجلة شهرية معادية عنصريا لمدة ثلاث سنوات من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٠ ٠ غير أنه استخدمت مصادر أخرى تشتمل على مواد من الماضى لأغراض المقارنة ٠ وأما تحليل المواد الصحفية فهو مبنى على مناهج لا نستطيع أن نشرحها بالتفصيل فى هذا المقام ٠ ومع ذلك فلكى نعطى للقارىء فكرة عن العملية يمكن أن نقول أن تحليل الشكل يتناول : (أ) ترتيب التسلسل والألفاظ ، (ب) تحليل الرقابة وفشلها ، (ج) جمع الجمل التى ليس بينها صلة منطقية ، (ج) التكرار واللغو ، (د) الحيز الذى يخصص لمختلف المعلومات ، (هـ) الطرز النمطية وغيرها ٠

« الايطالى سانبترينى ٠٠٠٠ » ، ولكن لا يذكر ذلك فى حالة الفرنسى ، ولا توجد مثلا عبارة « الفرنسى دوران ٠٠٠٠ » (١) ، واللون أيضا يذكر دائما فى حالة أفراد الأقليات ، ولكنه يحذف بالنسبة لأعضاء جماعة الأغلبية ، فيقال مثلا « المغنى الزنجى جون وليام ٠٠٠٠ » ، « الأعضاء الزنوج فى الحكومة » ، ولا يقال « الوزير الأبيض جيسكار ديستانج » أو « الممثل الأبيض الان ديلون » ، وعلينا أن نؤكد أن هذه التفاصيل لا صلة لها بمضمون المقال ، كما قد يتصور المرء ٠

وتحاول الرقابة حذف هذه العبارة الغليظة ، ولكن هناك حدا لقدرتها على التأثير ، وتبدو الاشارة الى اللون فى شكل آخر ، وكلمة « زنجى » تتغير الى ذكر للأصل الجغرافى « الهندى الغربى ادوار جليسان ٠٠٠ » ، أو كلمة « يهودى » ٠ يعبر عنها بتكرار التأكيد أن الشخص فرنسى ، وقد يثير ذلك انتباه القارىء المتشكك دائما ، ومثال ذلك « اميل جان المولود فى باريس من أسرة باريسية وتلقى تعليمه فى باريس ٠٠ » ٠

وتظهر هذه التفاصيل دائما فى بداية المقال ، وهى الحقائق الأولى التى تجابه القارىء ، وهى تقدم ملاحظات عن الاختلافات العنصرية ٠

٢ ــ أما المعلومات عن الآخرين فتقدم دائما فى عبارات قوية ، وتلخص فى أسطر بسيطة ودوافع ساذجة ، فى حين أنها اذا كانت تتصل بأفراد جماعة الأغلبية تقدم برقة وبراعة ٠ وسواء كانت الأخبار قصيرة أو سياسية طويلة تعالج الدوافع عادة بتحليل تفصيلى عندما يكون أفراد جماعة الأغلبية موضع المناقشة ، وتستخدم التنويهات التاريخية والتفسيرات النفسية وجميع الوسائل الأخرى لبيان العوامل التى تعطى لونا للتحرير ٠ وعلى النقيض من ذلك نجد أن الأخبار التى تتصل بجماعات الأقلية تهمل دائما السوابق التاريخية للموقف والجوانب النفسية أو الظروف المحددة للحادث موضوع الخبر ، هذا اذا لم تختزل الى حقائق فجة ، كالقول بأن شيئا ما قد وقع فى وقت ما فى يوم من الأيام ، وهى الصيغة العادية للأخبار ، ومثال ذلك :

« لقد كانت ظروفا غير عادية تماما وغريبة حقا تلك التى حدث فيها الانقلاب الذى كان المتآمرون يعدون له منذ شهر مارس ٠٠٠ وأمس فى الساعة الواحدة صباحا ٠٠٠ بعد اعلان بيان الحكومة الجديدة ، لكى يذاع بالراديو ٠٠٠ فى تلك اللحظة اندفع الشرطة من خلال الأبواب واعتقلوا المتآمرين بعد مفاجأتهم » (٢) ٠

٣ ــ وهذا الاختلاف فى معالجة الأخبار يرتبط منطقيا باتجاه شعورى يمكن التنبؤ

---

(١) وذلك باستثناء تلك الأحداث التى تقع فى بلاد أجنبية كالأخبار حول جماعات أخرى من الأقليات ٠

(٢) خبر مقتبس عن الكونغو ، والأمثلة الأخرى مأخوذة من الأخبار ٣٢ حول جماعات أخرى من الأقليات ٠

به تماما ، ففى حين أن جميع أنواع السلوك التى يقوم بها أفراد جماعة الأغلبية تعد مفهومة نجد أن سلوك الجماعات الأخرى يعتبر غير مفهوم • ومن الشواهد على ذلك الاستخدام المتكرر كثيرا جدا لصيغة الاستفهام ، كما أن الملاحظات المفككة عن الآخرين تؤكد الاحساس بالسخف • ومثال ذلك :

« ثم يوما من الأيام ، كما لو كان مصادفة •• ستبدأ الحادثة الشخصية مرة أخرى • ونستطيع فقط أن نتصور أن الأول لن يحمل الزمالة الى حد اتخاذ المبادرة (مرة أخرى) • ولكن من يدرى ؟

« من هم أولئك بالضبط الذين يعملون من أجلهم ؟

ان « بن شو » ... الذى تسميه الصحيفة تحريفيا ... كان الى الآن بطل « مناهضة التحريفية » •

وليحاول القارىء أن يفهم شيئا ، اذا استطاع !

٤ ـ وقد تذهب الصحف الى أبعد من ذلك فى هذا الاتجاه • فغرابة الآخرين وسخافتهم تؤكدان الغرابة والغموض والبعد المكانى والزمانى ، كما يلفت النظر الى هذه الصفات عن طريق الاشارات المتكررة • ولكن ذلك لايحدث عند وصف حادث يتصل بجماعة الأغلبية • مثال ذلك :

« اقطاعى قوى غامض ••• يظهر أمام النـاس متدثرا فى جلباب واسـع مطرز بالحرير ، يغطى رأسـه بعمامة سميكة • وهو يتجول فى سيارة أمريكية ضخمة فى حراسة فرسان يبدون من أهل العصور الوسطى » •

وفى الأمم المتحدة : « أما جائزة الغرابة هذا العام فيستحقها مندوب عمان ••• مرتديا « برنسا » لونه بنى داكن وعمامة ، انه يبدو شيئا غريبا جدا أمام خلفية من ناطحات السحاب » •

« وأما آخر شائعة عن ماوتسى تونج فهو أنه قد دس له السم على أفضل طريقة اشتهر بها بورجيا ••• » •

والعجيب أنه عندما يذكر عن شخص أنه أجنبى يستنتج أنه غريب لمجرد ذكر أنه من خارج البلاد • فاختـلاق الغرابة ثم استغلالها لاثارة الدهشـة من الخصائص الرئيسية التى تتصف بها الأخبار عن الآخرين • وعلى العكس من ذلك نجد أن أخبار أفراد جماعة الأغلبية تكون قابلة للتوضيح والتفسير • وتختلف الأساليب فى هذه الحالة ، فبعض النـاس يصورون تصـويرا عن طريق اثارة الانتبـاه للتفـاصيل العادية أو التافهة ، فى حين يصور آخرون بأنهم يسلكون مسلكا فطنا معقولا عن طريق ذكر معلومات ليس فيها شىء من الفطنة أو المعقولية •

٥ ـ وأخيرا ـ وهذه نقطة مترتبة على الملاحظات السابقة ـ يعامل الناس بطرق مختلفة على أساس انتمائهم الى جماعة الأغلبية أو الى احدى جماعات الأقلية • أما أعضاء جماعة الأغلبية فيعاملون كأشخاص ، ولا يعاملون ببساطة باعتبار أنهم أعضـاء فى

جماعة عنصرية اجتماعية ، بل ان جماعتهم لا تذكر مطلقا ، ولا يعلل سلوكهم على أساس عضويتهم لتلك الجماعة ، ومن الصعب جدا أن يتم ذلك ما لم يبد أن هناك وجودا لمثل تلك الجماعة . أما قضية الأفراد الذين ينتمون الى جماعة الأقلية فهى مختلفة عن هذا أشد الاختلاف » فكما رأينا من قبل لا يكتفى بذكر عضويتهم لجماعة ما بصفة دائمة ، وانما تبدو هذه الحقيقة كأنها أهم المعلومات عنهم وأبرز الخصائص التى تميزهم ، وحتى عند ذكر بعض التفاصيل الشخصية فى حالة المشاهير شهرة كبيرة يعامل الفرد معاملة من هو مجرد عضو فى جماعة .

وهذه العادة التى تنطوى على معاملة شخص ينتمى الى جماعة الأقلية معاملة عضو فى جماعة عنصرية اجتماعية ترتبط بظاهرة أخرى هى التعميم الادراكى ، أو الميل الى اختزال الجماعات المختلفة الى قاسم مشترك عام . ويحدث ذلك فى المحادثة أكثر مما يحدث فى الكتابة الصحفية ، لأنها تنطوى على الكثير من التقريب وعدم الدقة اللذين يندر أن يسمح المحررون الصحفيون بالتغاضى عنهما . ومع ذلك فهذا موجود فى الصحف ، كالحديث عن أهالى مالى أو مورشيوس أو السنغال وقد جمعوا معا تحت عبارة « الافريقيون » ، ويضم الجزائريون والمغاربة والتونسيون معا ويطلق عليهم « الأفويقيون الشماليون » . ويسمى أهالى جواذلوب والمارتنيك « بالهنود الغربيين » . وحقيقة أن هذه الاصطلاحات تشير الى أماكن حقيقة ، وفى بعض الأحوال تشير الى وحدات سياسية اجتماعية واقعية لا تغير شيئا من أثر التجميع من أجل تجنب التعقيد ، وهكذا تستخدم الاصطلاحات .

ويلاحظ هذا الاتجاه بصورة أوضح فى المحادثة اليومية التى تتخذ صورا أقل منطقية . ومثل هذه الظروف اليومية تبرز اهمال الاختلافات الفردية أو الاجتماعية بين الآخرين ، ويكمن ذلك وراء الرغبة فى اختزال أى مجموعة غير متجانسة من الناس الى جماعة نمطية ، وهكذا يستخدم اصطلاح « الجزائريين » عمليا للدلالة على رعاية بلاد المغرب الثلاثة ، ويستخدم اصطلاح « الزنوج » لجميع الأفريقيين كما يستخدم أحيانا ــ ولكن ليس دائما ــ للاشارة الى أهالى الأقاليم الفرنسية الأربعة فيما وراء البحار أو العكس . ونجد هذا الاتجاه الى حشد الشعوب الأخرى معا فى بعض الأحيان ــ ولكن بنسبة أقل ــ عند ما يدور الموضوع حول بلاد قريبة من فرنسا ، ومثال ذلك أنه بالرغم من أن تمييز الأسبان عن البرتغاليين صعب بالنسبة للفرنسيين فلا يوجد اصطلاح واحد يشمل هذين الشعبين معا .

وفى نهاية التحليل يبدو أن هناك فئتين من الناس : أما الفئة الأولى فيكون الفرد فيها عضوا فى جماعة الأغلبية ، وهو يعامل كشخص ، وينظر اليه فى موقف شخص ملون بصفاته النفسية وتاريخ حياته ولا يعتبر مجرد عضو فى جماعة عنصرية اجتماعية ، وأما الفئة الثانية فتتكون من « شظايا » جماعة ذات خصائص عنصرية اجتماعية ، والمرء فيها وحدة من « كل » اجتماعى يمثل تمثيلا غامضا . فهو أولا وقبل كل شىء زنجى أو يهودى أو جزائرى ، ويشار اليه على هذا النحو ، يضاف الى ذلك تأكيد الصفات الشاذة والغريبة ، مما يضيف وزنا الى طريقة التحدث عنه ، وتأتى

اللمسة الأخيرة فى تقديم سلوكه غير المنطقى ، ويبدو أنه شيء متوقع تماما ، وان كان غير مفهوم ٠

والى جانب هـذه الدلائل على التمييز فى المعاملة يتغير وعى المجتمع بالجماعات الأخرى مع مضى الزمن ، وتصبح الصفات التى تنسب للناس ــ وخاصة الأقليات ــ موضع تغيير ٠

فعلى طول فترات زمنية ، كالقرن مثلا ، نجد أن الصفات المنسوبة الى جماعة بعينها قد تنتقل من هذه الجماعة الى جماعة أخرى تؤدى فى المجتمع مثل دورها ٠ وهكذا نجد أن الفلاحين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر والعمال فى القرن التاسع عشر وأهالى شمال أفريقيا فى القرن العشرين يوصفون بعبارات تكاد تكون واحدة ، وفى كل حالة من هذه الأحوال الثلاث نجد أن الجماعة المعنية فى المجتمع هى الجماعة التى تقوم بالعمل الأساسى لأهم قطاع اقتصادى ، كالزراعة قبل القرن التاسع عشر والصناعة منذ ذلك القرن نفسه ٠ غير أن صفات جديدة متناقضة يمكن أن تضاف أحيانا الى الصفات الأولى علاوة عليها ٠ ومثال ذلك « الجرأة العسكرية » التى يوصف بها اليهود منذ اقامة دولة اسرائيل (١٩٤٨) بعد قرون من «الجبن» ، وكذلك نبوغهم الزراعى الذى ظهر بعد طول اتهام بأنهم متأصلون فى سكنى الحضر ، وهذه كلها تدل على أن الآراء يمكن أن تتغير الى حـد أن تصبح عكس ما كانت عليه من قبل ، فقد انعكست آية شجاعة الجزائريين التى اشتهروا بهـا فى القرن الماضى لينعتوا بصفة الجبن الدفين فى القرن العشرين ، وظلت هذه الصفة تنسب اليهم حتى حرب التحرير أو الاستقلال (١٩٥٤ ــ ١٩٦٢) ٠

ولكن حتى على المدى القصير من الزمن ــ خمس سنوات أو عشر أو عشرين سنة مثلا ــ حدث تطور حقيقى فى عرض الأخبار ، وقد غيرت حروب التحرير النظرة التى كان ينظر بها الى أهالى المستعمرات ، سواء نظرة هؤلاء الى أنفسهم أو نظرة جماعة الأغلبية اليهم (١) ٠ وقد أدت حرب الهند الصينية (لاحظ تكتيل بضع دول معا) والحرب الجزائرية دورا واضحا فى تغيير العادات المكتسبة ٠ وقد تغيرت بالتدريج تلك العبارات المعينة (الدالة على الاهانة أو التعالى أو السيطرة) التى كانت تستخدم لوصف أى فرد من « هؤلاء الجزائريين » مع تطور الحرب ٠ ففى الفترة من سنة ١٩٦٠ الى سنة ١٩٦٢ أخذت عبارات « الارهابيون والعصابات والقتلة » تختفى ليحل محلها لفظ « الجيش » ، ولم يعد الجنود الجزائريون « يضربون » بالرصاص وانما « يقتلون » ٠ وكذلك أخذت التفسيرات عن الدوافع والأهداف تقوم ضمن الأخبار مع تحليلات ــ عن الوضع العسكرى أولا ثم الوضع السياسى بعد ذلك ــ عندما اقترب الاستقلال ٠ وقد كان هذا الاتجاه أكثر وضوحا فى السنوات القليلة التالية ، غير أنه بعد مرور خمس

(١) أكد فرانز فانون ذلك ، كما لوحظ ذلك من قبل فى سنة ١٩٥٢ وفى الحرب الجزائرية (راجع مؤلفه السابق الذكر بعنوان « فرنسيون ومهاجرون » ،وقد علق الجزائرى على أهمية أن تكون للجماعة رايتها الخاصة بها فى الحياة اليومية ٠

سنوات ، أى فى سنة ١٩٦٧ ، وضعت حرب الأيام الستة نهاية لهذه العملية ، وبالرغم من أنه لم تحدث عودة الى الأحوال السابقة كان هناك شىء من الانتكاس الذى زادت حدته وقت كتابة هذا المقـــال بسبب مشكلة البترول (١) • وقد لا يكون الكفاح السياسى والعسكرى هو العامل الوحيد فى التغيير الذى حدث فى العقد السابع ، لأن موجة جديدة من العمال قد أخذت تدخل فرنســا نفسها ، وتشتغل بالأعمـــال الدنيا ، مما أكسبها تلك الحقوق المحفوظة فى الوصمة الكريهة التى كان العمـــال الجزائريون يوصفون بها من قبل •

وقد ظهر التطور بمرور الوقت على مستويين ، فعلى المستوى الأول الذى يمكن التنبؤ به نسبيا يرتبط حجم الأخبار بالموقف العـــام ، وبمعنى آخر يرتبط بظهور « المشـــكلات » ، فمن الواضح مثلا أن عدد المرات التى تذكر فيها الأقلية اليهودية والتعليق عليها كان يرتفع كثيرا نتيجة للتوتر بين دولة اسرائيل وفرنسا بعد حرب الأيام الســـتة فى يونية ١٩٦٧ (ومرة أخرى نلاحظ ظاهرة التجميع عند استيعاب اسرائيل فى الجماعة اليهودية !) •

أما على المستوى الثانى فنجد تغييرا فى العبارات وفى الأحكام ، ومن الواضح أن ذلك كان نتيجة للموقف الأيديولوجى ، غير أنه يمكن عند اجراء التحليل أن يعزى سببه الى التغير التاريخى ، فعندما يوشك حل صراع ما بالانتصار الكامل أو الجزئى لجماعة الأقلية فان أفرادها لا يوصفون بالمجانين أو المعربدين أو العصابات ، وانما يطلق عليهم المتحدثون الرسميون أو الرفقاء •

ويلاحظ أن هذا التطور يمكن أن يتجلى فى الاهتمام بموضوعات علمية معينة ، وباللغة المستخدمة فى التعبير عنها ، فالبحوث تأتى فى أعقاب التغييرات الأيديولوجية فى المجتمع الذى تجرى فيه هذه البحوث (٢) • فالدراسات التى أجريت عن جماعات الأقلية من الوطنيين أو المهاجرين تعكس التطورات التى طرأت على مكانتهم ، فالجماعات الجديدة ، أو الزيادة العددية فى السكان ، أو التوتر السياسى والاقتصادى . هـــذه العوامل لا تؤثر على حجم البحث فحسب ، وانما تؤثر كذلك على شكله والنظريات المتصلة به • وقد لاحظ روجر باستيد فى دراسته للبحوث (٣) حول الجماعات العنصرية أن هناك ذبذبات تؤكد ذلك • فالدراسات عن الأفريقيين الشماليين بلغت ذروتها فى السنوات من ١٩٥٠ الى ١٩٦٤ ، ومع ذلك فان عدد الذين عادوا من بلاد المغرب لم يرتفع أو ينقص عنه فى الفترة السابقة أو اللاحقة لهذا التاريخ ، ولكن تلك الفترة كانت عصر حركات الاستقلال وحروبه • ويظل حجم الدراسات عن الافريقيين صغيرا

---

(١) فى مطبوعات اليمين المتطرف عودة الى العنف الذى كان متفشيا قبل استقلال الجزائر • غير أننا معنيون بدراسة المطبوعات فى متوسطاتها •

(٢) قام نيكول كلود ماتيو بملاحظة ذلك وتحليله عند دراسته العلمية عن الجنسين • راجع مذكرات •• لتعريف اجتماعى لفئتى الجنس (مجلة فلسفة المعرفة الاجتماعية ، العـدد ١١ النصف الأول من سنة ١٩٧١)

(٣) روجر باستيد : الدراسات والبحوث العنصرية فى فرنسا من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٦٨ ، نشرة سيران ، العدد الأول سنة ١٩٦٨ (منسوخة) •

حتى سنة ١٩٦٠ حين بدأ يزداد فى فرنسا ، وقد كانت تلك السنة تاريخ حصـول البلاد الافريقية المتحدثة بالفرنسية على الاستقلال • وعلى العكس من ذلك فان عددا كبيرا من الدراسات حول العائدين من شمال أفريقيا الى فرنسا قد أجرى بين سنة ١٩٦٣ وسنة ١٩٦٥ ، وهى فترة العودة ، وبعدها لم تجر أية دراسات تقريبا ، وذلك دليل على أن تأثير الموقف فى ذلك الوقت كان هو العامل الوحيد ، ولم تكن هناك آثار أيديولوجية ، ولكن لاحظ أيضا أن جماعة الأقلية قد بدأت تتحدث باسمها ، وربما كان ذلك نتيجة للواقع » وهكذا نرى انه بينما كان ميدان البحث فى المرحلة الأولى لا يكاد يتناول غير الجوانب القانونية والاقتصادية والعلاقات العنصرية نجد أنه يصبح سياسيا حوالى سنة ١٩٦٠ . وأخيرا نجد أن الباحثين لايكادون يعيرون انتباها لجماعة الأغلبية كجماعة أغلبية . وفى هذا الصدد يظل البحث أسيرا للضغوط الناجمة عن العبارات المستخدمة ، وبالرغم من أن جماعة الأغلبية هى جماعة السواد الأعظم ــ وربما لهذا السبب نفسه ــ فانها لا وجود لها شعوريا فى عين الجمـاعة نفسها ، ولا فى الصحافة ، أو الحديث اليومى • فالناس الآخرون فقط هم الذين يثيرون المشاكل ، وهم الذين يكونون موضع دراسة • ففى حين أن الدراسات عن جماعة الأغلبية يمكن ان تعد على أصابع اليد الواحدة نجد أن عدد هذه الدراسات عن جماعة الأقلية يعد بالمئات .

ومن الصعب معرفة تطور طريقة ادراك جماعة الأغلبية لنفسها ، فالحديث عنها قليل ، ومن الصعب تحديدها الا عن طريق الاستنتاج ، وهى عبارة عن جماعة من الأفراد ليس لها خصـــائص اجتماعية • ومع ذلك فمن الجدير بالذكر أن اصطلاح « العنصر » يزداد استخدامه فى كل من المطبـوعات العلمية والمطبـوعات الموجهة الى القارىء العادى فى خلال السنوات الأخيرة من سنة ١٩٦٥ الى سنة ١٩٧٠ ، وخاصة فى الاعلانات • ومعنى ذلك أن هذا الاصطلاح لن يستخدم بالنسبة للآخرين فقط ، فهل تستطيع جماعة الأغلبية السائدة أن تصل الى ادراك نفسها كعنصر ، ولو ادراكا غامضا ؟ ان هذا التطور يتجه الى أن تساير فرنسا البلاد المتحدثة بالانجليزية ، ويجدر بنا أن نتتبع جذور هذا التطور •

ان مثل هذه التطورات ليست واعية شعوريا ، ومن الغريب أن صورة « الآخر » يعتقد أنها ثابتة بالرغم من أنها تتغير باستمرار • « فالآخرون » لا يزال ينظر اليهم على أنهم ثابتون غير متغيرين ، كما يشار اليهم قبل كل شىء على أنهم مختلفون ، ويظلون أسرى لمطابقة أنفسهم مع جماعتهم ، وليس هناك أدنى احتمال للشك فى حالة الثبات التى تتمثل فى أنفسهم ، وهكذا فان أى تغير ادراكى مهما كان ظاهرا يمضى دون أن يلاحظ ، وهنا يربط منطق اللاشعور بين المتناقضات بمنتهى اليسر •

وهناك نقطة هامة للغاية ، وهى أن التغيير لا يتخذ تلك الأشكال الادراكية التى أوردناها باختصار ، وانما يكون فى المضمون سواء كان كلمات أو طرزا نمطية • وليس هذا بالأمر الهين ، ولكنه ليس كافيا • ومن المهم بالتأكيد أن نلفت النظر الى التغيرات التى تؤثر فيما يقوله النـــاس عن الآخرين مع تأكيد اعتمادها على عوامل

تاريخية ، ولكن من المهم أيضا أن لا تغيب عن بالنا حقيقة أن ذلك لا يرتبط الا بالصورة الصريحة للآخرين أى بمجموعة من الطرز النمطية ، فتلك الصور العدائية والملونة تلوينا صارخا تكاد تصاحب دائما تلك الأخبار عن الآخرين من أعضاء جماعات الأقلية ، بالرغم من أنها لا تستخدم فى هذه الموضوعات فقط • وكلما كانت الأغلبية تنظر الى جماعة على أنها عنصرية أو غريبة كانت تلك الصور مسرحية وبارزة ، كما هو الحال بالنسبة للغجر والأفريقيين • ومثل هذه العبارات الغريبة تتعرض للنقد الشديد أو الحذف اذا كانت هذه الجماعات تتحدث عن نفسها بطريقة أو بأخرى • فقد قلت النظرة الى الهنود الغربيين واليهود على أنهم يتصفون بالغرابة • وليست الصور سوى جزء صغير من ادراك الناس للآخرين ، ويقع لب الموضوع فى الثنائية الشكلية للادراك فى التعبير اللفظى عند تحليله • فالمعلومات تقدم شفويا وتروجها جماعة الأغلبية بمعنى أن كل شيء يتصل بتلك الجماعة يشكل كل المتن الاجتماعى الذى تحدث فيه الأفعال العديدة والمتنوعة لكل عضو من أعضاء المجتمع الذى ينتمى الى تلك الجماعة • فالسياسة والاقتصاد والترفيه تدلنا جميعا على حياة جماعة الأغلبية ، وذلك من خلال الشخصيات الفردية والتغيرات الطفيفة فى معنى الأمور الاجتماعية والتاريخية ، والعكس بالعكس ، فبعض المعلومات الهامشية تعنى جماعات الأقلية ، وهى تكتب بأسلوب آخر يرمز الى أولئك الذين يكتب عنهم ويمتاز بالعبارات التمهيدية والنظر الى الناس ككتل جماهيرية مع استخدام أسلوب التقرير بدلا من التحليل ، كما نجد أن شخصية الأفراد متآكلة •

وبعبارة أخرى نجد أن جماعة الأغلبية توصف بعبارات سلسة وكلمات هادئة ملاطفة مفصلة • أما جماعات الأقلية فتوصف بعبارات مقطعة الأوصال ناقصة واعتراضية ، وفى هذا السياق نستخدم الصور المتبادلة والصور الخاوية فى أى معنى •

خاتمـــة

نخلص من ذلك الى أن الادراك ــ كما يفهم من التعبير اللفظى ــ يأخذ مسلكين مختلفين باختلاف الجماعة المدروسة أهى جماعة الأغلبية أم جماعة الأقلية • فجماعة الأغلبية لا يشار اليها باعتبارها جماعة ولا تعرف بأنها تنتمى الى جماعة معينة أو جماعة عنصرية اجتماعية محددة ، فهى ينظر اليها على أنها جماعة بغير عنصر • وعلى العكس من ذلك توصف جماعات الأقلية وتدرك على أنها عنصرية قبل كل شيء ، كما أن أى خصائص اقتصادية واجتماعية لهذه الجماعات ــ أو للأشخاص الذين ينتمون اليها ــ ينظر اليها على أنها ذات أهمية ثانوية ، فحقيقة كون الشخص خادما أو تاجرا أو عاملا تبدو وتحس على أنها افتراض أو حالة من نوع خاص تتعلق بخاصية طبيعية ، وليست نتيجة لعملية اقتصادية أو تاريخية اجتماعية •

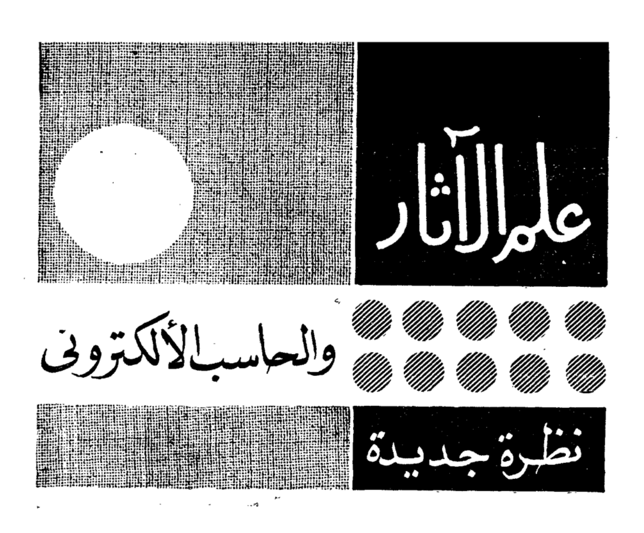
وتدرك جماعة الأغلبية على أنها مجتمع يشبه الساحة المفتوحة للجميع ، حيث يستطيع كل شخص (ينتمى الى جماعة الأغلبية) ــ غير مقيد بقيود عنصرية اجتماعية ــ

أن يمضي حيث يشاء أو يرغب وفقا لمواهبه ورغبته أو الحدود التى يفرضها تاريخه الشخصى (١) . ولذلك فان المجتمع يختلف تماما باختلاف نظرة عضو جماعة الأغلبية الى نفسه أو الى الآخرين . وهو صاحب الحق فى التحرك بحرية فى هذا المجتمع ، فى حين أن الآخرين لهم وضع معين حددته الطبيعة منذ زمن مغرق فى القدم . أما عضو جماعة الأغلبية فانه يقع خارج نطاق النظم العنصرية ، ولكن عضو جماعة الأقلية يقع داخل النظام العنصرى .

وتؤكد جماعة الأغلبية أن هذا المجتمع ليس عنصريا ، فى حين تؤكد جماعات الأقلية الرأى المخالف . ويرجع السبب فى تلك الغشاوة التى تضرب على بصر جماعة الأغلبية الى البناء الأيديولوجى ، فالمجتمع الفرنسى مجتمع عنصرى ، ولكن جزئيا فقط . فالجماعات الأخرى هى التى ينظر اليها نظرة عنصرية كما هو الحال فى جميع البلاد العنصرية ، غير أنه على النقيض من معظم تلك البلاد العنصرية (كألمانيا النازية وجنوب أفريقيا مثلا) لا تتسم الذات الاجتماعية ـ جماعة الأغلبية السائدة ـ بالعنصرية ، ولا تدرك نفسها على أنها من أى عنصر معين ، وهى تنظر الى نفسها على أنها فوق العنصرية . فهو مجتمع ينتقل فيه الانشغال بالعنصر الى الآخرين ، دون أن يمس الوعى بالذات .

وبعد ، فهل ذلك يدعو للكثير من الدهشة ؟ ان جماعة الأغلبية التى تمثل ٩٥٪ من الأهالى تستمد من هذه الحقيقة شعورا بالجماعية التى لا يمكن لأفراد جماعات الأقلية ـ بتنوعها ـ أن يشاركوا فيها أو يعكرون صفوها ، اذ أن نسبة أى جماعة من الأقلية لا تزيد عن ١٪ على الأكثر ، يضاف الى ذلك أن أعضاء جماعات الأقلية منعزلون بعضهم عن بعض ، بخلاف أعضاء جماعة الأغلبية ، فعلى الرغم من أنهم محدودون سكانيا وايكولوجيا وحرفيا فهم لا يمثلون أى احتكار لخصائصهم الاجتماعية ، فأى شىء يبلغونه يستطيع أن يبلغه أفراد جماعة الأغلبية أيضا . ويختلف هذا الوضع اختلافا كبيرا عن المجتمعات ذات العناصر المتعددة حيث تكون كل جماعة من الجماعات ذات صفة خاصة وموجودة وراء حدود معينة . فعضو جماعة الأغلبية يمكن أن يكون موظفا صغيرا فى مجلس الدولة ، كما أنه يمكن أن يكون سمكريا ، فى حين أن الغجرى يمكن أن يكون سمكريا فقط ، ومع ذلك فهو ليس الوحيد الذى يمكن أن يقوم بهذا العمل . وهكذا يضاف الى شعور أعضاء جماعة الأغلبية بالجماعية احساس بالأمن والسلطة العليا فى المسائل الاجتماعية ، بحيث لا يمكن اثارة الوعى الاجتماعى فى الجماعة نفسها ، اذا ما نظر الى العنصر على أنه بمثابة ربطة تلف حول العنق أو شارة من الشارات المميزة التى يشعر صاحبها بالفخر أو المهانة . وانما يصبح ـ على كل حال ـ ادراكا بخصوصية المرء .

(١) ان افتراض وجود اختلافات طبيعية أو بيولوجية أكثر انتشارا مما يظن لأول وهلة . وهى تتعلق باعتقاد كان سائدا على الأقل فى القرن التاسع عشر ، وهو أن هناك اختلافات عنصرية بين الطبقات الاجتماعية . وفى نطاق هذا المقال لم أتمكن من معالجة هذا الموضوع بالتفصيل ، ولذلك تناولته باختصار شديد .



لم يعد الربط بين علم الآثار والحاسب الألكترونى أمرا حدثا ، ولعلنا نذكر أنه منذ سنوات قليلة فقط كان الناس يبتهلون الى الله ويجدون فى البحث كى يربطوا بين أى فرع من فروع العلوم المتأصلة الراسخة الجذور وبين أحدث ما ابتدعه العلم من الوسائل التكنولوجية المعاصرة ، ولكن الوضع الآن قد تغير تغيرا كاملا بحيث أصبح يحتم علينا أن ننظر الى ما هو أبعد من الربط بين هذه الوسائل العلمية الحديثة وبين فروع العلم الشائعة ، كى تتضح لنا الصورة الحقيقية لهذه الثورة العلمية الجديدة ، وليس ثمة أصلح لهذا الفرض من محاولة تطبيق الحساب الألكترونى على الوسائل الفنية فى العلوم الأثرية .

التطبيقات الاحصائية

قد يبدو لكثير من الباحثين الذين لا يعلمون الا القليل عن هذا الموضوع أن الحساب الألكترونى ليس الا حسابا يجرى بأبسط الطرق المدرسية ، وأن الحاسب الالكترونى ليس الا آلة حاسبة تعمل بسرعة وبدقة اكثر مما يعمل العقل البشرى،

بقلم : جان - كلود جاردان

مدير الدراسات بالمدرسة العملية للدراسات العليا ومدير مركز التحليل التسجيلي لعلم الآثار بالمركز القومي للبحوث بفرنسا • اشترك لعدة سنوات في البعثات الأثرية في أفغانستان وايران ، وهو مؤلف لكتب أثرية •

ترجمة : الدكتور زكي إسكندر

مدير عام الشئون الفنية بمصلحة الآثار ، وأستاذ تكنولوجيا التصوير بكليتي الفنون الجميلة بالقاهرة والاسكندرية ، وأستاذ مادة العلم والتكنولوجيا في مصر القديمة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة • وهو متخصص في الكيمياء والآثار المصرية وله فيهما نحو ٢٥ بحثا ، وخاصة في استخدام العلوم الطبيعية في الميدان الأثرى ، وهو أيضا مؤلف لبعض الكتب العلمية في الآثار ، كما ترجم بعض الكتب عن الآثار في مصر وفلسطين ، والموسوعة الأثرية المختصرة • وهو عضو في الجمعية الكيمائية المصرية ، وزميل في المعهد الدولي لحفظ وصيانة الآثار والتراث الفني بلندن ، وعضو في معهد كسر للدراسات العلمية الأثرية بسويسرا

فاذا كان الأمر كذلك فما هي حاجة علم الآثار للحساب والاحصاء ، واذا كانت فعلا في حاجة لهما فلماذا وكيف ؟

وتختلف الآراء في كيفية الاجابة على كل من هذه الأسئلة . يقول البرت سبولدينج وهو أحد المتحمسين لاستخدام الطرق الاحصائية في علم الآثار أن علماء الآثار يوجهون عنايتهم الى مجموعات المشغولات (القطع الفنية التي صنعها الانسان) لا الى قطع فردية ، وهذا يختلف تماما عن موقف الباحثين في العلوم الانسانية . ولعل معظم علماء ما قبل التاريخ يجمعون على أن الأشياء التي يعتمدون عليها في دراساتهم ، مثل الشظايا الحجرية وقطع الشقف ، توجد بالآلاف أو بعشرات الآلاف ، وقد يكون هذا في حقل واحد ، ومن ثم يكون من المريح والملائم لهم استخدام القياسات الاحصائية في وصف القطع التي توجد في منطقة معينة أو في موقع معين أو تنتمي الى حضارة معينة . وفي مثل هذه الحالات ليس العامل الأساسي لأغراض التعريف والتمييز هو وجود طراز معين من الأشياء أو عدم وجوده ، أو وجود ملامح مشتركة مميزة لهذا الطراز في الطبقة (مثل طريقة الصنع، أو المادة المصنوع منها الشيء ، أو شكله) ، بل يكون العامل الأساسي لهذه الأغراض هو الكثرة النسبية لمثل هذه الطرز أو الملامح أو أي قياسات دقيقة تحسب من

كميات الأشياء المختلفة فى الطبقات ، مثل المتوسطات والتنوعات والاختلافات ، وغير ذلك . وتمدنا الدراسة التى قام بها سبولدينج فى هـذا الموضـوع والدراسـات الشاملة الأخرى المنشورة فى كتاب هايزر وكوك بمعلومات ومراجع حديثة جدا عن التطبيقات العيارية للطرق الاحصائية فى ميدان الآثار، كما تمدنا مجموعة الدراسات التى نشرها كولشين باللغة الروسية بمراجع طائلة عن هذا الموضـوع ، نذكر منها بصفة خاصة تلك الدراسات التى قام بها كامنتسكى ، وكوفالفسكاجا ، وكروج ، ومارشاك ، وشر .

ومن الأسباب التى جعلتنا نمر مرورا سريعا على هذه الطرق ، اذ لم نفعـل غير احالة القارىء الى بعض المراجع التى قد تبـدو عتيقة ، أن مثل هذه الطرق التى يستخدمها مؤرخو ما قبل التاريخ لا تكاد تختلف عن تلك التى استخدمها الباحثون فى علم النفس وعلم الاجتماع سنوات عديدة ، وهى موصوفة فى عدة كتب ممتازة باللغتين الفرنسية والانجليزية يستعملها الطلبة والباحثون فى العلوم الانسـانية . ومن اسباب مرورنا السريع على هذه الطرق أيضا أن استخدام الوسائل الاحصائية لا صلة له أساسيا ولا تاريخيا باستخدام الحاسب الألكترونى فى الميدان الآثارى كما يتضح من التواريخ المذكورة فى كثير من المراجع التى أشرنا اليها آنفا . ومع ذلك فان الحاسب الألكترونى قد عمل على اجراء هذه العمليات بسرعة عظيمة ، مثلمـا عمل استخدام الآلات الحـاسبة الالكترونية فى اجراء حسـابات – تعطى أحيانا نتائج مثيرة – لم يكن يجرؤ فى الماضى أن يقوم بحسابها بالطرق العـادية أكثر علماء الآثار طموحا وصبرا . وتحوى مؤلفات كاوجيل وتشينال ورابين معلومات قيمـة وتعليقات مختلفة عن التطبيقات الرئيسـية لعلم الحسـاب الألكترونى فى عمليـات الاحصاء فى مجال الآثار فى العشر السنوات الاخيرة .

غير أن التقدم فى هـذه التطبيقات العلمية قد أوضح كثيرا مسـألة نظرية كان الآثاريون يميلون الى اغفالها ، تلك هى مسألة اختيار العينات أو النماذج ، ولدينـا فى هذا الخصوص سؤالان عامان :

السؤال الأول : هل طبيعة السكان وأعدادهم (طبقا لما يتبين من دراسة ما عثر عليه فى تنقيب آثرى معين أو فى منطقة آثرية معينة ، وترتيبها التاريخى ، الخ) تبرر استخدام آلة احصائية معينة .

والسؤال الثانى : ما هى الأسس التى اعتمد عليها لاعتبار هؤلاء السكان عينات مثالية للدراسة حتى يمكن أن تستخلص منها البيانات الصحيحة التى نفكر فيهـا عنهم ، مثل أجناسهم ، وتجمعاتهم ، وحضاراتهم ، الخ .

من الواضح أنه لا يمكن الاجابة على هذين السؤالين فى نطاق الحدود الضيقة لهذا المقال الموجز ، ويمكن الرجوع فى ذلك الى بعض المراجع (بينفورد ، – ويتنبرج ، تجى، كاوجيل). غير انه يجدر بنا أن نؤكد هنا أن كلا من السؤالين، وخاصة السؤال الثانى ، على درجة قصوى من الأهمية فى استنتاج الأسس التى تنبنى عليها النظريات

الأثرية ، بصرف النظر عن أى استعانة بعلوم الاحصاء والحساب الألكترونى • فسواء كانت الطرق الحسابية « ملائمة » أو غير ملائمة ، أو كانت النتائج « ممثلة » أو غير ممثلة ، فهى فى الواقع مسائل تتعلق بمدى صلاحية احدى الطرق أكثر من غيرها من وجهة نظر المعرفة العلمية لاختيار هذه الطرق • وليست هذه الرغبة فى تقرير صلاحية علمية معينة مقصورة ، بل يجب أن لا تكون مقصورة ، على الحصـــول على النتائج الاحصائية فقط ، وهو ما نبغى الآن أن نثبته فيما يتعلق بتطبيقات أخـــرى لعلوم (الحساب الالكترونى) فى الميدان الأثرى •

التصنيف الآلى

ويذكر سبولدينج فى كتابه السابق الذكر أن علماء الآثار يدرسون مجموعات الأشياء لا أشياء فردية ، وهو موقف يتباين مع موقف الباحثين فى العلوم الانسانية • على أن هذا التباين المزعوم لا يصبح الا اذا افترضنا وجود اختـلاف بين علم الآثار والعلوم الانسانية ، بأن يعتبر علم الآثار ضمن علوم ما قبل التاريخ ـ كما ذكرنا فى الجزء الأول من هذا المقال ـ وأن تضم العلوم الانســـانية ميادين بحوث بعض فنون اضافية مثل تاريخ الفن ودراسة الآثار اليونانية والرومانية • غير أن أسلوب التمييز هذا لم يعد مقبولا ، والرأى الأصح أن الأثريين يميلون دائما لاتباع أسلوب عام واحد مهما كان مايدرسونه ، سواء كان هذا فخارا أو تمثالا أو نقشا منحوتا من العصر الحجرى الحديث أو العصر اليونانى الرومانى أو شيئا يستخدم فى الحياة اليومية أو عملا فنيا (اذا أمكن الاهتداء الى تعريف دقيق للعمل الفنى) •

ولا شك أنه يصعب اعطاء وصف مختصر للطريقة التى تستخدم فى كل هذه الحالات ، غير أن شانج قد نجح فى الوصول الى تعريف يبدو لنا أنه تعريف سليم جدا ، وهو : « اذا سمح لى أن أركز اهتمامى على شىء واحد وأعتبره النقطة المركزية للمجموعة التى نســـتنتج منهـا النظرية الآثارية المعقـدة وطريق التطور الذى حدث فيها ، فيجب على فى هـذه الحالة أن ألغى فكرة التصنيف وعملياتها » • ولما كان صحيحا أن ليس كل الآثاريين محاسبين • وبالتالى ليسوا اخصائيين ، فانهم مع ذلك يصنفون المواد التى يقومون بدراستها بطريقة أو أخرى ، سواء تعلقت دراساتهم بأشياء مفردة أو بمجموعات من هذه الأشياء تعد بالمئات أو بالآلاف. أو آلات الاحصاء التى سبق ذكرها فهى تستخدم فى المكان الأول للتصنيف ، بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، فعلى سبيل المثال تحدد « الطرز » على أساس صفات مترابطة مثل الملامح المميزة والخواص ، فى حين تحدد « الجماعات » على أساس مجموعات معينة من الطرز وتحدد الحضارات على أساس تكرر طوائف معينة من الجماعات ، وهكذا • لكن العالم الأثرى يصنف أيضا ، دون القيام بأى عمليات حسابية حقيقية ، عندما يعطى بيانات من النوع التالى ، وهى بيانات شـــائعة جدا فى المؤلفات المتخصصة الى درجـــة أنها تظهر لنا كأنها من نافلة القول ، وهى : غ تتشابه مع س (أو ع ، ف ، ص ، ق ..... ظ ؟ ، أو أن « متشـابهات غ هى س ع ، ف ، ص ..... » أو « قارن

غ بكل من س (ع ٠٠٠٠٠) » ، ألخ ٠ وتؤلف كل سلسة من هذه العلاقات فئة معينة بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، أى مجموعة من العناصر (س ، ع) أو (س ، ع ، ف) أو (س ، ع ، ف ، ص) ، ألخ ، مجمعة معا على أساس أنها تشترك فى خاصية معينة أو خواص معينة ٠ وقد تكون مثل هذه الخواص معرفة تعريفا واضحا الى حد ما (وفى واقع الأمر كثيرا ما يكون هذا التحديد خاطئا) ، وقد يكون الوصف الموضوع لهذه المجموعات وصـــــفا خاطئا (ويوصف أحيانا بطريقة واحدة بأسلوب غير متغير ، وأحيانا بطريقة متغيرة متعددة الأســـلوب ، (أنظر ســـوكال ، وسنيث ، ص ١٣ ــ ١٥) ٠ وبالرغم من ذلك فالبيانات المقدمة عن المسألة هى صورة من صور التصنيف ، ويمكن تطبيقها على تصنيف أى مجموعة من الأشياء ، أو حتى على شيئين فقط قد يمكن ربطهما معا وقد لا يمكن ربطهما ٠

ويمكن أيضاح الطريقة المشار اليها طبقا للنظام الصحيح لها هكذا : أعد « جدول معلومات » (شكل ١) حيث تبين فى الصفوف الأفقية الآثار المراد تصنيفها (ســواء كانت أدوات ، أو أسلحة ، أو أوانى ، أو حليا ، أو نصوصا ، أو قطعا فنية ، الخ) فى حين تبين فى الأعمدة الرأسية الصفات أو الخواص التى استخدمت فى وصف هذه الآثار أو بأى تعبير أشمل فى التحدث عنها (وليس هذان الأسلوبان فى الوصف

الآثار	الخواص						
	ا	ب	ج	د	هـ		ن
س	ا	ا	ا	٠	٠		ا
ع			ا	٠	ا		
ف			ا	٠	ا		ا
ص	٠	٠	٠	ا	٠		٠
غ	ا	ا	ا	ا	٠		ا

شكل (١)

« جدول معلومات » أركيولوجية يبين خواص المجموعة الأثرية ، فاذا كان للأثر فى الصفوف الأفقية (س ، ع ، ف ، ص ، ق ، ر ٠ ش ، ث ، خ ، ذ ، ض ، ظ غ) خاصية معينة فى الأعمدة الرأسية (أ ، ب ، جـ ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ، ى ،ك ، ل ، م ، ن) أعطى رقم ١ واذا لم تكن لديه هذه الخاصية أعطى رقم صفر ٠

مع الأسف متعادلين ، أنظر المرجعين ٥ ، ٦) • فاذا قيل ان « غ تتشابه مع س » فان هذا يعنى أنه فى مجموعة الآثار التى تجرى دراستها (وهى س ، ع ، ف ، ص •••) باستخدام عدد غير محدود من الخواص (أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، •••••• ن) ، لاحظ العالم الآثارى تماثلا بين غ ، س أكثر وضوحا مما بين غ وأى أثر آخــــر فى المجموعة (ع ، ف الخ •••) ، ومن الواضح أن التشابه فى هذه الحالة يمكن التعبير عنه بعبارات من المفروض أنه يمكن تحقيقها ، **ومن ثم يمكن تقدير هذا التشابه تقديرا كميا** يتضمن سردا صادقا للخواص المشتركة والخواص المختلفة لكل أثنين من الآثار (غ ، س) أو (غ ، ع) ، وهكذا (١) •

وعبارة « ومن تم يمكن تقدير هذا التشابه تقديرا كميا » فى شرحنا هذا عبارة أساسية لنفهم موضوعنا ، فاذا قدمت تصنيفات الأثرى هذه لعمليات الحساب الآلى ، وبالتالى الى الحاسب الألكترونى ، فانه يتحتم علينا أن نفترض أن هذه التصنيفات لم توضع اعتباطا، ولكنها تتبع قواعد معينة، حتى ولو بدت لنا فى غاية الأهمية وتحدث أى محاولة لاعطائها صيغة علمية مقبولة • وعند افتراضنا وجود بيانات «يمكن اثباتها» عن الخواص المتطابقة والخواص المختلفة للأثر فى جدول المعلومات فان كل مانعمله هو أن نسلم بوجود مثل هذه القواعد فى تناولنا لطريقة المقارنة فى علم الآثار ، و « امكانية التقدير الكلى » للتصنيف ما هى الا احدى الطرق التى تؤدى الى هذا الغرض نفسه •

ولن نشغل أنفسنا هنا بالمناقشات الماضية التى لايزال يثيرها مبدأ التزاوج بين طرق البحث الأركيولوجية والطرق التى تعتمد على الأرقام والعقل الألكترونى، وهو التزاوج الذى اعتبره البعض عارا واعتبره البعض الآخر ببساطة زواجا غير منجب • ولكننى أرجو أن أبين فقط أن هذا التزاوج قد أجرى بفطنة وأحكام منذ أكثر من عشر سنوات (٢)، وليس فى الأفق البعيد أى اشارات تدل على أى مصاعب أو اجهاد نتيجة لقيام هذا التزاوج • وجدير بالذكر أن استخدام الطرق الرياضـــية ، بما فى ذلك الحاسب الألكترونى لاجراء التصنيفات الأركيولوجية ، ليس بالأمر غير العادى الآن . ويمكن ذكر عشرات المقالات التى نشرت عن هذا الموضوع ، وأحدثها مقالات كوجيل وفرناندى دى لافيجا وهودصون • وليس اهتمام علماء الآثار بهذه الطرق الا مظهرا من مظاهر النجاح الكبير الذى صادفته هذه الطرق خلال العشر الســـــنوات الأخيرة فى تطبيقها على كل فروع العلم الأخرى وخاصة علم تصنيف الأحياء الذى يؤدى دورا هاما مماثلا فى علوم التاريخ الطبيعى والحيوان والنبات ، ومن ثم فان اصطلاح « التصنيف العددى للأحياء » الذى أطلق على هذه الطرق وتسمية تدل على المعنى الصحيح لها •

---

(١) فى هذا المقال المبسط جدا عن موضوعنا سنعالج فقط الحالة التى تصنف فيها الآثار طبقا لخواصها ، غير انه يمكن استخدام جدول المعلومات أيضا لتصنيف الخواص طبقا لوجودها فى الآثار المختلفة فى مجموعة الآثار التى تجرى دراستها •

(٢) كان هذا عام ١٩٥٩ حينما حدث لأول مرة حسبما نعلم أن استخدم بيتر ايم Peter Ihm جهـــاز الحاسب الألكترونى المعروف باسم Euratom IBM GSO Computer فى ايسبرا بايطاليا طريقة التصنيف الذاتى الالجوريتمى التى ابتكرها هو لدراسة مجموعة من فؤوس أوراسيه يرجع تاريخها الى العصر البرونزى بعث بها اليه اليسيف •

ولما كانت هذه الدراسات حديثة ، وتعالج الموضوع بصفة شاملة ، فانني لست في حاجة هنا الى أن أتناولها بعمق مرة أخرى ، وأفضل في هذا المقال أن أهتم اهتماما خاصا بحدود استخدام طرق التصنيف الآلي في الميدان الأثري ، أو بمعنى أصح المشاكل الرئيسية التي نقابلها في هذا الميدان •

وأول هذه المشاكل متعلق بعمل جدول المعلومات عند بدء اجراء حسابات التصنيف (شكل ١) ، كيف يتم اختيار (خواص) مجموعة الآثار التي ستجرى دراستها ، وكيف توصف ، وكيف ترتب ؟

ومع أن هذه المسألة ذات أهمية قصوى الا أنها تعالج بكيفية ناقصة في تقارير علماء الآثار ، بل قد يتجاهلونها تماما ولا يخصصون لها فقرة مستقلة في التقرير • ومن الجلي ان التصنيف أو تقسيم المجموعة الأثرية الى أقسام حسب طرز القطع التي تشملها ، مهما كانت الطريقة التي تتبع في ذلك ، سواء كانت هذه الطريقة بدائية أو رياضية ، هو أولا وقبل كل شيء نتيجة للاختيار الأول فيما يختص بكيفية « النظر » الى هذه الآثار بوصف معين يختار من بين عدد يكاد يكون لانهائيا من الأوصاف ، وبتعبير آخر يمكن أن يقال أن الوصف الأول للآثار ، أي ترتيبها طبقا لقائمة الخواص (شكل ١) ، هو ولا شك الذي يحكم نتائج أي تصنيف لاحق مهما كانت الطريقة المستخدمة في هذا التصنيف • وقد يبدو أمرا غريبا أن هذه الحقيقة الأولية لاتزال غائبة عن ادراك علماء الآثار ، أو أنهم بدأوا الآن فقط يدركون أهميتها بالنسبة لصحة النتائج التي يرقبونها ، لكن لمحة الى المؤلفات الأركيولوجية ستقنع أي قارىء بأن الأمر كذلك ، ففي هذه المؤلفات توصف الآثار بطريقة « طبيعية » للغاية ، أي أنها توصف ، ثم يقارن بعضها ببعض ، ثم تبوب ، ثم تصنف لى « طرز » ، مع استخدام اصطلاحات من اللغة الدارجة التي تغذى قليلا ببعض كلمات تخصصية ، وهذه الكلمات نفسها (مثل المقرنس ، دستور ، مشقوق المقبض) تعكس اختيارات تدل على كيفية النظر اليها ، ويبدو أنها معتبرة لديهم كأنها مصطلحات دارجة «طبيعية» حتى أنهم لا يوضحون في كتابتهم المعنى المقصود منها أو يبررون وجهة نظرهم في استعمالها • ومع ذلك فليس ثمة شيء أقل طبيعية من لغة العلوم ، فالتجارب العلمية التي تمكننا وحدها من تكوين هذه اللغة تأخذ عادة بعيدا عن موقف ادراكنا المفاجىء الذي كنا فيه عند البداية • وازاء هذا أريد أن يقدر القارىء لماذا لم نقف طويلا عند هذه الحقائق الواضحة التي عولجت مرارا في كثير من المؤلفات الحديثة عن علم الآثار • وأود فقط أن أبين بوضوح كامل أن استخدام الحساب الالكتروني ، بل الحاسب الالكتروني انما ينحصر أثره الوحيد حتى الآن في أنه أنار لنا السبيل ووجه اهتمامنا نحو مسألة مهملة من جهة طريقة العمل ، وهي المسألة التي تعتمد عليها كل التصنيفات الأركيولوجية •

وينطبق هذا بالنسبة للمشكلة الثانية ، التي تتعلق بصفة مباشرة بعمليات التصنيف الآلية ، وهي « موضوعية » مفهوم الاصطلاح « تشابه » الذي تتضمنه كل البيانات الأولية التي سبق ذكرها ، مثل «غ تتشابه مع ص» و «ومتشابهات غ هي من

(ع ، ف ٠٠٠٠٠٠) الخ ٠ وآود هنا أن أبين ثلاث حقائق : الأولى أنه من السهل أن نرى أنه لا يمكن تنظيم أصناف أو مجموعات من أى نوع فى جدول معلومات (شكل ١) تنظيما سليما الا اذا امكن استبدال هذه المقترحات الغامضة بتعبيرات يمكن تقديرها تقديرا كميا ، أى يمكن قياسها بواسطة « مقاييس » بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ٠ فاذا رمزنا للخواص بأعداد فان ايجاد مفهوم الأعداد المجاورة وحساب المجموعات يتم باستخدام طرق فنية معروفة حق المعرفة يمكن الآن تحليلها بالحاسب الألكترونى ، ومن أمثلة هذه الطرق التحليل الى عوامل ٠ ومع ذلك ، على خلاف الرأى الذى لايزال يسلم به عدد من الأركيولوجيين ، لا يعنى قياس التشابه أن تكون الخواص قياسية ، بل على العكس ، فى معظم المراجع وصفت الآثار التى تدرس بواسطة عامل ثنائى موجه ، أى بتعبيرات مماثلة لتلك المستخدمة فى (شكل ١) توضح كيفيا فقط وجود أو عدم وجود ملامح متنوعة معينة فى آثار المجموعة الواحدة ٠ ومن ثم نرى أنه توجد عدة طرق لقياس اوجه التشابه أو « المسافات » فى جدول المعلومات ، وسيجد القارىء الذى تهمه مثل هذه الطرق فى المراجع الأركيولوجية عددا كبيرا من الأمثلة مع عواملها المختلفة واستخداماتها فى بحوث التصنيف التى جرت باستخدام الحاسب الألكترونى أو بدون استخدامه ٠ وليس يهمنا فى هذا المقال أن نبين عدد هذه البحوث أو أن ننوه بالنجاح النسبى الذى حققته فيما يتعلق بايضاح مفهوم المعلومات الأولية لعلماء الآثار ، لكن المهم هو ايضاح حقيقة يتجاهلها الكثيرون ، وهى أن هذا التقدير الأولى للنتائج هو فى التحليل النهائى الاختيار الحقيقى الوحيد لطبيعة الطريقة الرياضية للتصنيف وللقياسات التى اعتمدت عليها (وكما رأينا كان وصف القطعة هو أول هذه القياسات قبل حساب أى مسافات أو تشابهات) .

وبهذا نأتى الى البديهية الثالثة التى يجب فى تقديرنا أن نوجه النظر اليها فيما يتعلق بالتصنيف الآلى ، وهى : أنه لا استخدام الآلات الحاسبة ولا حتى الحاسب الألكترونى يضيف نتائج أعظم فى قيمتها من النتائج الأولى لادراك المفهوم العام للحالة الحضارية التى تجرى دراستها أكثر مما أدركناه من جدول المعلومات الأولية ، ولكن استخدامها هو من طرق ايضاح موضوعية العمليات التى اعتمد عليها الوصف والتصنيف ، وهو بالتأكيد شىء طيب نجربه ، ولكن يجب أن لا نستنتج أن الطرق التى وصلنا اليها صائبة لأنه أمكن وضعها فى صيغة رياضية أو فى صيغة واضحة ويمكن أن يحدث ، بل أنه يحدث فعلا ، أن يعطى الوصف البديهى ، الذى يضعه العالم الأثرى لطرز المجموعة الأثرية ، مفهوما أوضح وأجدى من المفهوم الذى ندركه من الفئات التى قسمت المجموعة اليها بالحاسب الألكترونى باستخدام البيانات والأوصاف التى وضعها الأثرى . وفى هذا الشأن يقدم هودصون تحذيرا معقولا ، اذ يقول « قد يبدو سابقا لأوانه أن ندعى أن طريقة للتصنيف قد ثبت أنها بمفردها أداة صالحة تماما فى الحقل الأثرى ، ومن الغباء أن نستهتر بالصعوبات التى تواجه أى محاولة جدية للتصنيف الأركيولوجى بطريقة حسابية أو بأى طريقة أخرى » واكثر من ذلك يكون من العبث ، فى رأيى ، أن نأمل أننا يوما ما نكتشف طريقة حسابية « فريدة » واحدة تعطى دائما نتائج « مرضية » وذلك نظرا لتنوع أهداف العالم

الأثرى طبقا لما يفرضه عليه البحث ، ونظرا لتنوع الطرق التى يختارها عند ترتيبه للآثار القديمة بكيفيات لا تعد ولا تحصى ، لكل منها عنصرها الخاص للدلالة التاريخية أو للدلالة على السلالات البشرية • ومنذ أكثر من عشرين سنة كان العالم الأمريكى اللامع الدكتور برو يدعو لاستخدام طرق متعددة فى تصنيف مجموعة واحدة ، ومما يدعو للسرور أن رأيه هذا يلقى تاييدا الآن بالرغم من المقاومة التى يلقاها من « التيبولوجيين » (الطرازيين) أشد المعارضين للنسبية ، ومن الواضح أن هذا الرأى يجب تطبيقه على كل من طريقتى التصنيف الرياضية وغير الرياضية ، وعلى نتائجهما •

التنظيم التسلسلى

حالة خاصة

يرى بعض الباحثين أنه ، لتلاقى بعض مشاكل التصنيف ، يمكن الكف عن البحث عن المجموعات المتشابهة فى جدول المعلومات (شكل ١) والاستعاضة عن ذلك بتمثيلها على شكل نظام تسلسلى يعدل فيه ترتيب قطع المجموعة وخواصها (فى الصفوف الأفقية والأعمدة الرأسية) بحيث نحصل على تمثيل قطرى تقريبا من النوع المبين فى (شكل ٢) ، وبذلك تكون القطع المتشابهة مقترنة بعضها ببعض ، ولا تكون هناك حاجة لتقرير عدد الأصناف التى تتكون منها المجموعة ، ويكون العالم الأثرى حرا فى تنظيمها بالطريقة التى يراها مناسبة لدراسته ، مع ترك فراغات فى الجدول لاضافة معايير داخلية أو خارجية حسب اختياره •

وبهذا التعريف يكون التنظيم التسلسلى أداة نافعة لدراسة الآثار اذا كانت لدينا أسباب تجعلنا نرى أنه يمكن تمثيلها تخطيطيا على طول محور واحد • ويمكن تفسير هذا الترتيب زمنيا (لاستنتاج التطور) أو جغرافيا (لاستنتاج التوزيع) • وقد ابتكر أليسيف طريقة فذة لتكوين مثل هذه النظم التسلسلية بدويا (١) ، ويبدو أنه استخدمها بنجاح لتحقيق التتابع التاريخى لقطع من البرونز الصينى أو لتأريخها بما هو أكثر دقة ، وهكذا •

---

(١) استخدمت هذه الطرق اليدوية على الأقل فى الحالات التى لا يزيد فيها عدد قطع المجموعة على عشرين قطعة، وقد صمم فرناندى دى لافيجا برنامجا استخدم فيه هذا النظام نفسه لتطبيقه على المجموعات الكبيرة العدد فى الحاسب الالكترونى (ويمكن طلبه من مركز التحليل التسجيلى للآثار بالمركز القومى للبحوث العلمية
Centre d'Analyse Documentaire pour l'Archéologie, CNRS, 31 Chemin Joseph-Aiguier, 13, Marseilles.

الآثار	الخواص											
	و	ح	ا	جـ	ن	ب		ط	د	ى	هـ	م
ت	١	١	١	١	٠	٠		٠	٠	٠	٠	٠
س	٠	١	١	١	١	١		٠	١	٠	٠	٠
ع	٠	٠	١	١	١	١		٠	٠	٠	٠	٠
ق	٠	٠	١	١	١	١		٠	٠	٠	٠	٠
ف	٠	٠	٠	١	١	١		٠	٠	٠	٠	٠
ص	٠	٠	٠	٠	٠	٠		١	١	١	٠	٠
ع	٠	٠	٠	٠	٠	٠		١	١	٠	١	٠
ض	٠	٠	٠	٠	٠	٠		٠	٠	٠	١	١

شكل (٢)
مثال عن التنظيم التسلسلى

وكذلك أشار لاجرانج الى نموذج جديد من التنظيم التسلسلى الألجوريثمى (١) كان قد ابتكره ف. تونلييه F. Tonnelier واستخدمه لايضاح أوجه التشابه وأوجه الاختلاف التى لاحظها أحد المتخصصين فى تخطيط أديرة الرهبان البندكتينين ، كما توجد أمثلة أخرى كثيرة . وقد أشارت عدة مراجع انجليزية الى بعض طرق مماثلة (أنظر برينرد ـ وينسون ، تجبى ، كلارك) تستعمل الآن فى الحاسب الألكترونى ويمكن تطبيقها لدراسة المجموعات الأثرية الكبيرة . ومع ذلك ، سواء كانت طرق التنظيم التسلسلى آلية أو غير آلية ، فأنها تثير هذا النوع من المشاكل التى أشرنا اليها بالنسبة لطرق التصنيف ، وهى :

١ ـ التنظيمات المبينة فى جدول على شكل قطرى تتألف من كل من الآثار وخواصها ، أو بتعبير آخر ما دامت الأشياء هى مجموعة من خواصها فأن معقولية الطريقة الوصفية المختارة من البداية هى على نفس مستوى الأهمية التى عليها طريقة التنظيم التسلسلى الذى سيتبع فى دراستها .

(١) الجوريتم Algorithm طريقة لتحديد مدى معين فى سلسلة المعلومات باستخدام معادلة خاصة استخداما مباشرا .

٢ ـ بالرغم من أن التنظيم التسلسلي لا يعطي تصنيفاً بالمعنى الصحيح فأنه كذلك يحتاج الى ايضاح موضوعية التشابه حتى حينما تستخدم طرق لم يعد فيها من قبل جدول بالخواص المتشابهة ٠

٣ ـ لا توجد هنا أيضا أسس للاعتقاد بأنه يوجد لدينا معيار واحد صحيح لكل الحالات ، كما أنه ليس لدينا طريقة مثالية واحدة للتنظيم التسلسلي ينتج عن تطبيقها على جميع جداول المعلومات تمثيل قطرى له مفهوم واضح وفائدة كبرى فى استنتاج الحقائق التاريخية وتسلسل السلالات البشرية ٠ واذا أضفنا الى هذا التحديدات الملازمة لمبدأ التنظيم التسلسلي ـ مثل فرض مراعاة تجانس البيانات ، وتمثيلها خطيا بالنسبة للتوزيع الجغرافى والتاريخي ، واستقلال التوزيع الجغرافى عن التطوز ، أو على الأقل امكان الفصل بينهما (كلارك ، ١٩٦٨ ، ص ٤٥٧ ـ ٤٦٣) ـ فانه يمكن أن ندرك انه يجب اتخاذ احتياطات أكثر ، وأنه يجب وضع تمييز بين التمثيل الألجوريثمي لهذه العملية وبين قيمة نتائجها العلمية ، وستعالج هذه النقطة فى الفقرة الأخيرة من هذا المقال ٠

التطبيق التسجيلى

اذا اعتبرنا كلا من التصنيف العددى والتنظيم التسلسلي خطرا فى استخدامه، نظرا لعدم الاطمئنان للأساس الذى نقيم عليه منهج الطريقة المستخدمة ، أفلا يمكننا على الأقل أن نستخدم الحاسب الألكترونى لفرز البيانات الأركيولوجية دون أن نتعرض لخطر الوقوع فى خطأ منهجى ؟ لاشك أن هذا اجراء يمكن عمله ؛ فقد طبقت أسس علوم الحساب الألكترونى فى التسجيل الاثرى قبل أن يولد علم الحساب الألكترونى ويسمى بهذا الاسم بوقت طويل ، غير أنه من جهة أخرى ليس من المؤكد أن لا تحدث صعوبات منهجية ، وخاصة اذا أخذنا فى الاعتبار الموارد المتواضعة نسبيا التى فى متناول أيدينا للحصول على المعلومات الاساسية الاولى . واذا عدنا مرة أخرى الى جدول المعلومات (شكل ١) فانه يصعب علينا أن نرى مانعا يحول دون توجيه أسئلة للحاسب الألكترونى لكى يتعرف لنا من مجموعة الآثار س ، ع، ف ، ٠٠ على القطع التى لها الخواص هـ ، و ، ز ٠٠ من جملة الخواص (أ، ب، ج ؛ ٠٠٠ ن) التى يشملها الوصف الاثرى ؛ اذ أن هذا هو أبسط مبدأ ، بل هو العمل اليومى ، للفرز الآلى ، أو بمعنى أصح لاسترداد المعلومات مهما كان نوع المعلومات المخزونة (أثرية ، خطية ، لفظية ، مكتبية ، الخ) ، ومهما كان نوع الآلات المستخدمة لذلك ، ابتداء من الفرز اليدوى الى أقوى الحاسبات الالكترونية . والعملية شائعة لدرجة لا نحتاج معها لأن نصفها بالتفصيل أو أن نورد هنا قائمة بكل الحالات التى استخدم من أجلها فى الأغراض الأركيولوجية ٠ وعلى أى حال فقيمة هذه القائمة ـ ويمكن للقارىء أن يجدها فى أى وقت فى المراجع الأثرية ـ ليست فى محتواها بقدر ماهى فى ايجازها . وبخلاف عمليات الحساب الالكترونى التى تهدف أساسا الى اجراء الاحصاء الحسابى بأوسع معنى لهذا الاصطلاح (مثل التوزيع ، والتصنيف،

والتنظيم التسلسلى ، الخ) فانه يجرى الآن العمل فى نحـو اثنى عشر مشروعا تتناول بصفة خاصة البحث التسجيلى بالمعنى الذى عرفناه به هنا . وفى تقديرى لا يرجع السبب فى الاحجام عن القيام بهذه المشروعات الى حداثتها ولا الى النفقات التى تتطلبها ، اذ أن تكاليف الحساب الآلى أصبحت الآن فى مقدور كثير من جماعات البحث الأثرى ، ولكنه يرجع أكثر مايرجع – الآن خاصة ، اذ قل كثيرا القيام بمثل هذه المشروعات – الى الحالة الواقعية لنظام العمل فى الحقـل الأثرى ، وعادات العمل القديمة التى ظل الأثريون يتبعونها قرونا دون أى تغيير حتى اليوم .

ففى المكان الاول يأتى نظام العمـل ، ففى تكوين بنك (١) المعلومات يفترض مقدما درجة معينة من الاتفاق بين المتخصصين بالنسبة لطبيعة المعلومات ، مثـل اختيار برنامج العمل الذى سيتبع فى حالة «الآثار» ، واختيار لغة الوصف فى حالة «الخواص» التى ستؤخذ فى الاعتبار (شكل ١) . وقد أمكن الوصول الى مثل هذا الاتفاق فى فروع كثيرة جـدا من العـلوم البحتة وحتى فى فروع العلوم الاجتماعية (انظر المراجع المذكورة فى الحاشية) ، لكن يبدو أن علم الآثار لايسمح بمثل هـذا الاتفـاق .

وفى المكان الثانى تأتى عادات العمل ، وهى فى الغالب التى اتبعها العلماء القدماء الذين ظلوا عدة سنوات يجمعون بصبر وأناة مجموعة لاحصر لهـا من المعلومات ، ويحفظون بتحمس شديد هذه المادة العلمية لنفوسهم فى مذكراتهم وملفاتهم حتى يحين الوقت الذى يمكنهم فيه طبعها ونشرها على نفقتهم الخاصة ، ومن هذا نرى أنه ليس ثمة شىء أبغض عند أمثـال هؤلاء الأثريين من مبدأ بنك المعلومات ، حيث تجرى عادة أعمال البحث والتحليل التسجيلى دون معرفة اسم صاحبها ، وتوكل رسميا الى معاهد (٢) لا الى أفراد خصـوصيين ، ومن ثم يمكن أن تصـل نتائج البحوث فى الحال الى الجمهور ، وأن « تنشر » فى بحوث الحاسب الألكترونى قبل أن يقوم العالم الاثرى بطبع بحوثه ونشرها .

---

(١) هذا هو الاسم الذى أعطى منذ مدة للملفات أكبر وأكفأ الحاسبات الالكترونية لكل من العلوم الاجتماعية (على سبيل المثال انظر

S. Rokkan (ed.), Data archives for the Social Sciences, Paris and The Hague, Mouton. 1966.

والعلوم الطبيعية (وعلى سبيل المثال أنظر –

R. Cole (ed.), Data Information Availability, Washington, by the Committee on Data for Science and Technology (CODATA), the International Council of Scientific Unions, Munich).

(٢) هـذه المعـاهد هى مراكز لتحليل المعلومات أو البيانات ، تعد وتجهز تجهيزا خاصا لكل نظام معين طبقا للاتفاقات الدولية :

UNISIST-Study Report on the Feasibility of a World Science Information System by the United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization and the International Council of Scientific Unions, final report by J.C. Gardin, paragraph 4.3.4, Paris, UNESCO, 1971.

ولهذا يجب أولا ان تتغير طرق الاحتراف الاثرى وأن تتغير العادات فى العمل الأركيولوجى تغيراً جذريا قبل أن يمكن استغلال علم الحساب الألكترونى استغلالا كاملا فى العلوم الأثرية لكى نريح علماء الآثار من العناء المتكرر الدائم الذى يقاسونه فى جمع المعلومات مايأخذ الآن معظم وقتهم . ومن الجلى أن مثل هذا التغيير قد يتعطل بسبب المعارضة التى يصر عليها علماء الآثار اللامعون تجاهه . على أنه من جهة أخرى يستحيل أن يعارضوه الى الأبد بسبب مايدعونه من الطبيعة «الخاصة» لعلمهم ، وسنرى قبل أن يمر عشرون عاما تكاثرا سريعا وعلى نطاق واسع للبنوك الدولية للمعلومات الأثرية ، مثل تلك التى بدأت تشق طريقها فى بعض الدول لتنظيم مجموعات المتاحف (مثل متحف المتروبوليتان بنيويورك ، ١٩٦٨) ، أو لحصر الآثار التاريخية (مثل الحصر الذى قامت به وزارة الثقافة فى فرنسا عام ١٩٧٠ ، ص ٥٣ — ٥٨) .

المحاكاة واثبات الصلاحية

حيث أن طرق محاكاة الحاسب الألكترونى قد عالجها جريمى فى مقال آخر فان أعالج فى مقالى هذا المبدأ الذى تعتمد عليه هذه الطرق (١) ، والطريقة العامة لمحاكاة فى علم الآثار هى الطريقة المتبعة فى علم الاجتماع ، وليس من الصعب أن نطبق على علم الآثار ماأوضحه جريمى بالنسبة لعلم الاجتماع . غير أنه لم تنشر حتى الآن أية بيانات عن أى حالة معينة حتى يمكن أن نتفهم منها طبيعة طرق المحاكاة التى تستخدم فى الآثار وفوائدها ، ومن ثم لايسعنا الا أن نوجه نظر القارىء هنا للرجوع الى بعض دراسات تبشر بالنجاح فى هذا السبيل (أنظر دوران) والى بعض التجارب التى أجريت على نماذج بيئية فى علم الاجتماع لكنها تدخل فى علم التطور الحضارى للسلالات البشرية أكثر مما تدخل فى علم الآثار بالمعنى الصحيح .

ومع ذلك فاننى أرى أنه من المفيد لنا فى هذا المقال أن نوسع دائرة دراسات المحاكاة حتى لاتقف عند المحاولات التى بذلت لوضع نماذج لتطبيقها على الحضارات القديمة فحسب ، بل لكى تشمل أيضا ماهو أهم من ذلك وهو الاحتيال لوضع نماذج لتطبيقها على طرق العمل الاثرية باعتبارها الظاهرة التى يراد محاكاتها مهما كانت البيانات المطلوبة لهذه العملية (سواء كانت أوصافا جسدية ، أو بيئية ، أو خاصة بالعمران الحضارى ، الخ) . وبهذا المعنى الواسع تكون كل الدراسات التى ذكرناها فى الفقرات السابقة فى هذا المقال دراسات محاكاة . والاستعاضة عن

---

(١) رجعت الى مقال جريمى المذكور
(ean-Paul Grémy, The Use of Computer Simulation Technique in Sociology).
ويمكن تلخيص تعريف المبدأ الذى تعتمد عليه طرق المحاكاة فى عمل نموذج مصغر للظاهرة التى يجرى بحثها ، وبذلك يجوز ان تجرى على هذا النموذج تجارب متنوعة يتعذر اجراؤها أثناء القيام باجراء التجربة الحقيقية نفسها (المترجم) .

الانسان بالآلة فى عمليات الاحصاء أو التصنيف أو التسجيل يمكن أن يقال فيهما انها قيام الآلة بمحاكاة الطريقة التى يفكر بها الانسان حينما يقوم بعد أو ترتيب أو تصنيف الآثار وخواصها ، وبهذا تتضح الأهمية الحقيقية لعملية المحاكاة التى نبه اليها جريمى ، وهى طريقة العمل التى تستلزم منا أن نكون قادرين بل تجعلنا حقا قادرين ، على أن نوضح توضيحا جوهريا بعض أسس المعرفة فى علم الآثار وغيره من العلوم ، فى حين أننا نعلم جيدا أنها لاتعتمد على غير أصول منطقية واهية ، ولو أننا عادة لانعير ذلك اهتماما ، ونأخذها قضية مسلمة . وبناء على ذلك فان عمل نماذج للدلالة اللفظية — بغرض اظهار درجة كفاية تعبيرات التمييز والمفاضلة المستخدمة فعلا فى لغة الأركيولوجيين ، لا فى التعريف المعنوى بل عمليا — هو من الوسائل الفعالة جدا لبيان عدم قدرة هذه اللغة لمقابلة الاحتياجات الأولية للتعبير عن الفكر العلمى . كما أن المبادىء والطرق المستخدمة هى مبادىء وطرق عادية . واذا كانت بعض الاصطلاحات الغامضة (مثل التحليل التركيبى ، التحليل شبه المنطقى ، الخ ، أنظر جاردان ١٩٦٥ ، ١٩٦٧) تستخدم أحيانا فان تطبيقاتها الحديثة على علم الآثار « بوريللو ١٩٧٠ وتاريخ الفن (لاجرانج) تبين بكيفية شديدة الوضوح البون الشاسع الذى يفصل بين أرسخ طرق التصنيف الأولية وبين أى تفسير نظرى يتطابق مع أبسط القواعد المنطقية العامة التى وجدت حتى قبل اصدار كتاب « منطق الباب الملكى » .

ومن البديهى أننا لانقصد من هذه المحاولة للتحليل والتشخيص أن نوجه النظر الى القصور أو الخلل فى تفكير الناس الآخرين ، ولكن قد تؤدى هذه المحاولة الى أن يسائل الأثريون أنفسهم بتمعن ، فيحاول كل منهم أن يوضح بقدر استطاعته ماهى البيانات التى يعمل بها ، وماهو الغرض من بحثه ، وماهى الفروض التى يعتمد عليها فى تعليله وتفكيره ، وماهو الاسلوب المنطقى الذى اتبعه ، وهكذا (انظر الأمثلة المبينة فى جاردان وجاريللى ، وهيل) . وعندما يفعل الأثرى هذا فانه لايعدو أن يعود الى الطريق الذى بدأ منه واتبعه كل العلماء الآخرين ، وليس ثمة ضرر فى توجيه الأثرى الى الطريق الصحيح بفضل علم الحساب الألكترونى ، وتشمل «النظرة الجديدة» التى انفتحت أمامه أولا التفكير المنطقى (بينفورد ، ص ١٦ — ٢٧)، وتشمل ثانيا الأسلوب التكنولوجى للحساب الالكترونى . ويمكننا بسهولة اختبار صدق هذه النظرة ، اذا اقتضى الامر ، بفحص النتائج التى نحصل عليها من الحاسب الالكترونى بعين ناقدة ، وحيثما يستخدم الحاسب الالكترونى ليس ثمة دليل على أن هذه النتائج لها أى دلالة بالنسبة للمعرفة الأثرية ، اذ أن الطبيعة «الموضوعية» لطريقة العمل التى اتبعت للوصول الى هذه النتائج لاتضمن صلاحيتها أو نفعها العلمى .

وقد يبدو أيضا أن هذا القول بديهى غنى عن البيان ولايرتبط ارتباطا مباشرا بطرق المحاكاة . وليس ثمة ماهو أصدق من القول بأن عمليتى الموضوعية والتنسيق الملازمتين للفكرة الأساسية «للنموذج» غير مفيدتين الا اذا كان لدينا دليل على مفعولية

النموذج فى تفهم حقائق أولية جديدة ، وأقل مايمكن قوله هو أن مثل هذه الدلائل غير شائعة فى البحوث الأثرية ولا حتى فى بحوث العلوم الاساسية التى تناقش الحساب الآلى والحاسب الالكترونى . ولنأخذ مثلا مجموعة من أشياء يبلغ عددها س ، فاذا حاولنا تصنيفها باستخدام نظام غير محدد المواصفات فانه يمكن أن نميز فى هذه المجموعة عددا من الانواع يختص كل منها بملامح معينة مميزة (خواص ، صفات ، الخ) . ولاثبات صلاحية هذه النتيجة وشرعيتها لايتحتم علينا أن نكتفى أن نوضحها بتفسير تاريخى أو أثنولوجى لهذه الأنواع (مثل تناسب الفروقات بينها، مع اختلافها فى التاريخ ، أو النشأة ، أو الوظيفة الرمزية لها ، أو بدنى ، الخ) ، بل يجب علينا مع هذا أيضا أن نبين أن التوصيف (أو الصيغة) المعطى لها صحيح باحدى الكيفيتين الآتيتين أو بكلتيهما :

أ ـ اذا أخذت قطعة ما ، ولتكن (س + ١) ، تنتمى الى المجال الذى فرض أن المجموعة تمثله (مثل الخزف الاسلامى من عصر ما قبل المغول) ، فان النموذج يجعل فى الامكان أن نحسب النوع الذى تقع هذه القطعة فيه (مثل النوع العراقى ، أو النوع السامانى ، أو النوع المزجج غير المحروق) ، ووضعها هذا الذى حسب عن طريق النموذج تثبته الحقائق الأولية الثابتة .

ب ـ انه يمكن بالاستعانة بالنموذج تخليق قطعة س + ١ تخليقا « صناعيا » مطابقا تماما لأوصاف أحد هذه الانواع بحيث لايكون فى وسع الاخصائيين ان يميزوها من القطع «الطبيعية» التى تنتمى الى النوع الذى هى منه .

اذن لدينا هنا أسلوبان للاختبار ـ مثل الاختبارات النمطية فى العلوم التجريبية ـ لاتستعمل فيهما اى معادلات أو نظريات موضوعة الا اذا كان يمكن حقيقة استخدامها فى التنبؤ او التعرف أو التشخيص الخ . تحليليا (الحالة ١ المذكورة أعلاه) ، أو فى التخليق أو التكرار أو المحاكاة الخ . صناعيا (الحالة ب) . فالنظريات فى علم الآثار أو تاريخ الفن غير قابلة للتنفيذ بالمقارنة بالعلوم التجريبية، مادام مجرد التخاطب بين الاخصائيين ، حتى اذا صيغ صياغة شكلية ، لايفى بصفة عامة لنشر علم لايزال الجزء الجوهرى منه ينقل أو يكتسب عن طريق الرؤية، سواء اعتمدت طريقة الاختبار على كفاءة تشخيص الاخصائيين وقوة تعبيرهم (الاختبار ١) أو على مهارة التقليد فى المحاكاة (الاختبار ب) .

وبالرغم من أن هذه المناقشة الاخيرة قد تكون مفاجأة غير متوقعة أو صدمة

للقارىء فانه يمكن اثبات صحتها بعمل تجارب متنوعة قليلة التكاليف مما يطرأ في الحال على العقل . على أن قيمتها — كنوع من التحدى والمناهضة ، من وجهة النظر المنهجية فقط (أى باستبعاد الاستدلالات الاجتماعية أو القانونية التى لها مثل أهميتها) — تتعدى أيضا سياق التحدث عن الآثار ، فطرق العمل التى شرحناها فى هذه الدراسة ليست ذات قيمة تذكر الا اذا أمكن تأييدها باختبارات صلاحية من النوع الذى أشرنا اليه هنا بحيث تتفق وتتناسب مع ميدان البحث الذى يراد دراسته ، مثل التحليل الاستعلامى ، والتحليل التخيلى ، الخ (انظر جاردان ١٩٦٧ ، ١٩٦٩) . ولاشك أن البساطة النسبية للنماذج المقترحة هى مما يمكن القارىء من أن يثبت صلاحيتها بنفسه ، اذا استلزم الامر ، باختبارات تشخيصية أو اختبارات محاكاة ، وهى اختبارات سهلة التصميم فى علم الاجتماع أو علم الأساطير ، بقدر ماهى صعبة التصميم فى علم الآثار .



ان التعرف على التغيرات السكانية فى المستقبل هو من الأمور الحيوية لأى دولة من الدول مقدمة على التخطيط لعملية تنمية اقتصادية ، وسواء أرادت الدولة أو لم ترد أن تتبنى سياسة سكانية (تتمثل فى اتخاذ اجراءات لتشجيع النسل والهجرة أو عدم تشجيعهما) فان عليها :

ا ــ ان تتنبأ بالتغيرات السكانية فى المستقبل (سواء حجم السكان بصفة عامة أو حجم الذين ينتمون للفئات المختلفة ، كعدد الذين سيدخلون المدارس والجامعات ، وعدد الموجودين فى قوة العمل) ٠

(ب) أن تضمن الاستخدام الكامل للمستويات المختلفة لقوة العمل التى يظهرها هذا التنبؤ ، سواء كان ذلك لدوافع اقتصادية (انتاج) أو لدوافع اجتماعية (تمكين كل فرد فى سن العمل من كسب عيشه ، أو اعالة عائلته) ٠

والاستخدام الكامل يجب أن يكون من الناحيتين الكمية والنوعية ٠ والناحية الكمية تتمثل فى تحقيق التشغيل الكامل ، والناحية النوعية تتمثل فى تحقيق أقصى كفاءة انتاجية ممكنة ٠

ودراسة المتغيرات السكانية وتنظيمها أمر ضرورى ، حتى بالنسبة للدول التى لا تهدف الى احداث تغيرات كمية فى السكان ، اذ لا تضمن هذه الدول استمرار المعدل السائد للنمو السكانى ، وتتجاهل الآثار الاقتصادية لأى معدل أعلى أو أقل .

بقلم : ألفريد سوفيه

بعد أن تقلد عددا من المناصب الحكومية أسس المركز القومى للدراسات الديموجرافية عام ١٩٤٥ . وكان أستاذا بالكلية الفرنسية من ١٩٥٩ الى ١٩٦٩ . ومن مؤلفاته : النظرية العامة للسكان ، الرأى العام ، حدود الحياة البشرية ، الانفجار السكانى ، مالتوس والاقتصاد الماركسى ، التاريخ الاقتصادى لفرنسا بين الحربين العالميتين ، ثورة الشباب .

ترجمة : الدكتور محمد خليل برعى

مدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة

ولا يشترط لتنظيم السكان اتخاذ اجراءات صريحة لتنظيم النسل والهجرة ، اذ أنه يمكن التأثير عليها عن طريق التشريعات الخاصة بالضرائب والاعانات الاجتماعية وقوانين الزواج ، الخ . ومن هنا تبدو أهمية التعرف على كيفية تأثير الظروف الديموجرافية على التنمية .

وسوف نفترض هنا ، للتبسيط ، أن الهدف العام (التنمية الاقتصادية) انما يتمثل فى تحقيق أعلى مستوى لنصيب الفرد من الناتج القومى أو الدخل القومى . وعلى الرغم من أنه يمكن ادخال الكثير من الاعتبارات هنا فان هذه الاعتبارات قد تؤدى الى تعقيدات لا داعى لها .

وسنقوم هنا بترتيب الموضوعات التى تدخل فى هذا البحث كما يلى :

أولا : العلاقة العامة التى تربط بين الظروف الديموجرافية والتنمية الاقتصادية فى بلد معين .

ثانيا : تبنى أهداف السياسة السكانية . تطبيق السياسة العامة على البلد موضوع الدراسة ، التنبؤات السكانية فى ظل غياب معايير خاصة بالأهداف الاقتصادية ؛ التناقضات المحتملة ، والتوفيق بينها ، تبنى الأهداف الخاصة بالسياسة السكانية .

ثالثا : وسائل تحقيق هذه الأهداف · تبنى سياسة سكانية وتعديل التنبؤات السـكانية ·

رابعا : الحصر العام للموارد البشرية كقوة انتاج ، التوزيع الجغرافى ، القدرات المهنية ، القدرة على الانتاج ·

خامسا : عمل نموذج للمحاسبة القومية : معادلة عمل ــ انتاج ·

سادسا : موازنة اقتصادية ومالية مبدائية : الموارد الكلية المتاحة للاستثمار ؛ الاستثمارات الديموجرافية ، العلاقة بين الاستثمار والانتاج والتشغيل ، الاختيار بين هذين الهدفين ·

سابعا : الزراعة أو الصناعة ، الريف والحضر : اذا لم يكونا متطابقين فان هاتين المشكلتين تكونان مرتبطتين من أكثر من ناحية ، استغلال الأراضى ، حماية الموارد الطبيعية ·

ثامنا : السياسة العامة للتعليم والتدريب ·

تاسعا : السياسة الصحية والاجتماعية ·

عاشرا : العودة الى الموازنة العامة ، تعديلات ونتائج ·

وتحت كل موضوع من هذه الموضوعات سوف نلخص الاختيارات المختلفة التى يجب أن نأخذها فى الاعتبار ، وهذا بالطبع دون تقديم أى حلول معينة حيث ان ذلك يتوقف على الظروف الموجودة لكل حالة · وسوف نحاول ، على كل حال ، أن نشير الى أنواع البيانات التى يمكن استخدامها أساسا لاتخاذ القرارات ·

العلاقة العـامة
بين الظروف الديموجرافية والتنمية الاقتصادية

مما لا شك فيه أن تعرضنا للتنمية الاقتصادية وما تهدف اليه من اتاحة أكبر قدر من الموارد للفرد فى المتوسط يجعلنا نتعرض لفكرة الحجم الأمثل للسكان أو المعدل الأمثل للنمو السكانى ·

الحجم الأمثل الاستاتيكى للسكان

ويقصد بالحجم الأمثل للسكان وجود ذلك العدد الذى يعد مثاليا من الناحية الاقتصادية بالنسبة لمنطقة معينة · وهو حجم يتوسط حالتين ؛ كل منهما ذات تأثير عكسى على مستوى المعيشة ، وهما حالة قلة السكان وحالة اكتظاظ السكان ·

وهذا الاسلوب الاستاتيكى ، على الرغم من شيوعه ، غير ذى قيمة من الناحية العملية ؛ وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ لا يوجد فى مجتمعاتنا الآن شيء يسمى المجتمع الاستاتيكى ، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الديموجرافية ٠

٢ ـ ان حساب الحجم الأمثل للسكان لأى مجتمع من المجتمعات بطريقة علمية ليس من الأمور المتيسرة ، وذلك لأن هذا الحجم يتوقف على الظروف الفنية السائدة ، وبالتالى يتغير مع تطور المجتمع ٠

٣ ـ حتى اذا أمكن حساب الحجم الأمثل للسكان بطريقة تقريبية فاننا سنواجه بأحد احتمالين :

أ ـ أما أن يكون الحجم الأمثل المحسوب أصغر من الحجم الفعلى للسكان ، وهنا قد يبدو أن الحل يتمثل فى تنقيص عدد السكان ٠ وهذا يؤدى ، كما سنرى ؛ الى العديد من المشاكل الفنية والسياسية غير المناسبة ٠

ب ـ واما أن يكون الحجم الأمثل المحسوب أكبر من الحجم الفعلى ، وهنا لن يكون لحسابنا أهمية تذكر ، اذ سنكون بذلك قد حددنا هدفا غير مرتبط بتوقيت معين ٠ وفى كلتا الحالتين نواجه مشكلة تحديد اتجاه التغير المطلوب فى معدل الزيادة السكانية دون أن نكون قد حددنا مقدار هذا التغير ٠

وهناك حالة من الحالات يكون فيها التعرف على الحجم الأمثل للسكان ذا قيمة ، فالأمة أو الحكومة المثقلة بالالتزامات المالية تحتاج الى حجم كبير للسكان ـ مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها ـ اذ أن ذلك سيؤدى الى توزيع الأعباء على عدد أكبر من السكان ٠ ولكن يجب أن نميز هنا بين الالتزامات الداخلية والالتزامات الخارجية ، وبين التزامات الأمة والالتزامات الحكومية ٠ وهذا معناه وجود أربع حالات :

حالة الالتزامات الخارجية للحكومة : وهذه الحالة أكثر الحالات تطرفا ، اذ أن الزيادة فى السكان تكون موافقة بالنسبة لتوزيع عبء الالتزام المالى ، مع أنها تكون احدى دواعى الافقار للأمة ٠

حالة الالتزامات الخارجية للأمة (وتتمثل فى القروض الخارجية الخاصة) : فى هذه الحالة لا تتأثر الميزانية المحلية للحكومة ، ولكن ذلك يتطلب الحصول على المزيد من العملات الأجنبية ؛ والاستنتاج فى هـذه الحالة أقل وضوحا من الحـالة السابقة ، ولكن يبدو أنه يكون فى الاتجاه نفسه ٠

حالة الالتزامات الداخلية للحكومة : وحيث ان هذه الالتزامات هى من قبيل التحويلات الداخلية فقد يبدو أن عنصر السكان غير ذى أهمية ، الا أن الصعوبات التى تواجهها الحكومات دائما بالنسبة لتمويل الاستثمارات تجعلنا نميل الى اعتقاد أن الالتزامات ستكون أخف اذا زاد عدد السكان (لأن عبء الضريبة على الفرد سيكون أقل) ، ويبدو ذلك واضحا أيضا فى حالة النفقات العسكرية الكبيرة ٠

حالة الالتزامات الداخلية الخاصة : يلاحظ انه فى حالة الديون المستحقة من فرد الى آخـر لا يكون لعنصر السكان أى تأثير ؛ أما فى حالة المؤسسـات وخاصة الشركات الكبيرة فان الزيادة فى السكان قد تكون مرغوبا فيها ٠

الكثافة السكانية

اذا كان اهتمامنا منصبا على الكثافة السكانية المتوسطة بالنسبة للدولة ككل فان فكرة الكثافة السكانية المثلى تكون متطابقة مع فكرة الحجم الأمثل للسكان ٠ ولكن يلاحظ بصفة عامة أن توزيع السكان جغرافيا فى داخل أى بلد من البلدان لا يكون متساويا بنسبة واحدة فى المناطق المختلفة (على الأقل بالنسبة لتوزيع السكان حسب الريف والحضر) ٠

ففى المناطق الزراعية نجد ان الكثافة السكانية يحددها بصفة أساسية نوع التربة والفن الانتاجى المستخدم ٠ كما يوجد عاملان آخران يزداد تأثيرهما مع المضى فى عملية التنمية ومع مرور الوقت ، وهذان العاملان هما : (أ) الخدمات التعليمية ، (ب) والخدمات الصحية والاجتماعية ٠

معدل النمو السكانى

ان فكرة معدل النمو السكانى أكثر واقعية من الناحية التطبيقية ٠ ويمكن ان نناقش هذه الفكرة هكذا : هل النمو ـ سواء كان مقصودا أو غير مقصود ـ يعد مفيدا ؟ وان كان كذلك فبأى معدل ؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال يجب الاشارة الى نقطة هامة ؛ وهى أن النقص فى السكان ، أو حتى فى معدل نمو السكان ، يعد دائما مفيدا من الناحية الاقتصادية فى الأجل القصير ، وذلك بسبب تأثيره على صغار السن ، وهى فئة من السكان تستهلك ولا تنتج (١) ٠

فلمدة من الزمن قد تصل الى ١٥ سنة ستكون الحاجة أقل للمدارس والمستشفيات والمساكن وغير ذلك ، وذلك بسبب قلة عدد الأطفال الذين سيكبرون ٠ وبذلك سوف يتأثر الادخار الخاص والعام بحيث يمكن استخدامه فى أغراض أخرى وبصفة خاصة للاسراع بعملية التنمية الاقتصادية ٠

ومثل هذا الكسب من الضرورى أخذه فى الحسبان ، الا انه من الضرورى أيضا أن ننظر الى ما هو أبعد من ذلك ، حيث ان تربية الأطفال هى فى الحقيقة استثمار طويل الأجل ، وحتى نتغلب على هذه الصعوبة فاننا نحتاج الى أن نأخذ نموذجا نظريا ، ونجرى حساباتنا على أساس توزيع ثابت للسكان ، بمعنى أنهم سكان يتزايدون أو يتناقصون كل عام بنسبة واحدة لجميع فئات العمر ؛ وبذلك نستبعد الآثار القصيرة الأجل ، سواء كانت موافقة أو غير موافقة ٠

والنموذج الآتى هو أبسط نموذج يمكن أن يخدم هذا الغرض :

اذا كانت « ر » تشير الى الدخل القومى ، وكانت « ا » تشير الى كمية

---

(١) نحن نهمل امكان أن يكون التغير راجعا لانخفاض معدل الوفيات ٠

الاستثمارات التى تمت خلال السنة ، و « ت » معامل الدخل الى رأس المال (٢) ؛
فان الزيادة فى الدخل تصبح Δ ر = ١ × ت
فان الزيادة فى الدخل تصبح $\frac{\Delta ر}{ر}$ = ١ × ت

ومن ذلك يتضح أن الزيادة فى الدخل القومى انما تتوقف على حجم الاستثمار من ناحية ، وعلى معامل الدخل الى رأس المال من ناحية أخرى .

فاذا كان السكان فى حالة تزايد فيجب أن يكون – بالاضافة الى الاستثمار الاقتصادى اللازم لرفع الانتاجية ، وبالتالى لرفع مستوى المعيشة – استثمارا ديموجرافيا ، وذلك للابقاء على مستوى المعيشة . وهذا يتطلب المزيد من المساكن والمصانع والأراضى ، فاذا كانت الدولة تمتلك كمية معينة من الأموال والممتلكات ، سواء على شكل أموال انتاج أو استهلاك ، فان المزيد من الأموال يجب أن يوفر لمقابلة الزيادة فى السكان حتى نتجنب الافقار المادى . فاذا كان هذا الاستثمار الديموجرافى يتم على حساب الاستثمار الاقتصادى فان ذلك سوف يخفض من معدل التنمية . واذا كان يتم بالاضافة الى الاستثمار الاقتصادى القائم فان ذلك يتطلب المزيد من الجهد القومى .

وفى حالة التوزيع الثابت للسكان فان التقديرات تدل على أن الزيادة فى الاستثمار بالنسبة للفرد الواحد فى المتوسط اللازمة لمقابلة زيادة فى السكان قدرها $\frac{R}{100}$ ، يمكن التعبير عنها بالمعادلة الآتية :

$$\frac{J}{P} = K \frac{r}{100} \cdot \frac{e^{ar}}{e^{ar}-1}$$

حيث A و K معاملات يحددها على التوالى فترة استهلاك رأس المال (A) وحجم الاستثمار الأساسى (K) .

ويجب أن يضاف الى هذا الاستثمار المادى ذلك الانفاق اللازم لرعاية الطفل وتعليمه ، وان كان من الممكن أن نتصور – فى حالة المجتمع ذات التوزيع الثابت – أن مثل هذه النفقات سيعوضها – بالتقريب – النقص فى مدفوعات الاعانة الاجتماعية .

فاذا ما نظرنا الى الأمور من هذه الزاوية فقد يبدو لنا أن الزيادة فى السكان بصفة عامة معوقة للتنمية الاقتصادية .

ولكن هذا لم يثبت بالتجربة العملية . فعلى سبيل المثال نجد أن معامل الارتباط بين الزيادة فى السكان وبين الزيادة فى الناتج القومى الاجمالى للفرد ، خلال الفترة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٨ ؛ يظهر عكس ذلك .

---

(١) اذا كان استثمار قدره ١٠٠٠٠٠ مليون يؤدى الى زيادة فى الدخل القومى قدرها ٣٠٠٠٠ مليون فان معامل الدخل لرأس المال يكون ٣٠٪ ، وهذا المعامل هو مقلوب معامل رأس المال .

ففى حالة ثمانى عشرة دولة متقدمة أظهر معامل الارتباط قيمة سالبة صغيرة ، وهذا يتفق مع النظرية التى نناقشها ، ولكن اذا استبعدنا الدول الثلاث التى يزيد فيهـا معدل النمو السـكانى عن ٢ر١٪ سنويا فان معامل الارتباط يصبح ذا قيمة مرتفعة موجبة ٠

وفى حالة ثلاث وثلاثين دولة متخلفة نسبيا كان معامل الارتباط + ١١ر٠ ، وهذا المعامل : وان كان غير معنوى ، يعتبر عكس نظريتنا ، التى تبين ضرورة وجود ارتباط عكسى قوى ٠

ومن هذه الدراسة الوجيزة للسؤال الذى سبق اثارته ، ومن دراسات أخرى أكثر تفصيلا ، يمكن أن نصل الى النتائج الآتية :

١ ـ ان المزايا الاقتصادية للزيادة السكانية تبدو أقل وضـوحا من أعبائها . حتى فى النماذج النظرية ٠

٢ ـ هذه المزايا الاقتصادية تنبع بصفة جزئية من عوامل اقتصادية (توزيع الأعباء على عدد أكبر من السكان ، احتمالات الانتاج الكبير ، التغير فى الهيكل الوظيفى والجغرافى) ، كما تنبع أيضا من عوامل اجتماعية أقل قابلية للقياس ؛ وان كانت أكثر أهمية ٠

٣ ـ اذا كان السكان يتزايدون بمعدل متزايد فان المزايا الناشئة عن زيادة السكان تنمو بمعدل أقل من الزيادة فى الأعباء ٠ وهذا يقودنا الى فكرة المعدل الأمثل للزيادة السكانية ٠

وهذا المعدل الأمثل للنمو السكانى يعتمد على خصائص الدولة ، وبصفة خاصة على درجة تقدمها أو نموها ، وعلى كمية الموارد الطبيعية غير المستغلة ، وعلى الظروف الاجتماعية والسياسية ، وهكذا ٠

ففى حالة دول أوربا الغربية نجد أن معدل النمو الأمثل للسكان يمكن أن يكون أقل قليلا من ١٪ ، وهذا الرقم تقريبى ٠ وحتى اذا أمكننا أن نقيس معدل النمـو الأمثـل بدقة كاملة فانه لن يكون العامل الوحيد المؤثر ، اذ يجب أن نأخـذ فى الحسبان الآثار الثانوية المتراكمة ، وبصفة خاصة بالنسبة لمضاعفاتها على التكوين العمرى للسكان ٠

اختيار الأهداف
للسياسة السكانية

يجب أولا القيام بعملية تنبؤ لديموجرافية البلد موضوع الدراسة ٠ ويمكن فى هذا الصدد الاستعانة بصفة مبدئية بالحسابات التى قامت بها الأمم المتحدة ٠ واذا اسـتعرضنا المبادىء الأسـاسية التى يجب مراعاتها عند القيام بالتنبؤ ، وذلك

دون الدخول فى تفصيلاتها (١) ، فانه يمكن ايجازها فيما يلى :

ا ـ ان النتائج التى نحصل عليها تعتمد بصفة مبدئية على الفروض التى وضعت ·

ب ـ يجب أن لا يكون هناك مفاضلة فى اختيار الفروض ، اذ أن الهدف الرئيسى فى هذه المرحلة يكون مجرد التعرف على الاتجاهات العامة السائدة ·

جـ ـ اتجاهات المواليد هى المجهول الرئيسى (بغض النظر عن الهجرة ؛ التى تستبعد من الحسابات بصفة عامة) ·

د ـ يجب أن يكون التنبؤ بمدى ، بمعنى وضع حدود عليا ودنيا للقيم المتنبأ بها ، مع مراعاة أن لا يكون هذا المدى على درجة كبيرة من الاتساع ·

بعد أن نحصل على تقديرات للمتغيرات الديموجرافية فى المستقبل يجب مقارنة هذه التقديرات بالأهداف الموضوعة للتنمية · فان أظهرت نتيجة هذه المقارنة أن مستويات الاستثمار الديموجرافى ستنخفض دل ذلك على أن السكان يتزايدون بمعدل أكبر مما يجب ، وبالتالى يجب وقف الزيادة السكانية أو على الأقل تخفيض معدل الاحلال الصافى الى ١ ·

وعلى كل حال فان هذا الاسلوب يتسم بالصرامة ، اذ أن أى حسابات منطقية فى هذا المجال قد تقودنا الى نظرة تشاؤمية لا داعى لها ، ويبدو ذلك من كل التنبؤات التى قام بها الخبراء حتى الآن ، بما فى ذلك تنبؤات خبراء هيئة الأمم سنة ١٩٥١ ، اذ اتضح أنها جميعها قد جانبها الصواب ·

واذا ما استخدمنا المعادلة التقليدية $\frac{\Delta ر}{ر} = \frac{١}{ر} \times ت$ فاننا نلاحظ أنه فى ظل وجود معامل (دخل ـ الرأسمال) قيمته ٣٠٪ ، يكون معدل استثمار قدره ١٥٪ ، وهذا من شأنه أن يؤدى الى زيادة فى الدخل القومى قدرها ٥٪ سنويا · ولكن اذا كان هناك زيادة فى السكان قدرها ١٪ فيجب أن نختار قيمة أعلى للمقدار ت (وليكن ٤٠٪ مثلا) حتى يمكن تحقيق الميزة المذكورة · وفى حقيقة الأمر لا يوجد لدينا معادلة صحيحة تماما يمكن أن تأخذ فى الحسبان كلا من الزيادة فى السكان والعوامل الاجتماعية المختلفة المصاحبة لها فى الوقت نفسه ·

فاذا كان الأمر كذلك فما هى النتائج التى يمكن أن نخرج بها من هذه المقارنة ؟

أولا : اذا كان السكان يتزايدون بمعدل أعلى مما يجب فان هذا يعتبر معوقا للتنمية الاقتصادية ، حتى لو أخذنا فى الاعتبار الآثار الطويلة الأجل التى يمكن أن تنشأ عن الزيادة فى السكان بعد فترة الخمس عشرة سنة التى سبقت الاشارة اليها وفى هذه الحالة سيكون هناك تعارض بين عوامل ثلاثة هى : معدل التنمية المستهدف، ونسبة الاستثمار ، ومعدل النمو السكانى · والسؤال الذى يجب اثارته هنا هو : أى هذه العوامل يمكن تعديله ؟ والحلول الثلاثة التى يمكن وضعها هى :

(١) انظر R Pressat, L'Analyse Démocraphique, pp. 225-78.

ا ـ تخفيض الأهداف الاقتصادية المستهدفة ٠

ب ـ زيادة معدل الاستثمار ، وبالتالى الحد من الاستهلاك ٠

ج ـ تخفيض معدل النمو السكانى ٠ واتخاذ القرار بشأن أى من هذه الحلول لا يمكن البت فيه بحرية مطلقة ، اذ ان هناك حدا لا يمكن أن نتعداه بالنسبة لتخفيض معدل الزيادة السكانية ، كما أن هناك حدا لا يمكن أن نتعداه بالنسبة لزيادة معدل الاستثمار ٠

ثانيا : أما اذا كان السكان يتزايدون بمعدل أقل مما يجب ففى هذه الحالة يتوقف حل المشكلة على طبيعة الأهداف الاقتصادية من حيث آجالها ٠ فاذا كانت أهدافا قصيرة الأجل (من أربع سنوات الى ست سنوات) فيمكن الاعتماد على الهجرة لزيادة السكان مع تخفيض الأهداف الاقتصادية ٠ أما اذا كانت أهدافا طويلة الأجل فيجب أن يؤخذ فى الاعتبار الأعباء التى يمكن أن تنشأ لعدة سنوات نتيجة لزيادة معدل السكان ٠

السياسة السكانية

ما ان يتم اختيار أهداف السياسة السكانية حتى يتحتم تحديد الوسائل التى يمكن استخدامها لتحقيق هذه الأهداف ٠ وسوف نركز هنا على مشكلة النمو السكانى المفرط فى السرعة ، حيث ان المشكلة الأخرى (النمو السكانى المفرط فى البطء) أقل شيوعا فى عالم اليوم ٠

النمو السكانى المفرط فى السرعة

على الرغم مما قيل فى الآونة الأخيرة فانه يجب علينا أن نقرر فى البداية أنه لا يوجد أى أمل ، مهما كان ، لاحداث توقف فجائى للنمو السكانى حتى فى الدول المتقدمة ٠ اذ أن مثل هذا التوقف الفجائى فى النمو السكانى لا يعتبر صعب التحقيق فحسب ، بل سيترتب عليه تغيرات خطيرة فى الهيكل العمرى للسكان وفى الصفات الديموجرافية المرتبطة به (معدل المواليد ، معدل الوفيات ، عدد الموجودين فى المدارس والجامعات . قوة العمل) ، وذلك لفترة من الزمن قد تمتد لقرنين أو ثلاثة قرون ٠

فمن النادر فى هذه الأيام أن نجد دولة نامية ذات معدل مواليد قريب من ٤٥ فى الألف ، ومعدل وفيات يتناقص من ١٥ الى ١٢ فى الألف خلال سنوات قليلة، تستطيع أن تتبنى سياسة لتخفيض معدل نمو السكان الى ٢٪ أو ١٪ سنويا ، اذ أن ذلك يعنى تخفيض معدل المواليد الى ٣٢ أو ٢٢ فى الألف ٠

ولسوء الحظ لا يوجد أى قانون يحكم العلاقة ـ ولو بصورة تقريبية ـ بين جهد معين والنتيجة المتوقعة من هذا الجهد ٠ فنجد مثلا أن فورموزا وبرتوريكو

تنهران نموذجا مختلفا . فمن الناحية العملية تتبنى الحكومات كثيرا من الاجراءات التى ترى أنها مناسبة وممكنة بالنسبة لمواردها البشرية والمالية ، فتقوم بتحديد معدل مستهدف للمواليد يكون نتيجة لعمل تخمينى يشسوبه الكثير من التفاؤل ، وهذا بالطبع ليس مجالا يمكن فيه للتفاؤل أن يؤتى ثماره ، ومن الأفضل للحكومات أن تواجه الحقائق بصراحة .

وسوف نستعرض هنا بعض الملاحظات على الأساليب الفنية لتحديد النسل والطرق التى يمكن اتباعها دون الدخول فى وصف تفصيلى لمثل هذه الأساليب .

اختيار مبدئى

هذا الأختيار خاص بتبنى فكرة الاجهاض أو رفضها . فالاجهاض يعتبر بالنسبة للمجتمعات المتخلفة - وحتى بالنسبة للمجتمعات المتقدمة - أكثر الوسائل فاعلية . فمن السهل القول (نعم) مرة واحدة عن القول (لا) فى كل يوم ، كما هو الحال بالنسبة لوسائل منع الحمل الأخرى (باستثناء اللولب) . وحيث ان الأسباب التى تسمح أو تمنع فكرة الاجهاض فى مجتمع ما تكون عادة ذات صبغة أخلاقية

ملاحظات خاصة بوسائل منع الحمل

يلاحظ أن الحد الأدنى لتكلفة منع الحمل اللازمة لمنع ميلاد طفل يقارن عادة بالتكلفة الكبيرة اللازمة لتربيته وتعليمه . والفرق بين التكلفتين فرق شاسع ، ولكن المقارنة بينهما لا قيمة لها . ففى البداية ، وحتى يمكن أن نكون حكما نستطيع من خلاله الوصول الى نتائج عملية ، يجب أن نقيم وسيلة منع الحمل موضع التساؤل ، ونحدد فاعليتها . فاذا كانت هذه الوسيلة غير فعالة على وجه الاطلاق - وهذه حالة متطرفة - فان قوة المقارنة تصبح عكسية ، فمن الناحية المالية نجد أن سياسة تنظيم الأسرة تخضع لقانون الغلة ، بل لقانون تلاشى الغلة . ثم ان مثل هذا الاسلوب فى المقارنة ، اذا أخذ من الناحية المنطقية البحتة ، سوف يؤدى بنا الى فكرة منع الانجاب نهائيا ، حيث انه يتجاهل ما يمكن أن يسهم به الطفل فى المجتمع بعد تدريبه ، وعلى ذلك فان مثل هذه الحسابات لا تصبح سليمة الا فى حدود معينة .

كما يلاحظ انه بالنسبة للطبقات الفقيرة للمجتمع ، التى يعانى فيها الزوجان من سوء المسكن ومن الجهل ، يعتبر اللولب (الذى يوضع داخل الرحم) أفضل من حبوب منع الحمل ، وذلك لأنه بمجرد أن يوضع لن يحتاج الى أى جهد اضافى أو أى مصاريف أخرى يتحملها الزوجان . ولكن يجب أن نقلل الى أدنى حد ممكن من المخاطر التى قد تنشأ عن الالتهابات التى قد يسببها ، أو عن عدم نجاحه ، وذلك عن طريق الاشراف الطبى . فاذا لم يتوافر العدد الكافى من الموارد الطبية ومن الأشخاص المدربين فقد يكون من الأفضل قصر الدعاية على منطقة جغرافية محدودة ،

وعدم المخاطرة باستخدام الاعلام فى ذلك على نطاق واسع ، اذ أن أى فشل فى نتائج هذا الاسلوب قد يؤدى الى تحطيم الفكرة لسنوات عديدة ٠

ولئن كان من الأفضل ـ من الناحية المنطقية والانسانية ـ التركيز بصفة مبدئية على الطبقات الفقيرة فى المجتمع ، فانه يلاحظ من ناحية عدد المواليد أن مثل هذه الحملات الاعلامية تكون ذات تأثير أقل ، حيث ان الحملات الاعلامية التى توجه الى الطبقات المتوسطة يكون لها فرصة أكبر فى النجاح ، بالاضافة الى أن نتائجها سوف تمتد الى الطبقات الأدنى عن طريق المحاكاة والنصائح الشخصية ، التى تكون أكثر اقناعا من الدعاية الرسمية ٠

أما فى الحالات التى تتعارض فيها الاخلاقيات مع الفاعلية فان الاختيار يصبح بصفة أساسية اختيارا سياسيا ٠

ان الرغبة فى العمل على نجاح سياسة تنظيم النسل كثيرا ما تدفع القائمين بها الى فرض عقوبة ـ مالية أو غير مالية ـ على العائلات التى تزيد عن حجم معين ٠ وبذلك نصبح هذه السياسة وسيلة للحصول على ايرادات بدلا من أن تكون سببا فى تحمل نفقات ٠ وهنا قد يظهر تعارض خطير بين فاعلية الوسيلة وبين مدى ملاءمتها للأخلاقيات ٠ اذ انه من غير المقبول أن نعاقب الأطفال لمجرد انهم ولدوا ، وليس الأمر كذلك فحسب ، بل ان هذه السياسة يمتد فيها العقاب ليشمل الكبار أيضا ٠ وعلى كل حال فان فاعلية هذا الاسلوب هى موضع تساؤل ، وبصفة خاصة بالنسبة للعائلات الفقيرة ، هذا بالاضافة الى انه قد ينشأ عنه مضاعفات سيئة على الصحة بحيث تفوق فى آثارها أى مزايا له ٠

كما يعاب على الحملات الاعلامية الخاصة بتنظيم النسل أنها تكون مباشرة أكثر من اللازم ، بل أنها فى بعض الأحيان تأتى بعكس نتائجها ٠

ومن الحقائق المشاهدة أن البلاد التى يتناقص فيها معدل المواليد (مثل فورموزا وسنغافورة) يكون معدل وفيات الأطفال فيها منخفضا ، وهذا لا يتأتى الا اذا كان أطفالهم يلقون عناية كافية ، وهذا يثبت أن تعليم الأمهات كيفية العناية بأطفالهن يعتبر وسيلة فعالة وانسانية لتشجيعهن على ايجاد فوارق زمنية بين مولد كل طفل والذى يليه ، وبذلك يقل عدد المواليد ٠ ومثل هذا الاسلوب يعمل على اشاعة حب الأطفال بين الناس ٠ وهو أفضل من أسلوب منع الحمل الذى يعمل على اثارة نفور الناس منهم ٠

معدل النمو غير الكافى

من الواضح أن أى دولة يكون معدل صافى التعويض فيها مساويا للواحد الصحيح سوف تعانى ، بمرور الزمن ، من زيادة الحجم الكلى للسكان ، وذلك بسبب زيادة فئة كبار السن ٠ ومن ذلك نرى أن الابقاء على حجم ثابت للسكان يعنى أن الأجيال لا تعوض نفسها ٠

وأى سياسة تهدف لزيادة السكان لا بد أن تعتمد على التأثير على الهجرة والمواليد ، حيث أن أى دولة تحاول دائما أن تخفض من معدل الوفيات بطبيعة الحال ·

وسياسة تشجيع الهجرة (الحد من المهاجرين من الدولة ، أو العمل على اجتذاب مهاجرين الى الدولة) لا تصلح الا فى حالات معينة · اذ يجب أن لا ننسى أن السماح بدخول مهاجرين يزيد سنهم عن ٤٥ سنة أو ٥٠ سنة يعتبر غير مناسب من الناحية الاقتصادية (هذا الرقم يختلف حسب الظروف ويتفاوت من دولة لأخرى) ، وذلك لأنه بعد هذه السن لا يمثل الشخص قيمة رأسمالية للمجتمع (على اعتبار أن سن الاحالة للمعاش هى ٦٥ سنة) ·

أما سياسة زيادة معدل المواليد فيمكن أن تأخذ أحد شكلين : (أ) اجراءات لعدم تشجيع منع الحمل والاجهاض ، (ب) الاعانات العائلية · وهذا الشكل الأخير يجب ، لبكون أكثر فاعلية ، أن يعتمد على سياسة تفاضلية لا سياسة عامة كما هو متبع عادة · فعلى سبيل المثال يجب أن تكون التسهيلات السكنية مشروطة (كأن تكون بعد المولود الثانى أو الثالث) ، اذ أن الاعانات التي تمنح للطفل الاول قد يكون لها قيمة من الناحية الاجتماعية لا من ناحية التشجيع على النسل ·

مراجعة التنبؤات السكانية

ما أن يتم اختيار السياسة السكانية وربطها بالخطة حتى تنشأ الحاجة لتقويم آثارها تقويما دقيقا وبدون أى مبالغة · ثم تعدل التنبؤات السكانية بناء على ذلك لايجاد قاعدة أساسية للخطة ككل ·

الحصر العام للموارد البشرية

ان الفئتين اللتين نهتم بهما هنا هما :

ا ــ فئة قوة العمل ، أى فئة الذين لهم القدرة على الانتاج ·

ب ــ فئة الموجودين فى المدارس والجامعات ، وهم الذين يحتاجون الى التدريب ، ويمكننا أن نأخذ فى الحسبان أيضا تدريب الكبار ، حيث أن الأشخاص الداخلين فى قوة العمل يمكن أن تتضمنهم الخطة التعليمية ·

وفى هذه المرحلة ، حيث لا يكون قد تم الاتفاق بعد على الخطة التعليمية ، يمكننا اتباع الخطوات السابق اتباعها بالنسبة لمجموع السكان ، وهذه الخطوات هى :

ا ــ القيام بتنبؤ مبدئى منبثق من القيم والأوضاع السائدة فعلا ·

ب ــ مقارنة هذه التنبؤات بالبيانات المختلفة ، سواء كانت اقتصادية أو غير اقتصادية ·

ج ــ التوفيق بين الأرقام فى حالة وجود تعارض ·

وعلى ذلك تكون الخطوة الأولى هى القيام بالتنبؤات اللازمة ، وذلك باستخدام البيانات الطبيعية الموجودة فعلا ، ومعرفة الذين ينتمون الى كل فئة من فئات العمر المختلفة ومساهمتهم فى قوة العمل أو فى النشاط التعليمى ٠ مع مراعاة أن تعدل هذه التنبؤات بالنسبة لبعض فئات العمر للحصول على اتجاهات عامة ، ومراعاة التغيرات التى يمكن أن تحدث ، مثل رفع سن ترك المدرسة ، أو ادخال تغييرات على نظام الاحالة للمعاش ؛ أو تغيير الظروف الخاصة باشتغال المرأة ٠ ولا توجد أى صعوبة فى تطبيق الوسائل الفنية المستخدمة فى هذه الحالات ما دام هناك بيانات عن تعدادين متتاليين ٠

أما من ناحية التوزيع الجغرافى للسكان فان التنبؤ به تعتريه بعض الصعوبات ؛ حيث أنه لا توجد طريقة معينة لمراجعة التحركات السكانية ٠ حقيقة أنه من الممكن (ومن المفيد أيضا) القيام بتنبؤات سكانية محلية أو اقليمية ، على أن تؤخذ فى الحسبان التحركات الطبيعية للسكان ، ولكن اذا كان هناك هجرة داخلية على نطاق واسع ، كالهجرة من الريف للمدينة ، فيجب تعديل التنبؤات التى نحصل عليها ٠ وهنا أيضا يمكننا الاستفادة بنتائج تعدادين متتاليين ، وان كانت عناصر عدم التأكد فى هذه الحالة تكون أكثر من الحالة السابقة ٠

كذلك يلزمنا فى هذه المرحلة ايجاد بيانات ، لا عن الحاضر فحسب ، بل عن سنوات عديدة مقبلة أيضا ، وهذه البيانات خاصة بعدد المنتمين للفئات الآتية :

ا ــ صغار السن ، الذين يعتبرون خارج قوة العمل وليسوا فى مرحلة الدراسة ٠

ب ــ الموجودون فى المدارس والجامعات ٠

جـ ــ الأفراد خارج قوة العمل الذين يتكونون أساسا من النساء المتزوجات غير الموظفات ، وكذلك أفراد القوات المسلحة من غير المحترفين ٠

د ــ الشيوخ ٠

ومثل هذا التقسيم يعطينا فكرة كبيرة عن الاحتياجات المطلوبة ، وخاصة تلك اللازمة للتغذية ، ولكن لا يعطى فكرة عن الطاقات الانتاجية المتوفرة ٠ وعلى ذلك فان الأمر يتطلب اضافة معلومات بالطاقة الانتاجية والمهنية بالنسبة للذين هم داخل قوة العمل ٠ والبيانات المتوفرة عن مثل هذه الموضوعات تعتبر أبعد ما تكون عن أن تكون كافية ٠ ومرة أخرى يلزمنا الرجوع الى نتائج التعداد ، وهى تعطينا فكرة عن مهنة أو عمل كل شخص ومستوى تعليمه فى وقت التعداد ٠ وعلى الرغم من أن بعض البلدان يوجد بها تعدادات زراعية وصناعية وتجارية فان مثل هذه التعدادات تهتم بالمعدات التى يسهل حصرها وتحديدها أكثر مما تهتم بالرجال ٠

وبعد أن يتم حصر الموارد البشرية ، وخاصة من وجهة نظر الطاقة الانتاجية ، تأتى المرحلة التالية ، وهى مقارنة هذه الموارد بالامكانات والقيود الاقتصادية ٠

وحتى يمكن القيام بذلك فاننا نحتاج لنموذج للمحاسبة القومية يتناول قوة العمـل والانتـاج والقيمـة • ولنر الآن الأساس الذى يمكن أن نقيم عليه مثـل هذا النموذج •

اقامة نموذج للمحاسبة القومية
يتناول قوة العمل والانتاج والقيمة

لـكل دولة من الدول ، فى هـذه الأيام ، نظام للمحاسبة القومية يربط بين ميزانية الدولة وبين العمليات الاقتصادية القومية ، كما يهتم بتقسيم الناتج القومى واستخداماته المختلفة (الاستهلاك والاستثمار وصافى التصدير) • وبصفة عامة يتناول الناتج القومى الاجمالى بسعر السوق أو بتكلفة عناصر الانتاج •

ومثل هذا الاسلوب فى المحاسبة لا يعتبر قاصرا فحسب ؛ ولكنه غالبا يكون مضللا ، وذلك لأسباب عديدة :

١ ـ لقد نشأ نظام المحاسبة القومية عن طريق مجموعة من الخبراء من الدول المتقدمة ، وكان اهتمامهم منصبا على اقامة نموذج يتناسب مع نماذج الاقتصاد الخاصة بهم ، ولم تنجح الاصلاحات المعاصرة فى معالجة مثل هذا القصور ، حيث أن هذه الاصلاحات تمت بالاشتراك مع منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD ، التى تهتم أساسا بالدول المتقدمة •

هذا بالاضافة الى أن فكرة الناتج القومى الاجمالى ما زالت محل نزاع ، حيث أنه فى حساب الناتج القومى نضيف الى الانتاج من السلع والخدمات التجارية قيمة افتراضية للخـدمات العـامة مقدرة على أسـاس تكلفتها • ومثل هـذه الخـدمات (القضاء ، الشرطة الادارة العامة ، القوات المسلحة ، آلخ) تعتبر ، الى حـد كبير ، من العوامل التى لا تسهم فى غير استمرار الانتاج التجارى •والازدواج الذى يحدث هنا انما يرجع الى التزايد الكبير فى وظائف الخدمات المدنية بطريقة لا تتناسب مع احتياجات الانتاج • وعلى ذلك فان قدرا من الزيادة التى تحدث فى الناتج القومى لا يمثل انتاجا حقيقيا •

ويمكننا أن نذهب الى ما هو أبعد من ذلك ونسأل أنفسنا هل من الصواب ، خصوصا فى اقتصاد لا يبلغ غير حد الـكفاف ، أن نجمع ما قيمته دولار من الخبز مع دولار ينفق على خدمات الحلاق ، ثم نقول أن النـــاتج هو دولاران ؟ مثل هذه العملية قد تعتبر عادلة بالنسبة لدولة متقدمة تعتمد على اقتصاد السوق ، ولكن بالنسبة لاقتصاد متخلف ، يعانى الناس فيه من نقص الغذاء ويتأثر الانتاج بسوء تغذية العمال ؛ فان مثل هذا الأسلوب فى المحاسبة يوقعنا فى خطأ جسيم •

ولقد أظهرت الاحصاءات الخاصة بالدول التى فى دور النمو خلال العشرين سنة الماضية زيادة ملحوظة فى الناتج القومى الاجمالى للفرد مصحوبة بثبات فى انتاج واستهلاك الطعام • وعادة تعطى الأهمية لزيادة الناتج القومى مع اهمال ثبات تصيب الفرد من الغذاء ؛ وان كان الأخير هو الأهم •

٢ - تستخدم المحاسبة القومية الرسمية متغيرات موحدة ، وعلى العكس من النقطة السابقة نجد أن النقطة موضوع النقاش هنا تنطبق أساسا على الدول المتقدمة، حيث تكون تحركات رؤوس الأموال أكبر ، ولو من الناحية النسبية ، وذلك على الرغم من أنه فى بعض الدول التى فى دور النمو نجد أن سرعة استهلاك النقود تجعل من المألوف أن تتم عمليات تحويل للثروة دون أن تظهر فى نظام المحاسبة القومية •

وهذا الموضوع يسر رجال المال والحكومات أن يتجاهلوه ، ولن نصر على اثارته هنا ، ولكننا سوف نشير الى شيء واحد ، هو أن حساب الناتج القومى الاجمالى ، أو أى قيمة تجميعيه أخرى ، بأسعار ثابتة ، من شأنه أن يوجد طريقة مفيدة لتصحيح حركات معينة تحدث عبر فترة من الزمن ، ولكنها لا تصحح الخطأ فى حسابات كل فترة مالية •

٣ - تهمل المحاسبة القومية العنصر الانسانى ، ذلك لأنها تعتمد على بيانات الموازنات وعلى فكرة الدخل القومى ؛ ومن ثم فانها لا تأخذ فى الحسبان الناس كبشر ، وحيث أن الناس لا يعتبرون بنودا تجارية فانهم لا يجدون طريقهم فى المحاسبات القومية ؛ كما أن الأجور والمرتبات لا تمثل ، من حيث هى ، سوى جزء من العمل البشرى •

وحيث أن الناس ليسوا فى سيولة النقود فان هذه الطريقة ينتج عنها أخطاء فى التقدير ، ومثل هذه الأخطاء تتزايد مع زيادة استخدام المحاسبة القومية كمرشد فى اتخاذ القرارات الاقتصادية والاجتماعية •

واذا لم تكن هنا بصدد بناء نموذج كامل للمحاسبة القومية ، يعطى اهتماما أكبر للعنصر البشرى كعنصر من عناصر الانتاج ؛ فاننا سوف نشير الى الأفكار الأساسية التى يجب أن يعتمد عليها مثل هذا النموذج •

معادلة عمل انتاج

ان الحصر الشامل للموارد البشرية يمكننا من اثارة ثلاثة أسئلة خاصة بثلاث حالات لحساب الانتاج المحتمل للمنتجات والخدمات المختلفة فى دولة ما ، وذلك فى حدود الامكانيات الوظيفية والفكرية لها • وهذه الحالات الثلاث هى :

• حساب الانتاج : على افتراض أن القوة البشرية المتاحة سوف تستمر فى العمل جزءا من الوقت ، أو سوف تضطر لترك العمل تحت ضغط الظروف • ونتيجة هذا الحساب لن تكون رقما واحدا ، ولكن سلسلة من الأرقام ؛ مناظرة ، بالتقريب ،

لانتاج العام السابق ، بعد تصحيحه للسماح باظهار أثر التطورات الوظيفية لقوة العمل والاستثمار • ومثل هذه الحالة تعتبر بمثابة وضع مبدئى يراد تحسينه •

• حساب الانتاج : على افتراض أن قوة العمل الجديدة قد زودت بمعدلات الانتاج وبالتسهيلات التى تمكن من تشغيلها تشغيلا كاملا ، ولكن دون أى زيادة فى الكفاءة الانتاجية •

• حساب الانتاج : على افتراض أن قوة العمل الجديدة قد زودت بمعدلات الانتاج وبالتسهيلات التى تمكن من تشغيلها تشغيلا كاملا ، مع افتراض زيادة الكفاءة الانتاجية الى أقصى حد ممكن •

وهذه النتائج الثلاث ؛ التى يمكن أن نعتبرها فى الوقت الحاضر مجرد ثلاثة أفكار ، تناظر الحالات الثلاث للتغير فى المرونة •

ان الوضع القائم ؛ الذى يمثل نقطة البداية لنا ، يمكن تحسينه بطريقتين : اما عن طريق تحقيق التشغيل الكامل من الناحية الكمية دون زيادة الكفاءة الانتاجية ، واما عن طريق تحقيق التشغيل الكامل بمعناه الكمى والنوعى •

وكمثال للطريقة الأولى ، العمال الزراعيون الذين تتوافر لديهم الأراضى عن طريق الرأى أو عمليات الاستصلاح ، ومن ثم يكونون قادرين على زيادة الانتاج • أو الطبيب الذى أتيحت له سيارة أو طريق ممهد ؛ وبذلك يكون قادرا على عيادة أكبر عدد من المرضى تحت الظروف النوعية نفسها •

وفى الحالة الثانية نفترض أن العامل قد زود بآلات قادرة على رفع كفاءته الانتاجية ، كمحراث له القدرة على الوصول الى أعماق أبعد ، ويسهل استعماله وصيانته ، اذ أن الآلات المعقدة فى استخدامها تعتبر عديمة الفائدة لهذا الغرض •

وكل هذه الحالات السابقة تعتمد على افتراض وجود وضع تكون فيه الأولوية المطلقة لقدرات الرجال وميولهم كمنتجين ، وان أى زيادة فى الطلب على المعدات لن تقابل بقصور فى عرضها • وعلى ذلك يكون كل عامل مزودا بكل الأدوات التى تمكنه من استغلال طاقته الى أقصى حد •

وأخيرا وليس آخرا ، هناك أيضا احتمال زيادة المهارة المهنية للعمال ، ولكن التغير فى المهارة المهنية يكون عادة بمعدل بطىء ، ومن ثم لا يتم الا فى الأجل الطويل• فاذا ما أدمج هذا الوضع مع التحسن الذى سبقت مناقشته فان ذلك من شأنه أن يفتح الطريق لانتاج غير محدود ، يتزايد بمعدل يتساوى مع ذلك الموجود فى أكثر الدول تقدما • ولكن علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن مثل هذه الخطوة لا تتم فى مرحلة متأخرة •

وبغض النظر عن الافتراض الذى نتبناه فان الحسابات المقترحة تعتبر معقدة الى حد كبير ، ذلك لأنها لا تتكون من مجرد جمع أرقام متتالية لكل قطاع ، ولكنها

تربط أيضا بين القطاعات بعضها وبعض ، فعلى سبيل المثال نجد أن زيادة الانتاج الزراعى يمكن أن يكون لها مضاعفات على انتاج مصانع الأغذية ، وبالتالى على قائمة المحاسبة ، الخ • والنتيجة النهائية للاقتصاد ككل يمكن الحصول عليها عن طريق مصفوفة شبيهة بمصفوفة المدخلات والمخرجات ، وان كانت معبرا عنها بساعات عمل بذلت عن طريق الفئات المختلفة للعمال ، وليست وحدات نقدية ، فاذا كان لدينا عشر فئات من العمال فيجب علينا عمل عشرة جداول (١) تبين ساعات العمل التى بذلت فى نشاط من الأنشطة الانتاجية • كما يمكن أيضا عمل جدول للاقتصاد القومى ككل ، كما هو مبين بالصفحة المقابلة •

والعناوين فى هذا الجدول مكتوبة لاعطاء صورة للشكل المطلوب عمله فقط • ففى العمود الأول نضع قائمة بجميع القطاعات ذات النشاط المتجانس • وفى الصف الأول نحدد اما مواصفات واما مستويات التدريب للفئات المختلفة للعمال • ومن المفهوم أن الحركة سوف تكون فى داخل الفئة الواحدة أسهل منها بين الفئات المختلفة •

والسطر الأخير يعطى لنا الاجابة عما نبحث عنه ، وعلى وجه التحديد « قوة العمل المطلوبة » وهو اعتبار على جانب كبير من الأهمية • ويلاحظ أن العمل غير الماهر يكون متوافرا فى البلاد النامية • فى حين يكون النقص أساسا فى العمل المؤهل • وبالتالى فان الحسابات المعتمدة على الربح للمشروع قد تقودنا الى نتائج خاطئة والى اتخاذ قرارات غير حكيمة ، ذلك لأنه فى المجال الاقتصادى والاجتماعى يجب أن تكون الأولوية لتلك المشروعات أو القرارات التى تمتص الجزء الأكبر من فائض قوة العمل ، هذا مع افتراض تساوى الربحية (أو حتى مع وجود اختلاف بسيط فيها) •

قائمة مبدئية للموازنة المالية والاقتصادية

يعتبر التشغيل الكامل هو الهدف المبدئى الذى نبغى الوصول اليه ؛ بمعنى استغلال كل الموارد البشرية المتاحة استغلالا كاملا • ولكن هذا الهدف يخفى فى طياته هدفين آخرين : أحدهما اقتصادى وهو زيادة انتاج الثروة ؛ والآخر اجتماعى وهو تمكين الأفراد من الحصول على عمل لاكتساب أقواتهم • وهذان الهدفان لا يعتبران متطابقين ، حيث أننا نجد أن مجرد وضع رجل فى وظيفة قد يكون له اعتبار أكبر من زيادة الانتاج الناشئة عن ذلك • ولنأخذ مثلا متطرفا عن ذلك ، وهو حالة القيام بتعبئة عامة لجميع سكان قرية من القرى لتشغيلهم فى مشروع عام أو محلى خلال فترة الكساد الموسمى ، حيث لا يكون لذلك أثر على زيادة الانتاج ،

See J. Magaud, « Equivalent travail d'une production. Nouvelle méthode de calcul et de prévision ». Population, Mars-Avril 1970, and A. Sauvy, « Un essai d'économie intégrale : La couverture de ses besoins par une population », Population, No. 6, 1968.

عدد الساعات من فئات العمل المختلفة اللازمة لكل فرع من فروع الانتاج

فروع الانتاج	عمال غير مهرة	عمال متخصصون	عمال مؤهلون	عمال المكاتب	عمال آخرون	فنيون متوسطو المهارة	فنيون مهرة		الجملة
الزراعة									
الصناعات الغذائية									
الانشاء والأشغال العامة									
الكهرباء									
البترول									
الصناعات المعدنية									
الصناعات الكيماوية									
الخدمات المدنية									
الخ									
المجموع									

فالعمل يعتبر هدفا من حيث هو . وبصفة عامة يمكن القول ان العمل الذى لا ينتج عنه سعرات حرارية مساوية لتلك اللازمة للقيام به هو الذى يجب أن يستبعد .

والاختيار بين الهدف الاقتصادى والهدف الاجتماعى يعتبر اختيارا سياسيا أكثر منه علميا . ولكن من الممكن ، بل من الواجب ، أن يتم ذلك الاختيار على ضوء جميع الحقائق المعنية .

الموارد البشرية وأهداف الانتاج

اذا ما طبق نموذج المحاسبة القومية الخاص « بالعمل / الانتاج / القيمة » ، الذى سبق ذكره ، فاننا نصل الى مواجهة بين الموارد البشرية وبين أهداف الانتاج ، وحتى اذا استطعنا الحصول على حسابات تقريبية فان ذلك سوف يلقى بعض الضوء على موضوع استخدام الموارد البشرية ، لأننا سوف نجد أنفسنا مواجهين بنمطين مختلفين لانتاج الثروة . أحدهما يتحدد عن طريق الخطة ، فى ضوء الاعتبارات الاقتصادية ، وبعكس الاحتياجات الخاصة والعامة كما تمليها آمال السكان وتطلعاتهم ، وهى الاستهلاك وبعض الاحتياجات القومية التى تكون حيوية أحيانا . والنمط الآخر يتحدد بالطاقة الانتاجية الموجودة للرجال والاستغلال المناسب لها .

ويمكن التعبير أيضا عن هذا الموضوع من ناحية بشرية ، فيمكن أن نضع فى ناحية قوة العمل والهيكل الوظيفى وتوزيع المهارات اللازمة لتحقيق مستويات الانتاج المستهدفة للقطاعات المختلفة . وهذا هو « المجتمع المطلوب » الذى سبقت الاشارة اليه . وفى ناحية أخرى نضع المجتمع السكانى كما هو قائم فعلا . والاختلاف بين هذين المجتمعين يناظر فى طبيعته الاختلاف بين نمطى الانتاج .

والاختلاف بين نمطى الانتاج أو بين المجتمعين قد يكون اختلافا بينا ، وقد يثير اضطرابا وتعارضا أساسيا بين الهدفين ، وهذا من شأنه أن يجعل النجاح أبعد منالا .

أسباب الاضطراب

هناك ثلاثة أسباب رئيسية للاضطراب بين الهدفين ، وهذه الأسباب هى :

أ ــ تدريب الأفراد وكفاءتهم وقدراتهم . فالشخص ذو القدرات الانتاجية المنخفضة لن يكون من السهل عليه أن يجد عملا ، حتى فى ظل نظام مخطط . هذا بالاضافة الى انه فى بعض الأحيان قد يرفض العامل عملا اعتقادا منه أنه غير لائق به . كما أن النقص فى العمال المهرة نسبيا (وخصوصا الفنيين) قد يكون سببا من أسباب البطالة بالنسبة للعمال غير المهرة .

ب ــ نقص المعدات . فنقص المعدات بمعناها العام يتعبر ظاهرة عامة فى الدول التى فى دور النمو .

جـ ـ سوء التوزيع الجغرافى للقوى البشرية ، ســـواء كان ذلك بصـــفة دائمة أو مؤقتة .

وتختلف جوانب المشــكلة حسب درجــة التقدم . ففى الدول التى فى دور النمو تكون المشكلة أساسا هى مشكلة عدم كفاية التدريب ونقص عناصر الانتاج (الأرض ، والآلات الزراعية ، المصانع ، الخ) ، فى حين تعانى الدول الصناعية من مشكلة عدم التوازن بين قطاعاتها المختلفة نتيجة للتقدم فى بعض القطاعات بمعدل أكبر من التقدم فى القطاعات الأخرى .

الاستخدام الكامل للمواد البشرية

ان السؤال الأول الذى يجب الاجابة عليه هو : هل نقوم بتعديل أوجه النشاط المختلفة ، وبالتالى أنماط الاستهلاك لتناسب الســـكان كما هم ، أم نقوم بتعديل السكان ، سواء جغــرافيا أو وظيفيا ، لتناسب الاحتياجات المطلوبة . والاجابة على هذا السؤال تتوقف كثيرا على الاجل الذى نأخذه فى الاعتبار . فالأمر يختلف على الأجل القصير عنه فى الأجل الطويل .

ففى الأجــل القصير ، حيث لا يمكن تغيير السكان بصــورة فورية ، أو حتى بمعدل سريع ، لا مفر من تعديل الأنشطة لتناسب السكان ، أو بمعنى آخر استغلال السكان كما هم للحصول على أقصى درجات الاستفادة منهم .

أما فى الأجل الطويل فليس من المستحسن تعديل الأنشطة لتناسب السكان؛ بل يجب تدريب السكان وتعديلهم للحصــول على أقصى اشباع ممكن لحاجاتهم . فالعمل ليس هدف الاقتصاد من حيث هو ، ولكن الاستهلاك هو الهدف من النشاط الاقتصــادى . وعلى كل حال فان ضمان العمال للضروريات الأســاسية للحياة ، ثم تفضيلهم لممارسة نشاط انتاجى دون الآخر ، من شأنه أن يؤثر على خطط الانتاج ، وذلك عن طريق الأجور ، حيث ان الوظائف الهامة ذات المستوى الاجتماعى المنخفض لا بد أن تدفع أجورا أعلى من ذات المستوى الاجتماعى المرتفع .

ومن ذلك نلاحظ أنه فى الأجل الطويل تكون المشكلة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتعليم العام وسياسة التدريب ، وهى التى ستكون موضع نقاش فيما بعد .

وسائل التوفيق فى الأجل القصير

تعتبر التجارة الدولية أو الحلول التى يمكن أن نفكر فيها . فاذا كانت مقومات التوسع فى التجارة الدولية متوفرة فان ذلك يعتبر أفضل الحلول : لا فى الأجل القصير فحسب ؛ بل أيضا فى الأجل الطويل . فاذا كانت السلع التى تنتجها دولتان سلعا متكاملة فمن المفيد تبادلها دوليا . ولكننا نلاحظ أن مثل هذا الحل يكون صعب التطبيق اذا كانت المشاكل التى تعانى منها الدولتان لها طبيعة واحدة ، وهو أمر متوقع بالنسبة للدول التى فى درجة واحدة من التقدم .

وتعتبر الهجرة الدولية من الحلول الأخرى التى تطبق عادة ، وخصوصا فى دول أوربا الغربية المتقدمة ، حيث تستعين بالعمل الأجنبى لشغل الوظائف ذات المستوى المنخفض • وفى مقابل ذلك نجد أن مثل هذه الهجرة تمكن الدول الأقل تقدما ، مثل البرتغال وتركيا والجزائر ، من التخلص من البطالة أو الحد منها ، كما تمكنها من الحصول على العملات الأجنبية اللازمة لشراء ما تحتاج اليه من سلع ؛ وبالتالى تساهم فى عملية التنمية • ويلاحظ أن الهجرة الدولية ؛ حتى اذا اتخذت صـــفة الدوام ؛ لاتعتبر حلا حقيقيا ، ولكن تعتبر مجرد عنصر مسكن للمشاكل • كما يلاحظ أن هناك أنواعا من الهجرة لا تكون مرغوبا فيها ، وهى تلك الهجرة التى تأخذ شكل استنزاف للعقول أو بعض أنواع العمل النادر • وبغض النظر عن المحاولات التى تبذل لتبرير مثل هذه الهجرة ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى ، فان الحقيقة تظل كما هى ، وهى أن هذه الهجرة تكون فى صالح الدول المضيفة ـ وهى الأغنى ـ وفى غير صالح الدول الأم • وهناك الكثير مما يمكن قوله عن مثل هذه المشاكل ذات الأجل الطويل، التى قلما تعالج بما تستحقه من جدية واهتمام •

وهناك حل آخر عكس الحل الأول ، وهو الحصـول على المساعدات الفنية التى أظهرت فائدة كبيرة ، ويمكن أن تساهم بالمزيد • فبالنسبة لاستغلال الموارد البشرية يمكن أن تساهم المساعدات الفنية بطريقتين ؛ ففى الأجل القصير يمكن أن تأخذ شـكل زيادة فى عرض فنيين متخصصين تـكون وظيفتهم بمثابة قطع الغيار اللازمة للآلة • فاذا أمكن تحـديد نسبة الفنيين الى العمـــال غير المهرة فيكون من الممكن ، مع بقاء الأشياء الأخـرى على حالها ، أن نحـدد عدد الوظائف التى يمـكن خلقها بوصول فنى واحد • أما فى الأجل الطويل فيستطيع هؤلاء الفنيون تدريب آخرين ، وبذلك يخلقون المزيد من الوظائف • وفى بعض الأحيان يكون من الممكن ادماج هاتين الوظفتين معا •

أما فى الدول الصناعية فتكون ساعات العمل بمثابة المنظم ، ولكنه منظم يقوم بعملية تسكين فقط ، ومن ثم لا يعالج أسباب الاضطراب ، بل على العكس يبقى عليها ؛ حيث انه يجعل من الممكن تحملها •

وهناك حلول أخرى تطبق بصفة أســاسية فى الدول الأقل تقـــدما ، وهذه الحلول تأخذ شكل خلق للوظائف كلما وجد طلب عليها ، وخصــوصا فى المناطق الريفية • وعلى الرغم من أن هذه الحلول تكون أساسا ذات طابع اجتماعى فانه يمكن أن يكون هناك تبرير اقتصادى لها ، كما هو الحال بالنسبة للأعمال التى تنظمها عادة السلطات العامة أو المحلية لهذا الغرض •

ففكرة تنظيم الأعمال العامة فى المناطق الريفية الريفية خلال فصول الكساد لأعمال انتاجية ، كالرى أو منع نحر الشواطىء أو ما شابه ذلك من أعمال ، قد أثارت الكثير من المناقشات والجدل • فاذا ما وضعنا جانبا أسلوب السخرة ، سواء المادية أو المعنوية ؛ التى تناسب بعض النظم ؛ فاننا نجد أن هذه الفكرة يمكن أن تكون

مفيدة ، ولكن فى ظل شروط معينة ، وهى : أولا : لا يكفى أن يكون العمل منتجا فحسب ، ولكن يجب أن يقوم على أساس تقويم دقيق للزيادة السنوية فى الانتاج التى يمكن أن تنشأ عنه ، ثانيا : حيث أن هذه الزيادة فى الانتاج ستفيد فى النهاية مجتمع القرية فيجب أن تكون الأجور معقولة • وعلى كل حال فيجب أن تكون الأجور أعلى من تكلفة السعرات الحرارية الغذائية المستهلكة خلال العمل • ومن الجدير بالذكر هنا أن الاعتراض الذى يثار على المساعدات التى تأخذ شكل أغذية من الدول المتقدمة لا ينطبق على مثل هذه الحالة ، حيث أن هذه المساعدات ؛ حتى ولو كانت على شكل غذاء ؛ تعتبر استثمارا أكثر مما تعتبر استهلاكا •

ويمكن تحويل الانفاق الخاص الى أشكال معينة من الاستهلاك، وذلك عن طريق الضرائب وبعض الحوافز الأخرى •

كما يمكن تخصيص الانفاق العام جزئيا لتحقيق التشغيل الكامل • وعلى ذلك يكون تحويل جزء من الايرادات الخاصة الى الحكومة من العوامل التى تسهل التأثير على الأنشطة •

كما تساعد اقامة مصانع جديدة فى عملية التعديل ، ومثل هذا العمل يعتبر من اختصاص السلطات العامة •

مما سبق نلاحظ أن النمو السكانى يعتبر ، الى حد ما ، من العناصر الباعثة على التعديل ؛ وذلك بسبب قدرة الشباب على التنقل ،سواء جغرافيا أو طبيعيا ؛ ولأن تعديل نظام قائم بطريق الاضافة اليه أسهل دائما من تعديله بطريق استقطاع أجزاء منه •

دور الاستثمار والمعدات

على الرغم من أن دور الاستثمار فى خلق الثروة لا يعتبر محل نزاع (والمسألة بصفة عامة مسألة تعريف) فاننا نجد ان تأثيره على التشغيل ما زال موضع جدل ونقاش • فالرأى الشائع ؛ حتى بالنسبة لمن يعرفون القليل عن الاقتصاد ، ان الآلة تعتبر منافسا للعامل ، وأن الميكنة تخفض من فرص التشغيل ، وهو رأى يؤيده كل من ينتمون الى المدارس الاشتراكية •

فالنظام الاقتصادى يمكن أن يمارس تقدما تنازليا يخفض من قوة العمل ، فى الوقت الذى يمارس فيه تقدما تصاعديا بخلق فرص جديدة للعمل بصورة مباشرة • وعلاوة على ذلك تؤدى التنمية عموما الى احداث تغيرات فى مستوى الاستهلاك ، وهذه من شأنها أن تؤدى الى خلق المزيد من الوظائف • ففى المراحل الأولى للتنمية نجد أن مثل هذا الأسلوب (أسلوب احداث زيادة فى الاستهلاك) يعتبر نادرا ؛ وينشأ عنه عادة عجز فى ميزان المدفوعات • وعلى ذلك فانه من الضرورى أن يعامل أسلوب احلال الآلات محل الرجال بحرص شديد ؛ وبصفة خاصة اذا كانت الآلات تستورد من الخارج ، واذا كان البلد يعانى من البطالة • ولا يعنى

ذلك بطبيعة الحال أن تمتنع مثل هذه الدول عن استخدام المركبات والجرارات وما شابه ذلك وتكتفي باستخدام الوسائل البدائية في الانتاج ، ولكن يعني أنه اذا كانت الموارد المالية غير كافية فيجب أن تستخدم هذه الموارد بحرص شديد مع بذل كل الجهد للسماح بالتأثيرات الجانبية ٠

الزراعة أو الصناعة

ان الاختيار بين الزراعة والصناعة هو من الأمور التي تواجه جميع الدول التي في دور التنمية ٠ ولقد كانت معظم القرارات التي اتخذتها معظم الدول خلال العشرين سنة الأخيرة تتم بناء على اعتبارات خاصة بالكرامة والسمعة أكثر من اعتمادها على الاعتبارات الاقتصادية ٠ وقد بدأ الكثير من الحكومات في تغيير هذه السياسة – كما هو الحال بالنسبة للصين – بل أخذت بعض الدول تراجع بعض الخطوات التي سبق أن اتخذتها ٠ ويجب أن نتذكر أن التوسع الكبير الذي شهدته بريطانيا في القرن الثامن عشر كان مرجعه الى التقدم الزراعي الذي سبقه ، فحينما يتوفر الغذاء تتوافر القدرة لاطعام المزيد من العمال الصناعيين والبحارة ٠ فالنقص في المواد الغذائية يعوق عملية التصنيع بصورة خطيرة ٠ وعلى ذلك فان ضمان حصول الدولة على المواد الغذائية اللازمة يجعلها في وضع تقدم فيه على عملية التصنيع بدون تردد ٠ واذا ما أمكن تحويل جزء من انفاق الطبقات المتيسرة على الغذاء الى أوجه أخرى من الانفاق فان ذلك سيكون في صالح المجتمع كله ٠

ونعتبر مشكلة التعارض بين القرية والمدينة ذات صلة وثيقة بمشكلة التعارض بين الزراعة والصناعة ، وان كانت المشكلتان غير متطابقتين ٠ فليس هناك من شك في ضرورة الحد من الهجرة من الريف الى المدينة ، ولكن مثل هذه السياسة يجب أن تحدد بناء على مدى توفر العمل ٠ فالرجل العاطل في المدينة يعتبر في وضع أسوأ من الرجل العاطل في قريته ٠

وفي كثير من الدول النامية نجد أن رفع الكفاءة الانتاجية للعمل أو للأرض لا يحتاج الا الى جهد بسيط ، قد لا يتعدى استخدام بعض الأدوات البسيطة التي يسهل استخدامها وصيانتها ، وقد لا يحتاج الى آلات معقدة ٠ وفي مثل هذه الظروف يجب أن توجه المساعدات الفنية لمقابلة الحاجة الى المهنيين والى الفنيين المتوسطي المهارة ، كما يجب أن لا ننسى دور الارشاد الزراعي في هذا المجال ٠

ونلاحظ أن حماية الموارد الطبيعية والمحافظة عليها من الأمور التي تستحق الاهتمام الأكبر والأولوية المطلقة ، وان كانت المحافظة على هذه الموارد ؛ شأنها شأن استنزافها ، لا تحظى باهتمام كبير ، ذلك لأنهما لا تعكس أثرها على الحسابات القومية ٠

التعليم والتدريب

نستطيع أن نقول كلمات قليلة عن هذا الموضوع الهام المعقد ، الذى يتضمن ، شأن كل هذه الدراسة ، استخدام الموارد البشرية ، وبصفة خاصة فى الدول التى فى دور النمو ؛ فحيث أن الرجال ليسوا سلعا ؛ وحيث أنه من الصعب تقويمهم تقويما اقتصاديا ؛ فلن يكون من السهل قياس مدى الارتباط بين التنمية الاقتصادية والتنمية الثقافية . وما دام هدفنا المحدد هنا هو استخدام الموارد البشرية فان النقطة الأولى التى يجب أن تعطى لها الأولوية المطلقة هى التعليم والتدريب ، على الرغم مما تثيره هذه النقطة من مشاكل .

فالدول التى فى دور النمو دول فقيرة ومتخلفة ، ونسبة الأطفال لديها مرتفعة عنها فى غيرها من الدول الصناعية ، ونقص الموارد فيها يجعلها تواجه مشكلات قاسية .

هذا بالإضافة الى أن اعتبارات السمعة والكرامة قد دفعت معظم هذه الدول لتنفيذ البرامج العالمية لمحو الامية ، وهى البرامج التى حكم عليها بالفشل منذ البداية ، وذلك فى وقت كان من الأفضل لها فيه أن تركز على أشياء أخرى أكثر أهمية .

وهذا من شأنه أن يقودنا الى مناقشة مسألة أعم ، وهى النزاع الأبدى بين الثقافة والمنفعة . وهى مسألة يقف منها الناس موقفا عاطفيا ، على الرغم من أن المفاضلة بينهما لا تعنى تفضيل واحدة على الأخرى بصفة مطلقة ، بل تعنى الاهتمام باحداهما أكثر من الاهتمام بالأخرى .

ففى معظم بلاد العالم (حتى فى الدول المتقدمة) نجد أن التكنولوجيا تلقى اهتماما أقل مما تستحقه ، وخاصة اذا ما ترك الأمر للشباب لكى يختاروا لأنفسهم ؛ فالشباب يميل الى اختيار الأسهل والأرفع ، ومن ذلك نرى أن المصلحة الفردية : فى الأجل القصير ، لا تتوافق مع مصلحة المجتمع ككل . فاذا ما قسمنا الاقتصاد القومى الى قطاعين ، أحدهما انتاجى أو تجارى ، والآخر غير تجارى ، فاننا نلاحظ أنه من النادر أن يمزج هذان القطاعان بالنسب الصحيحة لتحقيق التنمية السريعة . وتكون نتيجة ذلك أن الثقافة فى النهاية هى التى تعانى من احتياجها للموارد .

ومن ذلك نرى ضرورة أن تقوم السياسة التعليمية على أساس مواجهة الضغوط الفردية ، التى يمكن أن تؤدى الى افلاس قومى . وبصفة عامة يمكننا أن نقول ان الحكومات لن تتحمل الكثير من المخاطر اذا ما بذلت قصارى جهدها لتشجيع التعليم الفنى ، وذلك بسبب وجود تيارات قوية تعمل فى الاتجاه المضاد . وعلاوة على ذلك يجب أن لا يؤدى التعليم عن طريق مناهجه الى تعجيز الشباب معنويا بتحويلهم عن الأعمال المنتجة ، دون تسليحهم بما يمكنهم من تنظيم حياتهم فى نواح بديلة .

وقد جرت العادة أن يوجه التعليم الى الشباب ؛ وهو أمر يمكن تبريره من

الناحية الانتاجية ، فتوقع الحياة بالنسبة لهم أكبر ، ولكن فى الوقت نفسه نجد أن الحــاجة لتدريب الــكبار أو لاعادة تدريبهم أصــبحت من الامور التى تتزايد أهميتها عاما بعد عام ، حتى فى أكثر الدول تقدما • أما فى بقية الدول فنجد أن نقص الموارد يجعل من غير الممكن اعطاء الكبار الأهمية التى يستحقونهـا • أما فى الدول التى لا يوجد بها التدريب ، أو لا يوجد بالقدر الكافى ، فيجب أن نختار الفن الانتاجى الذى يتناسب مع امكانات الناس ، لا العكس • كما يجب أن نلفت النظر أيضا الى الدور المفيد الذى يمكن لوسائل الايضـــاح أن تؤديه فى نشر المعرفة فى حالة عدم توافر وسائل التعليم الرسمية ، ومثل هذا الأسلوب يمكن أن يســـاهم مساهمة فعـالة فى التنمية ؛ ما دام يستخدم الاســتخدام السليم ، فالقضاء على الخرافات مثلا قد يكون أكثر فائدة من كثير من أنواع الاستثمارات الأخرى المكلفة •

السياسة الاجتماعية والصحية

يجب أن يكون للسياسة الصحية صفة الشمول ؛ وأن تحتــل مكانة بارزة • وعلى الرغم من عدم وجود اختلاف على أهمية هذه السياسة فان نصيبها من ميزانية الدولة هو الذى يكون موضـع اختيار ، كما نحتاج الى اتخـاذ القـرارات المناسبة لتوزيع الاعتمادات الخاصة بالصحة فيما بين بنودها المختلفة • ومثل هذه الموضوعات قد تثير الكثير من المضايقات ، ولذلك قد يكون من الأفضل عدم ابداء أى توصيات بشأنها سنا •

وتتعرض السياسة الاجتماعية لمصاعب مشابهة ، فيمكننا أن نذكر على سبيل المثال ما سبق ذكره من فرض عقوبات ، سواء مباشرة أو بطريق غير مباشر ، على العائلات ذات الحجم الكبير ، وذلك فى المجتمعات التى يتزايد فيها السكان بسرعة كبيرة - وعلى كل حال فان اتخاذ القرارات بشأن الســـياسة الاجتماعية يعتبر من الموضوعات التى تحددها الظروف السياسية •

عودة الى قائمة الموازنة العامة
تعديلات ونتائج

بعد مناقشة المشكلة من كل هذه الزوايا ، والوصول الى عدد من المقاييس ، يجب أن نعود مرة أخرى الى القائمة العامة للموازنة المالية والاقتصادية ؛ التى سبق مناقشـتها • وعلى ذلك فان الملخص المؤقت الذى وضـع فى تلك المرحلة يحتاج الى تعديل ؛ وذلك نتيجة للمقاييس الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى تم التوصل اليهـا ، والاسلوب السليم فى مثـل هــذه الظروف هو اعادة فحص المشكلة كلها

باستخدام نموذجنا ، والاستمرار فيها عن طريق سلسلة من التقريبات • حقيقة أنه من الصعب ايجاد العلاقات الرقمية بين بعض البيانات ، ولكن يجب أن لا نسمح لهذه الصعوبة أن تمنعنا من الحركة • فالقرار النهائي يمكننا أن نصل اليه رويدا رويدا مع ظهور النتائج المختلفة • وممارسة مثل هذا النوع من التقريب من الطبيعي أن تتطلب أسلوبا مرنا ، كما تتطلب مساهمة عدد كبير من الأفراد حتى يمكن تحاشي الاضطرابات وعدم الاتساق •

ومن الطبيعي أن القرار النهائي سوف يتوقف على السلطات السياسية ، ولكن من المهم أن تكون هذه السلطات على علم تام بما يأتي :

ب ـ تكون الوسائل التي تستخدمها مناسبة للأهداف التي تصبو اليها •

وبما أن الموارد البشرية يكون من الصعب قياسها فانها تهمل غالبا ، وهذا يجعل الخطط المرسومة لا تعطي أفضل الحلول ، حتى من الناحية الاقتصادية البحتة • ولهذا السبب يجب أن يبذل كل مجهود للتعرف على ما وراء الاعتبارات المالية ، اذ أن هذا سيكون ذا فائدة عظيمة للتقدم البشري •



— ١ —

لقد غدت مشكلة المسئولية الاجتماعية للعلماء وخبراء التكنولوجيا احدى القضايا العصـــيبة فى الثقافة الحديثة منذ بداية الثلث الأخير من القرن العشرين . وينجم هذا عن كون العلم والتكنولوجيا قد أصبحا يحتملان الجدل والمناقشة . فالى قرن خلا كان أرسخ المفكرين قدما يناقشون كل المؤسسات القائمة ولكنهم يمتنعون عن تحدى العلم . خذ مثلا على ذلك العدميين الروس ، مثل بيزارف Pisaref وأنصاره ، فقد هاجموا جميع القيم التقليدية ، من الفلسفة المثالية والدين المسيحى والأخـــلاق الى الدولة والأسرة . وقد كانوا على يقين من أن الاستبداد والجهل كانا منبع جميع الشرور ، وأنه لابد من القضاء على الأول بالثورة ، والتغلب على الثانى من خـــلال العلم . وكان أبطال قصة تورجنف « **الآباء والأبناء** » يعتقدون أن العـــلم فى مجتمع المستقبل قمين بحل كافة المشكلات وعلاج كل الأمراض . ولقد ولت الآن نزعة التفاؤل تلك . فبعض شباب اليوم الذين لا يحتـــاجون الى أن يكونوا حتى ثوريين بدرجة مخففة ، اذا تجاوزنا عن ذكر كونهم عدميين ، يميلون الى الظن بأن العلم هو فى نهاية المطاف مشكلة ومرض يقتضى العلاج . فروح عصر الاستنارة ما برح جياشا بالحياة ،

بقلم : ميهايلو ماركوفيك

مدير معهد الفلسفة بجامعة بغداد • عضو مجلس ادارة اتحاد الدراسات الانسانية والأخلاقية ، ومستشار بأكاديمية السلام الدولية• كما أنه عضو فى هيئات تحرير العديد من الدوريات • ومن مؤلفاته باللغة العربية الكرواتية : المنطق : (١٩٥٤) ، نظرية المعنى الجدلية (١٩٦١) ، وغير ذلك من المؤلفات • وله كذلك مؤلفات باللغات الأخرى : الألمانية والانجليزية واليابانية •

ترجمة : الدكتور محمد فتحى الشنيطى

أستاذ ورئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية الآداب بالمنيا •

وثمة تيار من أقوى التيارات الاجتماعية فى جميع المجتمعات ، وهو مؤسس أيديولوجيا على الايمان بالعلم ومنتجاته : من قوة تفوق الطبيعة ، ومن ثروة مادية ، وتنظيم فعال للحياة الاجتماعية • ومن جهة أخرى ثمة شكوك متزايدة حول عدد متزايد من التورطات التى ينطوى عليها النمو العلمى ، من قبيل التدهور غير المتوقع فى العلاقات الشخصية فى المجتمعات المتقدمة علميا وتكنولوجيا ، واجراء البحوث بغرض التدمير ، وهو ما قد يسوق فى النهاية الى انتحار جماعى للجنس البشرى ، والفرص المتزايدة للتحكم فى الأفراد والتلاعب بهم ، والاستخدام الضخم للعلماء ومناهجهم وأجهزتهم لأغراض القمع ، والهاجس المرضى فى الاستهلاك الذى قد يفضى الى تبديد معظم الموارد الضرورية ، والى تلوث يتعذر القضاء عليه للبيئة الطبيعية •

هذا موقف جديد يتطلب استجابة سريعة من العلماء • ففى وسعهم اما أن يتقبلوا الانحراف كحالة طبيعية للأمور ويواصلوا وضع خط فاصل بين مسئوليات الإبداع وبين استخدام المعرفة ، أو أن يثوروا على الانحراف ضد موقف منتجى المعلومات الذين لا يعبأون بالأهداف الأساسية للبحث وبالمضمون الأوسع للمعرفة الذى تكتسب منتجاتهم الفكرية معناها النهائى فى كنفه ، كما لا يتاح لهم أن يشاركوا فى عملية اتخاذ القرار بصدد استخدام هذه المنتجات •

فلو تقبل العلماء الاختيار الأخير لتحتم عليهم أن يغيروا افتراضاتهم الأساسية بصدد طبيعة مهمتهم ، وأن يستعيضوا عن الأفكار السائدة من قبل عن العلم « الوضعي » بتصور لعلم « نقدى » وأصوله المنهجية ، وينبغى أن يفسح انفصالهم التقليدى وانعزالهم الطريق لاهتمام أشد جدية بكل أنواع اساءة استخدام المكتشفات العلمية فى أغراض منافية للانسانية ·

ولو تقبل العلماء الاختيار الأول ففى مستطاعهم ؛ مع ذلك ؛ أن يواصلوا الاصرار على القسم المهنى الضيق من العمل ، وأن يفلتوا من مسئولياتهم بأن يزعموا أن الموضوعية العلمية لا شأن لها بارتكاب الجرائم · ويمكنهم أن يقفوا وقفة دفاع مستندة الى الموقف القائل بأن البحث العلمى اما أن يتحتم تحرره من القيمة ويكون له حياده الأخلاقى ، أو تفتقر المكتشفات الى الموضوعية ويكون لها طابع أيديولوجى غالب ·

وليس لهذا الموقف تاريخ طويل · فالى نهاية القرن التاسع عشر كان التقويم النقدى للواقع يعد وظيفة مشروعة للبحث العلمى · وثمة فكرتان فلسفيتان تشكلان المعيار النهائى للتقويم : الأولى فكرة « النظام الطبيعى » و « الحقوق الطبيعية » للناس · وقد نشأت هذه الفكرة من الفلسفة الرواقية القديمة ، ونمت بوجه خاص فى القرنين السابع عشر والثامن عشر (عند بودوين ، وألثوسيوس ، وجروسيوس ، وهوبز ، وليبنيز ، وكانط ؛ وآخرين)· والفكرة الأخرى هى الفكرة الأحداث عن « التقدم » ، وقد انبثقت مع عصر الاستنارة ، وسادت القرن التاسع عشر · وقد جعلت من الممكن اتخاذ موقف نقدى تجاه أى وضع قائم فى الاقتصاد والسياسة والقانون ، من وجهة نظر النظام الطبيعى والتقدم · وهذه الأفكار كانت ، يقينا ، غامضة مدعمة بافتراضات ساذجة ذات جانب واحد ، وغير قابلة للتحقق من صحتها· ولم تستخدم لأغراض نقدية فقط ، بل استخدمت أيضا لأغراض تبريرية : فمثلا الاقتصاد الرأسمالى يؤول بأنه النظام الاقتصادى الذى يتوافق أفضل توافق مع الطبيعة البشرية ، ويتيح تقدما سريعا على النحو الأمثل · ومن هنا كانت المقاومة القوية لهذه الأفكار والحاجة المصممة لمحو كل أحكام القيمة من العلم وقصر البحث الاجتماعى على وصف الحالات الواقعية وتفسيرها · كان هذا كله فى جانب منه نتيجة لتزايد الصرامة المنهجية ؛ وكان من جانب آخر أيضا نتيجة للتعبير عن نزعة محافظة لاستئصال كل أساس علمى للنقد الاجتماعى ؛ واحالة التقويم وتقديرات الاحتمالات المستقبلة واتخاذ القرارات الأساسية الى مجال السياسة · وأيا ما كان الأمر فان تصورات النظام الطبيعى المثيرة للجدل والمناقشة لم تستبدل بها أية مقولات معيارية أخرى · والتيار الفلسفى الغالب فى العقدين الرابع والخامس ــ أعنى الوضعية المنطقية ــ أولت أحكام القيمة كمجرد تعبيرات عن الانفعال دون أى معنى عرفانى · وكنتيجة لذلك غدت الفلسفة منفصلة انفصالا تاما عن القضايا الاجتماعية الجياشة بالحياة ، وفقدت دورها التوقعى الناقد الرائد ، وأصبحت مقصورة على دراسة البناء المنطقى للغة · وعلى ما يغاير ذلك أول العلم بأنه دراسة ظواهر معطاة يمكن ملاحظتها ملاحظة تجريبية تقوم فى أفضل الأحوال اطرادات معينة ، وتستنتج منها بطريق

الاستقراء ظواهر معينة ممكنة • وكل تقويم بلغة الحاجات والمشاعر والمعايير الأخلاقية قد اعتبر غير عقلي من الأساس ، ولا يستحق الا أن يطرح جانبا •

وثمة حقب وظروف تاريخية كان فيها لمثل هذا التأكيد على الحياد الأخلاقي للعلم طابع تقدمي • ولقد كان « ماكس فيبر » على حق في اصراره على أنه في ظروف الحرية المقيدة للبحث وللتعليم العلمي قد ينقذ الحياد الأخلاقي شرف الباحث وكرامته بأن يتيح له أن يخلص نفسه من الأهدف اللاأخلاقية للدوائر الحاكمة • ففي مثل هذه الأحوال ، وبذلك المعنى ،يمكن للعلم المتحرر من القيمة أن يؤدي دورا تقدميا خاليا من الالغاز •

ومع هذا قد يلوح أن الخطر الاجتماعي الرئيسي في الوقت الحاضر لا يأتي من أنظمة الحكم الاستبدادية والدكتاتورية بقدر ما يأتي من الفراغ الروحي الذي يليء بايمان في القوة والنجاح وبأيديولوجية الاستهلاك ، وبهاجس يكاد يكون مرضيا عن فاعلية الوسائل ، يقترن به فقدان محتوم للاهتمام بمشكلة معقولية الأهداف وانسانيتها • ففي موقف تاريخي من هذا القبيل ، وفي طقس روحي على هذا النحو ، يؤدي مبدأ الحياد الأخلاقي دورا أقرب الى أن يكون ملغزا ومدعما للمذهب السياسي القائم • ان العلم المتحرر من القيمة ، بما يبديه من لامبالاة تجاه أية اعتراضات بعيدة المدى ، وبتشككه العميق في أية رؤى عن التغير الاجتماعي الجذري ، لا يقود الا الى نمو السلطة المنحرفة وتعزيزها ، والى تحكم أشد فاعلية في العمليات الطبيعية والتاريخية « داخل هيكل » البناء التاريخي القائم • ففي الوسع دائما تقبل المعرفة « الخاصة » الوضعية التدريجية ، وتأويلها ، واستخدامها بطريقة أنسب ما تكون للصفوة الحاكمة • ان مجتمعا يساند فيه هذا النوع من العلم يظل خلوا من وعيه بذاته وعيا كامنا ناقدا •

- ٢ -

والواقع أن تصور بحث علمي متحرر من القيمة هو تصور مضلل • فبعض القيم والمعايير تكون ماثلة دائما في كل بحث اجتماعي ، والسؤال لا ينصب الا على نوع تنتمي اليه • فبعض القيم العرفانية هي عناصر أساسية في المنهج العلمي : الوضوح ، الدقة ، المرونة ، الخصوبة ، القدرة التفسيرية للجهاز التصوري ؛ ضبط الاستدلال ؛ قابلية النظريات للتحقق من صحتها وللتطبيق ، الخ • وبعض هذه القيم تكمل الواحدة منها الأخرى ، ولا يتحتم أن تجرى احداها جنبا الى جنب مع سائرها • فبعض أنماط الأولوية تختلف من اتجاه منهجي الى آخر • فان نختار بين المنهج التحليلي ومنهج الظاهريات والمنهج الجدلي ، وأن نؤثر النزعة التجريبية أو العقلية أو الحدس ، وأن نفضل منهج التفسير أو منهج الفهم ، كل هذا لا يعني غير ايثار نموذج معين من اللغة ، وطريقة للتفكير ومجموعة من المسلمات الوصفية والابستيمولوجية والأنطولوجية ، ولكنه يعني مع هذا اعطاء أولوية لبعض القيم العرفانية على القيم الأخرى •

وبالاضافة الى القيم العرفانية ثمة قيم غير عرفانية مضمرة أيضا اضمارا ثابتا فى الافتراضات الضمنية النظرية والمنهجية للعلماء الاجتماعيين مهما يكن من زعمهم أنهم محايدون • فمثلا أصحاب النزعة الوظيفية فى علم الاجتماع يفترضون أن المجتمع نسق « مستقر » ، « تتكامل » أجزاؤه « تكاملا حسنا » ، لكل منها وظيفة محددة ، وهو يسهم فى « المحافظة » على النسق • وأداء النسق لوظيفته على الوجه الأمثل مرهون «بالاتفاق» على قيمه الأساسية • وأخيرا فأى تنكب لهذا النظام مفسد للوظيفة، ومنحرف ، و « مرضى » • وفيما يغاير ذلك يفترض عالم الاجتماع الماركسى أننا نعيش حقبة انتقال من نشاط انسانى مادى الى نشاط حر ، من مجتمع مكبل بالطبقة الى مجتمع خال من الطبقات ، ومن هنا فجميع الأنساق الاجتماعية « غير مستقرة » بدرجة أو بأخرى ، وفيها نزعات واضحة « التفكك » ، ومؤسسات كثيرة « فسدت وظيفتها » فسادا بينا ، مزقها « الخلاف » و « الصراع الطبقى » • والانحراف عن مجتمع مريض والانشقاق عليه بدلا من أن يكونا مرضيين قد يكونان ثوريين • ههنا لدينا بوضوح صدام بين المواقف تجاه نسق القيم كله المشيد فى مجتمع قائم • فبالالحاح على الاستقرار والانسجام والنظام تحاول النزعة الوظيفية أن تدافع عنه • وبافتراض تغير اجتماعى بنائى ثورى لا مفر منه ، وبتحبيذ موقف ناقد متمرد ، تتوخى الماركسية أن تهدم دعاوى شرعية ذلك النسق من القيم ، وتظهر أن بعض مزاعمه الأساسية على الأقل ليس لها طابع انسانى كلى ، بل تعبر عن حاجات ومصالح جماعات حاكمة معينة • وعلى ذلك ، فمثلا الملكية الخاصة ، والتنافس الاقتصادى ، والعمل من حيث هو كذلك (بصرف النظر عن كونه منحرفا أو غير منحرف) ، والنظام ، والطاعة المدنية ،والوحدة القومية ، وحرية التعبير عن الآراء بدون حرية المشاركة فى اتخاذ القرار ، الخ ، ليست فى الواقع غير قيم لأناس معينين فى زمن معين وفى ظروف خاصة معينة • فالدفاع عنها (جهرا أو ضمنا) دون أى كفاءة لها أمر يتنافى مع الموضوعية العلمية والكلية العلمية • فالعلماء الأفراد الصادقون ينتمون الى أمة معينة والى جماعة اجتماعية ، وقد تربوا فى كنف عرف خاص وفى طقس اجتماعى محدد • وأشق مهمة مسئولة لأولئك الذين يدربون شباب العلماء هى من ثم أن يمدوا لهم يد العون ليتغلبوا على هذا الأفق الفكرى النقدى الضيق ، وليدركوا أن العلم هو انتاج انسانى كلى •

والواقع أن بعض القيم الأخلاقية الكلية متضمنة فى تصورات الموضوعية المعقولية التى تشكل أساس المنهج العلمى عينه • (وقد كان « جايجر » Geiger على حق حين أصر على أن ثمة حلقة وثيقة بين مهارات العالم Fachkoner وبين ضميره Fachgewissen • « والموضوعية » تفترض مسبقا أمانة جذرية فى تطبيق القيم المهنية للبحث ، وفى تجاهل المصلحة الشخصية من أى نوع تجاهلا قاطعا ، وفى روح تعاونى فى عملية النشاط الرمزى بأسرها (وبدونها يستحيل الاتصال) ، وفى استعداد لاعطاء الأولوية للحقيقة على الولاء للجماعة ، والتحرر من التعصب العقلى ، والاجتماعى ، والدينى والأيديولوجى • وموضوعية البحث العلمى تتوقف على شروط اجتماعية معينة ، وهذه بدورها مرهونة بتحقق سلسلة من القيم

الأخرى ، مثل « انفتاح » مجتمع على سائر مجتمعات العالم ، وجو عام من « التسامح » السياسي والثقافي (الذى لا يستبعد صراعا ضد الخرافات والأحكام المتغرضة) ، و « التدفق الحر للمعلومات » (الذى يتضمن حرية التعبير عن الذات ، والمناقشة ، والسفر ، ودراسة أية مشكلة لها أهمية علمية) ، و « استقلال العلم الذاتى » عن الدوائر الاجتماعية الأخرى وبخاصة عن السياسة ، وطقس اجتماعي يحبذ « **المواقف المناهضة للتحكم والاستبداد** » ، وهو ينطوى على أن السلطة الوحيدة فى العلم هى السلطة المؤسسة على المعرفة ، والمقدرة ، والصفوة الوحيدة فى المجتمع هى صفوة الفكر والذوق • وعلى العكس من ذلك فان أية عوائق تعوق الاتصال ، وأى عداء أيديولوجى تجاه المذاهب الفلسفية والاتجاهات المنهجية المنافسة ، وأى احتكار للسلطة يفرض على البحث العلمى والنشر العلمى التحكم والرقابة ، ويعنى بتصعيد الأنصار الموالين فى مناصب السلطات العلمية ، يقهر الموضوعية الى حد كبير ، ويفضى الى افساد عام للعمل العلمى •

وثمة شرط اجتماعى آخر للموضوعية يبين آجلى بيان ارتباطها بالنزعة الانسانية• فبينما العمل العلمى امتياز تمتاز به أقلية صغيرة ويظل بوجه عام حقلا منعزلا انعزالا تاما فى القسم المهنى للعمل ، فان صفة « الموضوعى » تعنى فى كثير من الأحيان ما انعقد عليه اتفاق الخبراء المهنيين • ومع ذلك فبالقدر الذى يحصل به عدد متزايد من الناس على التعليم الضرورى فى أوقات فراغهم ، وينمون اهتماما فعالا بالعلم ، تتسع دائرة الملاحظين المدربين وبناة النظريات والنقاد ، وبخاصة فى العلوم الاجتماعية ، اتساعا جوهريا ، وتغدو الأحكام الاجتماعية المنصبة على الصحة الموضوعية للمعطيات والنظريات أشد حسما وضبطا •

ويمكن تحليل « تصور المعقولية » العلمية تحليلا مماثلا • فكل سلوك عقلانى فهو محمل بالقيم : اذ يتألف من اختيار أشد الخيارين احتمالا للوصول الى هدف معين • والأهداف فى معظم الأحوال غير مختبرة ، مفترضة ضمنا ، موضوعة بين أقواس ، وهذا يخلق الخداع القائل بأن المعقولية التكنولوجية المستندة الى أجهزة متحررة من القيمة ومحايدة أخلاقيا • وهى ، بالطبع ، ليست كذلك • ومنتجات جديدة كثيرة نابعة من عمليات منتجة ذات مستوى رفيع من العقلانية ، لا تعدو كونها أكثر « فائدة » للمنتج ، وليست على مستوى عال فى اشباع « الحاجات الانسانية »• وان اختبار القيم المحجوبة فى طيات تصور المعقولية ليكشف الغطاء عن مشكلة الأهداف النهائية للبحث العلمى كله • والآن لقد غدا واضحا وضوحا يقينيا أن بعض الجهود العلمية الضخمة فى هذا القرن قد أسىء توجيهها الى حد ما ، وقد أهمل الكثير من الحاجات الانسانية الجوهرية ، وبددت كميات لا تصدق من الخامة والمعرفة ومن أفضل طاقة بشرية ، لاشباع حاجات عرضية ومستقرأة بطرق زائفة ، والعلم فى عمومه يتطلب وعيا ذاتيا مترابطا ناقدا ، وتوجيها انسانيا جديدا •

ومفتاح مشكلة بناء توجيه جديد من هذا القبيل يتمثل من الوجهة النظرية في تبرير المطلب القائل بأن لمعاييره الأخلاقية الأساسية طابعا كليا ٠

وثمة مبررات ثلاثة في وسعنا أن نسوقها للاقرار بشرعية هذا المطلب ٠

أولا : يظهر تاريخ الفلسفة والثقافة درجة عالية للغاية من الاجماع بين كبار المفكرين المعترف بهم بصدد بعض قيم أساسية ، مثل الحرية ، والمساواة ، والسلام، والعدالة الاجتماعية ، والحقيقة ، والجمال ؛ الخ ٠ وهذا الاجماع لا يثبت شيئا ، ولكنه يدل على الطابع الكلي لبعض معايير الحياة البشرية ٠

ثانيا : تزودنا الأنثروبولوجيا النقدية الفلسفية بنظرية عن الانسان ، عن قدراته الجوهرية وحاجاته الحقيقة ، يمكن أن يستمد منها اعتبارات القيمة المتضمنة لمشكلة مراتب القيم ٠ وواضح أن هذه النظرية لا تشمل عنصرا « دالا » فقط ، بل تشمل أيضا عنصرا معياريا ٠ والعنصر الأول مفهوم ضمنا ، فمثلا في التبرير النظرى للرأى القائل بأن ثمة استعدادات كامنة على نحو كلي (من قبيل : قدرات استخدام الرموز والاتصال ، وحل المشكلات الجديدة ، وتنمية وعى ذاتي ، الخ) ، وأنها تتحقق في مرحلة معينة من النمو في كنف ظروف اجتماعية مواتية ، وأنها قد تتبدد وتخمد اذا افتقرت الى الظروف الملائمة ٠ والعنصر المعيارى مفهوم ضمنا في اختيار القدرات الانسانية الجوهرية ، وفي التمييز بين الحاجات « الحقيقية » والحاجات « الزائفة » ٠ ويمكن اثبات صحة صفة الكلية للعنصر المعيارى اذا كان في الوسع اظهار أن لكل أفراد البشر الذين نموا نموا سويا حاجات وإيثارات عاطفية مماثلة من حيث تركيبها، في بعض الحالات الوجودية العصيبة من حرمان وألم ، ونشاط الجماعة ، وجاذبية جنسية ٠ الخ ٠

ثالثا : يستمد علم النفس المعاصر الآخذ بالنزعة الانسانية القيم الكلية الانسانية من دراسة الأشخاص المكتملين الأصحاء نفسانيا ٠ والنقطة المنهجية الجوهرية هنا هي أن الصحة قد تعرف تعريفا من « الواقع الفعلي » لا بالاستعانة بتصورات مجردة على مستوى أعلى ٠ ويعرف « أبراهام ماسلو » Abraham Maslow الكائن البشرى المكتمل السليم بالخصائص التالية التي توصف وصفا تجريبيا : ادراك أوضح للواقع، انفتاح أشد على التجربة ، تكامل متزايد للشخص ، تلقائية متزايدة ، هوية راسخة، موضوعية متزايدة ، استعادة القدرة الابداعية ، القدرة على ادماج المحسوسات ، والتجريد ، وبناء الشخصية بناء ديمقراطيا ، القدرة على الحب ، الخ (١) ٠ ومن جهة أخرى ما يميز الحالات العقلية المرضية كلها هو تفكك الشخص ، واستقرار الكائن العضوى بأسره استقرارا داخليا ٠ هذه الطريقة في فهم الموضوع تتيح لعلماء النفس الانسانيين أن يستبدلوا بالسؤال : ماذا «ينبغي» أن تكون القيم الانسانية ؟ «السؤال الواقعي : « ما هي قيم الكائنات البشرية » ؟

واذا أخذنا معا هذه الطرائق الثلاث ، التاريخية والفلسفية والسيكولوجية ، اتاحت لنا أن نتحدث حديثا مملؤا بالمعنى عن أساس انسانى عالمى لعلم اجتماعى نقدى ·

ويترتب على هذه الاعتبارات الثلاثة أن يتاح للعالم الاجتماعى أن يختار بين المواقف الثلاثة البديلة التالية :

(أ) فهو اما أن يعمل كمدافع عن أيديولوجية رسمية فى مجتمع معين ·

(ب) أو أن يحاول مواصلة البحث مهتديا بهدى معايير عرفانية فقط ، ويحيل الى الخلف آية مبادىء أخلاقية ، أو مطامح اقتصادية وسياسية وثقافية ·

(جـ) أو أن ينهمك فى دراسة نقدية من جهة نظر انسانية عالمية ·

وليس من الصعب تفسير السبب فى كون كثير من العلماء الاجتماعيين يتولون أداء دور المدافعين · فهم ، على الأفضل ، قد يتقمصون الأيديولوجية الرسمية، ومطامح الصفوة الحاكمة وأهدافها · وهم على الأسوأ ، قد يتكيفون ، لأنهم يدركون ثمن قبول أداء ذلك الدور أو رفضه : بين مكانة اجتماعية عالية فى احدى الحالتين ، وبين نبذ فى الحالة الأخرى · وأيا كانت دوافع العلماء الذين يقررون أن يجعلوا عملهم خاضعا للمطالب الايديولوجية فانهم لا يملكون الا أن يخرقوا معايير المنهج العلمى التى ترتبط بالحقيقة ولها من ثم صحة موضوعية عالمية · ومن جهة أخرى فالأيديولوجيات كلها تسويغات باطلة ، وهى من حيث كونها تعبيرات عن مصالح خاصة محدودة فانها ، شاءت أم لم تشأ ، nolens volens تؤول العلاقات الاجتماعية بطريقة ملغزة ، مدعية أنها انما تقدم حقائق علمية ·

ويمكن للعلماء الذين يسلمون أنفسهم للحياد الأخلاقى والأيديولوجى أن يتجنبوا هذا النوع الأسوأ من أساءة الاستخدام · وثمة أشكال مختلفة عديدة لهذا الطراز فى علاج الموضوع · فالواضح أن ثمة فوارق ملحوظة توجد بين عالم يلوذ بأمن العلم الخالص ، فى حين يرفض فى صمت النسق الرسمى للقيم فى مجتمع قمعى ، وبين ثائر سابق محبط وشاك ، غدا كل التزام فى نظره معدوم المعنى ، وبين صاحب نوع خاص من سلعة المعرفة والمهارة العقلية ، فى خدمة أى شخص مستعد لدفع الثمن ، وبين خادم للحكومة أو الشركة ، يعتز بوظيفته الاجتماعية ، ولكنه على خلاف صاحب العقيدة الأيديولوجية ، يتوخى أن يقدم معرفة « وضعية » حقا فى المهام التى تعهد بها اليه المؤسسة ، وأخيرا حامل المعرفة كتلك الشخصية التى يقدمها « برتولد برخت » ، فالهر « كينر » لا ينبغى له أن يقاتل ، ولا أن يقول الحقيقة ، ولا يخدم أى شخص ، فهو ليس لديه غير « احدى الفضائل وهى أنه يحمل المعرفة » · وثمة قسمة مشتركة بين كل هذه المواقف المختلفة ، ألا وهى الافلات من المسئولية لاستخدام المعرفة ·

بيد أن العالم لم يعد يستطيع أن يتجاهل هذه المسئولية · فقد ترتب على

أسوأ استغلال للجهد العلمى فى التاريخ ، أعنى تطور القنبلة الذرية ، أن نتج على الفور سلسلة من ردود الفعل عند قادة العلماء المعاصرين : رسائل « أينشتين » و « زيلارد » Sziland ، وتقرير « فرانك » Franck والالتماس المرفوع فى ١٧ يوليه ١٩٤٥ الى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وبعد ذلك حركة « بوجواش Pugwash » ، ومشاركة متزايدة من العلماء فى حركات السلام ومشكلات البيئة وفى أنشطة ثقافية متنوعة فى الأمم المتحدة واليونيسكو · لقد بدأ بزوغ تضامن دولى للمثقفين فى العقود الأخيرة · وثمة وعى ناقد آخذ فى النمو ينحو نحو تجاوز قيود الأمة والسلالة والطبقة أو الدين ، ويقف موقفا انسانيا · وثمة تعبير من بين أوسع التعبيرات انتشارا عن هذه النزعة العالمية الفكرية التلقائية نجده فى أول بيان « لبوجواش » وقعه « برتراند رسل » و « ألبرت أينشتين » :

« نحن نتحدث لا كأعضاء فى هذه الأمة أو تلك ، منتمين الى هذه القارة أو تلك العقيدة ، وانما ككائنات بشرية ، كأعضاء ينتمون لنوع الانسان ، الذى غدا استمرار وجوده موضع شك » ·

« ان معظمنا محايد من حيث الشعور ، بيد أننا ككائنات بشرية علينا أن نتذكر أنه اذا كان لابد للمسائل بين الشرق والغرب أن تحسم بطريقة من الطرق تحقق رضى لأى شخص ، شيوعيا أو مناهضا للشيوعية ، آسيويا أو أوربيا أو أمريكيا ، أبيض أو أسود ، فينبغى أن لا تحسم هذه المسائل بالحرب ·

« ···· اننا ككائنات بشرية نناشد كائنات بشرية ، ألا تذكروا انسانيتكم ، وانسوا ما عداها » ·

— ٤ —

وكثير من العلماء يحسون بالارتباك حين يواجهون نداء انسانيا عالميا من هذا القبيل وثمة أسباب وجيهة ليأخذوا جانب الحذر ·

أولا : أن وجهة نظر عالمية قد تبلغ من التجريد حدا لا تنصف معه أية وجهة نظر « خاصة » أو مطلب « خاص » · فهى فكريا وأخلاقيا مريحة للغاية · وهى الى ذلك الحد غير مسئولة ، اذ تموه كل المسائل وتتخذ مظهر قاض عالمى « محايد » يدين كل الجوانب مؤثرا عليها جانب « الجنس البشرى » · وبعض وجهات النظر الخاصة قد تكون بالتأكيد أكثر اتساقا مع المصالح والحاجات العالمية للتطور الانسانى ولتحقيق الذات الانسانية ، من وجهات نظر أخرى · زد على ذلك أنه ليس من الممكن، عمليا ، تشجيع هذه المصالح العالمية بدون اتخاذ موقف خاص لكل حالة خاصة · وقد ينطوى هذا فى بعض الظروف على ادانة كل الجوانب ، وينطوى فى ظروف أخرى على الموافقة على الجانب الذى اذ يكافح من أجل غاياته يناضل من أجل الانسانية ككل،

ومساندة هذا الجانب مساندة فعالة . فالمطلوب نزعة « عالمية » « تاريخية ملموسة »، لا مجردة ومتعالية .

ثانيا : تقترن النزعة الانسانية فى معظم الأحيان ، فى التاريخ وفى المعاجم . بحب الخير لبنى البشر ، والتسامح ، والاحسان ، ورقة القلب ، وفعل الخير ، حتى أن معظم المصلحين والثوار الاجتماعيين يعارضون فى انتحال هذا الشعار حتى ولو كان لديهم ، موضوعيا أو ذاتيا ، وجهة نظر عالمية . والدعوة الى نزعة عالمية مجردة والى نزعة انسانية متسامحة يمكن أن تكون أيديولوجية السلطة المسيطرة التى يمكنها بذلك أن تحاول تحييد النقد الأصيل للعلاقات الاجتماعية القائمة والزيغ بالنشاط النضالى الفعال الى جهود معتدلة غير مؤذية من أجل السعادة والرفاهية . ان وجهة نظر انسانية عالمية واقعية لا علاقة لها بتصور سطحى خاو من هذا القبيل .

ومنذ بدايات الثقافة اليونانية القديمة «**العالمى**» و «**الانسانى**» و «**النقدى**» **تمضى** معا فى شكل أو آخر . فتبعا «لهرقليطس» ، مثلا، يعيش الانسان فى سجن عالمه الفردى من حيث أنه يعتمد فقط على تجاربه ومطامحه الشخصية . ويتيح له التفكير أن يدرك « اللوجوس Logos » البناء العالمى للوجود كله ، ومن ثم يدخل عالما مشتركا بين جميع أولئك الذين يفكرون . وبهذه الطريقة يتغلب الناس على وضعهم السابق ويتطورون الى كائنات « يقظة » . وعند « أفلاطون » وعند الفلاسفة الرواقيين وكثيرين آخرين من المفكرين الكلاسيكيين يجد المرء اندماجا مماثلا لثلاثة أفكار عظيمة :

(أ) البناء الكلى للوجود قائم .

(ب) أن هذه الكلية ليست على الدقة خارج الانسان بل يمكن للانسان أن يكتشفها ويستسيغها .

(جـ) أن الانتقال من وضع فردى قائم الى امكانية وضع عالمى ، له طابع نقدى : يعيش الانسان فى حلم ، فى كهف ، فى سجن قبل أن يتيح له فكره النقدى (حيث يندمج العقل والانفعال) (١) أن يستيقظ ، ويجعله حرا ، وانسانا بالفعل . والنقطة الرئيسية التى تخطت فيها النزعة الانسانية الحديثة تخطيا حاسما صورتها القديمة هى فى الطابع « التاريخى » ، وبالتالى فى تأكيد أقوى على البعد « العملى » للانسان . فالانسان العالمى من حيث كونه فردا فعالا يتطور تطورا يسبق الزمن ، ويتخذ الانفصام بين الكائن البشرى كما هو فى واقعه الفعلى وبين الكائن البشرى بما يكمن فيه من امكانيات ، يتخذ هذا الانفصام أشكالا مختلفة فى كل حقبة تاريخية ، وليس غرض النقد أن يوقظ الانسان فقط ، وانما أن يتغلب أيضا تغلبا عمليا على أية حالة اجتماعية يظل الكائن البشرى فيها محبطا منحطا .

وأخيرا ، ثمة سبب ثالث لوقف النبذ الذى يقفه بعض العلماء المعاصرين من

---

(١) للفكر اليونانى طابع عقلى قوى ، ولكنه بعيد عن تلك العقلانية الباردة المحسوبة فى العلم فى أيامنا هذه . وعند « أفلاطون » أن **العاطفة** الفلسفية الصادقة هى أساس الفلسفة كلها .

النزعة الانسانية ، حتى ولو انطوت على نزعة نقدية ، أو على الدقة لذلك السبب يفشل بعض الآخذين بالنزعة الانسانية فى استيفاء المعايير العلمية المنهجية أو حتى فى اتخاذ موقف ملحوظ ضد العلم • هنا ينبغى للمرء أن يميز بين نوعين من هجوم أنصار النزعة الانسانية على العلم الوضعى ، يختلفان اختلافا تاما فى دوافعهما وحججهما • فأحدهما ينحدر من الانسانيات التقليدية التى كانت تعبر دائما عن اللامبالاة تجاه التطبيق العملى للمعرفة والفعالية كقيمة • ولهذا جذوره فى علاقة اليونان بالعمل، وفى اقتناعهم بأن «النظرية» Theoria لها شأنها فى المقام الاول كطريقة للوصول الى الانسانية الكاملة ، لا كوسيلة لانجاز بعض الاهداف العملية • وكلمة «التهذيب» Humanitas عند «شيشرون» تدل على مجموعة من الخاصيات الانسانية التى تنميتها عند كل فرد من خلال التربية المناسبة • ذلك هو السبب الذى من أجله كان الغرض من الدراسات الانسانية دائما فى جامعات العصور الوسطى ، ابان عصر النهضة وبعده ، تهذيب القدرات الروحية ، وتنمية الاساس الثقافى اللازم للمجتمع• وقد خلقت الانسانيات الصفوة المفكرة فى المجتمعات الاوربية لقرون عديدة ، بيد أنها فقدت دورها الغالب كمجال للدراسة منذ بداية الثورة الصناعية والتطور المتزايد السرعة للعلم المتجه اتجاها تكنولوجيا • بيد أن المنافسة لم تختف ألبتة • ودارسو الانسانيات يقيمون تمييزا قاطعا بين علوم النواميس الطبيعية والمنطقية وبين العلوم الرمزية ، ويزعمون أن البحث عن قوانين علمية فيما يختص بالمجتمع الانسانى بحث لا معنى له ، وأن منهج تغطية التفسير بالقانون ينبغى أن يستبدل به منهج الفهم ، وأن المناهج الصورية والكمية عقيمة ومضللة ، الخ • ويجيب «الوضعيون» بأن كل بحث علمى أصيل ينبغى أن يتبع قواعد منهجية مصوغة صياغة واضحة • وأن يعول على عمل منجز وفقا لما يمليه الضمير ، وأن تقدم نتائج قابلة للفحص من أكثر من شخص • وعلى العكس من ذلك ينحو دارسو الانسانيات نحو التعسف ، ويعولون على ملكات عقلية غير قابلة للتحقق من صحتها (الحدس ، الخيال ، الفهم • الخ) ، ويقدمون نتائج ذاتية مثيرة للنقاش والجدل •

والمدافعون عن العلم الوضعى هم على التأكيد سجناء نموذج متحيز جدا ومبسط للعلم ، يعانى ، فضلا عن سذاجته فيما يختص بالقيم ، من العجز عن تفسير الجوانب المساعدة على الكشف والمبدعة فى البحث العلمى • بيد أن الحق فى جانبهم حين ينتقدون محاولات ادخال انشقاق بين العلوم وبين الانسانيات • فالاختلاف بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية هو اختلاف فى الدرجة فقط • وأية تصورات تنصب على الامكانية الافضل للحالة الاجتماعية (وهى النقطة الحاسمة فى نظرية اجتماعية نقدية) تستلزم أشد الابحاث تشككا فى الحالة القائمة ، من حيث اتجاهاتها العامة وأشد نتائجها احتمالا فى المستقبل • وبدون دراسة عينية من هذا القبيل تظل طريقة البحث النقدى العام فى الانسانيات مبهمة وغير متحددة بشكل خطر • ان الافتقار الى معرفة الوقائع وقوانين الحالة الاجتماعية موضع الدراسة يتضمن الجهل بالحدود التى تتهيأ فى كنفها لأهداف عمل اجتماعى ممكن فرص النجاح •

ونقد العلم الوضعي الناشيء من بعض الدوائر اليسارية له دوافع مختلفة ، ولكنه يعاني في كثير من الاحيان من طريقة التناول المنشعبة للعلاقة بين النزعة الانسانية والعلم . وقد نبذ أعضاء مدرسة « فرانكفورت » وبخاصة « ماكس هوركمايستر » أية نظرية وضعية للبناء باسم «الجدل السلبي» . والحجة هي أن لكل النظريات الوضعية وظيفة دعم النسق . وعلى ذلك فمهمة نظرية اجتماعية جدلية لا يمكن الا أن تكون نقد واقع اجتماعي معطى ، وجميع النظريات العلمية المقترحة . وثمة حجة مماثلة يقدمها الكتاب الوجوديون تأخذ بأن اقامة القوانين العلمية لمجتمع يعادل تحديد شروط قيامه بوظيفته السوية واستمراره ، ومن ثم فللعلم وظيفة محافظة ضمنية .

وتكمن قوة هذه الحجة في كونها تشير الى شيء ما يحدث بالفعل في معظم الاحوال ، وان كانت لا تحدث الا لأن معظم العلماء يتقبلون مع ذلك أدوار دعم النسق . والمنهج العلمي من حيث هو كذلك لا يمنع عالما من اقامة قانون يصف نزعة هدامة في النسق . وقانون «ماركس» عن انخفاض متوسط قيمة الفائدة هو مثل كلاسيكي على ذلك . وفي الواقع قد يبدو أن مطلب الموضوعية العلمية نفسه يلزم العالم الاجتماعي بأن يقيم معا شروط أداء نسق لوظيفته أداء مستمرا وسويا وشروط تغيره الكيفي ونشوء نسق جديد . وهو انما يعني أولا : أن بناء النظرية العلمية ليس في حاجة الى أن يلعب دورا تبريريا ، وثانيا : أن الباحث الجدلي ليس محكوما عليه أن ينقد نقدا سلبيا فقط . والحق أن مصطلح «الجدل السلبي» نفسه يبدو مضللا . ان سلبية فكر نقدي جدلي تتألف من اكتشاف القصور الجوهري في نسق ما ووسائل التغلب على هذا القصور . هذه السلبية المزدوجة Aufhebung تفضي الى نسق جديد، وليس ثمة شيء في العملية الجدلية يمنعنا من وصف هذا النسق الجديد (وكان هذا عند هيجل مرحلة التركيب) . وعملية الفكر النقدي لا تقف بالطبع عند النسق الجديد . فثمة سلسلة من الخطوات المتعاقبة وضعت خطوطها بالطريقة التى تدل عليها النظرية النقدية ، تتوسط بين الحالة الفعلية في الحاضر وبين رؤية فرصة تاريخية مثلى عن حقبة بأسرها . وبدون هذا التوسط تظل الرؤية الانسانية لمستقبل أمثل مجرد أمر من أمور الايمان أو الأمل . ان النزعة الانسانية تحتاج الى العلم لتعلو على طابعها الطوبائي التعسفي ، أعني لتترجم مطامحها النظرية الى ممارسة .

― ٥ ―

وما أن يأخذ العلماء مسئوليتهم على عاتقهم ويتقبلوا وجهة نظر انسانية أخلاقية حتى يتعهدوا لا باظهار الطريق الى الممارسة الاجتماعية فقط بل أيضا بالاسهام بدور مباشر في تلك الممارسة . وطابع تعهدهم يتوقف بشكل واضح على طبيعة المشكلات التي يخلقها التطور العلمي الحديث .

وأشد المهام الحاحا هي النضال بكل الوسائل لقمع التكنولوجيا الموجودة المنافية

للانسانية والقضاء عليها . هذه الوسائل هي فى المقام الاول النضـال من أجل نزع السلاح ، ومن أجل تكنولوجيا جديدة مانعة للتلوث .

وثمة مهمة أوسع هي تعهد فعال ضد اساءة استخدام المعرفة الموجودة ، وذلك لأن أولئك الذين أبدعـوا المعرفة من حقهم بل من واجبهم أيضـــا أن يكونوا مهتمين بتطبيقاتها العملية .

وكما ألفنا من قبل بعضا من أسوأ الاشكال لاساءة استخدام المعرفة فانه يغدو ممكنا أحيانا التعرف على الطابع المرضى للبحث فى مرحلة مبكرة . و « مرضى » هنا تعنى البحث لأغراض منافية للانسانية ، مثل تدمير الحياة البشرية ، وتسميم بيئتنا الطبيعية ، أو التسلط على الاذهان البشرية . والاسهام فى بحث من هذا القبيل مع الدراية التامة بالغرض منه أمر لا أخلاقى على نحو واضح . صحيح أن الغرض العملى لبحث معين لا حاجة لمعرفته ، أو يمكن أن يكون غير متصل بالاستخدام التالى لنتائجه، ولكن ثمة حالات أخرى يعرف فيها هذا الغرض أو يمـكن معرفته . فالالزام الاخلاقى للعالم فى مثل هذه الحالات أن يرفض الخدمة . ففى وسعه أن يصون تكامله الاخلاقى ويتجنب البغاء الفـــكرى اذا رفض أن يكون شريكا فى الاعـــداد العلمى لجرائم ضد البشرية ، وفى انتهـــاك حقوق الانسان ، أو فى التدمير النفسانى المنهجى للمطامح الانسانية صوب الحرية والتطور . ان رفض استخدام معرفة انســان ومهاراته من أجل أهداف من هذا القبيل يمكن أن يتخذ أشكالا مختلفة ، فى شـكل تمرد صريح اتباعا لنصيحة جوته : « تحد السلطة ، ولا تنحن ألبتة ، وأظهر نفسك قويا » . وفى شكل من أشكال الرفض أكثر سلبية يتبع حكمة الهر « كينر » فى مسرحية «برخت» المشار اليها : « لا تخدم سلطات من هذا القبيل ، ولكن لا تقل « لا » بصوت عال ، فليست لدى عزيمة لتحطيمها ، ويجب أن أعيش الى ما بعد زوال تلك السلطات » .

ولقد آن الأوان للعلماء لاعداد استراتيجيات متنوعة للعصيان المهنى ولمقـــاومة اساءة الاستخدام ، وهو ما يقتضى أيضا تغييرا فى طابع منظماتهم . وحتى الآن نظم العلماء أنفسهم تنظيما مبدئيا ، اما فى جمعيات علمية من أجل الارتقاء بالمعرفة ، أو فى جمعيات مشابهة لاتحادات التجارة من أجل حماية مصـــالحهم المهنية . واليوم يلزم الاعداد للنضال الطويل القادم ضد اساءة استخدام « وتبديد » المعرفة العلمية ، ولأن اساءة الاستخدام تلك ذات وزن دولى فليس فى الوسع ابطالها ابطالا فعالا نسبيا الا بتنظيم عالمى للعلماء .

وليس من شك فى أن تنظيما كهذا التنظيم مطلوب أيضا لغرض آخر : حماية العلماء الذين يضطهدون بسبب مواقفهم الاخلاقية ، وبخـــاصة ازاء جرائم من هذا القبيل ، كالتحليل النقدى للأنساق ، وتحـــدى الايديولوجية الرســـمية ، وفضح المؤسسات والقادة المنحرفين ، أو كشفها للجمهـــور الذى من حقه آن يعرف القـوى السياسية والاقتصادية والعسكرية المنحرفة التى تدخل العفن الى حياتهم .

والقوة الاخلاقية لفرد لا يمكن أن تتوقف على وجود وفاء أية منظمة وفاعليتها .

فالمنظمات يمكن أن تساعد على تعبئة الرأى العام وعلى التعبير عن التضامن الجماعى ٠ وحسن أن نعرف أن المرء ليس وحده ٠ بيد أن القرارات الاخلاقية يلزم اتخاذها حتى ولو كان المرء وحده ٠ والمعايير الاخلاقية هى معـايير اجتماعية بكل ما فى الكلمة من معنى ، بيد أن قرارات العمل طبقا لها وركوب المخاطر التى ينطوى عليهـا مثل هذا العمل هى قرارات فردية واستقلالية ٠ وثمـة شروط معينة تنقص ضـعف حصانة الشخص وتزيد الاستقلال الذاتى الضرورى له ٠ وتتصل هذه الشروط كلهـا بمثل هذه التغيرات فى الوعى الفردى وفى أسلوب حياته ، كما تنجم فى معنى أعظم للهوية الذاتية وللاستقلال فى الرأى ٠ ويبدو أن للشروط التالية أهمية أساسية :

١ ـ اعادة الفحص النقدى للقيم وأدوار الحياة التى فرضت علينـا ابان عملية التربية والتعليم ، مع هدف نهائى هو بناء اتجاه للحيـاة جديد مترابط أساسى ٠ وبدون مجهود من هذا القبيل نقدى ومحقق لتكامل الذات قد يفتقر العالم لقوة الاقناع الاخلاقى ٠ وسيجد فى وعيه ، مثله مثل أى فرد ، معـايير متنوعة توجه سلوكه ، ولكنه من حيث كونه عالما سيدرك ، بخلاف الافراد الآخرين ، أن هذه المعايير تفتقر الى الوحدة والاسس العقلية معا ، وأنها تنبع من منابع مختلفة وتشكل قـوى لحياته الشعورية غريبة وغير جديرة بالثقة ٠ مثل هذا التآكل للوعى الاخلاقى الاصيل يفضى الى سلوك براجماطى أو هروبى ٠ وبدون نظرة شمولية للحياة Weltanschauung مقبولة وجديدة وحرة ، تعد الاساس لمعنى ثابت للاتجاه ، سيصعب امكان قيـام استعدادأخلاقى نابع من الذات بكل ما يصحبه من مخاطر ٠

٢ ـ التحرر من الحاجات الكاذبة الزائفة ، مثل : الخاصة بالسلطة ، والثروة ، وسلع الاستهلاك غير الضرورية ، والالقاب والمقامات التى لا معنى لها ، أو الصداقات الزائفة ٠ والطابع المميز لكل هذه الحاجات أنها لا تبدد الوقت وتولد القلق المستديم فقط وانما تجعل الشخص أيضا متواكلا وضعيف الحصانة ٠ والحرية المتضمنة فى فعل أخلاقى تنطوى على استعداد لتقبل الضربات من السلطة ضد ما وجه اليه الفعل الاخلاقى ٠ ولما كان اشباع معظم الحاجات الزائفة يعتمد على السلطات القـائمة فان الانتقام يغدو سهلا ، ويلوح الثمن الذى يتقاضى للحرية مرتفعا ، ويبلغ التردد فى دفع هذا الثمن حد التخلى عن الحرية ٠ لقد كان «سبينوزا» أعظم أهل زمانه تنعما بالحرية، لأنه كان يكسب قوته من تنظيف البصريات الى جانب أشياء أخرى ٠ ان العلماء الذين يتوقون الى الارتقاء وارتفاع المكانة وانتهـاز الفرص للنفوذ السياسى والاحتفاظ بكل الوسائل بكل صداقاتهم الخداعة لا قبـل لهم بأن يكونوا أحرارا للوفاء بتعهداتهم الاخلاقية ٠

٣ ـ رفع شأن النشاط العلمى المهنى الى مسـتوى البراكسيس ٠ ويستبدل بالحاجات الزائفة الحاجات الأصيلة حيث تكون ضرورية لمرء حياة تخلو من الروح ٠ وبالقدر الذى يمارس فيه العالم بحثه **«كفاية فى ذاته»** يتاح له أن يحقق أفضل مطامحه الابداعية وقدراته الفعالة ، ويغدو قادرا على تنظيم حياته بطريقة بسيطة صحية تزوده بأقصى درجة من الاعتماد على النفس اللازم له ومن الاستقلال الذاتى الاخلاقى ٠

وثمة شروط أخرى أيضـــا جديرة بالتنويه ، من قبيل الاهتـــمامات العلمية والثقافية الواسعة ، والانفتاح على التغير ، والوعي بالحاجات الاجتماعية الجـديدة ، والتفوق المهني • وهي ليست شروطا لازمة ولا كافية • فالحرية المتضمنة في الفعل الاخلاقي لا يمكن أن تحتمها هذه الشروط • وانما تخلق هذه الشروط حالة شخصية تتناقض فيها بنسبة ملحوظة العقبات التى تقف حائلا دون تحقيق الذات لارادتها •

— ٦ —

وبالاضافة الى مسئوليات العلماء كمنتجين للمعرفة وللطرائق التقنية تقـع على كواهلهم مسئولية خاصة كمربين لأولئك الذين سيدربون الاجيال القادمة •

فالمعلمون الذين لا يستطيعون غير أن ينقلوا المعلومات ويستخدموا المهـــارات المألوفة قد يصبح عددهم زائدا عن الحـــاجة فى مستقبل غـــير بعيد ، وفى الوسع الاستعاضة عنهم جملة بآلات التعليم • ومن جهة أخرى يحتـــاج الطـــلاب دائما الى احتكاك حى بمعلم يمكنه أن يقوم بأشياء معينة لا تقدر على القيام بها بالمرة أية آلة ، لأنهم ليسوا خامة روتينية ، ولا يمـكن أن يصـــبوا فى قالب برنامج ما • من بين هذه الاشياء :

١ ـ وضع نماذج المعلومات فى سياقات أوسع لاظهار الارتبـاطات والوسائط والمكان فى التاريخ ، والشروط الاجتماعية والنفسانية التى نشأت فى كنفها المعرفة ، والمنهج العلمى الذى تولدت عنه ، والمتضمنات لبحث المستقبل وللممارسة الاجتماعية• هذا السياق الأوسع الذى يزود به المعلم طلابه ليس مصـــنوعا مسبقا ، وانما يمكن بناؤه فى اتجاهات متنوعة ، وهو ينشأ عن حوار بين الجانبين فى عملية التعليم ، وهو لا يعتمد على اتساع معرفة الاستاذ فقط بل يعتمد أيضـــا على الاهتـــمامات النوعية للطلاب •

٢ ـ التفسير الابداعى للمعرفة ، حيث ينبغى أن يستبدل بمجرد نقل المعرفة ، وخاصة عندما تعرض فى كامل صورتها المعقدة ، محاولة تزويد الاشكال الرمزية التى يعبر بها عن المعرفة بمعنى جديد ، فى ضوء نظرة نوعية شخصية فلسفية •

٣ ـ ايقاظ الشغف الفكرى للطلاب ، وتوسيع أفقهم الروحى ، وتطوير قدراتهم على التفكير النقدى • ومن أجل تربية نمط من الشـباب المثقف المبدع المتفتح الذهن الذى سيكون له احساس بالتاريخ ينبغى للأستاذ الممتاز أن يعلمهم أن يتناولوا الواقع لا بأن يكتفوا بالقاء السؤال : « كيف ؟ » ، و : « ما هى أمثل الوســائل لابقاء سير الاشياء ؟ » ، بل أيضا بالقاء أسئلة من قبيل « لم ؟ » و « لأى غرض ؟ » ، « وما هى وجوه القصور الاساسية وكيف يقضى عليها ؟ » •

ولكى يكون العالم مربيا ناجحا ينبغى ان تكون له شـخصية ، بحيث لا يكون رجل معرفة وثقافة فقط ، وانما يكون كذلك رجـل تكامل وخلق ، أعد نفسه اعدادا فعالا لتحقيق معتقداته • ويصفح الطلاب اذا كانت المعتقدات طوبائية شـيئا ما او

واقعية للغاية • ولكنهم لا يسعهم أن يصفحوا ، وهم على حق فى ذلك ، عن التناقض بين الفكر والكلمة والفعل •

ويترتب على ذلك اذن أن الاستاذ الذى يريد أن يعيش طبقا للمثل الأعلى المتضمن فى مهنته سيبسط نشاطه الى ما وراء حدود الدائرة الاكاديمية الضيقة نسبيا ويغدو شخصية فعالة فى المجتمع العالمى • ولا يقتضى هذا بالضرورة الانطواء على انتماء سياسى بالمعنى الدقيق للكلمة ، اذ يمكن أن يشمل مبادرة عملية تفضى الى اصلاح فكرى وأخلاقى للمجتمع ، وتسهم فى خلق ثقافة جديدة ، أكثر ملاءمة لمتطلبات الزمن •

هذا النشاط العام هو حلقة هامة فى عملية الوساطة بين الذهن النظرى والبراكسيس الفعلية فى المجتمع • ان جهدا ضخما جماعيا لأفضل الأذهان فى أمة مطلوب لتحويل الواقع الاجتماعى القائم الى مستوى امكانيته التاريخية المثلى •

بدون مجهود من هذا القبيل ، أو فى حالة نزعة الهروب اللامسئولة أو نزعة الامتثال لعلمائها الرواد ، تكاد أمة أو طبقة أن تفقد مستواها الأمثل ، وتنتهى الى حالة من الركود والانحدار •

وللعالم المعلم فرصة التأثير على مجرى أهم العمليات الاجتماعية بمعنى مزدوج : من جانب بفعله المباشر ، ومن جانب آخر ، بطريقة غير مباشرة ، بتربية أولئك الذين سيغيرون العالم • ويتضمن هذا فى آن واحد تغيير الشروط الخارجية وتغيير الذات•

هذا النوع من النشاط يشكل انقطاعا فى سلسلة الحتمية التاريخية العمياء ، ويستحق بكل ما فى الكلمة من معنى أن يوصف بأنه بمثابة « صنع التاريخ » أو باختصار بمثابة « براكسيس » •

المؤتمرات الدولية القادمة

١٩٧٤

أوربا الاتحاد الدولى للمربين الخاص بالسلام العالمى :

المؤتمر العالمى الأول .

International Secretariat, Huntsville, 35762 (United States).

بوخارست الاتحاد الدولى لدراسات جنوب شرقى أوربا :

المؤتمر الثالث .

9, I.C. Frimu, Bucharest (Rumania).

من ١٨ ــ ٢٤ أبريل . اتحاد السكان الأمريكى . الاجتماع السنوى

نيويورك

Mr. J.W. Bracket, PAA, Box 14182, Benjamin Franklin Station, Washington, D.C. 20044. (United States).

٥ ــ ٢٧ يونيه منظمة العمل الدولية . المؤتمر الدولى للعمل . الدورة التاسعة والخمسون

جنيف

ILO, 1211, Geneva 22 (Switzerland).

يوليه المجلس الدولى للشؤون الاجتماعية . المؤتمر الدولى السابع عشر .

نيروبى

Mr. Kate Katziki, ICSW, 345 East 46th Street, NeW York, N.Y. 10017 (United States).

أغسطس الاتحاد الدولى للتاريخ الاقتصادى : المؤتمر السادس .

كوبنهاجن

Professor Dr. J.F. Bergier, Rindemarkt 6, 8001, Zurich (Switzerland).

١٨ ــ ٢٤ أغسطس الاتحاد الدولى لعلم الاجتماع : المؤتمر العالمى الثامن لعلم الاجتماع

كوبنهاجن تورنتو (الموضوع : علم الاجتماع والثورة فى المجتمعات الراهنة)

ISA, Via Daverio 7, 20/22, Milan (Italy).

١٩ ــ ٣٠ أغسطس ادارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة :

نيويورك المؤتمر العالمى الثالث للسكان .

Department of Economic and Social Affairs, United Nations, New York, N.Y. 10017 (United States).

٢٦ ـ ٢٩ أغسطس الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع: الاجتماع السنوى •
مونتريال
ASA 1001. Connecticut Avenue, N.W., Washington D.C., 20036 (United States).

سبتمبر جمعية الاقتصاد القياسى : المؤتمر الدولى الثالث
الولايات المتحدة
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 (United States).

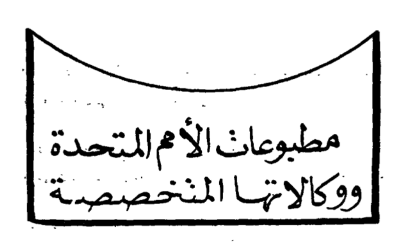
١٩٧٥ المجلس الدولى للشؤون الاجتماعية : حلقة دراسية اقليمية عن آسيا وغربى المحيط الهادى •
هنج كنج
Miss Shirley Lian, Hong Kong Committee, ICSW, Ann Black Red Cross Building Harcourt Road, P.O. Box 474, Hong Kong.

٢٥ ـ ٢٨
أغسطس الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوى
سان فرنسسكو و
ASA. 1001, Connecticut Avenue, N.W., Washington, D.C. 20036 (United States).

ديسمبر
الولايات المتحدة جمعية الاقتصاد القياسى : مؤتمر •
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 (United States).

١٩٧٦
فرنسا : الاتحاد الدولى لعلم النفس : المؤتمر الدولى الحادى والعشرون •
Professor E. Jacobson, Secretary-General, Department of Psychology, Michigan State University, East Lansing, Michigan (United States).

ديسمبر
الولايات المتحدة : جمعية الاقتصاد القياسى : مؤتمر •
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Conn. 06520 (United States).



التخطيط ·

Economic Commission for Asia and the Far East : Unified Development Planning with particular reference to social components of development in the ECAFE region.

فبراير ١٩٧٢ ، ٣٦ ص .(UN/E/CN. 11/1028).

طريقة لتوحيد التخطيط · تطبيقات في محيط آسيوى · بيانات أساسية للتخطيط الموحد على المستوى القومى الوارد فى الملحق ·

Report of the Seminar on Approaches to the Regional Harmonization of Development Plans, Addis Ababa, 29 November to 3 December 1971.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ١٩٠ ص .(UN/E/CN. 14/551).

نظمت هذه الحلقة التعليمية اللجنة الاقتصادية الأفريقية وأشارت الى تلك القارة · حالة المشكلة · دور الخدمة المركزة للمعلومات الاحصائية والتحليل الاقتصادى لأفريقيا · التوحيد القياسى للتعريفات ، والتوحيد القياسى للفترات التى تشملها الخطط ·

التنمية الاقتصادية (وتشمل التنمية عامة) ، والتحول الصناعى

The International Development Strategy in Action. The role of UNCTAD.

أختبار ضروب التقدم الحديثة والاتجاهات الطويلة المدى فى التجارة العالمية ، والتنمية وفقا لأهداف ووظائف UNCTAD · فبراير ١٩٧٢ ، ٩٩ ص .(UN/TD/99) (قم-آهـ) صيغت هذه الوثيقة للاجتماع الذى عقده مؤتمر الأمم المتحدة عن التجارة والتنمية فى سنتياجو (شيلى) سنة ١٩٧٢ · المسائل النقدية والمالية · التجارة فى السلع الأساسية · المواد المصنعة التبادل مع الدول الاشتراكية فى أوربا الشرقية · الأشياء غير المنظورة · العمل على مساعدة الدول النامية الأقل تقدما · التعاون بين الدول المتقدمة ·

The role of multinational development institutions in the promotion and financing of economic integration among developing countries.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٢٧ ص .(UN/TD/114).

النتائج المتحصلة بواسطة عمل الهيئات المتعددة الجوانب لتوجيه الموارد المالية والفنية لمساعدة البرامج الاقليمية والفرعية التى تغطى اتساع التجارة والتعاون الاقتصادى والتكامل الاقليمى بين الدول النامية ·

Financial resources for development. Economic growth and development financing : issues, policies and proposals.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٢٦ ص .(UN/TD/118)

تعبئة الموارد الداخلية . الاتجاهات الدولية . مشكلة الدين . شروط وطرق المساعدة . التمويل التعويضي والاجراءات المالية الاضافية .

Mobilization of resources for development.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٧١ ص .(UN/TD/118/Supp. 1)

(أهـ) ما أحرزته الدول النامية من تقدم بين سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٧٠ في زيادة الموارد التي عبئت واستخدام هذه الموارد . التغيرات في قطاعات الزراعة والصناعة . الجهود المبذولة للوصول الى استقرار الأسعار .

External development finance.

يناير ١٩٧٢ ، ٤٠ ص . .(UN/TD/118/Supp. 2)

(قم — أهـ) صافي المساعدة الاجمالية من الموارد المالية للدول النامية (وتشمل المعونة) . شروط المساعدات المالية . شروط المعونة . التوزيع الجغرافي للمساعدة الشعبية الثنائية والمتعددة الأطراف .

Trade prospects and capital needs of developing countries during the Second United Nations Development Decade.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٧٥ ص .(UN/TD/118/Supp. 3)

(أهـ — قم) تقويم للتنبؤات التي وضعت للعقد الأول لتنمية الأمم المتحدة . التنبؤات المنقحة عن العقد الثاني (معدلات النمو المقترحة ، الصادرات والواردات ، المدخرات والاستثمارات ، مطالب رأس المال) .

Financial resources for development : the link.

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ١٨ ص .(UN/TD/Supp. 4)

الربط يعني وضع الاقتراح موضع التجربة ، لربط تمويل التنمية بخلق سيولات دولية جديدة . خلفية المسالة . تسويغ الربط . الملحقات عبارة عن مقتبسات من البلاغات الرسمية التي نشرت في آخر اجتماعات وزراء مالية الكمونولث في عامي سنة ١٩٧٠ و ١٩٧١ .

The outflow of financial resources from developing countries.

ديسمبر ١٩٧١ ، ١٣ ص. .(UN/TD/118/Supp.)

حجم التدفقات ككل ، الناتجة من الموارد المالية للدول النامية . العنصران الاساسيان في هذه التدفقات : فائدة الدين الأهلي ، ومدفوعات استهلاك الدين ، والمدفوعات التي تمثل الأرباح الناتجة من الاستثمار الخاص المباشر .

Debt problems of developing countries.

ديسمبر ١٩٧١ ، ٣٧ ص. .(UN/TD/118/Supp. 6)

الهيكل الاقتصادي الذي يجري في نطاقه تقويم مشكلات حصة الدين . السياسة التي يجب اتباعها في الدول المعيرة . مؤشرات عبء حصة الدين : الاتجاهات القديمة وتوقعات المستقبل . الاجراءات التصحيحية (تعديل الحجم وطرق المعونة ، واعادة المفاوضة بشأن الدين) . نحو معايير جديدة ، جوانب أساسية .

Problems of commodity diversification in developing countries.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ١٨ ص (١١٩ .(UN/TD) = مشكلات تنويع السلع في البلاد النامية .

United Nations Conference on Trade and Development : adjustment assistance measures.
(UN/TD/121). ديسمبر سنة ١٩٧١

طبيعة المشكلة وحجمها . نتـــائج غير مباشرة لزيادة الصادرات من البلاد النامية للعمل فى دول متقدمة معينة مع رواج اقتصادى .

Impact of present international monetary situation on world trade and development, especially of the developing countries.
(UN/TD/140). يناير سنة ١٩٧٢ ، ٥٥ ص

خلفية الأزمة . اجراءات التغلب عليها . مكانة الدول النامية فى داخل النظام .

Paper on action in 1971 by organs of the United Nations and related agencies on matters relating to United Nations Development Programme.
(UN/DP/L/218). يناير سنة ١٩٧٢ ، ٢٨ ص.

وثيقة عمل فى سنة ١٩٧١ أصدرها أعضاء الأمم المتحدة والوكالات المتصلة بها بشأن الأمور المتعلقة ببرامج التنمية التابعة للأمم المتحدة .

Algeria : UNDP (United Nations Development Programme) : assistance requested by the Government of Algeria for the period 1972-1973.

موجز للأولويات الراهنة وأغراض التنمية العامة. وصف للمطالب القطاعية لكى يغطيها برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة : الانتاج الزراعى ، الغابات ، صيد الأسماك ، التسويق البستانى ، الصناعة ، التجارة الخارجية ، الأساس ، التخطيط ، النقل ، الخ.

Bulgaria : UNDP assistance requested by the Government of Bulgaria for the period 1972-1976.
(UN/DP/GC/Bull./R.1). ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٦٧ ص

المساعدة التى طلبتها حكومة بلغاريا من برنامج التنمية التابع للأمم المتحـــدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ .

Ghana UNDP assistance requested by the Government of Ghana for the period 1972-1976.
(UN/DP/GC/Ghu/R.1). ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ١٠١ ص.

المساعدة التى طلبتهـــا حكومة غانا من برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ .

Hungary : UNDP assistance requested by the Government of Hungary for the period of 1972-1976.
(UN/DP/GC/Hun./R. 1). ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٦٠ ص

المساعدة التى طلبتها حكومة هنغاريا من برنامج التنمية التابع للأمم المتحـــدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ .

Consideration and approval of country programmes : Venezuela, 1972-1974.
(UN/DP/GC/ZAR./R. 1). ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ١٦١ ص.

بحث البرامج الريفية ، فى فنزويلا والموافقـة عليها .

Zaire : UNDP assistance requested by the Government of Zaire for the period of 1972-1976.
(UN/DP/GC/Zar./R. 1). دسمبر سنة ١٩٧١ ، ٧٣ ص.

المساعدة التى طلبتها حكومة زائير من برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة للفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٦ .

Report of the Asian Industrial Development Council.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٤٧ ص. (UN/E/CN. 11/1027).

(قم) توقعات التحول الصناعى على المدى الطويل. العمل على تنمية الاستثمار • تنمية بعض الصناعات : الحديد والصلب، الهندسة ، المنتجات البتروكيماويات، منتجات الغابات ، البحث فى الأساس الصناعى •

Economic Commission for Asia and the Far East : Evaluation during the Second Development Decade.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ١٣ ص. (UN/E/CN. 11/L. 318).

موقف المشـــكلة فى آسيا والشرق الأقصى • مقاييس المؤشرات • دراسات سنوية •

Studies on selected development problems in various countries in the Middle East : 1971.

سنة ١٩٧١ ، ١٢٦ ص. (UN/ST/UNESOB/8).

(أهـ ـ قم) تخطيط التنمية واغراضه الاجتماعية فى سوريا • توزيع السكان ، والتمدن فى دول الشرق الأوسط • تنسيق الخطط والتعاون بين الدول للتنمية الصناعية والريفية •

التعاون الاقتصادى

Report of the East African Expert Meeting on Economic Co-operation (Addis Ababa, 1-10 November 1971).

ديسمبر سنة ١٩٧١ ، ٣١ ص. (UN/E/CN. 14/550).

اختيار مشروعات دول عدة ، وانشاء أولويات بينها •

الموقف الاقتصادى

Economic survey of Europe in 1970. Part II.

سنة ١٩٧١ ، ١٥٠ ص. (UN/E/ECE/777/Add. 1).

(أهـ ـ قم) تقدم الموقف فى غربى أوربا وشرقيها (بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى) وجنوبها •

الموارد الطبيعية والمواد النادرة

Committee on Natural Resources (Report on the second session, 31 January — 11 February 1972).

سنة ١٩٧٢ ، ٣٦ ص. (UN/E/5097).

الســـادة الدائمـــة للدول النامية على مواردها الطبيعية • توصية تمهيدية قدمتها الجزائر وفنزويلا. المؤتمر الدولى للأمم المتحدة عن الموارد المائية • توصية تمهيدية قدمها الاتحاد السوفيتى •

الزراعة ، السلع الأساسية

FAO Documentation. Current index (cumulative, January to December 1971), 2 vols.

روما سنة ١٩٧٢ ، المجلد الاول ٦٠٧ ص ، المجلد الثامن ٥٠٠ ص. منظمة الطعام والزراعة •

نشرات ووثائق منظمة الطعام والزراعة • موجزات تحليلية • فهرس باسم المؤلف والموضوع • الفهرس التجميعى لسنة ١٩٧١ ، ويضم جميع قوائم الأعدادالشهرية من ١ الى ١١ . بالاضافة الى معلومات عن الوثائق والمطباعات التى نشرتها منظمة الطعام والزراعة فى ديسمبر سنة ١٩٧١ ، وتغطى مجموعة مكونة من ٤٤٥ر٤ عنوانا •

FAO Documentation. Current bibliography, June 1972.

تزويد منظمة الطعام والزراعة بالوثائق • قوائم الكتب الحالية ـ ٣٣ ص ، سنة ١٩٧٢ •

Trends in commodity trade in the 1960's and prospects for the 1970's.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٤١ ص .(UN/TD/113/Supp. 2).

(أهـ) معلومات استرجاعية عن العقد السابع من هذا القرن • مقارنة الحقائق بالتنبؤات السابقة • • تقلبات أسعار السلع الأساسية • التنبؤات المتصلة بتصدير المواد الخام من الدول النامية خلال العقد الثامن الحالي •

Commodity problems and policies : access to markets.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٧٣ ص ، تتضمن فهرسا .(UN/TD/115).

الهدف الأساسي من هذا التقرير عرض المناقشات لصالح تحرير التجارة • موجز الأشكال ، والحجم ونتائج اجراءات الحماية المطبقة على تجارة السلع الأساسية •

United Nations Conference on Trade and Development. The Generalized System of Preferences.

نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، ٣٥ ص• .(UN/TD/124).

الخصائص الرئيسية للتنظيمات التفضيلية التي حققها مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية • معلومات محددة عن المبادلات التجارية التي تحدث في هيكل النظام •

Private foreign investment in its relationship to development.

نوفمبر سنة ١٩٧١ ، ٢٤ ص• .(UN/TD/134).

المشكلات الرئيسية في هذا المجال ، كيف ينظر اليها في الدول المتقدمة والدول النامية •

Review of maritime transport, 1971.

سنة ١٩٧١ ، ٥١ ص .(UN/TD/B/C4/82).

(أهـ • قم) معلومات احصائية عن التقدم الدولي في حمولات السفن ، وتعليقات فيما يتعلق بالعوامل المؤثرة في التجارة والشحن في البلاد النامية •

Review of maritime transport, 1971. Consideration of the current and long-term trends of shipping problems in the light of the terms of reference of the Committee on shipping and the relevant resolutions of UNCTAD.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ١٣٥ ص• .(UN/TD/B/C/4/92).

(أهـ ـ قم) حجم تجارة الشحن الدولية ، وتقدم التجارة البحرية العالمية • انتاجيتها • اتجاهات في أسعار السفن الجديدة والمستعملة • أسواق الشحن •

Report of the Symposium on International Trade for East and Central African States, Lusaka, 13-18 December 1971.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ١٩ ص ، ويحتوي على ملحقات • (UN/E/CN/4/552)

الأنظمة التأسيسية ، الحوافز والمثبطات ،السياسة المالية ، اجراءات لتبني التجارة الاقليمية الثانوية •

الموقف الاجتماعي : المجتمع ، المعيشة وظروف العمل ، والتوظف ، السياسة الاجتماعية

1970 report on the world social situation.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٢٣١ ص• .(UN/E/CN. 5/456/Rev. 1).

(أهـ ـ قم) التغيرات التي حدثت في مختلف أقاليم العالم • تحليل شامل • دراسات على مستوى المعيشة ، وكذلك في السياسات المتبناة لتحسين الأحوال الاجتماعية •

التقدم الاجتماعي :

Economic Commission for Asia and the Far East.

تقرير الحزب العامل عن التقدم الاجتماعي ، من ٨ الى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٧٠ ، وتقرير مجموعة الخبراء عن التقدم الاجتماعي من ٣٠ نوفمبر الى ٥ ديسمبر سنة ١٩٧٠ ٠

نوفمبر سنة ١٩٧١ ، ٥١ ص .(UN/E/CN. 11/990)

European Social Development Programme.

٢٣ ص ، .(UN/ST/SOA/ESDP/SWR/Rep. 3)

الاجتماع الثالث لمراسلي الصحف في روتردام من ٦ الى ٩ يونيه ١٩٧١ ٠

Social development in Asia : retrospect and prospect.

نوفمبر سنة ١٩٧١ ، ٧٠ ص .(UN/E/CN. 11/988)

(أهـ٠قم) التقدم الاجتماعي ، وجوانب أخرى من التقدم ٠ التغيرات في سياسة الأمم المتحدة فيما يتعلق بالتقدم الاجتماعي في هذا الاقليم من العالم ، وتوقعات التقدم الاجتماعي في هذا الاقليم ٠

الاصلاح الزراعي

Report of the Special Committee on Agrarian Reform.

١٩٧٢ ، ٤١ ص٠ (منظمة الطعام والزراعة) يغطي هذا التقرير ثلاثة اجتماعات (نوفمبر سنة ١٩٧٠ ، وفبراير سنة ١٩٧١ ، وأغسطس سنة ١٩٧١) للجنة الخاصة عن الاصلاح الزراعي ٠ النتائج المتحصلة ابان العقد الأول للتنمية والعقبات التي ووجهت ٠ الخطة المتبناة للعقد الثاني من التنمية ٠ توصيات للمؤسسات الدولية ٠

القوات الحربية والتقدم الاقتصادي والاجتماعي

Economic and social consequences of the arms race and of military expenditures.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٥١ ص : .(UN/A/8469/Rev. 1)

(أهـ ـ قم) نتائج السباق على التسلح والانفاق العسكري على المستوى القومي ٠ النتائج الدولية ، والملحقان ، هما القراران ٢٨٣١ (٢٤) ، ٢٦٦٧ (٢٥) اللذان تبنتهما الجمعية العمومية في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١ ٠ وميزانية الحرب في دول مختلفة مقارنة بقطاعات أخرى من الميزانية ٠

المشكلات الاجتماعية والسياسة الاجتماعية

Attack on mass poverty and unemployment.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٢١ ص .(UN/E/AC. 54/L. 50) خطة التنمية لمحاربة الفقر الجماعي والبطالة٠ قياس الفقر والبطالة ٠

الخدمات الاجتماعية ، ظروف العمل ، سياسة التوظف ، الاتحادات التجارية

The cost of social security.

سنة ١٩٧٢ ، ٤٢٩ ص (منظمة العمل الدولية)

(أهـ ـ قم) أحدث الاحصاءات عن تكاليف الأمن الاجتماعي للفترة من ١٩٦٤ الى ١٩٦٦ ٠ وتتصل المعلومات بستين دولة ٠ توزيع الكميات بين الأنواع الرئيسية للأمن القومي في كل دولة ٠ التأمين القومي، الحصص العائلية ، ترتيبات خاصة للموظفين العامين، الخدمات الصحية العامة ، والمساعدات العامة ، وحصص ضحايا الحرب ، مقارنة دولية للبيانات ، تحليل للاتجاهات في نفقات الأمن الاجتماعي في دول مختلفة طوال الفترة المعنية ٠ تذييل بنتائج الدراسة التمهيدية لمجال تطبيق الأمن الاجتماعي ٠

Minimum age for admission to employment.

سنة ١٩٧٢ ، ٩٧ ص (منظمة العمل الدولية)

(أهـ ـ قم) اجابات واردة من ٦٩ دولـــة من الأعضاء على استفتاء منظمة العمل الدولية • اجابات مجمعة للاجتماع السابع والخمسين لمؤتمر العمـــل الدولى (جنيف ١٩٧٢) •

Aspects of international trade and assistance relating to the expansion of employment in the developing countries.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٤٢ ص • (UN/E/AC. 54/L. 45).

دور التجارة الخارجية • مميزاتها ومخـــاطرها حيث نحظى العمالة فى الدول النامية بالاهتمام • دور المعونة الخارجية ومشكلات السداد •

Fiscal measures for employment promotion in developing countries.

سنة ١٩٧٢ ، ٣٤٢ ص (منظمة العمل الدولية)

يضم هذا المجلد مجموعة دراســـات ومقترحات عملية • السياسة المالية والتوظف • طريقة توجيه القرارات التى يتخذها القطاع الخاص والعام ازاء أنواع من الانتاج ، والطرق الفنية التى تحفز على العمل •

Collective bargaining and the challenge of new technology.

سنة ١٩٧٢ . ٧١ ص (منظمة العمل الدولية) (أهـ ـ قم)

الاحتياطات الموضوعة فى العقود الجمـــاعية عن المشكلات المرتبطة بالتغير التكنولوجى • ضمان العمل• ضمان الدخل • تطوير المهارات • تفصيلات الأمثلة المأخوذة عن الدول الآتية : كندا ، فرنسا ، جمهورية المانيا الفدرالية . بريطانيا العظمى ، الولايات المتحدة •

المسائل القانونية وحقوق الانسان

القانون الدولى •

Report of the International Law Commission on the work of its 23rd session, 26 April to 30 July 1971.

تقرير لجنة القانون الدولى عن عملها فى دور انعقادها الثالث والعشرين• (UN/A/8410/Rev. 1).

مارس سنة ١٩٧٢ ، ١٥٥ ص

Yearbook of the International Law Commission, 1971, vol. 1.

مارس سنة ١٩٧٢ ، ٣٩٧ ص (UN/A/CN. 4/SER.A/1971).

خلاصة تقارير الانعقاد الثالث والعشرين للجنة القانون الدولى ، من ٢٦ أبريل الى ٣٠ يولية سنة ١٩٧١ وقد شمل عملها بنوع خاص العلاقات بين الدول والمنظمات الدولية ، وتتابع الدول ، ومسؤلية الدول •

حقوق الانسان والتميز العنصرى

Elimination of racial discrimination. Study concerning the question of apartheid from the point of view of international penal law.

فبراير سنة ١٩٧٢ . ٧٤ ص (UN/E/CN. 4/1075).

وجهـات نظر مذاهب مختـلفة • تحليل لشـتى الوســائل الدولية فيما يختص بالقانون الـدولى • تطبيقات ومظاهر سياسة التمييز العنصرى التى يمكن ان تعتبر بمثابة جرائم يشملها القانون الدولى •

Review of human rights programme and establishment of priorities : control and limitation of documentation.

فبراير سنة ١٩٧٢ . ١٧ ص . ويتضمن ملاحق (UN/A/CN. 4/1080).

عرض لبرنامج حقوق الانسان ، وتوطيد للأولويات: ضبط وتقييد للتوثيق •

Question of the punishment of war criminals and of persons who have committed crimes against humanity.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٢٥ ص • ويشـــتمل على ملاحق • (UN/E/CN. 4/1082).

اجابات من الحكومات التالية على مذكرة السكرتير العام فى ١٠ يونية سنة ١٩٧١ فيما يختص بالقرار ٦ (٢٧) الذى يدين جرائم الحرب ، والجرائم التى ارتكبت ضد الانسانية فى الوقت الحاضر نتيجة للحروب العدوانية والاحتلال العســكرى، ونتيجة للاضـطهاد العنصرى والنزعة الاستعمارية : استراليا، باربادوس البرازيل ، وبيلوروســيا الســوفيتية وســيلان وتشيكوسلوفاكيا وفنلندة واليونان وجواتيمالا والمجر وايران وايطاليا وجمايكا واليابان وكينيا ومدغشقر ومالطة وموريشيوس وتورو وباكستان والفلبين ورومانيا وسنغافورة والصومال والسودان وسوريا وأوكرانيا السوفيتية واتحاد الجمهوريات السوفيتية وجمهورية فيتنام وزامبيا •

Human rights and scientific and technological developments.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ١٢ ص (UN/E/CN. 4/1083).

الاجراء الذى اتخذ بناء على قرار ٢٤٥٠ (٢٣) الصادر من الجمعية العامة ، وقرار ١٠ (٢٧) الصادر من لجنة حقوق الانسان • اعداد توثيق اضافى فيما يتعلق بسرية الأفراد وسلامة الدول وسيادتها اذا ووجهت بتقدم فى التسجيل وغيره من الطرق الفنية• التنسيق مع أنشطة الوكالات الأخرى التابعة للامم المتحدة •

Human rights and scientific and technological developments. The impact of scientific and technological developments on economic, social and cultural rights.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٣٠ ص (UN/E/CN. 4/1084).

خصص هذا التقرير لدراسة الحق فى مستوى مناسب من الطعام والملبس ملائم للصحة • ايجـــاد معايير دولية • التأثيرات الايجابية لتقدم الوســائل الفنية والعلمية على تيسر الانتفاع بالطعام والكساء ونوعيته •

Study of equality in the administration of justice.

فبراير سنة ١٩٧٢ ٢٧٠ ص (UN/E/CN. 4/Sub. 2/296/Rev. 1).

خلفية المسألة • نظرية المساواة فى ادارة العدل• أسباب التمييز العنصرى والطرق التى اتخذت لمحاربة النزعة العنصرية ، النتائج والتوصيات •

Human rights in the administration of justice.

ابريل سنة ١٩٧٢ ، ١٧ ص (UN/E/AC. 57/5).

(ق•م) شروط ملائمة للوسائل الدولية : الممارسة والدراسة والنشرات •

الوضع الاجتماعى للنساء

Report of the Inter-American Commission of Women.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٧٢ ص • (UN/E/CN. 6/558).

طبيعة وبرنامج هذه اللجنة • أنشطتها من مارس سنة ١٩٧٠ الى ديسمبر سنة ١٩٧١ : القضاء على التمييز العنصرى ضد النساء فى التشريع فى الأمريكتين ، أجر مكافىء للعمل ، وحقوق النساء السياسية بنوع خاص •

Information concerning the status of women in Trust and non-self-governing territories.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٣٣ ص (UN/E/CN.6/560).

المناطق غير المستقلة : غينيا الجديدة ، وجزر المحيط الهادى ومناطق الوصاية الدولية التى أرسلت السلطات الادارية معلومات عنها ، المناطق التى تديرها المملكة المتحدة والبرتغال وروديسيا الجنوبية •

الاستقلال

Implementation of United Nations resolutions relating to the right of peoples under colonial and alien domination to self-determination.

فبراير سنة ١٩٧٢ ، ٦٦ ص • .(UN/E/CN.4/1081)

ملخص لقرارات ذات طبيعة عامة أخذت بهـــا وكالات مختلفة تابعة للأمم المتحدة تتعلق بحق الشعوب في تقرير مصيرها • جدول مذيل للمناطق التى اتخذت الأمم المتحدة بشأنها قرارات حقيقية ، والتى قبلت الاستقلال أو شكلا آخر من الحكم الذاتي منذ قيام المنظمة • ملخص القرارات والأحكام الصادرة من منظمة العمل الدولية في المجالات نفسها •

Draft report of the Special Committee on the situation with regard to the implementation of the Declaration on the Granting of Independence to Colonial Countries and Peoples, covering its work during 1971.

نوفمبر سنة ١٩٧١ ، ٥٧ ص• .(UN/A/AC.109/L.759)

تاسيس اللجنة الخاصة وتنظيمها وأنشطتهـــا الحديثة • الموقف في مناطق مختلفة • الشعبية التى يجب منحها لعمل الأمم المتحدة على التخلص من الاستعمار • العلاقات مع منظمة الوحدة الأفريقية ومع المنظمات غير الحكومية • وتضم هذه الوثيقة أيضا تقارير عن اقليم بعد اقليم •

الوصــــاية

Report of the United Nations visiting Mission to the Trust Territory of New Guinea, 1971.

نوفمبر سنة ١٩٧١ • ١٤٩ ص • .(UN/T/1728)

(قم ـــ أهـ) التقـــدم السياسي والاقتصــــادي والاجتماعي الذى تحقق • تطبيق برنامج التنمية • الانتاج والمواصلات والتبادل • العلاقات الدولية ودور الأمم المتحدة •

التعليم • العلم

التعليم

Paid educational leave.

١٩٧٢ ، ٥٨ ص•

(قم ـــ أهـ) الاعداد لانعقاد مؤتمر العمل الدولى في دورته الثامنة والخمسين في جنيف سنة ١٩٧٣• أهداف الانصراف عن التعليم غير المجانى • ملخص التشريع والتطبيق فى مختلف الـــدول • القرارات المالية • شكل وأمد الانصراف عن التعليم غير المجانى، احتمالات عن العمل الدولى •

Study on the equality of access of girls and women to education in the context of rural development.

يناير سنة ١٩٧٢ ، ٦٩ ص .(UN/E/CN.6/566)

يعتمد هذا التقرير أساسا على خمس وأربعين اجابة مفصلة عن استفتاء • خصائص المناطق الريفية حجم وأسباب الهجرة الجماعية من الريف وبخاصـــة حيث يتصل الأمر بالنســـاء • اتاحة فرصة تعليم الفتيات والنساء فى المناطق الريفية •

Food and nutrition education in the primary school.

سنة ١٩٧٢ • ١٢٤ ص (منظمة الطعام والزراعة)•

المبادىء المتعلقة بالتدريس والتربية فى شئون التغذية • فن التدريس • ادخال تعليم التغذية فى المدرســة الابتدائية • الوجبات المدرسية • تقويم نتائج هذا التدريس •

International Consultative Liaison Committee for Literacy.

لجنة الرابطة الدولية الاستشارية لمعرفة القراءة والكتابة

الدورة الثالثة من ٢٧ الى ٣٠ مارس • التقرير النهائي ، ١٧ ص ، مع ملحقات •
(UNESCO/ED/MD/24).

تنمية وسائل البرنامج العالمي التجريبي لتعليم القراءة والكتابة • التوصية • المشتركون •

Training of Adult middle-level personnel, by Armin Gretler.
١٦٤ ص، سنة ١٩٧٢ (UNESCO/ED. 71/D. 62).

(قم – أهـ) العجز في مجموع الموظفين من المستوى المتوسط يعوق التقدم الاقتصادى والاجتماعى • تعليم الكبار وتدريب أمثال هؤلاء الموظفين • تحديد موظفي المستوى المتوسط • دورهم في التنمية • احصاءات لموظفي المستوى المتوسط • نوع التعليم المطلوب في هذا المستوى في شتى القطاعات • فحص برامج التدريب الخاصة بموظفي المستوى المتوسط في مختلف الدول•

The school and continuing education : Four studies.
سنة ١٩٧٢ ، ٢٧٢ ص ، مطبوع .(UNESCO/ED./71/D.64)

(قم – أهـ) مواصلة التعليم والنظام التعليمي في فرنسا (مع التوكيد على الجوانب الاجتماعية من المشكلات) • تأليف جوفر ديمازدييه • تأثير المدارس في مواصلة التعليم بالولايات المتحدة الأمريكية ، تأليف مجموعة من الكتاب يكتبون أساسا من وجهة نظر علم النفس والتعليم • فكرة مواصلة التعليم في الاصلاح الراهن لنظم التعليم وتدريب المدرس ، تأليف جيزى كوتاسك • الموقف الراهن لمواصلة التعليم بفرنسا بين المهندسين ومدارس الهندسة ، تأليف بير اللوارد •

Planning the primary school curriculum in developing countries.

تأليف •هـ•و• هاوز• ٥١ ص ، سنة ١٩٧٢

(UNESCO : International Institute for Planning). (Fundamentals of educational planning, 17).

يبحث هذا الكتاب في تخطيط مقرر التدريس لا تخطيط تطوير المدرسة وفقا للسكان والاقتصاد • مختلف مراحل اصلاح المقرر • تحديد الأغراض• حقائق ضرورية • علاقات الجماعة • الاعداد للتجهيزات • تكيف المدرسين •

العلم ، التكنولوجيا

International aspects of technological innovation.
٩٣ ص ، سنة ١٩٧٢ (دراسات ووثائق خاصة بسياسة العلم ، ٢٦) .(UNESCO/NS/SPS/26)

(ق•م) المساعدات التى قدمت لاجتماع الخبراء .(UNESCO, 7-9 September 1970)

وجهات نظر مختلفة عن التجديد التكنولوجي ونتائجه الدولية • التنافس والتعاون • الخطة الدولية لتوصيل المعرفة • حالة الدول النامية • الموقف في الهند واليابان •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٣/١٩٧٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجلة الدّولية للعلوم الاجتماعية

عشرة من العلماء...
يقدمون سِيَرَهم الذاتيّة

العَدَد الخامس عشر - السنة الرابعة
أبريل/ يونيو ١٩٧٤
تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو

عدد خاص

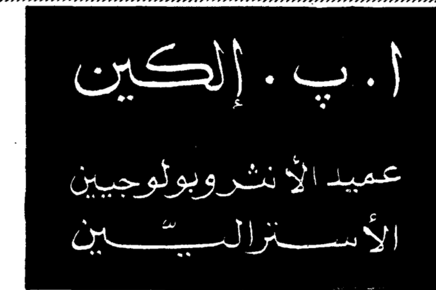


تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو
١ شارع طلعت حرب بميدان التحرير
بالقاهرة

تليفون : ٢٢٤٠٢

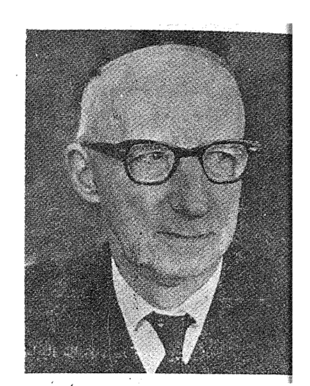
١٢ ربيع الأول ١٣٩٤
٥ ابريل ١٩٧٤
٥ نيسان ١٩٧٤

محتويات العدد



سنوات الاعداد

حفل عام ١٩٠٩ ، الذى وافق اليوبيل الذهبى لنشر كتـــاب داروين « أصل الانواع » ، بمناقشات ومجادلات حول موضوع التطور الانســانى ، ومكانة الانسان فى العالم الطبيعى • ولم يكن قد انقضى على ظهور كتابه «أصل الانسان» سوى ثمانية وثلاثين عاما ، وقد قدم هذا الكتاب مفهوما أثار كثيرا من التحدى والاضطراب فى تلك الفترة • وتوفرت حول موضوع التطور الانسانى مؤلفـــات جيدة ورخيصة • وقد اشتريت أنا فى تلك السنة ، وأنا حينئذ فى الثـــامنة عشرة من عمرى ، نسخة من كتاب أصـــل الانواع ، مازالت فى حوزتى حتى الآن • ويتنبأ داروين فى الصفحة الاخيرة تقريبا من كتابه بأنه : « سوف يلقى مزيدا من الضـــوء على أصـــل الانسان وتاريخه » • وقد كانت هذه العبارة التى أطلقها داروين فى اطار الجدل الذى كان دائرا فى عام ١٩٠٩ هى أصل اهتمامى بالانثروبولوجيا • ثم ازداد هذا الاهتمام عمقا ورسوخا فى نفسى خلال فترات دراستى لنيل الليسانس (من عام ١٩١٢ حتى ١٩١٤) بجامعة سيدنى ، وخاصة من خلال المحاضرات التى استمعت اليهـا فى الجيولوجيا ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع — حيث لم تكن هنـــاك محاضرات فى الانثروبولوجيا — وكذلك من خلال جماعات المناقشة الطلابية •



ترجمة : الدكتور محمد الجوهرى

أستاذ مساعد علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة • حاصل على دكتوراه الفلسفة فى علم الاجتماع عام ١٩٦٦ • ومن أهم مؤلفاته : الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، ١٩٧٠ • دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ١٩٧٣ • علم الاجتماع الصناعى ، ١٩٧٣ • دراسات فى الفولكلور ، ١٩٧٢ • وقد نشر له حوالى عشرين مقالا ودراسة أساسية• فى موضوعات علم الاجتماع والانثروبولوجيا • علاوة على مقالين باللغة الألمانية نشرا فى ألمانيا ١٩٧١ و ١٩٧٢ • واشترك فى ترجمة أربعة عشر كتابا فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا • كما ترجم مستقلا ثلاثة كتب فى هذا الميدان • وأشرف على بحث الفولكلور الكبير (ن ثلاث شعب) الذى أجراه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية •

ثم كنت أقرأ ــ بعيدا عن الجامعة ــ وخلال السنوات القليلة التى عقبت تخرجى كتبا عن الانثروبولوجيا الفيزيقية والانثروبولوجيا الثقافية بقدر ما سمحت لى الفرصة • ثم كلفت فى الفترة من ١٩١٩ حتى ١٩٢١ بالقاء محاضرات فى احدى كليات اللاهوت عن : التطور ، وشجرة التطور البشرى ، وانسان ما قبل التاريخ ، والنظم البشرية • ثم ألقيت فى الفترة من ١٩٢٣ حتى ١٩٢٥ ــ بوصفى مدرسا مساعدا بجامعة سيدنى ــ أول محاضرة عن الانثروبولوجيا فى أى جامعة أسترالية على الاطلاق• وكان كل برنامج محاضرات يتضمن عددا من المحاضرات عن سكان أستراليا الأصليين ، وهو ما يعد ولا شك دليلا على زيادة ميلى الى التخصص فى هذا الموضوع • ثم كتبت فى الفترة من ١٩٢١ حتى ١٩٢٣ رسالة الماجستير عن ديانة سكان أستراليا الأصليين • ثم ذهبت بعدها الى لندن فى أغسطس ١٩٢٥ ، حيث خصصت عامين من فترة اقامتى هناك لدراسة الانثروبولوجيا الفيزيقية ، الى جانب الهدف الرئيسى من اقامتى وهو اعداد رسالة الدكتوراه عن الاساطير والشعائر الدينية عند سكان أستراليا الأصليين • وكنت قد استطعت حتى ذلك الحين الاطلاع على كل ما كتب تقريبا عن سكان أستراليا الأصليين ، واعتمد على ملاحظات ودراسات مباشرة • ولكن ترى ماذا كانت حصيلة هذه الكتابات ؟

الدراسة الانثروبولوجية لسكان أستراليا الأصليين حتى عام ١٩٢٥

كانت الكتابات الانثروبولوجية ـ منذ عام ١٧٨٨ ـ عن هـذا الموضوع تتكون أساسا من ملاحظات وتعليقات كتبها موظفـون حكوميون ، ومستكشفون ، وأعضاء الارساليات الدينية ، والمستوطنون البيض ، والرحالة ، والعلماء الطبيعيون ، عندما كانت تسنح لهم الفرصة لذلك • وقد سجلوا كل ماشاهدوه أو فكروا فيه في بضع فقرات أو فصول متناثرة في عدد كبير من التقارير ، والمجلات ، والكتب ، وكذلك في الكتيبات والمقالات • وتتميز هذه المادة في معظمها بأنهـا سطحية وقاصرة ، ولكنها فلما كانت مضللة • وهي تحوى وصفا مباشرا لسلوك السكان الأصليين الذى أمكن ملاحظته في الاتصال الاول وفي ظروف هامشية دون تعمق كبير •

ثم بدأت في العقد الثامن من القرن الماضى الدراسة المنظمة لهـؤلاء السكان ، وبدا الاتجاه العلمى واضحا بالفعل فى تلك الكتابات • وقد سـاهم لوريمر فيسون Lorimer Fison ـ عنـدما كان في فيجي ـ في الدراسة المسحية التى قـام بها لويس مورجان Lewis Morgan عن القرابة والزواج ، كما تأثر بنظريات مورجان في التنظيم الاجتماعى • ولما وصل الى أستراليا في عـام ١٨٧١ بدأ يطبق استبانة مورجان تطبيقا عمليا في جمع المادة ، ويستعين كذلك بطريقة المراسلة • وقد أجاب هـويت Howitt (كان يعمل قاضيا وجيولوجيا) على استبانة فيسون بحماسة • وأخرجا بشكل منفرد أحيانا ، وبالتعاون معا في أحيان أخرى ، مجموعة من المقالات عن التنظيم الاجتمـاعى للسـكان الأصليين . كما أخرجا كتاب Kamilaroi and Kurnai عام ١٨٨٠ ، وكان اسـهامه الرئيسى نظريا وتفسيريا بالدرجة الأولى . ثم نشر هويت بعد هذا التاريخ بستة وعشرين عاما نتـائج مراسـلاته وبحـوثه الشخصية في كتاب « القبائل الوطنية في جنوب شرق أستراليا » (الذى صدر عام ١٩٠٦) • وفى خلال تلك الفترة قام عدد قليـل من هـواة الدراسة الانثروبولوجية الأكفاء بدراسات منهجية للتنظيم الاجتماعى ، والشعائر الدينية ، واللغة عند القبائل التى اتصلوا بها على نحو أو آخر • ومن أبرز هؤلاء ماتيوز Mathews ، الذى نشر حتى عام ١٩١٠ حوالى مئتى مقال •

وكان هذا النوع من الدراسة الانثروبولوجية « المخططة » يهـدف منذ النصف الثانى من القرن الماضى الى جمع المعلومات «قبل فوات الأوان» عن القبائل التى كانت تنقرض بسرعة ، وكانت ثقافتها آخذة فى الاندثار • فكان بذلك بحثا يؤدى وظيفة ملحة • ولكن رغم جودة وفائدة الدراسات التى قام بهـا فيسون وهويت ، وبعض الجـامعين (مثـل برو سـميث Brough Smith ، وتابلين G. Taplin ، وكير E.W. Curr) ، وماتيـوز ، وجـون ماتيـو Mathew وبعدهم ديزى بيتس Daisy Bates فقـد كانت ذات طـابع انتقادى أساسا . ذلك أنها لم تكن وصـفا وتحليلا وتفسيرا للحياة القبلية الجارية • وقد تحقق هذا اللون من الدراسة فى عام ١٨٩٩ عندما نشر سبنسر Spencer وجيلين Gillin كتابهمـا « القبـائل الوطنية

فى وسط أستراليا» الذى قدما فيه دراسة مباشرة لأحد مجتمعات الأرونتا المعاصرة . ثم نشرا كتاب « القبائل الشمالية فى وسط أستراليا » عام ١٩٠٤ ، ونشر سبنسر كتاب «القبائل الوطنية فى الاقليم الشمالى» عام ١٩١٤ . وقد ركز الكتاب الاول اهتمامه على قبيلة الوارامونجا Warramunga فى حياتها العادية ، واهتم الكتاب الثانى بسكان جزر كاكادو وملفيل .

وقد بلغ عدد الكتب التى نشرت حتى عام ١٩٢٥ حوالى ثلاثين كتابا ، كلها يقوم على معلومات أنثروبولوجية أسترالية مباشرة . ولم يكن أساسيا منها سوى ستة فقط ، هى تلك التى اشترك فى تأليفها بالدوين سبنسر وهويت ، وكتاب روث W.E. Roth عن «السكان الأصليين فى شمال وغرب ووسط كوينزلاند» (الذى صدر عام ١٨٩٧) .

ويمكن أن نضيف الى هذه الكتب كتاب جون ماتيو « اثنتان من القبائل الممثلة لكوينزلاند » الذى صدر عام ١٩١٠ ، وان كان أقل شأنا من الكتب السابقة . هذا علاوة على عدد كبير من المقالات القيمة ، خاصة مقال الانثروبولوجى المتخصص براون A.R. Brown بعنوان « ثلاثة قبائل ممثلة لاستراليا الغربية » الذى نشر عام ١٩١٣ . وبالاضافة الى ذلك فقد عمل نحو عشرين أو أكثر من الباحثين من دول ما وراء البحار على الافادة من المادة المنشورة من قبل عن السكان الأصليين . وقد نشروا تحليلاتهم وتفسيراتهم فيما نشروه من كتب عامة عن موضوعات : التنظيم الاجتماعى ، والزواج ، والدين ، وما الى ذلك من موضوعات .

تلك كانت باختصار صورة الوضع فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن .

مرحلة جديدة

البحث المتخصص

عند هذه لمرحلة عقد المؤتمر العلمى الثانى للمحيط الهادى فى ملبورن وسيدنى فى عام ١٩٢٣ . وقد اشتركت فى هذا المؤتمر لألتقى بالأنثروبولوجيين القادمين من الخارج ، لأنى كنت أفكر فى ذلك الوقت فى الذهاب الى انجلترا لمتابعة دراستى العليا . وقد قرر المؤتمر ضرورة انشاء قسم جامعى للأنثروبولوجيا فى أستراليا للقيام باجراء البحوث اللازمة بشكل عامل فى أستراليا وميلانيزيا ، ولتنظيم محاضرات للباحثين الميدانيين والموظفين الاداريين من بابوا وغينيا الجديدة ورجال الارساليات وطلاب أقسام الليسانس . وقد اضطلع مجلس البحوث الأسترالى القومى بتنفيذ هذا القرار . فوافقت الحكومة الأسترالية على جقديم المنح السنوية الكافية لمدة خمس سنوات للانفاق على القسم . كما وافقت جامعة سيدنى على انشاء القسم بها . وقدمت مؤسسة روكفلر منحة سخية لمجلس البحوث للانفاق على الدراسات الميدانية .

وكان رادكليف براون أول أستاذ بالقسم (عمل فى الفترة من ١٩٢٦ حتى ١٩٣١) ، كما كان رئيسا للجنة الأنثربولوجيا بمجلس البحوث • وفى خلال عام واحد كان تسعة منا قد شرعوا فى العمل الميدانى فى شمال أستراليا ، وفى بابوا ، ونيوغينيا ، وميلانيزيا • ثم عدت من لندن فى سبتمبر عام ١٩٢٧ لأعمل بمجلس البحوث كأول زميل بحث • وأجريت فى عام ١٩٢٧/١٩٢٨ مسحا أنثروبولوجيا لمدة عام لمنطقة كمبرلى فى أقصى شمال الجزء الغربى من أستراليا• ثم أجريت فى عام ١٩٣٠ مسحا مماثلا لبقية السكان الأصليين الموجودين فى شمال غرب الجزء الجنوبى من أستراليا • وقد عملت فى كلتا المنطقتين بين بعض الجماعات القبلية وبقايا محطات الارساليات الدينية والرعاة ، وكذلك بعض القبائل التى لم تكن حياتها الاجتماعية والثقافية فى ذلك الحين قد تعرضت كثيرا للاستعمار الأبيض •

وكانت هذه الدراسات المسحية تستهدف تحقيق غرضين : الأول أن أقف عن طريق الدراسة المكثفة لكل جماعة أقابلها ، مستقرة كانت أو بدوية ، على نسق القرابة عندها ، ونوع التنظيم المحلى والاجتماعى والطوطمى الموجود عندها • وذلك من خلال تسجيل سلاسل الانساب الفردية ، ومناقشة ما تكشف عنه سلاسل الأنساب هذه ، ثم الانتقال بعد هذا الى ميدان الشعائر الدينية والحياة السرية • الغرض الثانى أن أختار بعض المواضع التى يمكن أن أوفد اليها باحثين ميدانيين آخرين يمكنهم فيها أداء عملهم بنجاح •

ولقد كانت المسافات التى يتحتم على أن أقطعها كبيرة جدا ، وقد استخدمت وسائل انتقال متنوعة ، ففى منطقة كمبرلى كنت أستخدم المراكب الشراعية على طول الساحل ، وكنت أقطع بعض المسافات سيرا على الأقدام ، أو راكبا وسائقا الخيول ، والبغال ، والحمير ، واستخدمت وسائل النقل البخارية فى قليل من الحالات • ولقد تعذر على استخدام وسائل النقل البخارية فى جنوب أستراليا ، حيث توجد تلال رملية عالية كان على أن أقتحمها وأتسلقها • ثم أن الرمال المتحركة كانت تطمس كل الطرق ، ولم أكن أتغلب على هذه الصعوبة الا بمساعدة السكان الأصليين المحليين • وكنت أتخبط وأنا أقطع السهول الشاسعة المغطاة بقطع الاحجار الكبيرة المستديرة وأنا أسير ببطء شديد • كما كان على أن أشق طريقى بصعوبة فى مناطق الغابات ، مستهديا بأقدام الابل المتمايلة التى كانت تحمل البنزين عبر تلك المناطق •

الا ان المواصلات الشاقة والعمل المركز فى كل مكان كنت أتوقف فيه كان يؤتى

(*) رادكليف براون : أنثروبولوجى انجليزى شهير • اشتغل بتدريس الانثروبولوجيا والاشراف على الدراسات الانثروبولوجية فى عدة جامعات داخل انجلترا وخارجها، ومن بينها جامعة الاسكندرية • ويعد أحد مؤسسى المدرسة الوظيفية ، وان لم تتخذ كتاباته شكل النظرية المدرسية فى هذا الشأن • ومن مؤلفاته « سكان جزر الاندمان » وصدرت طبعته الاولى عام ١٩٢٢ ، « والتنظيم الاجتماعى لبعض القبائل الاسترالية » ١٩٣١ ، « والبناء والوظيفة فى المجتمع البدائى » ١٩٥٢ ، و « ونظام القرابة والزواج عند النوير » (المترجم) •

ثماره الطيبة ، لا من حيث المادة الانثروبولوجية فحسب ، وانمــا كذلك فى التفاهم والتقدير المتبادل الذى كان يتحقق بسرعة فى كل مرة بين السكان الأصليين وبينى ٠ ولم أكن أتعمد اقامة مثل هذه المشاعر ، فقد كنت أسلم بها ، وكانوا هم من ناحيتهم يستجيبون على الفور ٠ ولعل من علامات هذا التقدير المتبادل ذلك التعـاون السريع الصبور معى فى عملية تسجيل سلاسل الأنساب مع تسجيل الأفرع المختلفة تحت كل اسم فى كل سلسلة ، وكانوا على أستعداد بعد اقامة أيام قليـــلة لأن يتناقشوا معى الحياة السرية ويطلعونى ــ دون سؤال فى الغالب ــ على الشعائر والمواضع والرموز المقدسة ٠ وتبدو أهمية هذه المساعدات بوجه خاص فى تلك الايام الخوالى التى لم يكن الباحث الميدانى فيها يدفع أجراً للاخباريين ، وربما لم يكن يفعل أكثر من أن يقتسم معهم قطعا صغيرة من الطباق ٠ ويلاحظ فضلا عن هـــذا أن هذه الاستجابة السريعة كانت تصادفنى فى السنوات الاخيرة فى كل مرة قمت فيها ببحث ميدانى ، سواء فى المناطق الساحلية فى نيوسوث ويلز وفى كوينزلاند أو فى أرض أرنهايم أو فى وسط استراليا ٠ فقد كانت استجابتهم دائما استجابة الفهم والصداقة الوطيدة ٠ وأنا على يقين من أن تجربتى هذه ليست فريدة فى نوعها ٠ وان كنت أدرك أننى كنت أتمتع بمزايا السن ، فقد كنت فى السادسة والثلاثين عندما نزلت الى الميدان لأول مرة ، وكان لى خبرتى السابقة ، اذ بدأت حياتى بالعمل موظفا فى مصرف (فى الفترة من ١٩٠٨ حتى ١٩١٢) فى الوقت الذى كانت فيه علاقة موظفى المصارف ــ حتى الصغار منهم ــ مع عملاء المصرف فى الفروع الريفية الصغيرة علاقة شخصية ووثيقة ٠ ثم أننى عملت ثانيا « كقسيس فى الأدغال » جانبا من الفترة التى امتدت من عام ١٩١٥ حتى ١٩٢٥ ، مما أتاح لى أن أعرف كل فرد فى الاقليم الذى كنت أعمل فيه ، عندما كنت اتنقل من بيت الى بيت ، وأحظى بثقة الجميع واحترامهم ، فقـد كان ذلك كله بمثابة تدريب جيد لى ٠

وفيما يلى بعض الشواهد على تلك الصداقة التى توطدت بينى وبين الســكان الأصليين ، سواء بشكل ظاهر أو كامن ٠ حدث فى عام ١٩٤٨ ، أثناء زيارتى الأولى لأحد معسكرات القسس الصغيرة فى وسط منطقة أرنهايم فى الاقليم الشمالى ، أن شاهدت رجلا عجوزا يجلس فى كوخ من تلك الأكواخ المكسوة بلحاء الشجر ٠ وقـد سألته : «ماذا تفعل؟» فأجاب بأنه قد قارب على الانتهاء ، ولكنه بصدد أن نقيم شعيرة الماريان Maraian ، وهى نوع كبير من الطقوس يود أن يقيمه من أجل ابنه قبل أن يعاجله الموت ٠ ولمــا أبديت له رغبتى فى أن أحضر أداءه لهذه الشـعيرة ٠ أجابنى ببساطة : « سوف تحضر » ٠ وبعد ذلك اللقاء بعام تلقيت منه رسالة عن طريق الرجل الأبيض الوحيد الموجود فى تلك المنطقة ، فعدت الى المنطقة وسجلت أداءه لها ٠ ولكم كانت دهشتى عندما وجدت الرجل قد أعد رمزا خشبيا كبيرا لهذه الشعيرة خصيصا لى ، لكى آخذه معى ٠

وفى عام ١٩٤٦ وصلت ، عن غير عمد ، الى منطقة ارسالية « فورست ريفر » فى شمال كمبرلى ، وهى منطقة كنت قد أجريت فيها بحوثا فى عام ١٩٢٨ ٠ وبعـد

دقائق قليلة شعرت بمن يربت على كتفى، وكان هو الرئيس المسن هو الذى يربت على كتفى ، وقد تلقيت منه دعوة لزيارة المعسكر فى الليلة التالية ، لأنهم يريدون أن يطلعونى على « شىء ما » ، وفى اليوم التالى ذهبت مع الرجال الى « مكان سرى » حيث توجد مجموعة من الرموز المقدمة موضوعة أمامى بشكل احتفالى • كل هذا ولما ينقض على زيارتى الأولى ثمانية عشر عاما •

وهكذا فان العمل الميدانى ، رغم موضوعيته ، يتدعم كثير بفضل العلاقات الشخصية العميقة • فعندما كنت أقترب من احدى مستوطنات السكان الأصليين كنت أقابل برسالة تحية تقول « ان صديقك ينتظرك » • أو عندما كان الرئيس المسن يودعنى من أحد معسكرات القسس قائلا لى «الى اللقاء يا صديقى »• أو عندما كنت أسمع أمرأة عجوزا ذات مكانة محترمة كنت أعرفها لمدة تزيد على عشرين عاما تقول لى فى لقائنا الأخير « الى اللقاء ، فاننى لن أراك مرة ثانية » • وحدث فعلا ان توفيت بعد هذا اللقاء بعشرة أيام دون أن أراها أو ترانى مرة أخرى •

تلك أمثلة قليلة للصداقة الدائمة التى قامت وما زالت قائمة بينى وبين السكان الأصليين فى كثير من أنحاء أستراليا • واننى أعتقد أيضا أن هذه العلاقة الشخصية قد أضفت عمقا ومغزى على الجهود التى أبذلها منذ عام ١٩٣١ من أجل بقاء السكان الأصليين ورفاهيتهم وتقدمهم ، وخاصة خلال العقد الرابع ، فقد كنت أؤمن بمبادىء انسانية ، وكنت استشعر الاشمئزاز من القسوة والأعمال الوحشية ، ولكن هذه المشاعر من جانبى لم تكن مجرد أشياء مجردة أو من على البعد • فصداقاتى الشخصية أو علاقاتى مع أصدقائى هى التى كانت تقتل ويقضى عليها فى تلك الأعمال الوحشية ، أو أصدقائى هم الذين كانوا يعاملون بقسوة وبظلم ، أو كانوا يتقبلون فناء شعبهم كشىء حتمى : « فقد كنا متكاتفين معا جميعا حتى النهاية » •

التعيين فى كرسى الأنثروبولوجيا

علمت فى عام ١٩٣١ ، بعد عودتى مباشرة من أقصى الغرب فى الجزء الجنوبى من أستراليا ، أن رادكليف براون قد استقال من كرسى الأنثروبولوجيا بالجامعة • فلم يتقرر التمويل الحكومى طيلة السنوات الخمس التالية ، وتقرر بدلا من ذلك اعتماد مخفض جدا لمدة عام واحد فقط • ويبدو أن الأزمة الاقتصادية فى تلك الفترة كانت هى السبب فى ذلك التخفيض • وقد عين الدكتور ريموند فيرث(١) R. Firth

(١) ريموند فيرث R. Firth عالم أنثروبولوجيا انجليزى شهير ، قام بتدريس الانثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة سيدنى ثم بجامعة لندن ابتداء من عام١٩٣٣ حتى احالته الى المعاش عام١٩٣٨ • وقد ترك مؤلفات عدة نذكر منها : الاقتصاد البدائى عند شعب الماروى فى نيوزيلندة (الطبعة الاولى ١٩٢٩ والثانية عام ١٩٥٩) ، والانماط البشرية (١٩٣٦) ، ومبادىء التنظيم الاجتماعى (١٩٥١) ، وصيادو الملايو : اقتصادهم الريفى (١٩٤٦) ، والتيكوبيا : دراسة سوسيولوجية للقرابة فى بولينزيا البدائية (١٩٣٦ ، وأعيد طبعه عام ١٩٥٧) • وقد ضمن نتائج دراسته للتيكوبيا عدة كتب أخرى عدا هذا الكتاب لا يتسع المجال لحصرها هنا (المترجم) •

للقيام بأعمال الأستاذية بالنيابة • وأعدت خطة أولية لاستخدام منحة سخية ثانية قدمها مجلس مؤسسة روكفلر فى الفترة ١٩٣٢ حتى ١٩٣٥ • الا أنه فى أواخر عام ١٩٣٢ ،ورغم احتياجات حكومة الكومنولث ، بدا أن مستقبل قسم الأنثروبولوجيا أصبح ميئوسا منه من الناحية المالية ، بحيث أن الدكتور فيرث استقال منه ، وذهب الى لندن • وبناء على طلب نائب رئيس الجامعة اضطلعت بالاشراف على القسم فى عام ١٩٣٣ ، ومعى مدرس مؤقت لمساعدتى • وأعلنت الجامعة أن احتمال تقديم محاضرات فى الانثروبولوجيا فى عام ١٩٣٤ ضئيل •

وفى الوقت نفسه عيننى مجلس البحوث ابتداء من أول يناير ١٩٣٣ رئيسا للجنة الانثروبولوجيا ، ورئيسا لتحرير مجلة «الاوقيانوسية»(١) • فلم يكن بد من الاشراف على تنفيذ برنامج البحوث وعلى نشر النتائج مهما كان المصير الذى سيلاقيه قسم الانثروبولوجيا بالجامعة •

وقد خصصت حكومة الكومنولث فى منتصف تلك السنة منحة لمدة خمس سنوات للانفاق على القسم ، مستجيبة بذلك لشكاوى مجلس البحوث والبروفيسور جرافتون اليوت سميث(٢) فى لندن ، وبفضل هذه المنحة ومنحة أخرى صغيرة قدمتها حكومة نيوسوث ويلز والأموال التى كانت موجودة استطاعت الجامعة أن تعين أستاذا لتلك الفترة (من عام ١٩٣٤ حتى عام ١٩٣٨) ، وقد وقع على الاختيار لشغل هذه الوظيفة •

وكان عملى فى تلك الوظيفة معقدا • ذلك أن الأغراض العديدة التى من أجلها أنشىء كرسى الأنثروبولوجيا لم يطرأ عليها أى تغيير فى عام ١٩٣٥ ، وهى : اجراء البحوث ، وتدريب الباحثين الميدانيين ، والقاء محاضرات على موظفى الادارات الحكومية ، ورجال الارساليات ، وطلبة الجامعات • ولكى يضطلع الأستاذ بهذا العمل المتعدد الجوانب على الوجه الأكمل كان عليه أن يحظى بثقة الجامعة وتعاونها ، وكذلك مجلس البحوث الأسترالى القومى ، ومجالس الارساليات ، والمصالح الحكومية المختصة بشؤون السكان الأصليين فى أستراليا وفى اقليم بابوا ونيو غينيا • ومن حسن الحظ أنه كان قد سبق لى التعاون ، الذى امتد سنوات فى بعض الأحيان ، مع بعض الأعضاء البارزين فى تلك المؤسسات والمصالح ، وكنت أحظى بتعاونهم معى دائما •

الا أن تحديد مدة المنحة الحكومية بخمس سنوات ، علاوة على عدم ضمان تجديدها ، لم يكن يسمح بغير عمل خطط قصيرة الأمد لتطوير القسم والقيام ببعض مشروعات البحوث المؤقتة ، على حين أن البرامج الطويلة الأمد كانت ضرورية لانجاز ذلك الكم الهائل من الدراسات الميدانية المطلوبة للمنطقة الاسترالية الميلانيزية •

---

(١) Oceania

(٢) جرافتون اليوت سميث من علماء الانثروبولوجيا الفيزيقية البريطانيين (عاش من ١٨٧١ حتى ١٩٣٧) وهو رائد المدرسة التى تقول بانتشار الثقافة من مصر (المترجم) •

ولذلك طلبت من رئيس الوزراء – بالتعاون مع نائب رئيس الجامعة – في البداية مضاعفة مدة المنحة الحكومية ، وكذلك زيادتها ، لكي يمكنني أن أعين مدرساً دائماً ، بدلا من الاعتماد على مساعدة عدد من المدرسين المؤقتين • وكان هؤلاء المدرسون المؤقتون باحثين ميدانيين تابعين لمجلس البحوث عادوا الى سيدني لكتابة تقارير بحوثهم الميدانية • كذلك طلبت من السير جرافتون اليوت سميث أن يتابع موضوعي مع رئيس الوزراء ، وكان رئيس الوزراء يقوم بزيارة لانجلترا في ذلك الوقت • وقد فعل ذلك ، وحالفه فيه النجاح • وعندما انتهت فترة السنوات العشر هذه كان القسم قد استطاع أن يندمج في بناء الجامعة ، ولم تثر تلك المشكلة بعد ذلك اطلاقا•

البحوث الميدانية عن سكان أستراليا الأصليين بعد ١٩٢٦

لقد ارتبطت بالبحث الميداني بين الشعوب الوطنية (الأصلية) في أستراليا وميلانيزيا طوال خمسة وأربعين عاما • فقد بدأت بالعمل باحثا ميدانيا في الفترة من ١٩٢٧ حتى ١٩٣١ ، ثم لفترات قصيرة متعددة منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٩٥٨ • ثم اضطلعت بالاشراف على تلك البحوث في الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٥٦ ، وعملت مستشاراً للباحثين الميدانيين منذ عام ١٩٣٠ حتى يومنا هذا • كما قمت بنشر نتائج البحوث الميدانية ، اذ عملت رئيسا لتحرير مطبوعات مجلة «الاوقيانوسية» منذ عام ١٩٣٣ حتى اليوم •

ولقد بلغ حجم البحوث التي أجريت في أستراليا وفي الجزر منذ عام ١٩٢٦ مدى كبيرا جدا • وكانت الدفعة لذلك قد جاءت من ثلاث منح قدمتها مؤسسة روكفلر لمجلس البحوث القومي الاسترالي في الفترة من ١٩٢٦ الى ١٩٣٨ • وقد كتبت في تلخيص لانجازات تلك الفترة في عام ١٩٣٨ أن المجلس أرسل أربع عشرة بعثة ميدانية الى اقليم ميلانيزيا ونيوغينيا ، تراوحت مدة كل بعثة منها من تسعة أشهر الى ثمانية عشر شهراً • وأرسل داخل أنحاء أستراليا أربع وعشرون بعثة على الأقل ، استمرت الواحدة منها ما بين تسعة أشهر وعامين • هذا فضلا عن عدد أكبر من البعثات التي قضت مدداً أقل من ذلك ، واستهدفت دراسة مشكلات معينة • كذلك قدم المجلس وأستاذ الانثروبولوجيا تعاونه ومساعدته للباحثين الميدانيين الموفدين من هيئات أجنبية • وقد ملأت أسماء المطبوعات التي كانت قد نشرت حتى عام ١٩٣٨ أربع صفحات من مجلة « الاوقيانوسية » بالنسبة لكل من المنطقتين •

الا أن فرص اجراء بحوث ميدانية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية كانت محدودة جدا ، وان كانت مؤسسة كارنيجي قد قدمت لي منحة مكنتنا من استمرار جزء من العمل ، كما ضمنت لنا الاستمرار في اصدار مجلة «الاوقيانوسية» • وبعد انتهاء الحرب عاد البحث الميداني سيرته الاولى • فقدمت حكومة الكومنولث المنح المالية عن طريق الجامعات الأسترالية على النحو التالي

(أ) جامعة سيدني في البداية .

(ب) الجامعة الأهلية الأسترالية في كانبرا بعد انشائها في عام ١٩٥٠ •

(جـ) جامعة غرب أستراليا فى بيرت ، بعـــد انشائها فرعا للأنثروبولوجيـا فى عام ١٩٥٦ ، تحول الى قسم مستقل بعد ذلك ٠

وخلال الفترة من ١٩٢٦ الى ١٩٦١ قام فى آستراليا وحدها حوالى خمسةوثلاثين أنثروبولوجيا متخصصـا باجراء بحوث ميدانية ، كان معظمهـا يسـتغرق فترتين أو ثلاث فترات بالنسبة لمشروع البحث الواحد ٠ وقد بلغ مجمل فترة الاقامة الميدانية بالنسبة لهذه البحوث مجتمعة أكثر من سبعين عاما ٠ وحظى بالاهتمام الأكبر من جانب هذه البحوث موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ٠ وان كانت قد تضمنت كذلك بحوثا فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، والثقافة المادية ، بمجرد توفر متخصصين فى هذين المجالين ٠ وكنت قد بدأت فى عام ١٩٤٩ عمل تسجيلات ودراســات جادة لموسيقى السكان الأصليين ٠

وفى عام ١٩٦١ تلقت كل جوانب البحث الأنثروبولوجى للسكان الأستراليين الأصليين دفعة قوية بسبب تأسيس « المعهد الأسترالى لدراسات السكان الأصليين » فى كانبرا ، الذى اضطلعت حكومة الكومنولث بعبء تمويله ٠ وقــد شــاركت فى المناقشات التمهيدية التى سبقت انشاء هذا المعهد ، وفى المؤتمر الأكاديمى الذى عقد عام ١٩٦١ لتأكيد الحاجة الى وجود مثل هذا المعهد ٠ ثم اضطلعت برياسة مجلســه المؤقت خلال الفترة من عام ١٩٦١ حتى ١٩٦٥ ، ورياسة بعض لجانه وهيئات البحث التابعة له ٠

وقد قام المعهد بالتمويل — الجزئى أو الكلى — (لأكثر من أربعمئة) مشروع من مشروعات البحث فى السنوات العشر الاولى من عمره ، وذلك بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر من خلال الجامعات والمتاحف الاسترالية ٠ وقــد مول على وجه الخصوص أكثر من ثمانين دراسة لغوية ميدانية ، كما شجع الدراسات الاركيولوجية التى كان يعوقها فى الماضى قلة التمويل وعدم وجود متخصصين مدربين ٠

كذلك شارك المعهد فى تمويل نشر نتائج البـحوث فى صـــورة كتب ، وفى المجلات ٠ كما اضطلع ببرنامج نشر مستقل ، اذ نشر حتى عام ١٩٧٢ حوالى خمسين دراسة ومقالة خاصة ٠

وخلاصة القول أنه حتى عام ١٩٢٥ كانت ســتة كتب فقــط أو سبعة — كما رأينا — من بين حوالى ثلاثين كتابا تتضمن دراسات وبيانات « مبـاشرة » عن سكان أستراليا الأصليين وثقافتهم ، وكانت تتصف بالطابع العلمى فى تناولها ٠ ولكنا نجد خلال الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٧٢ أن أكثر من أربعين كتابا ودراسة مونوجرافية قد نشرت بأقلام أنثروبولوجيين متخصصين ، ولغويين ، وآركيولوجيين ، وموسيقيين ٠ وهى جميعها معتمدة على الدراسة الميدانية التى قام بها الكاتب فى كل حالة ٠ هذا كله عدا الخمسين مقالا ودراسة التى نشرها معهد دراســـات السكان الأصليين ٠ وفضلا عن هذا كانت المقالات تتدفق باستمرار الى المجلات العلمية الاوربية والامريكية والاسترالية ٠

بعض مطبوعاتى الخاصة عن موضوعات متصلة بالسكان الأصليين

أخرجت خلال فترة الكساد الإقتصادى الصعبة وأثناء الحرب العالمية الثانية دراستين مونوجرافيتين كملحق لمجلة الاوقيانوسية • الدراسة الاولى بعنوان : «دراسات فى التوتمية الاسترالية» (صدرت عام ١٩٣٣) ، وتعتمد أساسا على الدراسات الميدانية التى قمت بها فى كيمبرلى بأستراليا الغربية (فى عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨) • كما أشرفت على اعداد كتاب «دراسات فى اللغويات الاسترالية» (صدر عام ١٩٣٧) • وأعدنا فى عام ١٩٤٠ طبع عدد خاص من مجلة «الاوقيانوسية» يتضمن مجموعة من المقالات كانت قد نشرت بالمجلة فى الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٤٠ عن «القرابة فى جنوب أستراليا» ، وكتابين أحدهما بعنوان «الرجل ذوو المكانة الرفيعة عند السكان الأصليين» (صدر فى سيدنى عام ١٩٤٦) ويتناول المشتغلين بالطب عند السكان الأصليين (وقد نفد هذا الكتاب منذ مدة طويلة) ، والكتاب الآخر بعنوان « سكان استراليا الأصليون : كيف نفهمهم » (صدر فى سيدنى عام ١٩٣٨) •

وقد كتب هذا الكتاب الاخير باحساس من يؤدى رسالة ، على مدى عشر من عطلات نهاية الاسبوع فى عام ١٩٤٧ ، فقد كنت أكتب فصلا فى كل عطلة • وقد أوضحت الاستجابة لمحاضراتى العامة التى ألقيتها فى عام ١٩٢٣ وبعد ذلك أن الناس يمكن استثارة اهتمامهم بثقافة السكان الاصليين وبالتنظيم الاجتماعى عند هؤلاء الناس • هذا وقد بدأت أناضل منذ عام ١٩٣٢ على المستوى الشخصى مع السلطات الحكومية وكذلك على المستوى العام من أجل تغيير السياسات التى تتبع مع السكان الاصليين • وذلك من أجل أن نستبدل بسياسات الحماية التى ظل معمولا بها منذ أمد طويل ، والتى تقوم على المفهوم السلبى الذى مؤداه « التلطيف من آلام الموت » لشعب آخذ فى الاندثار ، سياسات ايجابية موجهة نحو رفاهية وتقدم شعب يجب أن لا يموت • ولكن أدركت أنه اذا كان لنضالى أن يكلل بالنجاح ، فلا بد أن يدرك الجمهور العام أن السكان الاصليين بشر لهم ثقافتهم الخاصة • ومن أجل هذا كتبت عديدا من المقالات فى الصحف والمجلات ، وألقيت الخطب أمام عديد من الهيئات ، وكذلك ألفت كتابى « سكان أستراليا الاصليون : كيف نفهمهم » •

ويبدو أن هذا الكتاب قد جاء فى وقته المناسب • اذ رغم ظروف الحرب صدرت له طبعة ثانية فى عام ١٩٤٣ (وأعيد طبعها فى عام ١٩٤٥ وفى عام ١٩٤٨) • واستلزم الامر اصدار طبعة ثالثة (فى عام ١٩٥٤) زودتها بثلاثة فصول :

(أ) الفن والشعائر الدينية •

(ب) الموسيقى والرقص •

(جـ) السكان الاصليون على طريق التقدم •

وقد عكست هذه الفصول الجديدة المعلومات الجديدة التى أمكن التوصل اليها، والظروف المتغيرة المحيطة بالسكان الاصليين • وأعيد طبع هذه الطبعة الثالثة مرتين فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٦١ ، وطبعة رابعة صدرت فى عام ١٩٦٤ وأعيدت فى أعوام

١٩٦٦ و ١٩٦٨ و ١٩٧٠ • وقد تضمنت هذه الطبعة الرابعة معـــلومات جديدة عن فلسفة السكان الاصليين ، كما تضمنت فصلا جديدا بعنـــوان « الحياة بعيدا عن الارض » • ويهتم هذا الفصل بالصيد وجمع الطعام فى حياة السكان الاصليين وفى فكرهم • والى جانب هذا صدرت طبعة شعبية من الطبعة الثالثة عـــام ١٩٥٤ وفى أمريكا عام ١٩٦٤ • كما صدرت للكتاب ثلاث ترجمـــات : ترجمة روسية (صدرت حوالى عام ١٩٥٢ دون علمى) ، وترجمة ايطالية (عام ١٩٥٦ عن الطبعة الثالثة) ، وترجمة فرنسية (عام ١٩٦٧ ، عن الطبعة الرابعة) •

أما منشوراتى الرئيسية الاخرى فى مجـــال الدراسة الانثروبولوجية لسكان أستراليا الاصليين فتضم قائمة طويلة من المقالات والفصول التى نشرت فى بعض كتب أعمال الحلقات الدراسية •

البحوث فى اقليم ميلانيزيا ونيوغينيا

الحقيقة أننى لا أستطيع أن أفعل أكثر من الاشارة الى تطور الدراسة الميدانية لاقليم ميلانيزيا ونيوغينيا ،حتى بالنسبة للفترة الممتدة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٥٦ عندما كنت مسئولا عن الاشراف العـــام على مشروعات البـحوث التى أجريت هناك لحساب مجلس البحوث وجامعة سيدنى • مر البحث الميدانى المتخصص بمرحلتين قبل الحرب العالمية الثـــانية ، ففى المرحلة الاولى (التى امتدت من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٢٥) قام باحثـــون أنثروبولوجيون من انجلترا وأوربا أساسا باجراء بحـــوث انفرادية ، كل فى مجال اهتمامه الخاص • أما المرحلة الثانية فقد نشأت عن المؤتمر العلمى للمحيط الهادى الذى عقـد عـــام ١٩٢٣ • وفى تلك المرحلة نســـقت لجنة الانثروبولوجيا التابعة لمجلس البحوث القومى الاسترالى المشروعات التى كان يقوم بها الباحثون الميدانيون التابعون لها مع تلك المشروعات التى يقــوم بهـــا باحثون من الخارج • وبلغ مجموع عدد البعثات الميدانية فى تلك المرحلة أربعا وعشرين بعثة • وقد أجريت البحوث فى مناطق ممثلة أحسن اختيارها ، كما روعى الربط بينها وبين النتائج التى انتهت اليها بحوث المرحلة الاولى • فكانت بذلك بمثـابة أساس لقيام دراســة أنثروبولوجية اجتماعية لتلك المنطقة الشـــاسعة التى تضم أكثر من ألف شعب ولغة •

ولما قاربت الحرب العالمية الثـــانية على نهايتها بدأت مرحلة ثالثة من مراحل الدراسة العلمية لهذا الاقليم ، احتل فيها موضوع التغير مكانة بارزة • فقد طرحت الحرب مشكلات جديدة وملحة ذات أهمية عملية • ولهذا اقترحت فى عام ١٩٤٣ أن يقوم الانثروبولوجيون الذين سبق لهم اجراء بحوث فى هذا الاقليم تقديم خدمات هامة بالعودة الى المناطق التى سبق لهم دراستها قبل الحرب لدراسة الموقف بعد الحرب • وفى عام ١٩٤٦ طالبنا كأعضاء فى اللجنة التنفيذية لمجلس البحوث حكومة الكومنولث بتدعيم هذا المشروع •

وفى عام ١٩٥٠ أعددت للجنة جنـــوب المحيط الهـــادى عرضا عاما للبحوث

الانثروبولوجية الاجتـــماعية التى أجريت فى ميلانيزيا ، واقترحت بعض أنـــواع مشروعات البحث التى ينبغى اجراؤها فى المستقبل القريب · ومن حسن الحظ ان حكومة الكومنولث قد هيأت فى فترة ما بعد الحرب الاموال اللازمة للجامعات لاجراء البحوث · فقدمت جامعه سيدنى منحـا للحصـول على درجة الزمالة لانجـــاز بعض مشروعات البحث الانثروبولوجية فى نيوغينيا · كما استطاع معهد دراسات المحيط الهادى التابع للجامعة الاهلية الاسترالية التى أنشئت حديثا (عام ١٩٥٠) أن يرسل الى الاقليم باستمرار سيلا مستمرا من الباحثين الميدانيين ، من أعضاء هيئة التدريس به ومن طلاب الدراسات العليا كذلك · كما اتجه كثير من الانثروبولوجيين الاجانب الى نيوغينيا وغيرها من الجزر · وكانوا يعملون فى العـــادة بالتعـــاون مع أقســام الانثروبولوجيا بالجامعات الاسترالية ·

ولقد أبديت اهتـماما خاصا بمشروعين من مشروعات البـــحث لحساب جامعة سيدنى · فقد ترك الدكتور سترونج Strong ، الذى كان يعمـل كبيرا للأطباء وأول انثروبولوجى حكومى فى جزيرة بابوا ، ارثا بوصية مكنتنا من تقديم عدة منح للحصول على درجة الزماله فى الفترة من عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٦٠ لاجراء بحوث أنثروبولوجية فى مناطق صعبه مثل مندى Mendi ووأباج Wabag ــ وكلاهما بدأ البحث فيهما لأول مرة ــ وبين شعب الكونيمايبا Kunimaipa ·

أما المشروع الثانى فقد نشأ بعد زيارة قمت بها فى عام ١٩٥٠ للمنطقة الغربية القصوى فى المرتفعات الوســطى فى نيوغينيا ، عنـــدما كنت أستكشف احتياجات البحوث للجنة جنوب المحيط الهادى · ولم يكن المستوطنون البيض قد نفذوا الى ذلك الاقليم الا منذ أقل من عشرين عاما فقط · ولذلك فان الثقـــافة المحلية ، بما فيها الانماط الغذائية التى تعتمد على زراعة الحدائق الصغيرة المحيطة بالبيت ، لم تكن قد تعرضت لأى اضطراب · هذا فضلا عن أن السكان الذين يبلغ عددهم حوالى تسعين ألف نسمة ــ ويعيشون فى عزلة عن الساحل ، على ارتفـــاع يتراوح بين أربعة آلاف وثمانية آلاف قدم أو أكثر ــ كانوا يتميزون بالقامة القصيرة ، كما يتميزون فى الغالب بلون بشرة أبيض ضارب الى الحمرة · فلمست هنا فرصة ملحة وفذة لاجراء بحوث فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والفيزيقية وفى البيولوجيا البشرية ·

وتنفيـــذا للتقرير الذى كتبته قامت جامعة ســـيدنى ــ من خـــلال قســـمى الانثروبولوجيا والتشريح بها ــ بالتعاون مع هيئة نيوسوث ويلز لنقل الدم بالاتصال الناجح بمؤسسة نفيلد Nuffield لتقديم منحة لاجراء بحوث فى تلك المنطقة · ولما كانت أغراض هذا البحث وراثية وايكولوجية فقد تضمنت مراحل البحث اجراء عمليات قياس فيزيقى ، وتسجيل ملاحظات فيزيقية ، والحصول على عينات من الدم ونماذج لبصمات الأصابع ، وكذلك عينات من الدم لتحديد الاجسام المضادة المسببة للأمراض ، ولدراسة عمليات التمثيل القاعدى · كما تضمن البـــحث اجراء عمليات مسح للأغذية وللأمراض الشائعة ، وكان على الانثروبولوجيا الاجتماعية أن تمدنا على

وجه الخصوص بمعلومات عن البنـــاء الاجتماعى يمكن أن تلقى الضـوء على النوع الوراثى ٠

ولما كنت مسئولا عن المشروع فقد عدت الى المنطقة فى شهرى أبريل ومايو من عام ١٩٥٥ للاشراف النهائى على الخطط والترتيبـات المحلية ٠ كمـا عدت اليها مرة أخرى فى شهر يولية من عام ١٩٥٦ للاذن ببدء المرحلة الثـانية من المشروع ٠ وقد أشرف البروفيسور ماكينتوش Macintosh من قسم التشريح على بدء العمل الميدانى فى شهرى مايو ويونيو من عام ١٩٥٥ ، ثم عاد الى المنطقة فى صيف ١٩٥٦/١٩٥٧ لتنفيذ المرحلة الثانية ٠ وقد حقق المشروع نجاحا فائقا ٠ ونشرت نتائجه فى مقالات فى مجلة « الاوقيانوسية » وفى بعض المجلات الطبية ٠

ولعلى أذكر بهذه المناسبة أننى ساهمت بدور ايجـــابى فى الضغط من أجل وضع سياسات متقدمة فى بابوا ، ونيوغينيا ، وميلانيزيا ٠ وقد وصف وزير الشئون الخارجية الكتيب الذى نشرته بعنوان « مطلوب ميثاق للشـعوب الوطنية فى جنوب غرب المحيط الهادى » (الذى صدر عام ١٩٤٣) وكذلك احتجاجاتى الاخرى بأنها قد أدت دورا فى تأسيس لجنة جنوب المحيط الهادى فى عام ١٩٤٧ ٠

مطبوعات مجلة الاوقيانوسية

كانت عملية النشر بالنســـبة لى تتضمن كذلك رياسة تحرير وتمـويل مجلة الاوقيانوسية التى تصدر كل ثلاثة أشهر ٠ وقد أسس هذه المجلة مجلس البـحوث القومى الاسترالى وأشرف رادكليف براون على تحرير مجلد واحد منها (لعام ١٩٣٠/١٩٣١) ٠ ثم أشرف عليها ريموند فيرث من يوليه ١٩٣١ حتى ديسمبر ١٩٣٢ ٠ ثم اضطلعت بالاشراف على تحريرها منذ عام ١٩٣٣ وحتى ١٩٧٢ ٠ ولعل أربعين عاما رقم قياسى لرئيس التحرير ومدير مسئول عن مجـــلة علمية ٠ وقد اضطلعت بعبء الاشراف عليها فى فترات الكساد الاقتصادى وانخفاض عدد المشتركين ، كما حافظت على بقائها خلال فترة الحرب العالمية الثـانية وما أدت اليه من نقص الورق وانقطاع المشتركين الاوربيين حتى وصلت تدريجا الى حالة الامان المادى ٠ وقد نفدت أغلبية الأعداد السابقة ، وأعيد طبعها الآن ، وتعد نسخة كاملة منها بالميكروفيلم ٠ وقد قبلت فى العقدين السادس والسابع أعدادا كبيرة من المقالات فى ميادين الأركيولوجيا ، والأنثرولوجيا الفيزيقية ، والبيولوجيـا البشرية ٠ وترتب على هـــذا أن بدأت فى عام ١٩٦٦ اصـدار مجلة أوقيانوسية ثانية باسـم « الأركيولوجيا والأنثربولوجيا الفيزيقية فى الأوقيانوسية » ، وهى تصـدر ثلاث مرات فى العـــام ٠ ثم بدأت فى عام ١٩٧١ أصدار مجلة ثالثة باسم « البيولوجيا البشرية فى الأوقيانوسية » ،وهى تصدر مرتين كل عام ٠ ولا شك أن هاتين المجلتين تسدان حاجة قائمة ، الا أن عدد المشتركين لا يزيـد الا ببطء يقـل عما كان مقدرا لكى يحفظ للمجلتين وضعا ماديا مســـتقراً٠

والى جانب المجلات تنشر الدراسات المونوجرافية الملحقة بمجلة الأوقيانوسية

من حين لآخر · وقد بلغ عدد هذه الدراسات حتى الآن تسع عشرة دراسة · كما بدأت منذ عام ١٩٥٦ اصدار سلسلة من الدراسات المونوجرافية اللغوية ·

وفى عام ١٩٥٥ حدث تطور هام فى ادارة مجلة الأوقيانوسية عندما اختفى مجلس البحوث القومى الأسترالى (الذى كنت رئيسا له فى ذلك الوقت) ليحل محله أكاديمية العلوم الأسترالية · ولما كانت هذه الاكاديمية تقصر اهتمامها على العلوم الفيزيقية والبيولوجية فقط فقد اقترحت على نائب رئيس جامعة سيدنى أن تقوم الجامعة بنشر مجلة الاوقيانوسية · وقد وافق مجلس الجامعة على هذا الاقتراح · لذلك هيأت الجامعة مكانا للادارة ، ومخزنا ، وسكرتيرا يعمل طول الوقت ، كما اضطلعت بالاعمال المحاسبية اللازمة · وتكفلت ميزانية مجلة الاوقيانوسية بالانفاق على موظف للآلة الكاتبة بعض الوقت وعلى أجر المشرف على مخزن المجلة ·

وأصبحت مطبوعات مجلة الاوقيانوسية تمثل قسما من أقسام الجامعة ، وأنا أعمل رئيسا شرفيا لها · وقد اتخذت مكتب المجلة مقرا لى بعد تقاعدى من وظيفة أستاذ الانثروبولوجيا بالجامعة فى عام ١٩٥٦ ·

علم الاجتماع

عندما قاربت الحرب العالمية الثانية من نهايتها قدمت حكومة الكومنولث للجامعات منحا لاجراء بحوث فى العلوم الاجتماعية من خلال وزارة تعمير ما بعد الحرب · ومن المشروعات التى احتلت أهمية خاصة فى هذا الصدد بحوث فى مجالات علم الاجتماع الريفى ، وعلم الاجتماع الصناعى ، واندماج المهاجرين فى بيئاتهم الجديدة · وقد كنت كأستاذ للأنثروبولوجيا أشجع دائما دراسة المجتمع الاسترالى الحديث · وقد علمت أن عددا قليلا من تلاميذى هم الذين يودون المعيشة أو العمل بين الشعوب «البدائية» · ونتيجة لهذا فان حوالى نصف رسائل الماجستير التى قدمت خلال سنوات رياستى للقسم كانت ذات طبيعة سوسيولوجية ، تعتمد عادة على بحوث امبيريقية على المجتمعات المحلية أو الجماعات الاسترالية · والواقع أن علم الاجتماع قد أصبح جزءا من المواد التى تدرس للحصول على درجة الليسانس · وازاء توفر منح لاجراء بحوث فى العلوم الاجتماعية استطاعت طائفة من أفضل تلاميذى أن تبقى فى القسم بعد التخرج لاجراء دراسات عليا · وأضيف الى هيئة التدريس بالقسم مدرس جديد ليساعدنى فى الوفاء بالأعباء الاضافية ·

وفى هذا المجال نشرت فى عام ١٩٤١ كتاب « المجتمع والفرد والتغير » ، ونشرت فى عام ١٩٤٣ مقالا بعنوان «الحاجة الى دراسات سوسيولوجية فى استراليا» (فى مجلة Social Horizons ، المجلد الاول ص ٥ حتى ص ١٥) · كما نشرت فى عام ١٩٤٥ مقالا بعنوان «الحاجة الى اعادة التفكير فى السياسة الاسترالية البيضاء» (فى مجلة Australian Quarterly ، المجلد السابع عشر ، العدد الثالث ، ص ٦ الى ص ٣٤) · وقد نشر هذا المقال مع دراسة أخرى بعنوان « هل حقيقة مقضى على أستراليا البيضاء بالفناء ؟ » فى كتاب بعنوان : « أستراليا البيضاء : مشكلة السكان

فى أستراليا »(١) (وقد صدر عام ١٩٤٧) . وخلال الحرب العالمية الثـانية نظمت دراسات مسحية للرأى العام حول موضـوعات ذات أهمية قومية فى ذلك الوقت ، مثل المشكلات المتعلقة بقروض الحرب ، وتجنيد النساء لأداء الاعمـال المساعدة فى القوات الجوية . وقدمت نتائج هذه الدراسات الى الوزير المختص ورئيس المصلحة الحكومية المختصة . وقد اعقب ذلك اجراء بعض المشاورات . ثم ألفت في عام ١٩٤١ كتابا صغيرا بعنوان « آراؤنا والمجهود القومى » .

ومن موضـوعات البـحث السوسيولوجى الأخرى التى اهتممت بها بنفسى وشجعت الآخرين على القيام بها دراسات عن وضع ومشكلات أنصاف السكان الأصليين فى نيوسوث ويلز ، اعتمادا على دراسات ميدانية . وقد خرجت بعض رسائل تلاميذى فى الماجستير والدكتوراه من دراسة هذه الموضوعات ، وكانت ذات قيمة عملية فى العمل من أجل تغيير السياسة والادارة .

السياسات والادارة المتبعة مع السكان الأصليين

ركزت فى بحوثى التى أجريتها فى أقصى شمال غرب أستراليا فى عام ١٩٣٧/ ١٩٢٨ ، وفى الاقاليم الجنوبية والوسطى فى عام ١٩٣٠ ، على الحيـاة الاجتماعية والثقافية والتنظيم الاجتماعى للسكان الأصليين . ولكننى لم أطق الصبر على أسلوب الموظفين الحكوميين ورجال الارساليات والمستخدمين فى معاملة السكان الأصليين وعلى اتجاهاتهم نحوهم . ونتيجة لهذا أننى عندما دعيت للكلام كضيف على اجتماع عقد فى سيدنى عام ١٩٣١ لجمعية حماية السلالات الوطنية أوضـحت عقم سياسات الحماية الموروثة عن القرن التاسع عشر ، لأن هذه السـياسات وتلك الادارة قـد فشلت فى حماية السكان الأصليين داخل حدود مستوطناتهم . وأضفت أن السـبيل الوحيدة لانقاذ السكان الأصليين هى حمل الحـكومات على تنفيذ سياسات للرعاية الصحية والتعليم والعمالة تقوم على ايمان بأن السكان الأصليين الخلص يجب أن لا يموتوا . ثم أفضت فى الكلام عن هذا الموضوع فى الاجتماع السنوى للجمعية الذى عقـد فى عام ١٩٣٢ . ثم نشرت فى عام ١٩٣٣ مقالا حظى بانتشار واسع للغاية بعد أن طبع فى كتيب بعنوان « سياسة مقترحة للتعامل مع السكان الأصليين » . وقد سبق هذا المقال مقال آخر فى عام ١٩٣٢ بعنوان « الصدام الثقـافى والعنصرى فى أستراليا » (نشر فى مجلة Morpeth Review ، المجلد الثـانى ، ص ٣٥ الى ص ٤٥) . ونشرت بعد ذلك عددا كبيرا من المقالات حول هذا الموضوع فى المجـلات والصحف الاسبوعية واليومية .

ونتيجة لكتاباتى ومحاضراتى العامة ، وكذلك اتصالاتى الشخصية الكثيرة جدا مع الوزراء ورؤساء المصالح ، طلب منى الاشتراك فى اللجان الرسمية المختصة بوضع توصيات لتعديل السياسات . كما طلب منى مساعدة وزير الاقاليم لحكومة الكومنولث فى تحديد الخطوط الرئيسية للسياسة الجديدة للتعامل مع السكان الأصليين (التى

(١) A White Australia : Australia's Population

عرفت باسم «البرنامج الجديد») فى عام ١٩٣٨ ، والمشاركة فى اقتراح اسم أول مدير لشئون السكان الوطنيين هناك • ثم وقع على الاختيار فى عام ١٩٣٨ عضوا ونائبا لرئيس لجنة رفاهية السكان الأصليين فى نيوسوث ويلز التى أنشئت حديثا فى ذلك الوقت • وقد ظللت أشغل ذلك المنصب ستة وعشرين عاما • كما شاركت فى المؤتمرات الدورية التى عقدت ابتداء من عام ١٩٤٨ لرؤساء الادارات المختصة بالسكان الأصليين فى الولايات وفى الاقليم الشمالى • كذلك عملت مستشارا لاجتماعات الوزراء الذين تتبعهم تلك المصالح ، والتى كانت تعقد بعدها • ورأست فى عام ١٩٤٨ مؤتمرا فى داروين لهيئات الادارة والارساليات لاعداد مشروع للتعاون فى تعليم السكان الأصليين • كذلك أديت دورا أساسيا فى بدء العمل بنظام المدارس الحكومية لأطفال السكان الأصليين الخلص فى عام ١٩٥١ فى الاقليم الشمالى • كما قدمت لحكومة غرب أستراليا المشورة فيما يتعلق بالجوانب الاساسية فى تغيير السياسة المتبعة مع السكان الأصليين فى عام ١٩٥١ ، وفى اختيار الموظف المسئول عن تنفيذها •

وفى الوقت نفسه ظللت على اتصال وثيق مع الهيئات المسئولة عن الارساليات، وكذلك مع كثير من الابروشيات التى تعتمد على السكان الأصليين كقوة عاملة •

ولا شك أن ذلك كله قد تطلب منى الكثير من الوقت والجهد ، علاوة على نشاطى الاكاديمى والعلمى ، الامر الذى جعل حياتى مشحونة بالعمل ومثمرة للغاية • وقد كان الجميع يدركون فضلا عن هذا أن انتقاداتى وتوصياتى ومشورتى لم تكن تعتمد على أساس أكاديمى فحسب ، وانما كانت ترتكز كذلك على دراية بالظروف الواقعية اكتسبتها من العمل الميدانى المتصل ، كما أدركوا أن هدفى كان عمليا دائما ، أن أوصى بما ينبغى عمله ، وبما يمكن عمله فى الوقت نفسه • وقد مضى الآن أربع سنوات على تقاعدى عن الاشتراك الفعلى فى الحركات المتصلة بشئون السكان الأصليين ، الرسمية وغير الرسمية ، ولكننى مازلت وأنا فى الحادية والثمانين من عمرى أقوم بدور كبير من بعيد ، ولكن عندما يطلب منى ذلك • وقد اقتصر عملى الرسمى حتى عام ١٩٧١ على القاء برنامج دراسى من عشرين محاضرة على موظفى الرفاهية والمدرسين الذين يعملون فى المدارس الاسترالية فى ادارة المحيط الهادى ، والذين يؤهلون للعمل فى مختلف أنحاء أستراليا •

التاريخ

لا شك أن اشتغالى المكثف بالشئون الاجتماعية ، وخاصة بالتغيرات الاجتماعية، قد جعلنى شديد الاهتمام بالتاريخ • وهو موضوع سبق أن درسته فى مرحلة الليسانس • فالفهم لا يتأتى الا من خلال التاريخ ، وكذلك من خلال الدراسات الوظيفية الآنية للمجتمعات المحلية والاحداث ، ولقد أمتعنى تدريس تاريخ الانثروبولوجيا كثيرا ، كما أمتعتنى الكتابة فيه •

ما أن يشارك المرء في الحياة العامة حتى تزيد الأعباء عليه وتتعدد • فقد عملت على سبيل المثال رئيسا لجمعية حماية السلالات الوطنية ، ورئيسا للجمعية الملكية لنيوسوث ويلز ، وعضوا في اللجنة التنفيذية ، ثم رئيسا لمجلس البحوث القومى الاسترالى ، وسكرتيرا للمؤتمر الخمسين للجمعية الاسترالية والنيوزيلندية لتقدم العلوم (الذى عقد عام ١٩٦٢) ، وأمينا ورئيسا للمتحف الاسترالى ، وعضوا بمجلس جامعة سيدنى ، وعضوا ورئيسا لمجلس كلية سان باول بالجامعة ، ورئيسا لمجلس البيت الدولى التابع لجامعة سيدنى •

هناك عبارة مأثورة تقول : « ان كل انسان يقوم فى حياته بعدة أدوار » •

وسواء كانت هذه الأدوار تتمثل في الخدمة فى بعض المناصب الشرفية كتلك التى عددتها فيما سبق ، أو فى ادارة قسم الأنثروبولوجيا بالجامعة للنهوض بالأنثروبولوجيا وبالبحوث وتهيئة وسائل النشر ، أو العمل من أجل تغيير السياسة الحكومية ازاء السكان الأصليين فى أستراليا وفى بابوا ونيو غينيا ، فالموضوع الرئيسى لها واحد • وسواء كانت الرسالة هى النهوض بالعلم أو الارتفاع بمستوى الرفاهية البشرية • فالاستجابة يجب أن تكون ببذل قصارى ما نستطيع • « فالحياة رسالة »، والمتعة هى ثمرة تحقيق هذه الرسالة •

وقد جاء تقدير هذا الهدف المزدوج من خلال :

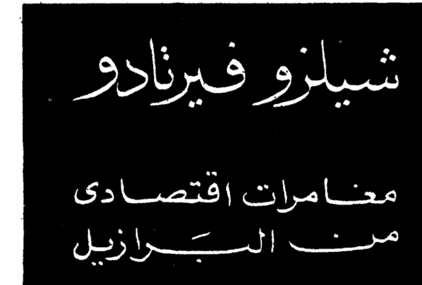
(أ) منحى ميداليــة جيمس كوك من قبل الجمعيــة الملــكية لنيوسوث ويلز لعام ١٩٥٥ ، « لاسهاماتى البارزة فى ميدان العلوم والرفاهية البشرية فى نصـف الكرة الجنوبى » •

(ب) منحى فى عام ١٩٦١ ميدالية هيربرت جريجورى (وقد كنت أول شخص تمنح له هذه الجائزة) من قبل متحف برنيس بيشوب فى هاواى « اعترافا بالخدمات التى قدمتها طول حياتى للعلم وتطبيقه من أجل رفاهية شعوب المحيط الهادى » •

(ج) تعيينى فى ١٩٦١ أول عضــو شرفى مدى الحيـــاة فى الجمعية العلمية للمحيط الهادى ، « تقديرا لخدماتى البارزة للجمعية من أجل تدعيم الأهداف التى تأسست من أجلها » • وكان أول هذه الأهداف وما زال هو تنمية التعاون فى دراسة المشكلات العلمية المتصلة بمنطقة المحيط الهادى ، وبوجه خاص المشكلات التى تتعلق برفاهية وازدهار شعوب المحيط الهادى •

(د) كذلك تجلى تقدير هذا الهدف المزدوج فى الـكتاب التذكارى الذى قدم لى فى عام ١٩٦٥ بعنوان « السـكان الأصليون فى أستراليا » (أشرف على تحريره ر• م• ، س• هـ• برنث) •

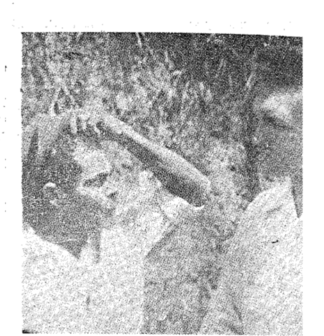
ولا شك أننى سعدت كل السعادة بحصولى فى عام ١٩٤٨ على ميدالية الجمعية الملكية لنيوسوث ويلز ، وحصولى فى عام ١٩٥٧ على ميدالية موللر التى منحتنى اياها الجمعية الأسترالية والنيوزيلندية لتقدم العلوم « للبحوث التى أجريتها فى العـــلوم الطبيعية » • ولعل أعظم تكريم من جانب الحكومة هو منح جلالة الملكة لى وسام سان ميشيل وسان جورج من الدرجة الممتازة •



ان شمال شرق البرازيل ، حيث ولدت وعشت الى أن بلغت عشرين عاما ، لأقدم نواة سكانية فى البرازيل ·

لقد ازدهرت مبكرا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ثم تدهورت حضارتها بعد ذلك مدة طويلة حتى لقد اتسمت بأكثر النظم الاجتماعية جودا فى الدولة بأكملها · ولقد سلب اكتشاف مناجم الذهب والألماس فى ولاية منياس جيراز فى بداية القرن الثامن عشر من شمال البرازيل سيطرته الاقتصادية · وفى منتصف القرن نقلت العاصمة من باهيا الى ريو، وكان هذا دلالة على نهاية مكانتها السياسية كذلك. وهذا التدهور النسبى الذى ازداد خلال القرن التاسع عشر يفسر الحقيقة القائمة اليوم وهى أن شمال شرق البرازيل منطقة تعتمد على غيرها ، وقد اقتصرت على انتاج المواد الخام للصناعات التى تطورت فى جنوب البلاد ·

ومنطقة سيرتاد التى ترعرعت فيها منطقة نصف مجدبة تعانى من جفاف موسمى ، وتربية الماشية هى مصدر الايراد الوحيد فيها · وعندما كنت صغيرا كانت تربية الأطفال تقوم على أنهم أعضاء أسرة ممتدة ، وكانت السياسة تحتل مكانا هاما فى حياة رؤساء العائلات الكبيرة ، ولم يكن لها أى صلة بما يجرى فى البلاد ، بل قامت



ترجمة : الدكتورة فضيلة محمد فتوح

مدرسة الأدب الانجليزى بكلية البنات بجامعـــة عين شمس حصلت على البكالوريوس فى اللغة الانجليزية بدرجة ممتاز عام ١٩٥٥ من آداب القاهرة · وعلى الماجستير بتقدير ممتاز من جامعة القاهرة عام ١٩٦٧ · ثم الماجستير من جامعة ليدز بانجلترا عام ١٩٦٩ · وفى عام ١٩٧١ حصلت على الدكتوراه من جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى ·

أساسا على المنازعات والصراعات بين العائلات ومجموعات العائلات ، وكثيرا ما كانت تنتهى بمشاجرات عنيفة ، وكثيرا ما أغارت عليها « الكانجاسيروس » وهى عصـــابات مسلحة تمولها وتديرها الرياسات السياسية المحلية · ولقـــد كانت طفولتى مليئة بالقصص التى تزخر بالعنف ويقوم بالأدوار فيها أفراد نعرفهم جيدا لا شـــخصيات أسطورية · ولقد اتخذ هذا العنف بعض أشكال العبودية والاستبداد والوحشـــية لا المغامرات التى يتميز بها أبطال الغرب ·

ولقد تلاءم هذا العالم البشرى ـ حيث تتماثل القوة والعبودية أكثر مما تتباين مع البيئة الطبيعية ، فالأحوال الجوية غير عادية ، فعندما تجىء الأمطـــار فى فترة معينة وتكون كميتها معتدلة بالنسبة لمنطقة نصف مجدبة نجد أن الريف يتغير فجأة · ولكن الأمطار لا يعتمد عليها فوفرتها أو مآسيها العظيمة تعتمد على ما يقرره القدر · وفى خلال الخمس السنوات التى سبقت ميلادى (١٩١٥ الى ١٩١٩) كان هناك نوعان من الجفاف تسببا فى عذاب أليم لعـــائلة والدتى · ولقد أحيطت طفولتى بمثـــل هذه المآسى التى أدى فيها عنف الطبيعة واستبداد الانسان دورا كبيرا · ولكن فى بعض الأحيان تكون الأمطار غزيرة ، فعندما كنت فى الرابعة من عمرى آنهدم جزء من منزلنا

نتيجة للفيضان ، ونجوت بأعجوبة من الموت • كما أننى أمضيت بضعة شهور تحت العلاج من الحروق •

وفى هذا العالم الذى يتسم بالقسوة والتشكك يصبح الهرب الى الغيبيات أكثر السبل شيوعا للأمن والطمأنينة • فالسحرة الماهرون رجال حقيقيون وليسوا مجرد شخصيات أسطورية • وبالقرب من منزلنا يقيم الأب سيشرو الشهير الذى أدهش وجذب جماهير الحجاج • والسبيل الوحيدة للحصول على أقل ما يمكن من الأمن الشخصى بطريق مباشر هو اتباع واحد من الرؤساء السياسيين يكون تابعا لرئيس المنطقة ، وبذلك يتبع بطريق غير مباشر لأحد ذوى السلطان فى الدوائر الحكومية أو – فى نهاية الأمر – السياسة القومية ، وبذلك تحمل الانسان حاجته الى توكيد أمنه من الجفاف تسببا فى عذاب أليم لعائلة والدتى . ولقد أحيطت طفولتى بمثل هذه التنظيم شيئا تقريبا • وبجانب هذا يصبح الاعتماد على الغير غير مشروط على المستوى المحلى ، لأن السبيل الوحيدة للهرب من قبضة الرئيس هى خيانة الأفراد والانضمام الى العدو •

وعندما كنت فى الثامنة (وكانت عائلتى تقيم فى عاصمة الولاية) ظهر زعيم سياسى فى الولاية ليحدث ثورة فى حياة المجتمع كله • كان ذلك الرجل الذى اعتبره الشعب زعيما وساحرا يدعى جاو بسوا ، وعندما قدم نفسه اليهم كمحام لهم ، مهملا بذلك التقاليد القانونية ، نجح فى ايجاد حركة شعبية يمكن تشبيهها بالحركات الدينية • وكنت أستمع بخشوع الى القصص التى ترويها خادمات أبوى عن هذا الرجل الذى كان يخدم فى أكثر المناطق تواضعا ويبدو انسانا عاديا . ولقد قتل جاو بسوا بوحشية فى عيد ميلادى العاشر ، وأدت هذه الحادثة الى حزن عام ، ولا أتمكن اليوم من التفكير فيها دون انفعال • وكنت أسير مع خادمات أبوى فى مسيرات طويلة خلف نعش مفتوح وتحمل صورة بالحجم الطبيعى لجاو بسوا • ولقد أدت وفاته الى حزن عميق يفوق الثورة عند الجماهير ومن خلال استماعى الى هذه القصص فى المسيرات استحوذ على شعوربالحيرة تجاه قوى فياضة، ويختلطهذا الانطباع بالاستسلامالذى يقرب من « الماسوشية » التى يمكن تلخيصها فى « ان حظ الرجل الفقير قصير الأمد » •

ان هذه الحقائق تساعد على تفسير بعض الاتجاهات الرئيسية فى طبيعتى التى يصعب على التخلص منها دون اخلال بالتكوين الكلى لشخصيتى تلك الأفكار الأساسية التى تؤثر على كل من نشاطى العملى ونشاطى البنائى أى العمل الذهنى • وأول هذه الأفكار هو الايمان بأن العنف والعبودية يسيطران على هذا العالم الذى نعيش فيه ، والثانى هو عجز الوسائل البسيطة عن معالجة مشكلات الولاية ، والثالث هو عدم التوصل الى حل نهائى للصراع سواء بالنصر أو الهزيمة لأنه كالنهر الجارى ويتجدد على الدوام •

ولم يكن التدريب العقلى الذى يحصل عليه الفرد فى عالم صغير مثل شمال شرق البرازيل حسنا أو سيئا ، ولكنه كان يتأخر عن المناطق المتفوقة ثقافيا بحوالى

خمسة وعشرين عاما ، والتدريب العقلي لم يكن في متناول أحد غير الأقلية في المجتمع الأرستقراطي المحلي ، اذ أن أربعة أخماس السكان أميون ٠

ويجب أن أوضح أن والدي ينتمي الى أسرة تقلدت مناصب على مستوى المسئولية ، فلقد كان والدي قاضيا ، ووالده مدرسا ، وجده قاضيا في عهد الملكية ٠ وحيث أنه لم يمتلك شيئا فانه حرص على أن لا ينغمس في السياسة حتى يحافظ على كماله ٠ ومازلت أومن بأن السياسيين دائما على استعداد لأى نوع من الخداع ، بالاضافة الى أن والدي كان « ماسونيا » حين كان ذلك يعنى معاداة الكنيسة ، ومحبذا للآراء الجديدة ٠ ويرجع اليه الفضل في أنني بدأت وأنا طفل صغير أقرأ لكتاب مثل سويفت وديفو وردبرت ستيفنسون ٠ وشكرا له كذلك لأنه ساعدني في استعمال مكتبة فخمة حيث بدأت منذ الرابعة عشرة في ممارسة أولى هواياتي الذهنية وهي هواية التاريخ ، وثاني تلك الهوايات هو الأدب ، وخلال سنوات دراستي السبع في المدرسة الثانوية قضيت أغلب الوقت في دراسة اللغة اللاتينية أكثر من أي موضوع آخر ٠ ولا أدري أكان هذا يرجع الى سوء تدريس المواد العلمية أو الى حبي للتاريخ القديم والأدب ، ولكنني أومن بشدة بأن اللاتينية هي السبيل الوحيدة الى ثقافة أعلى بالنسبة الى ٠ وبالتدريج أصبحت من محبي الأدب ، وخاصة الكتاب الذين يؤلفون بالبرتغالية ٠ ولقد كانت هذه الهواية هامة وثابتة ، لأنني حتى الثلاثين من عمري كنت أؤمن بأن مهمتي في الحياة هي كتابة المؤلفات الخيالية ٠ ولقد تكون أول كتبي التي نشرتها وأنا في الخامسة والعشرين من مجموعة من القصص ، ولهذا يرجع السبب في انني منذ عامي العشرين حاولت أن أكسب قوتي من الصحافة ، بالرغم من أن تلك المهنة لم تجذبني على الاطلاق ٠ وفي الثالثة والعشرين دخلت ـ وفاء للتقاليد ـ ميدان الخدمة العامة الذي كشف لي عن نوع جديد من المشاكل الاجتماعية ٠

ومنذ دراستي الثانوية تحكمت بعض العوامل في تطوري الفكري ٠ ولكي نتبين تلك العناصر يجب أن نذكر أن البرازيل مرت بثورة فكرية هائلة بعد ثورة عام ١٩٣٠ ، تلك الثورة التي وضعت نهاية لسيطرة ملوك البن ٠ فبين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٣٧ عندما أقام فارجاس دكتاتوريته كانت الدولة مفتوحة للتيارات الفكرية السارية وحياة فكرية قوية ونشيطة ٠ ويجب كذلك أن نتذكر أن المفكرين من أصحاب حرية الرأي اضطهدوا بشدة بعد عام ١٩٣٧ ٠ ومنذ ذلك التاريخ تشعبت الآراء قبل تلك الفترة ونمت ونضجت في هدوء ، كما أنها وضحت في بعض الأذهان ، وفي البعض الآخر تجمدت أو تبلورت الى « الجزمية » (توكيد الرأي والقطع به) ٠

ومن بين العوامل التي تأثرت بها في صباي يمكنني أن أشير الى اتجاهات ثلاثة:

أولا : الفلسفة الوضعية التي ظهر تأثيرها بوضوح في البرازيل ٠ ولقد ترك لنا أحد أقرباء والدتي ، وكان محاربا متقاعدا ، مجموعة من الأعمال بقلم كتاب يؤمنون بهذا المذهب ، وبدأت أقرأ هذه الكتب ، منذ كنت في الخامسة عشرة ٠

فأولوية العقل ومعرفة العلوم والايمان بأن المعرفة والتطور يسيران معا كانت راسخة فى ذهنى كحقائق جلية تفسر نفسها بنفسها •

ومن خلال اهتمامى بالتاريخ تأثرت بالماركسية ، ولقد علمنى كتاب « التاريخ العام للاشتراكية والصراعات الاجتماعية ، لماكس بيير أن ايجاد معـــان وتفسيرات للتاريخ عملية ذهنية صحيحة ومثالية • وفى هذا المجتمع المتجمد الصارم ساعدتنى فكرة الايمان بأن الأنماط الاجتماعية من عمل التاريخ ، ولذلك يمكن تخطيها على رؤية العالم من وجهات نظر متعددة • وهذه الفكرة علاوة على الايمان بأن المعرفة من عوامل التقدم ساعدتنى على رؤية الانسان وجها لوجه مع التاريخ فى ضوء جديد ، وأصبح من الممكن الهرب من عالم يتحكم فيه القدر ويتحمل الانسان فيه مسئوليته الخلقية •

وأخيرا تأثرت بعلم الاجتماع الأمريكى وخاصة بنظرية علم الانسان فى الثقافة كما وجدتها فى كتاب جيلبرتو فراير « السادة والعبيد » • ولقد أبقى هذا الكتاب ــ الذى قرأته وأنا فى السابعة عشرة ــ الضوء على أشياء عديدة ، فلقد أنار لى الأفكار المعـــاصرة بالاشارة الى كيفية تفكير الأفراد فى الدوائر العلمية حيث اكتسبت آفاقا جديدة للمعرفة • واذا نظرت الى الوراء يبدو لى أننى لم أتأثر على الاطلاق بآراء فراير أو بتفسيره لتاريخ البرازيل ، ولكن سر اهتمامى بهذا الكتاب يرجع الى الكشف عن أسلوب ذهنى جديد تماما •

ولقد تأثرت بهذه العوامل منذ دراستى الثانوية من خلال قراءاتى المتقطعة فلم يكن أحد أساتذتى من الوضعيين أو الماركسيين أو المتأثرين بعلم الاجتماع الأمريكى • وفى الواقع يعيش الطلبة فى مجتمع فكرى ينعدم فيه دور المعلم ، ولكن تبادل الكتب والآراء يفتح الأذهان الى المؤثرات العقلية ، فالطالب الذى يتحمس لكتاب يقدمه لآخر • وهذا يفسر وجود حياة فكرية غنية للطلبة فى الأمم الفقيرة التى لا يتوفر فيها المدرسون أو وسائل التعليم ، ويفوق ذلك فى الأهمية معاونة الكلية على التوصل الى المعلومات والمعيشة فى مجتمع مفتوح للمناقشات •

ولقد استمرت هذه العوامل الثلاثة فى التأثير على خلال سنوات دراســـتى الجامعية فى ريو ، وبعدها فى باريس ، ولقد ازداد تأثير ماركس غير المبـــاشر على بقراءة أعمال كارل مانهايم ، لقد خلق علم اجتماع المعرفة علاقة بين نشاط الانسان الفكرى وتاريخه • وكانت الرغبة فى الربط بين الخلق الفكرى والتاريخ هى نقطة البداية فى شغفى بالعلوم الاجتماعية •• ولقد كنت قد بدأت فعـــلا فى قراءة كتب العلوم الاجتماعية لا لمجرد القراءة ولكن كتوجيه للحركة ، وهـــذا لم يغير بأى طريقة اعتقادى الوصفى بأن السلوك الانسانى ، الفردى والجماعى ، يمكن أن يكون الى حـد كبير موضع دراسة علمية مماثلة لدراسة العالم الخارجى • ولذلك كنت دائما على وعى تام بالتفرقة فى التعريف بين معرفة العلوم والمثالية • ولقد سهلت لى وجهة نظر علم الاجتماع الأمريكى التحول من النظم النظرية المبالغ فيهـــا الى المشاكل العملية ، كما ساعدتنى على التخلص من آرائى السالفة فى الأجناس والمناخ وزيادة السكان ، تلك الأفكار التى قيدتنا بالقدرية وأوقفت تحركاتنا •

وعندما التحقت بجامعة البرازيل في ريودى جانيرو كان قد بدأ تدريسى المواد الاجتماعية ، وكان البدء فى تدريس هذه المواد - فى ضوء تطوير فرنسى حديث يهدف أساسا الى تدريب مدرسى المدارس الثانوية ، ولم يكن علم الاقتصاد من بين المواد التى تدرس حينذاك • ولذلك اخترت القانون الذى تؤدى دراسته الى وظائف فى الخدمة العامة ، ويكون ذلك اتباعا لتقاليد العائلة • ولكنى فى عامى الثالث بالجامعة تحولت من دراسة القانون للادارة العامة ، حيث بدأ اهتمامى بمشاكل التنظيم ، وعندئذ اكتشفت أعمال الكتاب الأمريكيين المعاصرين فى تنظيم الخدمات العامة وفى ادارة الأعمال • وبجانب أعمالى الأدبية تعالج مؤلفاتى الأولى بعض مشاكل التنظيم النظرية والتطبيقية ، فلقد كان يثير اهتمامى مشاكل التنظيم التى يوجدها فريق كرة القدم خلال اللعب ، ومدى مرونة هذا التنظيم ، أى بمعنى آخر - ما هى القواعد التى تحكم هذه اللعبة • ولقد قمت بدراسة وتحليل هذا المثل فى مؤلف عن نظرية التنظيم، واهتممت بتنظيم الدولة عندما عملت مساعدا فى ادارة التنظيم •

ودراسة التنظيم جعلتنى أهتم بالتخطيط من الوجهة الفنية البحتة • وفى تلك الآونة لم نكن نعرف شيئا عن نظرية اتخاذ القرارات ، ووجدنا صعوبة فى التمييز بين البرامج والخطط ، وذلك لم يساعدنا على فهم مهمة الادارة فى التنظيم • ولقد تبين لنا بوضوح أن تبرير الادارة تبريرا عقليا يعتمد على التخطيط ، وتوصلنا الى هذا الرأى الفنى عن طريق قراءات لكتاب مانهايم « الرجل والمجتمع فى عصر اعادة البناء »• ومنذ ذلك الحين اعتبرت التخطيط أسلوبا اجتماعيا هاما قادرا على زيادة مستوى التبرير العقلى للقرارات التى تحكم الاجراءات الاجتماعية المعقدة بمنع تحرك العمليات المتزايدة التى لا يمكن تغييرها فى اتجاهات مضادة غير مرغوب فيها. ولذلك رسخت فى ذهنى فكرة أنه يمكن للانسان أن يتخذ قرارات مسببة تؤثر على مجرى التاريخ • واننى اليوم أميل الى التساؤل عن كمية الافتراضات فى اتجاه أولئك الذين يتخيلون أنه يمكننا أن نفسر التاريخ ، ولكن يجب أن نتخيل أنفسنا فى عصر تسيطر فيه النظم الدكتاتورية وضباب تلك الأيام الكثيف اذا اعتقدنا أنه لا يوجد هناك أى افتراضات فى هذا الاتجاه ، وذلك كوسيلة للتخلص منه • ولقد حررتنى هذه المعتقدات التى احتفظت بها لنفسى لأن الطلبة فى البرازيل انطووا على أنفسهم تحت ظلال الدكتاتورية . ولقد اختلط العنف والاستبداد فى النظام الدكتاتورى فى ذهنى مع عالم طفولتى الشاذ • ولقد انتهت فترة الاكتئاب الذهنى الحاد الذى دفعنى فى وقت من الأوقات الى الالتجاء للموسيقى والشعر عندما نجحت فى اقناع نفسى بأن الانسان يمكنه أن يشكل قدره اذا عاش فى مجتمع خطط لهذا الهدف • وعند الوصول الى الايمان بأنه فى مقدور الانسان أن يغير مجرى التاريخ يكون الفرد على استعداد لاتخاذ الخطوة التالية ، وينتهى الى أنه يجب أن يفعل ذلك ، وتصبح المشكلة هى كيفية تحقيق ذلك • واذا لم أتمكن من الاجابة بوضوح على هذا السؤال فذلك يرجع الى المشكلات الشخصية . ولقد ذهبت الى أوربا فى نهاية عهد دكتاتورية فرجاس (كعضو فى البعثة البرازيلية) ، وعند العودة من أوربا التحقت مباشرة بهيئة الأمم المتحدة حيث

عملت عشرة أعوام • وعندما عدت الى البرازيل بدون أى التزامات فى عام ١٩٥٨ كانت الفرص متاحة ومتعددة أمامى حتى لقد تمكنت بدون أى صعوبة من اختيار نوع النشاط والجهة التى تناسبنى بدون الاضطرار الى الانضمام لأى تنظيم سياسى • ولكن الظروف لاتفسر كل شىء ، فالاعتقاد بأن السلطة مصدر للانحراف والعنف لم يفارقنى عند العمل مع السياسيين ، وللتغلب على هذه المقاومة كان يجب أن أعمل بالسياسة فى سن مبكرة • ولكن فى الفترة بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين جعلت الدكتاتورية النشاط السياسى مستحيلا ، وعلاوة على ذلك فان فكرة العمل داخل حدود مثالية بدت لى سفها وأمرا غير منطقى ، وربما كان الخوف من التجمد الذهنى وخاصة الخوف من نضوب خيالى هو السبب فى عدم انضمامى الى حزب الماركسية ، ففى البرازيل تقدم فهم وتفسير الحالة الاجتماعية تقدما بطيئا ، حتى أنه لم يخطر على ذهن أى فرد تغيير هذه المفاهيم والنظم •

لقد دفعتنى دراسة التنظيم الى دراسة التخطيط ، ودراسة التخطيط الى دراسة الاقتصاد • وفى الحقيقة ــ بالرغم من أننى أمضيت خمسة أعوام فى جامعة البرازيل ــ لم أهتم بدراسة الاقتصاد الا فى العامين الأخيرين ، ودرسته بمفردى وارضاء لرغبتى الشخصية • ولقد حضرت من قبل منهجين فى الاقتصاد أظهرا لى تفاهة هذا العلم الذى يوضع للأفراد ذوى الخيال المحدود • ولقد تركنى التلاعب اللفظى الذى استعمله المحاضر فى شرح فكرة « الفائدة الهامشية » (آخر قطعة من الخبز وآخر كوب ماء ••) فى انطباع مبهم عن بعض الألاعيب السحرية الخاصة بالأطفال •

ومنذ عامى الثالث بالجامعة ، عندما درست فعلا نظرية التنظيم وحصلت على بعض المعلومات التطبيقية للوسائل التى نجمت عنها ، حاولت أن أوسع مدى معلوماتى الاجتماعية ، وخاصة بقراءة مؤلفات كتاب علم الاجتماع الألمان أمثال ماكس وبر ، وتونيز ، وهانز فراير ، وسيمل • ولقد تعرفت فى ذلك الحين أيضا على هنرى بيرين الذى كان له على فيما بعد تأثير قاطع وكتب بيرين عن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ومؤلفات كتاب مثل سومبارت وسى عن أصول الرأسمالية ومؤلفات أنتونيو سرجيو عن تاريخ البرتغال جعلنى أرى أهمية علم الاقتصاد فى دراسة التاريخ • وبذلك قادنى التاريخ ونظرية التنظيم كلاهما الى دراسة علم الاقتصاد ، وكان كلاهما يعنى ويتضمن نظرة شاملة تامة للوجهة الاقتصادية •

وعندما بلغت السادسة والعشرين بدأت دراسة الاقتصاد بانتظام • وكانت نظرتى الى العالم قد تم تكوينها ، أى أن علم الاقتصاد لم يكن بالنسبة لى سوى وسيلة تزيد من كفاية معالجة المشاكل التى أقابلها فى دراستى للتاريخ أو لحياة الانسان فى المجتمع • ولذلك لم يكن للاقتصاد اثر فى تكييف وجهة نظرى ، فلم يكن فى تصورى قيام مشكلة اقتصادية بحتة • وعلى سبيل المثال كنت أعتقد دائما أن التضخم المالى ظاهرة لنوع معين من الصراع بين المجموعات فى المجتمع ، وأن أى مؤسسة ليست سوى شكل من الأشكال المتعددة لرغبة أو هواية أحد عوامل المجتمع •

وعندما كنت متأثرا تأثرا شديدا بآراء ماركس فى التاريخ لم أتأثر بآرائه فى الاقتصاد . وعندما قرأت «رأس المال» كنت على علم بالنظريات التقليدية فى الاقتصاد (وفقا لريكاردو) ، كما أن معرفة عامة بمبادىء الاقتصاد (فى الصورة الكينسية) كان الزاميا • ولكننى احتفظت ببعض الآراء من قراءاتى التى غيرت بالطبع فكرتى عن الاجراءات الاقتصادية ، وخاصة أننى رأيت أن التقدم الفنى كان ذا أهمية قصوى ، وقراءتى لشمبتر أكدت لى هذا الرأى فيما بعد ، وآمنت بأن الرأسماليين لديهم اتجاه جدى لتراكم رأس المال أو القضاء على كل ما يعوقهم عن ذلك • ولقد ساعدنى هذا على معارضة أسطورة جمود الدولة الدولة التى تعيش تحت جميع النظريات الكلاسيكية والكلاسيكية الحديثة • ومع مرور الزمن تطورت هاتان الفكرتان تطورا معقــدا فى ذهنى ، ولكننى أومن بأهمية فهمى لهما فى سن مبكرة • ويرجع ذلك لقراءتى الواعية لكتاب « رأس المال » وأنا أدرس فى جامعة باريس •

ولقد كان تأثير كاينيز قاطعا ، فلقد جعلنى ماركس أومن بأن أى تغيير اقتصادى يتضمن ممارسة شكل معين من السلطان والقوة ويرجع اليه الفضل فى رفضى الفكرة الكلاسيكية الحديثة القائلة بأن الاقتصاد يتكون من ميكانيكية آلية • وهى فكرة عقيمة لأى اقتصادى مهتم بمشاكل الدول النامية ، ففكرة السلطة التى يؤمن بها الرأسماليون ليست كافية ، فالسلطة تتكون من نظام ، وفى نظام اقتصادى رأسمالى تتركز جميع القرارات الهامة داخل النظام فى أيدى الحكومة • واننى أدين لكاينز بالفكرة القائلة بأن الاقتصاد الرأسمالى لا يمكنه العمــل بدون مركزية اتخاذ المقررات ، أو بمعنى آخر وجود تنظيم أعلى للسلطة (والى حد ما تعد الرأسمالية دائما رأسمالية حكومية) • ولذلك شكرا لكاينز الذى أقتبست منه فى سن مبكرة طبيعة تنظيم نظرية تبعيــة الاقتصاد •

ويمكن تقسيم عملى كاقتصادى الى ثلاث مراحل :

أولا : عملت عدة أعوام فى المجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية التى أتاحت لى الفرصة لمواجهة مشاكل الدول النامية من أغلبية دول أمريكا اللاتينية مواجهة مباشرة• ثم عملت عدة أعوام فى شمال شرق البرازيل • حيث كنت مســئولا عن التخطيط وتطوير السياسة فى هذه المنطقة تحت اشراف حكومات كيوبتسشك ، وكواردروس ، وجولارت وعملت بعد ذلك فى جامعات فى الولايات المتحدة وباريس • ولقد تناولت أبحاثى ثلاثة موضوعات : التوسع فى اقتصاد الرأسمالية ، والمميزات الخاصة بطبيعة التأخر الثقافى والاقتصادى والتطور التاريخى من الزاوية الاقتصادية • ولقد استمرت الحالة

الاقتصادية فى البرازيل هى مركز اهتماماتى ، حيث انها كانت نقطة البداية • ولقد كانت موضـــوع الرسالة التى أعددتها تحت اشراف الأســـتاذ موريس باى وقدمت لكلية الحقوق فى جامعة باريس عام ١٩٤٨ • وفى هذه الرسالة تناولت فترة أحتلال الاقتصاد البرازيلى التى من أهم خصائصها زراعة قصب السكر • وبعد عام نشرت تحليلى الأول للتغييرات التى تمت فى الاقتصاد البرازيلى خلال القرن العشرين • ولقد احتوت هذه المقالة على نواة الآراء التى تطورت بعد عشر سنوات فى كتابى عن النمو الاقتصادى فى البرازيل • وفى محاولتى لتفسير تأخر البرازيل تناولت فكرة تحـديد عدم التقدم والنمو . وفى هذه الرسالة التى قدمتها كمرشـح للاسـتاذية بجامعة البرازيل فى عام ١٩٥٨ تناولت نظرية التطوير وعدم التطور أو التـأخر كنظريتين متكاملتين تظهران فى الوقت نفسه خلال تطور الرأسمالية الصناعية • ومازلت للآن أومن بأن التأخر الحالى هو نتيجة لنظرية التبعية التى يمكن فهمها بدراسة التطور التاريخى للنظام بأكمله بهدف تحليل تكوينه أى تحديد عوامله الثابتة • ولكن هدفى الأخير هو فهم وتفسير لأسباب تأخر دولة غنية فى جميع مواردها كالبرازيل •

وانى لأتعجب ، أهذه الرغبة الجارفة للتعرف على حقيقة بلدى لا تخفى وراءها رغبة آكثر الحاحا ، وهى التعرف على حقيقة نفسى • أليس من المفروض علينا أن نبقى سجناء تكويننا النفسى ما دمنا غير قادرين على التوصل الى الأصـول الثقافية والاجتماعية التى أوجدتها ؟ والى أى مدى يمكننا تفسير أن اهتمامى بشــمال شرق البرازيل يرجع الى عاطفة قوية تجاه ذلك الجزء من العالم الذى أعرفه جيـدا والذى قضيت فيه فترتى الطفولة والمراهقة ؟ أو على الأصح الى أى مدى يعكس هذه الرغبة شعورى بأننى سجين النظم الاجتماعية التى أثرت فى تكوينى عندما ثرت عليها ؟ وكيف يتكمن المرء من التغلب على شعوره بالغربة دون الحصول على مستوى من الوضـوح يمكنه من النظر بحرية الى جميع هذه النظم التى تكون قانوننا الوراثى الثانى ؟ وعلاوة على ذلك فان هذين الدافعين يكمل أحدهما الآخر ويؤكده واننى لأقر بأن الهدف من كتابة رسالتى عن استعمار اقتصاد البرازيل ورغبتى فى فهم بلادى هما امتصـاص طاقتى الذهنية لمدة خمسة وعشرين عاما •

ولأننى كنت أفكر فى مشاكل حقيقية فان البحث الاقتصادى بالنســبة لى كان هدفا للعمل ، عملى وعمل الآخرين • ولكى يرتفع مستوى فهمك للعالم كى تؤثر فيه أكثر تأثيرا يعنى أنك يجب أن لا يغيب عن نظرك الهدف الرئيسى • وفى الموضوعات النظرية نشبت الصلات الفكرية من الآراء المتقاربة فى اختيار الموضوعات والمشكلات

التى ستعالج • أما الاختلافات فى الوسائل فهى قليلة الأهمية ، لأن فاعلية الوسيلة تظهر فى التطبيق • واختلافى مع الاقتصاديين الذين يؤمنون بالكلاسيكية الجديدة نتج عن اعتقادى بأن المشاكل التى يهتمون بها تافهة ، وبكل بساطة كاذبة • كما أن اختلافى مع الاقتصاديين الماركسيين نبع من رفضهم مقدما استعمال أساليب الكلاسيكية الحديثة حين لم يكن هناك سواها •

ومن الناحية النظرية البحتة فلا شك أنه لا جدوى للتمييز بين الوسيلة والغاية • ولكن اذا أخذنا المدارس بمبدأ قيام العلوم الاجتماعية يجب عليه معالجة مستوين مختلفين من الواقع ، وتحديد أنفسنا بالوسيلة فقط (للتبرير العقلى الشكلى) التى تعد من مميزات الفنيين المتخصصين • ولكن تجاهل وجود مثل هذا التبرير وحرية الأحكام يعوق تقدم العلوم الاجتماعية • ومعارضة هذه العوامل لمجرد أنها الوسائل التى يستعملها أولئك الذين يهدفون الى تدعيم النظم الاجتماعية التى لا يوافق عليها الباحث اغفال للضرورة التى تحتم أن تستبدل بها نظم جديدة .

ان فكرتى عن النظرية الاقتصادية التى تضم نظرة تاريخية شاملة وقطاعا زمنيا يشمل جميع أساليب التحليل الاقتصادى قد تكونت عندما تبلورت فى ذهنى فكرتان: فكرة بالتنظيم وفكرة خاصة بمركز اتخاذ القرارات • واستمرار دراسة القانون والتنظيم معا ساعدنى منذ البداية على تحديد الفرق بين النظم والمؤسسات • ولكن خلال الفترة الأولى من دراستى الجامعية فشلت فى ادراك أهمية هذا التمييز • فلقد كان التفكير فى النظم الاقتصادية الحقيقية ومتابعة سيرها السبب الذى أدى بى الى هذا الاتجاه الذى كنت على تمام الاستعداد له • ولقد ساعدنى ادراك هذا التمييز على أنه من المحتمل اساءة توقيت تغيير المؤسسات ، أو أن يكون هذا التغيير مجرد تغيير شكلى • ومن ناحية أخرى تبين لى أنه فى بعض الأحوال يمكن تعديل النظم دون تعديل المؤسسات مقدما • ولقد أدرك ماركس هذا عندما صرح ضمنا بأن قوى الانتاج يمكن أن تطور دون أى تعديل سابق للتنظيم الأعلى (الذى يدل كما استعمله هو على جميع المؤسسات والانشاءات فى المجتمع) • ووفقا لماركس تؤدى التغييرات فى النظم العليا الى تطور قوى الانتاج ، ولا يمكن ايجاد هذا التطور الا عن طريق ثورات عنيفة • ولكنها ليست مشكلة قوى الانتاج • فيمكن تحديد جميع هذه النظم داخل اطار معين ، واذا كانت هذه التعديلات موجهة فان الاصلاح فى المؤسسات يمكن اتمامه دون أى مقاومة كبيرة • واذا تم تعيين عامل واحد من هذه التنظيمات (التراكم مثلا) فانه يصبح من الممكن أو من المحتمل أن يكون اعادة تكييف هذه المؤسسات عنيفة تأخذ

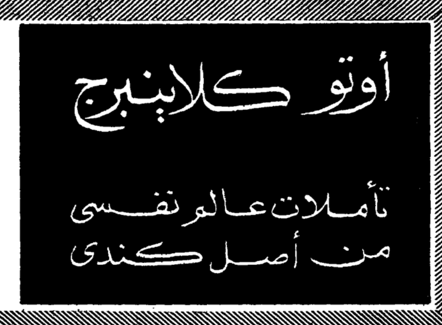
شكل الطوفان ، ولكن اذا تطورت جميع النظم في آن واحد فانه من المحتمل أن يعاد تنظيم المؤسسات دون صراع عنيف · فهل من الممكن تخطيط تعديلات النظم ؟ وإذا كان ذلك ممكنا فما هي الشروط لذلك ؟ ان تصوير المشكلة بهذه الطريقة ساعدني على تقبل مسئولية توجيه السياسة الاقتصادية في شمال شرق البرازيل ، حيث تتجاوز كثرة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية خيال المرء ·

ان فكرة مركز اتخاذ القرارات ساعدتني على عدم استعمال الوسائل الاقتصادية الآلية في تحليلي ، تلك الفكرة المضللة التي منعت الكثير من الاقتصـــاديين عن رؤية النظريات الاقتصادية في محيط الواقع الاجتماعي · ان اتخاذ القرارات هو العمـــل بهدف معين · وممارسة نوع معين من السلطة ، واعتبار العمليات الاقتصادية سلسلة من القرارات ، واعتبار الأخيرة بالتالي تنظيمات للسلطة ، هي أمور تجعـــل من الممكن الامتناع عن نظريات « الاقتصاد الآلى » و « الموازنة » التي تعـــد نواة الكلاسيكية الجديدة · وقبل دراستي للاقتصـــــاد كنت أعلم أن التنظيم لا يمكن أن يقوم دون التنسيق والمراقبة · مهمتان تتضمنان قيام مراكز للتوجيه تكون قادرة على تحديد وشرح الأهداف · ولكن ــ لمجرد توفير المشقة ــ يتجه كل مركز لاتخاذ القرارات الى مد أفقه الزمني ، أي تخطيط نشاطه · ومن ثم عندما يعد الاقتصاد تنظيما يصبح من الطبيعي اعتبار التخطيط أسلوبا يهدف الى زيادة فاعلية مراكز اتخاذ القرارات · وأخيرا يعني التخطيط اما صراحة أو ضمنا تحديد الأهداف ، وهذا يقضي على أسطورة « الاقتصاد الحر » التي أدت الى زيادة تبعية اقتصاديات الدول النامية ·

ان الظروف التي أدت الى تغيير مجرى حيـــاتي في عام ١٩٦٤ عندما حرمتني الثورة العسكرية في البرازيل من جميع حقوقي السياسية وجعلت من المستحيل على الاستمرار في العمل من أجل أمتي ومنطقتي هي بعض الأســـباب التي جعلتني أقرر التفرغ الكلي للعمل الاكاديمي . وبعد الاشتراك بطريق مباشر وغير مباشر لمدة خمسة عشر عاما في النهوض بالسياسات ــ أولا كمستشار فني للامم المتحدة ، ثم كمدير وعضو في الحكومة في البرازيل ــ أعتقد الآن أن أخطاءنا تكمن في عدم كفاية دراساتنا النظرية وآرائنا الرئيسية · ونظرا لعجزنا في هذه الناحية نجد أن نشاطنا السياسي يميل الى اتباع توجيهات منوعة وغير مناسبة ، علاوة على أنها مستوردة من الخارج · أما من وجهة نظام ثانوي تابع فانه من الصعب الحصول على صورة للنظام بأكمله ، ولذلك يتجه الفرد الى أقل الاتجاها ت معارضة وهو التقليد الأيديولوجي · ان عدم تواجد مؤسسات قادرة على اعداد مجموعات كافية وذات كفاءة للبحث في العـــلوم

الاجتماعية وايقاف الدكتاتوريات للعمل فجأة ــ ذلك العمــل الذى يؤدى الى ايذاء وايلام بلدان كثيرة فى فترات متقطعة يساعد على تفسير السبب فى بطء تقدم النقد فى المنطقة ٠ والحل الوحيد ــ وان كانت فاعليته محدودة ــ هو الاعتماد على موارد خارج المنطقة ٠ وتعد باريس من أعظم المراكز من هذه الواجهة ، لأنها تجذب عددا متزايدا من طلبة الدراسات العليا من أمريكا اللاتينية ، وهؤلاء الطلبة قادرون على رؤية بلادهم فى وضعها السليم وقادرون على تكوين صورة متزنة للمنطقة بأكملها ٠ وبجانب ذلك تتوفر بيئة أفضل من الولايات المتحدة للمناقشة وتبادل الآراء مع دراسين من خارج أمريكا اللاتينية ٠ وبجانب نشاطى فى التدريس استمررت فى ايجاد اجابات لألغاز الدول النامية ٠ ومن حين لآخر أعرض افتراضات جديدة بهدف تشجيع الطلبة الآخرين على المشاركة بآرائهم وأفكارهم ٠ وخلال السبع السنوات التى قمت بالتدريس فيهــا بباريس ألفت كتابا عن البرازيل ٠ ولم نضع هذه المجهودات هباء ، لأنه خلال هذه الفترة اشترى سكان أمريكا اللاتينية أكثر من ٢٠٠٠٠٠ نسخة من مؤلفاتى ٠ وبالرغم من أن هذا الرقم ليس ذا دلالة كبيرة فانه يدل على أننى لم خطىء فى تقديراتى الأولى بأنه توجد رغبة واسعة فى تقبل الآراء الجديدة ٠

واذا سئلت عن صورة وصفية لمفكر فى أحد البلدان النامية فاننى أقر بأنه دجال بنسبة ٩٠٪ ، وقديس بنسبة ١٠٪ ٠ ومن ثم اذا افترضــنا أنه لم يولد مفتقرا الى الشخصية كلية ، فهناك تسع فرص من عشر فى امكان شرائه ٠ واذا لم يتبع هــذا القانون فانه سيكون ضحية لاضطهاد لا سبيل الى تهدئته ٠ وقد ينتج عن هذا تحويل هذا الرجل الى بطل قومى فى أى تعديل فى الوضع السياسى ، ولكن الويل له اذا أصر على تصميمه على أن لا يشترى وفى جميع الحالات فانه لن يدرك أبدا ما قد يحصل له مهما حسنت فكرته عن نفسه ٠



يسرنى بالطبع أن يطلب الى أن أقدم « صورة جانبية لسيرة ذاتية عقلية لهـذه « المجلة » فهذا يعنى أن هناك شخصا واحـــدا على الأقل (هو فى هذه الحالة رئيس التحرير !) يعتقد ان وصفا لما فعلته ينبغى أن يقدم للآخرين . ويتصادف أنى أشعر بأننى قد عشت حياة حافلة شائقة ، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن حياتى ستكون شائقة لأى شخص آخر . ولكن من حسن الحظ أن اثنين من اهتماماتى العقلية الرئيسية يتفقان مع الموقف الذى تمثله هذه « المجلة » ، ولابد أن يشاركها فيه بالتالى عدد كبير من قرائها . أما الاهتمام الأول فهو أنه من النادر أن تفهم المسائل الهامة فهما كاملا اذا نظر اليها من وجهة نظر تخصص واحد ، وان المعالجة التى تعتمد على تخصصـات متعددة أمر ضرورى . أما الاهتمام الثانى فهو أن التمركز الاثنولوجى الذى يصحب هوية المرء القومية يجب أن تسـتبدل به وجهة نظر دولية متعددة الثقـافات . هذان الاهتمامان هما اللذان سأوجه اليهما أكبر قدر من التركيز فى الصورة الجانبية التالية .

فاذا عدت لحظة الى تخصصى فلابد أن أذكر أن علماء النفس قد ظلوا مهتمين فترة طويلة بكيفية انعكاس تطور علم النفس على حياة الأفراد الذين أسهموا فيه . ففى ١٩٣٠ ظهر الجزء الأول من «تاريخ علم النفس فى السير الذاتية A History of Psychology in Autobiography» بتحقيق كارا مورشيسون ، ونشرته دار نشر جامعة كلارك .



ترجمة : الدكتورة إنجيل بطرس سمعان

الاستاذة المساعدة بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب بجامعة القاهرة • دكتوراه فى الآداب من جامعة لندن • لها بحوث وترجمات فى مجالات كثيرة فى الأدب الانجليزى والأدب الافريقى •

وتبع ذلك مجلدات أخرى فى فترات غير منتظمة ، كان أحدثها المجلد الخامس فى ١٩٦٦ ، بتحقيق ا • ج بورينج ، وج • ليندزى • أما الجزء السادس الذى يعد تحت رياسة تحرير ليندزى فمن المقرر أن يظهر فى ١٩٧٣ • ولقد بدأت السلسلة لتكون دولية ، فشمل كتاب العدد الأول : كلاباريد من سويسرا ، وجانيه من فرنسا ، وستيرن من المانيا ، وشملت الأجزاء التالية : دى سانتكس ، وجيميلى من ايطاليا ، وكليم ومارى من ألمانيا ، وميشوت من بلجيكا ، وبيرون من فرنسا ، وبياجيه من سويسرا • أما آخر جزء (١٩٦٦) فكان أمريكيا تماما • الا أنه من الثابت أن علماء النفس قد بينوا مايمكن انجازه بهذه الطريقة ، وسيكون من الممتع أن نرى التخصصات الأخرى وقد نسجت على منوالهم ، ولعل هذا العدد من « المجلة » سيكون هو الحافز المطلوب •

المؤثرات المبكرة :

ولدت فى مدينة كويبك بكندا فى ٢ نوفمبر ١٨٩٩ ، وكان أبواى قد جاءا الى كندا من أوربا فى طفولتهما ، وكنا نتحدث الانجليزية فى المنزل ، ولكننا كدنا نكون محاطين تماما بالناطقين بالفرنسية فى كل من كويبك ومونتريال التى انتقلنا اليها

عندما كنت فى الخامسة من العمر . وانى دائم الشعور بالامتنان لانى نشأت فى بيئة ثنائية اللغة ، وأكثر امتنانا لأنه بشكل ما كان لدى من حسن الادراك ما جعلنى أنتفع بذلك ، فقد بدأت فى وقت مبكر جدا حضور المحاضرات التى كانت تلقى تحت رعاية الرابطة الفرنسية ، والذهاب الى السينما الفرنســية ومسرح الربرتوار الذى كان يقدم جميع الكلاسيات بما فى ذلك «فيدر» و «عدو البشر» و «ســيرانو» . والكثير من المسرحيات الأخرى . وما زلت أشعر بأهمية الفرصة المتاحة للكنديين لتعلم اللغتين والتعرف على الثقافتين . وحدث بعد ذلك بسنوات عدة (١٩٦٥) ان القيت محاضرة عامة فى جامعة لافال فى مدينة كويبك عن « المجتمع المتعدد الثقافات » ناديت فيها بأنه بدلا من شعار « لتحى كويبك حرة » ينبغى أن تكون كندا ثنائية اللغة ، بحيث تعمل كجسر بين حضارتين عظيمتين وبين اللغتين العالميتين بحق . وفى صباح اليوم التالى نشرت جريدة الطلبة تقريرا عن كلمتى تحت عنوان رئيسى « جسر على نهر كلاينبرج » . ولعلى أستطيع أن أقول أن شعار حياتى هو الايمان بأهمية الجسور .

وابان وجودى فى جامعة ماكجيل أسهمت فى تأسيس جمعية تتكون من الطلبــة الناطقين بالانجليزية من هذه الجامعة ومن الطلبة الناطقين بالفرنسية من جامعة مونتريال. وكنا نلتقى أســبوعا فى ماكجيل حيث نتكلم الانجليزية ، وفى جامعــة مونتريال فى الأسبوع التالى لنتكلم الفرنسية . وفى احدى المناسبات قدمنى بعضهم الى عميد كلية الحقوق هناك ، واتضح أن اسمه مون بوتى ومعناه الجبل الصغير بالفرنسية وكان اسمى يعنى هذا المعنى كذلك بالألمانية ، وخيل لكلينا أن تلك المصادفة قد تكون رمزا لاقامة الجســور .

أما الاتصال بين التخصصات فقد أصبح من الأمور التى تهمنى فى وقت مبكر أيضا، فعندما كنت طالبافىمرحلة الليسانس فى جامعة ماكجيل درست لدرجة الشرف فى الفلسفة وعلم النفس ، ثم واصلت الدراســة لدرجة الماجستير فى هاتين المادتين أيضــا فى جامعة هارفارد ، ثم درست الطب فى جامعة ماكجيل بقصــد ممارسة الطب النفسى ، الا أننى قررت قبل نهاية دراستى الطبية بوقت طويل أنى أمارس التدريس بدل ممارسة الطب النفسى ، وهكذا ذهبت بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى الطب مباشرة الى جامعة كولومبيا للتحضير لدرجة الدكتوراه فى فلسفة علم النفس ، وحصلت عليها بعد عامين (١٩٢٧) . وأثناء تلك السنوات ارتبطت عن قرب بالأنثروبولوجيا بمثل القدر الذى ارتبطت به بعلم النفس ، وقد شعرت بأن السلوك الانسانى لا يمكن دراسته دراســـة دقيقة ما لم نوجه اهتمامنا الى الثقافات والمجتمعــات المختلفة عن ثقافتنا ومجتمعنا . كما وجدت أيضا أن بوسع علماء الاجتماع اضافة الشىء الكثير الى فهمنا للمسائل النفسية .

وعندما كتبت أول مؤلف طويل لى وهو « **اختلاف الأجناس** Race Differences ١٩٣٥ » ، أصبح ادراك العلاقات المتداخلة بين التخصصات مسألة ذات أهمية كبرى ، وأدركت الحاجة الى معرفة مايقوله عن الأجناس لاعلم النفس فحسب ، بل أيضا علم

الانسان : الأنثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، والطب ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الأحياء ، وحاولت جهدى أن أضمن كتابى اسهامات تلك التخصصات فى هذا المضمار · وكان الاهتمام بالنظر الى المشاكل ككل وليس الى الحدود الفاصلة بين التخصصات هو الذى قادنى فى كتاب **علم النفس الاجتماعى** ١٩٤٠ و ١٩٥٤) الى محاولة تحقيق نوع من الجمع بين اكتشافات علم الانســان الثقافى واكتشافات علم النفس فيما يتعلق بالتفاعل الانسانى · وقد سمعت مرة الراحل رولاند هارجريفرز التابع لمنظمة الصـحة العالمية يقول ان من سوء الحظ أن المشاكل لم تقسم تبعا للخطوط التى تقسمها بهـا الكليات والأقسام الجامعية ·

الاهتمام بالأجناس :

أن أول أبحاثى وأول ما نشرت من انتاج عالج مشكلة الفروق النفسية الفطرية المزعومة بين الأجناس ، وظل هذا الموضوع بالاضافة الى الموضوع الأكثر اتساعا وهو السلالية . الأنماط الثابتة ، والتحيزات ، والتفرقة) يشغلنى طوال حياتى . وكثيرا ماسئلت عما قادنى الى هذا الاهتمام وهل اصلى اليهودى هو الذى دفعنى فى هـذا الاتجاه . واذا كان من العسير دائما تحديد البواعث بشـكل مؤكد ، فانى أميل الى الاعتقاد بأن اهم اسباب ذلك كانت أولا اتصالى بفرانز بواس فى كولمبيا وادراكى عن طريقه بشكل مباشر ان الثقافة أكثر اهمية من الوراثة فى تحـديد اختلاف سـلوك الجماعات، وثانيا الصدفة المحضة، فنتيجة لدراستى الطبية كنت قد قررت التخصص فى مشاكل علم النفس المرضى فى تدريسى وابحاثى . ولكن عنـدما دعانى اثنـان من أصدقائى من الشبان الدارسين لعلم الانسان للاشتراك معهما فى زيارة علمية لأحـد مجتمعات الهنود الأمريكيين فى مقاطعة واشنطن قبلت الدعوة ، وأخـذت معى من اختبارات الذكاء العملية غير اللغوية) وأجريتها على عينة من الاطفال الصغار ، وكانت النتائج غير متوقعة ومثيرة للاهتمام ، بالنسبة لى على الأقل . فقـد عمل الأطفـال الهنود ببطء أكبر بكثير من الأطفال البيض ، ولكنهم ، ربما نتيجة لذلك ، ارتكبوا اعددا أقل من الاخطاء ، وقد بدوا غير مبالين تماما بالفترة الزمنية المحددة لاتمام الاختبارات وكان طلبى منهم ان « اعملوا هذا بأسرع مايمكنكم » يقع فى آذان صماء . ولكنى عندما اجريت هذا الاختبار بعد ذلك بقليل على أطفال هنود يعيشون فى بيئة «بيضاء» وجدت انهم يعملون بسرعة أكبر بكثير ، وهكذا ثبتت تماما صحة آراء بواس من تأثير الثقافة والتعلم على الاختلافات بين الجماعات فى أداء اختبارات الذكاء .

ثم وسعت دائرة أبحاثى لتشـمل جماعات أوربية متعددة وأيضـا جماعات من الأمريكيين السود · فكان الاستنتاج الذى توصلت اليه هو أن معظم علماء النفس قد قبلوا بشكل حرفى مبالغ فيه نتائج اجراء الاختبارات النفسية ، وأنه لم يكن هناك دليل علمى صحيح على أن بعض الجماعات « الجنسية » كانت وراثيا أحط من غيرها من الجماعات · وقد ظل هذا الاعتقاد هو اعتقادى الراسخ الى هذا اليوم ·

وقد حظيت بتجربة مثيرة للاهتمام بشكل خاص وأنا بصدد القيام بأبحاثى عن

الجماعات الأوربية التى أجريت فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا فيما بين ١٩٢٧ و ١٩٢٩ ، بمعاونة منحة من المجلس القومي للبحوث · فقبل ذلك ببضع سنوات ١٩٢٤) كان الأستاذ كارل · س · بريجهام بجامعة برينستون قد نشر كتابا بعنوان « دراسة للذكاء الأمريكى » تقوم على أساس تحليل نتـائج اختبارات الذكاء التى أجريت على الهنود الأمريكيين أثناء الحرب العالمية الأولى ، وتوصل لا الى أن البيض وراثيا أعلى مرتبة من السـود فحسب ، بل أيضا الى أنه بين البيض يعـد أولئك الذين ينتمون الى الجنس النوردى أعلى من الالبيين وأناس البحر المتوسط · وكانت هذه النتيجة قد تعرضت لنقد شديد وخاصة من علماء الأنثروبولوجيا ، بسبب الطريقة التى نسب بها بريجهام نسبا مختلفة من الأسـلاف النورديين والالبيين وأناس البحر المتوسط الى الجنـد الأمريكيين ، واعتمادا على أصولهم القومية دون أية معرفة مباشرة بالمميزات الجسمانية لاولئك الذين اجريت عليهم اختبارات . وقد حاولت فى بحثى تصحيح هذا الخطأ المنهجى بالاكتفاء باجراء الاختبار على عينات من الأفراد من الأطفال فى هذه الحالة) الذين لهم سمات مرتبطة بالأنماط النوردية والالبية وأنماط البحر المتوسـط على التوالى ، ولم أجد اختلافات تذكر بين الجماعات المختارة .

وعندما عدت الى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٩ التقيت ببريجهام فى مؤتمر لعلم النفس ، فبادرته بقولى « انى سعيد جدا بلقائك لانى قد انتهيت لتوى من بحث متصل بدراستك » ، الا أن اجابته حالت بينى وبين ما كنت سأقوله ، اذ قال : « انى لم أعد أتمسك بكلمة واحدة من ذلك الكتاب » · وبعد ذلك بقليل نشر بشجاعة فائقة مقالا بين فيه الأسباب التى دعته لتغيير رأيه ، الا أن نتائجه قد ظلت زمنا طويلا يستشهد بها أولئك الذين كانوا قد قرأوا كتابه · وظلوا يجهلون أنه رفض تلك النتـائج فيما بعد · وقد قال البعض وان لم يكن ذلك قد أثبت بالفعل ، بقدر علمى) أن كتابه أدى دورا فى تشكيل بعض القيود القومية التى أدخلت على عدة قوانين عكست زمنا طويلا سياسة الهجرة الأمريكية ·

ولما كنت واحدا من أوائل علماء النفس الذين شكوا فى صحة فكرة تسلسل الأجناس استنادا الى نتائج الأبحاث التجريبية الجديدة فقد أثارت نتائجى كثيرا من اهتمـام كتاب « الذكاء الزنجى واختيار المهـاجرين » ١٩٣٥ ، الذى عالج نتـائج الاختبارات التى أجريت على زنوج الشمال والجنوب فى الولايات المتحدة ، ويحوى تقارير عن الأبحاث التى أجريت بالاشتراك مع طلبتى فى كولمبيا ، ووصفها أحـد محررى عرض الكتب بأنها ديناميت مخبأ · وكان من النتائج الجانبية لهذا الكتاب وغيره من الأبحاث التى نشرتها أن تلقيت العديد من الدعوات لالقاء محاضرات عامة عن الموضوع فى كثير من أجزاء الولايات المتحدة ، كما وقع على الاختيار لأكون واحدا من مديرى معـاهد دراسـة العلاقات بين الأجناس تحت رعاية الكويكرز · وبالطبع رحبت بفرصة توصيل نتائج هذه الأبحاث الى جمهور أكبر · كان أحد المطالب التى نادى بها الطلبة أثناء المظاهرات فى ١٩٦٨ أن تكون موضوعات الأبحاث والتدريس ذات صلة بقضايا العصر الاجتماعية الهامة ، وبالرغم من انى لا أؤيد الاقتراح القائل

بعدم تشجيع الأبحاث البحتة نتيجة لذلك ، لحظة واحدة ، فانى أعتقد أنه بوسعى أن أقول أن عملى كان له بالفعل نتائج عملية حقا · وقد وصفه أحد زملائى بأنه سابق لأوانه فى كونه متصلا بمشاكل العصر · ففى الوقت الذى كان فيه هذا العدد الكبير من الناس يتقبلون الفكرة القائلة بأن البيض أعلى وراثيا من السود وأن التعليم المنفصل لكل منهما له ما يبرره نتيجة لذلك فانى أعتقد أن الموقف الذى دافعت عنه كان له أثر مؤكد · فقد استشهد بنتائجى فى تقرير للعلوم الاجتماعية أرسل الى المحكمة العليا للولايات المتحدة ، ورأت باجماع الآراء فى ١٧ مايو ١٩٥٤ أن الفصل الاجبارى للأطفال السود يناقض المبادىء الموضوعة فى الدستور الأمريكى ، وبعد ذلك بقليل منحت درجة فخرية من جامعة هاوارد ، وهى جامعة سوداء فى واشنطن د · س ·

ولا يزال هناك أناس فى مراكز أكاديمية رفيعة يدافعون عن فكرة التسلسل الوراثى للأجناس ، وقد ناقشت حججهم بشىء من التفصيل فى مكان آخر · وعلى أية حال فبمعنى من المعانى يعد النقاش المستمر بشأن اختلاف الأجناس أمرا لا معنى له ، أو أنه « ليس مشكلة » · فحتى أولئك الذين يعتبرون السود أقل مرتبة من البيض يعترفون بأن بعض السودعلى الاقلأعلى من أواسط البيض ، وقد يكون هناكاختلاف فى الرأى بشأن درجة التداخل ، ولكن سواء كان ذلك يصل الى ٥٠ ٪ أو ينخفض الى ١٠٪ فلا ينبغى أن يكون له أى أثر على السياسة · وما دام هناك أى درجة من التداخل فان أى خط فاصل بين الفرص أو الامتيازات المتاحة يضع جميع السود على جانب وجميع البيض على الجانب الآخر أمر لا يمكن قبوله اطلاقا ، ويتعذر الدفاع عنه · وقد قبل هذا الموقف الآن على نطاق واسع فى معظم أجزاء العالم ، لا يشذ عن ذلك بشكل واضح سوى جنوب افريقيا وروديسيا ·

العلاقات الدولية :

أدى اهتمامى بالاختلافات النفسية الموروثة المزعومة بين الجماعات العرقية مباشرة الى الاهتمام بالعلاقات بين الجماعات (الأنماط الثابتة ، والتحيزات ، والتفرقة) ، ومن هنا كان الانتقال سهلا الى دراسة العلاقة بين الشعوب · والواقع أن هاتين المجموعتين من المشاكل لا يمكن الفصل بينهما بالفعل ، فقد كان للأبحاث التى أجريتها فى أوربا نتائج متضمنة بالنسبة للاختلافات بين الأجناس ، ولكن الأشخاص الذين أجريت عليهم الاختبارات وصفوا انفسهم بأنهم فرنسيون أو ألمان أكثر منهم نورديين أو البيين ·

أما الدراسة التالية التى قمت بها فكانت منصبة أيضا على الاختلافات بين الجماعات ، لكن بدون اشارة الى أصلها الوراثى المحتمل · فمن ١٩٣٥ الى ١٩٣٦ كنت أتمتع بمنحة جوجنهايم التى مكنتنى من أن أقضى عاما فى الصين وفى بكين بصورة أساسية لدراسة التعبير العاطفى ·

ان فكرة الغربى الثابتة عن الشرقى تشمل فكرة غموضه ، ويمكن وضع مشكلة البحث الذى كنت أجريه بالشكل الآتى : هل يعتبر الغربيون الصينى غامضا لأنه لا يعبر عن مشاعره بحرية أو بالأحرى لأنه يعبر عنها بطريقة مختلفة عن طريقتهم ؟ وتلك هى المشكلة القديمة للتعبير عن العواطف كنوع من اللغة ، أو الاتصال ، التى تستحق فى رأيى قدرا أكبر من البحث • ومن سوء الحظ أن البحث الذى كنت أجريه فى الصين قد توقف بسبب الحالة السياسية قبل أن أحصل على مادة كافية تماما ، ولكن البحث استمر فترة كانت كافية للتوصل الى نتيجة هى أن كلا من السؤالين اللذين طرحتهما ينبغى أن تكون الاجابة عليه بالايجاب ، أى أن الصينى يعبر عن مشاعره بقدر أقل من تعبيرات الوجه عند الأوربى ، وأن هناك أيضا اختلافات فى الطريقة التى يعبر بها عن مشاعر معينة •

وكانت تجربتى هذه فى الصين بالاضافة الى رحلة حول العالم ، قضينا خلالها أنا وزوجتى شهرا تقريبا فى الهند واليابان ، هى التى وجهت انتباهى أكثر من أى شىء آخر الى مسألة الشخصية القومية أو الصفات النفسية للشعوب المختلفة • وعندما انتخبت بعد ذلك بعدة سنوات (١٩٤٣) رئيسا لجمعية الدراسة النفسية لقضايا الاجتماعيةالقيت خطاب الرياسة عن«علم النفس للشخصية القومية» ،وأثرت موضوع الاسهام الذى يستطيع علماء النفس أن يقوموا به فى فهم هذه القضية المعقدة• وفى العام التالى كان على أن أقوم بالمهمة نفسها فى اجتماع « شعبة الشخصية وعلم النفس الاجتماعى للجمعية النفسية الأمريكية » ، وحاولت لأول مرة أن أناقش « مدخلا نفسيا الى العلاقات الدولية » (لم ينشر بعد) ، وأعتقد أن تلك النشاطات وغيرها من النشاطات المتصلة هى التى أدت « بوقف كارنيجى للسلام الدولى » أن يقترح اسمى فى سنة ١٩٤٧ لادارة مشروع اليونسكو عن أنواع التوتر المؤثرة على التفاهم الدولى ، وسأعود الى علاقتى باليونسكو فى الجزء الثانى ، أما هنا فسأقتصر على الاشارة الى أن هذه العلاقة قد شكلت مرحلة هامة فى استمرار اهتمامى بالعلاقات الدولية •

وقبل مجيئى الى اليونسكو فى ١٩٤٨ لأخلف هادلى كانتريل الذى بدأ المشروع كنت قد أعددت تحت رعاية « مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية » عرضا نقديا للأبحاث المتصلة بالموضوع ، ونشر المجلس هذا العرض فى ١٩٥٠ بعنوان « أنواع التوتر المؤثرة على التفاهم الدولى ، مسح للأبحاث (وحملت النسخة الفرنسية عنوان Etats de Tensions et Compréhension Internationale

وكان خطاب الرياسة الذى ألقيته « لجمعية علم النفس الشرقية » فى ١٩٤٩ عن موضوع أنواع التوتر ومتضمناته • وكانت تجربة اليونسكو (١٩٤٨/١٩٤٩ و ١٩٥٣/١٩٥٥) أيضا أساسا لخطاب عن «دور العالم النفسى فى الشئون الدولية » ألقى « لجمعية دراسة الامور النفسية » فى ١٩٥٦ عندما تسلمت جائزة كورت لوين التذكارية السنوية ، وأدى بى هذا فيما بعد الى اعداد كتاب «البعد البشرى للعلاقات الدولية» ونشر فى ١٩٦٤ ، وفيه بذلت كل ماوسعنى من جهد لجمع مايمكن أن

يسهم به علم النفس وغيره من التخصصات القريبة ، مثل الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والطب النفسى الى ميدان كان يعتبر بوجه عام من اختصاص عالم السياسة، والمؤرخ ، وعالم الاقتصاد . وقد حاز هذا الكتاب عروضا نقدية طيبة بوجه عام (فيما عدا بعض الاستثناءات على أى حال) وترجم الى الالمانية والنرويجية واليابانية . ولكن ليس بوسعى أن أزعم أن العلاقات الدولية قد تأثرت كثيرا نتيجة لذلك .

ذكرت من قبل أنه « لا مشكلة » بشأن الاختلافات بين الاجناس ، فان الاهتمام بالاختلافات الخاصة بالوراثة هو فى الحقيقة أمر غير ذى موضوع ما دام هناك تداخل بين الجماعات المعنية . ويبدو لى أن فى ميدان العلاقات الدولية « لا مشكلة » أخرى كانت موضوع كثير من الابحاث المنشورة والمطبوعات والمناقشات ، وهى: هل العدوانية صفة فطرية غريزية أم صفة مكتسبة يتعلمها المرء . وكانت نظريات كونراد لورنز وروبرت آردرى ، وديزموند موريس وغيرهم ممن أكدوا استمرار الصلة بين السلوك البشرى والحيوانى تفسر أحيانا بأنها تبرر النتيجة القائلة بأن بنى البشر مثلهم مثل الحيوانات الاخرى لديهم نوع من الدافع الذى لا يقاوم للتعبير عن عدوانيتهم ، ونتيجة لذلك فالحرب بين الجماعات الانسانية أمر حتمى ، وتلك « لا مشكلة » لسببين، ففى المكان الاول يعد الاستدلال من الحيوانات الاخرى فيما يختص بالانسان دائما أمرا مشكوكا فيه ، وذلك بسبب ما للثقافة والتقاليد والتجربة من تأثير كبير على تشكيل السلوك الانسانى . وفى المكان الثانى ، ولعل ذلك أكثر أهمية ، اذا كانت العدوانية صفة غريزية فانها تستطيع أن تعبر عن نفسها فى أشكال مختلفة كثيرة جدا : فى الرياضة ، والتنافس الاجتماعى والاقتصادى ، وفى الانجازات العلمية ، وفى اللغة ، بحيث لا يمكن اعتبار نوع واحد من التعبير (مثل الحرب) أمرا حتميا . وبتعبير فلسفى لو كانت العدوانية شرطا مسبقا للصراع العنيف فلا يمكن اعتبارها سببا كافيا مشروعا لمثل هذا الصراع . وقد حاولت فى كتابى « البعد الانسانى للعلاقات الدولية » أن أتناول هذه الناحية العدوانية ونواحى أخرى لها .

وكانت احدى القضايا التى أثرتها فى هذا العمل وفى أعمال أخرى من قبل ، وكانت تلقى اهتماما كبيرا فى اليونسكو أيضا ، قضية تقويم أو تقدير تأثير البرامج التى صممت لتحسين العلاقات الدولية . طلب الى «المجلس الدولى للعلوم الاجتماعية» أن أعد لليونسكو مسحا نقديا للمادة المكتوبة عن نتائج التبادل الدولى . وفى ١٩٦٦ نشرت دراسة قصيرة عن «التبادل الدولى فى مجال التربية والعلوم والثقافة، مقترحات للبحث » . وبعد ذلك عاونت فى التنسيق لبحث تحت رعاية «مركز التنسيق الاوربى للبحث واعداد الوثائق للعلوم الاجتماعية » فى فينا ، قام فيه عدد من الباحثين باستطلاع المشاكل التى تواجه الطلبة القادمين من البلاد النامية ،ونشر هذا البحث باللغة الفرنسية (مع ملخصات بالانجليزية) بمعاونة جين بين بريكا بعنوان « طلبة العالم النامى فى أوروبا » (١٩٧٢)

وأقوم فى الوقت الحاضر بادارة دراسة عن مدى ونتائج التبادل الدولى بين الجامعات على مستوى الطلبة والأساتذة ، فى سبع دول (هى : جمهورية المانيا الاتحادية

وفرنسا ، والهند ، واليابان ، ويوغوسلافيا ، والمملكة المتحدة ، والولايات المتحدة) ·
وقد أقنعتنى هذة الدراسات المتعددة للتبادل الدولى بقيمة هذا التبادل ولكنها أشارت فى الوقت نفسه الى كل من ضرورة تحسين هذة العملية وامكان ذلك معا ، وذلك حتى تصبح الاقامة المرضية فى بلد أجنبى أكثر احتمالا ·

ويمكن ذكر نوعين آخرين من النشاط المتصل بموضوع العلاقات الدولية · فتحت رعاية الاتحاد الدولى للعلوم النفسية ، أجريت بالاشتراك مع والاس لامبرت بجامعة ماكجيل وعدد من الزملاء دراسة لتطور الأنماط الثابتة فى صغار الأطفال فى عشر دول مختلفة «آراء الأطفال عن الشعوب الأجنبية» (١٩٦٧) . ولما كنا نشعر أن الأنماط الثابتة القومية تؤدى دورا فى تحديد رؤية الجامعات الأخرى وفى تحديد السلوك بالنسبة لها فقد رأينا أنه من المهم أن نتعرف على شيء من المظاهر المبكرة لتلك الأنماط وما يطرأ عليها من تغيرات مع تقدم السن · وقد أثار اهتماماً الاختلافات فى طبيعة النمط الثابت لدى الاطفال فى عينات من قوميات مختلفة ، وكذلك لدى المصادر (الوالدين ، والمدارس ، ووسائل الاعلام) التى يبدو أنها تؤدى الدور الاكبر فى تطويرها ·

وفى ١٩٥٩ كان جوهان جالتونج وزملاؤه فى أوسلو يخططون لاقامة معهد لبحوث السلام (يعرف الآن باسم «المعهد الدولى لبحوث السلام» بأوسلو) ، ودعيت لقضاء شهر مع الجماعة العاملة فى أوسلو للمعاونة فى وضع برامج البحث الذى ينوون القيام به ، وقد قمنا بكثير من المناقشات النافعة المثمرة · وبالرغم من أن المعهد الجديد قد تطور بسرعة وجاوز المقترحات التى كنت قد قدمتها فانى أشعر بالفخر لأنى كنت أحد الآباء المؤسسين لذلك العمل النشيط الهام · أن أبحاث السلام ماضية الآن قدما فى كثير من الجامعات فى جميع أنحاء العالم ، ومن المشجع أن نرى أن تقدمها يشكل أحد الاهتمامات الكبرى لعدد كبير جدا من علماء الاجتماع ·

تجربة اليونسكو ونتائجها

قضيت ، كما أشرت من قبل ، فترتين عضوا فى سكرتيرية اليونسكو · كانت الاولى فى ١٩٤٨/١٩٤٩ عندما كنت أعمل مديرا لمشروع أنواع التوتر ، وكان القائم بأعمال مدير قسم العلوم الاجتماعية هو عالم الاجتماع النرويجى آرفيدبروديرسين ، وعندما ترك هذا المنصب خلفته كقائم بأعمال المدير بقية تلك الفترة · أما الفترة الثانية فقد جئت ، بناء على دعوة من ألفا ميردال مدير القسم ، للعمل من ١٩٥٣ الى ١٩٥٥ رئيسا لشعبة العلوم الاجتماعية التطبيقية التى أصبحت الشكل الموسع لمشروع أسباب التوتر السابق ذكره · ولن أحاول فيما يلى أن أفصل بانتظام بين هاتين الفترتين ، بل سأكتفى بدلا من ذلك بتركيز الاهتمام على بعض نشاطات اليونسكو التى أضافت أبعادا جديدة معينة الى حياتى العاملة ·

أصبح اهتمامى المستمر بمشكلة الأجناس ذا موضوع بشكل خاص فى ١٩٤٩

عندما دعا «المجلس الاقتصادى والاجتماعى للامم المتحدة» اليونسكو لاعداد مادة عن «اسهامات العلوم البيولوجية والاجتماعية» فى فهم هـذه المشـكلة واحتمال حلها ٠ وقدمت مذكرة اقترحت فيهـا اعـداد سلسلة من الدراسات القصيرة عن النواحى العلمية المتصلة بها ، الى جانب الدعـوة لاجتماع للخبراء من البـلاد والتخصصات المختلفة تحت رعاية اليونسكو لاعداد بيان يوقعون عليه ٠ وكان جونار ميردال قد دعا فى كتابه «معضلة أمريكية» لهجوم تربوى لتضييق الهوة بين المواقف الشعبية والموقف العلمى بالنسبة للأجناس ٠ وكانت الاقتراحات التى تقـدمت بهـا تتفق مع هذا «الهجوم» ٠ ودعى العالم الانثروبولوجى المبرز الراحل ألفريد ميترو : للانضمام الى سكرتيرية اليونسكو والاضطلاع بالمسئولية الخاصة بهذا المشروع الخاص بالاجناس٠ ولم يضطلع هذا العالم بتنفيذ المقترحات الاصلية فحسب ، بل وسع نطاقها أيضا ، فبدأ عددا من المطبوعات عن النواحى العلمية لمشكلة الاجنـاس ، نشرت فى عدة لغات ، بالاضافة الى سلسلة من البيـانات لجماعات من الخبراء ، كما صدرت طبعة جديدة من مجموعة الدراسات القصيرة فى مجلد واحد ٠ واعتقد أنه يمكن القول بأن هذا المشروع بأكمله كان مشروعا ناجحا بشكل فريد ، بالرغم من أن احـدى الدول الاعضاء (جنوب افريقيا) قد انسحبت من اليونسكو نتيجة له ، وما زالت اليونسكو تواصل نشاطها فى هذا الميدان الهام ٠

وأثناء شغلى لمنصب القائم بأعمال المدير ظهر العدد الاول من « النشرة الدولية للعلوم الاجتماعية » (التى أصبحت الآن هذه «المجلة») ، وقد أعده الراحل كازيميريس شيزيربا ٠ ولعلى لست بحاجة الى أن أضيف أن هذا «المشروع» ما زال ناجحا ومزدهرا على خير وجه ٠ ومما يسعدنى أنى كتبت المقـال الافتتـاحى لعدد خصص لموضوع «الانماط الثابتة القومية» (المجلد الثالث ، العدد ٣، ١٩٥١) ولعدد آخر يعالج التقويم (المجلد السابع ، العدد ٣ ، ١٩٥٥) ٠ أما فيما يتصل بالمشكلة الاخيرة فقد سنحت لى الفرصة للاشتراك فى الكثير من المناقشات داخل نطاق اليونسكو والمنظمات الاخرى، التى تناولت الحاجة الى تقويم أثر البرامج التى تم القيام بها ٠ وكان رد الفعل المعتاد مؤيدا بشرط امكان تنفيذ ذلك دون انفاق الوقت أو المال الذى قد يكون المشروع فى حاجة اليه ٠ وما زلت مقتنعا بأنه من المرغوب فيه أن تخصص اعتـمادات للتقويم ، حتى اذا استلزم ذلك خفض المشروع نتيجة لذلك ٠ وهنـاك علامات مشجعة على أن هذا الرأى فى سبيله الى القبول فى الجهات العليا ٠ فعلى سبيل المثال طلب الى فى ١٩٦٣ أن أرأس اجتماعا فى روما تحت الرعاية المشتركة « لمنظمة الصحة العالمية » و «المنظمة العالمية للأغذية والزراعة» لاعداد خطوط رئيسية لتقويم مشروعات التربية الغذائية ٠

وبالاضافة الى هذه النشـاطات وغيرها من النشـاطات الاخرى العديدة التى أجريت داخل نطاق اليونسكو مباشرة طورت عددا من الصلات التى كانت ستدخل كثيرا من الرضا الى نفسى فيما بعد ٠ فبعد وصولى الى باريس بفترة وجيزة أرسلت لتمثيل اليونسكو فى اجتماع فى روفى بارك فى انجلترا ، مما هيأ الطريق لتأسيس

« اتحاد المنظمات العالمي للصحة العقلية » ، وقد كان هذا الاتحاد منذ انشائه مفتوحا لمختلف التخصصات ، كما كان دوليا ، وان كان من الطبيعي أن يجتذب بشكل أكثر مباشرة علماء الاجتماع المهتمين بالصحة العقلية أما فيما يتعلق بي فان هذا الاتصال ، وخاصة بجون · ر · ريس الرئيس الأول للاتحاد ثم مديره ، وبروك شيسولم أول مدير عام لمنظمة الصحة العالمية ، أحيا اهتمامي بمشاكل الصحة العقلية التي كادت تكون ساكنة تماما منذ أيام دراستي الطبية وقد أدت هذه الصدفة التي جعلتني أقوم بتمثيل اليونسكو عند بداية تكوين الاتحاد الى بقائي متصلا به منذ ذلك الحين الى الآن ، فعملت عضوا في لجنة الاستشارية للمهن المختلفة « واللجنة العلمية » ، ومجلس الادارة الذي أصبحت رئيسا له فيما بعد ، ثم رئيسا للاتحاد ، ثم رئيسا فخريا له · وهذا الاتصال المستمر بميدان الصحة العقلية . وخاصة فيما يتصل بنواحيه الاجتماعية والثقافية ، قد نتج عنه عدد كبير من المحاضرات والمقالات في هذا المجال ، الذي اتجه أخيرا جدا الى موضوع الصحة العقلية وعلاقته بالتغير الصناعي والتكنولوجي السريع · ونظرا لدخول مشكلة الصحة العقلية (الجريمة أيضا الى حياتي في فترة متأخرة بعض الشيء عن الاهتمام بالأجناس أو العلاقات الدولية فان دراسته من زاوية الثقافات المتعددة أصبحت هكذا ميدانا كبيرا آخر من ميادين اهتمامي ، كما أصبحت علاقتي مع « الاتحاد الدولي لتربية الوالدين » فيما بعد خطوة أخرى في هذا الاتجاه ·

ذكرت آنفا كيف دعيت لرئاسة اجتماع «لمنظمة الصحة العالمية» «والمنظمة العالمية للأغذية والزراعة» لدراسة موضوع « التقويم » . واضيف هنا أن هذا بدوره كان هو النتيجة المباشرة لاجتماع سابق للاتحاد العالمي للصحة العقلية لدراسة سوء التغذية وعادات التغذية أقيم في جويرنافاكا في ١٩٥٦ ، وقمت برئاسته أيضاً · وبالرغم من انى لم أسجل احصاء للمناسبات التي قمت فيها بهذه المهمة على المستوى القومي والدولي فانه من المؤكد أن عددها كان كبيراً · قال لي مرة صديقي الطيب ، الراحل جوردون أولبورت لعلك أفضل من يرأس اجتماعا في العالم ، ولكن كيف لي أن اعرف ذلك؟ فلم اذهب لاجتماع قط لم تكن انت رئيسه . ومن الاجتماعات الأخرى التي رأستها اجتماع في مؤسسة مينينجر تحت رعاية « الاتحاد » في ١٩٥٨ نتج عنه أحد المطبوعات عن العوامل الثقافية لجنح الأحداث « ، بتحقيق ت · جيبنز ، وت · آهر ينفيلدت ، واجتماع آخر بدعوة من اليونسكو في هذه المرة ، عالج « المتضمنات الاجتماعية لاستخدام الطاقة النووية في الاغراض السلمية · وكان آخر هذه الاجتماعات اجتماعا في روما في ١٩٧٢ ، دعا اليه « معهد بحوث الدفاع الاجتماعي للامم المتحدة لمعالجة مشاكل تكيف المهاجرين في بلاد مختلفة ·

ومنظمة ثانية ارتبطت بها ارتباطا وثيقا نتيجة لعملي باليونسكو هي الاتحاد الدولي للعلوم النفسية · وقد قام هذا الاتحاد المكون من عديد من الجمعيات النفسية القومية بدفعة من اليونسكو ، ولكن كانت قد سبقته لجنة دولية يرأسها هنري بيرون وقد صرت عضوا في اللجنة التنفيذية الأولية لهذا الاتحاد بناء على دعوته · وقد قادني ذلك الى أن أصبح سكرتيرا عاما للاتحاد لست سنوات من ١٩٥٤ الى ١٩٦٠ ، تليها

ثلاث سنوات كنت فيها رئيسا له · وقد كنت فى هذه المناصب خلفا لكل من بييرون وبياجيه وميشوت ، وبطبيعة الحال كان وجودى فى صحبة هؤلاء المبرزين مدعاة للفخر ·

ولم يتح لى عملى فى الاتحاد فرصة اقامة الصداقات مع زملاء من بلاد كثيرة فحسب ، ولكنه مكننى كذلك من أن أدلى بدلوى فى دفع وتوسيع نطاق التعاون والاتصال الدولى فى مجالى النفس · وبناء على اقتراح لى يسر الاتحاد نشر بعض المؤلفات مثل «الشخصية القومية والانماط القومية» للعالمين هـ·س·ج· ديوجكر ، و هـ· فريدجا (١٩٦٠) ، ومجلدين عن مشاكل الشخصية من تحقيق هنرى دافيد وآخرين (١٩٥٩ و ١٩٦٠) · كما وضع تحت رعايته دراسة الانماط القومية فى الاطفال التى أشرنا أليها آنفا · كما أسهم فى مؤازرة الابحاث التجريبية عن الاتجاهات نحو استعمال الطاقة النووية فى الاغراض السلمية · وفى الوقت الحاضر يمد الاتحاد يد المساعدة لدراستنا عن اتجاهات الطلبة بين مختلف القوميات التى سنضعها باستفاضة فيما يلى · وقد هيأ لى الاتحاد فرصة لأن أكون «مقاولا» لعلم النفس الدولى · وأتاح لى عملى فى اليونسكو أن أكون عضوا ، على الأقل جزئيا ، فى منظمة ثالثة مازالت على صلة وثيقة بها وهى « المجلس الدولى للعلوم الاجتماعية » ، اذ كنت لعدة سنوات عضوا فى اللجنة التنفيذية للمجلس ، هذه المنظمة أسستها اليونسكو فى ١٩٥٢ · وما زلت محتفظا بارتباطى بها لأن معهد الابحاث الذى أديره وهو « المركز الدولى لدراسة العلاقات المتبادلة بين الجماعات » يقع تحت اشراف المجلس والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا فى باريس · وقد آزر المجلس الدراسات عن التقويم التى أشرت اليها آنفا وأسهم أيضا فى الأبحاث عن اتجاهات الطلبة ·

ولعلى قد وضحت الآن لماذا علقت كل هذه الأهمية على ما أسميته النتائج الجانبية لتجربتى فى اليونسكو . وينبغى أن أضيف أنه منذ ١٩٦٢ حين انتقلنا من نيويورك الى باريس عملت لهذا الغرض فى مناسبات عدة كمستشار لقسم العلوم الاجتماعية باليونسكو ، كما مثلت المجلس الدولى للعلوم الاجتماعية كمراقب فى اجتماعات عقدت تحت رعاية اليونسكو ·

مهمة التدريس :

عندما تحولت عن فكرة ممارسة الطب النفسى الى فكرة العمل الأكاديمى فى مجال علم النفس كان ذلك أساسا لرغبتى فى التدريس · أحسست بنداء المهنة ورغبة ملحة فى أن أكون معلما . وبعد أكثر من أربعين عاما (كان بينها فترات لم أعمل فيها بالتدريس) مازالت هذه المهنة تعطينى رضا نفسيا كبيرا · كنت أعتقد دائما ، ولعل ذلك تبسيط أكثر من اللازم ، ان المهمة الرئيسية للمدرس هى أن يدرس · ان

البحث والكتابة مهمان بالطبع ، ولكن يجب الا يتدخل ، فى تقديره ، فى المسئولية الأساسية للأستاذ نحو طلبته ٠

ويمكننى أن أحدد بداية عملى كمدرس بسنة ١٩٢٦ / ١٩٢٧ حين عملت مساعدا فى دراسة عليا فى علم النفس التجريبى بجامعة كولمبيا ٠ وبعد أن أمضيت سنتين فى أوربا عدت الى الجامعة كباحث مساعد فى علم الأجناس مع فرانز بواس من ١٩٢٩ الى ١٩٣١ ٠ ولكن أثناء الجزء الأخير من هذه الفترة درست أيضا مقررين لطلبة الدراسات العليا أحدهما فى الفروق بين الأجناس والآخر فى علم النفس والأنثولوجيا ٠ أما عملى كمدرس نظامى فقد بدأ فى ١٩٣١ ٠ ولعدة سنوات درست سلسلة من المقررات المطلوبة فى علم النفس العام ، يليها بقليل علم النفس الخاص بالشواذ ، وعلم النفس التفاضلى ، وعلم النفس الخاص بالشخصية ، وعلم النفس الاجتماعى ، وفى الوقت نفسه واصلت تدريس مقررات الدراسات العليا التى ذكرتها من قبل ٠ وفى هذه السنوات قمت بتدريس الانثروبولوجيا على أساس عدم التفرغ فى كلية سارة لورنس ، وهى كلية تجريبية تقدمية غير بعيدة عن مدينة نيوريورك ، وظللت بعض الوقت لا أدرى أأشتغل بعلم النفس أم بالانثروبولوجيا (علم الانسان) ، اذ وجدتنى مشغوفا بهما بدرجة متساوية . وفى كولمبيا اشتركت فى ادارة ابحاث الطلبة فى علم النفس الاجتماعى مع جاردنر مورفى وهو رجل عظيم وصديق وفى ايضا . وحين غادر مورفى كولمبيا اصبحت وحدى مكلفا بهذا العمل ، وكانت احدى النتائج المجزية لمسئولياتى الجديدة عن تدريس علم النفس الاجتماعى لطلبة الدراسات العليا ان كان بين طلبتى دارسون للأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع الى جانب علم النفس . وقد أسهم هذا بالطبع فى اعطاء عملى سمة تعدد التخصصات ، وشعرت أننى شديد القرب من أعضاء كليتى فى هذين التخصصين المتجاورين بمثل القدر الذى كنت به قريبا من أولئك الأعضاء فى تخصصى ، بل أكثر قربا فى بعض الحالات ٠ وشاركت فى عدد من امتحانات الدكتوراه فى هذين المجالين الى جانب مجال علم النفس ٠ ومما يدعونى للفخر أن الكثيرين ممن برزوا فى هذه التخصصات الثلاثة كانوا من طلبتى فى وقت من الأوقات ٠

ومن ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ مررت بتجربة شائقة هى العمل أستاذا زائرا فى جامعة ساوباولو بالبرازيل ، حيث دعيت لاقامة قسم علم النفس ٠ وكان علم النفس التربوى يدرس هناك منذ عدد من السنوات ، ولكنى كنت أول أستاذ لعلم النفس هناك ٠ وبالاضافة الى تدريس سلسلة من المقررات (باللغة البرتغالية) عاونت

أيضا في اعداد برنامج للدراسة يستمر ثلاث سنوات ويغطى معظم المجالات الهامة فى الميدان . وبالرغم من أن هذا البرنامج قد عدل منذ ذلك الحين بدرجة كبيرة فاننى أعتقد أنه شكل خطوة أولى مفيدة . كذلك جمعت عـددا من الزملاء البرازيليين من ساوباولو وريو فى حلقة بحث نتج عنها أحد المطبـوعات المشتركة عن علم النفس المعاصر ١٩٥٣ ، وبعد ذلك بعدة سنوات (١٩٥٨) منحتنى جامعة البرازيل درجة فخرية .

وتمكنت أيضا فى السنوات التالية فى كولمبيا من اقامة عدد من حلقات البحث فى موضوعات قريبة من اهتماماتى المستمرة . وقد شملت تلك الموضوعات العلاقات بين الجامعات أو بين أفراد من أجناس مختلفة ، كما شملت الثقافة ، والشـخصية ، والمميزات القومية ، والعوامل النفسية فى العلاقات الدولية ، وفى تلك الأثناء كان علم النفس الاجتماعى قد تطور من مجرد ربيب فى قسم علم النفس الى مجال تخصص هام معترف به . وعندما تركت كولمبيا فى ١٩٦٢ لأصبح أستاذا زائرا فى جامعـة باريس كنت أشعر بالرضا لأننى حققت تحسنا ملموسا .

أما فرصة المجىء الى باريس ، الى ذلك البناء الشهير : السوربون ، فقد رتبت بمعاونة صديقى جين ستويتزيل . وقد اتفـق معى زملائى فى كولمبيـا على أنه من المستحيل أن يرفض المرء مثل هذه الدعوة . وأعتقـد أننى واحد من أوائل الاجانب الذين سموا أساتذة مساعدين فى كلية الآداب والعلوم الانسانية فى جامعة باريس ، وبقيت فى هذا المنصب ثلاث سنوات أدرس فيها محاضرات عامة لفصول كبيرة وفى موضوعات مشابهة الى حدكبير لموضوعات حلقات البحث التى كنت أقيمها فىكولمبيا، مع شىء من التعديل اللازم لجمهور يتحدث بالفرنسية . ثم انتقلت فى ١٩٦٥ الى القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، حيث مازلت أدير حلقة بحث عن علم النفس الاثنولوجى يشمل العلاقات بين الجمـاعات وبين الدول ، والأنماط الثابتة ، والتحيز ، وتكيف المهاجرين ، وغير ذلك من المشكلات المتصلة . وفى الوقت نفسه ، وطوال معظم هذه السنوات ، واصلت تدريس مقررات تكميلية فى الكلية ، كما قمت أيضا بالتدريس فى معهد الدراسات الافريقية .

وكثيرا ما سئلت أن أعقد مقارنة بين طلبتى فى فرنسا وطلبتى فى كولمبيا ، وقد وجدت فى قيامى بالتدريس فى كل من هذين المعهدين سـعادة كبرى . ومن العسير أن أحدد أيهما قد استمتعت به لدرجة أكثر ، ولكن احساسى العام وان كان

يخضع لبعض الاستثناءات هو أن طلبتي الامريكيين كانوا أكثر اجتهادا ولديهم قدر أكبر من المعلومات في موضوع تخصصهم الذى يركزون عليه ٠ وكانوا يعبرون عن آرائهم ويوجهون الى النقد بحرية كبر ، وكان من المحتمل بدرجـــة أكبر أن يلفتوا انتباهى الى تقارير البحوث الحديثة المتصلة بما كنت أقوله . أما الطلبة الفرنسيون فكانوا فى الغالب أكثر معرفة بالموضوعات الخارجة عن تخصصـــهم ، ويعبرون عن أنفسهم عادة بطلاقة أكبر وأسلوب أفضل شفويا وكتابة ٠ وبوسعى أن أقول ان رسائل الدكتوراه في مثل هذا المستوى تقريبا ٠ على أنه يجدر بى أن أضـــيف أن طلبتي في فرنسا كانوا أكثر تنوعا من حيث القومية من طلبتي فى كولمبيا ، اذ كان أولئك الذين اتموا أو هم بصدد اتمام أبحاثهم لدرجة الدكتوراه أو الدبلوم فى المدرسة التطبيقية تحت اشرافي ينتمون الى كندا وايران وايطاليا ومراكش وتونس والولايات المتحدة الخ الى جانب فرنسا ٠ أما المقررات التى كنت أحاضر فيها فى الكلية فقد كان لدى فيها عدد لا بأس به من الافريقيين ، وأثناء سلسلة من الرحلات العـــلمية لالقاء المحاضرات التى ذهبت بى الى السنغال وساحل العاج ومالى وزائير (وأيضا الى تونس ومراكش) سرني كثيرا أن ألتقى بكثير من أولئك الذن كانوا من طلبتي ٠

وهناك مهمة تدريسية أخرى تستحق الذكر ٠ فمن ١٩٦٢ الى ١٩٧٠ قمت بالتدريس فى الجامعة الدولية للعلوم الاجتماعية فى بروديو بروما فى موضـــــوع العلاقات بين الجماعات (الأنماط الثابتة ، التحيز ، جماعات الأقليـــات ، التفرقة ، الخ) . وكان طلبتى فى معظم الأحـــوال من القســس وطلـــة اللاهوت الكاثوليك . وكانت الجامعة ككل تمثل الجناح المتحرر من الكنيسة الكاثوليكية ومهتمة بتحسين العلاقات بين الكاثوليك وبقية العالم ٠ وكنت أثناء السنوات الثلاث الأولى أحاضر بالفرنسية ، ثم بعد ذلك أخذت أحاضر باللغة الايطالية أيضا عندما أصبحت معرفتى بها ، بالرغم من أنها كانت أبعد ما تكون عن الاتقـــان ، تمكننى من ذلك ٠ وكانت علاقاتى بالطلبة وبالكلية ممتازة ، وقد أشعرنى الجميع بأنهم يقدرون عملى بينهم ٠ وقمت بالاشتراك مع ثلاثة من زملائى (تيرينتورى ، كريسين ، فيليبونى) بنشر وصف تحليلى بالايطالية لمحتويات الكتب الدينية الكاثوليكية والمكتوبة بالايطالية والأسبانية فيما يتعلق بالطريقة التى تعالج بها الجماعات العرقية والدينية الاخرى ٠ وظهرت أخيرا (١٩٧٢) طبعة أسبانية ٠ ونتيجة لتلك التجربة فى روما انتشرت شائعة بين أصدقائى من الامريكيين تقول أننى أقوم بالتدريس فى الفاتيكان ٠ ومن الواضح أن هذا كان قولا مبالغا فيه للغاية ، لكنى التقيت بالفعل بعدد من الكاردينالات ، كان أحدهم هو الكاردينال المبرز الراحل بيا الذى كتب مقدمة لكتابنا هذا ٠

ولقد وجدت ومازلت أجد فى التدريس قدرا كبيرا من الرضا • ولعل من أعظم ما جنيت فى حياتى الاكاديمية من مكافآت أن هذا العدد من طلبتى السابقين يشغلون الآن مناصب أكاديمية هامة فى كثير من البلاد •

المركز الدولى لدراسة العلاقات بين الجامعات :

أنشىء هذا المركز الذى سبقت الاشارة اليه فى سنة ١٩٦٦ تحت الرعاية المشتركة للقسم السادس من مدرسة الدراسات العليا والمجلس الدولى للعلوم الاجتماعية ، وأنا أعمل مديرا لهذا المركز بالاشتراك مع ماريزا زفالونى الذى يعمل مديرا مساعدا • وقد قمنا بتكليف من اليونسكو بدراسة نشرت فى ١٩٦٩ عن القومية والقبلية بين الطلبة الافريقيين ، وتناولنا الأهمية النسبية للهوية القومية والقبلية على التوالى لطلبة من ست دول (أثيوبيا ، غانا ، نيجيريا ، السنغال ، أوغنده ، زائير) • كذلك أجرينا بحثا تناول طلبة من العالم الثالث فى الجماعات الاوربية ونشرنا نتائجه بمعاونة جين بين بريكا تحت رعاية المركز • ونقوم الآن بدراسة اتجاهات الطلبة فى ثلاث عشرة دولة ، ونتوقع أن تكون النتائج معدة للنشر فى ١٩٧٣ • وقد أيدنا فى هذه المهمة الكبرى لا المدرسة والمجلس فقط بل أيضا اليونسكو والاتحاد الدولى للعلوم النفسية مع مساهمة مشجعة بشكل خاص من صندوق أكويناس فى نيويورك • كذلك أتاح المركز لعدد من طلبة الدراسات العليا أن يجروا أبحاثهم المتصلة بالمشروعات التى تحت التنفيذ •

خاتمة شخصية :

سأترك تقويم ماأنجزت لغيرى . أما ما أستطيع أن أقوله عن نفسى فهو أنى كنت أعمل دائما وكنت دائم الاهتمام بعملى سعيدا به • وقد وجدت رضا كبيرا فى الجانب المهنى والجانب الشخصى على حد سواء • وقد حصلت على نصيبى من التقدير ، ومنحت العضوية الفخرية فى جمعيات علم النفس فى ثمانى دول مختلفة ، ودرجة الدكتوراه الفخرية من أربع جامعات هى البرازيل وهوارد اللتين سبق ذكرهما وماكجيل بكندا ودرو فى الولايات المتحدة • أما فيما يتعلق بحياتى الشخصية فقد نشأت فى أسرة كبيرة يسودها الحب • لم يحصل والداى على قدر كبير من التعليم النظامى ، ولكنهما أخلصا لفكرة الدراسة الاكاديمية وتحملانى بصبر طويل فى

الفترة التى كنت احاول فيها تحديد نوع الدراسة التى كنت أريدها فعلا . أما زوجى فقد ظلت الى جانبى طوال أربعين عاما ، تشارك فى عملى ، وتسدى الى النصح الحكيم ، وتسهم فى اى نجاح أكون قد حققته فى كتاباتى بمراجعتها الماهرة لخطاباتى، واهم من كل شىء بخلق الجو الذى مكننا من أن نستمتع معا بكثير من الأشياء . ولعلى أذكر بوجه خاص اهتمامنا المشترك بالرحلات التى نجد فيها متعة كبرى ، وبتعلم اللغات الأجنبية التى أضافت كثيرا الى متعتنا بالسفر والتى تملك زوجى موهبة خاصة لتعلمها . وبحق أعجز عن التعبير عن كم أنا مدين لها . أما أطفالنا (الثلاثة) واحفادنا (الستة) فقد أضافوا كثيرا الى سعادتنا .

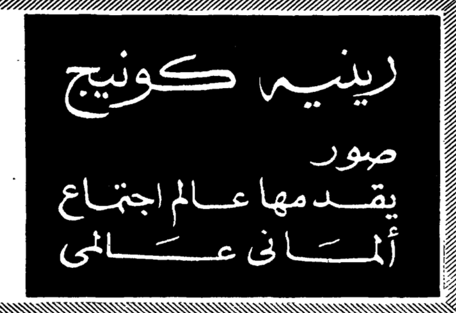
وعندما تسلمت درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب الانسانية من جامعة درو فى مايو ١٩٧٢ القيت خطاب الافتتاح عن « أسلوب جديد فى التفكير » . ولما كان هذا الخطاب لم ينشر بعد فسأسمح لنفسى بأن أختتم هذا المقال بشذرات منه ، وقد اخترت كنص لى فقرة من رسالة كتبها أينشتين فى ١٩٤٦ هى « ان قوة الذرة التى فكت من عقالها قد غيرت كل شىء ما عدا طرق تفكيرنا . سنحتاج الى طريقة تفكير جديد بشكل ملموس اذا قيض للجنس البشرى أن يبقى على قيد الحياة » .

ثم استطردت كما يلى :

لم تشهد السنوات منذ كتب هذا القول أى تغيير ملموس فى هذا الشأن ، فمازال الصراع قائما فيما يتصل باختلاف القومية والمظهر الجسمانى أو الجنس واللغة والدين وطريقة الحياة أو أى عدد من هذه الأشياء ، ويبدو السلام بعيدا كما كان دائما .

ويحتاج معظمنا الى جماعة ينتمى اليها ، فنحن حيوانات اجتماعية تنبحث عن هوية اجتماعية وفردية أيضا والتحدى الذى يواجه المربين فى كل ميدان هو اكتشاف كيفية تشجيع الهوية الفردية دون أن يؤدى ذلك الى صراع داخل الجماعة . كيف يمكننا أن ننمى الولاء لأمتنا دون شعور بالعداء نحو الآخرين ، وأن نتمسك بديننا دون أن نزعم أن الآخرين بالضرورة على الخطأ ، وأن نؤمن بأن الاسود (أو الأبيض) جميل دون أن نخلص الى أن الأبيض (أو الاسود) قبيح .

.. . .أن الطريقة الجـديدة للتفكير تتطلب نوعا جديدا من الوطنية ، جمـــاعة داخلية ننتمى اليها دون أن يكون هناك جماعة خارجية ، لا ننتمى اليها . والى حد معين كان ذلك دائما ممكنا ، فليس هنــــاك عادة تعارض بين الولاء للأسرة والمدينة والولاية والأمة . ولكن ذلك هو الحد الذى نتوقف عنده ، فالقومية فى شكلها المألوف تقول ان الولاء مطلوب الى هذا الحد لا الى أبعد . ان الولاء الأكبر وتآخى البشر هما حـلم البشرية ، فى تعاليم كل الأديان الكبرى منه ، وفى قول جون دون لا تسأل لمن تدق الأجراس ، فهى تدق لك » ، وفى كتاب وندل ويلكى « عالم واحد » ، وفى كثير غير هذا أو ذاك . هل هذا حلم مستحيل ؟ أم أن هناك شيئا يستطيع التربويون وعلماء الاجتماع أن يعملوه ليجعلوا منه أمرا أقل استحالة بقليل ؟ انى لا أعرف مهمة المجتمع الدولى لعلماء الاجتماع أكثر من الاسهام فى هذه الطريقة الجديدة للتفكير » .



مقدمة حيوية

ان الظرف الذى كان له أثر حاسم فى نموى الذهنى · هو أننى ولدت عن جبهة ثنائية ، كابن لأب ألمانى وأم فرنسية · ولهذا الظرف أهمية خاصة بالنسبة لرجل قدر له أن يكون عالم اجتماع فى المستقبل ، وذلك بسبب أنه استطاع منذ البداية ان يرى عن طريق التربية المزدوجة التى تلقاها أنه حتى فى حضـــارة موحدة نسبيا ، كالحضارة الاوروبية ، يمكن أن تظهر حلول مختلفة لمسائل الحياة الأولية . وليست هذه الحلول بالأفضل أو الأسوأ ، ولكنها ببساطة حلول مختلفة ·

وبطبيعة الحال ليس فى مقدور الطفل أن يفكر فى مثل هذه المســـائل · انه يستجيب فقط للخبرة ، وذلك بأن يكيف نفسه للمضمون الحضارى القائم ، ثم يطبق باستمرار منطق هذا الموقف الحضارى · وينطبق هذا بطبيعة الحال وبالدرجة الاولى بالنسبة للغة ، اذ ن الطفل الذى ينشأ بلغتين يميل لأن يجيب باللغة التى يوجه بها الكلام اليه · ولكنها فى الوقت نفسه تحدث تحولا خاصا فى اتجاهاته اللاشعورية · وحتى الآن فانى أتكلم فى أحلامى باللغة الفرنسية أو الالمانية اذا كان المحيط الذى يتصادف تواجدى فيه تسوده اللغة الفرنسية أو الالمانية · ولأن نشأتى العائلية قبل



ترجمة : محمد كامل النحاس

وكيل وزارة التربية والتعليم سابقا • حاصل على ليسانس المعلمين العليا فى انعلوم والتربية ، والماجستير فى علم النفس من جامعة برمنجهام فى انجلترا • ومن المناصب الهامة التى تولاها عمادة كلية المعلمين بالقاهرة ومعهد التربية ، وكان رئيسا لخبراء اليونسكو بالعراق • ومثل مصر فى عدة مؤتمرات وحلقات بحث دولية • وله عدة أبحاث ومؤلفات علمية اهتمت بها المحافل الدولية • وقد نشر له معهد اليونسكو للعلوم الاجتماعية فى كولونيا بالمانيا عام ١٩٥٦ بحثه عن العلاقات الأسرية بين المتعلمين فى العراق •

الحرب العالمية الاولى كانت موزعة بين باريس وماجدبرج (حيث كان يقيم جدى الالمانى) فان عناصر من نظامى التنشئة أثرت بالتساوى تقريبا فى تكوين شخصيتى، أى فى تكوين عقلى الباطن • وقد اختفى فى حياتى المبكرة الميل الخاص للمزج بين اللغتين ، وبذلك عشت من الناحية اللغوية على مستويين منفصلين تمام الانفصال ، تواجدا جنبا الى جنب دون أن يحدث بينهما أى تداخل •

واذا كانت بداية الانسان على هذا النمط ، فانه لا يلقى صعوبة تذكر فى ان يستمر كذلك • ومتى أصبح مفهوم « الحد » لديه مجرد أمر نسبى فانه يصل بسرعة الى المرحلة التى لا تقوم عندها أية حدود ، وانما تتواجد فقط أشكال حضارية متعددة، لكل منها المنطق الخاص به ، ولكل منها قيمته الانسانية •

وعندما ذهب والدى الى ايطاليا فى سنة ١٩١٠ ، ليقضى بعض الوقت فى الاشراف على منشآت معمل تكرير السكر الذى كان قد سبق أن أقامه جدى ، فاننى تعلمت الايطالية دون مجهود يذكر ، وفى ١٩١٢ بعد ذلك تعلمت الاسبانية على هذا النمط نفسه . وفى كل مرة من تلك المرات كنت أقف على سمة قومية جديدة ، بقيم واتجاهات وأشكال جديدة من السلوك • وهكذا توفرت لدى بعض المعرفة بالسلوك

الانسانى وتغيراته الواسعة قبل أن أدرك أى شىء على صورة نظرية للسلوك الاجتماعى • ان النسبية الحضارية للمتخصص فى علم الانسان كانت حقيقة واقعة لوجودى ، وكانت الوسط الذى أتحرك وأتنفس فيه بشكل طبيعى من الصباح الى الليل ، على الرغم من أن الاحتفاظ بها كانت تقوم دونه صعوبات قاهرة بعد اندلاع حرب سنة ١٩١٤ ٠

لقد أمضيت سنوات الحرب العالمية الاولى فى بلدة هال على نهر السال فى المانيا (من ١٩١٤ الى ١٩٢٢) تحت ظروف فى غاية الغرابة كان لها أثر عظيم الأهمية فى نموى . وكان أحد أعمامى ، وهو مهندس كيماوى ، قد تزوج أيضا بامرأة فرنسية نشأت فى روسيا . وبسبب جهل كل من امى وخالتى حينئذ باللغة الالمانية عاشت الأسرتان فى منزلين يكادان يكونان متلاصقين ، حتى يسهل على كل منهما أن تأتى لتقديم يد المعونة للاخرى اذا مانشبت متاعب بسبب جو الحرب المتوتر حولنا . وهكذا عشت سنوات الحرب فى المانيا فى بيئة لغتها هى الفرنسية البحتة ، مما كان له أسوأ الأثر بصفة مؤقتة على معرفتى بالألمانية ، وقد انعكس هذا بوضوح فى تقارير المدرسة عنى .

وقد واجهت فى هذا الوسط ظاهرتين أخريين ، أدركت فيما بعد أنهما كانتا مشكلتين . لقد ذكرت من قبل أن زوجة عمى نشأت فى روسيا . وكانت تجيد اللغة الروسية اجادة تامة اذ أنها تلقت تعليمها بالمدارس هناك • وقد نتج عن ذلك أن اعداد من الطلبة الروس الذين تواجدوا فى ألمانيا عند نشوب الحرب كانوا يتقابلون فى منزلها . وكان العمل على كسب هؤلاء الشبان لألمانيا جزءا من سياسة «المانيا العظمى» المعاصرة ، حتى اذا ما حان الوقت المناسب أمكن ايفادهم مقدما للشرق لاستخدامهم حماة للحكم الألمانى هناك . ومن أجل ذلك سمح لهم بالبقاء مؤقتا للاستمرار فى دراستهم ، بل قررت لهم منح دراسية ، أو اسندت اليهم وظائف يقومون بها، فى حين كان الاشراف عليها مقصورا على أن يذهبوا بانتظام ليخطروا عن انفسهم . ولم يدر بخلد السلطات انه فى أى ظرف من الظروف قد يتحول كل شىء الى خلاف ما قصد منه . ولأول مرة سمعت اللغة الروسية تستعمل فى شئون الحياة العامة ، ولأول مرة أيضا سمعت كلمة «الثورة» ، واكتشفت فضلا عن ذلك أنه بين الروس وغيرهم من ذوى القوميات الأخرى بوجود نوع تبعى غريب من الناس يعرف باليهود . وأدركت وانا فى سن العاشرة ماذا يقصد بمناهضة السامية ، حتى أن مسألة التمييز الاجتماعى ارتبطت مباشرة فى ذهنى بخبرتى عن النسبية الحضارية . وادركت ايضا أن مركبا كليا من مشاعر عدوانية الأجناس متداخلة ظلت مختفية هنا ، وانها وصلت فى ذلك الوقت الى درجة من التفجر الشديد ، ولذلك سألت نفسى تلقائيا امن الواجب أن يستسلم الانسان سلبيا لهذا الأمر . ان التمييزات ليست مجرد حقيقة واقعة ، انها أثارت فى نفسى مبكرا رغبة قوية فى أن اتغلب عليها • وقد تعلمت أيضا من الطلبة اليهود الروس كنة الأقليات ، وهو درس حذقته فيما بعد من خلال تجربتى الشخصية كمهاجر بعد سنة ١٩٣٥ .

وبينما كانت الحرب لاتزال مستعرة نقل عمي الى جنيزنو بالقرب من المدينة الألمانيـة التى كانت تسـمى حينئذ بوزن ، وذهبت الى هنـاك لقضـاء عطلتى . وفى الليلة التى قضيتها بالفنـدق فى بوزن لحظت فجـأة ان عامة النـاس كانوا يتكلمون اللغة البولندية ، فى حين ان الطبقة العليا كانوا يتكلمون اللغة الألمانية . وكانت هذه أولى خبراتى بمشكلة «الطبقة» التى كانت بالنسبة لى حقيقة واقعة قبل أن أستمع فى برلين الى محاضرات «ريتشارد ثيرنوالد» بأمد طويل . وتعلمت فى الوقت نفسه لغة جديدة هى البولندية التى درستها بمزيد من الاتقان بعد الحرب على يد الشاعر التعبيرى ستانيزلو برزيبايزسـكى . وفى سـنة ١٩١٦ واجهت فى ظل الامبراطورية الالمـانية للحـركة البولنـدية « السرية » ، وفى زيارة ثانية فى سنة ١٩٢٠ ـ بسبب استمرار عمى مديرا لمعمل تكرير السكر فى جنيزنو حيث توطدت الصداقة بين جدى الالمـانى وأسرة بولنـدية ذات نفوذ ـ اكتشـفت الجمهورية البولندية الجديدة . ولقد أحدثت فى نفسى هذه الخبرة تأثيرا اكبر مما أحدثته الكثير من الخبرات الاخرى ، لاننى رأيت انه لا يوجد نظام مهما بلغ من قوة الثبات الا واستطاعت قوى معارضـة فعـالة أن تحطمه يوما ما . وكان احيـاء الجمهورية البولندية مثلا على ذلك ، ونجد أمثله أخرى فى الدول الملكيـة الكثيرة المتعاقبة فى حوض الدانوب . وكنت فى ذلك الوقت على علم خاص ببولندا ، وعن طريق أصدقائى البولنديين اتصلت بالأدب السلافى والفلسفة السلافية . وحوالى سنة ١٩٢٢ وقعت فى مكتبة والدى على بعض مؤلفات توماس مزاريك التى كانت تستشهد كثيرا باسم المانى لم يسبق لى أن سمعت به من قبل فى المدرسة ، وهو كارل ماركس . وفى سنة ١٩٢٤ تعرفت فى وارسـو على الكاتب البولندى الكبير الحائز على جائزة نوبل فلاديسلو ريمونت . والذى كنت أجهله حينذاك هو انه قبل سنة ١٩١٤ بأمد طويل تعرف عالم اجتماع من شيكاجو اسمه وليم ا . توماس على شاب كان يعمل مساعد مدرس فى وارسو يدعى فلوريان زنانيكى ، وكانا يعملان معا حينئذ على وضع أساس علمى للوصف الشعرى لحياة الفلاحين البولنديين الذى قام به ريمونت . وكنت فى تلك اللحظة من شبابى أقرب مايكون لعلم الاجتماع ـ الذى كان حول الناصية كما يقال ـ ولكنى لم أخط وقتئذ الخطوة القصيرة الأخيرة . لقد قابلت زنانيكى فى سـنة ١٩٥٧ قبـل وفاته بزمن قصـير فى ايست لانزينج بمتشيجان ، حيث كانت جامعة ميتشيجان الرسمية قد عينته بعد أن ابعد مرة أخرى من بلاده عند نشوب حرب سنة ١٩٣٩ . وحتى فى تلك الآونة المبكرة فاننى كنت قد واجهت فعلا تلك المشكلات التى بسببها احتل زنانيـكى مركزا مرموقا فى تاريخ علم الاجتماع ، وهى بنية مجتمع الفلاحين البولندى المتطور ، والهجـرة الاضطرارية وراء البحار ، واعادة بناء المجتمع المحلى . وفى الرواية التى وضعها ريمونت حـول النهضـة المتفجرة للمجتمع الصناعى فى لودز ادركت مرة أخرى ، فى صيغة شعرية أولا ، لا مشكلة التـأثير البشرى للتصنيع فقط ، بل أيضـا مشكلة التغير الاجتماعى .

وقد ادركت بعد ذلك بكثير أن علم الاجتماع ليس دائما هو الرائد فى فتح مجالات جديدة للمعرفة ، ولكنه فى اغلب الاحوال يعمل على متابعة وتنظيم التأملات والبصائر التى يكتسبها الشعراء والروائيون . ان الدراسات المجتمعية فى الولايات المتحدة كانت ولاتزال مسبوقة بما يؤلفه كاتب مبدع . وهكذا اشتقت فكرة الجبرية الاجتماعية من رواية «المأساة الأمريكية» لتيودوز درايزر ، وتحليل السلوك الجامد من الروايات المتعددة التى ألفها سنكلير لويس بدءا من «بابيت» والشارع الرئيسى الى كاس تمبرلين وتحليل الجماعات اللاشكلية من كتاب مثل «نقطة لارجعة اليها» لمؤلفه جون . ب . ماركاند . ومع ذلك فلم يكن أمامى فى الموقف الذى وصفته مثل هذا البديل . لقد خبرت المشكلات قبل أن أتعلم كيف أعالجها تحليليا . ولكن حتى فى ذلك الوقت أدركت أن التسليم بوجود هذه المشكلات والمصاعب والصراعات لم يكن كافيا ، وأنه ينبغى للانسان أن يفعل شيئا للتغلب عليها .

وعندما سمعت كلمة « الثورة » من الطلبة الروس اليهود أثناء الحرب أدركت حقيقة الأمر فى مدينة «هال» الواقعة على السال ، وذلك منذ خريف سنة ١٩١٨، ففى عدد من المناسبات نشب فى شوارع المدينة قتال عنيف استمر للسنوات التالية ، لقد كانت قعقعات المدافع الرشاشة تدوى ليل نهار ، حتى فى ضواحى المدينة ، وكان يعقب تلك الحوادث أعمال انتقامية ، وعدوانات وحشية . ولما كانت الامبراطورية الالمانية لا تعنى أى شىء بالنسبة لى فاننى أصبحت اشتراكيا قبل المعرفة ، اى قبل أن تتكون لدى فكرة واضحة عن المعنى الحقيقى للاشتراكية وقد ظلت قناعتى بالاشتراكية التى أخذتها عن توماس مازاريك ذات أثر حاسم فى تطورى حتى اليوم، وهو الذى بدا ، بعد أن أصبح رئيسا لجمهورية تشيكوسلوفاكيا كأنه يجسد شيئا من السياسى المثالى فى نظر أفلاطون . وقد ظهر لنا جميعا فى ذلك الحين صادق الوعد بتكوين شكل جديد للدولة ، من شأنه أن يخرج للوجود مجتمعا جديدا . وهذه الفلسفة ــ مرتبطة بتأثير الفلسفة التعبيرية الألمانية ــ جعلته فى نظرى أشبه بالرجل الميتافيزيقى مثل ذلك الذى صوره «كيرت بنثاس» فى كتابه (سنة ١٩١٩) الذى حوى مختارات نفيسة من الشعر التعبيرى الألمانى . وقد اشتريت نسخة من الطبعة الثانية من الكتاب التى صدرت فى سنة ١٩٢٢ ، وقد صحبنى هذا الكتاب فى جميع جولاتى فى عشرات السنوات . وأصبح كل هذا أكثر واقعية ، بما تركته رواية البؤساء لفكتور هوجو من أثر فى نفسى ، وكنت قرأتها فى الوقت الذى قرأت فيه لتولستوى ودوستويفسكى وشرنيشفسكى وهكذا نجحت فيما بعد ، وأنا أكتب رسالتى للدكتوراه التى نشرت على شكل كتاب فى سنة ١٩٣٠ فى أن أربط بين الفلسفة الانسانية لاشتراكى من الرعيل الاول هو بيير لروكس ونظرية التاريخ لأوجست كونت وعلم الاجتماع عند اميل دوركايم . وبين بداية هذا التطور ونهايته كانت سنوات دراستى الحقيقية التى قضيتها فى فيينا وبرلين وباريس ،وكان لكل منها تأثيره الخاص فى نفسى .

سنوات الدراسة

فى سنة ١٩٢٢ رحل ابى الى دانزج ، حيث كان عليه ، بصفته موظفا فى عصبة الأمم ، أن يقوم بتحويل الترسانة البحرية السابقة الى مايخدم الاغراض السلمية . وقد أتممت دراستم الثانوية فى دانزيج (سنة ١٩٢٥) ، وكانت اللغات التى درستها هى : اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية القديمة ، والانجليزية ، والفرنسية . وبسبب أن والدى كان يعمل فى معظم الأحيان لدى البولنديين استطعت أثناء تلك الفترة أن أوسع معلوماتى عن بولندا ، كما استطعت أن أدرس تلك الصراعات السياسية الاولى التى كان لها آثار مخربة (كمهاجر بعد ذلك فى سويسرا حيث علمت منذ سنة ١٩٤١ مع زملاء لى فى جامعة للمعتقلين البولنديين فى رفينذبرذر ، وكان لدى فرص كثيرة لأن أستفيد من معلوماتى السابقة عن تلك البلاد) . وعلى كل حال فان الحرب العالمية الثانية نشبت فى دانزيج . ولكن اقامتى كانت قصيرة جدا ، اذ بدأت دراستى فى جامعة فيينا سنة ١٩٢٥ ، بحيث لم تترك أثرا كبيرا على انه لولا فيينا ما كنت ما أنا عليه الآن .

وكانت فيينا فى ذلك الوقت أكثر المدن خسارة فى الحرب العالمية الأولى ، ولكن كان يغمرها تسامح انسانى رقيق ، وخاصة بين الطلبة والاساتذة الذين عاشرتهم وعملت معهم ثلاث فترات دراسية . وكانت فيينا ملتقى الثقافات البلقانية جميعا ، وقد سادها روح التحرر من المطلق فى تبادل هذه الثقافات المختلفة ، ولو ان ايام سنة ١٩٢٥ السعيدة انتهت سريعا مع حريق وزارة العدل الذى شب فى سنة ١٩٢٧ . وقد ارتبطت بداية دراستى بمواجهة للغة أخرى وثورة أخرى ، هما اللغة التركية وقيام كمال أتاتورك كمصلح عظيم لتركيا . وبدأت أتعلم اللغة التركية فى ربيع سنة ١٩٢٥ ، وكانت بمثابة أول لغة ليست هندية أوربية اقوم بدراستها . وبمساعدة من الأستاذ كرالتيز جرايفنهورست تتبعت هذه اللغة لأصولها المنغولية . وقد هيأت لى دراساتى بمدرسة اللغات الشرقية تعلم العربية والفارسية والعبرية الحديثة ، اذ أن عددا من الطلبة اليهود المنتمين للجيل الصهيونى القديم كانوا حينذاك يتلقون دراستهم بالمدرسة . وقد ارتبط كل هذا ارتباطا وثيقا بخبراتى فى طفولتى الأولى فضلا عن اننى شاهدت لأول مرة فى أثناء عدد من الزيارات التى قمت بها لتركيا (١٩٢٥ – ١٩٢٧) نتائج ثورة كانت تعبيرا أصيلا لتحضر قائم على التخطيط . ان الأهمية التاريخية الواسعة لتركيا – كما أراها الآن – تتصل فى الواقع بأنه بعد سقوط الدولة العثمانية لم تركن تركيا للخمول والركود ، ولكنها اندفعت نحو مظهر جديد للتطور استمر قائما حتى اليوم . وهكذا أصبحت تركيا ، فى نظرى ، نموذجا لنهضة شعب تليد يعيش فى رقعة اختذلت كثيرا بعد أن أصابها التوسع الاستعمارى بكارثة . وكما كان الحال فى بولندا بدأت دراساتى اللغوية الجديدة بخبرة عن التغير الاجتماعى . وبالاضافة الى هذا كانت تلك الفترة هى الفترة التى كانت تنجز فيها تركيا مرحلة الانتقال من الأبجدية العربية الى الأبجدية اللاتينية . ومنذ ذلك الحين لم أتوقف عن الاهتمام بمشكلة الدول النامية . وفى السنوات القليلة التى تلت ذلك

وسعت خبرتي عن تركيا بالقيام برحلات الى الجزائر ومصر والمغرب وسوريا وتونس وفلسطين . ولقد تفرع عن هذا الاهتمام المبكر انني منذ سنة ١٩٦٢ قمت على ادارة مشروع معونة تربوية لكلية الاقتصاد فى كابول وفق اتفاق مشترك مع جامعة كولون . وكنت أعد لهذه المهمة منذ سنة ١٩٢٥ وبدأت أهتم فى الوقت نفسه ، ولو أن ذلك كان بصفة سطحية ، باللغة الصينية (مع الأستاذ روستورن) ولغة هنود المكسيك ، لكى أدرس على الأقل بنية هاتين اللغتين .

وكانت اللغويات الاسلامية هى المادة الاضافية التى درستها فى جامعة فيينا . أما المادتان الأساسيتان فكانتا هما الفلسفة وعلم النفس . وكنت مواظبا على الاستماع الى محاضرات مورينز شليخ الذى لقى مصرعه ـ بعد وقت قصير ـ بيد أحد الطلاب . وقد كان ذلك بدء صلتى بمنطق العلوم بالشكل الذى كان يدرس فى المدرسة النمساوية . ولقد تركت محاضرات كارل وشارلوت بولر فى علم النفس انطباعا عميقا عندى . ولقد قرأت أول مقال لى فى حلقتهما الدراسية التى كانت تعقد فى مبنى مديرية التربية والتعليم بفيينا القائم فى الساحة المواجهة للبرلمان . وفى أحد أيام سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦ تعرفت خارج المبنى ببول لازارفلد الذى أثر فى تأثيرا كبيرا حتى اننى بادرت بشراء نسخة من كتابه « المتعطلون فى مارينثال » بمجرد نشره فى سنة ١٩٣٤ . وقد قابلته للمرة الثانية فى نيويورك سنة ١٩٥٢ .

ويمكننى أن الخص بسهولة رأيى فى المدرسة النمساوية لفلسفة العلوم . لقد تركت فى نفسى انطباعا عميقا ، ولكننى انزعجت كثيرا لأن الفلسفة التجريبية لدى معظم اتباع هذه المدرسة المتشعبة ـ باستثناء لازارفلد ـ ظلت مجرد نظريات . ولم استطع ان اتصور كيف يمكن اى انسان ان يدرس منهج البحث مجرد دراسة فقط دون أن يصله بأى نوع من البحث الواقعى . وقد ذكر مارسل موس عن ذلك فى سخرية لاذعة ان الذين يفشلون فى فرع من فروع العلوم يدرسونه يشغلون انفسهم غالبا بطرق البحث فيه ، أو بتاريخه ، أو بتعريف ميدانه وتحديده . والواقع أن منهج البحث لا يكون ذا موضوع الا اذا كان متصلا مباشرا بالبحث . ولذلك فان رسالة اميل دوركايم الانتحار لا تزال فى نظرى على الرغم من نقاط الضعف الكثيرة بها ، أفضل رسالة فى الطريقة الاجتماعية .

وعلى الرغم من انتقالى الى برلين فى شتاء ١٩٢٦ / ١٩٢٧ فاننى احتفظت بارتباطاتى بفيينا حتى سنة ١٩٢٧ . وقد اضطررت لسوء الحظ أن أتوقف فى برلين عن دراسة لغويات الاسلام ، اذ لم يكن فى هذه المدنية ما ييسر لى هذه الدراسة بالمقارنة بمدرسة اللغات الشرقية فى فيينا . وبالاضافة الى ذلك فان اللغات كانت تدرس فى برلين غالبا من الناحية التاريخية والادبية ، دون الاشارة الى حقيقة أن هناك شعوبا حية تمارس اجراءات التطور والتقدم السريع تستعمل *تلك* اللغات فى حياتها ، ولا يزال هذا حالها اليوم الى حد ما ، مما يبين فى نظرى أن المدرسة القديمة للغويات تقوم على أساس من سوء الفهم الكبير ، ان اللغويات تمدنا بأفضل

أساس ممكن لعلم الاجتماع ، ولكن اذا ما عولجت من وجهة نظر اجتماعية ، او اجتماعية ــ نفسية ، أو من وجهة نظر علم اجتماع المعرفة ، لا من الناحية الادبية التاريخية الفنية ، اننى لا أود أن انتقص من مزايا ما يسمى بالعلوم الثقافية ، ولكننى أود أن اضعها فى مكانها المناسب . ان الثقافة الاعلى لمجتمع معين لا يمكن أن تعالج الا اذا سبق ذلك معالجة أساس تركيبها وبنيتها . أما ماعدا ذلك فانه يكون بمثابة وضع العربة أمام الحصان ، ويؤدى الى تخبط ايديولوجى .

ولم اخبر هذا تماما الا فى جامعة برلين ، حيث كان المهيمنون المتحكمون هم الجيل الثانى لمدرسة « دلثى » وخصوصا ادوارد سبرانجر الذى خلق حوله جرا من العداء الحقيقى لعلم الاجتماع ، الذى وجدت فيه مشكلة التناقض بين الناحية النظرية والناحية العملية حلاً عن طريق « النظرية التربوية » ، وحيث وصمت المحاولة لمعالجة المشكلات الاجتماعية النوعية بأنها من اختصاص نوع معين من الانسان يسمى « اليقينى » ولقد قام صراع بينى وبين سبرانجر ، واستمر حتى حصولى على الدكتوراه ، وكاد الأمر كله ينتهى بالفشل المخزى لولا أستاذى فى الفلسفة « ماكس دسوار » وأستاذى فى علم الاجناس ريتشارد ثورنولد ، واننى لمدين لهذين الأستاذين بالحوافز الحاسمة التى اثرت فى عملى سنوات كثيرة بشكل أود أن أصفه باختصار . لقد كان ماكس دسوار أصلا أحد تلاميذ مدرسة ديلثى ، ولكنه ركز اهتمامه من البداية على علم النفس وعلم الجمال . وكان طبيعيا بالنسبة له أن يصل الى علم الجمال من خبرته المباشرة بالفن ومن حياته كفنان ، ولم تكن صورة الفن عنده نوعا من المثالية الفلسفية . وقد صبغ هذا جميع أقواله بواقعية مدهشة . وقد ادركت هنا ولأول مرة بداية الانثروبولوجيا الثقافية التجريبية ، كما هو ممثل فى الفن . ولكن دسوار لم يقف عند هذا الحد ، بل قادنا الى حدود الظواهر الروحانية ، بل الى ما قبل علم النفس .

وقليلا ما يرجع *الآن الى الكتاب الذى الفه* فى هذا الموضوع ، ولكننا كثيرا ما ننتحل آراءه دون خجل . ولقد كانت لهذه الخبرة فيما بعد اهمية كبرى فى دراستى لعلم أجناس البشر مع ثورنولد الذى طلب منى فى سنة ١٩٢٩ أن أعد تقريرا عن التطورات التى حدثت فى فرنسا فى هذا المجال من حيث اتصالها ديتريش وسترمان العالم الكبير فى شئون أفريقيا ، الذى طلب منى أن أبحث فى العلاقة بين السحر والتكنولوجيا فى الفكر البدائى . وعلى الرغم من اننى اشتغلت سنين طويلة فى هذا البحث خصوصا على شكل مناظرة مع لوشين ليفى برول فاننى لم أكمله . ولكن ريتشارد ثورنولد كان السبب فى اننى منذ ذلك الحين ربطت بين علم الاجتماع وعلم الأجناس البشرية ، وعلى الرغم من أن رسالتى للدكتوراه كانت فى موضوع علم اجتماع الأدب ، بيد اننى اتبعت أسلوب عمل مقارنات واسعة المدى فيما يتصل بتحليلات الموقف ، حتى اتابع الطرق المختلفة التى يعالج بها الموضوع نفسه تحت تأثير مبادىء الأساليب الفنية المختلفة ، خصوصا تلك المشتقة مما يسمى مذهب الفنان فى الفن . وكان أهم ما وصلت اليه هو الاتجاه الجديد نحو

مشكلة « موضوعية » المعرفة فى العلوم الاجتماعية ، باستخدام لغة ماكس فيبر الذى ادركت ، حتى فى ذلك الوقت ، انه البلسم الواقى من غواية تحليلات « علم الثقافة » التى كانت عند مواجهة أى عمل فنى أو غير فنى على الأسلوب الأدبى المنمق بدلا من الاهتمام ببقية العمل نفسه ، وقد قامت لدى المشكلات المنطقية نفسها سواء كانت المسألة فنية أو حقيقية اجتماعية وكنت متأثرا بهذا الخصوص لا ببحث ثورنولد فقط ، ولكن أيضا وعلى وجه خاص بأهم كتاب وضعه بروتزلو مالينوفسكى فى رحلة غرب الباسيفيكى .

وتحت تأثير المشكلات الاجتماعية والسياسية المعاصرة (البطالة وظهور الاشتراكية القومية) عكفت فى نهاية الأمر على ربط علم الاجتماع بعلم الأجناس . وهكذا انتهت أيام دراستى . وفى سنة ١٩٢٩ حصلت على الدكتوراه فى الفلسفة واللغات الرومانسية (١) وعلم الاجناس . وفى سنة ١٩٣٠ نشرت رسالتى عن « الجمالية الطبيعية فى فرنسا وانهيارها » ، التى تقتضى الى حد ما أثر فلسفة الفن من كونت ودوركايم الى هنرى برجسون ومارسل بروست . وبعد ذلك تركت برلين متجها الى باريس ، حيث التقيت مرة أخرى لا بالفرع الفرنسى لاسرتى فقط بل أيضا بالجيل الثانى لمدرسة دوركايم التى ربطت نفسى بها سنوات عديدة .

على طريق الاستقلال الفكرى

لقد كانت آراء دوركايم وابن أخته مارسل موسى تسود تماما علم الاجتماع فى باريس فى ذلك الوقت . وقد كونت بسرعة صلة عمل وثيقة بهذين العالمين عندما كنت أعد تقريرى لثورنولد عن آخر تطورات علم الاجتماع الفرنسى . ولكن حتى فى ذلك يمكن ملاحظة نوع من الاستقطاب بين النشاط السياسى والنشاط العلمى . وقد ظل التأثير السياسى لمدرسة دوركايم ، الذى وضح فى الامتحانات وفى مجموعة كاملة من الكتب الدراسية ، مثيرا للدهشة ، متصلا بعقيدة دوركايم السائدة ، فى حين أن الآراء الحديثة ، فى سياق تحررها من أرسطوطالية دوركايم ، كانت عديمة الأثر بشكل واضح من وجهة النظر السياسية . ولأننى كنت على صلة بأصحاب تلك الآراء كان الأمر مفيدا لى من الناحية العلمية ، ومن جهة أخرى فان الجانب السياسى الذى وجدته ممثلا أحسن تمثيل فى شخص سيليستين بوجلين ظل بعيدا نسبيا عنى .

ولقد عبرت طوال السنوات عن آرائى حول دوركايم وما أنا مدين له ، وذلك فى عدد من المناسبات ، ولا اريد أن أكرر ذلك هنا . وأود أن أشير فقط الى أنه فى الذكرى المئوية لمولد دوركايم لم ينطق أحد فى فرنسا بأية كلمة عنه فى حين كتبت أنا فى المانيا مقالا طويلا فى هذه الذكرى ، كما نشرت مقالات كثيرة أخرى تشيد به ، وخصوصا فى الولايات المتحدة . ولأن دوركايم عاش بالنسبة للشعب الفرنسى كعقيدة سياسية فقد كانت نهاية الجمهورية الثالثة بمثابة موت سياسى له . ومن

---

(١) اللغات الرومانسية هى اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية مثل الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية وغيرها (المعرب) .

سوء الطالع انه بدأ للكثيرين كأنه مات علميا أيضـا . وهـذا خطأ كبير . وبينما يستطيع تالكوت بارسونز أن يسأل بحق : « هربرت سبنسر ـ من الذى قتله ؟ » نجد أن لا محل لهذا السؤال بالنسبة لدوركايم . انه ميت سياسيا ، ولكنه حى فى النظرية الاجتماعية ، كما استطاع بارسونز نفسه أن يبينه .

لقد كان من المحـال التحدث الى موس عن دوركايم . لقـد كان يتجنب أى سؤال عنه ، أو يتظاهر بأنه لم يفهمه ، ولكنى خلال جولات طويلة حول باريس مع ريموندلنوار الذى أخذ عن موس آراءه الأساسية ، ثم طورها بعد ذلك فى أسلوب أدبى غاية فى الروعة ، ناقشت معه هذه الأسئلة ساعات طويلة . وقد وجدت نفسى عنـد ذاك أفكر فى الغالب على نمط تفـكير جورج جورفيتش الذى عرفته فى باريس قبـل ذلك بعـدة سـنوات ، قبـل أن ينتقـل الى براج ، ثم الى فرنسـا بعـد ذلك ، حيث أصبح مواطنـا فرنسـيا . وكانت معرفتى بمؤلفـات مارسـل موس هى التى شجعتنى على أن اربط بين الاتجاه الجديد فى التخلص من الأسلوب التحكمى لمدرسة ديركهايم وبين هنرى برجسون ، خصوصا بعد ظهور آخر مؤلف للاخير سنة ١٩٣٢ وهو « مصدرا الدين والأخلاق » .

وقد انتهى موس الى النتيجة نفسـها ، وأدرك ادراكا تاما اهمية ما اضـافه برجسون الى نظرية الرموز . وهـكذا كان الطريق مفتـوحا لاعادة صياغة الفروض الأساسية تماما ، لولا قيام الحرب الجديدة التى عطلت كل شىء .

ولقد تركت ألمانيا قبل اللحظة الحرجة ، بعد أن صادر الاشتراكيون القوميون أحد كتبى وهو « طبيعة الجامعة الالمانية » الذى نشرته سـنة ١٩٣٥ . وقد قامت صعوبات أخرى ذات لون سياسى . وكان فى عزمى أن أؤهل نفسى لأن أكون مدرسا فى جامعة برلين عن طريق كتاب أقوم بتأليفه عن دوركايم بناء على طلب الفرد فيركاند وكانت تلك الفترة هى التى أدركت فيها أن دوركايم لم يكن رجـل نظريات فقط ، ولكنه كان أيضا ذا أهمية سياسية ونتيجة ذلك لم يتم تأهيلى للتدريس فى جامعـة برلين . ولكن تم ذلك لى فى سنة ١٩٣٨ بالنسـبة لجامعـة زيورخ ، حيث قمت بالتدريس فيها دون انقطاع حتى سنة ١٩٥٣ .

وانتهيت من وضع كتابى عن دوركايم فى الوقت الذى ظهر فيه كتاب تالكوت بارسـون « بنية العمـل الاجتماعى » أى فى سـنة ١٩٣٧ . وقد حاولت أن أقوم بما قام هو به تماما ، ولكنى اهتممت على مواضع تختلف عن تلك التى اهتم هـو بها . ومن ثم فان مناقشـة النظرية النفعية لم يكن لهـا ، بالنسبة لى ، أثر هام بنوع خاص ـ ولو أنها تبرز فى كتابى ـ لأنها تنتمى أساسا للتقليد الانجلوسكسونى ، ومن جهة أخرى فان نقد سوسيولوجية الوجودى التاريخى (ف . ديلثى ، وهانز فراير ، وكارل شميت ، وغيرهم) ـ من وجهة نظر هيجل وماركس (س. لافدشت وغيره) ـ كان بالنسبة لى موضوعا رئيسيا . أما موقفى من دوركايم وماكس فيبر فقد كان مثل موقف بارسون ، باستثناء واحد هو اننى استحدثت مجموعة جديدة من الاعتبارات ـ خلا منها تماما كتاب بارسون ـ تتصـل بمشـكلة العنف . وكان

لجورج سوريل عندى مركز أساسى بصفته اسـتمرارا لآراء ماركس »، ومن جهـة اخرى فقد احتل فلفردو باريتو مركزا ثانويا جدا فى منهجى حينذاك .

وكان الهدف من هـذه المراجعة هو تحـديد اتجـاه تحليلى عام للمشـكلات الاجتماعية على الضد من معالجتها كمشكلات خاصة بالمجتمع الرأسمالى، أو ماقبل المجتمع الرأسمالى ، أو مجتمع القرون الوسطى . وفى هذه الأشكال الاجتماعيـة المتعددة ــ التى حاولت أن اغطيها ، لا من وجهة النظر الاوربية فقط ، ولكن على مقياس عالمى واسع ــ هل يمكن أن نجد تكوينات عالمية تسمح بانشاء جهاز واحـد من الفئات السوسيولوجية ؟

لقد كان هذا هو السؤال الذى شغلنى ، والذى حاولت للاجابة عنه أن أقوم على الأقل ببعض البحث المبدئى . ولكن هـذا الكتـاب لم يطبع حتى الآن لأن دور النشر السويسرية لم تجرؤ على أن تنشر كتابا يعارض النازية بشـدة . ومع ذلك فانى ازمع بعد قليل أن أنشره بمقدمة طويلة أملا بها تلك الفجوة فيما بين سنة ١٩٣٧ واليوم ، اذ أنه بسبب تجدد الاهتمام بمناقشة أسس علم الاجتماع لم يفقد الكتاب جدة أى من موضوعاته .

لقد كانت محاضراتى فى جامعة زيورخ موزعة بالتساوى بين المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع ، وتاريخ علم الاجتماع ، ووصف المؤسسات الاجتماعية الاساسية فى المجتمعات البدائية ، فى الحضارات القديمة وفى الوقت الحـاضر . ولقـد بدأت ، كنشـاط جانبى ، القيام ببعض البحوث مع عدد من الطلبة المهتمين ، بتطور القرية السـويسرية ، والمجتمعات المحليـة الحضرية ، وقد نشر بعضها (هانزيورجن بك وهانس فايس وبيتر اتسلندر ، وبعد ذلك سنة (١٩٥٨) حاولت الحصول على نتائج نظرية من مثل هذا النوع من البحوث . ولقد كانت الدراسة المستفيضة لمشـكلات الجامعة التى قام بها رينالدو أندينا هى أولى الدراسات التى تعالج مشكلة التسرب فى التعليم . ولقد كنت دائما مهتما بنوع خاص بتغلغل الافكار البروتستانتينية فى المظاهر المختلفة للسلوك الاخلاقى اليومى (كلارا فونتوبل) . وقد تتبعت ، من باب الاستطلاع ، تأثير ميكائيل باكونين فى تشينو ورب سويسرا ، وكان أفضل كتاب من هذا النوع هو كتاب رولف .ر. بيجلر عن الاشـتراكية الحرة فى غرب سويسرا ، الذى ادهشتنى أهميته أثناء اقامتى فى الجورا وفى مدينـة لاشـودى . فوند تلك المدينة الصغيرة التى اشـتهرت بصناعة السـاعات . وقد اكدت هـذه المؤلفـات الاتجاه الفوضـوى الذى تواجد فى الحركة الاشـتراكية منذ بيير جوزيف برودون مكونا توازنا داخليا مع الاشتراكية المتحكمة لكارل ماركس رفردريك انجلز . وكانت سوسيولوجية الأسرة مجالا آخر من مجالات بحوثى فى ذلك الوقت »، وما زلت أعمل فيه حتى الآن كمثل من أمثلة النظرية الجماعية التطبيقية (انظر كتاب الاسرة غير المكتملة تأليف لوسى شـتامبلى . وقد اتى الحـافز لى على ذلك من الخـارج ، اذ طلب منى المجلس الاتحادى السويسرى أن اعد تقريرا عن الموقف الحالى للاسرة ليـكون (ضمن تقـارير أخـرى) أسـاسا لمشروع تعـديل الدسـتور الخـاص بالاسرة . ومع ذلك فلم تكن الظروف فى سويسرا بوجه عام حينذاك (كما هى الحال

الآن) تشجع على القيام ببحوث اجتماعية ، وكان على أن ادفع معظم التكلفة المادية من جيبى الخاص ، وكان ذلك بمثابة مشكلة عويصة لمهاجر مثلى مهضوم الحق فيما يتقاضى من أجور ، اذ كنت أقوم بواجبات الاستاذ واتقاضى الراتب الضئيل لمدرس مبتدىء . ولقد سألنى مرة الكسندر فون شلتنج الذى خلفنى فى منصبى فى زيورخ : كيف تحملت تلك المعاملة ذلك الأمد الطويل . ولأنه كان الشخص الاول والوحيد الذى وجه الى هذا السؤال فمن الواضح اننى كنت مضطرا لأن أقبل ما حدد لى من راتب . وبالرغم من ذلك فقد ابتسم الحظ لى عن طريق رواج بعض كتبى (كتابى عن « ميكيافيللى » سنة ١٩٤١ ، وكتابى عن « صقلية » سنة ١٩٤٣ ، والترجمة التى قمت بها لكتاب « أنا مالافوجليا » وهو اروع ما كتب جيوفانى فيرجا رواجا ممتازا بالنسبة للاحوال فى سويسرا ، مع ان هذه الكتب ظلت حتى سنة ١٩٤٥ ممنوعة من البيع فى المانيا والنمسا لأسباب سياسية ، ثم نشر لى فى سنة ١٩٤٦ مجموعة من الرسائل عن سيسيولوجية الأسرة ، وكتاب « علم الاجتماع فى الوقت الحاضر » الذى ترجم الى عدة لغات (الهولندية والايطالية والاسبانية واليابانية) .

واذا ما بذلت محاولة لانشاء علم اجتماع لا يكون مجرد رد فعل لموقف اجتماعى خاص ، ولكنه يستخدم نظاما من فئات ومراتب ، مقبولا بوجه عام الى حد ما ، ومنهجا معقولا ، وطريقة بحث صادقة ، فمن الممكن ان تبزغ وجهة نظر من لقاءات ثقافية واسعة ، تأتى معها بمنظمة دولية لعلماء الاجتماع . وقد تلقيت فى سنة ١٩٤٨ نداء تليفونيا من باريس ، لم أكن أتوقعه البتة ، من صديق نرويجى قديم هو أرفيد برودرسن الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب رئيس دائرة العلوم الاجتماعية بمنظمة اليونسكو ، وسألنى هل اقبل ان أكون عضوا فى لجنة تحضيرية لانشاء منظمة دولية لعلماء الاجتماع . وهى التى أصبحت فيما بعد الرابطة الاجتماعية الدولية . وقد قبلت العرض فى سرور ، اذ اننى منذ هجرتى الاولى التحقت وعملت بمؤسسة سابقة لليونسكو ، هى المعهد الدولى للتعاون الفكرى . وكان جزءا من مهمتنا فى ذلك الوقت (سنة ١٩٣٨) فهرسة الكتب والمراجع ، وقد ادخلت هذا التقليد فى اليونسكو بعد ذلك ، مما أدى الى وجود ما يسمى بتقارير المنحى فى علم الاجتماع المتداول والانثروبولوجيا السائرة ، الى غير ذلك ، وهى الآن أداة دولية معترف بها لعلماء الاجتماع فى أنحاء العالم . وتتلخص فكرتى فى أن نعد عن عمد فهارس غير كاملة ، أى مختارة ، موجهة نحو خط ارشادى مركزى ، تكون بمثابة تقرير متدرج عن أحوال البحث فى فرع معين ، يشير الى الفجوات فى البحوث ، ويقدم مقترحات لبحوث مستقبلة . وقد ساعدت كثيرا لجان البحث فى الجمعية الدولية لعلماء الاجتماع فى أداء هذه المهمة بعد ذلك ، مما مكن مجموعات من العلماء الممتازين دوليا من أن يجتمعوا فى الفترات التى تقع بين انعقاد المؤتمرات ، لكى يناقشوا موضوعات معينة . وقد اشتركت بنفسى فى افتتاح ثلاث من مثل حلقات البحث هذه : فى الأسرة مع نلز اندرسون فى كولون سنة ١٩٥٤ ، وفى التتضيد والتغيير الاجتماعى مع ذافيد جلاس فى سنة ١٩٥٩ ،

ومرة أخرى الأسرة مع روبين هيل فى طوكيو سنة ٩١٦٦ . وقد ظهرت هذه التقارير الثلاثة على شكل كتب .

ومع ذلك فقد كان من الضرورى أن يبدأ بتكوين الرابطة الدولية لعلماء الاجتماع . وقد كانت مساعدة اليونسكو ، والرؤساء المختلفين لدائرة العلوم الاجتماعية ـ فضلا عن برودرسن فى أول الامر ـ وبخاصة الفاميردال وأوتوكلاينبرج وروبرت انجل ـ مساعدة ثمينة من حيث أنها جمعت بين العلماء من أنحاء العالم ليفكروا معا فى أمر هذا النوع الجديد من المنظمة الدولية ، فى وقت (١٩٤٨ـ١٩٤٩) لم يكن يتاح فيه لاحد منا الفرصة للسفر . وقد تميزت هذه الاجتماعات بروح رائدة خالصة ، لا يمكن أن ينساها أى أحد اشترك فيها . وعندما تأسست الرابطة الاجتماعية الدولية بصفة رسمية فى أوسلو فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ أدرك كل من أولئك الذين اشتركوا فيها انه عندئذ انشئت منصة دولية لعلم الاجتماع لم تكن موجودة من قبل ، اذ كان هناك فارق أساسى بين المؤسسة الجديدة والمعهد الدولى القديم لعلم الاجتماع ، من حيث أن الرابطة الاجتماعية الدولية كانت رابطة لرابطات ، وكان المعهد يتكون من أفراد هم ولا شك شخصيات هامة ، ولكنهم كانوا لا يعبرون الا عن وجهات نظر شخصية . وتبعا لذلك فان المؤتمر الذى اقامته الرابطة الاجتماعية الدولية سمى بحق « المؤتمر العالمى لعلم الاجتماع » . وقد عقد أول مؤتمر فى زيورخ فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ ، وكان اجتماعا مشتركا مع رابطة العلوم السياسية السويسرية ، الذى تسبب فى اضطراب ميزانيتى الخاصة (وقد كنت اعمل سكرتيرا للمؤتمر) لأننى على حين فجأة دعوت عددا من الزملاء أكبر مما كان مقدرا فى الأصل . وعندما طالبت بالمال الذى يغطى النفقات الاضافية لم اتلق حتى الرد على طلبى . ومرة اخرى اضطر المهاجر ذو الأجر الضئيل أن يتحمل من ماله الخاص زيادة النفقات . ومع ذلك فقد تعلمت درسا ثمينا هو ان من الواجب على المرء أن لا يعول مطلقا على الحصول على مبالغ اضافية بعد أن ينفض المؤتمر . ومنذ ذلك الحين سارت الرابطة الاجتماعية الدولية ـ التى كان لى شرف رياستها من سنة ١٩٦٢ حتى سنة ١٩٦٦ ـ بنجاح مطرد .

وقبل انعقاد أول مؤتمر عالمى لعلم الاجتماع بقليل عينت أستاذ كرسى فى جامعة كولون . وهكذا بدات عملى فى جامعة سريعة النمو ، فرضت على واجبات جديدة ، وبخاصة فى تدريس علم الاجتماع ، وفى وضع المناهج الدراسية .

وبينما كنت أستعد للانتقال الى كولون مع أسرتى تسلمت من مؤسسة روكفلر فى نيويورك ما يفيد أننى استطيع ان اتقدم بطلب منحة للسفر الى الولايات المتحدة . وكان هذا بمثابة استجابة لرغبتى الشديدة فى ذلك ، والواقع أننى منذ سنة ١٩٤١ افردت فى الخطة الدراسية لعلم الاجتماع المعاصر الذى كنت اتولى تدريسه محاضرة واحدة فى علم الاجتماع الامريكى . ولذلك كنت من الناحية العلمية على اتم الاستعداد للقيام بالرحلة ، على الرغم من أننى كنت ضئيل الخبرة بالعمل الوظيفى لنظام الأقسام . وقد كانت زيارتى الاولى (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) مفيدة فى الاتصالات التى قمت بها ، والتى أتيحت لى بعد ذلك فرص انمائها وتوسيعها اثناء عملى استاذا زائرا سبع مرات (فى جامعة ميتشجان سنة ١٩٥٧ ، وجامعة كاليفورنيا فى

بركلى سنة ١٩٥٧ ، و ١٩٥٩ / ١٩٦٠ ، و ١٩٦٤ / ١٩٦٥ وفى جامعة كولومبيا فى نيويورك سنة ١٩٥٩ ، وفى جامعة كولورادو فى بولدر سنة ١٩٦٢ ، وفى جامعة اريزونا ١٩٦٨ — ١٩٦٩) بالاضافة الى الزيارات القصيرة الكثيرة لجامعات أخرى ، القيت فى كل منها محاضرة على الاقل ، وعقدت فيها حلقات مناقشة مع الزملاء .

والذى أثار اهتمامى كثيرا ذلك السؤال الذى فشلت فى أن أصل الى اجابة عنه فى سويسرا : كيف يستطيع الانسان أن يجمع بين تدريس علم الاجتماع والقيام بالبحوث ؟ ومن الواضح أن المتطلب الاول هو المورد المالى ، ولكن ، على حد ما ذكر بول ف . لازارفلد فى مرة من المرات ، يجب أن يكون هناك معهد « تنظم » البحوث فيه ، والا فان المرء يخاطر بمشروعات فردية للبحوث ، تتردد دون ترابط ، وفق اهتمامات وميول الافراد من الطلبة ، التى تظهر مصادفة بوجه عام . ان حلقات المناقشة الجامعية التقليدية ليست ملائمة على الاطلاق لتدريس علم الاجتماع ، ومن الضرورى ، بالاضافة اليها ، أن تكون هناك معاهد متخصصة . ولكن هذا لا يعطى اجابة كاملة على السؤال ، اذ أن على المعاهد فى الغالب ان تقوم بأعمال البحث ، وهذا يعنى أن نحول ، الى حد ما ، بين الطلبة واشتراكهم فيها ، لأن هذه الاعمال يجب أن تؤدى دون الوقوع فى أخطاء على قدر الامكان . وطبيعى أن الطلبة الذين لا يزالون يجتازون مرحلة التعليم لا ينتظر منهم أن يصلوا الى مستوى الدقة والجودة اللازمتين . ولقد وقعت على أوفق حل لهذه المشكلة فى سنة ١٩٥٢ ، ثم مرة أخرى فى سنة ١٩٥٧ فى جامعة ميتشيجان بآن آربر ، حيث كان العمل موزعا بين مركز البحوث المسحية من جهة والدراسة الميدانية فى ديترويت من جهة أخرى ، وهى التى أسهم فيها عدد كبير من الطلاب . ويمكننى أن أقول أن دراسة ديترويت الميدانية كانت تطوف فى رأسى كنموذج عندما نظمت فى كولون سلسلة من البحوث المسحية الصغيرة .

ومع ذلك فقد أدركت أن حلقات المناقشة ومعاهد البحث ليست كافية اذا لم تتوافر الكتب الدراسية . وبمصادفة سعيدة ، قبيل رحيلى الى الولايات المتحدة فى صيف سنة ١٩٥٢ ، أرسل الى الدكتور ماكس راليس (وهو الآن فى باريس) نبذا مختارة من أعمال مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية فى نيويورك ، واستطعت باذن كريم من بول ف . لازارفلد وروبرت ك . مرتون أن أؤلف منها كتابا صغيرا عن المقابلة . وقد ظهر الكتاب فى سويسرا وجمهورية المانيا الاتحادية فى وقت واحد . وكان من غير شك أول كتاب يظهر فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يكن كافيا الى حد كبير ، حتى اننى بعد عودتى مباشرة بدأت ، مع مجموعة من المساعدين ، بمراجعة كاملة مستفيضة لهذا الكتاب الذى ظهر الآن فى جزءين بعنوان عام هو « البحث الاجتماعى العملى » . وقد عالج الجزء الاول موضوع المقابلة ، وعالج الجزء الثانى موضوع الملاحظة والتجربة . ونشر الجزءان فى سنة ١٩٥٦ و سنة ١٩٥٧ ، وأعيد طبعهما حتى سنة ١٩٧٢ سبع مرات للجزء الاول وثمانى مرات للجزء الثانى .

وقد استعملت الآن كلمة « مساعد » . وبهذا الخصوص تميزت باتجاه جديد تماما فى سياسة الجامعة الالمانية ، وهو التوسع فى الجهاز الفنى (هيئة التدريس)

بقدر أقل من التوسع فى « الفئة المتوسطة » أى « المساعدون » كما يطلق عليهم رسميا . وما زلت أشعر بأننى مدين فى ذلك للقائمين على وزارة التربية فى لأندنورث راين وسنفاليا ولادارة جامعة كولون الذين ادركوا مباشرة ان علم الاجتماع الجديد لا يمكن أن يتقدم دون « مساعدين » . وقد أعان وجودهم لا على العمل فى مجموعات صغيرة فقط — وكانت هذه المجموعات هى الحل الوحيد لمشكلة التزايد الضخم فى عدد الطلاب — ولكن اعان أيضا على استحداث فرق للبحوث الصغيرة ، بقيادة أحد « المساعدين » أو أحد الطلبة المتقدمين ، قادرة على انجاز مشروعات معقدة تمام التعقيد ، وفق ارشادات وتوجيهات عامة ، وقادرة كذلك ، وهو الأهم ، على أن يتعلم أفرادها أثناء عملهم . وقد أشرت الى ذلك فى مقدمة كتبتها لرسالة قام بها أحد طلاب « جان بياجيه » السويسريين الفرنسيين . وقد عمل فى واحد من هذا النوع من المشروعات « التوجيه المهنى لصغار الفتيات » ، وكان عددهن لا يقل عن عشر طالبات ، بقيادة طالبة أخرى ، عملن على المسح ، مما مكننا من القيام ببحوث على النمط نفسه ، من هامبورج الى ميونخ ، وفى كولون ، وديزبرج ، ودوسلدورف ، ودورتمند ، واسن . وبعد ذلك قمت بتوزيع العمل بين الحلقة التى تقدم فيها مجموعة من دراسات تمهيدية (الاحصاء للمختصين فى العلوم الاجتماعية ، ومناهج البحث ١ ، ٢ ، والمفاهيم الاساسية لعلم الاجتماع) رمعهد البحوث الذى يدرس فيها أساسا الطلبة الذين يحضرون لدرجة الدكتوراه فى مشروعاتهم الخاصة . ولقد تطلب الوصول الى ذلك سنوات طويلة ، وكان من غير الممكن أن يتم هذا مطلقا دون معونة من مساعدين يعتمد عليهم ، ويتميزون بقسط وافر من الذكاء وعلو الهمة .

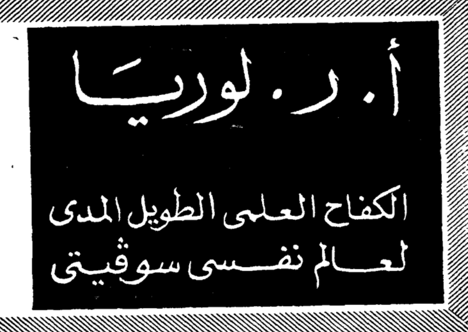
وفى أثناء القيام بهذا الاجراء اتضح لى بدرجة أكبر أننا نستطيع أن نمنع موضوعا جديدا مثل علم الاجتماع من أن يصبح مجرد طرز متتابعة ، وذلك بتأكيد أن له تأثير دائما فى العالم كله . ان المعاهد والمناهج والكتب الدراسية المقررة مفيدة بهذا الخصوص ، ولكن يجب أيضا أن تؤلف كتب لتثقيف الجماهير ، تفسر المفاهيم المتداولة . وبمثول هذا الهدف تصب عينى نشرت مع عدد قليل من المساعدين « المعجم الاجتماعى » الذى روجع ونقح مرات كثيرة . وحتى الآن بيع من الطبعة الالمانية لهذا المعجم ٣٣٢٠٠٠ نسخة ، وظهرت ترجمات له باللغات الهولندية والاسبانية والايطالية والفرنسية ، كما أعيد طبع بعضها عدة مرات . ومثل هذه المبيعات الضخمة من الكتاب تؤكد انه قد وجد طريقة الى اعداد من الناس من ذوى الاهتمامات العامة ، لا من المختصين فى الاجتماع فقط . ولقد كان هذا مقصدى من اخراج الكتاب .

وقد اعتبرت مجلة «كولون الاجتماعية والاجتماعية النفسية» الدورية ، التى تسلمت مهمة تحريرها من سلفى ليوبولد فون فايز سنة ١٩٥٥ وسيلة أخرى لتأكيد هذا التأثير الواسع لعلم الاجتماع . وكان هدفى الأول من تحرير هذه المجلة أن أعد مرجعاً اجتماعياً عاما باللغة الألمانية سهل التداول ، ومستقلا عن اية مدرسة خاصة ، وأردت ثانيا أن أجعل علم الاجتماع العالمى معروفا فى جمهورية المانيا الاتحادية (عن طريق النقد الببليوجرافى) ، فقد قصدت أن تكون المجلة منتدى لنشر تقارير موجزة

عن البحوث . وفى الباب الذى عنوانه «من عالم البحـوث» نشرت المجلة فى بحـر سنوات ما لا يقل عن مئة من هذه التقارير .

بعد بدئى العمل محررا للمجلة مباشرة أدركت مشكلة قائمة فى جميع المجلات الدورية ، ففى كل عدد يكون لزاما على الانسان أن يطبع متنوعات ، ليس بين احداها والأخرى اية صلة سوى انه يضمها جميعا غلاف واحد . أفلا يمكن أن يوجـد نوع اكثر تنظيما فى مطبوعات المجلات ؟ وفى هذه السبيل «ابتكرت الأعداد الخاصة» التى تقدم للمشتركين فى المجلة بأسعار مقبولة ، ويعالج كل منها موضوعا واحدا . وقـد ظهر أول عدد خاص من هذا النوع فى سنة ١٩٥٦ . وحتى سنة ١٩٧٢ كانت قـد تضمنت هذه السلسلة من الأعداد الخاص ١٦ عددا ، تحملت شخصيا مسـئولية سبع منها . وقد حاولت فى كل من هذه الأعداد أن أعرض وجهة نظر اجمالية للموقف الجارى فى فرع خاص من فروع علم الاجتماع ، كما حاولت كأمر طبيعى أن أوضح فى كل منها وجهة النظر العالمية .

وفى رأيى أن المرحلة النهائيـة فى اقامـة علم الاجتماع ، لا من حيث الطـرق واسلوب البحث فقط ، ولا حتى من حيث المذاهب ، ولكن حيث أساس نتائجه . هذه المرحلة النهائية قوامها تجميع عمل موسـوعى ، يؤدى الى اختبار النظـريات المعاصرة ، لا من حيث مظاهرها الشكلية فقط ، ولكن أيضا من حيث مدى صمودها للنتائج الأخيرة للبحوث . ان كتاب الدليل للبحث الاجتماعى التجريبى ، فضلا عن انه رسالة فى الطريقة الاجتماعية ومنهج البحث ، وقد أعد وفق هـذين الاتجاهين بمعونة مايزيد على خمسين مساعدا ، يمدنا بمجمل لجميع التغيرات الاجتماعيـة التى حدثت فى المجتمعات الصناعية المتقدمة خلال ثلثى هذا القرن أو ثلاثة أرباعه . وهذا يمكن المرء من أن يرى بشكل أوضح أن المذهب التجريبى هو فى الحقيقة اذا ماتتبع بشكل منهجى ، مهمة نظرية راقية ، من حيث انه يمكننا ــ اذا ماكان تطوره يسير باسلوب منطقى ــ من أن نرفض على أسس معقولة عـددا من الافتراضـات التقليدية التى ظلت قائمة أمدا طويلا . وعلى ذلك فان موسـوعة من هـذا النوع ليست مجموعة من حقائق ميتة ، بل على العكس من ذلك هى اسـتعراض وتقويم للموقف السائر فى أبعاده المختلفة . ومن الواضح أننا لانستطيع أن نصل الى درجة الكمال فى هذه المهمة . وعلى كل حال فليس هذا بالأمر الضرورى ، ولا المرغوب فيه أيضا ، اذ انه قد يؤدى بنا الى الاعتقاد بأن كل شىء قد أقر بصفة نهائية . ولكن هذا يعنى الموت للعلم . وكما أننا نستند الى أكتاف من ذهبوا قبلنا فيجب أن نقدم أكتافنا للآخرين حتى يستطيعوا أن يروا فى المستقبل ابعد مما رأينا . واخيرا فان موسوعة من هذا النوع تمدنا ، لا بحشد متتابع من الرؤى والبصائر الفردية فقط ، انها على العكس تزودنا برؤية شاملة للمجتمع ككل ، مما يمكننا من أن نحدد موقفنا الحالى الى درجة أدق . ان «تبوبيا» من هذا النوع (باستعمال الكلمة التى استخدمها الفرد فيركاند منذ أربعين سنة) لايتضمن مطلقا نظاما مغلقا . ان كل ماهو «مغلق» حـدث ماض ، محدد بوضـوح من حيث الزمان والمكان ، ويجب أن يثبت قـدره وقيمته كعلامة على الطريق الى مستقبل جديد .



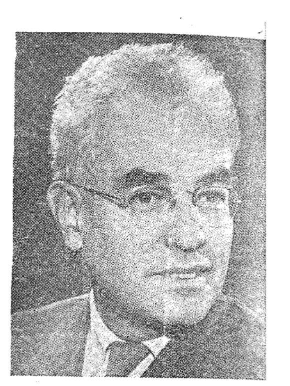
ان النشاط الرئيسى فى الحياة العلمية لهذا العالم الذى نكتب عنه هو دوره فى العون على خلق فرع جديد هو علم نفس الاعصاب ، وأعنى به تحليل منابع نشاط الانسان العقلى فى المخ وتطبيق مناهج علم النفس فى دراسة التنظيم الوظيفى للمخ • ويتمثل المضمون النظرى لهذا الفرع الجديد فى كونه يمكن من القيام بتحليل أوثق صلة بطبيعة العمليات العقلية للانسان وبنائها الداخلى • وتكمن أهميته العملية فى أنها تزودنا بأساس علمى لتشخيص الاضرار المحلية فى المخ والاحتفاظ بالاشكال المركبة للنشاط العقلى التى تعكر صفوها هذه الاضرار •

ولم يكن الطريق المفضى الى خلق هذا الفرع الجديد ممهدا ، فقد اقتضى مراجعة الدراسات الجذرية للنشاط العصبى عند الانسان والمبادىء الاساسية لعلم النفس الكلاسيكى . وقد كان عالم النفس المبرز • فيجوتسكيج (١٨٩٦ ــ ١٩٣٤) هو أول من سار على هذا الدرب ، وانني لأعتبر عملى مجرد خطوة فى هذا الاتجاه •

ولقد كان للعلم فى نهاية القرن التاسع عشر تصور طبيعى عميق الغور للمخ ونشاطه ، ظل مستمرا حتى عهد قريب • وقد ارتأى العلماء فى بحوثهم أن للمخ البشرى بعض خصائص كامنة فيه وملازمة له تمكنه من أن ينهض بالعمليات العقلية •

ترجمة : الدكتور محمد فتحي الشنيطي

أستاذ ورئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية الآداب بالمنيا، وهو الآن أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بالرباط بالمغرب العربى .



وظن بعض الكتاب أن المخ تجمع مركب لأعضاء أو «مراكز» صغيرة لكل منها وظائفه المحددة تحديدا دقيقا ، وأقاموا «مراكز» خاصة فى اللحاء الدماغى تتحكم فى مثل هذه الوظائف من قبيل الكلام ، والكتابة ، والقراءة ، والعد . واعتقد آخرون أن المخ ميكانيزم موحد يؤدى وظائفه ككل غير مجزأ . وافترض كلا الفريقين أن الاشكال المتنوعة للنشاط العقلى هى نتيجة مباشرة لوظائف المخ ، وأن العميات العقلية تولدها خلايا عصبية منفصلة وتحدث كنتيجة مباشرة لنشاطات هذه الخلايا .

وبدا هذا الافتراض من الوضوح الى الحد الذى حدا بشخصيات قائدة فى حقل النظرية الفسيولوجية الحديثة ، من أمثال س. شرينجتن ، و ا. أدريان ، و ج . اكليس وغيرهم ، أن تأخذ به .

وأيا ماكان فكرة أن العمليات العقلية هي «خصائص» مباشرة أو «افصاحات» لنشاط الخلية العصبية ، وأنها يمكن تناولها من زاوية التحليل الطبيعى ، لم تكن بأى حال من الاحوال أمرا واضحا بذاته ، كما يمكن افتراض ذلك لأول وهلة .

وهذا التناول لم يفض ، والحق يقال ، الى مواجهة مصاعب ذات خطر فى تحليل

العمليات العقلية الأولية • فالاحساسات البصرية هى بوضوح نتيجة لعمليات تجرى فى شبكية العين ، والمراكز «البصرية» فى المخ مرتبطة بهذه الشبكية ، ولا غرو فقد عثر حديثا على الخلايا العصبية فى ذلك الجزء من اللحاء المتصل بالاحساسات البصرية (المتمركزة فى المجال البصرى) التى تستجيب فقط لمنبهات الضوء ـ بل فضلا عن ذلك لمنبهات الضوء من نمط معين فقط •

ومن الواضح تمام الوضوح أن الاحساسات السمعية تتولد حينما تثار الخلايا العصبية فى ميكانيزم الأذن الداخلية والخلايا العصبية السمعية المرتبطة بها فى اللحاء الدماغى ، فى حين أن احساسات اللمس هى نتيجة لاثارة الخلايا العصبية فى الجلد الذى تنتقل اثارته الى مناطق من المخ مخصصة للغاية •

وأيا ما كان فهل يمكن تطبيق المبدأ نفسه على الاشكال الأعلى لنشاط الانسان الشعورى ؟ هل لنا أن نفترض أن هنالك تشكيلات عصبية خاصة فى اللحاء الدماغى تفضى الى نشأة ادراك الموضوعات ، والى الفعل الارادى والتجربة الشعورية ؟

من الجلى أن الانسان يعيش فى عالم موضـــوعات مدركة ادراكا حسيا ، وأنه يستقبل المعلومات المتصلة بخبرة أجيال من الافراد الآخرين ، وهو قادر على تشكيل أشكال من النشاط الشعورى الارادى الذى يميزه من الســـائمة • ويضع الانسان لنفسه أهدافا ، ويشكل خططا وبرامج لسلوكه ، وينظم أفعاله ، ويضبطها وهى تسير قدما ، ويصحح أخطاءه •

فهل يتصور أن هذه الاشكال من النشاط العقلى ، التى لا يمكن انكار وجودها ، تولدها خلايا فى المخ بالطريقة التى تولد بها معظم الاحساسات البسيطة والحركات الأولية ؟

لقد نبذ علم النفس الكلاسيكى هـــذا الافتراض من أول وهـلة • وأخذ بأن الوظائف الأعلى أقرب فى الأصل الى أن تكون وظائف عقلية من كونها وظائف مادية ، وانها لاتتولد من المخ ، بل هى تكشف فقط عن أشـكال العالم العقـلى ، وانهـــا تمضى قدما فى «توازن» مع المخ أو «تتفاعل» معه .

ومع ذلك فهذه الأفكار التى أستمرت الى عهد قريب جداًتمثل عقبات لاسبيل الى تخطيها من وجهة نظر المذهب الوضعى العلمى ، ودراسة المخ .

واذ يقر علماء النفس بالطبيعة الخاصة للأشكال الأعلى للنشـاط الشعورى ، وأن كانوا يربطون هذا النشاط بعالم عقلى خاص ، يضطرون الى تقسيم علم النفس الى علمين منفصل أحدهما عن الآخر انفصالا تاما ، أحدهما يزودنا بتفسير للعميات العقلية الأولية دون أن يحاول الى جانب ذلك أن يتناول تناولا علميا تحليل الأشكال الأعلى للنشاط العقلى ، والآخر يزودنا بوصف للأشكال الأعلى لحياة الانسان العقلية دون أن يعطينا تفسيرا لها • وفى نهاية القرن التاسع عشر أطلق على هذين الفرعين « علم النفس التفسيرى » و « علم النفس الوصفى » على التوالى •

ونتائج هذا الاحتشاد للعمليات العقلية الأعلى توقع بالمثل فى الاضطراب علماء فسيولوجيا المخ • فاذ يكونون غير قادرين على تفسير أصل الأشكال الأعلى للنشاط الشعورى يتحولون الى تناول مادى فج طالما كان مهجورا ، ويحاولون أن يجدوا خلايا منفصلة كامنة فى مكان ما فى المناطق الأعمق للمخ « تولد » الشعور ، أو يبحثون عن النقطة التى يدخل عندها « المبدأ العقلى المخ » ، محاولين اكتشاف مقـومات دقيقة للعالم العقلى فى اللحاء الدماغى •

ومن الجوهرى حل هذا التناقض الجذرى وايجاد مبدأ يتيح بالمثل ايثار مناهج علمية لتحليل العمليات العقلية الأولية والأعلى معا ، ويجعل ممكنا للعلم المعاصر أن يحل مشكلة تنظيمها داخل المخ •

لقد حاول عالم النفس السوفيتى ل•س• فيجوتسكيج أن يتناول هذه المشكلة الاساسية فى علم النفس ، والحل الذى يقدمه حدد تطور علم النفس لزمن طويل ، وكان على الأخص ذا أهمية أساسية للفرع الخاص لهذه الدراسة ، الذى يحاول كاتب هذه السطور أن يمضى به قدما الى مرحلة أبعد •

لقد أسس فيجوتسكيج (ولقد قابلته لأول مرة سنة ١٩٢٣ وواصلت العمل بالقرب منه حتى وفاته) دراسته على مبدأ بسيط ولكنه وطيد ، وهو أن الأحرى ان يكون لعمليات الانسان العقلية الأعلى أصل اجتماعى لا أصل طبيعى • ومن الضرورى بغية تفسيرها أن نمضى الى ماوراء الكائن العضوى ونبحث عن جذورها فى العـلاقات بين الافراد وفى الظروف التاريخية للمجتمع •

وما برحنا نعرف شيئا ضئيلا جدا عن تشكيل العمليـات العقلية فى سياق التطور التاريخى للمجتمع ، وان كان قد عرف الكثير عن تشـكيل الوظائف العقلية الأعلى : الفعل الشعورى ، الانتباه الارادى ، والادراك الفعال فى نمو الطفل .

فالطفل ينمو فى عالم موضوعات قد تشكلت كنتيجة لعمل المجتمع ، وهو يعيش فى احتكاك لا ينقطع بالراشدين • فالأم تقول للطفل «هذه كرة» وتشير اليها باصبعها، والاشارة والكلمة توجه نظرة الطفل ، وتميز الموضوع عن الموضوعات التى تحيط به ، وتوجه الانتباه اليه • وتقول الأم : « أعطنى الكرة » ، وينجز الطفل الفعل الضرورى• والاحتكاك بين الطفل والراشد يقـوم عند قاعدة الاشكال المركبة للفعل الارادى • والوظائف العقلية المركبة ــ الفعـل الشـعورى الارادى ــ تنقسم فى البداية بين فردين ، تبادر بها الأم ، ويكملها الطفل •

ويتعلم الطفل بعد ذلك الكلام ، وهو الآن يردد تعليمات امه اللفظية له . فهو يقول لنفسه : «هذه كرة» ، وفى طاعته لقولهـا يوجه نظرته الى الموضـوع المسمى ويلتقطه بيده . فالوظيفة التى كانت من قبـل مقسمة بين فردين تصبح الآن شكلا باطنيا فى تنظيم النشاط العقلى للطفل • وبهذه الطريقة تظهر الوظائف العقلية الأعلى

فى الوجود : اجتماعية فى الأصل ، وسـيطة (من خلال الكلام) فى البنـاء ، موجهة توجيها شعوريا واراديا فى منهجها فى العمل ٠

هذه النظرية عن الأصل الاجتماعى وعن البناء المركب لوظائف الانسان العقلية الأعلى تغير تغييرا جذريا تناولنا لتنظيمها فى المخ ٠

وتبدو المحاولات نحو مركزة العمليات العقلية الأعلى مركزة محصورة فى مناطق ضيقة خاصة من المخ محاولات لا معنى لها ٠ فقد بدأ النظر الى الوظائف العقلية الأعلى كأنساق وظيفية مركبة تركيبا عاليا تنطوى على مجمـوعة كاملة من ميكانيزمات المخ وليست متمركزة فى مناطق منفصلة فى اللحاء الدماغى ، ولكنها توجد فى ثنايا اللحاء بأسره ٠ وتعتمد على تفاعل مركب الى أبعد حد لمناطق اللحاء المتنوعة ، التى يؤدى كل منها دورا خاصا فى هذا «النسق الوظيفى» ٠

وليس فى تصور «النسق الوظيفى» شىء جديد أو غير متوقع ٠ وقد أدخله فى علم النفس فيجوتسكيج ، وفى علم وظائف الاعضاء العالم السوفييتى الأشهر أنوهين P. K. Amohin وهو مؤسس على افتراض أن أى نشـاط مركب ـ حتى ولو كان نشاطا فسيولوجيا فى طبيعته كالتنفس مثلا ـ يحقق وظيفة خاصة (أعنى نقل الهواء الى شعيبات الرئتين) ولكنه يستخدم تنوعا من الوسائل المختلفة لـكى يؤدى عمله (اثارة الحجاب الحاجز ، تضـخم الزور بالعضـلات الواقعة بين الضلوع ، ابتلاع الهواء .. الخ) ، واذا تحققت الوظيفة المطردة (الثابتة) انقطع النشاط ، واذا لم تتحقق نقلت الى المخ الاشارات عن التناقض (عدم التنسيق) بين نتيجة النشاط وبين المهمة الاولى ، ويستمر البحث عن الوسيلة الضرورية لأداء الوظيفة .

فاذا كانت وظائف من هذا القبيل ، بسيطة بالمقـارنة كالتنفس ، هى « أنساقا وظيفية» بالغة التركيب من حيث الجوهر ، فان هذا أصدق فى حالة «الوظائف الأعلى سيكولوجيا» ٠ وكما قيل من قبل فان هذه الوظائف تمارس عملها من خـلال عملية رد فعل مركبة للواقع ، وتحتك بالافراد المحيطين ، وهى تتضمن لا «التنفيذ» الفعال العملى فقط بل تتضمن معه الكلام أيضا ، وهو من البداية وسيلة الاتصال ، وينطبق بالتالى على التنظيم الباطنى لعمليات الانسان العقلية ٠

وطبيعى من ثم أن الاساس الدماغى لهذه الاشكال الأعلى للنشاط العقلى للانسان يتخذ شكل أنساق وظيفية مركبة للغاية لمناطق فى المخ تنشط فى اللحظة نفسها ، وأن مركزة هذه الأنساق الوظيفية تشكل مشكلة أساسية فى علم نفس الأعصاب ٠

لقد بسطنا المشكلة الاساسية لعلم نفس الاعصاب ٠ ولكى ننتقل الى نقطة أقرب نحو حل لها فقد كان من الضرورى ، مع ذلك ، أن نحدد بناء العمليات العقلية الأعلى نفسها ، وحينئذ فقط سيكون ممكنا البحث عن أسس تنظيمها فى المخ ٠

وقد صاغ هذه المشكلة فيجوتسكيج ، وواصل البـحث فيهـا زملاؤه وتلاميذه

(أ٠ن٠ ليونتف ، و أ٠ف٠ زابوروزفيك ، و د٠ب٠ الكونين ، وكاتب هذه السطور)

ولقد كانت هذه المجموعة التى أثرت تأثيرا ملحوظا فى تطور علم النفس السوفييتى قادرة فى عملها المبكر على اثبات البناء المركب للغاية لهذه العمليات الانسانية ، كالادراك الحسى والانتباه ، والذاكرة والفكر ، والحركة والفعل . وكانت مسلمتها المركزية ، التى أشرنا اليها من قبل ، هى دور الكلام ـ الذى يبدأ خارجيا ، وبالتالى باطنيا ـ فى تشكيل كل هذه العمليات ٠

وقد بين فيكوتسكيج أن المعانى التى تكتسبها الالفاظ فى مسار نشاط الطفل تنمو ، وأن هذه العملية تؤدى دورا حاسما فى نمو المعرفة ، والفكر ، والوعى فى الانسان ٠

ولقد شرعت أنا نفسى فى دراسة وظيفة أخرى للكلام ، أعنى بها دوره فى تنظيم وترتيب وضبط الحركات الارادية للانسان والخبرات العاطفية ٠ وكان موضوع أول كتاب متكامل لى «طبيعة الصراعات الانسانية» (١٩٣٢) ، وهو يلخص نتائج أبحاثى الاولى عن ردود الفعل العاطفية ، ويبين الشروط التى تحدث فيها ، ويبرز ويحلل دور الكلام فى التغلب عليها ، وفى تنظيم الحركات الارادية ٠

هذا العمل ايذان ببدء سلسلة طويلة شاملة لمشروعات البحث بدأتها فى العقد الرابع ، واكتملت فقط بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، فى نهاية العقد السادس وفى بداية السابع ٠

وكنت من قبل قد أكدت فى أول كتاب نشر لى بالاشتراك مع « فيجوتسكيج » بعنوان « دراسات فى تاريخ السلوك » (١٩٣٠) الحاجة الى دراسة تفصيلية للعملية التى تنمو بها الاشكال الأعلى للنشاط العقلى فى مسار احتكاك الطفل بالراشدين ، والدور الحيوى الذى يؤديه الكلام فى هذه العملية ٠

ومع ذلك فلم أكن حتى سنة ١٩٣٥ ـ سنة ١٩٣٦ قادرا على النهوض بتحليل دور الكلام فى تشكيل العمليات العقلية الأعلى ٠ وكانت لدى فرصة القيام بدراسة شاملة للنمو العقلى للتوائم المنتمين الى بويضة واحدة ، ونشرت بالاشتراك مع زميل كتابا خاصا بعنوان «الكلام ونمو العمليات العقلية» بينت فيه التأثير الجازم لنمو النشاط الكلامى على الاشكال المركبة للادراك والذاكرة ، للفكر والفعل ٠ وفى تجربة فريدة على توأمين من بويضة واحدة كان نموهما متخلفا للغاية ، ظهر أن فصل التوأمين وخرطهما فى جماعتين مختلفتين يخلق مؤثرا جديدا للاتصال الكلامى ، ويفضى الى التعجيل بالنمو الكلامى فقط ، بل أيضا الى اعادة تنظيم الاشكال الأعلى للنشاط العقلى ٠ وكان ممكنا أن نتبين فى الوقت نفسه أن التدريب الكلامى الخاص الذى تلقاه أحد التوأمين أفضى الى نشأة أشكال من النشاط الشعورى لم تنم تلقائيا فى التوأم الآخر الذى لم يخضع للتدريب الخاص ٠ وقد كانت نتائج هذه التجربة مثمرة الى الحد

الذى أعيد معه طبع كتاب « الكلام ونمو العمليات العقلية » سنة ١٩٥٩، وسنة ١٩٧١ فى عدد من اللغات ، وحظى باستجابة واسعة ٠

وثمة بحث ثان على التوائم المنتمين الى بويضة واحدة نشر بالروسية فقط (١٩٤٨) ، قد انطوى على تجربة فصل فيها توائم البويضة الواحدة وأخضع نشاطهم التكوينى الى شكلين منفصلين من التدريب ، فأحدهما اقتصر على النشاط البصرى وتضمن الآخر تحليلا شعوريا مؤسسا على عمليات الكلام ٠ وقد أظهرت هذه التجربة كيف تتحول عمليات النشاط الادراكى البصرى تحولا عميقا تحت نفوذ الوظيفة التحليلية التنظيمية للكلام ٠

ولقد لخصت النتائج الرئيسية لهذه السلسلة من الأبحاث فى مقال مختصر جدا بعنوان « نمو الوظائف العقلية فى التوائم » نشرته فى صورته الأصلية فى مجلة « الخلق والشخصية » (١٩٣٨) ؛ وأعيد نشره فى صورة موسعة ومراجعة فى مجلة « مشكلات علم النفس » (١٩٦٢) ٠ وهذا المقال المؤسس على نتائج دراسة مقارنة للتغيرات فى عدد من العوامل المورفولوجية والعمليات السيكولوجية ــ الذاكرة بوجه خاص ــ فى التوائم ذوى البويضة الواحدة أظهر أنه بينما يظل تأثير النموذج الوراثى على بعض العوامل الموفولوجية تأثيرا ثابتا خلال النمو المتطور للفرد ٠ فليس كذلك الحال فى العمليات السيكولوجية ٠ فابان تطور الفرد تتغير عمليات من قبيل الذاكرة لا من حيث بناؤها السيكولوجى (التغير من الذاكرة المباشرة الى الذاكرة المركبة مع الكلام كوسيط فقط ، ولكن أيضا فى علاقتها بالنموذج الوراثى ٠ وبعبارة أخرى تعتمد التغيرات فى هذه العمليات اعتماداً أقل فأقل على العوامل الوراثية ، واعتمادا متزايدا على تأثير البيئة الخارجية (الاجتماعية) ٠ ولسوء الحظ أن هذا المقال لم يكد يجذب أى انتباه اليه ، مع أننى مقتنع بأن القضايا التى يحتوى عليها يمكن أن تفتح طرقا جديدة وهامة فى البحث فى الأدوار المتتالية لعوامل النموذج الوراثى ولعوامل النموذج المقارب فى نمو عملياتنا العقلية بنمونا ٠

وفى سنوات تالية واصلت مع زملائى دراسة دور الكلام فى تشكيل النشاط العقلى ، وقد قسم البحث الى مجالين متكاملين ٠

فمن جانب أجريت سلسلة كاملة من الدراسات الخاصة على نشأة وتشكيل الوظيفة المنظمة للكلام ، التى أهملها اهمالا تاما اللغويون الذين كانوا معنيين بهيئة الأصوات والمفردات ، ودلالات الألفاظ وتطورها ، وقواعد اللغة ، ولكنهم لم يحاولوا حتى دراسة الوظيفة العملية للكلام ، أعنى أنهم لم يحللوا دور الكلام فى معرفة برامج السلوك ، وفى الابقاء على معدل نشاط السلوك وضبطه ٠ ومن جانب آخر أجرى تحليل على كيفية تغير الوظيفة المنظمة للكلام فى ظروف النمو الشاذ ٠

وتضمن المشروع الأول الأطفال الصغار (من سن سنة ونصف الى سن سنتين ، ومن سن ثلاث سنوات ونصف الى أربع سنوات) ، وحاول أن يحدد تحديداً دقيقا

كيف يبدأ الطفل الانصياع للتعليمات اللفظية للراشد وكيف ينمو الدور المنظم لكلامه نموا مطردا • وقد أظهر هذا البحث ، الذى نشر فى سلسلة من المقالات الخاصة من عام ١٩٥٨ الى عام ١٩٦١ ، أن للوظيفة المنظمة لكلام الراشد تأثيرا محدودا جدا على سلوك الطفل فى سن سنة ونصف الى سنتين ، وأنها وان كانت قد تثير بسهولة ردالفعل المرغوب (توجيه الانتباه ، انجاز فعل مطلوب) لا يمكن أن تؤخر أو تكبح بنجاح رد فعل مثار ، ويسهل التغطية على تأثيرها بفعل المنبهات غير المباشرة • وفى مجموعة أطفال من سن الثالثة الى الثالثة والنصف فقط تغدو التعليمات اللفظية للراشد من التحديد والاستمرار بحيث يمكنها أن تفضى الى نشأة برامج للفعل مركبة الى حد ما، وتهيمن على التأثيرات الدخيلة • وفى أثناء هذه الفترة تبدأ الوظيفة المنظمة لكلام الطفل نفسه فى النمو ، مؤثرة تأثيرا أوليا على كلامه الخارجى ، وبالتالى تتحول الى الباطن وتنظيم كلامه الباطنى • وأنماط سلوكه التى تخلق على أساس ذلك الكلام •

وقد درسنا أيضا ، زملائى وأنا ، تشكيل الوظيفة المنظمة للكلام فى الأطفال الأكبر سنا • وقد وجد أن الاضطراب فى هذه الوظيفة المنظمة للكلام فيما يختص بأشكال مركبة للسلوك هو أحد العلامات الأساسية لنماذج معينة من النمو الشاذ • وهذه المعطيات منضوية فى مؤلف من جزءين نشرناه بعنوان «مشكلات النشاط العصبى الأعلى فى الطفل السوى والشاذ» (وقد صدر الجزء الاول سنة ١٩٥٦ والجزء الثانى سنة ١٩٥٨) ، ونوقشت فيما بعد فى كتاب خاص بعنوان «دور الكلام فى تنظيم السلوك السوى والشاذ» (وقد صدر فى أكسفورد سنة ١٩٥٩) • وهذه الدراسات المنشورة أظهرت أن الدلالة الموضوعية للنمو السوى أو الشاذ فى الطفل تزودنا بها دلالات عامة للتغير فى عمليات الاعصاب (قوتها ، اتزانها ، حركتها) كما ترى مدرسة «بافلوف» أن الحالة كذلك ، وتزودنا بها كذلك دلالات خاصة للتغيرات العصبية فى الانساق المباشرة (غير الكلامية) والانساق الكلامية ، وأنه ما تكاد تبدأ التغيرات العصبية فى عمليات الكلام فى تخطى التغيرات العصبية فى العمليات غير الكلامية حتى يمكن للكلام أن يتولى القيام بدور تنظيمى فيما يختص بسلوك الطفل ككل •

وقد كشفت أبحاثنا أيضا عن أن النمو الشاذ كذلك يمكن وصفه لا بالدرجة الأكبر فى حدود التغيرات العامة فى عمليات الاعصاب ، بل بالاحرى بالمؤشرات التى تظهر العلاقة المتبادلة بين القسمات الدينامية العصبية للأشكال العامة العصبية والصوتية للنشاط ؛ وبينما فى حالة الاطفال المعوقين عقليا تتلكأ خلف مؤشرات السلوك غير الكلامى المؤشرات الدينامية العصبية المتصلة بالتوازن ، وعلى التخصيص بحركة العمليات العصبية الكامنة تحت النشاط الكلامى ، فكثيرا ما يكون العكس هو الصحيح فى حالة الاطفال الذين يعانون من أشكال أخرى لاضطراب النمو ، وبوجه خاص الوهن •

هذه النتائج الهامة التى أثبتها بصفة رئيسية زملائى ا • د • هومسكاجا و . ا . مسرجاكوف ، و : ف . لوبرفسكيج ، وآخرون ، تلقى ضوءا جديدا على

مشكلة تعويض النقائص الدينامية العصبية ، وتقترح دراسات جديدة معينة للمشكلات النظرية للنمو السيكولوجي الفسيولوجي للطفل .

وقد بسطت هذه المعطيات في أعم صورة لها في بحث من أحدث أبحاثي المنشورة ، وهو محاضرة بعنوان «أصل العمليات الشعورية وتنظيمها في المخ» ألقيتها في سنة ١٩٦٦ في المؤتمر الدولي التاسع عشر لعلم النفس في لندن .

وسلسلة الابحاث التي أتيت على وصفها ، والتي بدأت في العقد الرابع واستمرت ثلاثة عقود ونيفا ، أظهرت الاصول الاجتماعية والبناء المركب للعمليات العقلية حيث يؤدي الكلام دورا بالغ الاهمية . وقد أرست هذه الدراسات الاساس لنشاطي الرئيسي ، وتحليلا لتنظيم المخ للعمليات العقلية المركبة ، وكذلك لعلم نفس الاعصاب ، وهو فرع من العلم كان يستحيل نموه بدون هذا البحث .

ومنذ منتصف سنة ١٩٢٠ أصبحت مهتما مع فيجوتسكيج بمسألة كيف تتغير عمليات الانسان العقلية حين يعاني المخ من أضرار مصحوبة بضعف الكلام .

ولقد كان واضحا وثاقة صلة هذه المسألة بموضوعنا ، الامر الذي يدعونا لدراسة دقيقة يقظة لفقد القدرة على الكلام . وبالرغم من أن التجارب الاولى التي استهدفت تحليل السلوك العقلي لفاقدي القدرة على النطق كانت فجة للغاية فان توجيه الانتباه الى هذه المشكلة هو أيذان ببداية سلسلة من الدراسات كان من شأنها أن تفضي الى خلق علم نفس الأعصاب .

وفي تلك الايام كانت مشكلة تمركز الوظائف العقلية ، بما في ذلك الكلام ، تصاغ بطريقة بالغة التبسيط . وكما ألمعنا الى ذلك من قبل ارتأى بعض الكتاب (مثل كلايست) أن في الوسع «تمركز» الكلام بالطريقة التي تتمركز بها جميع العمليات العقلية في مناطق خاصة في المخ (« تمركز في نطاق ضيق») ، واعتقد آخرون (مثل فون موناكو ، وجولدشتاين أن المخ يعمل دائما ككل موحد ، وكان اهتمامهم ضئيلا بتحليل الاسهام الدقيق لكل منطقة من مناطق اللحاء في تشكيل هذا الكل (« عدم التمركز ») .

ولم يكن يسعني أن أنتمي الى أي من هاتين الوجهتين من النظر ، لأنهما معا قد ظهرتا لي خاطئتين على حد سواء .

فاذا كانت « الوظيفة العقلية الأعلى » (الكلام أو أية وظيفة أخرى) تمثل نسقا وظيفيا مركبا ، اجتماعيا في أصله ، ووسيطا في بنائه ، فقد بدا معقولا أن تعرض المشكلة بطريقة مختلفة وأن لا نحاول أن نجيب على السؤال الخاص بأين « تتمركز وظيفة خاصة » ، بل أحرى بنا أن نحلل «توزيع» نسق وظيفي خاص في اللحاء الدماغي ، وأن نعين الاسهام الدقيق لمناطق خاصة في تشكيل هذا النسق الوظيفي .

والأورام المحلية التي يصاب بها المخ البشري (الأورام ، والصدمات ، والنزيف) كانت مفيدة بوجه خاص في العون على حل هذه المسألة .

وقد كان من قبل أن يكون واضحا في ذلك الحين أن للحساء المخ البشرى بناء طبقيا مركبا • وبينما ترتبط أبسط المناطق الاولى بوظائف مخصصة (مؤخر الرأس بالوظائف البصرية وأعلى الصدغين بالتحليل السمعى للعلامات المستقبلة) فللمناطق الثانوية المتمركزة فوقها وظيفة أعقد ، وأعنى بها تأليف وتنظيم هذه الدوافع وتحويل هذه العمليات الخاصة الشكلية والنوعية الى تنظيم وظيفى مركب ، بل ان مناطق أشد تركيبا «من الطبقة الثالثة تحقق تأليفا أشد تعقدا أيضا» جامعة بين أنساق نوعية متعددة «بصرية وسمعية ولمسية» عند مستويات من أشكال أرقى وأعلى للتنظيم •

لقد كان اذن خطوة منطقية النظر بعين الاعتبار الى مشكلة الدور الدقيق لهذه المناطق فى المخ فى تشكيل «الوظائف العقلية الأعلى والطبيعة الدقيقة لتضعضع هذه الانساق الوظيفية المركبة عندما يعانى المخ من أضرار محلية» •

وقد أجريت محاولات للاجابة على هذه الاسئلة فى العقد الرابع والعقد الخامس ولقيت بعض النجاح • وقد أسست هذه المحاولات بوجه خاص على دراسة عدد كبير من جروح المخ والجمجمة خلال الحرب العالمية الثانية • وقد أظهر تحليل سيكولوجى تفصيلى للمرضى الذين يعانون من هذه الجروح أن كل ضرر يتمركز فى المخ يفضى ابتداء الى الاضطراب الاولى لعامل واحد خاص فى نشاط عقلى ما ، وأنه لا يؤدى الا الى نتيجة ثانوية حين يضعف النسق الوظيفى المركب بأسره •

ان ضررا يقع فى المناطق الأعلى للمنطقة الصدغية اليسرى يفضى من ثم الى نشأة ضعف فى ادراك تمييز الالفاظ (وهى عملية وظيفية مركبة تنمو مع اكتساب اللغة)• وثمة ضرر فى الاجزاء الثانوية ومن الطبقة الثالثة للمنطقة الادنى فى وسط ومؤخرة الرأس يسبب ضعفا فى التأليف المكانى المزامن له • ويفضى الضرر فى منطقة الدفع الحركى الى انحلال التأليف الحركى الذى يعقبه ، وهلم دواليك •

وكان واضحا أن كل اضطراب من هذه الاضطرابات الأولية يؤدى الى تفكك الأنساق الوظيفية التى تتضمن « عاملا » خاصا ولا تؤثر فى الأنساق التى يغيب عنها هذا « العامل » • وكما أظهر التحليل تتغير طبيعة هذه «الاضطرابات النسقية» طبقا لتمركز العضو المتأثر ؛ وبينما يفضى ضرر محلى فى المخ الى تفكك السياق الكامل لعمليات سيكولوجية فقد كانت طبيعة الضعف واحدة فى جميع الحالات •

وعلى ذلك فالضرر فى المنطقة الصدغية اليسرى ، المضعف لتمييز الاصوات (تقويم تلك الاصوات فى لغة تمكن من التمييز فى معنى الكلمات) ، يفضى لا محالة الى فشل المريض فى فهم الكلام الموجه اليه ، والى صعوبة خاصة فى العثور على الكلمات التى يصف بها الموضوعات ، والى ضعف فى القدرة على الكتابة (يعزى الى صعوبات فى تحليل التكوين الصوتى للكلمات) ، ولكنه لا يؤثر على الاتجاه المكانى وعلى العد ، وعلى أشكال أخرى من النشاط لاتتضمن العامل «الاولى» المشار اليه • ومن جهة أخرى فان لأضرار المناطق الادنى فى وسط الرأس وفى مؤخرته تأثيرا مباشرا فى اضعاف التأليف المكانى ، وبقدر ما يتصل الامر بالنسق كله تجعل الاتجاه الهندسى

مستحيلا وتفضى الى صـــعوبات فى العد والى فشل فى فهم بعض التكوينات المنطقية والنحوية المتضمنة لعلاقات شبه مكانية ، بيد أنها يمكن أن تدع عمليات من قبيل فهم المعنى المباشر للكلمات ، والكتابة ، الخ ، دون أن تضعفها ٠

هذه الظواهر ــ التى سماها ج.ل. تاوبر فيما بعد «مبدأ الانفكاك المزدوج» ــ زود اكتشافها العلماء الباحثين بفرص جديدة لتحليل البناء الباطنى للوظائف العقلية الأعلى ، ومكن من اجراء دراسة مباشرة لتنظيمها فى المخ ٠

كانت الخطوة الاولى هى تحليل بناء عمليات الكلام ، والقيـــام ببحث علمى فى نماذج ضعف الكلام المتنوعة أو فقدان القدرة على النطق ٠ وقد أفضى هذا الى مراجعة أساسية للنظرة الكلينيكية التقليدية لفقدان القـــدرة على النطق ، والاستعاضة عن وصف اضطرابات الكلام فى حدود علامات خارجية (سمعية وحركية وفقدان القدرة على النطق المقترن بفقدان الذاكرة) بتحليل أعمق لفقـــدان القـــدرة على النطق طبقا لميكانيزماتها الفسيولوجية الباطنية و « العوامل » التى تتأسس عليها ٠ وقد وصفت نتائج هذا البحث فى كتاب لى بعنوان «فقدان القدرة على الكلام الناشىء عن الرضوض» وقد نشر بالروسـية سنة ١٩٤٧ ، وصـــدرت له طبعة انجليزية مراجعة مراجعة تامة سنة ١٩٧٠ ٠ وقد ناقشت أيضا هذه المسألة فى عدد من الابحـاث المنشورة الاخرى (فى السنوات ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ الخ) ، وبذلك أسهمت فى نمو فرع جديد من العلم هو «علم لغة الأعصاب» ، قدمت عنه وصفا موجزا فى أحدث ما نشر من مؤلفاتى (١٩٧٢) ٠

وبحث علم نفس الأعصاب فى ضعف عمليات الـــكلام الذى يعزى الى الأضرار المحلية فى المخ حقق نتائج عملية ملحوظة ٠ فهو لم يقف عند تمـكيننا من تشخيص بالغ الدقة لمكان الضرر فى المخ ، مؤسس على دراسة للقسمات الخـاصة لاضطرابات الكلام ، بل زودنا أيضا بأساس علمى لمسألة عملية لا تقل عن ذلك أهمية ، هى كيف نعيد القدرة على الكلام التى ضعفت نتيجة للأضرار المحلية فى المخ ٠ ولقد نشرت نتائج هذا الجانب من بحثى فى كتاب بعنوان « استعادة وظائف المخ بعد جروح الحرب » (موسكو ١٩٤٨ والطبعة الانجليزية ١٩٦٣) ، وقد زودتنا هذه النتائج بأساس نظرى لذلك القدر الملحوظ من العمل الذى نهضت به حديثا مع زملائى فى هذا الحقل ٠

وبحث علم نفس الاعصاب فى الكلام هو مع ذلك جانب واحد فقـط من العمل الذى ارتبطنا به ، زملائى وأنا ٠

والجانب الثانى لهذا العمل كان تحليلا نفسيا عصبيا لبناء النشاط الشعورى الارادى ألحق بالبحث الذى استمر سنين طويلة عن دور الفصوص الامامية للمخ فى تنظيم نشاط الانسان الفعال ٠

وقد نوهنا من قبل بالاهمية الحيوية فى الفلسفة وعلم النفس لمسألة ميكانيزمات النشاط الانسانى الفعال الارادى الكامن وللحقيقة القائلة بأن علم النفس السوفييتى

حاول حل هذه المسألة بتعقب تشكيل الوظيفة المنظمة للكلام عند الطفل . وكل هذا البحث قادنا الى دراسة الدور الذى تؤديه فصوص المخ البشرى فى هذه العملية .

وقد أظهرت الملاحظات الكلينيكية لوقت طويل أن الفصوص الامامية ، وهى أشد الاقسام حداثة فى المخ ، وهى فى البشر تمثل ثلث نصفى الـــكرة فى المخ ، ترتبط ارتباطا وثيقا بتنظيم نشاط الناس الارادى المخطط من حيث أن هذا النشاط تحدده بواعث شعورية مركبة . ومع أن الاضرار الـــكبرى فى الفصوص الامامية لا تضعف الحساسية والحركة وليس لها تأثير على الجوانب الصوتية والنحـــوية للكلام فانها تدخل الاضطراب على الوظيفة المنظمة للكلام التى تغدو كما رأينا ظـاهرة فى الطفل فيما بين سن الثالثة والثالثة والنصف .

وقد أخذت هذه الحقيقة كأساس لسلسلة من الملاحظات والتجارب التى شغلت فريقا كاملا من الباحثين بارشادى وارشـاد زميلى أ.د. هومسكاجا أكثر من عشرين عاما ، وقد ضمنت النتائج فى عدد من الابحاث المنشـورة التى تشـمل بحثين لى : «الوظائف اللحائية الأعلى فى الانسان» (النسخة الروسية سنة ١٩٦٢ و ١٩٦٩ ـ ونشر بالانجليزية سنة ١٩٦٦ وبالالمانية سنة ١٩٧٠ وبالفرنسية سنة ١٩٧٢) ، و «المخ البشرى والعمليـــات العقلية» (الجزء الاول صدر ١٩٦٣ ، وطبعته الانجليزية ١٩٦٦ ، الجزء الثانى سنة ١٩٧٠) . ومؤلف كبير نشر بالاشـــتراك مع هومسكاجا بعنوان « الفصوص الامامية وتنظيم العمليات العقلية » ســـنة ١٩٦٦ . وقد قدمت وصفا موجزا عن هذه المؤلفات فى محاضرتى فى المؤتمر الدولى التاسع عشر فى علم النفس فى لندن عن «أصل العمليات الشعورية وتنظيمها فى المخ» ، وقد نوهت بها من قبل .

وكانت السمة الرئيسية لهذا البـــحث اكتشـــاف أن الفصوص الامامية هى ميكانيزم جوهرى يؤكد أن الحالة العامة الفعالة للمخ التى تحدثها تعليمات لفظية يمكن تعديلها ، وأنه حين تعانى الفصوص الامامية من الاضرار لا يمكن للنشـــاط العقلى أن يستحث بهذه الطريقة بواسطة الكلام (انظر فى ذلك «المخ والتنشيط» لهومسكاجا ، موسكو ١٩٧٢) .

والنتيجة الثانية التى تساق منهذا البحث هى أن الاضرار الكبرى فىالفصوص الامامية للمخ تضعف بنسبة ملحوظة مستوى تنظيم النشـــاط الغرضى ، وتجعل من المستحيل على سلوك الفرد المتصل به أن يســـتجيب للبرامج التى تصـاغ بواسطة الكلام ، وتعين دور الفصوص الامامية كميكانيزم فى المخ مســـئول عن تنظيم سلوك الانسان الغرضى والفعال (المرهون بظروف المجتمع) أن هذا أحد الاكتشافات الهامة التى تهىء السبيل لحل احدى المشكلات الكبرى فى علم نفس السلوك البشرى .

والتحليل الأبعد مدى لدور الفصـــوص الامامية فى الاشـــكال المركبة للنشاط الذكائى ، وهو الموصوف فى كتاب نشر بالاشتراك مع زميلى ل.س. سفنكوفا بعنوان « تحليل علم نفس الاعصاب لعملية حل مشـــكلة » (الطبعة الروســـية فى ١٩٦٦

والفرنسية فى ١٩٦٧) ، والبحث الأكثر تفصـــيلا عن دور أجزاء معينة للفصوص الامامية فى بناء النشاط الشعورى ، همــا أمران أواصل العمل فيهما فى السنين الاخيرة ٠

ولقد خصصت ســنين عديدة للبــحث فى ميكانيزمات المخ الخــاصة بالكلام والنشاط الشعورى ٠ ومع ذلك فثمة مشكلة ملحوظة تبقى ، شرعنا ، زملائى وأنا ، فى فحصها فى السنوات الاخيرة ، وهى مشــكلة تحليــــل ميكانيزمات المخ الخاصة بالذاكرة والعمليات الشعورية المرتبطة بها ارتباطا وثيقا ٠

وقد اضطرنى فحص هذه المشكلة أن أتحول عن تحليــــل وظائف مناطق المخ الخــارجية (المحدبة) الى وظائف مناطقه الباطنية (الواقعة فى وسطه) التى ترتبط ارتباطا وثيقا بوظيفة الاجزاء العليا لجذع المخ (وسط المخ وروابطه) ٠ والملاحظات التى أجريت عددا من السنين أظهرت أن أجزاء المناطق الخارجية للمخ (المحدبة) قد تفضى الى اضعاف الاشكال العرفانية للنشاط والكلام ، وبناء النشاطات البشرية ، ولكنها لا تؤدى ألبتة الى اضطرابات تشمل الذاكرة كلها والتوجيه المكانى والشعور ٠ وأيا ما كان فاضطرابات من هذا القبيل يمكن بســهولة أن تنــجم عن أضرار فى المناطق البــاطنية للمخ (الوسيطة) أو عن منطقة الاطراف وارتبــاطاتها بالاجــزاء العليـــا لجذع المخ ٠

ويمكن أن تفهم هذه الحقائق فى ضوء البحث الحديث عن التكوين الدقيق للمخ الذى بين الدور النوعى للخـــلايا العصبية لقرن آمون hippocampus والنواة المذنبة Candate nucleus فى تمييز العلاقات الخاصة من آثار المنبهــات السابقة ، وفى نظرة البحث الفسيولوجى عن دور التشكيل الشبكى ، وقد حدت بى وبزملائى الى أن نبدأ سلسلة جديدة من الابحــــاث لخصت فى أحدث كتبى « اضطرابات الذاكرة فى معالجة كلينيكية لتمدد الأوعية الدموية فى الشريان الامامى الرابط» (١٩٧٠) ، وقـد كتب بالاشتراك مع كونوفالوف وبودجورنا ، و: «علم نفس أعصاب الذاكرة» (١٩٧٣)

وقد بينت نتائج هذا البحث أن نشاط الانسان العدوانى المرتد (فى الذاكرة) مرتبط ارتباطا وثيقا بمناطق المخ التى أشرنا اليها آنفا ، وأن ضررا فى هذه المناطق يسبب ضعفا عاما فى الذاكرة ، أكثر مما يسبب ضعفا جزئيا لملكة واحدة فيها عدوان مرتد (سمعية ، بصرية ، حركية)٠ وهى تبين أيضا أن الميكانيزم الفسيولوجى الرئيسى لأضرار من هذا القبيل هو *تزايد كبت الدوافع بواسطة المنبهات الدخيلة (تداخل)* ٠

هــــذا البحث التجــريبى الذى قـدته انا وعلمــاء زمـــلاء (كيجاستكو وآخرون) زودنا بمناهج جديدة لتحليل بناء اضـــطراب الذاكرة المرتبــط بظروف مرضية فى المخ ، ولتمييز الطرائق المتنوعة التى يعوق بها احتجاز المعلومات وتذكرها فى الحالات التى يضعف فيها التذكر الفعال للمـــاضى ضعفا خطيرا ، وعندما تؤدى الميكانيزمات الفسيولوجية المتنوعة دورا فى هــذا الضعف : الكبت المتزايد للدوافع

بتدخل المنبهات ، والقصور الذاتى المرضى بمجرد حدوثهـــا ، مع ما ينتج عن كبتها لتنشيط الدوافع السابقة ، وهلم دواليك ٠

ونحن ، زملائى وأنا ، نواصل هذا البحث ، الذى ينعقد عليه الامل فى أن يفتح آفاقا جديدة فى دراسة البناء السيكولوجى لميكانيزمات المخ الخاصة بالشعور ، وفى نمو فرع جديد للعلم ـ « علم لغة الاعصاب » ـ الذى أشرت اليه من قبل ؛ وجانب هام للغاية منه هو تحليل النماذج المتنوعة للاضطرابات التى تضعف احتجاز العناصر الخاصة للمعلومات الملفوظة ٠

والمشكلة الاخيرة هى موضوع كتابى «مشكلات أساسية فى علم لغة الاعصاب»، الذى أعده الآن للطبع ، وبحث جار لست أظن أن من المستحسن أن أشير اليه تفصيلا٠

والمشكلات التى أشرنا اليها هى ايذان بنهاية سلسلة من المشروعات التى تمثل اسهامى فى نمو « علم نفس الاعصاب » ٠

والابحاث المنشورة الكبرى التى تلخص نتائجى فى هذا الحقل قد نوه بها من قبل «الوظائف اللحائية الأعلى فى الانسان» (النسخة الانجليزية بعنوان «عمل المخ» الذى نشر من قريب ٠ وهذه المؤلفات هى من بين الاعمال التى أرست بثبات علم نفس الاعصاب فى النظرية وفى الناحية العملية للتعليم المعـــاصر لوظائف المخ البشرى ، وهى تمثل محاولة الجمع بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، ولتبيان الطبيعة الاجتماعية لوظائف المخ فى الانسان ، التى أعتبرها جانبا من أهم الجوانب فى هذا الفرع من العلم ٠

وهذا الوصف لتقدمى العلمى هنا قد يكون ناقصا لو فشلت فى أن أشير ، على الأقل بايجاز شديد ، الى أحدث جانب فى عملى ، وهو غير متصل اطلاقا بعلم نفس الاعصاب ، ولكنه يمكن أن يتطور الى مشروع بالغ الاهمية يقع تماما فى ميدان العلوم الاجتماعية ٠

وحتى قبل وفاة فيجوتسكيج واجه علم النفس مشكلة ، قلما يمكن المغالاة فى الاهمية الحيوية لها ٠ وكان من الضرورى القيـــام باعادة تقويم أســاسى للمعتقدات الأساسية لعلم النفس ، وأن نبين أن تصوراته الاساسية ليست قســـمات أساسية للعالم الطبيعى أو العقلى ، ولكنها تتغير بتطور المجتمع ، وهى اجتماعية تاريخية فى طابعها ٠٠

هذه المشكلة ، التى أثارها من قبل فيجوتسكيج جديرة بانتباه خاص ٠

لقد كان متقبلا تقبلا واضحا منذ قرون أن العمليات السيكولوجية الرئيسية ـ الادراك ، الذاكرة ، الترابط ، الاستنتاج ـ كانت مقــولات كلية ملازمة لنظام روحى أو طبيعى ، ولكنها فى كل حادثة مستقلة عن التاريخ الاجتماعى ٠

أهذا صحيح ؟ أليست المقولات العقلية الاساسية التى تطورت تطورا تاريخيا

هى عمليات بمثل الطريقة التى تكون بها كل العمليات الاخرى للتاريخ الاجتماعى ؟ أينبغى لنا أن لا نفترض طبقـا لمسلمة «ماركس» أن «هناك علما واحدا فقط هو علم التاريخ» ، ففى المراحل المتعاقبة لتطور مجتمع لا يتغير مضمون العمليـات العرفانية فقط بل شكلها أيضا ، وان منطق الفـكر الانســانى هو نتــاج التطور الاجتماعى والتاريخى ؟

وفى مستهل العقد الرابع ، حين أثيرت هـذه الاسئلة لأول مرة فى علم النفس السوفييتى ، لم يشاهد العلم غير محاولة واحدة لالقـاء الشـك على الطبيعة الكلية للمقولات المنطقية ، ونهض بهذا عالم الاجتـماع الفرنسى ليفى بريل الذى كان يميل الى الظن بأن الفكر يتطور لا من تجربة نوعية (على الخصوص تجربة عمل ابداعى) بل من علاقة سحرية (صوفية) بين الانسان والواقع .

وبالطبع ارتأى علماء النفس السوفييت فى تلك الحقبة أن هذه المحاولة غـير مقنعة شأنها شأن الاعتقاد فى كلية وثبات جميع المقولات العقلية .

وتبعا لهذا صممنا فيكوتسكيج وأنا ، عند استهلال العقد الرابع على أن نحاول أن نبرهن بالملاحظة العلية على أن التصورين كانا خاطئين ، وأن نقيم الدليل على الرأى القائل بأن المقولات المنطقية الحقيقية تعتمـد على أشـكال نوعيـة لنشـاط الانسان الاجتماعى ، وأن الأنماط الجذرية للفكر الانسانى تتبدل وفقا لتغيرات فى الأشـكال الجذرية لهذا النشاط .

وكانت الفترة التى قمنا فيها بملاحظاتنا السيكولوجية تناسب على الوجه الأمثل هذه المشكلة . فقد كان هنالك اعادة تنظيم قاعدية للأنظمة الاقتصادية الأساسية فى المناطق النائية للاتحاد السوفييتى ، منطوية على الانتقال من نسق الاستمرار فى الزراعة الى ممارسات اقتصادية أشـد تعقدا ، والى تجميع النشـاطات الاقتصـادية تدريجا . وفيما يختص بالثقافة شهدت هذه الفترة القضاء على الأمية ، وهو ما حقق ثورة ثقافية حقيقية .

كل هذا شجعنا لكى ننهض بتجربة فى علم النفس الاجتماعى تهدف الى دراسة التغيرات فى العمليات المنطقية الأساسية التى كانت تجرى ضد خلفية هذه التطورات الاجتماعية ، واكتشاف علاقة الأشكال الحقيقية للفـكر البشرى بالظروف التاريخية النوعيـــة .

مثل هذه المحاولة نهضنا بهـا ، زمـلائى وأنا ، سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣١ ـ منذ أربعين سنة خلت ـ فى سياق رحلة علمية خاصة الى المناطق النائية فى آسيا الوسطى، وبسبب ملابســـات خارجة عن ارادتى ـ ومتصلة بوجـه خاص بحقلى الرئيسى فى البحث وهو علم نفس الاعصاب ـ سيقت نتائج هـــذا البحث فقط بعد ذلك بأربعين عاما ، ولم تنشر المعطيات الاولى حتى سنة ١٩٧١ فى مجموعة مقالات بعنوان « التاريخ

وعلم النفس » وفى المجلة الدولية لعلم النفس والكتاب الرئيسى الذى يلخص هذه المعطيات «التشكيل التاريخى للعمليات العرفانية» يعد الآن فقط للنشر •

والعمل الذى نهضت به ونهض به معى عدد كبير من الزملاء يشمل أكثر من ثلاثين مشروع بحث تجريبى ، وهدفه الرئيسى أن يبين كيف تحدث العمليات العرفانية الاساسية فى كنف ظروف تاريخية متنوعة ، وفى مراحل متنوعة للتطور الاجتماعى والثقافى • وقد اتخذ من ثم شكل تحليل مقارن للسكان فى مناطق نائية يحيون نمطا من الحياة منعزلا ، وأفراد كانوا قد ارتبطوا من قبل بالزراعة الجماعية ولم يكونوا أميين تماما ، وأفراد لهم تجربة أوسع نسبيا بالحياة النشيطة للجماعة وقدر معين من التعليم • وكلهم ينتمون الى مجموعة سلالية واحدة ، ولكن مستوى حياة الجماعة والتعليم عندهم متنوع •

وقد بدأ هذا البحث بتحليل لعمليات التعميم البسيطة غاية البساطة (تصنيف الموضوعات وادراجها فى مقولة عامة واحدة) ، ثم القيام بفحص شامل للاستنباط المنطقى ولعمليات الاستدلال ، ودراسة بناء النشاط الادراكى وضروب الذاكرة ، واخيرا أجريت دراسة لقدرات الخيال والتحليل الذاتى الشعورى •

وقد مكن هذا من وصف ظواهر مشكوك فى قيمتها حتى فى ضوء البحث المقارن « دراسات فى ملتقى الثقافات » الذى نهض به الباحثون على نطاق واسع فيما بعد بفترة طويلة .

وكما ألمعنا الى ذلك من قبل من المسلم به عامة فى علم النفس أن عمليات تعميم أو تصنيف الموضوعات فى مقولات عامة بسيطة تعكس الخصائص الكلية للفكر المنطقى، وتطابق القوانين نفسها فى حلة كل راشد • وقد بدأ معقولا أن نفترض أنه اذا سئل راشد أن يختار فأسا من أربع صور تمثل منشارا ، وفأسا ، ومجرافا ، وزند خشب، فان ثلاثا منها تنتمى الى مقولة واحدة ، ويمكن أن يشار اليها بكلمة واحدة ، والثلاث الاولى يمكن تصنيفها « كآلات » ، والاخيرة «مادة» يمكن أن تعتبر كاستثناء •

وقد أجرى هذه العملية بسهولة أشخاص كانوا من أكثر المتطورين ثقافيا ، ولكن لم يستطع القيام بها جماعة من الافراد الذين عاشوا فى ظل أشد الظروف الاقتصادية تخلفا وظلوا أميين • فقد جمعوا معا «زند الخشب» والمنشار والفأس ، من حيث أن هذه كانت تستخدم فى حالة عملية واحدة (فالطويل يجب أن يقطع بالمنشار ويشق

بالفأس) ، وقد نحوا جانبا «المجراف» فالمجراف يستخدم فى غرض آخر فهو غير مطلوب هنا • اجراء عملى ـ الاتحاد مع حالة مشتركة ـ يحل محله اجراء نظرى : تصنيف تحت مقولة مجردة عامة .

ولهذه الظاهرة الجذرية أثر حاسم على كل العمليات العرفانية الاخرى • فهذه الجماعة من الاشخاص تجد صعوبة فى القيام باستنباط منطقى من مقدمة معطاة : فاذا كانت المقدمة مرتبطة بتجربتهم العملية ، فان الاستنباط يجرى دون صعوبة ، ومع ذلك ففى معظم الاحيان يجرى باعادة بناء الحالة البصرية منه بالاستدلال الاستطرادى ، واذا كانت المقدمة غير مرتبطة بتجربتهم العملية فانهم يرفضون القيام بأية استنباطات منطقية ويقولون : « لم ألتق بهذا ألبتة ، فلست مؤهلا أن أتحدث عنه ، اسأل أناسا على دراية به » ، وثمة عمليات استطرادية أشد تعقدا أمسكنا بها بهذه الطريقة ، ويزود هذا بدليل مقنع على الحقيقة القائلة بأن البناء الاساسى للفكر فى هؤلاء الافراد تحدده قوانين تجربة عملية نوعية لا قوانين تحكم عمليات منطقية مجردة •

وحين نعود الى دراسة الجماعة الثانية ـ أناس من الخلفية نفسها ولكنهم تعلموا أن يقرأوا ، وتابعوا دراسات قصيرة لمدة ستة أشهر ، وباشروا الحياة فى محيط جماعى ، حيث كل خطوة تخطط على أساس المناقشة المشتركة ـ تختلف الصورة اختلافا جذريا ، وجميع العمليات التى بدت لا معنى لها وبعيدة عن تناول الأفراد فى الجماعة الأولى يمكن الآن أن تجرى بدون أية صعوبة • ونتائج مماثلة توصلنا اليها من بحثنا على الادراك والخيال ، وهى النتائج التى كانت فى المراحل الأولى مرتبطة بتجربة عملية نوعية ، وتخطت فيما بعد حدود هذه التجربة ، ومن تحليلنا لتطور الدراسية الذاتية الفردية ، والقدرة على النقد الذاتى وهلم دواليك •

وبالرغم من صعوبة بسط نتائج هذا البحث فى شكل دقيق للغاية فانه يبرهن على نقطة أساسية : ان القوانين السيكولوجية التى تحكم العمليات العرفانية ليست كاية وليست ثابتة ، فليس مضمون النشاط العرفانى فقط ، بل اشكال هذا النشاط أيضا هى نتائج تطور اجتماعى تاريخى يفرض مساره أن تقع هذه الأشكال فى المراحل الأولى فى دائرة حدود تجربة عملية نوعية (وتمثل قوانين الفكر العملى) وتمضى بالتالى متخطية هذه الحدود وتتطور تطورا تدريجيا لتشكيل عمليات الفكر النظرى، الذى له قواعده الخاصة به ، والذى ينمو وفقا للقوانين الخاصة به .

وحتى عمليات تحقق الذات ، التى شكلت عند « ديكارت » أساس كل نشاط عقلى ، هى فى الواقع نتاج تطور اجتماعى تاريخى ، وينبغى اعتبارها لا كبداية ، بل بالأحرى كنهاية لعملية اجتماعية تاريخية مركبة ·

ويبدو لنا تحليل التشكيل التاريخى للمقولات السيكولوجية الأساسية من المبادىء الجذرية لعلم النفس ، والامل معقود على أن تكون اعادة تقويم علم النفس من هذه الزاوية ، وأن تكون اقامة علم نفس كعلم تاريخى سمة من السمات الرئيسية لهذا العلم ·

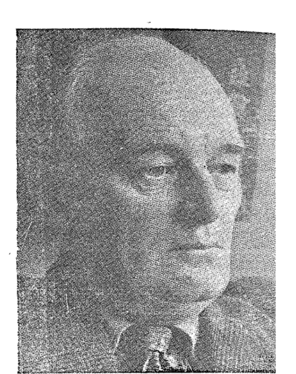
لقد زودت القارىء باستعراض موجز للطريق الطويل الذى قطعناه ، ويخامرنى الشعور بأنه سرعان ما سيتضح لكل امرىء يحاول القاء نظرة على الماضى أنه سيظفر بفهم أفضل لمنظورات المستقبل .

ولقد أثير العديد من الأسئلة الحيوية فى علم النفس على مدى خمسين سنة مضت ، ولقد أدركنا أن كثيرا من فروع علم النفس تنادى باعادة تنظيم جذرى لها · بيد أننا لكى ندرك هذا · ينبغى لنا أن نفهم كيف أن قدرا ضئيلا غاية الضآلة قد أنجز ، وأن نعى مدى اتساع المناطق المجهولة التى تترامى أمامنا ·

ت . هـ . مارشال

ترجمة ذاتية لعالم اجتماع بريطانى

ولدت فى لندن فى التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٨٩٣ ، وكنت الطفل الرابع • والابن الثانى لمهندس معمارى ناجح • ولحقت بى أختان أصغر منى ، فرفعتا المجموع الاجمالى الى ستة ، وهو عدد كاف لتأليف وحدة اجتماعية مكتفية بذاتها أشد الاكتفاء • وكان بيتنا ـ على ما أظن ـ نموذجا لمنازل الطبقات المهنية الرفيعة فى تلك الآونة ، يتمتع بالثقافة الفكرية والفنية ، ويرتع فى بحبوحة من العيش • ومع أننا كنا نعيش ـ رسميا ـ فى لندن فأننا كنا نقضى عطلاتنا جميعا فى الريف ، سواء فى منزلنا فى « هيندهد » أو على شاطىء البحر فى منطقة البحيرات أثناء الصيف ، وكنا فى الريف نشعر بأننا من أهله حقا • أما « هيندهد » فكان يسكنها مثقفو الطبقة الوسطى الذين يشبهون أولئك الذين يحيطون بنا فى بلومسبرى فى تلك الأيام ، على حين كان لنا أقارب عديدون من أسرة مارشال فى منطقة البحيرات ، ينحدرون من صلب جدى الأكبر الذى استقر به المقام هناك منذ سنة ١٨١٥ ، أضف الى ذلك التعليم التقليدى الذى تلقيته ، وكان أول الأمر فى مدرسة اعدادية منتقاة ، ثم فى « مدرسة ثانوية » بمدينة « رجبى » وهى مدرسة بورجوازية صميمة ، وان لم يغلب عليها طابع محدثى النعمة ، ومن اليسير أن يفهم القارىء كم كانت نظرتى المبكرة للمجتمع محدودة ، لا اجتماعية ، ساذجة الى أقصى حد • فلم أكن



ترجمة : فـؤاد كـامل

له مؤلفات وترجمات عديدة فى مجالى الفلسفة والأدب ، من أهمها : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، المذاهب الوجودية ، الله فى الفلسفة الحديثة ، آندريه مالرو شاعر الغربة والنضال • حائز على جائزة الدولة فى الترجمة عام ١٩٦٩/١٩٧٠ مدير البرنامج الثانى (الثقافى) باذاعة جمهورية مصر العربية •

أعلم شيئا عن حياة الطبقة العاملة ، وكانت منطقة الشمال الصناعية العظيمة لا تزيد فى تصورى عن أرض كابوسية من الدخان و « الهباب » ، على المرء أن يقطعها حين يريد الذهاب من لندن الى منطقة البحيرات • ولم تتأثر مشاعرى عن هذا الموضوع بحقيقة أنى كنت أتمتع بنصيب ــ وان يكن متواضعا فى ذلك الحين ــ من الثروة التى جمعها جدى الأكبر من الصناعة منذ مئة عام مضت • ومازلت أذكر كيف التقيت لأول مرة ، حين التحقت بجامعة كمبردج ، لقاء الند للند ، بشبان ينتمون الى الطبقة العاملة •

وفى كمبردج قرأت التاريخ ، الذى كان يلقن حينذاك تلقينا فى غاية السوء ، عدا استثناءات قليلة • ولم تكن التجربة ــ فى جملتها ــ جذابة أو مثيرة • ومع ذلك فقد أخذت نظرتى بأكملها الى الحياة تتغير تغيرا سريعا ، وكان هذا راجعا فى المقام الأول الى تأثير صديقى الحميم وايات روسون ، وهو مفكر متحرر فى مجال الفلسفة ، ومن دعاة الاصلاح فى التعليم • وكنت فى المدرسة على حظ كبير من الحياء ، والاجتهاد الدءوب ، فما أن انقضى على عام واحد فى كمبردج حتى تخليت (الى حد كبير) عن حيائى ، و (تماما) عن ايمانى الدينى • ومع أن التاريخ كان يدرس بعامة فى كمبردج تدريسا سيئا فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، كما أشرت الى ذلك

آنفـــا ، فأننى التقيت باثنين من الأساتذة . لم يعلمانى الكثير فحســـب ، بل تركا طابعهما على شخصيتى اللاحقـــة أيضا • وكأن أحدهما وهو جون كلافام ، يحاضر فى تاريخ انجلترا الاقتصادى ، الذى سيصبح موضوع تخصصى بعد التخرج • وكان على خلاف كثير من الأساتذة فى ذلك العهـــد ومطلعا على مؤلفـــات الباحثين الأجانب المعاصرين ، ومتصلا « بالحياة الواقعيـــة » خارج أسوار الجامعة (وكان يقول : قبل أن تكتب تاريخ الصـــناعة ، ينبغى عليك على الأقل أن تشم رائحة مصانع النسيج) ؛ وأنا مدين له بالكثير • أما الآخر فكان من مدينة بوسطن ، وهو جيار لابسلى ، وكان يقوم بتدريس تاريخ العصر الوسيط على نحو أغرانى بدراســـة النظم أو التراكيب الاجتماعية كما كان يبحثها علماء من أمثال سيبوم وفينوجرادوف وميتلاند • وبارشاده دخلت ميدان علم الاجتماع، وان لم أكن على وعى بذلك حينذاك• وكان لابسلى هو الذى اقترح ــ بعد ذلك بعدة سنوات ، أن أتقدم فى سابقة لزمالة كلية ترينيتى وهـــذه المسابقة هى التى فتحت الباب « لشخصيتى الأكاديميـــة » وكانا كلافام هو الذى أشار على بموضوع البحث • بيد أننى قضيت ــ خلال تلك الفترة ــ أربعة أعوام أسـيرا مدنيا فى معسكر ألمانى فى روليبن بالقرب من برلين • وكانت هذه بلا جدال أقـوى تجربة عملت على تكوينى فى سنواتى المبكرة •

ولو كنت باحثا فى الاجتماع آنذاك لأتاحت لى هذه التجربة فرصة لا تعوض ــ عن طريق الملاحظة المباشرة ، وبأى منهج ميدانى آخر لا يتطلب حاسبا ألكترونيا ــ أن أدرس نشأة مجتمع منظم يشيد من مجموعة عشـــوآئية من الأفراد (كلهم من الذكور) ألقت بهم المصادفة معا فى مكان محصور (ميدان للسباق وحظائره) ، وأن أتتبع حظوظهم اللاحقة • وقد صادف ذلك أن معظم خطاباتى التى بعثت بهـــا من المعسكر الى الوطن قد حفظت ، وأستطيع أن ألمح فيها دليـــلا على حب اســـتطلاع اجتماعى ، أخذ ينمو شيئا فشيئا ، لمعرفة ما كان يجرى فى نفسى ، ويجرى من حولى• وقد عبرت عن حب الاستطلاع المزدوج هذا فى خطابات كتبتها مبكرا فى ســـنة ١٩١٥ •

« أنا واثق من أن هذا يفيدنى كثيرا ، ويعلمنى ما هو جوهرى وما ليس جوهريا• وسأكون قد تغيرت تماما حينما نلتقى مرة ثانية (١٧ مارس) » •

« لا أستطيع أن أحدد أهذا المعسكر طبيعى الى أقصى حد ، أو هو أغرب مؤسسة يمكن تخيلها ، فهو طبيعى فى تطوره ، وهو غريب فى انفصـــاله التام عن البيئة (١٣ مايو) » •

وكان زميلى الكندى فى السجن ، وهو العالم النفسانى « ديفيدسون كيتشوم » الذى كرس بقية حياته لدراسة مفصلة عن مجتمع المعسكر (١)* ، قد أخذ يســـجل

(*) الأرقام الموضوعة بين قوسين تشير الى الملاحظات الملحقة بهذه المقالة .

(١) ج • ديفيدسون كيتشوم ، روليبن : مجتمع معسكر اعتقال ، مطبعة جامعة تورنتو ، ١٩٦٥ •

بعناية عمليات التطور عن بنية مجتمع الفطرة الى بنية المجتمع المنظم ، مثلما صنف المعتقلون أنفسهم الى « جماعات هادفة تسمى اتحادات » ، على حين « يضطلع » التنظيم الشكلى بالنشاطات التلقائية • وكنت أنا نفسى أتلمس تعليلا مماثلا ، أو على الأقل أصطنع تناولا مماثلا للموضوع • وكانت دهشتى مبكرة فى أبريل سنة ١٩١٥ حين تبينت « السرعة التى يطور بها المرء ارتباطاته والتزمته التى يتقيد بها ، وكأنما فرضت عليه بواسطة نظام صارم » ، كما راقبت وسجلت تكاثر المجتمعات الذى يؤدى فى نهاية الأمر الى نوع من التضخم فى المؤسسات • وما أن حل يناير سنة ١٩١٧ حتى حدا بى الشوق الى العودة الى طريقة فى الحياة يستطيع بها المرء أن يمارس قدرا ضئيلا من القراءة الخاصة دون أن يقسم بالولاء لمجتمع بغيض الى حد ما ، وبالتالى يسىء الى أعضاء مجتمع آخر ، وقد يبدو هذا كله تافها غاية التفاهة ، بيد أنه النوع الوحيد من الشواهد التى يمكن أن أسوقها تأييدا لاعتقادى أن موقفى من العالم المحيط بى قد تأثر تأثرا عميقا بالمعاناة التى كابدتها حين اجتزت هذه التجربة الاجتماعية للحياة الواقعية •

ولا يقل عن هذا أهمية دخولى فى مجتمع لا وجود فيه لحواجز اجتماعية مقررة، ولا وجود فيه أصلا لأية خلوة شخصية • ولكنه لم يكن مجتمعا بلا طبقات ، وان يكن يخلو من العلامات المميزة الرئيسية للطبقة ، وأعنى بها : المهنة والملكية ، والفروق الشاسعة فى الدخل • ذلك أننا حملنا الثقافات المتميزة التى غرستها فينا — قبل الاعتقال — تلك الظروف ، مجتمعة مع أصلنا العائلى وتربيتنا • وهذه أثرت تأثيرا عميقا فى طبيعة المجتمعات المتباينة وتركيبها ، وان لم تسيطر عليها سيطرة تامة • ومن الأفضل تحديد القوة المؤثرة بأنها « وعى النوع » ، لا « وعى الطبقة » ، وخاصة أن الطبقة العاملة كانت غائبة تماما ، بغض النظر عن البحارة التجاريين الذين كانوا يمثلون ثقافة فرعية أكثر من أن يمثلوا طبقة • وكان روبلين يدافع عن العالم المنعزل للصفوة البورجوازية المثقفة التى نشأت بين ظهرانيها ، بيد أن الآثار الكاملة المترتبة على هذا لم تتحقق حتى تورطت فى مغامرة أخرى بعد عودتى الى انجلترا •

وما أن عدت الى الوطن ، واستعدت صحتى وقوتى استعادة كافية ، حتى أخذت بنصيحة لابسلى ، فأعددت تحت اشراف كلافام بحثا تقدمت به لزمالة «كلية ترينيتى» بكمبردج • وظفرت بهذه الزمالة فى أكتوبر سنة ١٩١٩ ، وهكذا دخلت العالم الأكاديمى مؤرخا محترفا • بيد أننى لم أنسحب عند ذلك الى عالم موصد أو الى برج عاجى ، قبلت دعوة لأكون مرشحا لحزب العمال فى دائرة برلمانية شديدة المحافظة فى سارى Surrey • ومع أن المبادأة المحلية كانت تأتى فى معظمها من الطبقات الوسطى والعليا (كانت مموِلتى ابنة دوق) فأن حملتى للانتخابات العامة فى ١٩٢٢ دفعتنى الى التعاون الوثيق مع العمال فى المنطقة ، وفتحت عينى على حقائق التحيز الطبقى • ووجدت أن العمال لم يكونوا على استعداد لأن يعرف عنهم أنهم يؤيدون حزب العمال خوفا من أن يفقدوا أعمالهم • وصنعت حملتى الكثير لمعالجة هذا الأمر ، بيد أنه لم تكن ثمة فرصة بالطبع للفوز بالمقعد • ويكفى أننى فزت بأكثر من

خمسة آلاف صوت . ولعلها كانت بداية طيبة لو أننى أردت أن أسـلك طريق السياسة ، ورغم أن اهتمامى بالسياسة كان عظيما فأننى قررت أن الحملات الانتخابية لا تناسب طبعى ، وهكذا وقع اختيارى على السلك الأكاديمى .

واستمرت زمالتى فى كلية ترينيتى ستة أعوام ، أعددت فيها رسالتى للنشر (وكانت عن الطوائف المهنية فى القرن السابع عشر) ، وراجعت مرجعا شـعبيا عن تاريخ الاقتصاد الانجليزى وتوسعت فيه ، وكتبت ترجمة قصيرة لحياة « جميس وات » وفى هذا الوقت تأكدلى أنه لابد من الرحيل عن كمبردج ، على الأقل لفترة وجيزة ، وتقدمت لأول وظيفة شاهدت اعلاناعنها ، وهى وظيفة مشرف على طلبة « العمـل الاجتماعى » بمدرسة لندن للاقتصاد . ولم أكن أعرف شيئا عن العمل الاجتماعى ، غير أن بيفردج ناظر المدرسة رأى أننى قد أكون مفيدا من بعض الوجوه ، فالحقنى بتلك الوظيفة . وكان مافعلته فى الواقع - الى جانب تدريسى للباحثين الاجتماعيين الطموحين كيف يكتبون مقالات عن المسائل الاجتماعية العامة (فى عامى الأول فحسب) هو القاء محاضرات عن تاريخ انجلترا الاقتصادى والدستور ، واستمر القائى لهذه المحاضرات حتى توفى هو بهاوس سنة ١٩٢٩ ، فاقترح جنسبرج الذى خلفه كأستاذ لعلم الاجتماع أن أنضم الى قسمه ، وأن أقوم بتدريس المادة المعروفة باسم « المؤسسات الاجتماعية المقارنة » . وعلى هذا النحو أصبحت عالما فى الاجتماع .

والغريب حقا أن ذكرياتى عن هذا الحدث الحاسم فى حياتى الأكاديمية غامضة بصورة تبعث على الدهشة . فلا أستطيع أن أتذكر الآن الى أى مدى كانت علاقاتى وثيقة بجنسبرج ، أو مدى ما أعرفه عن العمل فى قسمه حين وجه الى دعوته . ومن المؤكد أننى كنت جاهلا كل الجهل بعلم الاجتماع بمعنى الاحتراف . ولكننى تمنيت فى نفسى - كما شرحت ذلك من قبـل (وبالأخص فى روليبن) - نوعا من حب الاستطلاع السوسيولوجى ، واكتسبت من دراساتى التاريخية بعض المهـارات فى تحليل النظم الاجتماعية وفى تفسير التغير الاجتماعى . وأعتقد أن جنسبرج قد أقنعنى بأن تدريس الموضوع الذى عهد به الى لا يحتاج منى الا الى توسـيع استخدام حب العمل ، واخذت أقرأ - ماوسعتنى الطاقة - كل ما يتصل بهذا الموضوع . بيد أننى لم أقدم فى ذلك على الحين على محاولة منهجية منتظمة للسيطرة على كلاسيات النظرية السوسيولوجية وكانت هذه غلطة ندمت عليها دائما وأبدا . وتوصلت فى المقام الثانى الى هذه النتيجة ، وهى أنه لم يكن فى طبيعتى أن أنفق حياتى العاملة كادحا فى تقليب الوثائق الأصـلية الى الحـد الذى يتطلبه البحث التاريخى الدقيق . وأدركت أن الدراسات المقارنة المتوسعة ، وفق تقليد هو بهاوس ، ينبغى أن تبنى على مصـادر ثانوية . وكانت تجتذبنى فكرة أننى أسـتطيع أن أترك المهمة الأساسية فى جمع الحقائق للآخرين ، وأن أركز اهتمامى على : التفسير ، والتقدير ، ووضع الفروض ، واستخلاص النتائج المؤقته . كانت هذه الفكرة تجتذب عقلى النشيط اجتذابا شديدا . وما كان لأحد أن يختار سبيلا أشد خطرا لسلوكه ، بيد أننى تمنيت أن تمكننى دربتى التاريخية من التمييز بين المصادر الثانوية الجيدة والرديئة ، ومن استخدام المادة

التى جمعتهـــا استخداما صارما مشروعا • وربمـــا كان ميكائيل أوكشـــوت Michael Oakeshot مصيبا حين قال فى عرضه لمقالتى عن «المواطنة والطبقةالاجتماعية Citizenship and Social Class انها تنتهى الى مقولة « التاريخ العقلانى » .

وكان اهتماماى الرئيسيان منذ أن أصبحت عالما رسميا من علماء الاجتماع هما : التدرج الاجتماعى ، والسياسة الاجتماعية (بمعنى الخدمات الاجتماعية والرفاهية الاجتماعية) • وكثير مما كتبته عن الموضوع الأخير يعدها مشبيا من حيث انتماؤه الى علم الاجتماع . وفتحت لى المصـــادفة ميدانا ثالثا لاهتمـــامى هى النزعة المهنيـة professionalism معالجة بوصفها فرعا من علم الاجتماع المهنى• وكان كارل مانهايمقد اخذ على عاتقه فى الصيف السابق على نشوب الحرب الأهلية القاء سلسلة من المحاضرات عن المهن فى «مدرسة الصيف الدولية» بسانتاندر فى أسبانيا ، ولكنه وجد من المحال أن يفى بهذا الالتزام ، وطلب منى أن أحل محله ، ففعلت • وألفيت الموضوع والتجربة على قدر كبير من الاغراء ، على الرغم من الجهد الذى بذلته فى المحاضرة باللغة الفرنسية• واطلعت اطلاعا واسعا على الموضوع ، ودونت ملاحظات لا حصر لها ، فقدت كلها لسوء الحظ خلال الحرب العالمية الثانية ، ولكننى استطعت استخدام هذه المحاضرات أساسا لبحث تقدمت به للاجتماع السنوى لرابطة العلوم السياسية الكندية • ونشر هذا البحث فى سنة ١٩٣٩ ، وهو العام الذى نشر فيه تالكوت بارسونز ما اعتقد أنه بحثه الأول عن هذا الموضوع (٢) •

وبقيت فى هيئة التدريس « بمدرسة لندن للاقتصاد » بوصفى عالما اجتماعيا حتى عام ١٩٥٦ ، ولكننى كنت أيضا فى السنوات الخمس من ١٩٤٤ الى ١٩٤٩ رئيســـا للقسم الذى التحقت منه أساسا بالمدرسة ، أعنى القسم المخصص فى المقام الأول لتدريب الباحثين الاجتماعيين • ومن هذا ينبع اهتمامى المتصل بالسياسة الاجتماعية• وكان فى ذلك الحين قسما متواضعا من وجهة النظر الأكاديمية ، بيد أنه تطور تحت اشراف خلفى رتشار تيتموس الى مدرسة ممتازة لتخريج أفواج من الباحثين • وأوحى الموضوع منذ ذلك الحين بأبحاث فى غاية الدقة ، وبكمية كبيرة من المؤلفات المتعمقة • وهو فى الحق منطقة كبرى لتطبيق العلوم الاجتماعية ، لا فى مجال علم الاجتمـــاع فحسب ، بل فى الاقتصاد والعلم السياسى وعلم النفس على سواء •

وكان من المحتم أن تعوقنى الواجبات الادارية الثقيلة المرتبطة برياسة هذا القسم عن عملى السوسيولوجى، سواء فى التدريس أو فى البحث. ولكنه انقطع بصورة أكثر حسما بواسطة الحرب ، وبخدمتى مدة ثمانية عشر شهرا مع لجنة الرقابة فى ألمانيا ، عقب ذلك بقليل • وعندما نشبت الحرب أدرج اسمى فى منظمة يرأسها آرنولدتوينبى، وكانت وظيفتها الأساسية هى مراقبة الصحافة الأجنبية لصالح وزارة الخـــارجية البريطانية ، وتطورت فيما بعد لتصبح « قسم الأبحاث بوزارة الخارجية البريطانية »،

---

(٢) تالكوت بارسونز ، « المهن والبناء الاجتماعى » ، القوى الاجتماعية ، المجلد ١٢ رقم ٤ ، ١٩٣٩ •

وكانت المنطقة المخصصة لى فى معظم الوقت هى ألمانيـــا • وبالاضافة الى تقاريرنا الصحفية المعتادة كنا نستخدم ما نحصل عليه من مواد لاستعراض الموقف فى البلاد التى نكلف بدراستها ، وكنا نكتب مذكرات عن الموضوعات الســياسية حين تطلب منا وزارة الخارجية ذلك • ومن الأســئلة التى وجهت الى أكثر من مرة : أينبغى « تقطيع أوصال » ألمانيا المنهزمة ؟ واذا لم يكن من ذلك بد فالى أى وحدات يتم هـذا التقطيع ؟ وكنت أنا ضد هذا الرأى • ويمكن أن أضيف أننى كتبت أول ورقة للمناقشة حول معاملة ألمانيا المنهزمة فى الوقت الذى سقطت فيه فرنسا •

هل أعاننى علم الاجتماع ؟ أنا على يقين من أن ذلك حدث ، ولكن بطريقة قـد لا تكون محترمة تمام الاحترام من الناحية العلمية • فقد ساعدنى على استخلاص نتائج من شواهد تبدو فى الظاهر غير متكافئة وغير موثوق بها • ولكنها كانت كل ما نملك• ومن ثم بذلنا أقصى جهدنا لنفهم ولنجد الدلالة فى الأحداث والآراء المنشــورة فى الصحف الألمانية والمحايدة ، مذيلة بمصادر أخرى قليلة ، وباليســير من المعلومات السرية • وكانت العملية أشبه بما يتبع فى كثير من الدراسات السوسيولوجية التى لا تستطيع فيها المعطيات الكمية أن تؤدى الا دورا ضئيلا ، وبخاصة فى علم الاجتماع الأكبر وفى الدراسات المقارنة للمؤسسات منظورا اليها فى جملتها • وهذه العمليه تقع فى أســاس علم الاجتماع العقــلى Verstehende عند ماكس فيبر ، الذى أعتقد أنه عنصر ضرورى لعلم الاجتماع فى الحاضر والمســتقبل ، على الرغم من الغــء تيودور ابيـــل Theodore Abel اللبق له • كانت العملية شبيهة بذلك ، لكن الظروف كانت مختلفة تمام الاختلاف • وكان علينا أن نبذل أقصى ما فى وســعنا ، فوجدت أن تدريبى السوسيولوجى قدشحذ من ادراكى الحسى ، وأسرع من احساسى بدلالة مواد المعلومات ، وكلما زاد فهم المرء للعمليات الأساسية فى الحياة الاجتماعية أصبح أكثر تمكنا فى التمييز بين التفسيرات الممكنة والمحتملة وغير المحتملة والمستحيلة للأحداث موضع الملاحظة • وهكذا تقدمنا فى جرأة بافتراضاتنا ، ولكننا لم نكن نستطيع التحقق منها الا قليلا •

وعلى هذا كنت سعيدا أن أتيحت لى الفرصة بعد الحرب لأن أرى بنفسى المجتمع الذى حاولت فهمه ، وأن أتبين هل التنبؤات التى توقعناها عن طبيعته فيما بعـــد الحرب (وهذه وظيفة هامة للقسم الذى أعمل به) قريبة من الصدق على أى نحو كان هذا القرب • وقمت بجولة قصيرة طفت فيها ببعض جامعات ألمانيا الغربية فى شــتاء ١٩٤٨/١٩٤٧ ، وذلك لحساب رابطة مدرسى الجامعة ، وقضيت الشهور التى بدأت بصيف عام ١٩٤٩ حتى نهاية ١٩٥٠ مستشارا تربويا للمندوب السامى البريطانى فى ألمانيا • وكان هذا المنصب اداريا ، مسئولا عن البرنامج الذى كنا نساعد به التربية الألمانية فى النهوض من وهذه الضرر المادى الذى ألحقته بهـــا الحرب ، ومن العزلة الذهنية ، ومن التحزب السياسى الذى عانته خلال الحكم النازى • وكنت أســتطيع هنا ـ كما كان الحال فى روليبن ، ولكن على نطاق أوسع كثيرا ـ أن ألاحظ (فى ايجاز شديد) تطور مجتمع جديد على الطبيعة • ولا يسعفنى الحيز هنا للكلام بالتفصيل

عن هذه التجربة المثيرة ، وسأقصر حديثى على مثل واحد ، فقد كنا مهتمين اهتماما عظيما – فى وزارة الخارجية وفى فرع التربية التابع للجنة – باكتشاف العمق الذى تغلغلت به الثورة النازية فى عقول الشعب الألمانى وطريقته فى الحياة ٠ وكنـــا قد عرفنا بالطبع شيئا عن ضعف النظام النازى الثورى ، وكانت احدى مهامنا فى قسم الأبحاث التابع لوزارة الخارجية أن نحـكم فى أى النقاط زاد هـــذا الضعف بتأثير الحرب ، وهل ثمة نقاط جديدة أخرى آخذة فى النمو ٠ وكنا نفتش عن الموضـوعات الدالة فى مادتنا الهزيلة ٠ فلاحظنا الاضـــطرابات التى طرأت على الرتب العليا فى الادارة التى يمكن توقعها عندما تعبر القوة من خلال العلاقات الشخصية بزعيم متأله ٠ وتعقبنا نمو الاحتكاك بين الجيش والحزب ، بين المحترفين والهواة ٠ وكنا نستطيع أن نقرأ عن التصادم بين هتلر وقضاته ، وأن نرى كيف أن على المحامين الليبراليين أن يعترفوا بأن التمسك بحرفية القانون هو الدفاع الوحيد ضـــد أحكام الديكتاتور المتعسفة ٠ وربما كان أشد ما رأيناه دلالة هو اتساع الهوة بين الأجيال ، وقد كان هذا شيئا تقليديا فى ألمانيا زهاء نصف قرن ٠ فلم يعد الرؤساء النازيون بالنســبة للشبان هم أولئك المجددين المتألقين) ، بل الحرص القديم على المؤسسة المحـافظة ، كما أخذت دعايتهم تفقد القدرة على الاقناع ٠ وكان هتلر – فى أعوام حكمه الأولى – يشجع الأطفال على الوشاية بآبائهم ، أما فى أثناء الحرب فقد حرص جورنج على تذكير الآباء علانية بواجبهم فى السيطرة على أبنائهم ٠ ومن ثم كنا نستطيع التنبؤ بأن ألمانيا المنهزمة لن تكون ألمانيا نازية ، بل مجرد فراغ ، شعب بلا ماض مباشر ٠ ولملء هذا الفراغ كان عليهم أن يقيموا على ما تبقى أو ما يمكن استرداده من ماضيهم الأبعد ، على الجانب البعيد من الفجوة النازية ، وعلى الماضى المباشر ووجهة النظر الحـــاضرة للدول الأخرى ٠ وهنا كنا نستطيع – نحن لجنة الرقابة – أن نمد لهم يد المساعدة ٠

وقبل أن أختم ببعض الخواطر عن علم الاجتماع – عن معناه بالنسبة لى ، وعما أشعر به نحو حالته الراهنة وامكانياته المستقبلة – سأقول كلمات قلائل عن مغامرتى الخامسة الهامة خارج النطاق الأكاديمى ، أعنى عن سنواتى الأربع التى قضيتها مع اليونسكو فى باريس من ١٩٥٦ الى ١٩٦٠ ٠ ومن العبث طبعا أن أشغل حيزا فى هذا السيرة الذاتية بتخطيط اجمالى مصـــغر عن اليونسكو وأعمـــاله ٠ وفى نظرى ان التجربتين اللتين أجدهما أشد ما تكونان ثراء هما : أن أعيش وأعمل فى مجتمع متعدد القوميات ، تزول فيه الفروق العرقية (أو العنصرية) ، وأن أقوم بالسفر مرارا وتكرارا خارج أوربا ، وهما تجربتان مازالت آثارهما تضفى لمسة من الواقعية على تأملى لشؤون العالم ٠ وعندما انضممت الى هيئة العاملين باليونسكو مديرا لقسم العلوم الاجتماعية كنت فى سن الثانية والستين ، أى أننى كنت قد بلغت من الكبر ما يجعلنى قليل الانزعاج بالاحباطات ، والانفاق المسرف ، بل أحيانا ببعض التفـاهات التى تتعرض لها حتما منظمة عالمية ذات تكوين ديموقراطى ٠ ذلك أنها تزاول عملها بوصفها خدمة، لا بوصفها عملا مدرا للربح ، ولهذا ينبغى أن تسلك خطوطا « غير مربحة » وأن تحاول اعطاء جميع الدول الأعضاء نصيبا عادلا فى تصميم برنامجها وتنفيذه ٠ واليونسكو تقف خاصة فى وضع حرج نظرا لما تتسم به وظيفتها – بوجه عام – من عدم اليقين ٠

وعندما أنشئت كان تركيز الاهتمام عند انشائها على الفهم المتبادل وعلى السلام ، وكان من الأفضل أن تسمى – في أيامي تلك – بالمنظمة العالمية للتربية والبحث ، ولـكن كانت هناك علامات تشير الى أن الاتجاه يتحول نحو تقديم المعونة للدول النامية • وأن أعلم استمرارها في التحول في ذلك الاتجاه بعد أن تركتها •

أما عن القسم الذى أشرفت عليه فكان هناك اتجاه داخل اليونسكو وخارجها الى التفكير في أن « العلوم الاجتماعية » تعنى « علم الاجتماع » ، بحيث يشمل فروع العلوم المجاورة التى تحمل صفة « جتماعية » ، كعلم النفس الاجتماعي و « علم الانسان الاجتماعي » (الانثروبولوجيا الاجتماعية) • وفات على الكثيرين بوجه خاص أن العلوم الاجتماعية تشمل الاقتصاد ، على الأقل بالنسبة لليونسكو • وهذا راجع بلا شـك في شطر منه الى أن المدير كان دائما من علماء الاجتماع • ولكنه يرجع أيضا الى أنه في القسم الهام من البرنامج المعنى بتطبيق العلوم على المشكلات العملية كانت الشؤون الاقتصادية هي مجال اختصاص القسم الاقتصادى من سكرتارية الأمم المتحدة • وهذا يفسر ما قيل لى صراحة في احدى المناسبات من أن علم الاقتصاد لا يستطيع أن يسهم بشيء في التنمية الاقتصادية ، وهذا معناه ببساطة « قف بعيدا من فضلك » • وهكذا كانت المشكلات التى تركت لنا هى بصفة رئيسية تلك المشكلات التى يمكن أن يجد لها أى علم من العلوم الاجتماعية – وهو بالتأكيد علم الاجتماع – أى حل سريع أو دقيق لها • والمنظمة الدولية تعمل بأقصى ما يمكن من النجاح في القضايا التى تمس المصالح المشتركة للدول المساهمة ، لا في مجرد القضايا المتماثلة • والدراسات الاجتماعية المقارنة التى تمس عديدا من القوميات تتصدى عادة للمشكلات المتماثلة لا المشكلات المشتركة • وهذا القول يصدق على تحضير الريف ، الذى بدأ فيه القسم بداية طيبة بدراساته الأفريقية ، ثم أخذت هذه البداية تتعثر فيما بعد • ومن ناحية أخرى تكمن المصلحة المشتركة وراء كل ما بذل من جهد لتقدم العلوم ، سواء في التدريس أو البحث • وهنا يتحرك المرء على المستوى « الشمولى » بالمعنى الذى يقصده تالكوت بارسنز • ذلك أن مطبوعات القسم العديدة وقوائم كتبه والتقارير الخاصة بالاتجاه الخ ، ومؤتمراته ، وحلقاته الدراسية عن النظريات والمناهج ، ورعايته للاتحادات الدولية ، كل هذه كانت ذات قيمة أعظم وأبقى من محاولاته في اجراء البحوث ، أو حتى في تشجيعها ، حول المشكلات العالمية •

وقد شعرت بالأسف حين تركت اليونسكو عام ١٩٦٠ ، بعد أن امتد عقدى الأصلى عاما آخر ، فقد استمتعت استمتاعا عظيما بتلك السنوات الأربع التى خدمت فيها تحت اشراف ثلاثة من مديرى العموم المختلفين أشد الاختلاف • وعقدت عزمى على الانسحاب الى موطنى الأكاديمى الأصلى ، وهو كمبردج ، وهناك ساعدت خلال العامين الأولين من اقامتى على تدعيم تدريس علم الاجتماع بوصفى محاضرا بعض الوقت في كلية الاقتصاد وقمت منذ ذلك الحين برحلة أو رحلتين الى الخارج ، احداهما لا تزيد على فترة قصيرة مع معهد اليونسكو في دلهى ، والثانية مدتها شهران كأستاذ زائر بجامعة تورونتو ، وقطعت شوطا في كتابى الصغير « السياسة الاجتماعية » ، كما

طالعت مطالعة منتقاة بعض المؤلفات الاجتماعية التى أخذ حجمها ينمو ويعظم بسرعة ٠ فاذا حاولت ــ فى ختام مقالى ــ أن أقدم انطباعاتى عن الحالة الراهنة والمستقبلة لامكانيات علم الاجتماع فاننى أستخلص النتائج مرة أخرى من شواهد غير كافية ٥ وأيا كان الأمر فأن الحيز المتاح لا يكفى الا لبيان شديد الايجاز ٠

فى أعوامى الأولى ، كعالم فى الاجتماع ، كنت خاضعا تمام الخضوع ــ وهذا شىء طبيعى جدا ــ لتأثير هوبهاوس Hobhouse ، كما يفسره جنسبرج Ginsberg وكنت مبهورا بالطريقة التى يتناول بها المعطيات التاريخية بمناهج تحليلية ومقارنة فى آن واحد ٠ وكنت كثير الاستخدام بتقسيمه الثلاثى : القرابة ، والسلطة ، والمواطنة ، بوصفها المبادىء الأساسية للنظام الاجتماعى ، وان كنت قد لاحظت أن للسلطة طابعا تشوبه بعض الرواسب ، وبالتالى كانت « وعاء مختلطا » ٠ وكان من اليسير أن أنتقل الى دراسات ماكس فيبر الاعمق عن هذا الموضوع ، بما فى ذلك تحليله الأكثر تفصيلا للسلطة ، ثم للمواطنة التى اهتممت بها فيما بعد اهتماما خاصا ٠ كما شغفت أيضا بالأهمية التى يضفيها هوبهاوس على مؤسسات العدالة ، مستخدما اياها لتصوير الطريقة التى تشكل بها أجزاء من نظام ما تحت ضغط المحافظة على الوفاق (وهو شىء آخر غير الاجماع) ، ولبيان أن تجربة تشغيل مؤسسة على مستوى ما قد يولد ــ على نحو تنبؤى ــ القوى التى ستؤدى بها الى المستوى التالى ٠ وهنا حلقة اتصال واضحة بالدور الحيوى الذى سيعزوه دوركيم الى القانون والعدالة فى تطور النظم الاجتماعية « العضوية » Organic ٠ ولم يكن مما يثير قلقى أن لهذين الأستاذين أفكارا مختلفة عن علم الاجتماع ٠ كما لم أكن أتوقع أن أستوعب أيا منهما جملة وتفصيلا ، فأصبح تابعا لدور كيم أو لفيبر ٠ فأنا أستطيع أن أتعلم منهما معا ، وأن أحيل ما آخذه منهما ، ومن الأفكار التى يوحيان بها الى ، الى مادة تفكيرى الخاص الأكثر تواضعا ، والذى يمكن أن يكون ــ بمستواه الخاص ــ تفكيرا أصيلا ٠

هذا هو المكان الذى بدأ فيه اهتمامى ، والذى بقى فيه بوجه عام ٠ وهو اليوم ، ككل المناطق التى تقع فى مفترق الطرق ، مازال آهلا بالسكان ، ولكنه ليس عصريا بوجه خاص ٠ فثمة أشياء ــ تحدث فى مكان آخر ــ أشد اثارة للطلبة الذين يقتحمون الميدان ٠ وهذا ينطبق ــ بطرائق شتى ــ على طرفى مقياس متخيل ينحدر من الدراسات الوصفية الهادفة الموجهة للظروف والمشكلات الاجتماعية فى قمته ، وفى قاعة ، الى كشوف الأعماق للعناصر الأولية للفعل الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية ٠ وعند هذا المستوى الثانى نجد ما يمكن أن نسميه المدارس العصرية الشائعة فى النظر السوسيولوجى ، وعلى المرء أن يبحث بينها عن المفاتيح التى قد يتجه نحوها علم الاجتماع بحثا عن مهرب من وضعه الراهن ، غير المرضى الى حد ما ٠ فهناك النزعة الردية النفسية psychological reductionism التى استنكرها دور كايم ، وغازلها ماكس فيبر ، والتى عرضها واختبرها جورج هوم George Homans بمعونة بيتر بلاو Peter Blau ومؤازرته ٠ ولا يحمل الينا هذا انذارا صحيا ضد الاحالة الشيئية reification للمؤسسات فحسب ، وانما يقدم الينا نظرية

التبادل الاجتماعى تناولا قيما لفهم المواقف التى تبقى فيها العناصر غير المتساوية فى حالة توازن ، كما هى الحال فى « القوة » على سبيل المثال • ولدينا فى النزعة البنيانية structuralism — وهى شائعة أيضا — رد ، أو حل بناءات كاملة كنظام اجتماعى ، أو لغة ، الى وحداتها الأساسية ، والبحث عن أشكال كلية تعكس طبيعة العقل الانسانى وعمليات تفكيره ، ولا يستطيع المرء أن يذهب الى أعمق من ذلك ، بيد ن التموين يمكن أن ينمط — فى كثير من اليسر — الى نوع من ألعاب الصالونات ، مثل بعض أمثلة انجلز للديالكتيك (الجدل) التاريخى •

وعلم الظواهر — Phenomenology وهو مرشح واضح للاندراج فى قائمتنا لمدارس الفكر الشائعة — لا يقوم على رد الكيانات المتكاملة أو تحليلها الى عناصرها أو أجزائها • بل على العكس من ذلك يحاول فهم الكيانات الكاملة على أنها كيانات لا تنقسم فى حالة سائلة دائمة ، وهذا ما سماه جرفيتش Gurvitch « مجموعات سائرة » des ensembles en marches (٣) ، وفى هذه الحالة يأخذ ارتياد الأعماق ، الذى قلت عنه انه يميز كل تلك المشروعات السوسيولوجية ، شكل النفاذ من السلوك الخارجى للوصول الى المعنى الباطنى • « وما دام الوعى والموضوع فى التحليل الفينومينولوجى (الظاهرى) يوضعان بين أقواس معا » كما يقول جنسبرج (٤) فان معنى كل موقف اجتماعى هو فى حقيقة الأمر معنى فريد ، وفى تغير مستمر • واستمرارا فى استعراضنا للبدع السوسيولوجية الشائعة نستطيع أن نتعقب سليلا مباشرا للظاهريين ، مارين بآلفرد شوتس Alfred Schutz حتى نصل الى هارولد جارفينكل Harold Garfinkel ونظريته ذات الاسم الغريب — وان يكن مغريا بلا شك — وأعنى بها نزعته الجنسية المنهجية ethnomethodology • وهنا يكون التركيز على الأحداث اليومية الجارية كما « يعرفها » أو يفهمها عامة الناس، وللحس المشترك دور كبير يؤديه فى عملية الفحص ، كوسيلة لتصحيح ضروب سوء التفاهم الناجمة عن التفكير بالمصطلح الشكلى الخاص بمؤسسة ما ، أو عن التقيد خضوعا أعمى للترابطات الاحصائية • ونستطيع أن نقول أخيرا ان البدعة المناظرة بين علماء الجريمة هى النزعة التفاعلية الرمزية ، symbolic interaction وهى مدرسة فكرية ذات ماض ممتاز يتم تحويله الآن الى استخدامات جديدة • وهذه المدرسة تهتم بنقطتين رئيستين : الأولى أن الشخصية تتطور خلال الزمان بالتفاعل مع الآخرين ومع البيئة بطرق يحكمها المعنى الذى تراه هذه الشخصية ويراه الآخرون فى الموقف المتغير ، والنقطة الثانية هى أن هذه العملية تتأثر بل تتشوه بالصاق بطاقات على الناس تدرجهم فى فئات ، وتملى طبيعة السلوك نحوهم ، وتؤثر فى الوقت نفسه على تصورهم لأنفسهم •

ولقد ذكرت هذه المدارس الفكرية الراهنة لأنها تبدو لى جميعا مدفوعة بغرض

---

(٣) « تصور البناء الاجتماعى » الكراسات العالمية لعلم الاجتماع ، المجلد ١٩ ، صفحة ١١ •

(٤) « العقل واللاعقل فى المجتمع » ١٩٤٧ ، ص ١٠٦ •

واحد ، هو الهرب من ذلك الضرب الشكلي ، البنياني ، المورفولوجي ، أو بعبارة أخرى ذلك الضرب من علم الاجتماع القائم على مفهوم المؤسسات الذى قادنى اليه هوبهاوس وجنسبرج ، والذى شبهه أدموندليتش Edmund Leach ذات مرة بأنه أشبه بجمع الفراشات ، من حيث طابعه الأنثروبولوجي (٥) • وهم يحفرون يفتحون أبوابا لاكتشاف ما يحدث حقا فى المستوى الذى يبدأ فيه الفعل • وهم يفتحون أبوابا يتبعهم من خلالها تلاميذهم تحدوهم آمال عريضة فى مغامرات قادمة • ولكن كيف يعودون على أعقابهم ؟ أين يمتد سبيل العودة من التحليل الى التركيب ؟ اذ مهما يكن التحليل نافعا فلابد أن يظل التركيب هو الهدف النهائى لعلم الاجتماع ، بل لكل العلوم • والطريق القويم يكمن فى مصاحبة هذه الارتيادات العميقة بتركيب يتقدم خطوة فخطوة لهيكل نظرية ، أو نظريات ، يحفظ تكامل الموضوع بوصفه علما • وقد ثبت أن هذا أمر عسير جدا فى علم الاجتماع ، وكانت النتيجة هى قيام اغراء قوى باحتضان الحل البديل ، والسير قدما نحو نظرية عامة • والمحاولة البارزة الحديثة الوحيدة للقيام بهذا العمل هى محاولة تالكوت بارسونز ، ولكنه على الرغم من قوة ذهنه وما لأفكاره من قيمة لا جدال فيها لم ينجح فى الانتقال الحاسم من نظرية فى الفعل الاجتماعى ، منظورا اليها على أساس « الأنا » ego و « الآخر » alter الى نظرية شاملة للنظم البنيانية الوظيفية الاجتماعية •

أما علم الاجتماع القائم عند الطرف الآخر من مقياسى المتخيل حيث يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة الاجتماعية فقد تقدم ومازال يتقدم تقدما عظيما • وأصبحت مناهجه فى جمع المعطيات وتصنيفها وتحليلها أكثر تعقدا ، كما أصبح الممارسون له أكثر عددا ، وأشد براعة ، فكانت النتيجة ارتفاع مكانته ، وازدياد تأثيره • ولكنه يتعرض لخطر دائم من أن تتحكم فيه ــ تحكما زائدا عن الحد ــ المثل العليا الاجتماعية ، والأغراض السياسية • والدفاع الوحيد ضد هذا الخطر هو مجموعة من الفروض العلمية الآخذة فى التطور نحو نسق فعال لنظرية سوسيولوجية محكمة • وما يحتاج اليه الطرفان ــ بعبارة أخرى ــ هو علم اجتماع يكون علما بالمعنى الحقيقى للكلمة ، وقويا بما يكفى لضم أشتات الاسهامات القيمة التى لا جدال فيها ، للمدارس الفكرية الراهنة ، بحيث يمنح الارتياد العميق للوقائع الحقيقية فى حياتنا المعاصرة ــ وبخاصة أسقامها وعلاج تلك الأسقام ــ بحيث يمنح هذا الارتياد نوعا من الاستقرار العلمى •

وكنت أناقش ــ منذ اثنى عشر عاما أو نحو ذلك ــ ضد معارضة ما ، بأنه ينبغى النظر الى علم الاجتماع بوصفه علما داخل أطار العلوم الاجتماعية ، لا على أنه مجرد منطقة يدرس فيها موضوع معين subject-area • وعلى الرغم مما قلته من فورى عن تباين الأفكار والأهداف والمناهج الشائعة بين علماء الاجتماع المعاصرين فاننى مازلت أعتقد أن هذا الموقف الصحيح . ذلك أن لب هذا العلم المزعوم لا يستقر

(٥) اعادة التفكير فى الانثروبولوجيا ، ١٩٦١ ، صفحة ٢ •

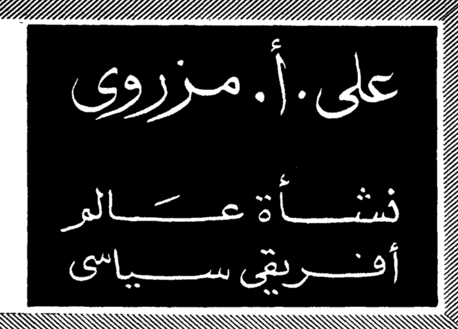
داخل نظرية عامة عن المجتمع · كما أنه لا يقوم بالطبع على احتكاره لعلم المناهج ، ذلك أن علم المناهج ـ بمعناه الحقيقى ـ شيء مشترك بين العلوم جميعا ككل · بل ان المناهج التى يستخدمها لا تقتصر ـ بوجه عام ـ على علم الاجتماع ، وكثير من هذه للمناهج قد نشأت فى مكان آخر ، ثم أخذها علماء الاجتماع ، وكيفت بحيث تلائم احتياجاتهم الخاصة · وأستطيع أن أقول ان أساس قيام علم الاجتماع كفرع من فروع المعرفة أن يكون « نظاما » بالمعنى المألوف لهذه الكلمة فعالم الاجتماع « المحترف » هو ذلك الشخص الذى اكتسب خبرة خاصة فى العمليات التى يحدد بها هوية المعطيات ويصبها فى مفاهيم ومقولات ويقوم بتحليلها ، وذلك بلخضاع نفسه وجميع عملياته الذهنية « لنظام » خاص · بيد أن هذه الخبرة تصبح عديمة الفاعلية ان لم تتوافر لها أيضا صفتان أخريان ، هما رهافة الحس والخيال والحكم فى انتقاء الفروض المثمرة وتكوينها ، والقدرة على استخدام جهاز نظرى هزيل استخداما مشروعا الى أقصى حد ، وهذا الجهاز لا يتألف من مذهب نظرى عام ، ولكن من تلك الاقتراحات التفسيرية الأقل طموحا التى سميتها ذات مرة فى شيء من شطحات الخيال « درجات صخرية فى المسافة الوسطى ، وسماها مرتون Merton فى الوقت نفسه تقريبا « نظريات المدى الأوسط » ·

وهذه السيطرة المنظمة على نسق من المعرفة والتصورات ، وأسلوب فى التفكير ، وتجميع الخبرة ، هى فى استخدامها أشبه بالتشخيص الماهر للطبيب ، والمهارة الجدلية للمحامى ، فهى فردية ، ولكنها فى الوقت نفسه مهنية جماعية · وأعنى بهذا أنها لا يمكن أن تعلم بأكملها مسبقا أو بصورة مجردة (بعيدا عن الواقع) ، ولكن يمكن اكتسابها بالتدريب وبالحوار مع زملاء المهنة ، بل من الممكن توحيدها الى حد ما · وأنا أعتقد أن علم الاجتماع البريطانى ـ على عهدى ـ لم يفعل ما يكفى فى هذا المضمار، وآمل أن يفعل أكثر من ذلك · وأنا أحبذ تربية وتدريبا لأولئك الذين يعتزمون ممارسة علم الاجتماع يهدفان فى وعى أكثر الى نتاج محترف ، لا يتميز بالسيطرة على الأساليب الاحصائية والاستقصائية فحسب ، بل بتلك الخبرة المنظمة التى وصفتها آنفا ·

ولكن ماذا عن الطلبة ، وخاصة أولئك الذين لا يريدون أن يصبحوا علماء اجتماع محترفين ، بل يبحثون فى علم الاجتماع عن اسهام فى تربيتهم العامة ، أو عن تأييد ـ كما هى الحال فى أغلب الأحيان اليوم ـ للعقائد والمذاهب الاجتماعية التى تشربوا بها فعلا من سبل أخرى ؟ وكان طلبة علم الاجتماع ، الذين غزوا مدرسة لندن للاقتصاد عقب الحرب ، وكادوا يكتمون أنفاس جنسبرج وهيئة تدريسه الضئيلة ، لا يعبأون بعلم الاجتماع أيكون فرعا من فروع المعرفة أو لم يكن ، ولم تكن لديهم الا أشد الأفكار غموضا عن موضوع هذه الضجة كلها ، اذ كانوا يريدون أن يتابعوا دراسات تكون معاصرة وانسانية فى وقت معا ، كما كانوا يريدون أن يعرفوا أشياء كان معظمهم يجهلونها تمام الجهل ، وهم يتطلون الى أساتذتهم لارشادهم عبر هذه الأرض الجديدة غير المألوفة · وكان الموقف بعد الحرب يوحى اليهم بالأمل ، لا بالغضب ، والأمور تختلف عن ذلك اليوم ، والطلبة بعامة أشد انزعاجا بالأحداث

المعاصرة منهم بالأمس ، وأكثر التزاما وايجـــابية بالحركات التى ترمى الى التغيير الجذرى • وفى الوقت نفسه نشر نجاح علم الاجتماع المعرفة به وباهتماماته ، وذلك عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرية ، والمؤلفات الميسرة للجمهور القارىء العـــام • وبالتالى كانت المطالب التى يرجوها منه (أى من علم الاجتماع) طلاب الجامعة أشد الحاحا وأكثر تحديدا فى الاتجاه ، كما أن لهفتهم فى العثور على أجوبة نقودهم الى مكان ما قد تضاعفت • ولكن ربما كان علم الاجتماع من بين الموضوعات جميعا هو أقلها تهيؤ للاجتذاب عن طريق الهجوم ، فهو لا يخضع الا للصعود البطىء • فبعض الطلبة تجتذبهم مدرسة عصريه من مدارس الفكر ، متوقعين أن يجدوا فيها حلا جامعا لمشاكلهم فى معالجة للموضوع الذى لا تستطيع ثقته الجذابة بنفسه أن تدوم الا داخل مجـــال عمله المحدود • وهناك من يعتنق نظرية عامة ذات جاذبية أيديولوجية طاغية ، لأن عقائدها تردد صدى تصوراتهم المسبقة ، وهنا يخضع العلم للعقيدة • وثمة آخـرون يتحاشون الحلول السريعة ، ولكن يروعهم المدى الواسع للموضوع ، ويشـــعرون بالاحباط من عجزهم عن رؤية كيف يمكن أن تتماسك أجزاؤه معا •

وهذا كله يؤكد اعتقادى فى الحـاجة الى تدعيم علم الاجتماع بوصـــفه علما أكاديميا • ولا يمكن أن يتم هذا آلا على أيدى علماء اجتماع تؤهلهم تربيتهم وتدريبهم للقيام بهذه المهمة • ويخشى بعض زملائى السابقين من أن جركيزا أشد على تنمية مستوى رفيع من الكفاءة الفنية والمهنية (وليس الاثنان شيئا واحدا) لدى أساتذة المستقبل فى علم الاجتماع قد يسىء الى قيمة الموضوع بوصفه جزءا من تربية ليبرالية ، كما يمكن أن يقتل حساسية الباحث « المحترف » للواقع الاجتماعى ، ويسلب علم الاجتمـــاع « انطلاقته الحيوية » • وأنا لا أستطيع قبول هذا الرأى ، وأعتقد أنه قائم على سوء فهم بأن التقنية تخلق علما ، لتسيطر عليه فيما بعـــد ، على حين أن الأمر على عكس ذلك ، اذ ينبغى أن يخلق العلم التقنية ، ويطورها لتلبية متطلباته الخاصة ، ويحتفظ بسيادته عليها •



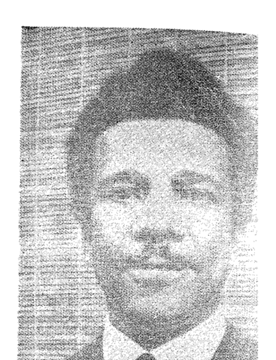
ما هو العالم السياسى ؟ انه يجمع بين تجربة الوعى السياسى الشخصى وخصائص المعرفة العامة المكتسبة من الدراسة والمهارات المتخصصة فى تناول العوارض السياسية ، وخصائص الدراسة متأصلة فى الخضوع لقواعد الاثبات والتوثيق والمنطق ، ولكن نظام العلم السياسى نفسه يتطلب مهارات خاصة اضافية تعنى بتناول الأسس أو بالاستفادة النافعة من استعمال أدوات المفاهيم العقلية ٠

وأخيرا نواجه تجربة الوعى السياسى ، وهذا هو الاحساس بالمسائل العامة وسياسة الارتباط بالمصالح الخاصة ٠

فاذا كان العالم السياسى مزيجا من الوعى السياسى والدراسة والمهارات فى التحليل السياسى فان مسألة واحدة تعرض ، وهى العلاقة المحكمة بين هذه العناصر الثلاثة ٠ وهذه المسألة من السعة والشمول لا يتيسر تناولها فى مثل هذا الفصل ٠ ربما نحن فى حاجة الى شدة الاستمساك به هو تلك الحقيقة البسيطة ، وهى أن الوعى السياسى عند العالم السياسى سابق لتحصيله خصائص الدراسة أو البراعات الخاصة بالمنهج الذى يتبعه ، وعلى العالم السياسى أن يكون حيوانا سياسيا واعيا قبل أن يستطيع التحرك فى الاتجاه للحصول على الاعداد اللازم من هذا النظام ٠

ترجمة : علی أدهم

وكيل ادارة الثقافة بوزارة التربية سابقا ، ورئيس تحرير
مجلة الكاتب العربى سابقا .



ويلزم من أجل ذلك أن ينظر الى الوعى السياسى فى النهاية على أنه أشد العوامل الثلاثة التى تعمل على انجاب هذا النوع من الدارسين الذين نطلق عليهم وصف « العالم السياسى » من الناحية الشخصية ومن بعض الوجوه أشدها ذاتيـة .

ولما كان هذا الوعى السياسى شديد الارتباط بنمو الادراك العام الشخصى فان العلماء السياسيون ربما يلزم أن يكرسوا وقتا أكثر لاتخاذ حياتهم أساسا لدراسة نمو الوعى السياسى . وهذا الفصل من الترجمة الذاتية من قبيل الممارسة فى هذا الاتجاه ، وهو يتضمن قصة نمو الوعى السياسى فى فرد واحد مرتبط ارتباطا محتوما بعالم ادراكه المتمدد الذى يصاحب نموه . وبعض العناصر لم تكتسب معنى اضافيا الا عن طريق النظر الى الماضى ، لأن المكب على الدراسة ، مثل الشاعر ، له أوقات يتوقف فيها « ويستجمع ذكرياته فى هدوء » . والحوادث الصغيرة العارضة مثل توجيه اللوم الى أحد الطلبة لأنه قد ألقى بفراش على درج السلم قد يكون بمثابة الصورة فى كشف الانسان لمظهر السلطة . وهذا المقال يشير أيضا الى حادث صغير فى زنزبار لطفل كان يطارد طفلا آخر وما نتج عن ذلك من التصادم بين أسرتين ، وذلك كله يعين على كشف المعانى الأوسع التى تحتويها الأشياء الصغيرة .

وهذا المقال من الترجمة الذاتية يعنى من أجل ذلك بتلك المرحلة الأولى فى تقدم عالم سياسى ، وهى مرحلة تحصيل الوعى السياسى العام وتقويته • وسنختم الفصل بالحصول الرسمى على درجة البكالوريوس فى الآداب ، وهى مطالع تحصيل العنصرين الاضافيين للدراسة والمهارات الأكاديمية فى هذا النظام • وبعبارة أخرى نحن فى هذا الفصل معنيون بالمرحلة السابقة للمرحلة المهنية ، أى بالأسس والأصول •

وكان من دواعى اقبالى على علم السياسة اهتمامى فى طفولتى بالقانون والصحافة ، وكان من بواعث هذين الاهتمامين خلفيتى العائلية • ففى ابان نشأتى كان والدى قاضى القضاة فى كينيا • ولما كانت الشريعة الاسلامية هى الشريعة المتبعة فى كينيا لذلك لم يكن كبير القضاة زعيما دينيا فحسب ، وانما كذلك هو القاضى المقدم فى نظام القضاء القومى • وأدركت أن والدى واحد من اثنين أو ثلاثة من كبار علماء الشريعة الاسلامية فى شرق أفريقية ، وكان شديد العناية بالفقه الاسلامى ، وكنت حينما أقوم بتقديم القهوة لضيوفه أو باستحضار الأطباق لطعام الغذاء تدور الأحاديث بين الكبار حول مسائل الشريعة الاسلامية والدين الاسلامى •

نهج المناقشة :

ومع ان والدى كان يلتزم جانب الجد والتوقر فى حياته وأخلاقه فان هذه الجدية كانت تبث فى الحياة لونا من المرح العقلى • وقد كان موهوبا فى المجادلة ، وكان من أقدر أهل عصره فى النقاش العام • وقد أصدر فى العقد الرابع ما يشبه الجريدة باسم الاصلاح • وتولى تحريرها ، وكانت فى بادىء الأمر تكتب باليد ثم تكتب صور منها بطريقة يغلب عليها عدم الاكتمال وتطبع بعد ذلك • وقد ورث بعض العقار واستعمل الكثير من دخله من زراعة جوزة الهند فى الانفاق على هذه الصحيفة المحدودة الانتشار باعتبارها وسيلة للمناقشات والاصلاح الاجتماعى • وكان لمعتقدات والدى جانب ينزع الى الزهد ، ومن أمثلة ما كان يزعجه الى حد كبير التبذير والاسراف اللذان كانا يصحبان حفلات الزواج الساحلية • وكان فى طليعة الاصلاح الاجتماعى الذى يريد أن يراد اعادة ما كان يعتبر أنه هو البساطة الدينية الأصلية للزواج دون أن يفرق والدا العروسين فى الدين • وكان كذلك يكربه الى حد كبير حفلات المآتم الكثيرة التكاليف ، وكان يرى ذلك كله مخالفا كل المخالفة لتصوره للاسلام الحق • فالموتى فى حاجة الى صلواتنا وابتهالاتنا ، ولكن على أن تكون فى أبسط ما يمكن من الصور ، ولم يكن من اللازم اطالة التلاوة الجماعية للقرآن ، أو اجتماع النسوة فى حلقات العزاء مدة ثلاثة أيام مع اقامة شعائر الندب والعويل •

وكنت فى طفولتى أصغى الى كل هذه المناقشات ، وفى أكثر الأوقات كنت أعجب بقوة العاطفة التى كانت وراء حماسة والدى للاصلاح • وفى بعض الأحيان كان يستعين بجريدته فى تناول مثل هذه الموضوعات ، وكثيرا ما كان ذلك يؤدى الى صراع بينه وبين موظفى الاحتلال الرسميين فى عصره •

وكان والدى قوى الشعور بروابطه العائلية ، وكان من أبطال عائلته الشيخ مبروك المزروى ، وهو الثائر فى القرن التاسع عشر بالساحل الذى تحدى البريطانيين وسلطان زنزبار معا ، وكنت قد تعودت أن أسمع قصص بطولة الشيخ مبروك التى وشاها الخيال ، وهى تروى أخبار شجاعته وتحديه للتحالف الكبير بين البريطانيين وأسرة برغاش وبين السيطرة البريطانية ، وادعاء السلطان السيادة على أراضى شاطىء شرق افريقية ٠

وحينما ذهبت للدراسة فى مدرسة فى ممباسا وجهت اهتماما خاصا الى اللغة الانجليزية بوصفها وسيلة للحوار ، وربما كان للخلفية القانونية لأسرتى والجانب الجدلى فى والدى أثر فى توجيه اهتمامى الأصيل الى اللغة باعتبارها وسيلة للكفاح اللفظى ٠ وكنت أشترك فى أغلب المناقشات التى تنظم والتى كنت أراها مناسبة ، وكتبت فصولا قصيرة فى مجلات الطلبة ، وفزت مرة أو مرتين فى مباراة كتابة الفصول ، وبدأت أحس أن مجال استيفاء دراستى ليس هو التشريع الاسلامى والفقه ، وانما هو فى محاولات عقلية أكثر علمانية ٠ وفى تطلعى الى المستقبل ارتبط نزوعى الى أن أكون كاتبا بميلى الى أن أكون صحفيا ، ورأيت أن الرواية والصحافة هما الوسيلة العظمى للقصص ذات المغزى الاجتماعى ٠ وقد رأيت فى شارلز ديكنز بعض ما فى والدى ، المفكر المصلح الاجتماعى الذى يملك القلم ، ولم أر فارقا بين ديكنز الذى كان كاتبا روائيا قبل كل شىء ووالدى الذى كان كاتبا ومنشىء كتيبات ورسائل ، فكلاهما كان يتخذ الكلمات وسيلة لأهداف عامة ٠

وتطلعت أحلامى الى الالتحاق بكلية ماكرير ، ولم يكن القانون يدرس بها حينذاك ، ولا الصحافة ، وانما كانت تعلم اللغة الانجليزية ، وهذا ما دار ببساطة فى تفكيرى ، وأستطيع بتمكن أكثر فى اللغة الانجليزية أن ألج عالم المشكلات والمسائل العامة ٠

ووقعت الحادثة الفاجعة ، فقد توفى والدى سنة ١٩٤٧ قبل أن أتم دراستى المدرسية بعام ٠ وقد نال ذلك منى نيلا شديدا ، ولكن الأهم من صدمة فقده كانت صورة الرجل المسن التى زادت أبعادها فى مخيلتى ، وكنت فى الرابعة عشرة من عمرى ، وبدا لى ميله الى التدخل فى المسائل العامة فى أبعاد أكثر بطولة ٠ وقد أدركت فى الوقت الحاضر أن عالم والدى كان صغيرا نسبيا ، وقد كان اسمه معروفا وشائعا فى عالم المتحدثين باللغة الساحلية ، وبخاصة فى شاطىء تنجانيقا وكينيا وفى زنزبار ٠ ولم يكن فى هذا العالم وفى ذلك المجال رجلا له وزنه فحسب ، وانما الأهم من ذلك أنه كان رجلا قد نذر نفسه لمهمة واضحة ، وكما هى العادة المتبعة عند قومى كنت أسأل هل أتبع خطوات أبى ، وقد عرفت اننى لا أستطيع ذلك فى مجال الفقه ، وكانت المسألة هى هل أستطيع التفوق فى مجال مهنة علمانية ؟

سنوات ابتعادى عن المدرسة :

في سنة ١٩٤٨ جلست لأداء امتحان الشهادة في مدرسة كمبردج ، وفي آخر الفترة انزعجت ، وأحسست أننى لم أحسن الصنع ، بل خشيت أن أكون قد أخفقت اخفاقا تاما ٠

وظهرت النتائج ، ولم أكن قد أخفقت في الامتحان ، وانما حصلت على الدرجة الثالثة في امتحان المدرسة ، ورأيت أملى في الالتحاق بماكرير ينهار حولى ٠ ولم يكن هناك فائدة في محاولة الالتحاق بماكرير بمثل هذه الشهادة ، والكلية لا ترحب بى في مثل هذه الظروف ٠

ورأيت أترابى القدماء يسيرون في طريقهم الى ماكرير ، في حين كنت أبحث في نواحى ممباسا عن وظيفة كاتب ، وكنت ما يسمى في شرق أفريقية « متخلفا عن المدرسة » ـ وكان يطلق ذلك على من أخفق في محاولة تجاوز التعليم الثانوى ، ورأيت نفسى مبعدا عن المدرسة ٠

كنت حينذاك في الخامسة عشرة من سنى ، وقد حصلت على شهادة الدراسة مبكرا ، وجانب من ذلك مرجعة أننى أظهرت تفوقا عقليا مبكرا سمح لى بأن أتخطى فرقا ، ولكنى حينما وصلت الى الذروة في المدرسة الثانوية هبطت الى مستوى الفرقة الثانية ٠ ولم تكن مشكلتى في الحياة التقدم المتأخر ، وربما كانت التقدم العقلى المبكر الذى بولغ في تقديره ٠

وتعثرت أول الأمر في العمل بمؤسسة تجارية هولندية لها فرع في ممبسا ٠ واتضح أننى لم أكن قد بلغت المستوى العقلى الكافى للقيام بالعمل الذى كان في تقديرهم . فقد أرادوا تدريب من لم تتجاوز سنه الخامسة عشرة على أن يكون في أسرع وقت مساعدا للمدير ، وقد تلطفت المؤسسة في الاعتذار عن خطئها وأعطتنى شهادة حسنة ٠ وقد أخطأت المؤسسة في استخدام شاب في مثل هذه السن للقيام بالعمل الذى رأت أن تعهد به اليه ٠

وحينما تركت الشركة التجارية ظللت حينا من الزمن بلا عمل ، واتصل حينذاك قريب لى بالتليفون بأحد معارفه الأوروبين وهو القائمقام هـ ٠ و ٠ نيول ليسأله أهناك وظيفة خالية لكاتب صغير في مشروع جديد معروف باسم معهد ممباسا للتعليم الاسلامى ٠ وكان هذا المشروع وليد تفكير السير فيليب ميتشل حاكم كينيا في ذلك العهد ، وكان قد شعر بأن المسلمين في شرق أفريقة متخلفون ، وأنهم في حاجة الى معهد فنى جديد يزودهم بالمهارات الحديثة ٠

وحينما اتصل قريبى بالقائمقام نيول ليسأله عن عمل لى لم يكن المعهد قد حصل بعد على المبنى الخاص به ، ولم يكن هناك سوى وظائف قد هيأها السير فيليب ميتشل بكرمه في دار الحكومة محل سكنه الخاص في ممباسا ٠ وقال نيول لقريبى انه لا يوجد عمل في ذلك الوقت ، ولكن اذا كنت مستعدا أن أذهب وأعمل

فترة بدون أجر فاننى سيكون لى الأسبقية حينما توجد وظيفة خالية ، وشجعنى ذلك على قبول العمل المقدم ٠

وقد كان عملى فى المعهد تجـربة هامة فى تأهيلى لأن أكون مراقبا للمشـكلات الاجتماعية ٠ ولشىء واحـد شـاركت فى مشروع قد بدأ توا اذ كنت أراه ينمو الى النضج فى ذلك اليوم الذى سمح فيه بقبـول الطلبة ٠ وفى الوقت الذى أنضممت فيه الى المشروع كنا نشغل الجناح الشمالى فى دار الحكومة ، وهو يشرف على المحيط الهندى فى موقع جميل بالمدينة قريب من طريق الجولف ٠ وقد انتقلنا فيما بعد الى الموقع الذى كان فيه بناء المعهد ، وكان مكتبنا المؤقت كوخا من الخشب مسقفا بسعف النخـل ٠ وقد لاحظت مظهرا جـديدا لكينيا المستعمرة ٠ وكان رؤسائى المبـاشرون بطوفون كل يوم ويتبادلون الفكاهات بعضهم مع بعض ويتقاسمون العمل ويشتوكون فى الاشراف على المشروع ، وكانوا جميعا من رجال الجيش ، ولذلك كانوا يمثلون قطاعا ممتازا من الحضـور البريطانى الامبريالى ، ولو انهم كانوا جميعـا قد أنهوا خدمتهم العسكرية ٠ وكان الزائرون يحضرون من الحين فى الحين فيشاهدون عرضا تاريخيا على طريقتهم ، وأذكر منهم الأمير على خان وزوجته ريتا هيورث ، فقد حضروا وقمت بمساعدتهم فى الطواف بالمكان ، وأذكر مجىء سلطان زنزبار ليفتتح المعهد فى النهاية ، وقد رحب به السـير فيليب ميتشل بين مظاهر الأبهة والفخامة ، وجـاء للزيارة غير واحد من حكام كينيا ٠

ولكن المظهر الأكثر أهمية لتجربتى من الناحية السياسية فى المعهد لم يكن فى هذا العرض للتاريخ الامبريالى ، وانما جاء حينما عينت مراقبا بالمعهد ، فقد بدأت حينذاك معالجة مشكلات السلطة فى مؤسسة بهـا أجنـاس مختلفة وطلبة من جميع شرقى أفريقية ٠ وكان جميع المدرسـين فى المعهـد من الأوروبيين ، وجميع الطلبة يدينون بالدين الاسلامى ولكنهم من شعوب مختلفة ! افريقيين وهنودا وعربا ، وكان بالمعهد طلبة من أوغندا وتنجـانيقا وزامبيا وصـوماليا وكينيا ٠ وكانت الحكومات المختلفـة فى شرق افريقية تقـدم اعانة سنوية للمعهد ، لأنه كان معهـدا لافريقية الشرقية جميعها ٠ ومن طريق له أهميته كان هذا المعهد أول تجربة لى فى شرق أفريقية بوصفه اقليما ، وأول دراية لى بنفسى بوصـفى من شرق افريقية لا بوصفى مجـرد كينياوى من ممباسا ٠ والواقع أن معهد ممباسا للدراسة الاسلامية كان هو أول معهد تعليمى لكل شرقى افريقية من هذا النوع ٠

ولما كنت أشغل وظيفة كتابية صغيرة لذلك كان عملى فى المعهد جانبيا ، ولكن حينما رقيت لتقلد منصب مراقب المبنى وفى عهدتى قاعة الاقامة بالمعهد وأنيطت بى مهمة الاشراف على تموين المعهد والروح الاجتماعيـة فى قاعة الاقامة أصـبح مركزى رئيسيا فى حياة الطلبة بالمعهد ٠

اكتشافى للسلطة :

كانت أول مشكلة واجهتنى هى أن أحوز القبول بوصفى واحد ممن لهم السلطة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة من سنى حينما عينت مراقبا لمبنى المعهد ، وكان معظم الطلبة من سنى ، وواحد أو اثنان منهم كانا أكبر منى سنا ، وعدت قاعة الاقامة مجتمعا سياسيا بمعنى له أهميته ، وكنت أعرف ما حدث لمراقبى القاعة السابقين اللذين أخفقا اخفاقا مزريا فى القيام بمهمتهما ٠

وترجع مبادىء تفكيرى فيما يجعل مواقف خاصة ذات سلطة ومواقف أخرى أقل منها الى هذا العهد الذى ساورتنى فيه الهموم حينما توليت عملا أخفق فى القيام به اثنان من السابقين المباشرين لى ٠

وأرى ان باعث تصورى الفكرى للفارق الاجتماعى باعتباره شرطا سابقا للشرعية السياسية هو الى حد ما هذه التجربة ٠ وقد بدأت فيما بعد أدرك ـ بوصفى عالما سياسيا مدربا يلاحظ الأمم الافريقية من مستوى كبير ـ أن جانبا من مشكلة شرعية الحكومات الافريقية يكمن فى حقيقة أنها جد قريبة من الشعب لا فى حقيقه أنها منقطعة الصلة به ٠ وفى المواقف التى سرعان ما عرف فيها أن الزعماء قد برزوا من صفوف الشعب فانه كان من السهل على هؤلاء الذين ظلوا فى الصفوف أن ينظروا بعين الحسد الى الامتيازات التى استمتع بها أضرابهم السابقون ، والصفوة الذين توطدت مكانتهم منذ عهد بعيد تغتفر لهم الطبقات الدنيا المعيشة الرافهة فى أكثر مما تغتفر للأعضاء الناجحين الجدد فى الطبقات التى تستمتع بالامتيازات ٠ وهؤلاء الذين ظلوا أثرياء مدة أجيال قد وطدوا مستواهم الاجتماعى الرفيع وجعلوه يبدو طبيعيا ان لم يكن مستحقا ٠ ولكن محدثى الثراء أسهل تعرضا للاتهام بأنهم يتظاهرون بالكبرياء ، ونتيجة لذلك يكونون أكثر تعرضا للاستنكار ٠ ومما يجب معرفته أن هذا الاستنكار لا ينشأ من فارق اجتماعى واضح ، وانما على نقيض ذلك ينشأ من آثار التقارب الاجتماعى بين هؤلاء الأثرياء المحدثين والطبقة الفقيرة التى خرجوا منها ٠ وافريقية الجيل الأول من أجيال الاستقلال كانت افريقية أفسدها هذا التداخل الغريب بين الصفوة والجماعات ٠

وعندما تعرضت لهذه الورطة لأول مرة كان عامل السن له أهميته ٠ فمراهق فى العقد الثانى من العمر وكلت اليه السلطة على مراهقين آخرين فى العقد الثانى يعانى من عقبات تقارب اجتماعى من نوع خاص ٠ وللسن بين الأطفال بوجه خاص أهميته بوصفه قاعدة لتقرير مكانة الجماعة المتساوية ٠ وكانت سلطتى بوصفى فى العقد الثانى من العمر من الصعب تأكيدها من جراء تعرضها لخطر أننى قد ينظر الى باعتبارى الى حد كبير من المستوى نفسه ٠

وقد كنت أخشى أى حادث هام يستلزم تأكيد سلطتى وقد حدث ذلك ذات مساء ، وكان الطابق الذى أقيم به واقعا بين جناحى قاعة الاقامة ، ولذلك كنت أستطيع أن أسمع أى ضجة كبيرة تحدث فى أحد الجناحين ٠ وفى هذا المساء كانت

الضجة عالية مدوية ، وكان اثنان أو ثلاثة يتشاجرون مع عدد مثلهم من المشاهدين المنضمين مما زاد الضجيج ارتفاعا ، فانتظرت قليلا مؤملا أن يهدأ الضجيج ولا أجد نفسي مضطرا الى أن أذهب لأرى ما يحدث ، ولكن الضجة لم تهدأ ، وازداد الصريخ عاوا ، وارتفع كذلك صوت انتزاح الأثاث والقائه ، فبلعت ريقى بصعوبة . ولففت « كوفيتى » حول رأسى ، وأخذت طريقى الى القاعة التى ينام بها الطلبة .

وبعد قليل من الوقت رأيت فراشا يقذف به على درج السلم ، وكان اثنان من الطلبة لا يزالان مرتفعى العقيرة وكل منهما يصيح فى وجه الآخر ، وواحد منهما وهو فى نوبة الغضب شد فراش آخر وألقى به على السلم .

وفى داخل نفسى حدثت معجزة ، فقد تغلب الغضب المشتد على حياتى . وقبل أن أعرف ما أنا صانع كنت أطالب بأن أعرف فى الحال من المسئول عن القاء الفراش على درج السلم ، واعترف أحد الطلبة الغاضبين بأنه هو الذى فعل ذلك ، فحملق كل منا فى وجه الآخر ، وغض هو من بصره ، وبهذه الحركة الدرامية أمرته أن يذهب من فوره لاحضار الفراش من المكان الذى قذف به فيه وأن يحمله على الدرج ويعيده الى المكان الذى انتزعه منه . ووقف الطلبة الآخرون ينتظرون ليروا ما سيحدث ، وأنا نفسى غاب عنى أن أسمح لنفسى بالتفكير فى امكان الرفض المتحدى .

وقبع الطالب الغاضب ، وبدا أنه يكتم اللعنات وراء أنفاسه ، ونزل على الدرج ليعيد الفراش الى مكانه ، وعاد مترنحا بحمله . وكانت جماعة الطلبة تراقبه ، وحينما قرب من رأس السلم مددت اليه يدى ، وتقدم اذ ذاك أعضاء آخرون من الجماعة لمساعدته فى العودة بحمله ، وعند ما استقام ظهره بعد أن أعاد الفراش الى مكانه نظرت اليه وقلت : « أشكرك ، لا تفعل ذلك مرة أخرى » .

واستدرت وتركته . والذى استقر فى عقلى هو مسألة بسيطة خاصة بالسلطة بين النظراء ، وكيف جاء الغضب تلقائيا لانقاذ انسان كان لا يزال غير واثق من نفسه ، ويعيره صوتا للسلطة فى موقف متأزم .

توترات التكامل الثقافى :

ولكن سرعان ما كشفت فى هذا المجتمع الصغير أن هناك مشكلات أفقية ومشكلات رأسية كذلك فى العلاقات . وكانت المشكلات الرأسية هى التى تعنى مسائل السلطة والقيادة من ناحية علاقاتها بهؤلاء الذين يتبعونها . والأوامر الموجهة من ناحية علاقتها بهؤلاء الذين يقومون بتنفيذها . والمشكلة الرئيسية لسلطتى بوصفى مراقبا لداخلية المعهد واهتمامى الخاص بقدرتى على اصدار الأوامر أو القيادة كانا من مشكلات العلاقات الرأسية .

وكانت مشكلة العلاقات الأفقية تخص العلاقات المتبادلة بين الطلبة أنفسهم ، وهى تهم بوجه خاص العلاقات بين الجماعات ، سواء كانت هذه الجماعات شعبية أو اقليمية أو قبلية .

وبرزت مشكلة العلاقة المتبادلة بين الطلبة فى عقلى باعتبارها مشكلة ألفة ، فى حين أن المشكلة الأصلية التى واجهت المراقبين السابقين لداخلية المعهد اللذين فصلا ، والتى واجهت الشاب الذى جاء بعدهما ولم يكن واثقا من مكانته بين الأنداد ، بدت لى فى ذلك الوقت من مشكلات السلطة ٠

وفى حيز النطاق العام لطلب الألفة كشفت فى تلك المرحلة المبكرة توترات القرب الاجتماعى فى العلاقات الأفقية ، كما خشيت تلك التوترات فى العلاقات الرأسية ٠ ولم تكن أسوأ المشكلات هى التى تتعلق بمسائل تبادل العلاقات بين الافريقيين والهنود ٠ وبين الأفريقيين والهنود كان هناك من التباعد مايكفى لجعل تبادل العلاقات بينهما قليلا وان كان وديا ٠ والواقع أن أسوأ توترات واجهتها كانت بين العرب الذين يعيشون فى سواحل زنزبار وسكان السواحل فى زنزبار الذين استعربوا، فهاتان الجماعتان — وكانت احداهما تدخل فى عداد العرب والأخرى تعد من السواحلية ، وقد شاركت كلتاهما الى حد كبير فى الثقافة السواحلية — كانت أسوأ المشكلات فى تعاملهما بعضهما مع البعض ، وكنت لا أزال أجهل الكلمات من قبل كلمة « التكامل القومى » ، ولكن فكرة زنزبار باعتبارها جزيرة بها الكثير من الامتزاج الشعبى والثقافى كانت واضحة فى عقلى كل الوضوح ٠

وقد عرفت زنزبار معرفة جيدة ، وفى أول زيارة لها لم تكن سنى قد جاوزت بضع سنوات ، وكان والدى قد ذهب للحج بمكة ، وكان الحج فى تلك الأيام يستغرق زمنا طويلا ٠

وفى الزيارة الثانية لزنزبار رسخت فى عقلى صورة جزيرة يرفرف عليها السلام ٠ وفيها نشبت الحرب الكبرى الثانية ٠ وبرغم أنه بدا أن الالمان بعيدون فانه ظهر أن الايطاليين وموسولينى يثيرون باقترابهم القلق ، فقد كانت الحبشة لا تزال خاضعة للاحتلال الايطالى ، وكانت الرغبة فى تحريرها من أهداف الحرب عند الانجليز فى هذا الجزء من القارة الذى كنت به ٠ وكانت ممباسا — المدينة التى أقيم بها — هى أهم ثغر على الشاطىء الشرقى للقارة ، ولذلك كانت هدفا جذابا لهجمات الأعداء ٠

وفى ذات يوم سقطت قنبلة على مالندى الواقعة على مسافة أقل من ثمانين ميلا فى شمال ممباسا ، ولم تحدث القنبلة سوى القليل من الضرر ، ولكنها كانت كافية لاشاعة الذعر على طول الشاطىء ، وسرعان ما انتشر الشعور بأن الحرب قد جاءت الى الجزء الخاص بنا من القارة ٠

وأخذت عائلات كثيرة فى ممباسا تفكر فى أنه قد يكون من الصواب اخراج النساء والأطفال من ممباسا وارسالهم الى جزء من شرق أفريقية أقل تعرضا للخطر ٠ وكانت عائلتى من العائلات التى رأت أن ترسل النساء والأطفال الى زنزبار ٠ ولقد جاء وقت كانت فيه زنزبار حاضرة كبيرة فى شرق افريقية ، وكانت فى هذه الحالة

لا بد أن تكون بين الأهداف الأولى التي يوجه اليها العدو هجماته ، ولكن فى سنة ١٩٣٩ كانت زنزبار بوصفها مركزا استراتيجيا أقل أهمية من ممباسا ٠

وحقيقة أننى وأنا طفل قد زحفت طلبا للسلامة الى زنزبار وقضيت بها أشهرا من الهدوء المشوب بالانفعال الذى لا يزال فى ذاكرتى ، أقول ان ذلك أعطانى صورة للجزيرة مرتبطة ارتباطا دانيا بالهدوء والهرب من سحب الحرب ، وقد تعرضت هذه الصورة فيما بعد الى تناقض اجبارى فى التجربة الكاملة للثورة الدموية التى كانت تنتظر الجزيرة ٠

وأول صدام بينى وبين التوترات المحتملة كان خاصا بحادث بسيط ، فقد وضعنا بعض الحشيات الخاصة بنا فى الخارج لتجففها الشمس وتنقيها من حشرات الفراش ٠ وبينما كنت ألعب على مقربة من الحشيات وقع بصرى فجأة على غلام صغير يثب حول الحشيات ، وكان واضحا أن هذا الغلام الصغير غريب عنا ، وليس له أن يلعب فوق حشياتنا بقدميه القذرتين ، هذا ما تراءى لى ، وكان هناك جزء من فرع شجرة صغير دقيق على مقربة منى ، وبه أوراق قليلة ، انتزعتها منه ، وأعلنت صيحة حرب، وقصدت هذا المعتدى الصغير ورفعت فرع الشجرة عاليا، بوصفه سلاحا مهددا فى شمس المنطقة الحارة لمطاردة هذا الغازى وابعاده ٠ وعدت الى لعبى الهادىء لاهث الأنفاس يخالجنى بعض الشعور بالخيبة ، ولكنى مع ذلك كنت أهنىء نفسى لأنى أبعدته عن حشياتنا ٠ ولم يمض قليل من الزمن حتى سمعت أصواتا ٠ وحينما استدرت رأيت جمعا من النساء يصحن غاضبات وشاكيات مقبلات الى منزلنا وظهرت والدتى عند مدخل المنزل وصاحت صيحة يأس طالبة منى أن أسرع بالعودة الى منزلنا ، ووقفت والدتى ونساء أخريات من منزلنا أمام المدخل ، وأخذتنى واحدة منهن بعيدا لأختبىء باحدى الحجرات فى الداخل ٠ وصاحت النساء اللائى حضرن متوعدات ومتحديات فى غضب شديد ، وقلن اننى طاردت غلامهن الصغير كما يطارد الكلب ، واننى كنت أهم بضربه بالسوط كما يفعل بالعبد ٠ وحقيقة أن بعضهن زعمن أننى بدأت فعلا ممارسة هذا الاذلال ٠ وسمعت بعض هذه الاتهامات وشعرت بمرارة لما فى بعض هذه الاتهامات من عدم الدقة ، ولو انها جميعها حيرتنى وأفزعتنى ٠ وحاولت بعض نساء زنزبار فى منزلنا أن يدفعن الاتهامات ، ولكن والدتى كانت فى طليعة العاملات على ازالة الخلاف ، ولاذت باثارة غرائز الأمومة فى النساء المتهجمات لتقاوم ما اتضح أنه كبرياء العنصرية المجروحة ، وقالت والدتى فى دفاعها أن النزاع كان بين أطفال ، ولكنها كان يمكن أن تتعرض لمثل هذا الشعور لو كان طفلها هو الذى انطلق يعدو خائفا من تهديد الأجنبى ، وقد سلمت بأن ولدها كان مخطئا ، ووعدت بأن يضرب ولدها عقابا له على ألعابه العدوانية ، وأشهدت الله على صدق وعدها ، وطاب خاطر النساء بالتدريج ، وعدن شاعرات بالاقتناع بأن العدالة ستأخذ مجراها ٠

وسمعت ذلك كله من داخل المنزل ، وظللت غاضبا ومهددا معا ٠ وجاءت والدتى ، وأمسكت بى وحملت مكنسة رقيقة من سعف النخل وشرعت تضربنى ،

وسرعان ما أوقفها النساء الأخريات فى المنزل ، ولذت بركن فى المنزل مدلكا عجزى الجريح وصائحا فى غضب لما فى ذلك كله من ظلم ، ومؤكدا أثناء ازالة الدموع من عينى أن الغلام الآخر الصغير كان يعبث بحشياتنا ، وأن كل ما عملته هو انى أبعدته عنها ، وصحت قائلا اننى لم أضرب الا لأن غلاما صغيرا كان كاذبا ، واذا كانت عائلتى تريد أن تذبحنى أو أن تقتلنى فليس فى ذلك بأس ، ولكن ليس فى الحق أن يكون ذلك على أساس أكذوبة ٠

وأهمية هذه الحادثة باعتبارها عاملا فى تطورى لأكون ملاحظا سياسيا يكمن فيما لم أفهمه فى ذلك الوقت سوى فهم ناقص ، ولكنه اتخذ معنى أكثر فيما بعد حينما كنت مراقبا لداخلية معهد ممباسا للتعليم الاسلامى ، فقد علمت بعد ذلك أن العائلة التى كنت أعيش معها فى زنزبار كانت من العرب الذين أقاموا فى السواحل ، وأن الطفل الذى أبعدته عن حشياتنا كان من سكان السواحل المستعربين ، ولم يكن باعث غضب النساء هو وقوع هذا الصراع البسيط بين طفلين أو محاولة أحدهما مطاردة الآخر بفرع شجرة ٠ لقد كان العامل الرئيسى فى هذا التوتر هو الصدام الذى لا يكاد يصدق من وجوه كثيرة بين السكان العرب فى زنزبار الذين اكتسبوا اللغة السواحلية وأصبحوا متأفرقين فى جوانب ثقافية خاصة من ناحية وبين الافريقيين فى زنزبار الذين يتحدثون باللغة السواحلية بوصفها لغتهم الأصلية ، والذين قبلوا كذلك الاسلام دينا ، واقتبسوا بعض المظاهر المعينة من أسلوب حياة العرب ، ولكنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم جماعة منفصلة من ناحية أخرى ٠

الهوية والعنف :

وكان وراء هذه الظاهرة جميعها الحقيقة التاريخية لنظام الرق عند العرب ، الذى كان يعد حينا من الزمن شيئا عاديا مقبولا فى تلك الجزيرة ، ولكنه فى العهد الراهن يثير ذكريات مريرة مهينة ٠

ومع ذلك فان هذين القومين قد امتزجا حيويا وثقافيا امتزاجا جديرا بالاعتبار ٠ وكان التزاوج بين العرب والأفريقيين جزءا من صميم تكوين المجتمع الزنزبارى ٠ وكان لهؤلاء القوم أنواع طعام مشتركة ، ولغة واحدة ، والكثير من الفكاهات المشتركة ، وكانوا يصلون فى المساجد معا ٠ واذا كانت البلاد تصبح أكثر ميلا الى السلام كلما صار الامتزاج الثقافى أكثر اكتمالا فانه كان من اللازم أن تستبقى زنزبار هذه الصورة القديمة التى كونتها عنها باعتبارها جزيرة السلام ٠

وقد واجهت بوصفى مراقبا لداخلية معهد ممباسا لتعليم المسلمين من جديد مفارقة هذا التكامل الانفصامى ، هذا الشذوذ المزعج الخاص بالتقارب الاجتماعى فى العلاقات الأفقية ٠

ولا أزال أذكر الكثير من لقاءاتى مع طلبة زنزباريين فى معهد ممباسا لتعليم المسلمين ٠ وكانت بعض هذه اللقاءات تتم فى الليل حينما كنا نتحاشى النظارة من

مجتمعات أخرى ومن أقاليم أخرى فى أفريقية الشرقية · وأذكر أنى وجدت نصوصا عن زنزبار من كتابة الكتاب الذين أحسنوا تقدير العلاقات الشعبية الفائقة بتلك الجزيرة ، وقد قرأت هذه النصوص من كتاب أو كتابين رجعت اليهما قبل هذا اللقاء لتحسين العلاقات وازالة الخلاف · وفى بدء اللقاء كان الخلاف بين العرب الذين أقاموا بالساحل وبين المقيمين فى الساحل الذين استعربوا على أشد ما يكون ، ولكن محاولتى تذكيرهما بالزنزبارية التى جمعت بينهما لقيت بعض النجاح المؤقت · وهذه النصوص التى أشرت اليها والتى تشيد بالعلاقات الشعبية فى زنزبار جعلت الطلبة فجأة يشعرون بتقصيرهم فى جعل حياتهم موائمة لهذه الملاحظات · ولم يكن هذا الارتباك جد وطيد ليقوم عليه بناء الألفة الدائمة ، ولكنه نقلنا الى ما وراء حدود المنازعات الراهنة بين هاتين الجماعتين المتشابهتين ثقافيا الى حد كبير واللتين هما برغم ذلك أشد الجماعات تبادلا للعداء فى مجتمعى الصغير داخل أسوار قاعات الاقامة · وقد اكتسب مغزى تلك الحادثة الصغيرة التى وقعت فى زمن الحرب بزنزبار حينما طاردت الغلام السواحلى المستعرب بفرع شجرة معنى أوسع فى السنوات التى قضيتها بالمعهد فى ممباسا حينما حاولت أن ألطف من حدة التوترات فى داخل مملكتى الصغيرة ·

ولم أقدم على المقارنة بين زنزبار ورواندا الا بعد سنوات عدة ، وبدأت أفكر فى العلاقة الحقيقية بين الامتزاج الثقافى والانفصام السياسى ، وقد وقعت فى هاتين الدولتين الصغيرتين نسبيا أشد ثورتين اجتماعيتين حدثتا فى افريقية · وقد بلغت الأعمال الوحشية التى ارتكبت فى رواندا وزنزبار مستوى ربما كان أكبر مما جربه أى مكان آخر فى أفريقية الحديثة ، وبرغم ذلك كان هذان الصقعان من الناحية الثقافية أكثر الدول الجديدة تكاملا فى القارة ، فالزنزباريون كما سبق أن ذكرت يشتركون فى اللغة والدين وفى الكثير من النواحى الثقافية الأخرى ، وقد كثر بينهم التزاوج الى حد كبير ·

وقد اشترك التوتسى والهوتى فى رواندا فى اللغة والدين وغيرهما من مظاهر الثقافة الهامة ، وحدث بينهما تزاوج ، وهما كذلك كثيرا ما وجدا صعوبات فى تحديد الأصل الذى تنتهى عنده أسلاف الهوتى ويبدأ به نسب التوتسى ، وقد جربت هاتان الجماعتان امتزاج التوالد الثقافى ·

ومع ذلك حدث فى سنة ١٩٥٩ قيام الهوتى بثورة أضرت بالتوتسى ضررا بليغا · وقد وقعت هذه الثورة قبل الاستقلال · وقد منح الاستقلال أخيرا فى أول يوليه سنة ١٩٦٢ ، ومنح لزنزبار فى ديسمبر سنة ١٩٦٣ ، وقد كلف اسقاط السلطنة العربية زنزبار آلاف الضحايا ، ومع ذلك كان هذا الاحصاء يشوبه الغموض · وفى الشهر نفسه قتلت جماعة الهوتى عدة آلاف من جماعة التوتسى فى رواندا ، وطرد اثنا عشر ألفا من جماعة التوتسى ، وقد انضموا الى صفوف مائة وخمسين ألفا من اللاجئين الذين كانوا قد تناثروا بين جيران رواندا ·

وفى بوروندى ، وهى ثالث أصـقاع افريقية الشرقية التى بهـا تكامل ثقافى كبير ، حدث ردحا من الزمن صراع داخلى شديد على السلطة بين قبـائل التوتسى ، كما حدث بعد ذلك صراع حينما انتصر أخيرا الجمهـــوريون وقلبوا حكومة الموامى ٠ ولـكن فى سنة ١٩٧٢ عانت بوروندى محنة اضـطراب ، وتبودلت الاتهـامات بين الفريقين ٠ ولا يكاد يكون هناك شـك فى أن عدد القتلى فى البـلاد بلغ الكثير من الآلاف . وكان معظمهم من جماعة الهوتى ٠ وهكذا برغم الاشتراك فى اللغة والثقافة والمخالطة العنصرية فان بوروندى انضمت الى زنزبار ورواندا باعتبارها الأصـقاع التى بها أسوأ مستويات الوحشية المتبادلة فى تاريخ شرق أفريقية الحديث ٠

ولاهتمامى بمشكلات الثقافة والعنف مصادر عدة ، ولكننى لا أزال واثقا من ان عامل الطفولة كان هو حادث الطفلين اللذين اتخذا موقفا فى زنزبار يشير الى مبادىء المواجهة العنيفة ٠ وقد تبينت بعد ذلك الناحية المنطقية ، ولو أنى لم أتبين الجانب الأخلاقى لنظام العزل فى جنوب أفريقية ، ونظام العزل محاولة دقيقة لمنع التكامل الثقافى ٠ فالبانتوستانية بوصفها فكرة ، وايجاد جامعات « قومية » ، وعدم تشجيع الاتصال الثقافى والاتصال الشعبى ، ذلك كله قصد به تجنب الامتزاج الثقافى ، فهل يؤجل تجنب الامتزاج الثقافى لحظة وقوع الانفجار العنيف ؟ **انى أعتقد الآن أن تجربة زنزبار ورواندا وبوروندى ترينا صواب المنطق الذى يتبعه النظام العنصرى فى جنوب أفريقية** ٠ واذا كان من المسلم به أن البيض يريدون أن يظلوا هم أصـــحاب النفوذ الذى لا يتحدى فان متابعة التفرقة الثقافية والاجتماعية تصبح مفهومة بوصفها مظهرا من مظاهر هذه الاستراتيجية ٠

واذا كان هدف القوم البيض هو مجرد التوازن العنصرى فاو هذا يمكن تحقيقه عن طريق العدالة الاقتصـادية والمســاواة الاجتماعية ٠ ولكن العدالة الاقتصـــادية والمساواة الاجتماعية لا تضمنان فى الوقت نفسه بقاء البيض محتفظين بامتيازاتهم ، فهل يستطيع البيض أن يظلوا محتفظين بامتيازاتهـم مع اتباعهم سياسة الاتصـال الثقافى واللقاءات فى اجتـــماعات احتساء « الثرى » وتعليم الافريقيين فى المدارس والجامعـات التى تتبع الأســاليب الغربية ؟ وهــل يتفق الاحتفاظ بالامتيازات مع التكامل الثقافى ؟

وقد كانت تجربة بوروندى ورواندا وزنزبار بكل تأكيد تجربة سلبية ، فهذه الأصقاع جميعا حاولت الاحتفاظ بدرجة من الامتياز العنصرى (للعرب فى زنزبار وللتوتسى فى رواندا وبوروندى) ، ولكن ذلك كان مصحوبا بتكامل ثقافى كبير ٠ وقد زاد التكامل الثقافى من حدة العنف الذى حـدث فيما بعـد ، ولأن هؤلاء القوم كانوا متشابهين الى حد كبير كان التصادم الذى وقع بينهم عنيفا وحشيا ٠ وتجربتى فى معهد ممباسا للتعليم الاسلامى كونت اسـتعدادى الأصيل لمثل هـذا اللون من الكشف الاجتماعى ٠

ومنذ ذلك الوقت صرت أعتقد أن بناء أمة يتضمن خمس عمليات هامة ٠ وقد

أيدت هذه الفكرة فى كتاباتى • وهـذه العمليـــات هى أولا بعض الامتزاج الثقافى والمعيارى ، وثانيا عملية تغلغل اقتصـادى بين طبقات المجتمـع وقطاعاته المختلفة ، وثالثا عملية التكامل الاجتماعى التى تحد من الثغرات بين الصفوة وجماهير الشعب وبين المدينة والريف بين أصـــحاب الامتيـــازات والذين حرموا من الامتيـازات ، ورابعا عملية انشاء مؤسسات تتناول بالتحليل الفعال الصراع ، وخامسا التجميع السيكلوجى للتجربة القومية المشتركة •

ويلاحظ أننى قد ركزت أهمية خاصة على الامتزاج الثقافى والمعيارى ، ولكن الذى أحاول تقديمه فى كتابى التالى هو العلاقة المحكمة بين هذا الامتزاج الثقافى والمعيارى من ناحية والانحراف السياسى من الجانب الآخـر • وفى داخـل مفهوم الانحراف السياسى سألحق مفاهيم الخيانة فى مواقف الجماعات التى تقاربت فى التكامل ثقافيا وفيزيائيا ، وكذلك مفاهيم العنف السياسى على النطاق الأوسع •

ولقد كانت صدمة ثورة ماو ماو فى كنيا هى سبب انتقالى من تحليل المجتمع الصغير فى قاعة الاقامة الى المشـكلات السياسية الأكبر شـأنا • وقد بدأت موالاة الاهتمام المتواصل بالسياسات القومية فى كينيا ضد خلفية العنف السياسى المتصاعد حينما كنت فى معهد ممباسا للتعليم الاسلامى • وأعود الى القول انه حتى فى ذلك العهـد كان يســتطيع الانســـان أن يدرك تلك العـلاقة البارزة بين تناقص التباعد الاجتماعى وتزايد العداء فى موقف تدرج عنصرى • ولم تكن أقل المجتمعات الافريقية تأثرا بالغرب هى التى حملت السلاح ضد الوجـود البريطانى ، ولم تكن جمـاعة المسايى التى حولت رماحها أو بحثت غاضبة عن أسلحة جديدة ضد الحكم البريطانى• لقد كانت جماعة الكيكيو ، وهى القبيلة التى استجابت لقيم الرجل الغربى . وقد اشتمل تاريخهم فى هذا القرن على رغبة حربية فى براعات المدارس العلمانية الجديدة وفى طرائق الحضارة الجديدة التى جاءت مع الارســاليات الدينية البيضـاء ومع المديرين البيض • وحقيقى أن الكيكيو لم يقبلوا الثقافة الغربية بحذافيرها ، وقد دل رد الفعل الذى صدر منهم ضد التدخل الغربى وتمسكهم بعاداتهم فى ختان النساء على أن الثقافة القومية شديدة التغلغل فى نفوسهم • ولكن بعد كل هذا القول والفعل يظل حقا أن ثورة ماو ماو لم يقم بها أبعد القبائل الكينية عن ثقافة سادتهم البيض ، بل قام بها أكثر هذه القبائل تأثرا بالثقـــافة ، فتضييق مسافة الاختلاف الثقافى قد تكون من العوامل التى تساعد على ايجاد العداء المتبادل •

الطريق الى كلية هدرز فيلد الفنية :

لقد كان الكولونيل نيول هو الذى هيأ لى أن أرى السير فيليب ميتشل ، وكان حينذاك حاكم كينيا ورئيسا لمجلس ادارة معهد ممباسا للتعليم الاسلامى ، من أجل طلبات الالتحاق ببعثة دراسية كنت أتقدم بطلبى لها كل سنة منـذ غادرت المدرسة دون أن يأتى ذلك بنتيجة • وقد أشار الى طموحى للتعليم ، وسألنى عما كنت أصنع، وحينما ذكرت الهند أراد أن يعرف ماذا أدرس اذا كنت ناجحا وذهبت الى هنالك ،

ولما قلت أننى أريد أن أدرس القـــانون رأى السير فيليب أنه سيكون من الخطأ أن أذهب الى الهند ، وأكد السير فيليب « أن كل محام فى الهند سياسى وكل سياسى محام . وانه ليس هناك كبرياء مهنى » .

وحتى هذا اليوم لست أدرى هل كان الغرض من هذه الزيارة للسير فيليب هو تمكين هذا الرجل الجليل الشـأن من أن يختبرنى ليرى هل يذكر اسـمى فى الجهات الخاصة فى نيروبى لترشيحى للبعثة التعليمية . وكل ما أعرفه هو أننى فى المرة التالية التى تقدمت فيها بطلب الى حكومة كينيا لبعثة علمية لم يكن الجواب سلبيا خالصا . وفى نيروبى تعرضت لمواجهة دقيقة فى الاختبار على يد مدير التعليم ووكيله المساعد ، وحينما انتهى ذلك كله لم يذكروا لى أنجحت أم لم أنجح ، وعدت الى ممباسا فى حيرة من أمرى .

وكان هناك أمر يشـــغل بالى ، وهو هل كان لذكر اهتمامى بدراسة القانون والصـــحافة فى أثنـاء المواجهة ما يدعو الى عـدم الاستجابة لطلبى . ومن ناحية القانون كان الموقف ثابتا كل الثبات ، وكان من المقطوع به أن حكومة كينيا لا تمول دراستى للقانون فى المملكة المتحدة أو فى أى مكان آخر . ومن ناحية الصحافة كان الأمر غير هذا ، انه لم يكن ضد طموحى العتيد لأن أكون صحافيا ، وانما الذى كان مقدرا هو أن المنحة الدراسية سيكون هدفها أن تمكننى من الدراسة للحصول على درجة فى الفنون بوجه عام . وقد أخبرت أن معظم كبار الصحفيين لم يكونوا من الذين التحقوا بمدرسة للصحافة ، فقد كانوا من هؤلاء القوم الذين درسوا دراسة جامعية حسنة قبل اشتغالهم بالصـحافة ، وتعلموا المهنة فى خلال ممارســة العمل فيها ، وهذه هى الطريقة البريطانية فى بلوغ الكفاية المهنية ، وهى تبدو مقنعة ، ولم يكن عندى مانع من الحصول على درجة جامعية مقبولة قبل الاجتراء على ممارسة الصـــحافة .

وبطبيعة الحـال كان هناك سبب آخـر هام ، وهو أن القانون كان يعانى من عرقلة الاشتباه السياسى ، وكان وصف السير فيليب للهند وميل المحامين بها الى الاشتغال بالسياسة جزء من هذا الاشـتباه الاستعمارى الكلى بالمهنة ، وكانت المهنة القانونية تعتبر مهنة المهيجين السياسيين .

وأثار اعجابى بدفاع د . ن . برت فى محاكمة جوموكينياتا بكابنجوريا اهتمام نيول من موقف أفضل مشابه ، وقد كان بريت بوصفه محاميا يدافع عن كينياتا خطيبا سياسيا من بعض الوجوه يثير مشكلات جدل سياسى فى العملية السياسية نفسها . وشعور نيول بأن اتباع هذا المنهج فى اعداد الكلام فى قاعة المحكمة غير مناسب للأحوال فى افريقية كان له جذور عميقة فى الاشتباه الاستعمارى جميعه بأن هناك علاقة بين السياسة والقانون .

والأمر الذى لم يدرك هو أن الطريق الآخر الذى رسم لى كان يمكن أن يؤدى بى بطريقة أكثر مباشرة الى دراسة السياسة .

وهكذا تركت ممباسا فى سنة ١٩٥٥ فى طريقى أولا الى كلية هدرز فيلد الفنية فى يوركشاير ، وهناك كان المفروض أن أحصل على شـــهادة عامة فى التربية من مستوى عال استعدادا للالتحاق بالجامعة وكنت أحتاج الى أقل نصيب من موضوعين فى مستوى عال ، ولكنى قررت أن أستغل هاتين السنتين فى استعادة قواى المعنوية. ورغبة فى الاستعداد للدراسة للحصول على الشهادة المدرسة للمرحلة الثالثة شعرت بأن على أن أثبت لنفسى أننى أستطيع أن أحصل على أكثر من الحد الأدنى لمستلزمات الالتحاق بالجامعة ، ولذلك اخترت خمسة موضوعات فى المســـتوى العالى بدلا من موضوعى الحد الأدنى ، وأضفت موضوعين من المستوى العادى ، وقد كان ذلك اختبارا فرضته على نفسى • وأخـذ اتجـاهى الى العلوم الاجتماعية صـــورته فى اختبارى للموضوعات ، وتناولت التاريخ الاقتصادى بوصفه متميزا عن التـاريخ ، وتناولت كذلك التاريخ والجغرافيا والأدب الانجليزى ، وكان الموضوع الخامس يكون مبادىء تدريبى السابق فى العلم السياسى ، وكان هو النظام الدستورى البريطانى •

سياسات التدرج :

ولم يلاحـظ مستشار المستعمرات الخـاص بطلبة كينيا فى لنـدن من قرب الموضـوعات المعينة التى اختارها الطلبة تحت مظلة دبلومة خاصـة أو درجة ولذلك مضيت فى دراسة مجموعة لم يكن اتجاهها خالصا نحو الموضوعات التى تدرس فى مدارس كينيا • وبعد أن اجتزت الامتحانات ذهبت الى جامعة منشستر حيث اتجهت فى هدوء الى التركيز على العلم السياسى باعتباره نظاما ، وكنت أضيف الى ذلك تلقى سلسلة دراسات فى الفلسفة السياسية والأخلاقية • وفى ذلك الوقت تبلور اهتمامى بالسياسات الكبرى فى افريقية تبلورا تاما ، وغدوت المتحدث فى انجلترا عن القضايا الافريقية للأنظمة المماثلة لاتحادات الطلبة وأندية الروتارى والفصول السادسة فى المدارس البريطانية • وكان المقصود من الدرجة التى أحصل عليها فى جامعة منشستر كما ارتأت حكومة كينيا أن تكون درجة عامة ، ومن أجل هذا تماما استطعت أن أجمع بين دراســات متجهة الى الاحاطة بالسياســات دون أن أثير اشتباه مستشار الطلبة الكينيين فى لندن •

ولكن كان هناك أمر واحد يشغل بالى ، فالحصول على درجة عامة بطريقة عادية يفتح أبوابا قليلة لدراسات سياسية تالية ، والحصول على درجة عامة بامتياز هو الذى يتيح لى الفرصة لتدريب مهنى فى العلم السياسى ، فهل أستطيع الحصول على

هذا الامتياز ؟ وكان هذا أول ما يشغل بالى خلال النصف الثانى من سير دراستى فى منشستر ، وعاودنى الخوف من التراجع الذى سبق أن جربته حينما هبطت من المستوى الذى كان يعدنى به تفوقى المبكر الى شهادة مدرسية من الدرجة الثالثة • وحينما كنت فى جامعة منشستر قررت أن حصولى على درجة أقل من درجة البكالوريوس بامتياز سيكون معناه تكرار حصولى على شهادة الدرجة الثالثة المدرسية• وكان تفكيرى بهذه الطريقة مبالغة فى الغرور ، ولكن مستقبل تدريبى بوصفى طالبا متخصصا فى دراسة السياسة كان يتطلب هذا المستوى من غرور الطموح •

وعملت على أن أبحث عن أى ترابط انجازات من الدرجة الأولى فى الدراسات المختلفة للحصول على درجة البكالوريوس يمكن أن يمنحنى هذا الامتياز ، وشرعت فى العمل لبلوغ هذا المستوى من الانجاز بغير استمرار ، وانما حقيقة بشعور شديد بالنفس • ولم أشأ أن أشق طريقى للحصول على امتياز بأقل عدد ممكن من النقاط فحسب ، وانما تطلعت الى أن أحصل على امتياز حاسم • وعدم القدرة على دراسة القانون وما صادفنى من خيبة الأمل فى سير حياتى السابق تعاونا فى تفخيم تقديراتى لما يكون الامتياز المهنى فى النهاية •

وانتظرت مصيرى باهتمام بعد أداء الامتحانات النهائية ، وظهرت النتائج أخيرا ، فهل نجحت ؟ نعم ، وهل حصلت على الامتياز ؟ نعم ، ولكن ماذا كانت حدود امتيازى ؟ لقد كانت بضعف الحد الأدنى اللازم للدرجة الأولى •

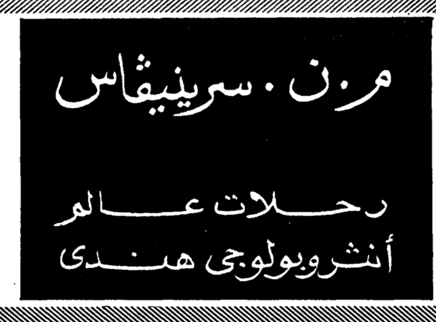
وكانت السنة التاسعة بعد الستين هى سنة حصولى على درجة البكالوريوس فى الفنون مع تركيز على السياسة • وكانت السنة التاسعة بعد الستين كذلك سنة عقد المؤتمر الدستورى فى لندن الذى منح بلادى فى خاتمة المطاف نظاما صار به الافريقيون أقوى نفوذا من السكان البيض • وكان لا يزال أمام تحقيق الاستقلال الكامل بضع سنوات ، ولكن سيطرة المستوطنين القوية كسرت حدتها أخيرا •

وحينما خالطت السياسيين الكينيين فى لندن عند ما كانت المناقشات الخاصة بهذا الوضع الجديد فى تاريخ بلادى محتدمة كنت أكثر ثقة مما كنت فى أى وقت آخر بأننى أريد أن أتغلغل فى دراسة السياسة ، وبخاصة فى محاولة فهم افريقية السياسية ، وعلم السياسة الذى تلقيت دروسه فى انجلترا لم يتناول الشئون الافريقية على الاطلاق ، وكان أول تعرضى للدراسات الافريقية المنظمة فى جامعة من

الجامعات فى جامعة كولومبيا حيث كنت أعمل للحصول على درجة تالية ، ولكن درجة البكالوريوس التى حصلت عليها من جامعة مانشستر قد كونت مصيرى .

وكنت أستطيع أن أجمع بين الصحافى وعملى بوصفى عالما سياسيا ، وكان يمكن أن ترك القانون نهائيا ، ولكن الاشتغال بالمسائل العامة ودراسة الأحوال العامة يمكن أن يظلا جزءا من الحياة التى اخترت أن أحياها .

واتجاهات والدى القديمة فى المناقشات والمجادلات ، واشتغاله القديم بالاصلاح الاجتماعى ، ونشأتى طفلا فى ممبسا وزنزبار ، والدور الذى قمت به بوصفى مشرفا محدود السلطة فى جماعة محددة بمعهد ممباسا للتعليم الاســـلامى ، كل ذلك بدأ يضيف الى نمطا من النمو العقلى ، وهنـــاك فى مدينة منشستر الكثيرة السحب ولد أخيرا عالم سياسى .



انى لمعنى فى هذا المقال الموجز بأن أروى كيف أصبحت عالما بالاجتماع ، وكيف تقدمت فى هذا النهج ، وقد أدخلت فى المقال حياتى الشخصية والمنزلية بمقدار مايتصل ذلك بفهم حياتى العملية . وكذلك لم أناقش فيه النصيب الذى أسهمت به فى الجانب «الفنى» الخالص ، وانما قصرت همى على وصف أوجه نشاطى أنا المنظم للدراسات الاجتماعية فى جامعتين هنديتين وفى غيرهما ، بل لقد وجدت ذلك عسيرا لأنه لم يكن لى مناص من أن أتخلص من محذورين : محذور الاثرة ، ومحذور التواضع فى غير محله . واذا كانت الاثرة مبتذلة فان التواضع فيه غبن .

وانى لأدين بمسيرتى فى علم الاجتماع الى وهن صحتى فى طور صباى وطور مراهقتى . فقد أفسدت دراستى الثانوية ودراستى السابقة للجامعة ملاريا مزمنة كانت تنطلق من حين الى حين فى نوبات من المرض ترتفع فيها درجة حرارتى فلا تهبط الا بابتلاع كميات من الكينا . كنت هزيلا ، ووزنى أقل من المعدل على نحو بالغ ، وكان من رأى أقربائى وأصدقاء أسرتى أننى أوهن من أن أتحمل منهجا دراسيا شاقا مثل الطب أو الهندسة . وقد وفقت توفيقا معقولا فى امتحان اجازة اتمام الدراسة الثانوية (١٩٣١) ، وهو الامتحان الذى كانت تجريه جامعة ميسور ، وكان فى امكانى



ترجمة : إبراهيم زكي خورشيد

مدير عام الثقافة ورئيس مجلس ادارة الدار المصرية للتأليف والنشر سابقا ، ويقوم الآن بتدريس الترجمة بمعهد الترجمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة • له فى ميدان الترجمة نشاط كبير ، فقد ترجم وراجع (١) فصولا كثيرة من تاريخ العالم الذى أصدرته وزارة التربية والتعليم ، (٢) طائفة من مسرحيات شكسبير أصدرتها الجامعة العربية ، (٣) كما ترجم وحقق أطلس التاريخ الاسلامى لهازارد ،
(٤) ومن مترجماته الأخرى رواية روديد لسير جنيف ، والقوازق لتولستوى ، وأمسيات قرب قرية ليميانكا لجوبول، وسوار من عقيق لكوبرين ، والماضى يبعث حيا لادنامجوير، والانتصار على الشدائد لرونالد آدمز ، وقصة الجنس البشرى لفانلون ، (٥) راجع قاموس النهضة (الانجليزية العربى) بالاشتراك مع المرحوم محمد بدران ، (٦) يتولى الآن ترجمة واصدار دائرة المعارف الاسلامية تباعا مع آخرين •

أن أختار منهج الدراسة للاجازة المتوسطة فى العلوم ، ومدتها سنتان ، شأنى شأن معظم من حصلوا على درجات عالية • والحق انه قد اقترح صديق أو قريب أن أتخذ الكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان مواد اختيارية ، لأن ذلك يمكننى من الاتجاه الى دراسة الطب ، ولكن أخى الأكبر نقض ذلك وطلب منى أن أستبدل بهذه الدراسة التاريخ الحديث والرياضيات • وقد حقق لى هذا ، بطريق الصدفة ، أن أبقى فى موطنى مدينة ميسور بين الأسرة التى ولدت فيها حتى حصلت على درجة البكالوريوس فى الآداب ، على حين كان الأمر يقتضينى أن أشخص الى بنجالور اذا كنت قد اخترت المواد العلمية • ولو كنت قد تركت لشأنى لكنت قد تركت الرياضيات ، ولكن أخى الأكبر رأى أنها ضرورية لحياتى العملية فى المستقبل •

ويجب أن أذكر فى هذا المقام أننى كنت أرتاع من الرياضيات ، كنت لا أحسنها ، ولو أننى كنت أعرف أن كثيرا من متاعبى نشأ من عجزى عن رؤية ما كان يكتب على السبورة ، فقد كنت قصير النظر الى حد بعيد ، وظلت هذه حالى فلم أعالج من ذلك حتى بلغت الصف الأول لدرجة البكالوريوس فى الآداب مع مرتبة الشرف فى الفلسفة الاجتماعية فى كلية المهاراجا سنة ١٩٣٣/١٩٣٤ • وكنت مشتركا فى مناظرة ، واذا

أخي الأكبر الذى كان بين الحضور يلاحظ أننى كنت ممسكا بمذكرتى على بعد بوصات من عينى ، وفى صبيحة اليوم التالى أرسلت الى طبيب العيون ، فوجد أن درجة ابصارى ـ ٥٤ فى كل عين ٠

ولما لم أكن أرى ما يكتب على السبورة فانى لم أستطع أن أتابع منهج الرياضيات، ولم أستطع أن أستدرك ما فاتنى فى الصف ٠ ولكن كان لأخى الأكبر محاضرات فى الرياضيات فى محيط أصدقائه الواسع ، فتحدث معهم فى ذلك ، وانتهى الأمر بأننى كنت أتلقى من حين الى حين دروسا مجانية . وبالرغم من هذا العون فان كل مابذلته من محاولة هو أن أجمع من الدرجات ما يكفى لنجاحى فى امتحان الاجازة المتوسطة (سنة ١٩٣٣) بدرجة مقبول وحسب ٠

وكان هذا آخر معاناة لى مع الرياضيات ، وأحسست بشعور من الراحة العميقة لأن مستقبلى سوف يبرأ من هذه الغمة ٠

- ٢ -

وواضح مما ذكرت آنفا أن أخى الآكبر هو الذى اتخذ كل القرارات الكبرى فيما يتعلق بحياتى الدراسية حتى بلغت فعلا أخريات العقد الثالث من عمرى ٠ ولقد توفى والدى فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ ، ولكن القرارات الخاصة المتعلقة بتعليمى وحياتى العملية وغير ذلك من المسائل الهامة كانت توكل لأخى الأكبر ، حتى فى حياة أبى ، لأن أخى كان هو الشخص المتعلم فى الأسرة ، ذلك أنه كان يحمل درجة الأستاذية فى الأدب الانكليزى ، وكان يدرس فى مدرسة المهراجا الثانوية بميسور ثم درس بعد الانكليزية فى جامعة ميسور ٠ كان هذا الأخ قد تأثر بشيخه الروحى المحدث ، فأنكر كثيرا من القيم والأفكار التى كان يدين بها براهمة هذا العصر المحتفظين بالمذهب البرهمى ، بل لقد أبى أن يتزوج بحجة أن ذلك قد يعوق انقطاعه الى رعاية صلاح أسرته ٠ والحق أن هذا الفعل منه كان قرارا شاذا أنكر عليه ، ولكن أكسبه احترام أقربائه واحترام كثيرين غيرهم ٠

وقد جرت أمى على مقارنته فى بعض الأحيان بشخصية بهشما الملحمية ، ذلك الرجل الذى أقسم أن يظل عزبا حتى يضمن لأبناء زوجة أبيه الحق فى اعتلاء العرش بحكم تسلسل النسب ٠

وحصول أخى الأكبر على درجة الأستاذية فى الآداب ورفضه الزواج جعلاه بالفعل رأس أسرتنا الكبيرة ٠ وبلغ من سلطانه الأدبى أنه لم يخطر ببالنا أن نناقشه فى قراراته ٠ وكان أبى بفطرته رجلا هادىء الطبع ، قليل الحظ من التعليم ، وربما أحس من ثم أن اتخاذ قرارات بشأن أبنائه الصغار وبناته الصغيرات أمر فوق طاقته فى حضور ابنه الأكبر المتعلم ٠ على أنه كان من أكبر أمانيه أن يتخرج أبناؤه وبناته فى جامعة أو كلية ٠

ونجحت فى امتحان اجازة الدراسة المتوسطة بدرجة مقبول ، فكان لابد من اتخاذ قرار فى شأن المنهج الذى يقتضينى الأمر ان انتهجه للحصول على درجة البكالوريوس. وقد تدخل القدر فى شخص أكاريا ، وكان صديقا لأخى الأكبر ، وكان ماركسيا متمردا وسأل أخى أكاريا عن المنهج الذى يجب اختياره ، فراح يقلب صفحات دليل الجامعة ، وادلى بحكمه قائلا ان منهج البكالوريوس مع مرتبة الشرف منهج «متفتح» يهذب النفوس ، وهو يصلح لى • فأرسلت بطلبى مختارا هذا المنهج ، فقبلت دون مشقة • وكان المنهج لا يلقى اقبالا كثيرا ، والحق أننى علمت فيما بعد أن محاضرا أو محاضرين فى قسم الفلسفة كانا يحاولان أن يجمعا الطلبة النابهين ، ولم يستطيعا أن يتصيدا غير طالب واحد من الطراز الأول ، اذ وقعا على شاب ضاحك السن مشرق الطبع ألفى هذا المنهج كئيبا كآبة لا توصف •

وكان ثمة نوعان من مناهج درجة البكالوريوس فى الآداب بجامعة ميسور سنة ١٩٣٠ : منهج « درجة مقبول » ومدته سنتان ، وقد خصص لتلك الأعداد الكبيرة من الطلبة الذين يرغبون فى الحصول على درجة علمية فى أقصر وقت ممكن ، ومنهج آخر « لدرجة الشرف » ، ومدته ثلاث سنوات ، وقد خصص للقلة المختارة من الطلبة الذين ينتظر منهم أن يتخصصوا فى مادة بعينها • وكان عدد الطلبة خمسة فى زمرتى الراغبة فى الحصول على درجة الشرف فى الفلسفة الاجتماعية ، على حين كان عدد الملتحقين بمنهج درجة « مقبول » قرابة ١٢٠ طالبا •

وكان المنهج الذى اخترته منهجا طموحا يشتمل على دراسات فى علم الاجتماع ، وعلم الأخلاق ، والفكر السياسى ، وتاريخ الأخلاق ، والدين المقارن ، والنظم الاجتماعية الهندية ، وعلم الأخلاق عند الهنود ، والنظرية السياسية الهندية • وكانت المواد « الفرعية » التى تلقى فى آخر السنة الثانية تشمل : علم الانثروبولوجيا ، وعلم النفس الاجتماعى ، وعلم السياسة المقارن ، والاقتصاد الهندى •

وكان الأستاذ أ • ر • واديا الذى رأس قسم الفلسفة من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٤٢ ، هو الذى خطط هذا المنهج ، وكان أكثر اهتماما بعلم الأخلاق ، وعلم الاجتماع ، والفكر السياسى ، والخدمة الاجتماعية ، منه بعلم ما وراء الطبيعة الخالص• وقد أظهر واديا خيالا وشجاعة وهو يدخل علم الاجتماع ، وعلم الانسان الاجتماعى ، وعلم النفس الاجتماعى وعلم السياسة فى منهج عن الفلسفة ، وانى لأتوقع أن يكون قد لقى فى ذلك تشجيعا من الدكتور براجندرانات سيل ، وهو من نواب مدير جامعة ميسور الممتازين • وسيل عالم لوزعى متفنن فى علوم جمة درس « علم الاجتماع المقارن » فى جامعة كلكتا فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى •

وقد أثبتت جامعة ميسور فى ظل قيادة واديا أنها من الجامعات الرائدة فى ادخال علم الاجتماع فى منهج الفصول الدراسية لطلبة الجامعات • وليس هذا الفضل بالأمر اليسير ، ذلك أن الجو الأكاديمى المعاصر فى الهند كان ينظر بعين الشك الى اتخاذ علم الاجتماع منهجا للدراسة ، فقد كان رجال الجامعات الهنود الذين تعلموا

بالجامعــات الانجليزية يتحـاملون تحـامل أساتذتهم على نظم قارة أوربا وأمريـكا وأفكارهما ، ولم يتناقص التحامل على علم الاجتماع الا تدريجا فى غضون السنوات التالية للاستقلال ، ولسنا بجانب الصواب اذا قلنا ان هذا التحامل لم يكن قد تلاشى بعد كلية ٠ وانفتاح رجال الجامعات انفتاحاً متزايدا تزايدا كبيرا على الجامعات الأمريكية فى السـنوات الخمس والعشرين الأخيرة عامل هام أسهم فى الشيوع الحـديث لعـلم الاجتماع . وثمة عامل آخر هو الادراك المتأخر لعجز التناول الاقتصادى الخالص عن تحقيق التقدم ٠

لقد كان فى فصلى خمسة من الطلبة بما فيهم أنا ، ولم يكن ثمة مناحى من أن تتوثق علاقتنا بأساتذتنا ، وكنت أصغر الخمسة ، وكان الكثير من علم الأخلاق والفكر السياسى والدين المقارن فوق ادراكى ، ولكننى وجدت علم الاجتماع والنظم الاجتماعية وعلم الانثروبولوجيا علوما مشوقة ٠

- ٣ -

وينبغى لى هنا أن أتناول البروفسور واديا بتعليق موجز ، لقد كان رجلا يروعك منظره كثيرا ، حسن البزة دائما فى سترة من الحرير ، وسراويل بيضاء من الكتان الخشن ، وحذاء أسود ، وقميص مخطط ، ورباط عنق ٠ وكان شأن معظم البارسيين أشقر البشرة . وكان شعره المفروق من الوسط يكتنف وجهه المستدير وكان شاربه دقيقا قصيرا خشنا ، ويضع على عينيه نظارة ذات اطار ذهبى مزركش ٠ وهو فى منظره أقرب الى المأمير أصحاب السلطان منه الى العالم ٠ والحق أن فيه شيئا من أمارات السلطان ، كما أن زملاءه وطلبته الذين كان ينعم باحترامهم وتقديرهم ، لم يكونوا يحسون الارتياح التام حياله . كان المتمسكين بالنظام لايغتفر بسهولة الهفوات التى تخرج على القواعد ٠ ولكن الجميع كانوا يعرفون أنه لا يفرض على الآخرين المعايير والقواعد التى لا يراعيها هو نفسه ٠ وكان يحاضر دائما فى ردائه الجامعى ، ولا يأتى الى الفصل دون تحضير ٠ وكان يبذل جهدا للتعرف على طلبته بما فيهم الطلبة العديدون فى فصل البكالوريوس فى الآداب ، كانوا جميعا يدعون الى الشاى ، فى مجموعات من ثمانية او عشرة من الطلاب ، عشية امتحانهم النهائى ٠ وكان يعهد أيضا الى كل منهم بكتابة مقال يترجم فيه لحياته فيودعه محفوظاته ، وكان حقا من الذين يلتقطون المواهب ، ويبذل أقصى جهده فى تشجيع الطلبة الموهوبين ٠ وكان أكرم ما يكون فى تقدير كفايات طلبته ، وهى صفة اتضح لى أنها اندر مما كنت أظن ٠

وكانت صلاتى به حسنة معظم الوقت الا فى مناسبة واحدة : ظننت فيها أننى انخرط فى محسنات لفظية لا موجب لها بدلا من الادلاء بحججى بقدر ما أستطيع من بســاطة ٠

ولست أنسى أنه جازانى على ذلك فمنحنى درجة « ب » بدلا من « أ » ٠ وكذلك كان ماديا صادقا مع نفسه حين أسف من قلبه عندما فقدت الدرجة الأولى فى امتحان

مرتبة الشرف الأخير بفارق قليل ، وابى أن يمنحنى درجات «المجاملة» اللازمة شأن غيره من رؤساء الأقسام ، فقد كان يريد منى أن أحصل على الدرجات بكفاءتى لا بمشاعر الود التى كان يكنها لى . واحسست الألم وقتذاك ولكننى أرى الآن أنه تصرف التصرف السليم ٠

لقد كانت الطريقة التى تأثرت بها حياتى العملية بفضل واديا أولا ثم بتدخل الدكتور ف ٠ ك ٠ ر ٠ ف راءو عجيبة حقا ٠ فبينما كان واديا هو السبب فى احضارى الى بارودا (والهند) فان تركى بارودا الى دلهى فى مارس سنة ١٩٦٩ كان بالحاح من الدكتور راءوا الذى كان وقتذاك نائبا لمدير جامعة دلهى ٠ ونزحت من دلهى الى بنجالور فى مايو سنة ١٩٧٢ لأتولى بالمشاركة ادارة معهد التغير الاجتماعى والاقتصادى ، وكان ذلك أيضا نتيجة لتدخل الدكتور راءو ٠

وأعود الى الكلام عن واديا فأقول انه كان فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ فى لجنة اختيار عهد اليها باختيار محاضرين فى قسم علم الاجتماع ببومباى . ومثلت أمام اللجنة ، وكنت فى قائمة المرشحين ، ولكن اختير اثنان غيرى لأنهما كانا أقدم منى . وقدشجعنى واديا وراذا كرشنان فى الجهود التى بذلتها للشخوص الى أوكسفورد بعد أن أتممت عملى فى بومباى ٠ ثم ان واديا كان مسئولا أيضا عن عودتى الى الهند أستاذا لعلم الاجتماع فى جامعة بارودا الجديدة ، التى كان يتولى وظيفة النائب الأول لمديرها وبناء على اقتراح واديا كتب راذا كرشنان الى السيدة هانسا مهتا نائبة المدير موصيا بى ٠

وقد ترك واديا بارودا فى يونيه سنة ١٩٥٢ ، بعد سنة واحدة من التحاقى بالجامعة ، واستقر فى مسقط رأسه بومباى ، وانخرط بنشاط فى المسائل الأكاديمية والمسائل العامة ، الى ما قبل وفاته سنة ١٩٧١ بسنة واحدة أو نحوها ٠ وكنا قد ظللنا على اتصال أحدنا بالآخر حتى سنة ١٩٧٠ ، وهنالك تركت دلهى لتولى الزمالة فى مركز الدراسة العليا فى علوم السلوك بستانفورد ٠

وشاء واديا أن أخلفه فى ادارة معهد تاتا للعلوم الاجتماعية ، ولكننى لم أر أن لدى من المؤهلات ما يسمح لى برياسة معهد متخصص فى الخدمة الاجتماعية ، وقد أدرك واديا وجهة نظرى ولم يستحثنى على ذلك ٠

- ٤ -

جزت امتحان البكالوريوس فى الآداب مع مرتبة الشرف فى صيف سنة ١٩٣٦ ، وكانت نتيجة الامتحان كما ذكرت مخيبة لأملى خيبة أحسست حيالها بالمرارة ، ولكنى اذ أرد بصرى للوراء أدرك أن الأقدار كانت رحيمة بى حين حرمتنى من مرتبة الشرف الأولى التى جاهدت فى سبيلها ، فى حين أننى متأكد الآن من أننى لم أكن أستحقها (كنت ممتحنا غبيا غاية الغباوة لا أعرف أوليات التحضير لدخول

امتحان . فقد كنت أحسب أن الأمر يقتضينى أن أقرأ قراءة واعية كل شىء مقرر . فى حين أن جميع طلبة مرتبة الشرف الأولى فى موضوعات الآداب يركزون على موضوعات بعينها ، بل مسائل ، ولكن المغامرة لم تكن من طبيعتى . على أننى أصبحت مدركا لما ينقصنى أنا المتقدم للامتحان بعد أن انتهيت من دخول الامتحانات بوقت طويل فحسب) . ولو اننى حصلت على مرتبة الشرف الأولى لكنت قد ظفرت بوظيفة التدريس فى جامعة ميسور ، وانى لموقن أن ذلك كان خليقا بأن يضع حدا لتقدمى من حيث أنا عالم بعلم الاجتماع . ذلك أن جملة من زملائى أنصع صفحة منى بكثير فى سجل دراستهم الجامعية تولوا مناصب تدريس فى جامعة ميسور فى العقد الرابع من هـذا القرن . ولكنهم أصبحوا محرومين مضيعين حين وجـدوا أن الترقيات فى الجامعة وفى غيرها من مناصب الولاية تقوم على اعتبارات من قبيل الطائفية والقرابة لا على الكفاءة . فالبراهمة بصفة خاصة كانوا موضع تحامل من غيرهم على أساس أنهم كانوا طائفة ممتازة تاريخيا ، وظلوا حتى العقد الثانى من هذا القرن ينعمون باحتكار وثيق لمناصب الحكومة . وقد استحدث بعد ذلك مبدأ تخصيص حصص للطوائف فى وظائف الحكومة واحتجاز هذه الوظائف لها فى العقد الثانى . وفى سنة ١٩٣٦ ، وهى السنة التى تخرجت فيها ، أصبح لا يسمح للبراهمة الا بالتقدم لوظيفة واحدة من كل خمس وظائف يعلن عنها .

وقد نجتنى المرتبة الثانية التى حصلت عليها من حضور امتحان ميسور للخدمة المدنية الذى كان مزمعا عقده بعد فترة طويلة ، وكان من المقرر أن يختار اثنان من مساعدى الوكلاء بالصلاحية على أساس ما أدياه فى الامتحان ، وكان كل خريج يأنس من نفسه الكفاية للوظيفة أو يأنس والداه فيه أنه كفؤ لها ينالها . وكنت أعلم أن فرصتى قليلة أو معدومة فى الالتحاق بالخدمة المدنية فى ميسور ، ذلك أن بعض معارفى من الطلبة المقتدرين كل القدرة الذين هم أسن منى كانوا يتنافسون على ذلك. ثم اننى كنت مجهدا جدا بعـد ثلاث سنوات امضيتها فى العمل الدائب للاعـداد لامتحان مرتبة الشرف حتى لقد كرهت فكرة مواجهة امتحان آخر تشتد فيه المنافسة. وثمة اعتبار غير ذلك مهم هو أن أخى الأكبر كان يرفض التحاقى بخدمة الحكومة الا فى وظيفة مدرس . ورحبت باقتراحه أن اشخص الى بومباى للتحضير لدرجة الماجستير فى الآداب فى علم الاجتماع ، وان اعمل علاوة على ذلك فى التحضـير لدرجـة فى القانون مساء .

وكان ج . س غوريه هو أستاذ علم الاجتماع فى بومباى ورئيس هذا القسم ، كما كان أحد ممتحنى فى درجة البكالوريوس فى الآداب . وقد اتفق اننى حصلت على ٦٦٪ من الدرجات فى أسئلة علم الاجتماع التى وضعها وقدر درجاتها. وقد زودنى واديا برسائل توصية الى غوريه ، والى الدكتور ن . ا . ثوثهى مساعد الأستاذ فى قسم الاجتمـاع ، ثم ان الأستاذ م . هـ . كرشنا الذى درس لنا علم الانسـان الاجتماعى كان متحمسا فى رغبته أن أعمل فى رعاية غوريه ، فقد كان غوريه فى نظره خير علماء الاجتماع فى الهند .

وكانت مدرسة الاقتصاد والاجتماع الجامعية فى بومباى شيئا فريدا فى الحياة الأكاديمية فى الهند فى العقد الرابع وكانت تشمل قسمين : الاقتصاد ، والاجتماع ، وكان أول أستاذ للاجتماع ورئيس القسم هو عالم الأحياء ومخطط المدن البارز السير باتريك جدس . وكان القسمان جميعا للخريجين وللأبحاث . وفى سنة ١٩٣٦ كان ثمة منهج لدرجة الماجستير يجمع بين الاقتصاد والاجتماع ، وكان رئيس قسم الاجتماع الدكتور س.ن. فاكل هو مدير المدرسة أيضا . وكان يحضر دروس الماجستير حوالى ثلاثين طالبا . وكان ثمة أكثر من عشرين طالبا يدرسون لدرجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وكان لمعظمهم وظائف كل الوقت أو بعض الوقت . وكانت هذه أياما لاتعرف منحا للتحضير لدرجة الدكتوراه .

وبالنظر الى حصولى على مرتبة الشرف الثانية فى علم الاجتماع اقترح غوريه أن أقدم رسالة لدرجة الماجستير بدلا من كتابة أبحاث فى نهاية السنتين اللتين حضرت فيهما المحاضرات . وقد اخترت موضوعا لرسالتى هو «الزواج والأسرة بين طوائف الكنادا فى ولاية ميسور » ، وأتممت رسالتى قبل نهاية عام ١٩٣٨ ، وطبعت سنة ١٩٤٢ بعنوان « الزواج والأسرة فى ميسور » (بومباى ، شركة الكتاب الجديد) . وقد عرض هذا الكتاب عرضا مرضيا فى المجلات المتخصصة بما فيها مجلة تيتشر. على أننى حين كنت أرد بصرى الى الوراء يبدو لى الكتاب غير ناضج ويبدو أسلوبه فجا ، وقد سررت حين نفذت طبعته فى العقد السادس .

— ٥ —

لقد أثر غوريه تأثيرا هاما فى حياتى العملية ، ولذلك فانى أقدم هنا فكرة مختصرة عنه رجلا وعالما .

كان غوريه طالبا يدرس السنسكريتية حتى حصل على درجة الأستاذية وحظى بالمدلاة الذهبية لمدير الجامعة التى كانت مطمح الطلبة سنة ١٩١٨ لقاء تبريزه فى امتحان درجة الأستاذية . ولم يتعرض غوريه لعلم الاجتماع الا بعد ذلك حين حضر محاضرات جدس فى الجامعة . وكان لطول باع جدس فى التدريس الفضل فى أنه استطاع أن يكتشف ماينطوى عليه غوريه من قدرات فى ميدان علم الاجتماع . وخاصة أن طلبة السنسكريتية فى الجامعات الهندية كانوا يعيشون فى عالم خاص بهم بعيدا كل البعد عن عالم غيرهم . وقضى غوريه سنة يدرس على جدس ، ثم أختير للدراسات العليا فى جامعة لندن فى رعاية هوبهوس الذى كان أستاذا لكرسى مارتن هوايت فى علم الاجتماع .

وترك غوريه لندن الى كمبردج بعد ستة أشهر لأنه وجد العلامة هوبهوس كئيبا لا يوحى بالنشاط والتقدم . وتأثر فى جامعة كمبردج بكل من هادون وريفرز ، ونما فى قلبه اعجاب عارم بريفرز ، وقد رأى غوريه فى وفاة ريفرز المبكرة سنة ١٩٢٢ اثر اصابته بفتق مختنق مأساة اصابت علم الانثروبولوجيا بل نكبة نزلت به هو .

وقد تأثر غوريه فى تناوله لمشاكل علم الانسان بريفرز ، كما تأثرت اهتماماته به أيضا . ووضع غوريه أسس كتاب من أهم كتبه هو « الطائفية والجنس فى الهند » فى الدراسات العديدة التى قدمها لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى موضوع « النظرية السلالية للطائفية » . وكان اهتمام غوريه بالقرابة وبالمشاكل السلالية الخالصة (مثل اتجاه صلة الرحم فى الهند) راجعا الى دراسته فى كمبردج . وأستطيع أن أضيف هنا أن غوريه قد جمع فى بردته على نحو مثمر النظرة السلالية والنظرة الهندية ، وهو جمع قد أهلته له تأهيلا بارزا دراسته السنسكريتية السابقة. على أنه لم يقف عند هذا الحد . ذلك أنه اضطلع مثلا بدراسة العادات الجنسية للكتبة فى بومباى ، ونشر نقدا لكنسى فيما بعد .

والظاهر أن غوريه كان واقعا تماما تحت السيطرة العقلية لريفرز حتى فى الفترة التى عرفته فيها ، أى ما بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٤٤ ، بل لقد دافع عن انتصار ريفرز ، هو واليوت سميث وبيرى ، للنظرية القائلة بارجاع ظواهر ثقافية هامة ، مثل تحنيط الموتى فى أرجاء من العالم تفصل بعضها عن البعض آماد شاسعة ، الى أصل مصرى . وقد حمله حبه لأستاذه على التصرف تصرفا خشنا مع مالينوسكى الذى انتقد أسلوب ريفرز الجبرى فى دراسة القرابة . فعلى حين كان غوريه لا يقدر مغزى الثورة الوظيفية فى علم الانسان الاجتماعى فانه عد رادكلف برون « قائلا أصيلا بالمذهب الوظيفى » على العكس من مالينوسكى . وانى لأشك فى أن بعض السبب فى ذلك يرجع الى أن رادكلف برون كان تلميذا لريفرز .

ومن الدروس الباقية التى تعلمها غوريه فى كمبردج الصلة التى لا تنفصم بين علم الانسان الاجتماعى (الانثروبولوجيا) والسنة التى درج عليها البحث الميدانى . وبينما نجد غوريه نفسه لم ينهض بأى بحث ميدانى جاد قط ، نجده قد أسهم أكثر من أى أستاذ آخر فى اقامة علم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا فى الهند على أساس سليم من البحث الميدانى . فمن كرسيه فى جامعة بومباى أشرف اشراف رجل واحد على مسح سلالى للهند ، وهو عمل نهض به من غير أن يستند على موارد مالية أو قل انه استند على موارد قليلة ، وكان الأسلوب الذى اصطنعه لذلك طريفا . ذلك أن بومباى بحكم أنها أشد مدن الهند اختلاطا بالسكان من مختلف الأجناس قد أتاحت لغوريه طلبة ماجستير ودكتوراه فى الفلسفة قدموا من مختلف الأقطار ومختلف البيئات الاقتصادية ، فشجعهم حيثما كان ذلك ممكنا على اتخاذ المشاكل القائمة فى أقطارهم موضوعا لرسائلهم التى يتقدمون بها لنيل درجة الماجستير والدكتوراه . وكان معنى ذلك أن يستقصوا الكتب الموجودة باللغة الانكليزية واللغة المحلية طلبا للمعلومات ، وأن يستوفوا ذلك بالبحث الميدانى . وبهذه الطريقة حاول غوريه أن يحصل على رسائل علمية فى موضوعات من قبيل « الثقافة الهندوسية فى السند » و «المسلمون فى أوتار براديش» و «الهاريجانية فى بومباى» و «البرابهوية والكولية فى مهاراسترا » .

وقد قام طلبة غوريه أيضا بأبحاث فى القرية ، ولكن هذه الدراسات كانت أشبه بالدراسات التى قام بها الاقتصاديون الزراعيون منها بالدراسات المركزة التى قام بها علماء علم الانسان فى العقد السادس .

وشجع غوريه أولئك الطلبة الذين كانوا قد درسوا السنسكريتية على وصف وتحليل الحياة الاجتماعية والثقافية فى الهند القديمة . ومن ثم كتب ل . م . كاباديا عن « القرابة الهندوسية » ، وكتب س . ف . كرندكار عن « زواج الهندوس من غير جنسهم » ، وأفادت السيدة كارف من علمها بالسنسكريتية ، كما افادت مما قامت به من بحث ميدانى ، فكتبت كتابها الرائع « نظام القرابة فى الهند » .

كنت قد بلغت التاسعة عشرة عندما لقيت غوريه ، ولا شك أننى بدوت له ساذجا فجا،وقد امتلأ عقلى بأفكار لم اهضمها جيدا استقيتهامن الكتب التى قرأتها. على أننى كنت متحمسا للدراسة وطالبا من طلبته القلائل المتفرغين . وكان أول ماعهد به الى أن أتناول بعرض نقدى كتاب هوبهوس « الأخلاق فى تطورها » . وهو كتاب وجدته كئيبا كآبة فريدة . ولست أدرى هل قمت بهذا العرض أم لا ، وما رأى غوريه فيه ان كنت قد قمت به . على أننى موقن أننى لم أغضبه فى هذا الصدد ، ذلك أنه سمح لى بأن أتقدم برسالة لنيل الماجستير بدلا من الطريقة المألوفة القاضية بكتابة بحوث . وقد كنت أعلم أن اعداد رسالة يهيء لى فرصة لاظهار قدراتى أحسن من الدخول فى امتحان . ولم يكن ثمة حد مانع فى حالة تقديم الرسالة ، ثم انه لم يكن مفروضا على أن أدخل فى منافسة مع ثلاثين طالبا آخر ، وهوما كنت خليقا أن أفعله لو أننى اخترت تقديم أبحاث .

وأثناء السنة الجامعية ١٩٣٧/١٩٣٦ قضيت من وقتى فى التحضير لامتحان القانون الأول أكثر مما قضيت فى علم الاجتماع ، وانصرفت الى علم الاجتماع بتخصيص سنة ١٩٣٨/١٩٣٧ كلها للتحضير لدرجة الأستاذية ، فرحت أقرأ المجلات المألوفة ، وتقارير التعداد ، والمجلدات المكتوبة عن قبائل ميسور وطوائفها ، وأدب كناده الشعبى ، بل الروايات . وطبعت أسئلة على نفقتى ، وقمت بدراسة ميدانية لمدة قصيرة فى قريتى.ولقيت رهبانا وغيرهم ممن تؤهلهم مراكزهم لتزويدى بالمعلومات عن العادات والطقوس .

وقد حدث قبل بضعة أشهر من تجهزى لتقديم رسالتى أن أخبرنى غوريه بأن بعض التغييرات وشيكة فى الجامعة ، وأنه يجب على أن أعدل قيد اسمى من درجة الماجستير الى درجة الدكتوراه . ولكنه أبلغنى بعد أيام قلائل أنه أعاد النظر فى الأمر وهو يطلب منى أن أمضى فى التحضير لدرجة الأستاذية . وتبينت السبب فى ذلك بعد برهة . ذلك أن الجامعة أنشأت منحتين دراسيتين للبحث ودرجة مساعد للبحث فى كل من القسمين . وقد منحت منحة دراسية فى يونية ١٩٤٠ للقيام بدراسة ميدانية للكورجية فى جنوبى الهند . وكان غوريه قد قرأ عن الكورجية فى كتاب

رختر « رسالة فى الكورج » ، وكان قد فتن بمظهرهم المتميز ، ولباسهم ، وثقافتهم النزاعة للقتال ، وأضرحة أجدادهم ، وقد أراد منى أن أدرس هؤلاء القوم لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، ففعلت ٠

- ٦ -

وعلى حين كانت الدراسة الميدانية للكورجية فى جبالهم الشجراء محببة الى نفسى فقد أقلقنى أننى كنت قد غدوت راوية للعادات ولم أصبح رجلا يضع النظريات عن المجتمع كما كنت أريد ٠ وينبغى لى أن أوضح هنا أنه كان لى وقتذاك أصدقاء قليلون وانهم كانوا من الغانديين المثاليين الذين ليست لهم أية مشاركة معى فى اهتماماتى المتصلة بعلم الانسان ٠

ولم يكن لانفعالاتى أى معنى فى نظرهم ، كما أنهم لم يتصوروا أن دراساتى ستؤدى بى الى وظيفة عالية المرتب ٠ وقد أزعجنى ذلك كله ازعاجا ليس بالقليل ، وظننت أنه ينبغى لى أن أختار موضوعا نظريا لدرجة الدكتوراه فى الفلسفة ٠ فمضيت الى الأستاذ م ٠ هيريانا الذى كان عميقا فى فهمه للفلسفة الهندية ، وسألته : هل فى وسع شخص ليس له علم بالسنسكريتية أن يعد دراسة عن كيفية قيام العلاقة بين الفرد والمجتمع فى الفكر الهندى ٠ وقال هيريانا اننى أستطيع أن أقوم بمثل هذه الدراسة ٠ ولكن هذه الخطة وئدت فى مهدها على يد غوريه ، فقد أخبرنى أنه ليس من المنظور أن أنال منحة دراسية اذا اخترت موضوعا لا يتضمن دراسة ميدانية ، ذلك أن غوريه كان ينظر نظرة سوداء الى تطلعى الى النظريات ٠

وكنت احس بالمرارة وقتذاك من غوريه ، ولكنه لا يسعنى ، حين أرد بصرى الى الماضى ، الا أن أشكره على استمساكه بأن لا يسمح بالمنحة الدراسية الا لمن يقوم بدراسة ميدانية ٠ ذلك أن الدراسة الميدانية كانت أساسية لتطور علم الاجتماع فى الهند ، وانى لأذكر ، بمنأى تام عن ذلك ، أن غوريه قال لى ان المرء لا يستطيع أن يفهم « شبكة الروابط الاجتماعية » الا بالخبرة التى يحصلها من الدراسة الميدانية ٠ وقد ازداد عندى شأن هذا التعليق زيادة كبرى اذ صدر من عالم ضليع ٠

وقد كان غوريه يكد فى اعداد محاضراته ، ولكنى وجدتها جامدة مكررة ٠ على أنه كان ، على العكس من ذلك ، مثيرا فى حديثه غير الرسمى ، فقد كان يتحدث عن كل شىء بما فى ذلك الجنس ، وكان صريحا متحررا ، وقد جريت على أن أهبط الى غرفته كلما ساورنى شك أو اعترضتنى صعوبة ، وكان غوريه لا يبخل بوقته (كنت احس احيانا أنه كان يرحب بمن يقتحم نفسه عليه) . وكثيرا ما كانت المناقشـــة تخرج عن الموضوع خروجا ، وكان ذلك يزودنى بفكرة عن الانسان الذى ينطوى عليه هذا العالم ٠ ولم يكن ثمة شك فى تكريسه نفسه للتدريس والبحث ٠ ولكنه كان قد اتخذ قرارا فى كثير من المسائل فلا يتحول عنها أو يريم ٠

ولم تبلغ دراستي الميدانية للكورجية من العمق والاستقصاء ما كنت أحب ، ذلك أنه حدث ، في غضون أسابيع قليلة من رحلتي الأولى الى مركارا عاصمة الكورجية، أن أصبت باضطراب شديد في المعدة ظل بلا تشخيص عدة أسابيع ، وقد اكتشفت أنه لا شفاء منه وأنه لا مناص لي أن أعيش بهذه العلة ٠ ومن ثم لم أجد مناصا من أن أجمع معلوماتي في رحلات قصيرة عابرة ٠ ولكنني حاولت آخر الأمر أن أجمع قدرا معينا من المعلومات عرضته في دراسة من مجلدين استغرقا قرابة ٩٠٠ صفحة ، وصدرا في ديسمبر ١٩٤٤ حين ودعت بومباى ، التي كنت قد بدأت أحبها ، وشخصت الى ميسور ٠

وانتهت منحتي الدراسية في يونية ١٩٤٢ ، وسرعان ما عينت مساعدا للبحث في القسم ، وظللت أتولى هذا المنصب حتى يونية ١٩٤٤ ٠ وكانت واجبات منصبي الجديد تقتضيني أن أساعد غوريه في أبحاثه بما في ذلك القيام بجولات لجمع المعلومات ٠ على أنه قد سمح لي أن أنشر باسمي جزءا من المعلومات التي جمعتها في جولاتي ، وكان هذا الجزء عن الأدب الشعبي ٠ وقد ذهبت وأنا مساعد بحث في جولتين ميدانيتين ، احداهما الى « تاميل نادو » سنة ١٩٤٢ ، والأخرى الى « أندهرا » سنة ١٩٤٣ ، واستطعت بفضل معرفتي العابرة بالمنطقتين جميعا ـ وهما تاميل وتلوجو ـ أن أنجز مهمتي فيهما على نحو معقول ٠ واتسع أفق معرفتي بالسلالات نتيجة لجولاتي ٠

وبدأت صلاتي بغوريه تتأزم سنة ١٩٤٣ ، وظل هذا حالي عدة سنوات ، ولكنني لن أدخل في تفصيلات ذلك هنا ، وحسبي أن أعترف بما له من دين في عنقي ، اذ غرس في نفسي الأهمية البالغة للدراسة الميدانية في علم الاجتماع ، وجنبني ركوب مركب النظريات والتفكر المحلق ، وشجعني على أن أضع نصب عيني دائما « الحقيقة السلالية » ٠ ولقد تعلمت من عملي معه بعض المنهج العقلي الذي كنت في أشد الحاجة اليه ٠ أما من الناحية السلبية فان الثماني السنوات ونيفا التي قضيتها في المران على يديه قد خلقت عندي شعورا بعدم الرضا ٠ فقد كنت بدأت بالتطلع الى أن أصبح صاحب نظريات في المجتمع ، وانتهيت بأن غدوت مؤرخا يخمن وجامعا حريصا للوقائع السلالية دون أن أستطيع أن أوحدها في اطار له معنى ٠

لقد نضب اهتمامي بالأفكار ٠

أما من الناحية المادية فقد كان موقفي موقفا لا أحسد عليه أيضا ٠ كنت قد حصلت على درجة الماجستير وعلى درجة البكالوريوس في القانون ، وقدمت رسالتي لدرجة الدكتوراه في الفلسفة ، ولكن لم تلح لي أية وظيفة ، وأسوأ من هذا أنه لم يكن في الأفق أي منصب في الاجتماع ٠ وقد اقترح صديق خير للأسرة أن ألتحق بمصلحة التموين وقت الحرب ، وهي مصلحة في حكومة الهند ، ولكن هذا الاقتراح لم يرق لأخي الأكبر ولا لي ، وهنالك فكرت في أن أتابع دراساتي في الخارج ٠ ولكن الاعتمادات المرصودة للدراسات العليا في الخارج كانت نادرة كل الندرة في تلك

الأيام ، ولم تفلح كل الجهود التي بذلتها للحصول على منحة دراسية . ولكن أخي الأكبر كان كريمـا ، وكذلك كان أخ لي آخر هو ع . فقـد منحنى ٦٠٠٠ روبيـة تقريبا ، وكفاني هذا المبلغ للانتقال الى انجلترا وسد نفقات اقامتي فيها الثلاثة الأشهر أو الأربعة الأولى .

- ٧ -

قدمت طلبا للالتحاق بمنهج الدكتوراه في الفلسفة بجامعة أوكسفورد وبجامعة كولومبيا ، ولكنى لم أتلق ردا الا من جامعة أوكسفورد ، وقد قبلتني هـذه الجامعة للالتحاق بمنهج البكالوريوس في الآداب من الدرجة الأولى مع السماح لي بالتحول الى درجة الدكتوراه في الفلسفة فيما بعد بأثر رجعي . وطلب منى أن أقدم موضوعا لرسالتي ، فاخترت شيئا من قبيل « نماذج ثقافية بين ثلاثة مجتمعات هندية سلالية هي الكورجيـة ، والتوداوية والجنجوية » . وكان الأسـتاذ داريل فورد ينوب عن الأستاذ رادكلف برون الذى كان غائبا في البرازيل يقوم بدراسة ميدانية .

وصلت الى أوكسفورد في ١١ مايو سنة ١٩٤٥ ، أى بعد شهر بالضبط من مغادرتي بومباى ، فوجدت أن رادكلف برون قد عاد من البرازيل . وكانت لقاءاتي الأولى معه أبعد ما تكون عن التوفيق لا تنم عن العلاقات الودية التي نشأت بينه وبيني فيما بعد .

وكانت نظارتي قد تلفت تلفا شديدا في لعبة الأطواق على ظهر السفينة قبل نزولي الى البر بيوم أو يومين . فقد اطاح بها ارتداد سريع قمت به فتحطمت عدسة من عدستيها وكسرت الأخرى كسرا شديدا . ولم يكن قد طاف بذهني أن أحمل معي نظارة أخرى احتياطية ، وكان بصرى من القصر بحيث لا يفلح معه أن أستخدم عدسة واحدة . ولم أدرك كيف كان منظرى يبدو عجيبا لكل امرىء وأنا أتجول في السفينة بهذه الهيئة . ولا شك أن منظرى بدا أعجب حين نزلت الى البر في تلبورى رجلا أسود في بلد من البيض يسير بعدسة مكسورة . وقد لقيت مدير اكستر الدكتور باربر الصارم المنظر النظيف اللباس لا تعلوه غبرة . بعد وصولي الى الكلية مباشرة ، فسألني من فوره الذهاب الى أقرب طبيب للعيون . وقال لي الطبيب أنه يحتاج الى أسبوعين على الأقل ليزودني بنظارة جديدة .

وقد مثلت بين يدى رادكلف برون بعد أن زرت طبيب العيون مباشرة ، فتفحصني متمهلا من خلال منظاره ذى العين الواحدة . وأحسست بجلافتي وحماقتي قائلا لنفسي يا ليتني أمسكت عن لعبة الأطواق على ظهر السفينة .

ولم أكن أعلم أنه قد حدث قبل ذلك بوقت ما أن طالبا هنديا من طلاب علم الانسان قد أزعج السير سوى للحياة الاكاديمية في أوكسفورد بنشاطه السياسي . ولم يكن هـذا الطالب لامعا ، بل كان معتـديا ، أقلق أساتذته وغيرهم ممن كانوا

يرعونه . وكان الطلبة الهنود فى تلك الايام ، ومعظمهم من أسر غنية ، سمعة بالتطرف السياسى ، ولم يكن ذلك يحببهم الى البريطانيين الذين يحتكون بهم .

ولعل رادكلف برون قد ظن أننى أنا أيضا يمكن أن أكون مصدرا للمتاعب ، وكان مظهرى لا يمكن أن يخفف من قلقه .

وكانت هذه الاعتبارات السطحية تنطوى على سبب آخر هام يحمل رادكلف برون على أن يكن من أول الأمر شعورا لا يدعو الى الرضا . وكان رادكلف سيىء الرأى فى فكرة روث بندكت ، فان لكل ثقافة نموذجا ، وهذه النماذج يمكن تصنيفها (فيقال مثلا : النموذج الأبولونى والنموذج الديونيزى) . ومثل هذا التصنيف له أثر عميق فى مسلك أهل هذه الثقافة . ويرى رادكليف برون أن روث قد اختارت حقائق تناسب نظريتها وتجاهلت الحقائق التى لا تتمشى معها ، ثم ان نظريتها كانت بصرف النظر عن ذلك مضادة للنظرة « العلمية » .

كان رادكلف برون من المستمسكين بالفلسفة الوضعية ، قد آمن بأن علم الاجتماع كان علما كعلم الأحياء أو غيره من العلوم الطبيعية ، وأن سلوك الانسان الاجتماعى تحكمه قوانين كلية من شأن عالم الاجتماع أن يكتشفها بالمقارنة المنهجية بين النظم التى تسير عليها المجتمعات المختلفة . ثم ان نظرة رادكلف برون التركيبية قد ادت الى الحط من شأن الثقافة بل استبعادها . ويمكن أن نرد الأصل فى مروق رادكلف برون الى ولهلم دلثى الفيلسوف الألمانى ، وكان رادكلف برون ذا نفع قليل لدالثى واضرابه .

وكانت مشابهة رادكلف برون لعلماء الاجتماع الفرنسيين فى المزاج بارزة بروز مخاصمته لعلماء الاجتماع الألمان . وعلى حين نجده لا يستطيع أن يحاضر دون أن يشير الى دوركهايم ، وموسى ، وهوبرت ، ولوازى ، وليفى برول ، وجرانيه ، فانه قلما يذكر ماركس أو فبر . وكان عالم الاجتماع الألمانى الوحيد الذى يذكره ، ويذكره باحترام هو سمل .

ولعل عداوة رادكلف برون للمفكرين الألمان ترتبط بحوادث معنية فى حياته الشخصية ، ولكنى لن أغوص فيها هنا . وحسبى أن أقول اننى على حين علمت بعدم موافقة رادكلف على موضوع بحثى بعد أن أصبحت طالبا من طلبته ، فانى لم أكتشف علة عدم موافقته وعمق ذلك الا رويدا رويدا .

وحضرت محاضرات رادكلف فى الجزء الباقى من الفترة الدراسية الصيفية ، وانى لأذكر أننى قاطعت محاضرة له فى مناسبة من المناسبات لأسوق تفسيرا شبه تاريخى لظاهرة كان رادكلف قد اقترح لها من قبل تفسيرا وظيفيا . ولا شك أن هذه المقاطعة قد أثارت أعصاب رجل قضى حياته وهو يشن حملة عقائدية على « التاريخ الذى يقوم على التخمين » .

وعلى حين لم يوافق رادكلف برون على موضوع بحثى فانه لم يحاول أن يقنعنى بتغييره ، بل طلب منى أن أقرأ كتبا قليلة منها «نافن» لبيتسون و «الجنس والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية » لمرغريت ميد ، وأن أحضر محاضراته وحلقات درسه · وقد طلب منى ، قبل أن يرحل الى موطنه الجبلى فى ويلز ليقضى العطلة الطويلة ، أن أكتب بحثا عن فكرة « النماذج الثقافية » خلال الصيف · وعملت بجد فى ذلك الصيف ، ورحت أقرأ كل ما وجدته عن « النماذج الثقافية » ، وكنت قد أعددت دراسة مطولة لأقدمها لرادكلف برون حين عاد الى أوكسفورد فى أوائل الفترة الدراسية لعيد القديس ميخائيل · وقضى رادكلف بضعة أيام ليقرأ بحثى ، وكنت بطبيعة الحال قلقا حريصا على معرفة أثره فى نفسه · وفى هذه الأثناء ألم بأسرتى حادث محزن غير منتظر · فبلغ انشغالى منتهاه · ولكن بالى ارتاح كل الراحة حين أخبرنى رادكلف أن بحثى قد أرضاه ، وأننى أستطيع أن أمضى فى موضوعى ·

ولا شك أن هذه كانت لحظة انتصارى ، ولكنى فوجئت بنفسى أقول لرادكلف أننى مادمت قد فزت فى هذا البحث فانى أود ان أعلم رأيه حقا فى الموضوع الذى ينبغى لى أن أعده لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة · فرد رادكلف بأنه سوف يكون مضيعة لوقتى وملكاتى أن أمضى فى اعداد موضوع « النماذج الثقافية » ، وأنه يحب أن أحاول بدلا من ذلك أن أدرس العلاقة بين الدين والمجتمع عند الكورجية فى جنوبى الهند · والحق أن رادكلف كان يقرأ مخطوطى الضخم ، فوجد أنه يضم مادة كثيرة عن الدين · وقال لى انه كتب فى انكليزية جيدة جدا ، وعجب كيف استطاع الهنود الذين لم يغادروا شواطىء وطنهم قط أن يملكوا ناصية لغة صعبة غريبة عليهم ·

وسألنى : ترى هل درست على مدرسين من الانكليز ؟ فأجبت بأننى درست الانجليزية فى مدرسة قريبة من موطنى على يد مدرسين غير مؤهلين تأهيلا كافيا · والحق أننى لم أدرس هذه اللغة قط بل التقطتها وأنا ماض فى سبيلى ·

وانى لأحسب أن الغرض الذى توخاه رادكلف من اقتراحه على أن أحلل المادة الخاصة بالدين فى رسالتى عن الكورجية من وجهة نظر الفلسفة الوظيفية هى أن يرشدنى بوجه من الوجوه ، كى لا أنسى جدوى هذه النظرة بالقياس الى عقم النظرة التى اصطنعتها · وكانت الفكرة جذابة ، بل فيها تحد ، ولكنى كنت أخشى غاية الخشية أن يطلب منى أن أزور الكورجية مرة أخرى ، وكان آخر شىء أستطيع أن أفكر فيه وقتذاك هو المتعة الحاصلة من رحلة أخرى للبحث الميدانى · زد على ذلك أننى كنت قد مددت كثيرا فى أجل حياتى الدراسية ، وكنت راغبا فى أن أحصل على وظيفة ، وأن أبدأ فى تزويد أسرتى بالمال بدلا من استنفاد مواردهم الناضبة · وقد أكد لى رادكلف أن المادة التى فى رسالتى كافية لرسالة الدكتوراه فى الفلسفة ، وقد تسلحت بهذا التوكيد ، فمضيت فى سبيلى قدما ·

وحدث فى يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٤٥ أن علمت أن ج ، أخى الذى كان يمول دراستى فى أوكسفورد ، قد قضى نحبه بالالتهاب الرئوى · ولو تجاوزت عن

حزني الشخصي لفقد واحد كان وثيق القربى بي ، فقد طغى على ما انطوى عليه هذا الحادث من ارتباكات مالية . وكان الأثر المباشر للحادث في نفسي هو أن أركب أول سفينة الى وطني ، ولكن الحصول على مكان في سفينة في تلك الأيام كان أمرا عسيرا · وأصبحت بائسا كل البؤس أسابيع قلائل ابتسم لي الحظ في آخرها فحصلت على منحة من منح كارنجي للبحث (للطلبة القادمين من أعالي البحار) قدرها ٣٠٠ جنيه استرليني مع احتمال تجددها سنة أخرى · وقد حدث ذلك على النحو الآتي : لفت نظري صديق هندي ، بعد سماعي خبر وفاة أخي بأيام قلائل ، الى اعلان في صحيفة أوكسفورد جازيت يدعو الطلبة القادمين من أعالي البحار للتقدم بطلبات لنيل منح كاريبي للبحث · وبادرت بارسال طلب ، ومثلت بين يدي السير همفري ملفورد بعد ذلك ببضعة أيام · ولا أظن أن اجابتي في هذا اللقاء كانت بارعة ، وعجبت حقا حين نلت المنحة · ولكنني علمت أيضا أن رادكلف برون كان قد كتب خطابا بشأني · ويحق لي أن أضيف هنا ان منحتي رفعت الى ٤٠٠ جنيه استرليني عن سنة ١٩٤٦/١٩٤٧ ·

أما وقد تخلصت من المتاعب المالية فقد استطعت أن أصرف كل وقتي في اعداد رسالتي · ووجدت أن كتابات : دوركايم ورادكلف برون · وايفانز بريتشارد · وجريجوري بيتسون ، مثيرة ، وبمضي الوقت أصبحت مقتنعا متحمسا لمذهب الوظيفية على طريقة رادكلف برون · وخامرني شعور بأنني وجدت أخيرا اطارا نظريا مرضيا. ولكنني كنت متعصبا شأن كل من يدخلون في مذهب جديد · وكبحت جماح تشككي الطبيعي ، وهو من الزاد القليل الحقيقي الذي كان لي ، لأتقبل عقائد مثل انتفاء التاريخ في التفسير الاجتماعي ، وعدم أهمية الثقافة ، ووجود القوانين الكلية ·

وكنت حين انظر الى المادة التي حصلتها من وجهة نظر الفلسفة الوظيفية . أجد أنها تندرج في نموذج · ولم تعد المعلومات مفقودة الصلات منبثة النظام · وكانت المستويات المختلفة للحقيقة ملحوظة بوضوح شأنها شأن الصلات بينها ·

وكنت اذا رددت بصري الى الوراء أجد أن من نقائص ، تحليلي قولي بأن كل شيء كان محكم الارتباط لا يترك مجالا لأطراف سائبة · وينبغي لي أيضا أن أضيف أن المعلومات كانت شحيحة بالنسبة للتحليل الذي أقوم به ·

وكانت سنة ١٩٤٥/١٩٤٦ آخر سنوات رادكلف برون في أوكسفورد ، وقد التحق عدد قليل من الطلبة الجدد بالمعهد في أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، ولكن الفصل كان أصغر من أن يتيح قيام صلة شخصية بين الأستاذ والطالب · وقد التحق الدكتور ماير فورتس بالمعهد محاضرا بعد ابتداء الفترة الدراسية ببعض الوقت · وكان قد تخصص في موضوع القرابة ، ووجدت أن محاضراته وحلقات درسه مثيرة ·

وقبل أن يغادر راكلف برون أوكسفورد في نهاية الفترة الدراسية بكلية ترينتي سنة ١٩٤٦ كنت قد أتممت فصلين طويلين عسيرين عن « القواعد الخاصة

بالطقوس عند الكورجية» ، وبدات أدرس عقيدة النسب الابوى (أو الأوكا كما كانت تسمى) . وقد أقر رادكلف برون هذين الفصلين ، وكانت فكرته عنها حسنة جدا حقا ، حتى انه كتب كلمة كريمة فى حقى لخلفه الأستاذ (وهو الآن يحمل لقب سير) ايفانز بريتشارد · وجعل انتقالى فى الدراسة الى ايفانز بريتشارد أيسر ·

- ٨ -

وكان أسلوب ايفانز بريتشارد مباينا لأسلوب رادكلف برون كل المباينة ، ذلك أنه لم يكن يرضيه فيما يظهر أن يحاضر أو يرأس حلقات البحث ، بل كان ينطلق على سجيته فى جمع صغير من الطلبة والزملاء والأصدقاء ، وعندئذ يتحرر من قيود المحاضرة المقررة أو حلقة البحث المرسومة · وقد جرت الحال على أن تجتمع حلقة صغيرة من طلبته ، ومعهم فى بعض الأحيان واحدا أن اثنان غيرهم ، فى أحد المشارب هنا أو هناك بالقرب من معهد علم الانثروبولوجيا ، أو فى داره على تل هدينجتون يتناقشوا فى هذا العلم أو فى أى شىء آخر وهم يحتسون أكواب الجعة ·

وقد تعرفت على ايفانز بريتشارد الانسان والعالم فى الاجتماعات التى كانت أن ينفق الكثير من وقته فى سبيل طلبته وفى فترة كان فيها كثير الابداع الى حد عجيب ·

وقد أوتى ايفانز بريتشارد موهبة اقامة الصلات مع أشخاص من مختلف الثقافات ، وكان بعض ذلك على الأقل يرجع الى تقبله الذى يكاد يكون مفطورا عليه لكل البشر على حد سواء بالرغم من الفوارق الجنسية والدينية · كان فى أعماقه انكليزيا محافظا ، ولكنه كان محافظا من نوع عجيب . فهو يستطيع أن يضع نفسه فى موضع الرجل الأسود والرجل من النوير الخارج عن حدود البشر والزعيم السنوسى المشاغب ، وقد وجدت أن التفاهم مع ايفانز بريتشارد أيسر من التفاهم مع غيره من العلماء البيض الذين عرف بعضهم بالتعاطف مع الهند ومع قضايا اليساريين بصفة عامة ·

ولعل الراحة التى كنت أحس بها فى الاتصال بايفانز بريتشارد كما يرجع بعضها على الأقل الى تحول ايفانز الى الكاثوليكية فى وقت من الأوقات أثناء الحرب ، وقد كان موضوع رسالتى لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة موضوعا دينيا ، ولم يكن من الميسور أن نتجاهل فى مناقشاتنا مسائل الايمان والعقيدة · فقد تحدثنا عن الهندوسية والكاثوليكية والاسلام ، ولم تكن محادثاتنا تؤتى ثمرتها عقليا فحسب ، بل كانت أيضا تزيد من فهم كل منا للآخر ·

ولا شك أن ايفانز بريتشارد كان كاثوليكيا راسخا ، ولكنه كان أيضا ينطوى على شية عميقة من التشكك ، وقد يبدو هذا أمرا متناقضا ولكنه كان صحيحا · وكان بريتشارد يميز بين ما يكمن فى الفكرة من قوة تحليلية وبين قيمها الحقيقية · وقد

أثبتت الوظيفية أنها مفيدة جدا فى علم الانثروبولوجيا ، على أن هذا لا يعنى بالضرورة أن المجتمعات هى فى الواقع كليات مترابطة فيما بينها ·

لقد كان تشكك ايفانز خلاقا ·

وكان تأكيد ايفانز أن علم الانثروبولوجيا كان علما خلقيا وليس علما طبيعيا ، وأن طرائقه قريبة من طرائق التاريخ ، انكارا لموقف رادكلف برون الأساسى ، وقد عبر ايفانز عن هذه الأفكار فى محاضرة ماريت المشهورة التى ألقاها سنة ١٩٥٠ ، وأثارت نقاشا حادا ·

وانى لا أحسب أن ايفانز قد أدى خدمة لعلم الانسان « بثورته » ، ذلك أن علماء الاجتماع لم يكتشفوا حتى الآن أية «قوانين عامة» ، كما أن استبعاد رادكلف برون للتاريخ على اعتبار أنه لا صلة له بالتفسير الاجتماعى على تفاوت فى ذلك ، لا يمكن التسليم به · زد على ذلك أن الفهم الاجتماعى هو والتفسير الاجتماعى مشابها للفهم التاريخى والتفسير التاريخى ، مع استثناء أن عالم الاجتماع يجمع معلوماته من الملاحظة المباشرة ، فى حين أن المؤرخ يعتمد على ملاحظات غيره من الناس وتفسيراتهم · وكما أن العالم «البدائى» أو « السابق للتعلم » يتضاءل حيال التقنية الحديثة ، وينصرف العلماء بعلم الانسان شيئا فشيئا الى دراسة الحضارات القديمة والمجتمعات الغربية ، فان أفكار ايفانز بريتشارد تصبح متصلة اتصالا متزايدا بهذه التفسيرات ·

على أننى لم أكن راضيا عن بعض الآثار الجانبية لأفكار ايفانز · فقد كان فيها حط من قيمة ماحققه علم الانثروبولوجيا الحديثة وتقاليد البحث الميدانى التى أقامتها أجيال من علماء الانثروبولوجيا ، فبفضل طرائقهم وأفكارهم استطاع هؤلاء العلماء أن يقيموا كيانا من النظريات عن النظم الأساسية التى من قبيل الأسرة ، والنسب ، والطائفة ، والطبقة ، والدين ، أجل كيانا لا يمكن تجاهله ·

بل انا لنجد عددا قليلا من المعجبين الأكثر من غيرهم تحمسا لايفانز بريتشارد قد أبرزوا الفكرة القائلة بأنه ما دام عالم الانثروبولوجيا يختار وقائعه ويفسرها فان الباحث الميدانى أهم كثيرا من الميدان · وانى لأقدم هنا هذا الرأى فى صراحة وفجاجة بالغتين من غير مقتضيات الصنعة التى تلازم فى العادة عرضه ، ولكننى لا أشك فى أن ما ذكرت هو فى النهاية المعنى المقصود · وهذا الرأى أسخف من أن يستحق نقضا ، كما أنه أيضا لا ينصف ايفانز بريتشارد الذى هو من أعظم الباحثين الميدانيين ، يشهد بذلك كل من قرأ كتابه « مهابط السحر والعرافة بين الأزاند » أو « ثالوث النوير » ·

وكان من الآثار الجانبية أيضا لهذا الموقف الدأب على الحط من شأن رادكلف برون مفكرا ورجلا · وانما نسى أنصار صلة البعد التاريخى بالاجتماع بكل بساطة أنهم كانوا عقليا يقفون على أكتاف الرجل الذى كانوا يحطون من قدره ، ذلك أنهم عجزوا عن أن يضعوا أنفسهم فى مكان رادكلف برون وينظروا الى علم الانثروبولوجيا

كما بدا له فى الوقت الذى بلغ فيه مكانة لها نفوذها (أليس هذا هو ما أوصى به كولنجوود فى ترجمته الذاتية ؟) ٠٠ لقد أنكر رادكلف برون انتشار التنوع البدائى الذى انتهى اليه شيخه ريفرز فى أيامه الأخيرة ، وحاول أن يوجه علم الانثروبولوجيا البريطانى وجهة جديدة ، أى نحو علم الانثروبولوجيا الفرنسى ، وكان هذا أيضا ما حاوله مالينوسكى وهو عالم بريطانى عظيم آخر بعلم الانثروبولوجيا ٠

وقد منحت درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى يوليه سنة ١٩٤٧ ، وقبل أن أبحر الى وطنى أخبرنى ايفانز بريتشارد أنه يحاول أن ينشىء لى درجة محاضر فى علم الاجتماع الهندى فى أوكسفورد ، وتساءل أيروق لى ذلك ؟ وابتهجت بطبيعة الحال ، ولو أننى فى حالة الحيرة التى كنت فيها لم أستطع أن أبين له مشاعرى ٠ وقد سمعت منه ، بعد ذلك فى شهر نوفمبر ، أننى قد عينت ، وأننى أستطيع أن أقضى السنة الأولى من عملى هذا فى القيام بدراسة لقرية فى ميسور تتعدد فيها الطوائف ، وهو مشروع كان ايفانز يعلم أننى كنت أرغب كثيرا أن أنهض به ٠

قضيت خير جزء من سنة ١٩٤٨ فى بحث ميدانى لرامبورة ، وهى قرية على مسيرة اثنين وعشرين ميلا من ميسور ٠ ولسوف أروى قصة بحثى فى رامبورة فى كتاب أوشكت أن أتمه وهو « القرية المذكورة » ٠

وسأتجاوز عن بحثى الميدانى وأشير فى اختصار الى المدة الثانية التى قضيتها فى ذلك المكان الأكاديمى القديم الآمن : أوكسفورد ٠ وكان العبء الملقى على كاهلى فى التدريس خفيفا ، يقتصر على ثمان وأربعين محاضرة فى السنة ، نصفها حلقات بحث فى علم الاجتماع الهندى . وهذا العبء الخفيف قد مكن المدرس من أن يحاول أن يرتفع الى المستوى العلمى الرفيع الذى تنتظره أوكسفورد ممن تفيء عليهم منحة دراسية ٠ وكانت العطلات الطويلة فرصة ذهبية للدراسة المستقصية والكتابة ، وقد مكننى ذلك من اعداد رسالتى عن كورج للطبع قبل أن أودع أوكسفور فى يونية سنة ١٩٥١ ٠ وكان لى أصدقاء أوفياء قلائل أشعرتنى صداقتهم بأننى فى وطنى ، وقد نعمت بدفء هذه الصداقة ٠ ولكننى كنت أشعر تحت هذا الرداء البادى من الرضا بحنين الى شمس الهند ودفئها . ثم اننى ادركت أيضا اننى ان لم أبذل محاولةأنتزع بها نفسى من أوكسفورد قبل أن يفوت الوقت لكنت خليقا فيما يرجح أن لا أعود الى وطنى .

وقد أقلقتنى طوال عام ١٩٥٠ رغبة ملحة فى العودة الى وطنى ٠ وكان ذلك هو الوقت الذى تنشأ فيه جامعات جديدة وتقام كراسى جديدة فى علم الاجتماع٠وكانت بارودة احدى هذه الجامعات ، كما كان واديا هو النائب الأول لمدير هذه الجامعة ٠ وصفوة القول أننى عينت أستاذا فى بارودة ، وطلب منى بنص العبارة : « أن أقدم نفسى للعمل فى ١٥ يونيه ١٩٥١ » ٠

وكنت قد جعلت ايفانز بريتشارد على علم برغبتى وخططى ، وقد وافقنى على

رأيي أن أرجع الى بلدى • على أنه قد تملكتنى جميع ألوان الشكوك والمخاوف بعد أن حرقت مراكبى مع أوكسفورد • ورحت أتمشى وقد انتابنى شعور بأننى أنتحر حقا انتحارا علميا بتركى أوكسفورد للمضى الى جامعة بدأت تفتح أبوابها وشيكا ، بل وكرت فى الرجوع عن قرارى ، ولكننى لم أجد فى نفسى الشجاعة أن أذكر ذلك لأحد. والحق أننى طوال السنة الأولى التى قضيتها فى بارودة كنت أستغرق أحيانا فى لحظات من الوجوم تنتابنى حيال ذلك الضرب من الحياة الأكاديمية الذى اخترته ، بل لقد كانت تراودنى أوهام أننى رددت الى أوكسفورد نتيجة لتحول مفاجىء فى الحوادث . على أننى حين كنت أرتد ببصرى عبر السنين أحس أنه لايخالجنى أى شك فى أننى أصبت فى ترك أوكسفورد والعودة الى جامعة فى وطنى . وانما أنا مدرك كل الادراك أننى لو كنت قد ظللت فى أوكسفورد لأصبحت عالما أكثر جدا ، ولكتبت كتبا وبحوثا أكثر ، لكننى على يقين أيضا من أننى كنت خليقا أن أعانى فقرا عاطفيا وروحيا قمينا بأن يؤثر فى عملى ويؤثر فى صلاتى بأولئك الذين اتصلت بهم • والعلاقات الانسانية الاجتماعية هى مادة التحليل الذى يقوم به عالم الانثروبولوجيا ، كما أن اغتراب المرء عن مجتمعه وثقافته لابد أن يكون له عواقب على أحاسيسه وتفسيراته • وليس فى هذا تجاهل للأفضال العظيمة التى للمنفيين والمبعدين والذين يعيشون على هامش المجتمعات على العلوم الاجتماعية ، فعلم الاجتماع ليس نتاجا لبؤس الجماعات فحسب ، بل لبؤس الأشخاص أيضا •

واذا صرفنا النظر عن المسألة الخلافية التى تدور حول ذلك النوع من المساهمة الذى كنت قادرا على أن أشارك به لو أننى ظللت فى أوكسفورد فانه لا يخامرنى شك فى أننى بعودتى الى وطنى قد تحققت لى ألوان من الرضا لم تكن لتتحقق لى لو أننى بقيت فى الخارج • ومن أهم هذه الألوان أن عودتى قد ساعدتنى على ايجاد فريق صغير من العلماء كلهم تدربوا فى الهند ونشطوا فى البحث والتدريس وراحوا يحاولون أن يطبقوا طرائق علم الانسان الاجتماعى وعلم الاجتماع وأصولهما الفنيــة فى تحليل مشاكل مجتمع عريض متنوع معقد مثــل المجتمع الهندى الذى لا يزال أيضــا يمر بتغير سريع .

واستطعت أيضا أن أقيم قسمين لعلم الاجتماع ، الأول فى بارودة والثانى فى دلهى • وقد قضيت قرابة ثمانى سنوات فى بارودة ، وأصبح لى فى نهاية هذه المدة فريق صغير ، وان كان جيــدا ، من العلماء ، ورصدت لى مبالغ للمنح الدراســية ولاقامة بناء • ولكن قبل أن يبدأ هذا البناء تركت جامعة بارودة لأتولى الكرسى الجديد لعلم الاجتماع الذى أنشىء فى جامعة دلهى • وقد نما هذا القسم بسرعة ، ولم تمض الا مدة قصيرة قدرها عشر سنوات حتى اعترفت به لجنة المنح الدراسية فى الجامعة مركزا للدراسة العليا فى علم الاجتماع • وكان معنى هذا رصد مبالغ لاقامة مبنى جديد ، وهيئة اضافية للتدريس ، وتدعيم المكتبة ، وزيادة فى المنح الدراسية والبحث، وتيسيرات جديدة ، كوضع مناهج دراسية لتذكير المدرسين بما سبق لهم تحصيله ،

وتدبير منح دراسية للأساتذة الزائرين ٠ وهذا القسم هو الآن أقدر على القيام بدور المركز القومي للتدريس والبحث ٠

وقد قضيت عشرين عاما من الحياة الأكاديمية فى الهند ، ومع ذلك فانى ، حتى بعد هذه المدة ، لم أستطع أن أتغلب على كراهيتى للادارة واللجان ٠ والحق أننى كلما ازددت فى السن زادت كراهيتى لهما بدلا من أن تنقص ، ولكننى لم أستطع أن أطيح بهما ٠ على أن من الحق أيضا أن أقول انه لولا انخراطى فى اللجان بجامعة دلهى وبغيرها لما استطعت أن أقوم بدورى فى النهوض بعلم الاجتماع فى الجامعة وفى خارجها ٠

ويجب أن أضيف هنا أننى شاركت مرة فى عمل لجنة ، وكانت هذه المشاركة مرضية لى ، وكان المجلس الهندى للبحث فى علم الاجتماع لجنة من هذا القبيل ، وانى لأشعر بالسعادة اذ أتيحت الآن لعلماء الاجتماع الهنود تيسيرات وفرص لم تكن معروفة منذ عقد من الزمان ، ثم اننى استطعت وأنا أرأس الجمعية الهندية الاجتماعية بين سنتى ١٩٦٦ و ١٩٦٩ ، أن أجمع بين الجمعية الهندية الاجتماعية والمؤتمر الاجتماعى لجميع الهند ، وأوحدهما فى هيئة معنية واحدة ٠ وكانت مالية هذه الجمعية تحتاج الى دعم ، وقد تحقق هذا أيضا الى حد ما ، وأعيد تنظيم أمانتها ، وصحيفتها « المجلة الاجتماعية » ، وعدل دستور الجمعية الاجتماعية الهندية لتمكينها من الوفاء بالحاجات الجديدة المتزايدة التى فرضتها عليها زيادة عدد الأعضاء ٠

ومن الأمور التى دأبت على الالتفات اليها فى بارودة وفى دلهى وضع منهج مناسب فى علم الاجتماع ٠ وأى منهج يوضع يجب أن يضع فى اعتباره الظروف المحلية بما فيها نوع الطلبة الذين يلتحقون به وتخصصات المدرسين واهتماماتهم ٠ على أننى كنت أرغب فى أن يكون المنهج متغلغلا فى أعماق الظروف الهندية حتى يمكن الطالب من أن يصل بين ما قرأه وبين خبرته ، كما كنت أريد فى الوقت نفسه أن يدخل فى هذا المنهج بعض المعلومات عن آسيا وافريقيا للمقارنة والمقابلة ٠ وتوفر لى عدد قليل من المتون للدراسة المتقصية ٠ وبعد سنوات قلائل استطعت أن أدخل فى المنهج كتبا تتناول التغير ، ومناهج كاملة عن موضوعات التخصص ، مثل « اجتماعية القرابة » و « علم الاجتماع السياسى » و « علم الاجتماع الدينى » ٠

وقد كتب الى عدة علماء اجتماع وعلماء بعلم الانسان من الهنود الذين كانت لهم مناصب فى الخارج ، ويريدون أن يعودوا الى وطنهم ، والتمسوا منى العون ، وانى لأحسب أننى قد أعنتهم بعض العون ، وتمكنت من أن أدبر للقليل منهم الاستقرار فى الهند ٠ وأرضانى ذلك ، لأن عودتهم ساعدتنى على أن أعزز هذه المهنة فى الهند ٠

وكذلك كنت أنا رئيس قسم الاجتماع بجامعة دلهى أعاون طلبة من بلاد مختلفة: من الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، وفرنسا ، وألمانيا ، واليابان ، والفلبين

وأستراليا ؛ أعاونهم فى القدوم الى الهند للقيام بأبحاث ميدانية فى مختلف أرجاء هذا البلد تحضيرا لدراستهم لدرجة الدكتوراه فى الفلسفة . بل لقد استطعت فى حالات قليلة أن أوجه انتباههم بنجاح الى دراسة مشاكل أو جماعات هامة . وقد اجتذب ما اكتسبه القسم من شهرة مطردة الطلبة الأجانب الذين يعدون لدرجة الماجستير ودرجة الدكتوراه فى الفلسفة ، ولست أبالغ اذا قلت ان جامعة دلهى أصبحت هى المزار الدائم لعلماء الانثروبولوجيا وعلماء الاجتماع من جميع أرجاءالعالم

وكنت دائما أعتقد انه على حين يتمتع المواطنون بمزايا معلومة لا تنكر فى دراسة مجتمعهم فانهم يعملون أيضا فى ظل معوقات شديدة لا يعترف بوجودها بصفة عامة . ويمكن أن ننقص هذه المعوقات الى حد ما فى بلاد مترامية الأطراف مختلفة الأقاليم كالهند حيث يستطيع الدارسون فى اقليم أن يعملوا فى اقليم آخر ، وهذا أمر ليس شائعا كل الشيوع . ومن تم فان من الأمور الجوهرية التى تؤدى الى كفاية الدراسات الاجتماعية أن يدرس مجتمع بعينه على يد أناس من ثقافات مختلفة . وهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تنقص من عنصر الهوى الشخصى .

وهذه الحقيقة هى والحقيقة الأخرى التى مفادها أن علماء الاجتماع وعلماء الانثروبولوجيا فى جميع أنحاء العالم مرتبطون بمصالح وقيم مشتركة معنية قد حملتانى على الاعتقاد بأنهم يكونون فيما بينهم كلية غير بادية للأنظار . ومكانتهم من حيث هم مواطنون من بلاد بعينها لاتنقضى بأية حال عضويتهم فى هذه الكلية الخافية عن الأنظار . وانى لأرى أن من الضرورى أن أقرر هذا لأننى أسمع رأيا يتكرر تكرارا متزايدا وهو أن البلاد النامية يجب أن تقيم حواجز تحول دون الاتصال الحر بعلماء الاجتماع فى البلاد الراقية حفاظا على مصالحها الأكاديمية ووحدتها القومية .

ولن أناقش هنا ، كما قلت فى بداية المقال ، ما أظن أنه النصيب الذى أسهمت به فى تحليل المجتمع الهندى والثقافة الهندية بمعزل عن دورى فى تنظيم المنهج والنهوض به . على أنى أود أن أؤكد أننى رفضت أن أفرق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع فى التدريس والبحث . وهذا التفريق له أصل فى التاريخ السياسى والأكاديمى الغربى ، وليس من المعقول أن يطبق هذا فى بلد مثل الهند حيث نعمت القبائل عامة بصورة من صور الاتصال بالجماعات الأكثر منها تقدما . ذلك أن فريقا كبيرا من سكان الهند متخلف ، بل اننا لنجد فيما نسميه الدوائر الراقية كثيرا من العقائد والشعائر الخاصة بالجماعات المتخلفة . ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى ان ثمة استمرار فى الهند التقليدية بين القبائل والطوائف ، وأية تفرقة مجلوبة من الخارج بين علم الانسان الاجتماعى وبين علم الاجتماع تؤدى بالحقيقة الاجتماعية .

ولقد أكدت أيضا ، كما هو متوقع ، الأهمية القصوى للتجربة الحاصلة من البحث الميدانى فى تدريب علماء الاجتماع . ثم ان الملاحظة المشتركة التى نماها مالينوسكى

قد استغلت استغلالا كبير الفـــائدة فى فهم المجتمعات المحلية والجماعات السلالية وغيرها ، والمواقف الاجتماعية فى المجتمعات المركبة .

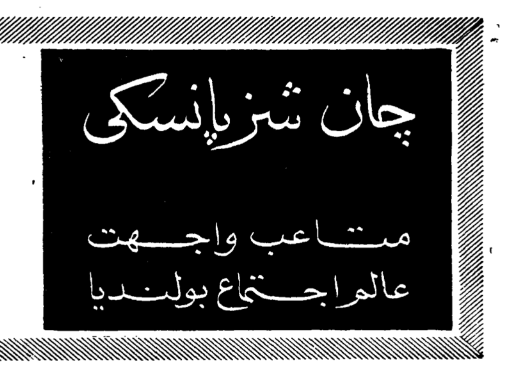
والحق أن الملاحظة المشتركة والأساليب الفنيـــة الكميـــة مقرونة بالدراسات الشاملة يمكن استخدامها بطريقة متكاملة . ومن ثم فان الدراسات الشاملة تصف سلوك فئات كبيرة وجماعات فى مسائل بعينها ، على حين أن الدراسات المحدودة تتيح لنا بصرا بالعلاقات والدوافع فى وحدات صغيرة . والدراسات المحدودة ، اذا أحسن استخدامها ، يمكن أن تزودنا بفروض تختبر بالطرائق الشاملة ، على حين أن الطرائق الشاملة تتيح لنا بدورها أنظارا ومشاكل يمكن معالجتها بالدراسات المحدودة الجديدة. وصفوة القول أنه يمكن الجمع بين الطريقتين فى علاقة متبادلة خلاقة .

والدارس وهو يتقدم فى حياته الأكاديمية يجد ما يثبط همته اذ يرى أن قدرا متزايدا من وقته ينفق فى مسائل مختلفة عن دراساته وبحثه . فمنـــذ عودتى الى الوطن ســـنة ١٩٥١ وجدت نفسى ممزقا بين رغبتين متباينتين ، احداهما أن أسهم بما أستطيع من نصيب فى اقامة تقليد قومى اجتماعى ، والثانية أن أنصرف الى دراستى الخاصة وبحثى الخاص . وانى لأدرك أن الثانية قد عانت من الأولى ، كما أننى قد اتهمت بأننى أصبحت « رجل لجان » . ولست آسف بحال على ما أنفقت من وقت فى اللجان ، ولكننى أحسست فى السنوات الست أو السبع الأخيرة بحاجة ماسة الى أن أستعصم الى حد ما من ذلك الفيض من الكتب الجديدة وأن أتوفر على استكمال المادة التى جمعتها عن رامبور وأن أتابع بعض الأفكار والتوقعات . وقد خامرتنى فكرة، لعلها كانت ساذجة ، هى أننى اذ أنشأت قسم الاجتماع الذى أرأسه فى جامعة دلهى سـوف يسمح لى بأن أنصرف الى هـــذا العمل . ولكن ثبت أن ذلك كان وهما من الأوهام . وانى لآمل أن يتيح لى انتقالى من دلهى الى بنجالور فى الجنوب وقتا أكثر للعمل .

وكانت رحلاتى المختلسة العارضة الى الخارج معينة لى على التخفيف من الشعور بتلك الأمية الأكاديمية التى كنت أعانى منها (ولم أزل) . وينبغى لى أن لا أغفل عن أن أذكر هنا رحلتى الطويلتين الى مركز الدراسات العالية فى علوم السلوك (١٩٦٤/ ١٩٦٥ و ١٩٧٠/ ١٩٧١) ، حيث استطعت أن أنتشل نفسى من جميع مشاغلى الرتيبة فى العمل وأنخرط فى الدراسة والبحث . والحق أن هذا المركز هو المأوى الذى يحلم

به العلماء ، وقد آنست في العـاملين به كرما لا ينقضى ، واحتراما وعونا مبـذولا لا ينقطع • ويقتضيني الأمر أن أعبر عن شعورى بفضلهم على •

وينبغى لى ، قبل أن أختم هذا المقال عن سيرتى ، أن أعبر عن شعورى بالسعادة حقا ، فقد كان لعملى بعض الأثر على علماء آخرين اشتغلوا بتحليل المجتمع الهنـدى والثقافة الهندية • وقد لقيت أيضا أكثر من نصيبى العادل من درجات التشريف • واذا كان لى أن أقول شيئا فانى أحس أننى لم أعمل بما فيه الـكفاية ، وانى لمدرك أيضا أن درجات التشريف اذ تفعم قلب العالم بالغبطة الوافرة فان الرضا الذى يفيئه عليه انخراطه المطلق فى البحث الخلاق برغم كل ما فيه من مآس ومشاغل هو شىء من معدن آخر غيرها ومن رتبة أعلى وأرفع •



بدأت دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع فى سنة ١٩٣٢ فى جامعة «بوزنان» على يد فلوريان زنانييكى ، وقد حصلت على درجة الماجستير بمقال عن دلالات الالفاظ عند «هسيرل» ، ثم حصلت على درجة الدكتوراه برسالة عنوانها « مفهوم البيئة فى علم الاجتماع الريفى » باشراف الاستاذ زنانييكى فى سـنة ١٩٣٩ • وبين سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ألفت كتابا بعنوان « خريجو المدارس الزراعية فى تنمية القرية » ، وذلك عندما كنت أعمل فى معهد الثقافة الريفية باشراف الاستاذ جوزيف شالاسينسكى • وقد أعد هذان العملان للطبع فى سنة ١٩٣٩ ولكنهما فقدا أثنـاء الحرب ولم ينشرا ولم يظهر منهما غير عدة مقالات نشرت فى ذلك الوقت •

وقد حملت معى من موطنى اهتماما بعلم الاجتماع الريفى • كان والدى يمتلك مزرعة صغيرة فى الموقع الجبلى لبلدة « أسترون » فى سيليسيا • وكان العمل فى هذه المزرعة هو أول تجربة لى فى الاعمـــال ذات الاهمية الاجتماعية • وبعد تخرجى من المدرسة الابتدائية فى أسترون التحقت بالمدرسة الثـــانوية فى المدينة القريبة منها حيث كنت أسافر اليها كل يوم بالقطار • ولم أعمل بعد فى مزرعة أبى بعد عودتى



ترجمة : الدكتور أحمد عبد الرحيم أبو زيد

أستاذ كرسى الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب بجامعة القاهرة . حصل على الدكتوراه من جامعة أدنبرة عام ١٩٥٤ . من مؤلفاته : المدخل الى اللغة اللاتينية ، تاريخ الأدب الرومانى ، من الأدب التمثيلى اللاتينى «فورميو والحماة» للكاتب ترنتيوس ، وكنز البخيل والتوأمان للكاتب بلادتوس، مقتطفات من أغانى الشاعر الرومانى هوراس .

من المدرسة . وقد علمنى ذلك واقعية الفلاح وشدة شكيمته فى العمل وصبره على مواجهة نوائب الدهر وملماته .

وقضيت سنة ١٩٣٩ فى العمل فى جامعة « بوزنان » كأستاذ مساعد لكرسى الاستاذ زنانييكى الذى ترك بولندا الى الولايات المتحدة ولم يعد بعد ذلك .

وقد اشتركت فى غزوة سبتمبر وحاربت حتى نهاية الشهر وعدت الى منزلى قرب بوزنان بعد أن نجوت من أن أصبح أسير حرب . وعندما أبعدت بواسطة الالمان ذهبت بصحبة زوجتى الى أسرتى حيث بدأنا العمل سويا فى الفلاحة . وقد ولد ابننا فى هذا المكان سنة ١٩٤٠ ، وبعد وقت قصير أرسلت كما أرسلت زوجتى فى وقت متأخر الى ألمانيا للقيام بعمل اجبارى .

وقد عملت فى مدن مختلفة ، وكنت أقوم بعمل صناعى دون تجربة سابقة ، وكذا فعلت زوجتى التى حصلت أيضا على درجة الماجستير من جامعة بوزنان . وبقينا أطول مدة فى فيينا حيث كنت أعمل «خراطا» مدربا ، وكانت زوجتى تقوم بجميع أنواع الاعمال غير النظامية ، مثل الخدمة فى المنازل ، وهكذا .

وأريد ان أؤكد أهمية تجربة العمل الاجبارى هذه فى دولة هتلر التى كانت تحتكر جميع موارد الدولة . وقدكانت مقدمة لعلم الاجتماع الخاص بالعمل والصناعة استفدت منها فيما بعد فى أبحاثى وتدريسى . على أن أهم مظهر لها كان هو تجربة العبودية فى نظام سياسى يحتكر جميع موارد الدولة ، مقدمة لسياسة النظام الاشتراكى الوطنى . وحيث كنت عضوا فى دولة متهمة بالابادة وحياتى على حافة الشرعية وأخضع لخطر موت أبدى وسريع فقد خلق هذا كله نوعا من الاتجاهات والميول الخاصة ، وفى الوقت نفسه أصبحت رؤيتى للأحداث والعمليات الاجتماعية حادة . وقد علمنى ذلك أهمية تماسك الجماعة عند الشعوب .

وفى نهاية الحرب فقد ولدنا الذى كان يبلغ من العمر أربع سنوات . وأخذنا نبحث عنه ، وجبت أنا وزوجتى خلال النمسا بين اضطراب الجبهات المتحركة والمدن المضروبة بالقنابل والأسى يملأ قلبينا . وقد كنا فى ذلك نعمل كضباط فى وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين للعناية بمعسكرات العزل ، وأصبحنا على صلة بعدد غفير من اللاجئين وأسرى الحرب السابقين والمقيمين فى المعتقلات وأولئك الذين كانوا يقومون بالعمل الاجبارى . وقد خرجت من الحرب بهذه السلسلة الكاملة من الخبرة ، تلك الحرب التى كنت قد كتبت خلالها مقالات مختلفة فى علم الاجتماع (شىء ليس من السهل عمله حيث كانت ساعات العمل فى المصنع احدى عشرة ساعة ونصف ساعة يوميا) ، ولكن مخطوطات هذه المقالات قد فقدت أثناء بحثنا عن الطفل .

وبعد أن وجدنا طفلنا عدنا الى بولندا فى خريف سنة ١٩٤٥ ، وبدأنا نعمل فى التدريس بجامعة « لودز » ، التى نظمت من جديد فى قسم الاجتماع الذى كان رئيسه أحد تلاميذ الأستاذ زانبيكى ، وهو الأستاذ جوزيف شالاسينسكى ، على أننى لم أعد الى موضوعات دراساتى العلمية التى مارستها قبل الحرب وأثناءها .

كانت أهم تجاربنا هى اعادة البناء وتنظيم جامعة جديدة تحت ظروف صعبة للغاية فى دولة فقدت ١٥٪ من سكانها و ٤٠٪ من ثروتها الوطنية ، وخلق نظام اجتماعى جديد ، وثورة سياسية نشأت عن ازدياد نفوذ حزب العمال (الشيوعى) وجعل الاقتصاد قوميا . وقد أصبحت جميع أوربا الشرقية معملا هائلا للتغيير الاجتماعى .

وأعيد تنظيم علم الاجتماع من جديد فى بولندا بسرعة . ففى خلال السنوات

الأولى التي عقبت الحرب كتبت كتابين علميين « تطور نظم علم الاجتماع » و « تاريخ الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر » . ولكن بعد التحول الى الاستالينية كان نشر هذين الكتابين من الأمور المستحيلة . وقد نشرت بدلا منها مقالات كثيرة وحررت في المجلات الاسبوعية ، واشتركت مباشرة في المناقشات والمجادلات السياسية .

وفي سنة ١٩٤٩ أصبحت أستاذا مساعدا ، ثم عميدا للكلية في سنة ١٩٥١ ، ثم أصبحت أستاذا مساعدا ورئيسا لجامعة لودز . وكنت أقوم في ذلك الوقت بأبحاث عن المشاكل المختلفة المتعلقة بمنهج العلم الاجتماعي وعن تاريخ علم الاجتماع وعن منهج البحث عند ماركس وانجل .

وقد نتج عن ثورة ١٩٥٦ والتحول عن الاستالينية تجارب جديدة . وكنت مع علماء آخر في علم الاجتماع خبيرا سياسيا في الاجراءات القانونية التي عقبت الحوادث البوزنية وكان علينا أن نحدد الى أي مدى كان الأشخاص المتهمون بالشغب تحت تأثير الاضطرابات العقلية للجماهير والى أي حد يعتبرون مسئولين عن أعمالهم أثناء الشغب . وقد استدعى ذلك تحديداً لتأثير الوضع السياسي والاقتصادي العام على الاثارة . وقد كان ذلك أول امتحان لى في ممارسة النفع السياسي عن طريق المعرفة بعلم الاجتماع .

ان الاعتراف الرسمي بعلماء الاجتماع كخبراء في التجربة السياسية يتضمن في الوقت نفسه اعترافا رسميا بعلم الاجتماع كعلم . ومن هنا كانت سنة ١٩٥٦ تدل على بداية انطلاقة جديدة لعلم الاجتماع في بولندا .

وقد أنشيء معهد الفلسفة وعلم الاجتماع لأكاديمية العلوم البولندية ، وعينت به رئيسا لقسم الأبحاث الاجتماعية التجريبية . وكانت نتيجة البحث في التطورات التي لحقت بالطبقة العاملة التي كان هيكل البحث يشملها دراسة مكونة من ثمانية وعشرين مجلدا عن أوجه التغييرات المختلفة التي حدثت بعد الحرب . وهناك ابحاث فردية كتبها مساعدون ومعاونون لى نشرت تحت اشرافى . وقد ظهر الجزء الأول في سنة ١٩٥٨ والجزء الأخيرة في سنة ١٩٦٨ .

وكنت عضوا في البرلمان البولندى من سنة ١٩٥٧ الى سنة ١٩٦٠ . وفي سنة ١٩٥٧ نشرت مجموعة من مقالاتي تحت عنوان « أهل الفكر والمجتمع » تشمل أبحاثا كتبت في المدة من سنة ١٩٥٥ الى سنة ١٩٥٧ . وفي سنة ١٩٦٠ ظهر كتابي

« علم الاجتماع ، تطور المشاكل والمناهج » ، وهو كتاب علمى تاريخى أعيد طبعة ثلاث مرات فى السنوات التالية وترجم الى اللغة السلافية ونشر أيضا فى براتيسبلافا٠

وقد توطدت علاقة علماء الاجتماع البولنديين ٠ بجمعية علم الاجتماع الدولية ، وذلك منذ المؤتمر الدولى الثالث لعلم الاجتماع الذى عقد فى أمستردام فى سنة ١٩٥٦ ٠ واشتركت فى النشاطات الدولية ، وانتخبت رئيسا للجنة البحث فى علم الاجتماع الصناعى ، واستمر عملى كرئيس لها حتى انعقاد المؤتمر فى ستريسا سنة ١٩٥٩ ٠ وذهبت الى الولايات المتحدة لمدة ثمانية أشهر فى ١٩٦٠/١٩٦١ ، وقضيت معظم هذه المدة فى مركز الدراسات العليا للعلوم السلوكية فى بالو ألتو حيث كتبت الجزء الأول من بحثى « المفكرون فى المجتمعات المعاصرة » ، وهو بحث لم أنته منه بعد وزرت أيضا جامعات أمريكية عدة ٠

وبعد أن عدت الى بولندا فى سنة ١٩٦١ عينت نائبا لمدير معهد الفلسفة والاجتماع بأكاديمية العلوم البولندية وواصلت البحث عن المفكرين والطبقة العاملة٠ وأخذت فى الوقت نفسه أعمل فى حل المشاكل المتعلقة بالمجتمع الصناعى والتصنيع والتعليم العالى ٠ وفى سنة ١٩٦١ نظمت معهد أبحاث التعليم العالى ، وكنت أديره حتى سنة ١٩٦٨ ٠ وفى سنة ١٩٦٣ نشرت كتابين أحدهما هو « المفاهيم الأولية لعلم الاجتماع» ، وهو كتاب علمى ظهر فى عدة طبعات فى بولندا (١٣٠٠٠٠ر٠ نسخة) وترجم الى اللغة الروسية والتشيكية والهنغارية والفلندية ٠ أما الكتاب الثانى فهو « مشاكل التعليم العالى » ، وقد ترجم الى الفرنسية والهنغارية ٠

وقد انتخبت رئيسا للجمعية الاجتماعية الدولية فى المؤتمر السادس الذى عقد فى ايفان فى سنة ١٩٦٦ ٠ وكان ذلك بالنسبة لبداية عهد نشاط دولى مكثف ، وكان عملى الرئيسى هو التنظيم لعقد المؤتمر السابع فى فارنا (فى بلغاريا) الذى يعتبر اول مؤتمر يعقد فى دولة اشتراكية ٠ وقد واجهتنى صعوبات جسيمة فى سبيل القيام بهذا المشروع وخاصة بعد الحوادث السياسية التى وقعت فى سنة ١٩٦٨ ٠ وقد كان من واجبى تذليل هذه الصعاب وخلق فهم عام ٠ وكان فى استطاعتى حينئذ أن أستخدم تجاربى الزمنية عندما قابلت مواطنين من دول أوربية كثيرة وكانت لى معهم علاقات، صداقة أثناء عملى الاجبارى فى ألمانيا ، واستطعت أيضا أن أستخدم معرفتى الجيدة بالثقافة الفرنسية التى حصلت عليها من والدة زوجتى التى أتت من جنيف وعرفتنى بقيم هذه الثقافة ٠ وبالاضافة الى ذلك فان عملى فى وكالة الامم المتحدة لغوث اللاجئين

وكذلك دراستى فى الولايات المتحدة وقضاء معظم حياتى فى الدول الاشتراكية وفهمى لميكانيكية الحياة الاجتماعية والسياسية فى شرق أوربا كانت كلها عونا كبيرا لى . وقد مكنتنى صداقتى بعدد كبير من علماء الاجتماع فى غرب أوربا وشمال أمريكا وفى أفريقيا من أن أتحدث بلغة مفهومة لجميع هؤلاء ، كما مكنتنى من فرصة الفهم دون تشوه ، وادراك مختلف قرائن المواقف والمعانى التى يمكن أن تقف حواجز دون تبادل الآراء من الصعب تخطيها . واستطعت أيضا أن استخدم واقعيتى الريفية والتفاؤل الذى لا يهتز لرجل قضى سنين فى عمل اجبارى .

وانني لمقتنع أشد الاقتناع بأن تجـــارب الحيـــاة المباشرة مهمة لدراسة من يتخصص فى علم الاجتماع بقدر أهمية أى دراسة جامعية أو معرفة عن طريق الكتب.

ويبدو لى أن دراسة علم الاجتماع فى الجامعات يجب أن ترتبط بالعمـــل فى مؤسسات مختلفة عندما تكون هذه الدراسة معتمدة على تخصص مرتقب . فمثـــلا أولئك الذين يعتزمون القيام ببحث خاص بالعمل والصناعة يجب عليهم أن يعملوا كعمال لبعض الوقت ، وأولئك الذين يتخصصون فى علم السياسة يمكنهم أن يعملوا كموظفين فى أحد الأحزاب ، وهكذا ان الاشتراك المباشر فى عمل المصنع والاتصـــال بالعمـــال قد يكون اختبارا مفيـــدا لكثير من الراديكاليين الذين ينسجون نظريات تجريدية عن البروليتاريا (طبقة العمال الكادحين) .

ومنذ سنة ١٩٦٩ وأنا أدير معهد الفلســـفة والاجتمـــاع بأكاديمية العلوم البولندية . وظهر أيضا سنة ١٩٦٩ عمل جمـاعى تحت اشرافى هو « الصـــناعة والمجتمع فى جمهورية بولندا الشعبية » . ونشر كتابان فى سنة ١٩٧١ يشـــملان أعمالى القصيرة التى طبعت بعد سنة ١٩٤٥ . والكتاب الأول مجموعة من الدراسات الاجتماعية تصف تحول المجتمع البولندى ، أما الثانى فهو « نظرة على الجمهورية » ويشمل مقالات سياسية . وقد لاقى الكتاب الأخير نجاحا كبيرا وبيعت طبعتـــان (٥٠٫٠٠٠ نسخة) منه فى وقت قصير . وقد أرسلت مؤخرا الى المطبعة مخطـــوطا بعنوان « التغييرات فى المجتمع البولندىفى عملية التصنيع » فيما بين سنة ١٩٦٤ و سنة ١٩٦٦ .

وأصبحت مرة ثانية فى المركز فى بالو ألتو ، وذلك من سبتمبر سنة ١٩٦٧ الى فبراير سنة ١٩٦٨ حتث كتبت « المجتمع البولندى » الذى نشره Random Hows فى سنة ١٩٧٠ .

وعينت رئيسا لجمعية الخبراء لاعداد تقرير عن حالة التعليم فى بولندا • ومن أهداف هذا التقرير أيضا أن يكون مرشدا لاصلاح التعليم ، وذلك فى الاعداد للنظام المدرسى فى العقدين التاسع والعاشر من قرننا هذا •

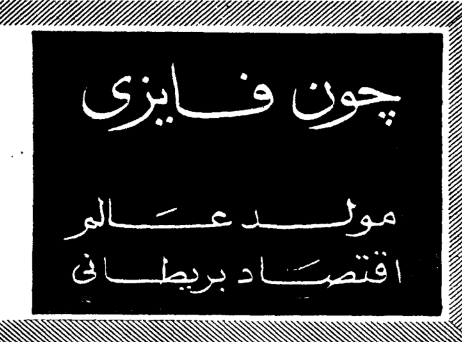
وكان هـذا العمل هو المحك الثانى الكبير لى عن الفـائدة العملية للعلوم الاجتماعية • وإذا أردنا وضع مخطط لنظام مدرسى معقول لعشرات السـنين فانه يجب علينا أن ننظر فى نوعية الاحتمالات القادمة من الناحية الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية التى تمدنا بمقومات مجتمع المستقبل واتجاهات نموه • ويجب علينا أن نستفيد من وجود علم بيداجوجى وسيكولوجى واجتماعى كى نجعل البرامج المخططة تقوم بتنظيم النظام المدرسى وربط المدارسى بالأسرة وبنـاء المعاهد التربوية خارج المدرسة • ويجب علينا أيضا أن نضع برنامجا لنظام تعليمى لمدى الحياة من أجـل الطبقة العاملة •

وكنت أشترك طوال حياتى العلمية فى عمل المعاهد المنظمة للعلوم وفى نشـاط مباشر فى كثير من ميادين الحيـاة العامة • وقضيت نصف عمرى أو ما يزيد فى المكاتب وغرف الاجتماعات والاحتكاك بالجماهير ، أكثر مما قضيته فى غرف المحاضرات والأبحاث • وكنت دائما أراجع أبحاثى الاجتماعية فى ضوء الواقع العملى معتبرا أن هذا اختبار لفاعليتها •

وبالاضافة الى ذلك كنت أعتقد دائما ومازلت أن تطور النظم الاجتمـاعية فى شرق أوربا يمنح علماء الاجتماع فرصة لملاحظة عمليات تغيير مجتمعات بأكملها بغض النظر عن عواطفهم وأيديولوجيتهم الشخصية ازاء هذه العمليات • اننى أشـارك مفكرى القرن التاسع عشر فى اقتناعهم بأن الباحث مرتبط بتقاليد وطنه وقيمه ، وأن من واجبه رعايتها • ان الأوقات العصيبة للثورات تعتبر دائمـا اختبارا لشخصية رجل العلم وخاصة العلم الاجتماعى • والاشتراك المباشر فى الحياة العملية والاتصال المباشر بدوائر اجتماعية كثيرة يعطيان عالم الاجتماع ذخيرة من التجارب والقدرة على الفهم ومعرفة الحقائق والعمليات فى بيئتها الطبيعية ، ويمنعانه من نسج افتراضات خيالية • ومع ذلك فقد وضعت أهمية كبيرة على دقة التفكير المنطقى ، واننى مدين فى ذلك بالشكر لأساتذتى فى الدراسات الفلسـفية ، الذين أطلعونى على علم منهج العلوم فى التعاليم الحديثة ذات الفلسفة الوضعية • هـذا الفرع من الدراسـة الدقيقة ، رغم أننى لم أستمر مخلصا له كان بالنسبة لى مدرسة جيدة للتفكير الدقيق واعدادا للبحث عن الصواب المنطقى •

وقد قمت بالتدريس والقاء المحاضرات فى جامعات دول كثيرة بخمس لغات لا أتقن منها غير اللغة البولندية · ولكننى قوبلت بفهم من جانب تلاميذى والمستمعين الى ، سواء فى بولندا أو كندا أو فرنسا أو دولتى ألمانيا أو المملكة المتحدة أو ايطاليا أو الولايات المتحدة ، أو الاتحاد السوفيتى أو يوجوسلافيا أو بلغاريا أو تشيكوسلوفاكيا أو رومانيا أو هنغاريا ·

وقد اشتركت فى أعمال هيئات دولية كثيرة ، ورأست لجنة فى المؤتمر العام السادس عشر لليونسكو · وكنت أنظر الى من اشتركت معهم فى الحديث بقدر واحد من الاهتمام ، وقد وجدت وأنا مشدوه كيف أنه يسهل وجود تفاهم بين الناس اذا اقترب منهم الشخص بتعاطف مع مشكلاتهم واتخذ موقفا وديا حقيقيا ازاء ما يعتريهم من متاعب وصعاب وكان على استعداد لمساعدتهم ·



مقدمة

تحاول هذه المقالة ان توضح ما قمت به من اعمال فى المؤسسات المختلفة التى عملت بها ، ولكن ما هى حقيقة عملى ؟ لقد كنت كاتبا واقتصاديا معا ، وكذلك كنت مدرسا جامعيا ، وشخصا يحاول أن يأخذ مكانه اللائق فى الأعمال العامة ، واذا كانت هذه انشطة يرتبط بعضها ببعض فانها قدمت الى نوعا من الاختيار . وها أنذا احاول فى هذه الدراسة أن أوضح بقدرالمستطاع ماصادفنى من مصاعب وتعقيدات، لما لذلك من فائدة عامة ، فأنا أعتقد أن شكوكى وترددى يعكسان اليوم مجموعة من الشكوك والتردد فى العلوم الاجتماعية والأدب . وهناك ايضاح آخر يجب أن أذكره قبل أن ابدأ حديثى .

اننى رجل انجليزى الأصل ، وهذا أمر لا يوحى بالتجديد ، فقد قضيت ثلاثة أرباع حياتى منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى فى جامعتى أكسفورد وكامبردج اللتين اكسبتانى فيما يبدو عدم حب الكثيرين . واذا كان من سوء الحظ أن أقضى هذا العمر فى جامعة واحدة فما بالك وقد قضيته فى جامعتين . وقد أضفى هذان الأمران ــ كونى انجليزيا ، وكونى تخرجت فى جامعتى أكسفورد وكامبردج ــ على



ترجمة : حسن عبد المنعم

رئيس مجلس ادارة الهيئة المصرية العامة للفنون وكان قبلا وكيل وزارة الثقافة .

بعض من عملى ، وربما على هذه المقالة ، طابعا اقليميا يعتقد معه الانجليز وغيرهم انه يمثل الحياة الفكرية الانجليزية . ولكن لا يوجد مع الأسف ما استطيع أن افعله حيال ذلك ، اذ قضيت ثلاثة أرباع حياتى الفكرية فى أومسك او فى موس جو ، وبقيت خبرتى كما هى . وقد كتب جويس مقاله الذى يعد تحفة أدبية عن يوم فى دبلن سنة ١٩٠٤ ، وكانت دبلن ومازالت مدينة اقليمية صغيرة . واذا لم تحز هذه المقالة شهرة مماثلة فليس ذلك لأنها عن انجلترا أو عن أكسفورد وكامبردج ، ولكن ذلك يعود لكونى لست أنا جويس .

وهناك من يرى نفسه وانا من هؤلاء ، وحدة متكاملة ، فأعمالهم مهما كانت عشوائية أو متناقضة فيما يبدو تعطى تكاملا غير واضح تماما ، بمعنى أن كل عمل قد يكون له فكر سابق ، ولكنه فى النهاية يعطى معنى عميقا بالتكامل . وهناك آخرون فيما أظن يرون فى أنفسهم كيانا مستقلا تختلف شخصياتهم فى عملهم عنها فى منازلهم ، وكذلك فى شبابهم عنها فى حال تقدمهم سنا . ولذلك كان من العسير على أن أحدد دورى كاقتصادى أو كاتب أو زوج ، كما كان من العسير على أن أصف نفسى من خلال هذه الادوار ، وأن أوضح أن كل عمل اقوم به مرتبط بكل شىء آخر أعمله .

ولكى اصف حياتى المهنية لابد أن أصف حياتى كلها من وجهة نظر خاصة ،، ولابد أن أعود بها طويلا الى الوراء ، قبل أن أولد والعناصر التى كونتهما ، ثم بلندن حيث نشـأت ، وكيف كانت تبـدو عنـدما كنت صبيا ،، وكل هـذا عمـل صعب لا استطيع ان اعرضه هنـا ، ولكننى اخادع نفسى ، اذ اننى عنـدما ألفت كتـابى المسمى « مناظر من الحياة داخل المؤسسـات » (طبعة منقحة على وشك الظهور) كتبت عما حدث لى فى شبابى . لقـد كنت مريضـا جدا ، وراقدا فى مسـتشفى لا استطيع حراكا فى جبيرة من الجبس بضع سنين ، وعاودنى المرض فى حياتى عدة مرات بعد ذلك . وقد كان لهذه التجربة آثارها العميقة فى حياتى سببت لى شعورا دفينا بالعزلة وعدم الاطمئنان ، وولدت فى شعورا بالالحاح والاجتهاد ، ذلك أن المرء اذا أراد أن يعمل شيئا أو ان يكون شيئا فان الوقت لا يتسع امامه كما يبدو لكى يفعله ،، والسـبيل الوحيـدة أمامه لذلك هى العمـل . من حسن حظى انى وانا بالمستشفى تعلمت على يد سيدة على قدر من الذكاء والعلم ، متحفظة وكتوم وغير عاطفية ،، ولكنها قادرة ، فتعلمت أن اعمـل ، وأن أقرأ ، وان أكسب العـادات المدرسية من حيث الدقة والسداد ، وهكذا . ومنذ ذلك الحين توجهت وانا نصف عاليل معزول جسمانيا عن أقرانى من ذوى الأذواق والاهتمامات والقدرات المماثلة الى مدرسة ثانوية بسيطة ، حيث درست عدة فترات ، ثم انعزلت تماما مرة أخرى حيث واصلت القراءة على الطرق التى اكتسبتها ، وفى يقينى أن النـاس جميعا فى كل مكان آخر فى هذا العالم قرأوا كل شىء ،، أى كل ما كتبه شو ، وكل ما كتبـه ولز ، وما كتبه تولستوى ، وكل ما كتب عن الرياضيات ، وكل ما ألفـه بالزاك ، وانى انا الوحيد الذى لم أحسن القراءة أو التعلم . ومنذ ذلك الوقت لازمتنى عادة القراءة الاجبارية ، وكثيرا ما كان يحدث عندما أقيم فى أحد الفنادق الغربية أن أجد نفسى مدفوعا الى قراءة جرائد قديمة بلغة لا أعرفها ، اعثر عليها مغطاة بالتراب فى أدراج الدولاب ، وكانت النتيجة بالطبع انى اصبحت قارئا ممتـازا ، ولـكنى كثير الاخطاء ، شأن اى امرىء ثقف نفسه بنفسه .

والتحقت باحدى المنح طالبا فى جامعة كامبردج ،، وكان الشتاء فى ذلك العـام من اقسى الاشتية التى مرت خـلال حـكومة آتلى . وكانت جامعة كامبردج معتمة ورطبة ، وكان المعلمون الذين اختبرونى متهكمين بشكل مزعج ،، ومع ذلك قبلت ، وبدأت أزور فرنسا ، ودفعت لى السـلطة المحلية مصـاريف السـفر للذهاب الى السوربون . وهنـاك تحققت تدريجا انه بالرغم من اننى كنت جافا وصعب المراس فاننى لم أكن أقل بدرجة ملحوظة من المعاصرين لى من حيث القراءة . وفضـلا عن ذلك فقد كان اهتمامى الأساسى هو علم الاجتماع رغم ميلى الى الأدب والتصـوير والمسرح . وقد استقر رأيى عن وعى كامل على ترجمة تعاسـتى الخاصـة بلغة علم الاجتماع . ولقد قررت كعالم اجتماعى ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى تام واصيل ، أن كل امر قد حدث لى أو لأى شـخص آخر له جذوره الاجتماعيـة ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت أراوغ وأقول للناس أن حياتى الخاصة لم تكن هى هذه الحياة التى يصفها الناس ، والتى كانت الشوارع المستقيمة الكئيبة للضواحى التى

انشئت بين الحربين ، والمكتبة العامة والاذاعة (كان البرنامج الثالث قد بدأ) ، هي الرابطة الوحيدة مع عالم الفكر . وكان الشيء الوحيد الذي يخفف من كآبة الناس هو هذه الشائعات الغريبة التي يتناقلها الجيران تعبيرا عن الفراغ العقلي الذين يعيشون فيه ». أما عالم الفكر والمشاعر التي كنت أعيش فيها فقد كان عالما منعزلا لم أجد مفرا منه الا في التعبير عن نفسي . وقد لمس الكتاب الذين تميزوا بالرقة من أمثال : أندريه جيد وفرجينيا وولف ، الاحساس بالحاجة الى التعبير من قريب أكثر مما لمسه أصحاب الفكر المتعمق من امثال : فلوبرت وديكنز وبروست، والسبب في ذلك مزدوج . فأنت تستطيع لأول وهلة أن ترى الدقة في عمل الكاتب المبتدىء وأن تفهم كيف يتم ذلك ، ولكن الكاتب المحترف شأنه شأن الصائغ الماهر يجد ان أداة التعبير جذابة وسهلة التقليد ، ولكن المهارة الفائقة للاستاذ تبلغ شأوا كبيرا تبدو معه بعيدة عن الفهم . ويجب على الكاتب المبتدىء أن يقلد بنجاح منقطع النظير ، كاتبا أقل منه ، كما قمت أنا بتقليد دنتون ولش المؤلف الممتاز الذي كتب عن الأمراض ومات شابا عام ١٩٥٠ . ولكن الكاتب المبتدىء لا يستطع أن يقلد بروست دون أن يحدث كارثة . وهناك سبب آخر ، سوف اعود اليه ، هو أن الكتاب العظام يعالجون الأحاسيس المعقدة والعميقة التي تبدو محاولة التعبير عنها أو فهم ما بها من نوازع او فكر مزعجة للغاية . واكاد اجازف فاقول ان الكتب التي لها تأثير فعال على معظم الناس – على أي مستوى – انما هي الأعمال الأدبية غير المهمة ». وسواء كان هذا صحيحا ام لا فانه ينطبق على ، ولذلك فاني عندما أردت أن أرسم صورة لشاب في احد احياء لندن الفقيرة أخذت نموذجي من نثر انجليزي رخيص ؛ وهذا ايضا هو الشعور الذي عرضته في رواية كتبتها اخيرا عن جنوب شرق لندن وسميتها « النوع الناجح » ، وكان العنوان الذي فكرت فيه صائبا .

وجودي في كامبردج

كنت اكره العطلات المدرسية في جامعة كامبردج لاني مرضت خلال اثنتين منها وقلما كانت توصف الضواحي لقضاء العطلة ، لكنها كانت تدعو الى الكآبة الذهنية ، وكان الكثير من زملائي الأقوياء يسافرون بسياراتهم الى استنبول ويقضي المترفو منهم أيام الصيف الطويلةفي مزارع آبائهم ، أما انا فكنت ملتصقا .ماديا وجسديا . بلويشام ، وهي مكان لا استطيع ان امر به حتى الآن دون ان احس بالكآبة . وكنت أخرج بطبيعة الحال واذهب لأدى اوليفيه في المسرح الحديث . وأستمع الى الموسيقى . ولأرى لأول مرة حفلات الباليه ، ولأتعرف على معارض لندن وبالأخص معرض تيت ومجموعة والاس . ولكن من الغريب انني لم اتردد على قاعة فيكتوريا والبرت التي افضلها الآن ، وكانت الاجازات تبدو طويلة تضفي على الثمانية الأسابيع الدراسية ظلا ثقيلا . واقتنعت أخيرا بانني سوف أتخرج لأعمل كاتبا في بعض المصالح الحكومية ، وأعيش في لويشام يوما بعد يوم حتى أصل الى سن الخامسة والستين وأحال الى التقاعد . وخلال

هذه الاسابيع الثمانية التى قد تزيد الى تسع ، على مدى ثلاث سنوات أو نحوها ، اكتشفت كل ما يمكن اكتشافه ، وأحسست كل ما يمكن الاحساس به ، فكونت علاقات صداقة عميقة مع اقوام متناقضين أو غير محتملين، كما توجهت للاستماع لكل السياسيين الذين حضروا الى كامبردج ، وشاهدت عرض كل فيلم ومسرحية وحفلة موسيقية ، وكذلك حضرت المحاضرات التى القاها الناقد ف.ر. ليفيس والفيلسوف راسل والمؤرخ ج.م. تريفيليان "، كما شاهدت مباريات الرجبى . وبالاضافة الى ذلك تعمقت فى دراسة الاقتصاد . وكان كينيز قد مات أخيرا . ولا يزال الجدل دائرا على أشده بين الناس حول المعنى الكامل للنظرية العامة . وتتلمذت ضد رغبة كليتى الشديدة على يدى جوان روبنسون التى لم تكن تعترف بها . وقد جاهدنا طويلا فى دراسة الاقتصاد ، وشعرت بأنها قد نجحت تماما . فكانت فترة مشرقة أتقنت فيها النظرية الاقتصادية الحديثة لمارشال ، واتقنت كذلك نظريتى كينز فى الاقتصاد التجميعى والاقتصاد القياسى ، ودرست وتعلمت كيف ادحض النظرية العامة للتوازن ، ولكنى وأنا على أبواب المعرفة دخلت فى مرحلة عزلة عقلية خيل الى معها ولا يزال يخيل الى أحيانا كثيرة أن كل ما يمكن أن يقال من فائدة قد قيل ، وأن ما عداه (مثل ما لايزال يدرس فى امريكا) خطأ . وكان اهتمامى موجها فيما كان يظن وقتذاك أنه علم الاجتماع والسياسة . ولقد كسبت جائزة الجامعة فى النظرية السياسية ، ولكن شعورا داخليا وخجلى منعانى من علم الاجتماع ، وأعتقد أن هذا كان صوابا لاننى على الرغم من اشتراكى ككاتب وكزميل وممتحن فى القفزة الاجتماعية فى العقد السابع لم اترك علم الاقتصاد . والآن وقد انتهت هذه الطفرة نلاحظ انها كانت طفرة تأملية لم تترك آثارا صلبة ، واستطيع أن أقول ان الاقتصاديات التى درسناها فى كامبردج قد أخذت تتجه نحو فترة ثابتة قوية من النضج العقلى .

وسأتحدث عن الأسباب التى دعت الى ذلك فيما بعد . ويبدو لى أن علم الاجتماع أصبحت له ظاهرتان مميزتان * كان ينقصه التفكير العقلى القوى والمفكرون الممتازون "، وبينما تتضمن اهتماماته المسائل المركزية فى التجربة فان أبحاثه قد حولت هذه المسائل الى توافه كما عبرت عنها بلغة سوقية . وربما أكون مغاليا اذا قدمته بهذا الشكل ، لان كثيرا من العمل كان له قيمته ، فى حين كان لبعضه قيمة اكثر ، ولكنك حين تنظر الى الاقتصاد وعلى الأخص الاقتصاد الذى وضعه استرافا وجوان روبنسن وزملاؤهما الشبان سوف تجد مسائل قد عولجت بقدر كبير من الاحترام وبجهاز عقلى قوى وسديد ، وهو — فى نظرى — من نوع يختلف كلية عن النوع الذى عالج مسائل علم الاجتماع .

وأنه ليخيل الى أن الشعور بالاثارة العقلية الذى انتابنى فى أوائل العقد السادس وكان يحوم حول حجرتى ويملأنى بالحماسة الدافقة للاقتصاد هو احساس لا يمكن التعبير عنه ، شأنه فى هذا شأن الاحساس الذى يشعر به المرء نحو شىء جميل مثل رسم لجويا أو صورة نصفية لهاودن ، ولكن احساسى به كان جزءا

لا يتجزأ من حقيقة كامبردج بالنسبة الى ، وكما قال فورستر كان المكان نفسه تجربة عقلية وجمالية تجعل من المطالب العاطفية والعقلية واشباعهما شيئين منفصلين .

وبذلك فان الدراسات الاقتصادية بكامبردج كانت م ن الموضوعات المثارة . وكان من الطبيعى أنه بمجرد أن طرح السؤال عن الغرض من النشاط الاقتصادى وتمت دراسته أثناء ظهوره من خلال علم الفلسفة ومن خلال الدراسات التى بدأت تتكشف عند التكوين الاجتماعى ومن خلال التعبيرات السياسية فان علم الاقتصاد بدأ اتجاهات متعددة ، ولذلك استطاع أن يصبح علما ثابتا ومنفردا بنفسه . كما استطاع أيضا أن يكون له اطاره الواسع الذى يتضمن القضايا الكبرى حول الموضوعات الكبيرة مثل علم الاجتماع . وكذلك استطاع من خلال العمل الشاق ان يراجع الفكر فى المسائل البديهية الأساسية . ولما كانت جوان روبنسن وبيرو سترافا ونيقولا كالدر قد عكفوا على هذا العمل فقد رأيت أن الطريق الممكن لى هو أن اقتفى اثرهم . ولم يكن هذا هو الطريق الذى اتبعه معظم المشتغلين بعلم الاقتصاد . لأنه كان طريقا وعرا ، ولكن كانت قوة هذا العلم العقلانية بالنسبة لى هى أكثر خاصياته جاذبية .

الرحيل عن كامبردج

ان زندقة الشباب لا تحتمل . لقد قضيت بضع دقائق من وقتى أشرح فيها لاحدى الفتيات الفرق بين المركيزة والكونتيسة ، والفاصل بينهما دقيق . فقد دار جزء كبير من حياة كورزون حول نيل هذا اللقب ، وكادت ترتكب جريمة فى سبيل الحصول على لقب مركيزة ، فقالت الفتاة « هل تعتقد ان هذا أمر مهم » . وندت عن شفتيها كلمات « المتعالى » « والكسلان » « والمنافق » ، ولا يستطيع المرء جيدا — مع انى لا أعرف لماذا — أن يقول لها ان الدقة مهمة ، وأن تحديد هذا الفاصل اذا أردنا ان نحدده يعتمد على الدقة فى التحديد . ولكن من المهم بالنسبة للشباب ان يتحلى بالخلق أكثر من أن يتحرى الدقة .

لقد كان شباب جامعة كامبردج وما زالوا مترندقين الى حد كبير . وربما كان هذا انسب مكان للتحدث قليلا عن كامبردج ، فهى جميلة ، فى ثوب نرجسى بارد ، بأشجارها واحجار عمارتها القديمة البيضاء التى تنعكس على مياه نهرها البطىء وطرقها المتلألئة بعد أن غسلتها الأمطار ، وهى قريبة الشبه من هذه الناحية بمدينة سانتياجودى كومبستلا . وقد غيرنى تماما جمالها واسلوب حياتها من عدة وجوه هامة ، فغيرت من صوتى الى اخلاقى ، ومن افكارى الى اسلوبى فى الحياة . ان انجلترا تثير كراهية عميقة فى الخارج بسبب ماضيها الامبريالى وبسبب شيوع بعض التراجم عن لغتها . وقد تركزت هذه الكراهية على اكسفورد وكامبردج . بل لقد لقيتا الكراهية أيضا فى انجلترا فيرمزون اليهما بكلمة «هم» ، أى الذين كسبوا فى مقابل «نحن» ، أى الذين خسروا . ولقد توقفت منذ وقت طويل عن مثل هذا

التفكير . وهذا دليل فى راى البعض على أننى أصبحت أنتمى بلا رجعة الى «هم» ، وأننى مضطر فى هذه المقالة أن أكتب عن الفوارق الواضـــحة فى رأيى بين كامبردج واكسفورد ، لأن تأثيرهما على وعلى عملى كان مختلفا ، كما انهما مختلفان كل من الأخرى . وأن كانتا تبدوان فى الخارج كما لو كانتا مرتبطتين معا كدعائم للامتياز .

وبقيت فى كامبردج حيث ترعرعت لأقوم بالتدريس ، وفيهـا اختلطت أول ما اختلطت بكبار العلماء ، من أمثال : سير دنيس رربرتســن الذى كان وقتذاك أستاذا للاقتصاد السياسى ، صعب المراس ، معتزا بنفسه ، وكان من تلاميذ كينز المفضلين ، ويعتقد البعض انه يفوقه من حيث قوة المنطق . وكنت انا وروبرتسن صديقين حميمين . ولكنى تحت تأثير الاخلاص لم أكن أتفق معه ، لأنه كان رجعيـا من الناحية السـياسية . ولم يكن روبرتسن يتفق بدوره مع كبنيز الذى كان من قبل مثله الأعلى ، ثم أصبح لى أنا هو مثلى الأعلى ، مع أنه كان يكن له حبا ، وكان كينيز يزدرى كل شخص ، ونظرا لأهوائه المتقلبة من حيث شذوذه الجنسى كان يختار أصدقاءه الذين يفرط فى حبهم ثم يتخلى عنهم بطريقة مخزية جدا .

وكان لى أثناء عملى كمدرس بجامعة كامبردج بعض المساوىء ، اذ كنت قادرا على حب الناس على اختلاف طبقاتهم ، وبذلك نلت عدم الثقة على قدر متســاو من كل الطبقات ، وتحولت عدم الثقة كما هى العادة الى اتهام بالزندقة مشوب بالاستهجان . وكانت القطرة الأخيرة التى اطفحت الكأس عندما تكشف أننى مســيحى . وقد أظهرت الكلية أستياءها طبعا من كونى عضوا بالكنيسة الانجليزية متســما بسرعة التصديق ، مما كان يعد فى نظرها نقصا أخلاقيا . وظهر فى كامبردج فى ذلك الحين روح كريه من التنافس الذهنى ظهر فى جو من السخرية الهادئة شبيه بنوع المغامرات التى ظهرت فى انجلترا والتى فكرت فى أن أصورها فى رواية أطلقت عليها اســم « رجل البارومتر » . وكان عنوان هذه الرواية على مسئولية المحرر . وكان العنوان الذى أخترته لها هو « الأعراف » وكان أكثر دقة فى تصوير ما كان يدور بخلدى ، لأن الأعراف هى مجال الأرواح التى لم تولد بعد والتى تجاهد لتخرج الى الحياة ، أى التى لم تتجسد بعد ، وقد ظننت أن هذه الرواية تشرح تماما مسرح الحياة على طول المدى بمكن أن تنتظر فيــه وظيفة ثابتة تنبئك كيف تكون ، أو زواج ينبئك من تكون .

وعند هذه النقطة بدأ تحليلى نفسيا بطريق الخطأ ، وشعرت آنذاك بانقباض شديد ، بل أصبحت غير قادر على أن أقوم ببحث ذى معنى . وقد صدمنى بشــدة عدم جدوى أشياء كثيرة ، مثل نظرية البيوت التجارية . وكان واضحا أن الاقتصاد الحديث لم يعط توضيحا كافيا لما كانت عليه الدنيا ، وسار رجال الأعمــال فى عملهم وسط ضباب الجهل وعــدم اليقين بسبب الضــغوط والرغبات والنزعات المتصارعة . وقد تناول روبين ماريس كل هذا النوع من الموضوعات بشىء من التشاؤم فى كتابة « النظرية الاقتصادية لادارة رؤوس الأموال » (ماكميلان ١٩٦٤) . وبدا لى حينذاك كما يبدو لى الآن أن المقاييس الخارجية لأفعالهم كان يمكن تفسيرها بوضوح

من خلال اصطلاحات الاقتصاد التجميعي . ومن خلال تلك المقاييس كانت الحياة تسير هينة بالمعنى المألوف . ومن المحتمـــل أن تنبئك حالة الهضم لرجل ما ـ أو زواجه ـ عن سياسة الاستثمار في شركته ، أكثر مما ينبئك عـــدد من التحاليل المتكررة . ولقد كانت وجهة النظر هذه موضوعا لأحد الضغوط الشديدة التى سوف أناقشها فيما بعد لأنها تدخل فى مجال السياسة . ولكن اذا تركنا هذا الأمر كمـا هو فأننا نجد هناك جوا من المغامرة يحيط بدراساتى فى سياسة تقويم واستثمار الأموال فى الصناعة الأولية ، وهى تجارة البيرة . وأخيرا قادتنى أبحاثى الى طريق يخرجنى من هذا المأزق . عند هذه المرحلة مرضت ولزمت الفراش .

وكان الدكتور الذى يعالجنى عضوا فى فريق وولش القومى لـكرة الرجبى ، ورغم شهرته كأخصائى فى علاج رجال الرياضة وتمزق عضلات الركبة وعلاج البثور فى الأيدى وغير ذلك فانه اتجه الى دراسة الكآبة وبواعث الانتحار التى كانت تخيم على مرضـــاه من اللاعبين . وقد أرسلت الى أحد الأطباء النفسانيين ، وكان علاجـه بالمجان على حساب هيئة الصحة القومية » وكان يتسم بالذكاء ، فأنشأت معـه علاقة طيبة ، وعمنى الهدوء والسكينة ، وقادنى الهدوء أن أكتب كتابى الوحيد الذى وصف بأنه عمل أدبى رائع . وكان مرآة صادقة ، وصفت فيه ما مربى أثناء مراهقتى فى فترة اقامتى بالمستشفى ، وهو كتاب « مناظر من الحياة داخل المؤسسات » . وقد أوضح المحلل النفسى ما كنت أعانيه من ضيق ، وأشار الى أن كثيرا من الحالات النفسية ترجع الى أسباب جسمانية . وقد قال لى : « أن حالتك تؤكد ذلك حقيقة ، ولقد كنت منقبض النفس لسبب معقول ، وأنت فى ســبيلك الى الموت . ومن ثم أرسلنى الى مستشفى جاى بلندن ، وكان جون كيتس طالبا بها ، ونجحت العملية ، واستعدت صحتى بعد سنة . ولكنى لم أقدر تقديرا كافيا تأثير الصحة على نشاطى أو تأثير شفائى من مرضى على جذوة الحياة . وقد تركت الاقتصاد الصناعى، مع أن صناعة الخمر التى ظهرت أخيرا عرضت لنواح كثيرة من نظرية البيوت التجارية التى أصبحت أخيرا شائعة ، وذلك ما قلته لنفسى لأن أحدا لن يقوله لى . ولقـــد عزمت بايعاز من أصدقائى ريتشارد تيتموس وبريان آبل سميث أن أدرس اقتصـــاديات التعليم ، وكانا قد فرغا لتوهما من عمل دراسة لاقتصاد هيئة الصحة القومية ، وهى المؤسسة التى أنقذت حياتى ومقدرتى على العمل . ويبدو أن نظام التعليم كان على درجة من الأهمية تستأهل البحث . ولم يكن معروفا حتى ذلك الوقت ـ فى بريطانيا على الأقل ـ أى بيان احصائى عن التعليم . وقد أصبح التعليم الحديث ـ لا فى انجلترا وحدها ـ موضوعا أكاديميا خطيرا . ويشغل الانجليز أنفسهم فى وقت مبكر دون شك بمسائل الطفولة والمدارس ، سواء فى حياتهم الخاصة أو فى كتبهم ، ولكن هذا الاشتغال قد حال على ما يبدو دون التفات أحد الالتفات الواجب الى المشاكل العقلية الخاصة بالتعليم . ويستثنى من بينهم ماتيو أورنولد و ر. هـ. تاونى ، ولكن العلوم الاجتماعية فى العقد السادس لم تقدر التعليم حق قدره . وهناك أربعة وعشرون من أساتذة التعليم ـ وهم قليل من كثير من أدعياء العلم ـ تكلموا كثيرا عن روســو

وبياجت . وكان التعليم عبارة عن أفكار عامة تختفى تحتها الحقائق . ولم يتصد أحد – حتى ولا الحكومة – للبحث فى عدد أطفال المدارس ، وكم من المال ينفق عليهم ، وماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك . وعن طريق حزب العمال وجماعة الفابيان اكتسبت خبرة فى ادارة المدارس ، فتقابلت وتصادقت مع شيلى هالسى وجين فلود الاخصائيين فى العلوم الاجتماعية . وبدأت أتعرف معرفة وثيقة على رجال التعليم ، وعملت بجد وبسرعة ، وبمنحة مالية صغيرة (أقل من ٤٠٠ جنيه) صرفت كلها على اعداد جداول كبيرة على الآلة الكاتبة جمعت معظمها بنفسى ، وفى أقل من ثمانية عشر شهرا انتهيت من وضع كتابى « تكاليف التعليم » . ولأول مرة وضعت المدلولات على مصاريف الدراسة فى اطار الاقتصاد العام . وعلى أساس هذا الكتاب قام كثير من مؤلفاتى خلال السنين العشر من سنى حياتى التالية .

اكسفورد والعالم :

كانت الظروف التى عملت فيها كالآتى : يمتلك نادى الكاميرا بجامعة أكسفورد الشقة التى كنت أعيش فيها ، وكانت فى الطابق العلوى ، وهى مكونة من حجرة واسعة ومطبخ وحجرة نوم وحمام ، فى شارع بومنت ، أعلى اتحاد الناطقين بالانجليزية الذى كنت أتناول فيه وجباتى أو آخذ منه لفائف المأكولات . ولكن هذا الاتحاد كان يحطم عناصر الخلوة الخاصة التى يشعر الشاب بأهميتها له ، حيث كان يشرف عليه مجموعة من السيدات الكبيرات السن المهذبات من صاحبات الحياة . الزوجية الحزينة وكن يتخذن مواقع ممتازة لمراقبة درجات سلم المبنى الوحيد الذى تسهل مراقبته من بار الاتحاد . وقد رأين فى شخصا متكبرا ، كما هى النظرة عادة الى وافد جديد خجول كان بالصدفة من الاشراف بالوراثة . ولقد جئت الى شقة نادى الكاميرا بعد أن قضيت ثمانى سنوات فى كامبردج طالبا ومدرسا . ومع حبى للشقة كنت أكره أكسفورد ، وكنت أرقد يوما بعد يوم يملأنى احساس بالكآبة على سريرى القديم ، أو ألقى بنفسى على السجادة الحمراء الفاقعة اللون وسط الحجرة لأكتب . وكانت الكتابة هى الشىء الوحيد الذى يمكن أن أعمله ، ولعلها كانت الوسيلة الوحيدة التى تتيح لى أن أغادر المكان سعيا لنشر ما أكتب والحصول من ذلك على بعض المال . ولقد كرهت من عرفتهم من الناس فى أكسفورد أكثر مما كرهونى . ولما كنت مدرسا بالجامعة ولم أبلغ بعد درجة زميل فان حقوق تناول الوجبات كانت كافية لاثارتى . ولم تكن كافية لتغذيتى . وقد كنت أدعى أحيانا لتناول الطعام مع أحد خريجى كامبردج السابقين ، وكانت كل دعوة من هذه الدعوات للطعام عبارة عن كارثة بشكل خاص ، ففى كلية « المسيح » التى أسستها الملكة اليزابث تيودور لأبناء ويلز ، تنبهت لنفسى فجأة وأنا أبدى ملاحظة على سخف المكان بصوت عال ، ولم أعد لتناول الطعام مرة أخرى فى هذه الكلية .

وأحيانا كنت أخرج لأحاضر ، أو لأتمشى فى غابات ويثام وشتوفر وغيرها من الاماكن المشابهة ، وأحمد الله أنى لم أعد أراها بعد ذلك ، وكل ما أعرفه عنها الآن

أنها أصبحت عقارات سكنية أو مدنا جديدة · ولكنى فى الغـــالب كنت أذهب الى كامبردج حيث أندس مسرورا فى الفراش الوثير وأتناول طعام الجـــامعة اللذيذ · واستجابة لاعلان ظهر فى جريدة التايمز تبادلت شقة نادى الكاميرا فى عطلات نهاية الاسبوع مع محام يعيش فى حى التمبل ، وكان يطلب شـــقة فى أكسفورد من يوم الجمعة الى يوم الأحد ليقابل فيها فتاة أحلامه ، لذا جئت لأقضى أيامى من الجمعة الى الاحد فى هـــدوء حى التمبل ، حيث أكتب وقد غمرتنى السـعادة بأنى لست فى أكسفورد · ولما كان أحد كتبى عن ايرلنـــدا فقـد كنت أقضى كل أجازتى وكثيرا من فترات الدراسة هناك للكتابة · وقد ظن الجميع أننى قضيت حوالى خمسين ليلة من كل سنة فى أكسفورد ، وكانت تبدو فى مجموعها بمثابة أيام الحياة · وربما أكون قد قضيت أياما فى ملبورن أو موس جو أو فى بعض الاماكن الاخرى لا فى أكسفورد· وعندما كنت أرفـــع ناظرى بين فقرات الكتابة كنت أرى من خـلال نافذتى الغابات الموحشة فى ويثام ، أو الكلاب المتأهبة للصيد فى جلوستر جرين ، ولكن ما أحتفظ به فى ذاكرتى وأنا فى أكسفورد هو الطريق الى لندن ، وكان الوقت وقت السويس، وكان بترول السوق السوداء رخيص الثمن ·

وكنت فى الواقع أكتب أربعة كتب ، بالطبع على التوالى ، منـــاظر من الحياة داخل المؤسسات ، وقد ذكرته آنفا ، ورواية سميتها أخيرا «رجل البارومتر» ، وبحث بعنوان «اقتصاديات التعليم» ، والكتاب الاخير «صناعة الخمر فى الاقتصاد الايرلندى من سنة ١٧٥٩ الى سنة ١٨٧٦ » كتبته مع صديقى باتريك لنش · وقد حل التاريخ الاقتصادى محل الاقتصاد الصناعى كنوع من الاهتمام النظرى ، وكنت محظوظا بما فيه الكفاية بأن أقوم بتدريسه فى جامعة أكسفورد وأن أعمل فى مواد الارشيف فى ايرلندا كنتيجة مباشرة لارتباطاتى بتجارة البيرة · وقد زادت تجربتى فى العمل فى أرشيفات غير مرتبة وغير مصنفة من اعتقادى أن النظرية وأساس البناء يجب أن تكون قائمة على معرفة أكيدة بما هو عليه الحال · وكانت نظرية عالمى الاقتصاد الايرلنديين التى ظلت حتى سنة ١٨٥٠ والتى قمت بتطويرها قائمة على أســاس معلومات غير دقيقة عن تجارة البيرة فى الاماكن المختلفـة . وكانت نظرية غير مفهـــومة ، وكانت تجربتى أيضا فى ايرلندا عديمة الفـائدة من وجهـة نظر أخرى ، اذ أنك حين ترى مجتمعا يماثل مجتمعك مع اختلاف بسيط فأنت ترى وطنك بصورة مختلفة ·

ولقد أصبحت بعد أن كتبت كتابى « تكاليف التعليم » خبيرا فى موضوع لا يزال الى حد ما بعيدا عن الانظار ، كما يعتبر فى الوقت نفسه من الموضوعات التى تجذب الأبصار · وكلمة « خبير » هى تعبير يتيح لك السفر الى البـلاد الاخرى على حساب حكومتك أو على حساب منظمة دولية للتشاور أو التداول · وكان هذا بالنسبة لى بدء مرحلة غير عادية من حيـــاتى ، لانى كنت أكتب كتابا عن تاريخ ايرلندا ، فسافرت بانتظام الى دبلن ، وقضيت الجزء الاكبر من أجازاتى الجامعية هناك فى غرب أيرلندا فى المدة بين هذه الرحلات عندما كنت لا أعمل فى اكسفورد · وكنت كثيرا ما أستدعى الى باريس لأعمل مع المنظمات الدولية · وبعد أن غادرت أكسفورد لأول مرة ذهبت

الى بلاد أخرى ، منها الولايات المتحدة والهند وأثيوبيا وكثير غيرها ، لاشترك فى الاجتماعات ، أو لأساعد فى اخراج وجهة نظر فى مشاكل محلية • وقد كتبت عن مثل هذا الامر فى كتابى «غذاء بلا نوم» ، وهو عبارة عن قصة نشرتها سنة ١٩٧٠ كانت فى الواقع هدية الى رجل فرنسى أعجبت به بحرارة •

وقد كنت أعمل فيما أظن فى اقتصاديات التعليم الذى نتج عنه ظهور عدة كتب، منها اقتصاديات التعليم ، وأبحاث أخرى ، عندما تحققت أن المجتمع الفكرى الذى كنت أعتبر نفسى جزءا منه مجتمع مشتت • لقد كنا نقابل فى مؤتمرات دولية ونتزاور فى جامعاتنا ومكاتبنا ونقضى أوقاتا معا ، وكانت اهتماماتنا الخاصة تجمعنا معا ، وكنا نكون فيما يبدو مجموعة من الاصدقاء الذين يفكرون فى أمور متماثلة ويشتركون فى الاتجاهات والضحكات والتجارب والاحكام • وكانت أكسفورد فى ذلك الوقت هى مقر عملى الرسمى ، ولكن عملى جعلنى ألتقى بأناس من بلاد أخرى • ومن خلال كتابى عن ايرلندا أمكننى معرفة ايرلندا جيدا ، ومن خلال كتابى عن اقتصاديات التعليم سافرت وتزوجت بسيدة أمريكية ، وانتقلت الى لندن . ومن خلال هذه الاجتماعات الدولية شعرت بقدرتى على الانتاج •

وكان لهذه المرونة الذهنية عدد من وجهات النظر : أولها ضمنى ، وهو أنى أعتقد أن العمل بانجلترا عسير • وهذا استنتاج غير صحيح بصفة عامة ، والحقيقة أن عدد الاشخاص الذين يهتمون بعملك الخاص محدود ، ومن المؤكد فى الوقت الحاضر أنهم قد تفرقوا • وفى الحقيقة لقد وجدت انجلترا صعبة فى هذا المجال حيث أشعر أننى لا أتوقع فيها الا أن أكون أستاذا فى الاقتصاد ، حيث يحب الناس فيها أن تكون لك مهنة واحدة ، لأنهم لا يثقون فى صاحب الاهتمامات المتعددة • اننى قانع بأن أترك دراساتى الاقتصادية للحكم عليها ، فمن الواضح أنها ليست عظيمة ، ولكنها فى الوقت نفسه ليست رديئة المستوى ، الا انها — كما قيل عن أعمال مادوكس فورد الروائى الانجليزى والناقد الذى أدى دورا كبيرا فى حياة الغربة بباريس فى العقد الثالث فى المبدأ لم تقدر لأنها لم توضع فى مكانها الصحيح ، وأنت يمكنك فى المجتمعات الفكرية الدولية أن تختار أقرانك لفترة محدودة ، وأن تختار الطريقة التى يتم على أساسها تقويم عملك حسب المبدأ الذى تضعه بنفسك •

وعندما تقدمت بى السن وجدت أن همى الرئيسى هو الكتابة ، والكتابة فى المجالات الصعبة التى لم تكتشف نسبيا ، فى مجالى العلوم الاجتماعية والآداب • ولما كنت أتعامل مع الكلمات فأنا مشغول باللغة الانجليزية • وبسبب جنسيتى الانجليزية وجدت نفسى مهتما اهتماما متزايدا بمواطنى الذين اكتشفت من خلال تجاربى العالمية ومن خلال زوجتى الامريكية • اننى لا أستطيع أن أعيش طويلا فى الخارج • وأنا مقتنع الآن دون أى شعور بالتحيز بأن جذورى تمتد عمقا فى الامكنة التى رأيتها لأول مرة وأنا فى العقد الثانى أو الثالث من عمرى وخاصة أكسفورد •

ولذلك عدت لأعيش وأعمل فى أكسفورد ، ورأيت كليتى جميلة ، وزملائى وطلابى على درجة كبيرة من حسن الصداقة • وستظل اكسفورد لنا كما وجدناها ملأى

بالاصدقاء الطيبين والعلماء العظماء ، تهتم بالزمالة الجامعية ، ولها مقدرة كبيرة فى تقدير هذه الزمالة ، وقلما يوجد مجال لا تتفوق فيه · ولكنها رغم قسوة أحكامها مخلصة لمن تحبهم ، وأنا سعيد بأن أقول أننا ما زلنا نشعر فيها بالترحيب العميق ، وهى بالنسبة لى أفضل وأعقل الجـامعات ، وهى تختلف اختـلافا بينا عن جامعة كمبردج ، فى حرية التفكير . وفى مرحها ، وقد نبذت المتعصبين فى الدين · وعلاوة على كل هـذا فان جامعة كمبردج كانت جامعة ميلتون وكرمويل ، وما تزال تحمل طابعهما ·

ولكنى غادرت أكسفورد مترددا شاعرا أنى أنافق اذا ما ناقشت تطور التعليم العالى من هذا المحراب المحبب الى النفس ، وذهبت الى أحدث الجامعات وأقلها نضجا·

مرحلة النضج

ان كلمة برونل كما يقولون تشبه في جرسها كلمة طعام الافطار ، ولكنها فى الواقع كلية فنية أصبحت فيما بعد جامعة جديدة ، على مشارف لندن · ان لها الآن اتجاها تكنولوجيا (تقنيا) ولو أن كلمة «تقنى» لا تزال غامضة فى معنـاها · ونحن نقوم بتدريس الاقتصاد فى مناهج متعددة متضمنا درجة عالية من التخصص فى أصول الاقتصاد · وهو بالطبع اقتصاد كمبردج الحديث · وقد كنا نستطيع أن نبدأ من غير مناهج موروثة ، وأن ندرس ما يحتاج أليه الطلبة ، وهو ماكنا نريد أن نكتشفه معهم· وهو نوع الاقتصاد الذى سلمه مارشـال عن طريق كينز الى بيرو أسترافا وجوان رابرتسن بأوسع معانيه الاجتماعية والفكرية · وهو اقتصاد أصبح غـير عصرى فى الوقت الحالى ، لأنه يعتبر اما عاديا أو متضمنا الكثير من القيم أو سياسيا أحيانا ، وربما كان له كل هذه الامور الثلاثة مجتمعة ، وفى رأيى أنه لا مهرب لأى دراسة يقوم بها الدارس من أن توصف بهذه الامور ، لأنه يستحيل علينـا أن نضع أنفسنا على المريخ ونتخيل اننا نراقب البشر من خلال تليسكوب قوى · اننا لا نراقب النمال على سطح الكرة الارضية ، فى حين أننا نحن أنفسـنا نمال · وهـذا لا يعنى بالطبع أنه ليس من واجبنا أن نعمل على أن نكون موضوعيين ، فمن الواجب أن نحـاول أن نكون موضوعيين ، لأننا نعلم أنه عندما يحين وقت كتابة تاريخنا سوف نكشف أن ماحصلنا عليه من آراء وأفكار تبدو لنا طبيعية كالهواء الذى نستنشقه هو آراء وأفكار خاطئة ، وأنها قد تلونت بنظام من القيم لانستطيع نحن أن ندركه بوضوح · وبالنسبة لى فقد أتاح بناء الجامعة الجديدة ذات القسم الكامل للاقتصاد الفرصة الكاملة لى لكى أعيد التفكير فى موضوع علم الاقتصاد وعلى أى صورة ينبغى تدريسه ، ولماذا قبل هذا ينبغى تدريسه · وسوف أكتب فيما بعد عن الصلة بين الحيـاة الفكرية والحياة العاطفية ، ولكنى هنا أناقش موضوع الاقتصاد فقط ·

ويبدو لى ان كثيرا مما جاء فى الكتب المقررة ليس غـير صـحيح من الناحية الرسمية فقط ، ولكنه باعتراف مؤلفى هذه الكتب غير صحيح بالمرة · فكان يأتى فى السنوات التالية ما ينقض ما كان يدرس فى السنة الاولى كوسيلة لاعداد نموذج ما ،

أو على الاقل ما يعدله · فلماذا اذن نصمم على تدريسه ، ولماذا لا ندرس ما نعتقد انه الصحيح ، وهو كيف يؤدى الاقتصاد الآن وظيفته ، وبهذا نحاول أن نثير القضايا فى الفلسفة الاجتماعية التى تؤثر فى الطلبة الى حد كبير أو قليل ·

وهذا ما فعلناه أخيرا ، وأعتقد أننا فعلناه بنجاح معقـول · ان الطلبة يقرأون الآن كتبا صعبة ، كما يناقشون فى الحقيقة أفكارا صعبة ، ولم يعد الاقتصاد موضوعا جافا ، بل أصبح موضوعا مثيرا ، خصوصا بالنسبة لأصحاب العقـــول الأكثر تأملا وتفتحا · ولقد ساعد على نجاح هذه الطريقة نظام منهج الشطائر كما يسمى · ويعنى هذا النظام أن يتخلل مرحلة التعليم ثلاث فترات مدتها ستة أشهر تقضى فى مواقع التدريب ، فاشتغل بعض طلابنا كاقتصاديين فى مصالح الحـكومة ، والبعض الآخر كباحثين مساعدين ، والبعض فى المشاريع الانتاجية ، وأشتغل البعض فى دور الطفولة والسجون والمستشفيات · وكان أثر ذلك على نضج الطلاب رائعا ، وحقـق غرضه الاساسى الذى يبين هل الاقتصاد أو غيره من المواد التى يدرسونها تتصل بالعالم الذى يعيشون فيه · ومسألة الاتصـــال هـــذه مسألة خادعة بشكل غير عادى من الناحية الفلسفية اذا أثرناها · وأول قضية تثيرها هى هل يمكن أن يقال عن أى شىء يصنعه الانسان أو لا يصنعه أنه غير متصل بعالمه ، بمعنى أن كل شىء يجب فى النهاية أن يضيف شيئا الى حصيلة التجربة النهائية · والقضية الثانية هى هل نعد الطلاب من خلال تعريضهم لمثل هذا المنهج لقبول المجتمع كما هو ، ولقبول المؤسسات والأنظمة الاجتماعية دون معارضة · وأعتقد أن هذا خطير فى الواقع · ومن جهـة أخرى فان كثيرا من المؤسسات الاجتماعية ، فى نظرى وفى نظر الاغلبية العظمى من مواطنى ، تبدو مقبولة من حيث المبدأ ، وان كان يمكن تعديلهـا من حيث التفاصيل الى ما هو أحسن · أما تلك المؤسسات التى يشعر المرء حيالها بنفور شديد فان هناك كما يبدو لى ما يمكن أن يقال عنها للطلبة وهم فى سبيل معرفتها ، حتى يمكنهم حينئذ نقدها بطريقة غير رسمية · أما القضية الثالثة وربما كانت أهمها جميعا فهى هل ينبغى أم لا ينبغى أن يكون التعليم له صلة بالعالم الذى نعيش فيه على الاطلاق ·

ان أحد التغييرات العظمى التى حدثت من وجهة نظرى هو قبول الراى السائد بأن الوضع القائم أى ما يحدث فى الوقت الحالى هو الشىء الهـــام ، واعتبار كل مايحدث تقريبا هو مقدمة لشىء آخر · وهذا البحث يجنبنا السؤال عن القيمة الحقيقية لما يحدث الآن · وهذا ما أود أن أكتب عنه فى المستقبل ، ولست متحمسا لموضوع الاتصال فى التعليم ، مع أنه موضوع يتناوله الكثيرون ، لأنى أعتقد أن التعليم يجب أن يتناول العاطفة والعقل وغرسها حتى يصبحا حقيقة · ويبدو لى أن اخضاعنا هذا الغرض النبيل لشئون الحياة اليومية يجعل من التجارب ذات القيمة الحقيقية لمعرفة النفس ومعرفة طريقة الحياة وما ينبغى أن تكون عليه شيئا تافهـا وسخيفا · وانى واثق أننى سوف أعارض بقولى هذا كثيرا من الاصدقاء الذين أحترم أحكامهم ·

والآن

ان الذهاب الى لندن أمر والذهاب الى جامعة جديدة أمر آخر · لقد كنت مهتما

من الناحية السياسية بمشاكل انجلترا التعليمية ، وفكريا باقتصاد التعليم والمعرفة. وكان من المحتم أن تصبح قاعدة عملي هي لندن • وان جامعة اكسفورد تنتمى الى العاصمة ، ولكنها مع ذلك تقع على مسافة من لندن • ومع أن لندن مدينة كبيرة فان هناك احساسا بأن هنا مركز النشاط • ومنذ وطئت قدماى لندن لأعمل أخذت أشتغل بقضية التعليم من حيث المضمون السياسى الواسع له ، ولقد كان هـذا بالنسبة لى أمتع شيء فى حياتى الوظيفية الجديدة • وكنت مضطرا أن أعيد التفكير فى التعليم وارتباطه بالمجتمع وبالثقافة فى مدينة لا تزال قوى المدينة فيها (بمعناها الأصلى اى المشتق من كلمة مدينة) قوية بشكل غير عادى ، جنبا الى جنب مـع عوامل التفكك الواضحة الجلية فى نواح كثيرة • وقد انتقلت الطبقة العاملة الى الضواحى فى أعداد متزايدة • وهناك جماعات كبيرة من المهاجرين السود الذين يثيرون القضايا العنصرية. وهناك المشكلات الاخرى للمدن كالفوضى ومظاهرها من غش وجريمة • وربما كان من الحق أن يقال أن هذه المشكلات أصبحت أقل مما كانت عليه ، ولكنها الآن واضـحة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل • ولندن التى نعيش فيها الآن مدينة لها حياة فكرية نشيطة ، تقدم فيها عروض الباليهات والاوبرات والمسرحيات ، وتعقد فيهـا اللجان الحكومية والمعارض الفنية ، وتقام فيها الولائم لرجال السياسة والفن • وهى لا تشبه حياة الضواحى التى نشأت فيها • ومع أنى بعدت عن هذا الماضى فانى ما زلت مخلصا له ، حيث أقضى وقتا طويلا من كل أسبوع أحاول فيه بذل قصـارى جهدى لخدمة مواطنى ، ومع هذا فلم يدفعنى الشوق أن أعـود وأعيش فى لويشـام أو أن أشعر بتقصير نحوها يدفعنى الى أن أخفف من وقعه • ولكن هناك دين أرى من الواجب على سداده ، وهذه هى طريقتى فى سداده ، وبهـذه الطريقة فان الصيحة التى يرددها هؤلاء الذين لم يشقوا طريقهم أو الذين يحلمون أبدا بالعيش فى لويشام من الذين يعتبرون أنفسهم مصلحين هى صيحة النفـاق • وربما كان هـذا حسنا ، ولكنى لا أعتقد ذلك ، ويجب على المرء أن يتوقف عن سداد ماعليه رهنا للماضى •

ولكن اذا تركنا هذا جانبا فانه ينبغى لكى تنشط محاولاتنا لحكم المدينة أن نرى أولا المشكلات التى تؤثر فى لندن ، وبالتالى المشكلات التى تؤثر فى العالم • وأنا أقوم الآن ومنذ وقت طويل بالعمل فى مشروع ضخم لدراسة معنى المساواة وابعـاد عدم المساواة ، ويتبع ذلك فيما أعتقد أن هناك كثيرا من المسـائل التى تثير انتباهك ، وأولها هو ما هى الاسس الاخلاقية للعمل • وحيث اننا محاطون بتغيرات وتطورات غير جذابة فى معظمها فان الرغبة فى العمل تشتد ، ولكن الاساس الذى يجب أن يقوم العمل عليه ليس واضحا تماما • ولقد تحددت وجهة نظرى من خلال تجربتى الخاصة، وحاولت شرحها فى أحدث كتبى « الديموقراطية الاجتماعية » ، وعلق اللورد سنو على كتابى هذا قائلا : « انه ديموقراطى اجتماعى ، بمعنى أنه يعتقد أن الاقتصاد المختلط يهيء فى المجتمعات المتقدمة على الأقل أحسن الفرص لتكوين ارتبـاط تحت أفضل الظروف بين السعادة المـادية والسـلوك الحر • وقـد وضـع فى نهاية كتابه «الديموقراطية الاجتماعية» ما يعتقده خاصة من ان الاعتقاد المتداول الذى ينادى بأن

السلوك والاعتدال والحرية ليست فقط من أساسيات الحيـــاة الطيبة ولـــكن من الواجب أن يحصل عليها هو اعتقاد بطولى فى زمن ترتكب فيه مثل هذه الفظائع تحت اسم المثـل العليـــا ، ولهـذا السبب يكره الاجتماعيون الديموقراطيون لافتة شعار المثاليين ، لأن المثل العليا عندهم هى ما يجب أن يتمسك به المتحضرون من الناس اذا كانوا أمناء مع أنفسهم وهى دافعهم الاكبر ٠

ولست أريد بهذا تحويل أى شخص الى وجهة نظرى الخاصة ، لأن هذا غير لائق بالمرة ، ولكنى أحس أنى مضطر أن أقول الحقيقة (الى أقصى ما أستطيع أن أقول) عن تكوين وطبيعة آرائى الخاصة وحكم العالم عليها ، فقد وجدت من العسير بمكان أن أبرر أفكارى وأعمالى حتى عندما أحس احساسا عميقا بشىء ما ٠ فمثلا عندما ذهبت الى جنوب افريقيا تأثرت جدا بما رأيت وأحسست ٠ ومع ذلك وجدت من الصعب أن أفسر فى عبارة لا تبدو أنها مجرد شعار لماذا أحسست أن ما يحدث هناك خطأ ، وأنه لا بد أن يتخذ اجراء ما ٠ والامر الثانى الذى أحسست أنه أثار مصاعب كثيرة كان غير ذى بال ، لأن العلوم الاجتماعية (على الاقل كما أعرفها) لم توضح توضيحا كافيا الصورة التى كان عليها العالم أو صورة التغير والتطور التى كانت تحدث ، وخاصة أن الخطأ لم يكن فى الحقائق نفسها أو فى طريقة التفكير ، ولكنه كان نتيجة صعوبة الرؤية ٠ وأتساءل هل هذا هو أفضل الطرق لوصف العالم ؟ وهل هذه هى الطريقة التى توصف بها العلاقة بين التحليل والفعل ؟ لقد حاول الاسدير ماك انتير بطريقة غير كافية أن يثير بعض هذه الامور فى أحدث كتبه المسمى «فى مواجهة صورة العصر» لأنها مسألة صعبة جدا ٠ ولذلك أعتقد أنى سأشغل جزءا كبيرا من حياتى فى تحقيق هذا الأمر ٠

والآن يجب أن أعود الى السؤال الذى طلب محرر هذه المجـــلة أن يجيب عليه مقالى هذا : لماذا ينبغى أن يختار رجل صاحب عملين ـ أحدهما الاشتغال بالعـــلوم الاجتماعية ، والآخر هو الاشتغال بالتأليف ـ كلا العملين ؟ وأجيب بأن المـــال هو السبب الاول ، فقليل من الناس ممن ليس لهم دخـل خاص يستطيعون أن يعيشوا على الكتابة أكثر مما يعيشون على الصحافة ، الا أننى حتى ولو كان لدى دخل خاص فانى سأظل أعمل فى كلا الامرين ، رغبة منى فى تفهم العالم ورغبة منى فى أن أغير منه بقدر المستطاع ، لأن من واجب الانسان العصرى أن يحاول تنظيم معارفه ليصبح كما نسميه هو الانسان العلمى ٠ ومحاولة فهم العالم بدون نظام صارم تبدو لى كأنها رفض لقوة العقلانية ٠ ولكننا اذا فسرنا العقلانية بمفهـوم العـــلوم الاجتماعية كما نعرفها اليوم فاننا نرتكب بذلك خطأ كبيرا ، كما ذكرت فى حديثى سابقا عن تعليم الاقتصاد فى الوقت الحاضر ٠

وهناك طريقة أخرى للتعرف على العالم بما فيه الانسان نفسه ، وذلك من خلال الفنون ، وهى الكتابة فى مثل حالتى ٠ فانا لا مهرب لى من أن أكون كاتبا ، فالكتابة والاشتغال بالادب لهما جذور طبيعية عميقة فى نفسى ، فلم أشك مطلقا فى أننى كنت

كاتبا ، ويبدو لى أنها ليست بديلا ، ولكنها مكملة لمهنتي كاقتصادى · وفى الحقيقة اذا كانت العلوم الاجتماعية تمر الآن بمرحلة تغير عميق فان من وسائل التغير التعبير الحر للتجربة الشخصية المباشرة من خلال الفنون · فأنا كغيرى من الناس برم بالقصة أو الرواية كشكل ، وهذا لا يمنع من وجود كتاب القصة الممتازين من الانجليز المعاصرين ، وان كان يقال ان الادب الروائى فى أمريكا أقوى فى الوقت الحاضر من الادب الانجليزى · ويبدو لى أن هذا غير صحيح ، فالادب الروائى الامريكى يبدو لى كأنه نموذج متكرر مصنوع · واعتقد ـ لكى نكون أكثر دقة ـ أن كثيرا من الكتاب أصبحوا كتاب تراجم (وإن كان بروست وجويس يفعلان ذلك خفية) ، وكثير منهم تعلموا ملاحظة العالم من خلال الدراسة الواسعة بالاسلوب الاكاديمى الرئيسى · وهذا يوضح المشاكل الحادة للشكل والتعبير ، وادراك العلاقة بين الفكر القائم والفكر المؤثر الذى يشير الى الوسائل الحديثة فى التعبير · فالدراسة الاكاديمية تنظم بلاشك نمط كتابة المرء النثرية ، وكذلك ادراكه الحسى ، كما تترك الصحافة أثرها الخاص، وهذا ما أشار اليه كبلنج · ولذلك كان أحد الاسباب التى جعلتنى كاتبا أن أكون أكثر من حزمة من المفاهيم الاكاديمية ·

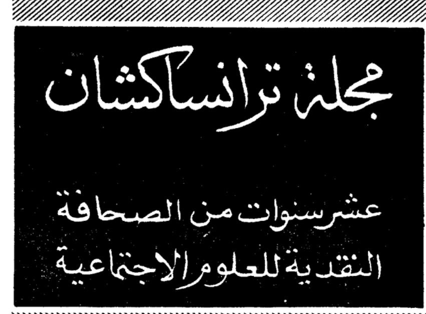
وفى الواقع لم أستطع بعد أن أحل مشكلة كتابة كتابى القادم ، مع أنى قد كتبت نصفه تقريبا ، لأن بناءه صعب ، وكذلك موضوعه ، لأنه يدور عن شخصى حيث أحاول فيه أن أشرح رأيى فى موضوع المساواة وغير ذلك من الموضوعات التى أشتغل بها ·

ويتطلب الأمر لكى أضعه فى الصيغة المطلوبة أن أكون منظما وبعيدا عما يتعلق بشخصى ، بعيدا عن الأثرة · وهذا أمر صعب التحقيق ، وان كان مرغوبا فيه ، وهذا أشبه بالنموذج الذى استعمله كيرل كونولى فى كتابه «أعداء الوعد» ، وهو تزاوج بين وجهتى النظر الشخصية والموضوعية · ولقد حاول ريتشارد هوجارت مثلا أن يفعل ذلك فى كتابه عن طفولته الذى نجح كعمل أدبى ، وكان يجب لكى يكون ذا تأثير كامل أن يكون أكثر تهكما ، فاذا كان هذا الاسلوب غريبا عليه فكان أولى به أن يتحكم فى عاطفته ·

ولقد كان كتاب «فوائد معرفة الكتابة والقراءة» من نوع الكتب التى أصبحت مألوفة بدرجة كبيرة · وكتاب أ · الفارز «الاله المتوحش» الذى كتب فيه عن الانتحار يعد من هذا النوع ، لأنه آثر البعد عن الشخصية ، ولكن استشدهال هو الوحيد الذى عالج الموضوع بكل نجاح ، وكان كما هو استندهال ، ولكنه لم يكن كذلك هنرى بيل حينما أراد أن يجعل من نفسه استشدهال ·

ان معنى الازدواج هذا ، أو المرايا التى تتعاكس فيها مرآة وراء الاخرى ، كما فى كتاب فيلاسكيز المسمى «لاسى مينيناس» ، هو ماأرنو الى تحقيقه ·





وفى مقابلة مع مجلة التايم عام ١٩٦٣ ، وجه الى سؤال يتعلق بمشكلة توصيل الحقائق السوسيولوجية الى المواطن العادى . وبرغم أن اجابتى آنذاك جاءت مغلفة برداء الاطلاق السوسيولوجى ؛ فقد خامرنى الاعتقاد بأن المشاعر التى عبرت عنها تميز ــ دون مبالغة ــ ذلك البناء الذى تعمل مجلتنا فى داخله .

ولا ريب فى أن علم الاجتماع ينطوى على عدة مزايا بالنسبة للمواطن العادى . فهو ذو أهمية حيوية لحياة المواطن العادى اليومية . فالانسان لا ينفق سوى وقت محدود للسياسة الرسمية ، وربما أنفق وقتا أقل فى التفكير حول العلوم البحتة . وطوال معظم اليوم يشغل الناس بمشكلات الاسرة ، وتربية الطفل ، والسلوك الشاذ، واتجاهات العنف الاجرامى ، ثم مشكلات الاقليات . وبعبارة أخرى يقضى الناس معظم وقتهم فى التفكير السوسيولوجى عندما لا تشغلهم مشكلات توفير أسباب الحياة.

وانطلاقا من وجهة النظر هذه يشتمل علم الاجتماع على كافة صور الاهتمام الانسانى . ويعد هذا شرا وخيرا فى نفس الوقت هو شر لأن كل فرد يظن أنه عالم أجتماع بالنظر الى ما ينفقه من وقت على المشكلات الاجتماعية ، شأنه فى ذلك شأن كل

بقلم : ارفنج لويس هوروفيتز

يعمل ارفنج لويس هوروفيتز رئيسا لتحرير مجلة ترانساكشان الشهرية (وتسمى الآن « المجتمع ») ، وهو استاذ للاجتماع والسياسة فى جامعة روتجرز بولاية نيوجيرسى . وقد عمل أستاذا زائرا فى جامعات لندن ، وبوينس أيرس . والمكسيك . وهو مؤلف مشهور ، اذ ألف حتى تاريخ نشر هذا المقال تسعة مصنفات منها : الفلسفة والعلوم وسوسيولوجيا المعرفة (١٩٦٠) ، ولعبة الحرب (١٩٦٣) ، وثلاثة عوالم للتنمية (١٩٦٦ ، ١٩٧٢) ، وأخيرا «أسس علم الاجتماع السياسى» (١٩٧٢) . ومن بين الكتب التى قام بتحريرها : تاريخ وعناصر علم الاجتماع (١٩٦٤) ، والقوة والسياسة والناس (١٩٦٣) ، وظهور وسقوط مشروع كاميلوت (١٩٦٧) ، ثم استعمال وسوء استعمال العلوم الاجتماعية (١٩٧١) . وفضلا عن كل ذلك قام بنشر مقالات كثيرة منها : الهندسة والآفاق السوسيولوجية للتنمية المنشورة فى المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، مجلد (٢١) ، ع (٤) ، ١٩٦٩ . ويجرى حاليا اعداد سلسلة من الدراسات الدولية تعتمد أساسا على مادة مستقاة من الأعداد السابقة للمجلة الدولية للعلوم الاجتماعية بالتعاون مع الأستاذ هوروفيتز لتنشر عن طريق مؤسسة الترانساكشان .

ترجمة : الدكتور محمود اسماعيل محمد

المترجم : د. محمود اسماعيل محمد : أستاذ العلوم السياسية المساعد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة . ألف عديدا من الكتب والدراسات مثل : « دراسات فى العلوم السياسية » ، « استخدام القوة المسلحة فى العصر النووى » ، « استخدام الدبلوماسية فى العصر النووى » ، « نزع السلاح » . كما ترجم عديدا من المقالات فى هذه المجلة .

انسان يعتقد أنه يعرف كل شىء عن الاقتصاد طالما كان المال متوافرا لديه . ولكنه أيضا خير لأن الدافع الى اكتشاف خبايا المجتمع أكثر قوة وانتشارا من الدافع الى معرفة المشكلات التى تبدو أكثر بعدا . وتتوافر دوما فرصة ربط علم الاجتماع بالعامة . والمشكلة هى الجمع بين التصور الفكرى والاقتدار السياسى فى استراتيجية واحدة ، ثم المعرفة المباشرة لأسلوبنا فى الحديث والكتابة ؛ وهو أمر بالغ الصعوبة ، وان كان تحقيقه ممكنا . وهذا ما تهدف اليه الترانساكشان .

والأهم من الوصول الى الشعبية أن تكون هناك رابطة مع أولئك الذين هم على مستوى السياسة . فهذا المستوى – بالنظر الى اهتمام العامة فعلا باعداد السياسة – اكثر المناطق حساسية حيث يرتبط العالم الاجتماعى بالعامة . فالسوسيولوجى – باعتباره مستشارا لمن هم فى موقع السلطة يرتبط بجمهور عريض شاء أو لم يشأ ، أو تصور ذلك أم لم يتصور . وهذا هو ما تأمل المجلة أن تحققه .

ومن وجهة نظرى الخاصة ، فان ظهور مجلة « الترانساكشا » لم يكن عرضيا أو مصادفة . وانبثقت مشاركتى الخاصة من رغبة قوية فى بعث الحياة فى علم اجتماع

جديد مختص بالانباء الضخمة ، والذى أعلن عنه «روبرت بارك» فى عشرينات القرن الحالى ، ثم علم اجتماع مختص بالملاءمة السياسية على نحو ما حدده ميلز فى الخمسينات . وشهد علم الاجتماع دفعة قوية جديدة مع التحكم فى الطاقة والتنسيق بين المقومات الايديولوجية المتباينة . وقد انطوى ذلك على الانتقال من النقد الى البناء ، أى التحرك من العداوة والمعارضة الى نقطة الخلق والعلم . ولم تختلف المشكلة التى واجهتها عن مشكلة ثورى عسكرى تحول الى قائد سياسى . وأدى تأسيس مجلة الترانساكشان فى ١٩٦٣ الى ايجاد أداة توضح غلبة وجهة النظر التى ظللت أدافع عنها منذ ١٩٥٣ على وجهة النظر الاخرى المعارضة .

واقتضى التحول من النقد الى البناء فى النهاية أن فتحت المجلة ذراعيها أمام اتهامات ودعاوى صغار النقاد الذين أسرعوا فى توجيه اللعنات الينا والى الوضعيين والوظيفيين . وهذا هو ما يجب أن تكون عليه المجلة .

١٩٦٣

يمكن أن توصف السنة الاولى للمجلة بأنها بحث عن الهوية الايديولوجية مع مراعاة حقيقة أن المجلة بدأت عرضا الى حد ما - وبالاحرى كامتداد ، تقريبا ، لمنحة قدمتها مؤسسة فورد لجامعة واشنطن لتعليم الكبار . وفى هذه السنوات الانشائية المبكرة ، كان ممكنا أن تكون ادارة الاعمال سيئة والأسوأ من ذلك ، كان سوء الادارة المطلقة ممكنا ، بل انه كان أمرا طبيعيا للغاية ، وذلك اذا ما أخذنا فى الاعتبار الكيفية التى تعمل بها الجامعات الامريكية . ولعله من قبيل الانصاف ألا نلقى المسئولية كلها على سوء الادارة ، ففكرة أن الجامعة يجب أن تدعم مجلة للعلوم الاجتماعية من خلال اقتراح تقديم منح كانت لا تزال جديدة بحيث لم تكن ثمة أساليب راسخة لتشغيل أشخاص من خارج السلك الادارى أو الاكاديمى . فعلى سبيل المثال ما هى الشروط اللازم توافرها فى رئيس تحرير مجلة ما ؟ هل يكون مرتب وامتيازات المحرر العادى على نفس المستوى مع مرتب وامتيازات رئيس التحرير ؟ أم تجب معاملته على أنه عضو فى السلك الادارى الفنى ؟. ومازالت تلك المشكلات معلقة بلا حل ، على الاقل ليس فى اطار جامعة واشنطن . وأمام حقيقة أن مجلة الترانساكشان كانت فى مراحلها الاولى محاولة متواضعة ، أضحى ممكنا التعامل مع المشكلات الاكبر . والواقع أن المجلة فى أعدادها الاولى لم ترتفع عن كونها مزجا « لمجلة الخريجين » مع « ضمير اجتماعى » .

وفى البداية ، كانت القضية هى ما اذا كان يتعين توجيه المجلة نحو اتاحة العلم لغير المشتغلين بالعلوم الاجتماعية أو فقط للمهتمين باكتشافاته ونتائجه . فعلى سبيل المثال ، هل القصد من المجلة هو تعليم مزيد من المعلمين ؟ أو تعليم صفوة رجال من الاعمال ، أو قادة المجتمع ؟ هل كان مفهوم التعليم متعلقا أساسا بالتثقيف أم بالحركة؟

ومنذ البداية تقريبا ثارت مشكلة خطيرة تتعلق بالجمهور . فقد نظر اليه على

أنه يضم مجتمع الاعمال ، والعاملين فى مجال الرفاهية الاجتماعية والبيروقراطيين من المستوى المتوسط . ولم يعط اهتمام حقيقى لما يمكن أن تقدمه المجلة لمئات الالوف من مدرسى العلوم الاجتماعية ، فضـلا عن المـلايين من طلبة المدارس العليا والكليات المشتغلين بالقضايا الاجتماعية . ولم تعكس هذه الصفة الانتقائية تقـويمنا لجمهورنا فحسب ، وانما أيضا ادعاءاتنا الصفوية .

وثمة مشكلة أخرى تتطلب بالضرورة مواجهتها منذ البداية ، وهى مواقفنا من السياسة والجنس والدين . وفيما يتعلق بقضية الجنس ، ثار تساؤل عما اذا كان يتعين نشر مقالة عن « السحاق » عن دراسات علمية يجرى اعدادها بواسطة كل من دافيد وارد ، وجين كاسبوم . وتزعم المقـالة أن السـلوك السحاقى لم يكن نتيجة الشذوذ الجنسى كنزوة أو غريزة بقدر ما كان نتيجة لحجز النساء فى بيوتهن كأنهن سجينات . الا أن التساؤلات المثارة فى هذا الصـدد كانت عاطفية أدت الى خلافات حادة بين المحررين . وبمرور الوقت صفيت تلك الخـلافات بفضل التسليم بحرية التعبير ورفع القيود عن اللغة المستعملة والمادة التفصيلية . ولم تشجع المجـلة مطلقا على استخدام الاسلوب غير المهذب فى الكتابة ، كما لم تفرض استعمال لغة معينة ، ولكنها اعترفت بوجود سلوك منحرف لدى بنى الانسان . ونحن نقر بأن المشتغلين بالعلوم الاجتماعية حينما يكتبون عن هذا السلوك الذى تعرفنا عليه ، فان الاسلوب غير المهذب يجب اتباعه أحيانا . وفى النهاية كان هذا القرار بالغ الاهمية فى بلورة اطار يسمح بازدهار الترانساكشان كمجلة لعـلم اجتماع جديد وليس مجرد مجلة تقتفى أثر التقاليد المعاصرة .

ولم يكن قرار الانفتاح على المسائل الجنسية سهلا على نحو ما يبدو الآن . ففى الوقت الذى كانت تثار فيه مسألة استخدام الالفاظ البذيئة فى الترانساكشان كانت جامعة شيكاغو تعمل على اغلاق مجلة « شيكاغو ريفيو » لنشرها أشعارا تحوى كلمات من هذا القبيل . كذلك سبقت مناقشـاتنا حركة حرية الرأى فى بيركلى ، وبزوغ الصحافة السرية .

ومن الصعوبة أن نتذكر سرعة التغيير .

وبطبيعة الحال ، كانت هناك مشكلات أخرى : ما مدى التأكيد على علم اجتماع دون آخر ، ما اذا كانت المقالات طويلة أو قصيرة ؛ ما اذا كان يجب تشجيع التقارير التى يكتبها المحررون أو اعادة كتابه أبحاث العلماء ؛ وأخيرا ما اذا يجب البحث عن الابحاث المبتكرة أو جعل الابحاث التى سبق نشرها فى متناول جمهور عريض . ومنذ البداية كشفت لنا هذه القرارات عن الصلة بين البحث عن الهوية الايديولوجية وبين وسائل ترجمة تلك الهوية الى شكل مناسب .

اننى حينما أعود بذاكرتى الى تلك الفترة بكل جوانب ضعفها وقصورها ، فان الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن كثيرا من الناس والمشاعر المعبر عنها فى السنة الاولى للنشر ظلت دافعا قويا بعد عشر سنوات . وبعبـارة أخرى من الخطأ الاعتقـاد بأن

سنوات البحث الاولى عن هوية أيديولوجية كانت مجرد بحث ، اذ أنها كانت انجازا فى جوانب عديدة • فمنذ صدور العدد الاخير من المجلد الاول ، اتخذت المجلة شكلا محددا ، وأثارت بالفعل بعض القضايا الجوهرية المعاصرة • فقــد أميط اللثام عن مختلف المشكلات مثل أوضاع الطبقة العـاملة من الســود ، وحركات التمرد التى أصبحت ظاهرة خطيرة تجتاح الشوارع كل يوم فى صورة أشبه بالحروب •

ولم تكن المشــكلات التى واجهناها فى الســنة الاولى للنشر مجرد مشــاكل أيديولوجية ، وانما كانت أيضا مشكلات تتعلق بالتحرير • فلم نكن بحاجة الى بيان كيف يتأتى للعامة أن تستخدم العلوم الاجتماعية وتفيد منها ، وانما كيف يمكن جعل هذه العلوم تستجيب للعامة • ما هو سبيلنا الى جعل رجال العلوم الاجتماعية يكتبون بوضوح ؟ ما هو سبيلنا الى اقناعهم بعدم الخشية من التماثل بين وضــوح العرض وبين اتخاذ مواقف تجاه القضايا السياسية والاجتماعية ؟ • وفضلا عن هـذا كله ، كنا نعمل فى ظل نتاج فهم داخلى ينظر الى الشعبية فى عبوس ، والى الوضوح ــ فى شك عميق ــ على أنه مرادف للتبسيط المبالغ فيه • وقد ظهر المجلد الاول فى وقت كان التفوق الادبى فيه ــ بلا منازع ــ معيارا للكتابة فى العلوم الاجتماعية • وكان علينا أن نهيأ فريقا كاملا من الكتاب والمحللين القادرين على ترجمة الحقائق الاجتماعية الى الانجليزية بشكل لا يضايق رجال العلوم الاجتماعية ويدفع مجموعة القراء الذين جذبتهم مجلتنا الى التبلد . وبنهاية السنة الاولى المصرية الكبيسة ، أضحت مجلتنا منبرا للعلوم الاجتماعية فى بيئة مهنية غير مواتية •

۱۹٦٤ :

أدخل المجلد الثانى من الترانساكشان تحســنا كبيرا فى مظهر المجلة • فقــد حدثت تغييرات يعتد بها فى الشكل والتصميم والتصوير . وبدأت المجلة تأخذ مظهر مظهر واحساس غيرها من الدوريات الشهرية • وبدأت هيئة التحرير تؤكد على ملامح خاصة مثل حلقات البحث فى الشئون الجارية ، وانشاء قسم لعرض الكتب ، وتطوير فكرة الملاحق الخاصة ، ثم ادراك الحاجة الى بذل جهد للحصول على الاعلانات لتحقيق دخل اضافى • ويمكن القول بأن المجلد الثانى الترانساكشان شهد اهتماما خاصا مرحبا بشكل المجلة فى حين كان المجلد الأول محاولة أيديولوجية لمعرفة الهدف الذى نطمح اليه ، وكيف يمكن بلوغه .

ان قدرا كبيرا من الفضــل ينبغى أن ينسب الى كل من « ليونارد زويج » أول محرر المجــلة ، و « جورج تالبوت » أول مدير للباب الفنى فيهــا • وحققت المجــلة ــ دون تجاهل عنصر الاثارة ــ واقعية فى فن التصــوير تتمشى مع روح العــلاقات والقضــاية الاجتماعية التى تتناولها محتويات المجلة . الا أن رســالة عامنا الثانى تتعدى مجرد تشغيل محرر ومدير لباب الفن • ففى النهاية كان هناك اعتراف بأن اختلاف الناس حرى باختلاف مهامهم ، وبأن بقاء مجلة ما أمر يتوقف ــبدرجة كبيرةــ

على نوعية الأشخاص العاملين أكثر من اعتماده على الذكاء الفردى ، أو الجهد المشتت والمتميز ٠

واتضحت بدرجة كبيرة ضرورة التحرك فى هذا الاتجاه على أثر قيام الفى جولدنز ، وكنت مساعدا وحليفا مواليا له من البداية رغم مابيننا من اختلاف فى الاتجاهات ، بالرحيل الى أوربا وطول غيابه فيها ٠ وبوصول لى رانواتر ٠ ثم شغله الفراغ الذى خلفه رحيل جولدنز ٠ والواقع أننا عملنا سويا كرئيسين للتحرير ٠ وقد شعرت كافة العناصر المعنية بانه ينبغى اخضاع المجلة ، ابقاء على هويتها الخاصة وشرعيتها ، لرئاسة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية ، وليس للصحفيين ، الذين ينحصر اهتمامهم فى التحليل ٠ وذلك هو أفضل سبيل لتيسير عمل المجلة فى غيبة اية معقولية حقيقية أيديولوجية أو نظرية ٠

وقد انحصر اسهام رانواتر فى غرس ما يعرف باسم « أسلوب شيكاغو » ٠ وكان نشاطه ، وهو طبيعة عمله ، موجها نحو الادوار الجنسية للرجال والنساء ، ومشكلة انحراف الأحداث وعلاقتها بالفقر ، والوعى بدور الزنوج فى حياة المجتمع الأمريكى ٠٠ وبوضع الأمور فى منظور تاريخى ، يبدو الاسهام الذى قدمه رانواتر للمجلة على امتدادا لسنين متكافئا مع اسهام جولدنز ٠ اذ اهتمت المجلة بمشكلات علم النفس الاجتماعى والانحراف والشذوذ ٠ ووضعت نفسها ٠ بدقة خارج التيار السائد ٠ وهكذا تجاوزت المجلة أيديولوجية نتاج علم اجتماع موجه الى مجتمع رجال الأعمال ٠ وطالما كان تفكيرى وخبرتى السابقة اقرب الى ذلك الذى لـ جولدنز منه الى رانواتر ، فان اسهامات هذا الأخير كانت جميعها ايجابية ٠

ومرة اخرى ، كانت مسألة مضمون المجلة أيسر فى حلها من مسألة تنظيمها وذلك فى المجلد الثانى وفى غيره من المجلدات ٠ وجاءت المشكلات التى واجهناها على غير ما كنت أحلم بوجوده فى العالم السوسيولوجى ٠ فقد كانت هناك مشكلات معهودة منها : ما هو حجم المجهود اللازم لجذب المشتركين ؟ كيف يتأتى تحويل نجاح أدبى الى نجاح تجارى ؟ ما هو التصميم المناسب للمجلة ؟ ماذا يجب أن يكون عليه ميعاد اصدار المجلة ؟ وكم عدد الصفحات فى كل عدد ؟ كيف يمكن الحصول من الجامعات على دعم بالتعينيات الادارية للمجلة ، ما هى المستحقات المالية للمحرر وللأستاذ الجامعى ٠

وقد أصبح واضحا أن نجاح الترانساكشان ٠ أمر يتوقف ، على الأقل ، على مهارات ادارتها ، التى لا تقل فى أهميتها عن اسهامات المحررين ، وان كان اكتسابها أصعب من اكتساب الثانية ٠

وبنهاية العام الثانى لم يكن قد لمع بعد شخص معين يمكن أن يقال عنه أنه متخصص فى ادارة الأعمال ، أو جذب الاشتراكات ، أو المحاسبة وامساك الدفاتر ٠ فقد ارتبطنا بالجهاز الادارى للجامعة الى حد افتقارنا الى مصدر معين للمعلومات بمدنا بايراداتنا ونفقاتنا ، وهو ما أدى فى النهاية الى نتائج مؤسفة . فحين جاءت

الدفعة فيما يتعلق باستمرار النشر من جامعة واشنطن ، كان التساؤل الأساسى هو المكسب أو الخسارة ٠

وفى المجلد الثانى أحرزنا بعض التقدم ٠ فقد بدأنا نرى أن كلا من مجلة « هاربرز » ومجلة « أتلنتك آند بزنس ويك » كانت ــ على الأقل ــ نموذجا نحاول أن نحتذيه مثل المجلة السوسيولوجية الأمريكية . وقد تحولنا ــ بشكل مثير ــ من مجلة لاعادة الطبع الى مجلة للتعبير عن أفكار جديدة حول آفاق العلوم الاجتماعية وذلك بأسلوب يفهمه كل شخص ، كذلك تزايد الاعتراف بالقدرة السياسية لمجلة مثل مجلتنا ٠ وترتب على معالجة قضايا حركة حريات المرأة وكفاح الزنوج من أجل الاندماج ، أو العلوم الاجتماعية والحريات المدنية ، الانتقال الى موقع فى الحياة السياسية أصعب بكثير مما تصورناه ٠

وكان ادراكنا أساسا للسياسة ادراكا قوميا برغم أن الجهود الرامية الى تدويل المجلة أسفرت عن نجاح محدود . وبهذا المعنى لم ننفذ بالكامل شروط العقد الخاص بصورة علم اجتماع جديد ، والذى تحددت خطوطه العريضة سلفا . وقد ظللنا محكومين ٠ بايمان فى الرفاهية ، وما كان بمقدورنا أن ندرك ايمان الذين يحكمون كما لو كان العنف يسيطر عليهم ٠

وكان ظهور المشايعة فى المجلة علامة على أننا بدأنا نفهم أن اهتمام نفس العلماء الاجتماعيين باعادة بناء المجتمع الأمريكى كان أكثر مما توقعناه ٠ ودخلنا بسرعة فترة شهدت دافعا قويا ، خاصة فى نطاق علم الاجتماع ، الى تجاوز الجوانب التحليلية الى الجوانب العملية للتغيير الاجتماعى . ولم توجد أى دورية أخرى تخدم جمهورا عريضا ، ومع ذلك توفر خدمة لمجتمع أكاديمى انفصل ببطء عن التغيير البنيانى الذى حدث طوال خمسينات القرن الحالى وانغمس بعمق فى صراعات الستينات من أجل التغير الاجتماعى ٠

وقد بدأنا ــ وان كان على نطاق محدود للغاية ــ فى تجاوز مراتب علماء الاجتماع فيما يخص كتابتنا ٠ ففى البداية كان علماء النفس الاجتماعيون هم الذين قدموا لنا مدخلا اضافيا ، كما قدم علماء السياسة والأنثرولوجيا خدمات هنا وهناك ومع ذلك لم تكن المجلة فى عامها الثانى كما فى عامها الأول ، دورية للعلوم الاجتماعية بقدر ما كانت دورية لعلم الاجتماع ٠ وكان من المفترض ضمنيا ، ان لم يكن صراحة، ان مجلتنا أداة للعلاقات الطيبة بالنيابة عن مؤسسة المشتغلين بدراسة علم الاجتماع ٠ ومع ذلك فانه بانتهاء المجلد الثانى ، يتبين تماما أنه اذا لم نكن أعداء للمؤسسة ، فاننا كنا مؤسسة مضادة ٠ وبهذا المعنى فقد كنا قوة يحسب لها حسابها فى نطاق علم الاجتماع ٠

وفى نهاية السنة الثانية كان هناك تقبل عام لتجاهل الأسماء الكبيرة فى علم الاجتماع ، وانشاء مؤسسة للعلوم الاجتماعية تركز جهودها فى اخراج مجلة علوم

اجتماعية من الطراز الاول تتحاشى المهارة التقليدية على المستوى التكنيكى. وبدلا من ذلك كان بحثنا عن جمهور جديد من أنصار العلوم الاجتماعية ، وفى غمار ذلك عن وعى جديد فى اطار تلك العلوم ٠

١٩٦٥ :

ومع بداية المجلد الثالث أصبحنا أداة اتصـال عامة ، وليس ، مجرد امتداد لمؤسسة مهنية ٠ فقد أعطت المجلة ، بفضل ارتباطها بى ، فكرة واضحة عن رسـالة العلوم الاجتماعية التى أخفقت المجلات الأخرى للعلوم الاجتماعية فى أدائها ، أو على أحسن الأحوال ، أدتها على الهامش ٠ واهتمت الترانساكشان اهتماما أساسيا بالعلاقة بين العلوم الاجتماعية واعداد السياسة القومية ٠

وبدأت الترانساكشان فى نشر مقالات تؤثر بعمق على العلوم الاجتمـاعية فى علاقتها بالسياسة العامة ٠ فعلى شاكلة نشرة علماء الذرة التى اهتمت بالعـلاقة بين العلوم الطبيعية ومشكلاتها وبين اعداد السياسة العامة والقومية ، مع احتفاظهـا بمناصرين من علماء الطبيعة ، ظل لمجلتنا جمهور كبير من المناصرين فى نطـاق علم الاجتماع ٠ ومع ذلك فقد استطعنا أن ننفتح على العلوم الاجتماعية قاطبة ٠ وحـدث ذلك طبيعيا لأن الاهتمامات بمسائل السياسة أساسية لكل الميادين من الأنثروبولوجيا الى الاجتماع ٠ وجاء دخولنا ميدان السياسة عقب مشروع كاميلوت ٠

وبعد هذا المشروع لم يعد بامكان المرء أن يشكك فى علمية العلوم الاجتماعية تماما مثل العلوم الطبيعية ٠ فقد أضحى معترفا به أن العلوم الاجتماعية والطبيعية ميادين تقبل التنبؤ والضبط ٠ ومن بين الآثار الحتمية لمشروع كاميلوت أن أصبحت القضية الأساسية تدور حول أغراض أبحاث العلوم الاجتماعية ، اذ كان هذا المشروع خطة دمجية اجتماعية ثقافية مقارنة ٠ ورغم بغضه لبنى الانسان ، الا أنه كان محاولة من جانب الحكومة الأمريكية لدراسة الحركة المدنية وحركات العصيان المضـادة بالاستخدام الواسع للأساليب والطرق والنظم المعروفة فى كافة العلوم الاجتماعية. وكانت طبيعته الدمجية تغلغلا فى المنهاجية ٠

وأوضحت مقالتى عن مشروع كاميلوت كيف أن المؤسسة العسكرية نظرت الى الاقتراب الدمجى للعلوم الاجتماعية على أنه أمر واقع ٠ وبالتأكيد لم تكن تلك هى المرة الأولى التى ساعدت فيها تكنولوجيا الحرب على حل المشـكلات التى تركهـا ممارسو العلم ٠ وجاء المشروع علامة على مجىء العلوم الاجتماعية فى صورة جديدة ٠ وكاد أن ينتهى عصر البراءة السوسيولوجية : ولذا كان على كل فرد أن يواجه مسألة تحديد موقفه بعيدا عن جوانب الغموض المعتادة التى تربح البشر المحايدين خلقيا.

كذلك اشتمل المجلد الثالث على تغييرات أخرى تعكس نفس هـذا الاهتمام ٠ فقد نشرنا مقالا كبيرا بقلم بيرترام ٠ م٠ جروس ، أوضح فيه الحـاجة الى مجلس

للمستشارين الاجتماعيين يماثل فى منزلته وسلطاته مجلس المستشارين الاقتصاديين الذى أصبح بشيرا بحركة المؤشرات الاجتمـــاعية التى اكتسبت مكانة وأهمية مع مرور الوقت . وبالمثل كانت المقالة التى كتبها كل من لى رانواتر ، ووليام يانكى عن « الأسر الزنجية والبيت الأبيض » دراسة رائدة عن الصراع الذى احتدم حـول التقرير الشهير الذى قدمه دانيل باتريك مونيهـام عن « الأسرة الزنجية : مبررات الحركة القومية » • وأوضحت المقالة كيفية كتابة التقرير ، وكيفية حصـــوله على التأييد ، والعلاقة بين مونيهان وبين حكومة جونسون ، وطبيعة النقد ، وكيف أصبح مونيهان ــ مع مضى الوقت ــ زغيم مناصرة القوة السوداء • وهكذا صار واضحا أن المشتغلين بالعلوم الاجتمـاعية ، على المستوين القومى والدولى ، كانوا يتجـاوزون الأدوار التقليدية للبحث اذ كانوا يخلقون ويناصرون السياسة • وكان تحليل حالة الأسرة الزنجية ، من حيث ارتباطها بعدم الاستقرار المفترض من جانب ذكور الزنوج، مصدرا لتوصيات السياسة لايقل فى أهميته عن الضغوط العامة • وبات واضحا انه فى هذه الدائرة ، كما فى غيرها كانت العلوم الاجتماعية فى القرن العشرين فى صف المستقبل مثلما كانت العلوم الاجتماعية فى القرن التاسع عشر فى صـف التحليـل التاريخى •

وسمح أسلوب المجلة فى تعيين رسالتها الجديدة والعلاقة بين العلوم الاجتماعية والسياسة العامة ، بتحديد جديد لغرض العلوم الاجتماعية ذاتهـا ، وهو أنه ليس تجزئه علم الاجتماع ، وانما تحسين المجتمع ، وليس تجزئه علم السياسة وانما بيان مواضع استخدام جوانب قوته للارتفاع بمستوى الحياة السياسية ، وليس المطالبة بانهاء البحوث ، وانما حمايتها عن طريق جعلها فى متناول العامة ، ثم عن طريق جعل مشكلات التدعيم والاستفادة أبعادا أساسية فى تحليل تصميم وعملية البحث •

ومع صدور المجلد الثالث ، تزايدت مبيعات المجلة بشكل مثير • فلأول مرة ، ثار الاهتمام بتفاصيل الأعمال المتعلقة ببقاء المجلة ، وجذب الاشتراكات ، والاعلانات والأنشطة التشجيعية ، فضلا عن الانشغال الواعى بمشكلات التصميم . ولو أن تلك الحاجات تبدو ــ مع وضعها فى منظور تاريخى ــ واضحة ، فالواقع انه لاشىء يمكن أن يكون أكثر طمسا لمعنى الحقائق التجارية من العيش فى اطار ميزانية احـــدى الجامعات أو منحة احدى المؤسسات ، ومع ذلك جاءت أول اشارة عن اهتزاز التزام الجامعة تجاه المجلة حينما قدمت جريدة « نيوزويك » منحة الى المجلة • وحينما علمت بذلك الموقف ، أوقفت المفاوضات على الفور • وكان عدم اللامبالاة هو رد فعـــل المسئولين على ما ظننت أنه اهانة بالمعايير الأخلاقية • وبدلا من الحصـــول على تأييد سلطات الجامعة ، تلقيت كلمة مفادها أن الجامعة لاتعارض بيع المجلة الى المصـــادر التجارية • وقد أبلغت ، بصفتى الشخصية ، أن المسئولين فى الجامعة قد ضايقتهم الى حد ما ــ جهودى الرامية الى منع بيع مجلتنا لـ نيوزويك . وما لبث أن تغير رأى المسئولين بالجامعة بشكل مثير . فقد انتقلوا من التأييد الى المعارضة ، اعتقادا

منهم بأن الجامعة لاينبغى أن تتدخل فى أعمال المجلة ــ وهى وجهة نظر انتهيت فيما بعد الى مشاطرتهم اياها ، وان لم أنطلق من نفس الأسباب ٠

وطوال هذه السنوات المبكرة ، كان غموض الملكية مثار تعذيب لنا ٠ وقدمت الجامعة مجموعة مماثلة من المطالب كان من الصعب التوفيق بشأنها ٠ فمن ناحية تعين علينا أن نتجنب الشعبية فى معناها التجارى الضيق ، ومع ذلك وجب علينا آنذاك أن نحقق ربحا ، أو على الأقل تتجنب خســـــارة ٠ وحددت الترانساكشان وعوملت باعتبارها قسما جامعيا فيما يتعلق بالأشخاص العاملين واجراءات التشغيل ، الا أنهـا ــ وعلى خلاف أى قسم آخر ــ كانت ملزمة بتحقيق ربح مع ابراز قيمتها ٠

١٩٦٦ :

جاء المجلد الرابع معه بتغييرات كيفية فى المجلة : تحويلها من مجلة تصدر كل شهرين الى مجلة شهرية ، وزيادة عدد صفحاتها من ٣٢ صفحة فى المجلد الأول الى ٦٤ صفحة فى المجلد الرابع ٠ وهكذا دخلت المجلة من حيث حجمها وميعاد صدورها، مرحلة جديدة ترتكز على أساسيات نشر المجلة ، فضـلا عن أساسيات أيديولوجية العلوم الاجتماعية ٠ وكان لهذا آثاره الداخلية والخارجية ٠ فعلى المستوى الداخلى ، اقتضى الاصدار الشهرى للمجلة قدرا أكبر من الخبرة والتفانى يفوق ماكان مطلوبا فى أى مرحلة سابقة ٠ وتزايدت المشاركة الشخصية هندسيا ٠ وحين كان الجدول الشهرى للمجلة جامدا ، كان كل شىء آخر مرنا وقابلا للتعديل . وصار ذلك كله ممكنا بفضل تطوير ثقافة للعلوم الاجتماعية أصبحت فى النهـاية متمشية مع العمل الذى كنا نؤديه ٠ وقد توافر لنا ، من عـــدد المطبوعات التى تلقيناها ومن حجم الاهتمام الذى رأيناه ، كم من المعلومات أقنعنا بأن هناك ســـندا فكريا فى المهنة ٠ وأضحى اهتمام المجلة بالتنافس على نشاطاتنا أكثر من اهتمامها برفضها ٠ وفى غمار هذه الموجة ظهرت مجلات أخرى مثل « علم النفس اليوم » ، « التفاعل » وتزايدت قوة مجلتنا بما يكفى لاجتذاب أفضل الكتاب ، ولم تعد مجرد مجلة لاعادة النشر ، أو نشر مواد ضعيفة . وكانت القدرة على تقدير الفرق من مجلة معينة وبين جورنال معين بمثابة خطوة الى الأمام .

وثمة تحول آخر حدث ــ جزيئا ــ نتيجة لآرائى وميولى الفكرية ، وهو التغير الكامل من مجلة تسيطر عليهـــا النزعة السوسيولوجية الى مجلة جامعة للعـــلوم الاجتماعية ، وهو ما حاولنا أن نحققه ، برغم أن جهودنا لاقتحام ــ بأى قدر من المهارة ــ ميادين الأنثروبولوجيا وعلم النفس والاقتصـــاد لم تؤت ثمارها فى الأعوام الثـلاثة الأولى ٠ وكان لعلم الاقتصاد مجلته الخاصة به وهى « الطليعة » وقد استطاعت ، بالكاد ، الاحتفاظ بقاعدة من القراء قوامها ١٠ر٠٠٠ قارىء ٠ وما كان بمقدورها أن تخلق نوع الكتابة الاقتصادية المبسطة التى عرفت فى القرن التاسع عشر ٠

وكان علم الأنثرويولوجيا من الضآلة ومن الانشغال بالبحث عن وضعه المهنى بحيث لم يتعد كثيرا فى مجلة شعبية مثل الترانساكشان ، مع أن جريدة «الانسانية» قد بذلت جهــودا فى اتجاه اكتســاب مزيد من الشــعبية • والواقع أن علمـا الأنثرويولوجيا الذين ساهموا وكتبوا لحساب مجلة « الترانساكشان كانوا نفس العلماء الذين انتقدوا اتجاه الشعبية والادارة ، وهى اتهامات رددتها دائما علوم أخرى فى بحثها عن الحراك الصاعد والمكانة المهنية . والواقع ان علم النفس الاجتمــاعى ، الذى شعرنا فى نطاقة ، بأكبر امكانية للتشعب ، كان فى متناول العامة ، الا انه فى ذلك الوقت بالذات ، وجدت مجلات أخرى مثل « علم النفس اليوم » بحيث لم تستطع الترانساكشان أن تجتذب كل المواد الممكنة •

ومما زاد من تعقد الموقف أن منظم الأدب النفس من النوع الشعبى قد كتب لاعتبارات علاجية أكثر منها علمية ، وخصص لأنماط المساعدة الذاتية المشكوك فيها، والتى دفعتنا ولاءاتنا التحريرية كعلماء اجتماع الى رفضها أو مقاومتها •

وبحلول عام ١٩٦٢ ، وكنتيجة لما نشرناه سلفا فى ميادين السياسة ، ولارتباطاتى الخــاصة ، صار بمقــدورنا أنه تؤسس علاقة أكثر وثوقا بعلم السياسة . وكان هناك اهتمام مركز باعطاء علم السياسة الحيز الذى يستحقه فى المجلة • وحينمـــا تحركنا فى هذا الاتجاه ، وجدنا أن اهتمام علماء السياسة المباشر بتحليل الشـئون العالمية والأحداث الدولية فاق اهتمام علماء الاجتماع ، وبالتاكيد علماء النفس .

كذلك كان لوصول علم السياسة الى مركز التكافؤ مع علم الاجتمـــاع نتيجة فرعية هامة ، حيث اتجه علماء الاجتماع الذين نشرنا لهم الى تغيير أفكارهم بشـــكل جذرى ، وان ظل مدى اهتمامهم محدودا وضيقا ، هذا بينما اتجه علماء السياسة الى المجىء من خلفيات أكثر جمودا ، وان ظلت اهتماماتهم أقل تحديدا • ويفسر هــذا التماثل ، جزئيا ، فى ضوء الحقيقة المبسطة ، وهى تفوق عدد علماء الاجتماع على عدد علماء السياسة • ويميل جمهور معظم علماء السياسة الى الانحدار من المجموعات «الهامشية» . ويتجه علماء الاجتماع الى الاهتمام بالجماهير المحكومة أكثر من النخب الحاكمة • وهناك تفسير آخر مؤداه أن علماء السياسة قد جنحوا الى الاهتمـــام بمشـــكلات السياسة قبـــل وقت طويل من قيام أقرائهم فى ميادين الاجتمـــاع والأنثروبولوجيا ببدء مشروع كاميلوت • وأكثر من ذلك لم تكن معظم اهتمـــاماتنا ـ باعتبارنا دارا للنشر ، تنحصر فى النقد المتطرف ، كما هو الحال فى أكثر أنواع المجلات اثارة للاهتمام • وكلما اتسع نطاق العمل ، كان ذلك أكثر استحواذا على اهتمامنا . وعلى المستوى القومى للدول ، أو الشئون الدولية ، قام علماء السياسة باعداد مادة النشر ، وقام علماء الاجتماع بوضع عناوين تلك المادة •

وساعدتنا هذه المتغيرات المتعلقة بالخلفية على فهم ما هو خطأ فى المران المهنى ، وان لم تحــل مشكلاتنا المتعلقة بالتحرير . وثمة جــوانب فنية انبثقت طبيعيا من الاهتمام بايجاد جماهير جديدة للمجلة • فعلى سبيل المثال طورنا فكرة تخصيص

أعداد خاصة حول موضوعات بعينها مثل معقولية العدالة الأمريكية ، (والتى أصبحت نقطة تحول فى علم الاجتماع القانونى) • وبانتهاء صيف العنف فى الجيتو ، أصدرنا بالفعل عددا خاصـــا عن الموضوع ، وهـــذا شىء لم يسمح به المشـتغلون بالعلوم الاجتماعية ، والذين درجوا باستمرار على اصدار الأعداد متأخرة عن موعدها الأصلى • وأصبح هذا ممكنا ـ الى حد ما ـ باســتخدام أدوات البحث الجديدة المعروفة فى نطاق العلوم الاجتماعية ، والأساليب الصـــحفية للبحوث الميدانية وكتابة التقارير السريعة •

وقدم العدد الخاص عن « العنف العنصرى » أساسا لمؤلف جون هيرس المعنون بـ « حادثة موتيل الجزائر » وبدأنا نعى أن تلك الأعداد الخاصة لم تكن أدوات صالحة للوصول الى جماهير جديدة مثل محامى الحركة ، أو المثقفين السود • الا انها فى ذاتها استطاعت أن تحكم على غيرها من وسائل الاتصال • وقد تزايد دورنا فى أكراه وسائل الاتصال الكبرى مثل التليفزيون والمجلات الأسبوعية المتعلقة بالأنباء الضخمة على الاهتمام بأبحاث العلوم الاجتماعية الخاصة بالشئون الجارية • وتأكدت أهمية تطوير مقالات الفن التصويرى • ولم يعد هناك شك فى أن المحتوى التصويرى سمة أساسية لتطوير الترانساكشان • وكان نجاح المجلة فريداً فى تحاشى طغيان الفن أو التصوير على المحتوى التحريرى •

وفضلا عن هذا كله ، كان المجلد الرابع خطوة نحو موقف صلب تمثـــل فى لتأكيد على السياسة والجنس والدين • وهى الميادين الثـــلاثة التى تحظر الكتابة بخصوصها فى المجتمع المهذب ، كما أنها تتطلب دقة أكثر عند التطبيق فيما يتعلق بهذه المحاذير • ولا تغيب عنا تلك الممارسات الهادئة من قبل السلطات للاحتفاظ بقدر من الرعاية التحتية على هذه الميادين • وصار واضحا أنه لا مندوحة من تغيير أما طبيعة المجلة ، أو بدرجة أقل : طبيعة الجامعة •

١٩٦٧ :

يعتبر المجلد الخامس انقلابا كاملا عن سابقة • فمع مطلع عام ١٩٦٧ ، أصبحنا أكثر تعودا على الدورية الشهرية • وحدثت عدة تغييرات منهـــا زيادة التأكيد على عروض الكتب ، وتضاؤل التأكيد على دراسة أجزاء الانسان • كذلك تزايد التأكيد على المجالات التى كان من الصعب تغطيتها فى السنوات السابقة مثل علم النفس الاجتماعى •

وتحركت المجلة نحو اعطاء الشئون القومية مزيدا من الاهتمام . اذ أوضحت مسوح عديدة أن قراء مجلتنا لا يتركزون فقط فى الولايات المتحدة ، وان كانوا يهتمون بالمجتمع الأمريكى • ولذلك تعاظم اهتمامنا بمشكلات ادمان المخدرات ، والصـــحة العقلية ، والطبقة العمالية وأحوال الزنوج والأقليات ، وقضية المرأة ، وحتى مشكلات

تلوث البيئة • الا أن هذا التحول لم يكن ـ بأى حال علامة على انتهـــاء الاهتمام بالشئون الدولية ، وانما فقط تأكيدا أكبر على كيفية ارتباط المسائل العالمية بالممارسة الأمريكية •

وقد تحققت صحة المخاوف التى شعر بها كثير منا حيال اتجاه جامعة واشنطن• فمن ناحية ابتعدت الجامعة عن الاهتمام بالعلوم الاجتمـــاعية مع تزايد تركيزها على العلوم الطبيعية . ومن ناحية أخرى انتقلت من الانشـــغال بالمصالح القوميـــة الى الانشغال بالمصالح المحلية الضيقة . ومن ناحية ثالثة حدثت أزمة مالية امتد تأثيرها الى الجامعات الخاصة . واخيرا ، وهذا هو الأكثر اهمية ، لما فى الجهاز الادارى من ضعف عام بحيث سعى الى تجنب ، وليس مواجهة ، الضــغوط التنظيمية . وفى معرض الدفاع عن الجامعة . يتعين القول بوجود خلاف فى الرأى بين كثيرين .وبرغم أن جميع الذين سببوا التوتر قد احتفوا فى نهاية الأمر ، الا أن المرارة الناجمة عن ذلك عبرت عن نفسها فى عزوف الجـامعة عن الارتباط بمجلة لما تزل فى مرحـلة المراهقة .

وفى نهاية الأمر ، بذلت سلطات الجامعة كل جهد لبيع المجلة ، أيا كان مقدار العائد الذى سيترتب على ذلك وأبلغتنا الجامعة فى ١٩٦٨ أنه لن تصـلنا اعتمادات مالية أخرى ابتداء من ٣٠ يونيو ١٩٦٨ ، برغم أن ما قدمته من دعم مالى لم يكن كافيـا على الاطلاق للبدء به • وجاءتنا منح من مؤسسة فورد ، ومؤسسة دانفـورت ، ثم مؤسسة راسل • وقامت الجامعة بأخذ المهمة على عاتقها ، خاصة وأننا مع بداية المجلد الخامس ، كنا على ابواب تصدع مالى الا ان ادارة شئون المجلة لم تكن سليمة طالما عوملت المجلة كقسم فى الجامعة . وعادة لاتحتفظ الأقسام بسجلات لمسك الدفاتر . وهذا ما حال دون تقدير ما اذا كنا قد حققنا ربحا أم لا . وهكذا كان الموقف المالى ذريعة لتبرير تصفيتنا • وعلى أية حال ، أنكرت الجامعة بشدة ادعاءاتى القائلة بأن وقف دعمها المالى كان رده الى اعتبارات سياسية وادارية .

ومع اقتناعنا بعدم جدوى أية مناشدات ، صارت المشكلة الملحة هى بقـــاء المجلة •

الا ان كل المحاولات الرامية الى بيع المجلة قد احبطت واتخذنا موقفا مفاده أن ملكية المجلة لا تتعدى المحررين وهيئة العاملين • وتبنى كل شخص هذ الموقف ابتداء منى الى السكرتيرين غير المتفرغين ، الى أن صدرت فى النهاية مذكرة من جانب كل أعضاء الهيئة العاملة يؤكدون فيها ولاءهم ومساندتهم لى طالما ظللنا نحتفظ باستقلال مجلتنـــا •

وكان رأى الجامعة أن بيع المجلة لأطراف خارجين أمر ضرورى لأن البيع لاتحاد العلوم الاجتماعية الذى أترأسه ، يمثل صراعا فى المصالح ، طالما ظللت أعمل أستاذا متفرغا للاجتماع • وحينما عرضت الاستقالة من منصبى فى الجامعة مقابل نقل ملكية

المجلة الى اتحاد العلوم الاجتماعية ، رفض هذا العرض على الفور ، وعادت الجامعة الى ترديد الحجج المالية التى تعوزها الدقة .

وحدث فى النهاية أن قدم عرض بشراء قائمة القراء والمشتركين مقابل ٥٠٫٠٠٠ دولار · وكان ردى أننى سوف أنظر فى هذا العرض · ومع ذلك ، ودون انتظار لوجهة نظرى ، طلبت سلطات الجامعة مبلغا اضافيا قدره ٢٠٠٫٠٠٠ دولار كضمان لأوامر المشتركين التى لم تسدد ·

وفيما يتعلق بهذه المسألة ، كانت مهمتى هى جمع مبلغ ٥٠٫٠٠٠ دولار وتكوين مجلس من المديرين · وحدثت معجزة · فقد اتصلت تليفونيا بنحو ٢٥ شخصا ، وحصلت على المبلغ المطلوب استنادا الى ما أسدته مجلتنا من خدمات ، وربما استنادا الى ايمانى القوى بالحاجة الى السير قدما ·

وعند بداية انفصالنا عن الجامعة ، كانت مهاراتنا الادارية محدودة · وبدأنا برنامجا يتيح الاستعانة بعناصر خارجية تتولى ادارة شؤون المجلة · وجاء المديرون والمساهمون من حقل العلوم الاجتماعية بحيث تركزت الملكية فى أيدى قطاع عريض من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية · الا أن الحظ كان حليفنا فى الحصول على مهارات مجموعة بارزة من العلماء الاجتماعيين الذين طرحوا جانبا شكوكهم واختلافاتهم دعما لما يعتبر ــ على حد معرفتى ــ أول مشروع خاص مملوك بالكامل لعلماء اجتماعيين ·

١٩٦٨ :

فى الوقت الذى كانت فيه جامعة واشنطن تعرض الترانساكشان للبيع ، كانت الحاجة ماسة الى الاستقرار الاقتصادى ممثلا فى ضمان كفاءة نظام التوزيع وسداد الاشتراكات ، وزيادة التأكيد على جلب الاعلانات من مناطق تحظى بأهمية خاصة من جانب جمهور قرائنا ، وأخيرا اجراءات انتاج تتميز بالفاعلية وتقع فى حدود ميرانيتنا. وكانت هناك حاجة مماثلة الى تنظيم داخلى أكبر ، والى تطوير ادارى يضمن فعالية نظام محاسبة التكاليف ، وأخيرا الى رأس مال اضافى لدعم جهودنا التحفيزية واعانة عدد من المشروعات الجديدة المطروحة للبحث ·

وخلال ١٩٦٨ طورنا الخطة الأولى ــ وهى واحدة من كثيرات ــ المتعلقة بقسم الكتب واستطاعت الترانساكشان بفضل أعدادها الخاصة المناظرة لما نشر من مقالات فى البداية ، أن تتطور الى ناشر ناجح للكتب · ولولا القسم المتعلق بالكتب ، لضاع الأمل فى بقاء المجلة · اذ لاحظت أن كل مجلة شهرية ناجحة ترتبط بقسم لنشر الكتب . ولهذا تم الاتفاق مع مؤسسة الدن ــ اتشرتون على ترتيبات تخول لهذه الاخيرة امتياز توزيع نوع معين من الكتب القصيرة ، وخاصة تلك التى تتفق ومزاج العناصر الشابة · أعطت أكثرية الخطط ، التى بدأناها مع المجلد السادس ، ثمارها فقط فى مرحلة لاحقة . ولذا ظل موقفنا المالى حرجا ، وازداد تفاقما نظرا للحاجة الى

دفع كل النقود المتحصلة تقريبا من مستثمرينا الأصليين الى جامعة واشنطن مقابل عقار تملكه ، وتزايد اضطراب موقفنا فى مدرسة العلوم الاجتماعية واتضحت الحاجة الى بعض ترتيبات أخرى ·

وفى ١٩٦٨ حدثت الطفرة حينما قررنا قبول عرض بالتحرك الى مبانى كلية ليفنجستون بجامعة ورتجرز · وقد تبين لى من مباحثاتى مع هذه الجامعة ، وخاصة مع عميد الكلية المذكورة ، أنها ، أى الجامعة ، خلاف الجامعات الأخرى ، تميزت بقدرة ملحوظة على تقدير الفروق الخاصة الطفيفة بين الدوريات ، كما أدركت أن الترانساكشان يمكن أن تقدم برنامجا جامعيا طموحا خاصا بالعلوم الاجتماعية .

ومن وجهة نظر جامعة روتجرز ، سوف تزود الترانساكشان ، الى حد كبير ، مدرسة العلوم الاجتماعية (كلية ليفنجستون) بقاعدة للعلوم الاجتماعية . وذلك دون أية نفقات مباشرة تتعدى النفقات الأكاديمية العادية لتشغيل الأساتذة والمدرسين · ومن وجهة نظر الترانساكشان يجب أدخال منطقة مدينة نيويورك ، باعتبارها مركزا لنشر الكتب والمجلات وهيأت لنا نيويورك سبيلا الى التفكير ، بشكل جديد ، فى المسائل التى ازعجتنا سلفا . وكانت كل الخبرات المتعلقة بالنشر سهلة المنال · وحمدنا الفرصة التى هيأت لنا التعرف على هذه المعرفة المسترة ·

ولم يكن هدفنا فقط أن نصبح جزءا من تيار حياة مدينة نيويورك ، وانما ان نظل بمنأى عنه . واحدى ميزات وجودنا فى شارع سانت لويس اضفاء الصفة القومية الحقيقية على مجلتنا سواء أردنا أو لم نرد · ومن حسن الطالع أننا استطعنا فى جامعة روتجرز أن نظل بعيدين عن الخلافات التى أقضت مضجع المسرح الأدبى فى مدينة نيويورك .

وانحصرت المشكلات التى واجهناها خلال تلك الفترة فى نطاق ادارة الأعمال ، زد على ذلك أننا لم نتغلغل فى تلك الدوائر الجماهيرية التى تخاطبها المجلة . وقدظلت مناشدتناللمجموعات القومية والعنصرية،وطلاب ومدرسى العلوم الاجتماعية ،والعاملين فى الأجهزة المهتمة بالأمور السياسية ، تؤخذ على أنها عمليات شراء واسعة النطاق من قبل تلك المجموعات · ويعزى ذلك جزئيا ، الى ارتفاع نفقات جلب اشتراكات جديدة تشكل عرقلة تلك العملية . وكانت قضيتنا هى توجيه انفسنا نحو الوصولالى قراء المجلة عامة ، وليس الى مجموعات سياسية واجتماعية بعينها . وتخطى نجاحنا الاخفاقات ، فقد ارتبطنا تقريبا بمجموعة جديدة من المجلات ، بعضها صغير ، وبعضها كبير ، الا انها جميعها التقت فى مجلتنا فى مشكلاتها وآمالها . وتكون اتحاد غير رسمى ضم مجلتنا ، ومجلة « التغيير » ، « نيويورك تايمز ، وواشنطن مانثلى » ومجلات أخرى ، مع مراعاة أن بعضها كان مفتقرا الى الخبرة فى ادارة الأعمال · وفشل هذا الاتحاد ، لا بسبب الفكرة القائلة بضعف العمل الجماعى وانما بسبب انخفاض مستوى العاملين فى هذه المجلات وارهاقهم بالعمل · وبعد ذلك قمنا بتطوير « اتحاد الترانساكشان» من المجلات العلمية ابتداء من مجلة « التاريخ الجارى » الى مجلة

« التاريخ الاجتماعي » · وكان الدافع الى تكوين هذا الاتحاد ادراكنا بأن بقاء مجلة مثل الترانساكشان يعتمد جزئيا على بقاء مجلات أخرى ·

وانطوى هذا التحرك على معان كثيرة بالنسبة لنا · فقد هيئت امكانية المشاركة في امتلاك الأسهم أمام الأفراد والعاملين · وخطونا خطوات كبيرة في نطاق العلوم الاجتماعية والسياسة العامة بفضل منحة قدمتهـا مؤسسة فورد ، كانت بمثابة الوسيلة الأولى لخلق نوع من التعارف بين مجتمع جامعة روتجرز وبين مجلة انترانساكشان وفى أثناء ذلك ، كانت لدينا أفكار ثلاث لم تدخل حيز التطبيق وهى : انشاء ناد للكتاب ، ومكتب للمحاضرين ، وقسم للتسجيل .

واذا كان لى أن ألخص ما يمثله المجلد السادس بالنسبة لنا فانه يمكننى أن اقول انني رأيت لأول مرة علما اجتماعيا يمثل مصدرا الأفكار يمكن تسويتها وتوزيعها بأساليب عديدة من الصفحة المطبوعة الى الشاشة السينمائية ، ومن المحاضرات الى التدخل المباشر فى الشئون الاجتماعية · ولم تعد الترانساكشان مجرد مجلة ، ومع أن انتاجنا الاساسى القابل للتسويق كان لا يزال دوريا ، فقد أصبحنا فى النهاية وحدة للعلوم الاجتماعية · وتحول علم الاجتماع الجديد من سلسلة من الممارسات الادبية الى نظرية أيديولوجية متكاملة مكنت ، ولو لم تحتم ، من التغيير الجذرى لمختلف الميادين الاجتماعية والاتحادات المهنية ·

١٩٦٩

فى هذا العام حققت الترانساكشان تنوعا من مواد العلوم الاجتماعية · فبالاضافة الى سلسلة المجلات والكتب ، قامت أيضا بدخول ميدان الكتب الدراسية والموجزات الارشادية، وسلسلة المؤلفات الابتكارية المتميزة بارتفاع مستواها العلمى· واستمرت الزيادة فى العدد الكلى للصفحات المنشورة فى المجلدات السابقة : فقد كنا نتحرك سراعا نحو رفع عدد الصفحات من ٦٤ صفحة الى ٨٠ صفحة ، كذلك حققت المجلة أثناء هذه الفترة ، زيادة ملحوظة فى دخول الاعلانات · واستمر تطور الترانساكشان فى الشكل والتصميم · واقتضى الامر أن تستمر التغييرات مع الشكل السابق ، وأن تكون متفقة مع توقعات القراء · وعلى هذا النحو ، تجنبنا مضايقة القراء ، **وتقويض التناسق** فى العلاقة بين التصميم وبين ما يكتبه المحررون · وتأكد نجاح هذا المسلك من خلال القبول العام لشكل مجلتنا الجديد ، والجوائز التى حصل عليها فننا التصويرى من الدوريات الفنية الاساسية ، وأخيرا العرض المتنقل للمواد المعروضة بالجامعات الكبرى فى مختلف أنحاء البلاد ·

وواصلت الترانساكشان الاستفادة من الارتباط بالعلوم الاجتماعية قاطبة ، وأضاف التأكيد المتزايد على علم الانثروبولوجيا وعلم النفس الى القوة المستمرة فى علم الاجتماع وعلم السياسة . وظل علم الاقتصاد دون التمثيل الكافى ، وهو مايجد

سببه الاساسى فى افتقارنا الى محرر مساعد مقتدر يستطيع نقل أفضل الاعمال الفكرية من حقل الاقتصاد الى الترانساكشان ، ومع تعيين ستيفين · و· روسو ، تم تصحيح هذا الاتجاه ·

وكان استعمال مقالات الترانساكشان فى كتب تعليم القراءة والقطع الادبية المختارة ، والمقررات الخاصة ، أكبر من أى وقت آخر فى الماضى · بل ان نتائج البحوث المنشورة بالمجلة كانت تنقلها عنها بانتظام مجلات أخرى مثل : التايم ، وواشنطون بوست ، وكونت كونتنتس ، «والفوج» · كذلك ظهرت المجلة فى برامج تعليمية متنوعة وبرامج تليفزيونية خاصة ·

وبالنسبة لمجلة مثل الترانساكشان ، فان القدرة على البقاء والنمو لا تتوقف على اجتذاب جماهير وأسواق جديدة فحسب ، وانما أيضا ، وبصورة أكثر ، على تفهم أعمق للسوق · وهذا هو السبب الكامن وراء سعى المجلة الى الأخذ بمسلك متعدد الجوانب ، ونشر المعلومات الخاصة بالعلوم الاجتماعية ، وعدم حصر نفسها فى شكل واحد من أشكال الاتصال ·

وقد ظل رأس المال اللازم للنمو بمثابة المشكلة الرئيسية · ولم تصل المفاوضات التى أجريناها مع عدد من مشروعات الاستثمار الى درجة الجدية الحقيقية · ولما كانت هذه الاموال مطلوبة للنمو أكثر منها للبقاء ، فقد ترددنا فى أن نفرط فى الزام أنفسنا بمصادر أجنبية للتراكم الرأسمالى ·

وأثناء تلك الفترة كانت الطفرة الاساسية هى برنامج نشر الكتب الذى تميز بالحيوية والايجابية · وصدرت العناوين الاولى الاثنا عشر لسلسلة الترانساكشان ــ آلدنى · وأشارت النتائج الى قبولها الواسع ، والذى تضمن اعادة الطبع المبكر لعناوين معينة ، وأدى هذا التغلغل فى مجال نشر الكتب على نطاق واسع الى ذيوع اسم الترانساكشان ، كما ضمن الحصول على دخل من الاستعمال الثانوى لمقالات المجلة أكبر مما كان ممكنا مع بيع حقوق اعادة الطبع ·

وتحركنا خطوات أكثر على طريق تطوير سلسلة من كتب تعليم القراءة من خلال استعمال مقالات الترانساكشان · وهذه الاعمال التى تعتبر موجزات ارشادية أكثر منها كتبا دراسية ، وتقوم فى مجالات هامة مثل العلاقات العنصرية ، والزواج والاسرة ، ومبادىء علم الاجتماع وعلم السياسة ، ينظر اليها كثيرا على أنها مجال نمو ضخم فى عالم المجلة والكتاب · وفى نفس الوقت ، لاحظنا أنه ، خلال تلك الفترة ، كان هناك وابل من مقالات العلوم الاجتماعية التى ظهرت فى المجلات الشعبية مثل «الهاربر ، أتلنتيك ، نيويورك تايمز» وهكذا ، وللاحتفاظ بمعدل نمونا ، ولتأمين مركزنا باعتبارنا الناشر الرئيسى للمعرفة فى حقل العلوم الاجتماعية ، كرست هيئتنا العاملة نفسها للعمل الشاق والفعال وذلك من خلال أساليب مبتكرة لتوصيل العلوم الاجتماعية الى جمهور عريض ·

١٩٧٠

في هذا العام ، كان هدفنا الاساسى هو تطوير مشروعات جديدة ، دون اضعاف مكانة الترانساكشان داخل نطاق الرسالة الاكبر للعلوم الاجتماعية ٠

وكانت سلسلة كتب الترانساكشان طفرة حاسمة فى تطوير الانشطة المساعدة٠ ففى ١٩٧٠ ، نشرنا اثنى عشر عنوانا ، وأضفنا قسما كاملا للكتاب على أن يشتمل ، بحلول عام ١٩٧٢ ، على خمسين عنوانا موزعة ومختارة للتسويق من قبـــل مختلف الناشرين وذلك طبقا لمحتويات كل مجلد ٠

كذلك بدأنا في انشاء قسم ثالث ، وهو قسم الدوريات العلمية الذى ضم فى البداية أربع مجلات هى : دراسات فى التنمية الدولية المقارنة ، «التاريخ الاجتماعى»، «المجلة الاوربية لعلم الاجتماع» ، و «المغامرة» ، وأخـيرا مجـــلة « الجمعية الفابية البريطانية » ٠ وحتى خريف ١٩٧١ لم يكن هذا القسم قد وصل الى مرحلة التشغيل الـكامل ، وان كانت الدلائل الأولية قـــد أشـــــارت الى قيمته وأهميته كجزء من الترانساكشان كما هو الحال بالنسبة لأقسام الكتاب والمجلة .

وبطبيعة الحال ، ظل القسم الأساسى فى الترانساكشـان هو المجلة ذاتهـا : والتى ظلت تستأثر بحوالى ٨٠٪ من مبيعاتنا ، بل أن كلا قسـمى الكتاب والدوريات ما كان يمكن أن يتطور بدون سنوات الخبرة فى اصدار المجلة ٠

وأرغمتنا الازمة المالية على اعادة النظر فى حجم وميعاد صدور الترانساكشان٠ وبدلا من اتخاذ قرارات صارمة ونهائية ، قبلنا الازمة المالية على أنها حقيقة واقعة ، وزاولنا نشاطنا فى هذا الاطار ٠ وكان معنى هـذا هو اعادة طبـــع وتوزيع الاعداد المزدوجة والاعداد الخاصة ثلاث مرات بدلا من مرتين خلال العام ٠ وربما كان أول عدد خاص عن «المرأة الامريكية» أضخم نجاح عرفته المجلة ٠ وأثار العدد الخاص الثانى عن «الجنس والانحراف فى الرجال الامريكيين» اهتماما واسع النطاق ، وكان استهلالا لسياسة مؤداها تضمين الاعداد الخاصة مقالات أخرى بحيث يمكن تغطية كل ميادين العلوم الاجتماعية حتى فى اطار عدد رئيسى ٠ وفتحت فكرة العدد الخاص الطريق أمام فكرة الملاحق الخاصة ٠ ولقى ثالث ملحق خاص عن « العنف فى معـــاملة الاطفال » اهتماما ايجابيا من قبل الافراد العاملين فى هذا المضمار ٠

١٩٧١

فى هذا العام ، تغير اسم المجلة من الترانساكشان الى « المجتمع » ، ولم يكن الهدف من وراء ذلك هو تغيير الهوية بقدر ما كان ايضاح أن المجـــلة جزء من نظام المعلومات فى حقل العلوم الاجتماعية ٠ ووقعت منطقة النمو الضـخم فى نطاق كتب الترانساكشان ٠ فقد طورنا قائمة ضخمة من الكتب الدراسية تشـير الى النمو فى

اتجاهنا والتزامنا حيال الطلاب · كما بدأنا فى تقديم خدماتنا لمجموعة جديدة من العملاء تمثلت فى الاجهزة والجامعات بالدراسات المتخصصة ، والدراسات المتعلقة بموضوعات بعينها · كذلك فنحن نعمل الآن كسوق لتوزيع أعمال البحوث الصادرة عن مركز أبحاث السياسة الحضرية التابع لجامعة روتجرز ، ومعهد البحوث الاجتماعية والاقتصادية التابع لجامعة جزر الهند الغربية فى جامايكا ·

وثارت الصعوبة الحقيقية بشأن الانتاج الفعلى من مجلات أخرى غير مجلة المجتمع ، اذ انطوى ذلك على جدولة كافة أنواع الموضوعات ، وهو أمر لم تفعله مجلتنا من قبل · ويحتضن اتحاد العلوم الاجتماعية الآن دوريات ذات معدل توزيعى لا بأس به مثل «المدنية» ، «الشئون الجارية» ، بالاضافة الى مجلات أخرى فنية مثل «شئون اليهود السوفييت» ، والمجلة الاوربية لعلم الاجتماع» · وفى هذا الصدد فان الاعتبارات التجارية البسيطة ليست هى وحدها التى تحكمنا ، فالاعتبار الاساسى هو كيفية افساح المجلة لأحد برامج العلوم الاجتماعية · والواقع أنه كلما أمعن المرء النظر فى معدل بيع ما يؤلف فى حقل العلوم الاجتماعية ، اتضح له أن أحدا لم يطور نطاقا كاملا من الخدمات لهذه السوق الفريدة ، والتى تغطى ما يزيد على مليون شخص ·

هذه هى الصورة برغم حقيقة أن نطاق الدراسات الاجتماعية فى المدارس العالية يستوعب وحده ما يربو على ٣٠٠ر٠٠٠ مدرس · واذا أخذنا فى الاعتبار ان هناك ــ على الاقل ــ ربع مليون شخص مشتغل بتدريس العلوم الاجتماعية فى المراحل العليا ، وأن هناك أكثر من نصف مليون شخص تلقوا العلوم الاجتماعية ويعملون فى قطاع الاعمال والحكومة ، يصبح واضحا أن الجمهور الرئيسى للعلوم الاجتماعية هو بحق جمهور يعتد به كما وكيفا ·

ولا تتضمن هذه الارقام ملايين الناس الذين يأخذون التحليل النفسى على أنه أسلوب حياة أكثر منه علما ، كما لا تتضمن مئات الآلاف من الطلاب الذين يلقنون حكمة العلوم الاجتماعية · ولم يعد السؤال الحقيقى يدور حول وجود سوق أو جمهور للعلوم الاجتماعية ، ولكن حول ما الذى يفضل الجمهور قراءته ودراسته والاستماع اليه ·

ويبلغ عدد قراء كل من مجلة « ساترداى ريفيو أوف سوسيتى » الشهرية حوالى ¾ مليون ومجلة « علم النفس اليوم » حوالى نصف مليون ، والمجلة العلمية الامريكية حوالى ، ٣٠٠ر٠٠٠ ألف قارىء ·

١٩٧٢ وما بعدها

عندما بدأ صدور الترانساكشان ، كانت مشكلتنا الرئيسية هى اجتياز حائط اللامبالاة والمعارضة المهنية ، اذ شعر البعض بأن جعل العلوم الاجتماعية فى متناول الجماهير سوف يحرم المهن من الطابع العلمى الذى اكتسبته ، هذا بينما شعرآخرون

بأن ذلك الامر كان سـبيلا الى الافراط فى التبسيط • الا أن تلك الاعتراضات قد دحضت بالكامل وأضحت الآن فى طى النسيان • واليوم يأتى الخطر الرئيسى الذى يتهدد وجودنا ووجود الدوريات المسئولة مثـل الترانساكشان ، من رجال الاعمال الذين يرون فى العلوم الاجتماعية سوقا مريحة •

ولقد أحسسنا بسوط كبار رجال الاعمال يوجه الينا فى صـورة سلسلة من المجابهات والمشاجرات التى طرحت تساؤلات جـديدة حول بقـائنا وحول مستقبل العلوم الاجتماعية • وقد تغيرت طبيعة هذه العلوم بفعل التوسع المربح فى نشر الكتب الدراسية المتعلقة بالعلوم السياسية ، وتطوير مضمون مجلة «علم النفس اليوم» عن طريق صناعات س.ر.م فى منتصف الستينات ، وعملية دمج وتذويب المؤسسات الصغيرة فى مؤسسات كبيرة ، وأخيرا مفهوم مجلة العلوم الاجتماعية كمجلة للتسويق والاعلان بدلا من كونها مصدرا للمعرفة الانسانية •

وفى الوقت الراهن ، ينظر الى قسم الخـدمات البريدية على أنه مشروع خاص ملتزم بتحقيق ربح ، كما أن المجلات الصغيرة ، مثـل الترانساكشان ، مكرهة على الكفاح من أجل وجودها الحقيقى • ويمكن أن يستشف هذا الامر من رفـع معدلات ضريبة الخدمات البريدية (من الطبقة الثانية) بنسبة ١٢٧٪ وذلك على امتداد خمس سنوات • وبالنظر الى مصلحتنا المشتركة فى البقاء ، فقد عملنا على تكوين مجموعة تعرف باسم « لجنة تنويع الصحافة » اشتملت ، الى جانب الترانساكشان ، على صحف أخرى مثل «الامة» ، «كومون ويل» ، «نيويورك ريفيو» ، «واشنطن مانثلى» ، وأخيرا على كل دورية صغيرة متميزة يعرفها مسرح النشر الامريكى •

كذلك شهدت هذه الفترة انبثاق تهديدات أقل وطأة ، سوف يكون لكل منها تأثير عميق فى قدرتنا على البقاء خلال السنوات القادمة • ولعل أول هذه التهديدات هو برنامج «النشر بالطلب» الذى طورته مؤسسة الزيروكس ، وقد جاء فى تقريرها السنوى لعام ١٩٧١ ما يلى « باستطاعة المدرسين أن يختاروا مقتطفـات وقراءات من الصحف والمجلات والكتب ، ثم يقوموا باعدادها فى شـكل قطع أدبية مختارة مع الاستعانة بالمادة الأصلية المتوافرة لديهم • وبعد الحصول على تصريح بالنشر ، يمكن أن تصبح هذه القطع الادبية المختارة فى متناول الطلاب وذلك فى غضون ثلاثة أشهر•

ويشكل هذا تحديا مباشرا لسلسلة كتب تعليم القراءة التى نقوم بنشرها ، ثم للسلسلة التى يصدرها غيرنا من الناشرين •

وجاءت الضربة الثانية حينما تقرر تجزئة مجلة «ساترداى ريفيو اندستريس» الى مجلات أربع ، أطلق على احداها اسم «المجتمع» . والواضح أن هذا الاسم يمثل مفاجأة مباشرة لاسم مجلتنا . ومع اللاسليم بالقوة الحالية لتوزيع هذه المجلات الاربع ومواردها المالية ، يصبح الغموض ممكنا فيما يتعلق بالنـاشر ، ومادة النشر ، وهذا أمر مفوض لسمعتنا • وتأكدت قسوة هذه الممارسة من اصدار مجـلة أخرى اسمها

«العلم» برغم وجود مجلة أخرى بهذا الاسم تصـــدرها «الاكاديمية الامريكية لتقدم العلم» منذ ۱۳۷ عاما • كذلك فقد صدرت مجلتا «التعليم» ، «والفنون» برغم وجود مجلات تحمل هذه الاسماء •

وتعد هذه الامور ـ الى حد ما ـ من مقتضيات المهنة ، كما أنها ـ الى حد ما ـ بمثابة استجابات لنمو العلوم الاجتماعية كصناعة قائمة بذاتها ، أو بالاحرى كمنتج يمكن تسويقه وبيعه بغض النظر عن قيمته الحقيقية أو الاجرائية • والدرس الحقيقى المستفاد من ذلك هو أن سوقا للعـلوم الاجتماعية تنبض بالحيـاة ، ويتراوح عدد المترددين عليها بين نصف ومليون شخص •

وعلى حين ستكون استجابتنا الفورية هى اللجوء الى المحـاكم بحثا عن الحقوق التى يرتبها لنا القانون مقابل خرق العقد وانتحـال اسم مجلتنـا ، فان مثـل هذه الاساليب القانونية تقتضى نفقات لا طاقة لنا بها ولا ريب فى أن على المرء أن يتساءل عما اذا كانت هناك جدوى حقيقية من وراء جعل العلوم الاجتماعية فى متناول الجماهير فى ظل صراع المؤسسات التجارية •

ويمكن تلخيص خبرة هذه السنوات العشر فى النقاط الخمس الآتية :

١ ـ لقد كان شاغلنا هو خلق علم اجتماع جديد ، وليس مجرد الاعمال الدورية أو تلك المتعلقة بالطباعة • وجاءت الاخطاء التى ارتكبناها ـ الى حد ما ـ من التفكير أولا حول مجلة ما ، وفيما بعد حول ما ينطوى عليه اصـدار تلك المجـلة من مزايا اقتصـادية • والواقع أن ما يملـكه المرء هو سلسلة من الافكار المرتبطة بالعلوم الاجتماعية • وتختلف أشكال تسويقها ، أو انتاجها ، أو توزيعها • ففى البداية قد تقدم فى صورة مقالة بمجلة ما ، وبعدئذ قد تصلح كجزء من كتاب مدرسى ، كما يمكن أن تسجل على شرائط ، وأخيرا ربما أصبحت جزءاً من فيلم عن موضوع معين •

٢ ـ تعتبر مجلة الترانساكشان وجميع فروعها عملا تجـاريا • وهى لا تتمتع بميزة أى مؤسسة غنية ، أو حتى حصولها على معونة قسم ما فى احدى الجامعات • وحتى ينجح مثل هذا العمل التجارى ، فانه لا بد من أن يرضى الناس • واذا كان كثير من الدوريات فى مجال العلوم الاجتماعية تدعى أنها ليست عملا تجاريا ، فانها يجب أن تبين أيضا أنها لا تحقـق متعة كبيرة لقرائها • ويمثـل التعارض بين التمسك بالاكاديمية من جانب ، والمتعة من جانب آخر ، تقليداً متزمتا فى النظرة الى الدراسة الاكاديمية ، لا يتقبل ببساطة ما يعرفه كل شخص •

والواقع أنه فى مجتمع يفرض على كل شخص فيه أن يتنافس كل يوم من أجل عقول وقلوب غيره من الناس ، يصبح تقديم المتعة والمعرفة تحديا وليس تهديدا •

٣ ـ ان العلم الاجتماعى أكثر من أن يكون عملا تجاريا ، وأبعد من ذلك ، فانه

أكثر من أن يكون سلسلة من النتائج والطرق : انه في الواقع أيديولوجية ٠ اذ أن له حاجاته ومتطلباته ، وهو يقوم بأداء عروض متميزة به ٠

انه العاطفة الدافعة لعالم سلام وحكمة يجب على كل العلوم الاجتماعية أن تكرس نفسها من أجله ، رغم عدم توافر أى تفويض رسمى أو منطقى للقيام بذلك ٠

ان العلوم الاجتماعية لها أنصارها الذين يتكونون فى رأينا من أولئك الذين يعملون على بقاء الجنس البشرى ٠ وبهذا المعنى فاننا أقرب ما نكون الى الاطباء أو الجراحين ٠ ان مهمتنا هى أن نطيل أمد الحياة وأن نجعل هذه الحياة من الناحية الكيفية أكثر قيمة وثراء ٠

٤ ـ ان ارتباط منظمة للعلوم الاجتماعية باحدى الجامعات قد يعود عليها بالضرر أو بالنفع ٠ فالجامعات مخلوقات محافظة يسهل الضغط عليها من جانب فئات عدة ٠ وبرغم ذلك فان الجامعة تقدم مزايا عديدة ٠ فهى تضع الاساس لعلاقات تسمح باستمرار النقد والنقد الذاتى دون معوقات ٠ وهى تقدم الموارد البشرية لهيئة تحرير تجعل المجلة بمنأى من أن تصبح أداة فى يد المعلنين أو المشترين مستقبلا ٠ كما تقدم بيئة يكون للتعلم والافكار فيها قيمتها وشأنها ، ان لم تكن تعنى كل شىء ٠ ففى الوقت الذى تزداد فيه النظرة التجارية والرأسمالية ، لا زالت الجامعة تقدم نوعا من الاستقلال والحماية التى تعتبر ضمانا ضد أى تفتت داخلى أو تعد خارجى ٠

٥ ـ نحن الآن ندرك أن كل الاشياء نسبية ٠ ان «الترانساكشان» و «المجتمع» لا نزال نقطة فى بحر ٠ ان خمسين ألف قارىء قد يكونون عددا عظيما بالنسبة لمجلات لا يتجاوز عدد قرائها ١٥٠٠ قارىء ، ولكن هذا الرقم يصبح غير ذى بال بالنسبة لمحررى المجلات والناشرين الذين يعيشون فى عالم يصل فيه توزيع بعض المجلات من أرقام ٥٠٠ر٠٠٠ الى ٥ ملايين ، وربما كانت نسبية الحجم والقوة هذه أصعب مايمكن فى تقديرها مادمنا فى آن واحد نواجه فى الداخل دنيا اعلم الاجتماع نبدو فيها كبارا ، وفى نفس الوقت عالما خارجيا لوسائل الاتصال الجماهيرية حيث تبدو كقطرة فى بحر ٠ ومما لا شك فيه أننا نمثل جزءا من عالم وسائل الاتصالات الجماهيرية ، كما أننا فى نفس الوقت جزء لا يتجزأ من مجتمع صفوة علمية ٠ فنحن نخدم جمهورا مزدوجا ، وليس هناك من خطأ فى أداء هذه الادوار المتعددة ، فواجبنا أن نقدم الصورة الضخمة كما يعيشها صغار الناس ٠ ويصبح هؤلاء الناس ، بما هم عليه من مجهولية ، ابطالنا من حيث نقوم بارجاء مسوح عنهم ، وتحليل وفحص واجراء مقابلات تتعلق بهم ٠



* مناقشة وتلخيص لنتائج ثلاثة بحوث واقعية على عدد من العلماء .

يعتمد مستقبل التطور الانسانى الى حد بعيد على ما يجود به العقل البشرى من اكتشافات ، أو ابتكارات ، أو أفكار ابداعية . لهذا يولى الكثيرون أهمية خاصة لبحث المجتمع ، والمشتغلين بالبحث العلمى على السواء . أما كيف يمكن تحقيق تلك المساهمة الحيوية (فى معرفتنا بالمجتمع وبحاثه) فيعتمد غالبا على الاطلاع على السير الشخصية لرواد العلم وتحليلها . ويتولى دراسة أعمال هؤلاء الرواد كثير من المتخصصين ، منهم على سبيل المثال فلاسفة العلم ، والمؤرخون ، وفريق حديث نسبيا ــ من المهتمين بالعلم والسياسة العامة . غير أن هناك اجماعا عاما بين هؤلاء والمتخصصين على قصور معرفتنا « بالسيرة العقلية » للأفكار العلمية .

وقد أحرز ميدان « سيكلوجية العلم والعلماء » ــ وهو ميدان حديث نسبيا ــ نجاحا ملحوظا فى دراسة تلك المنطقة الثرية من المعرفة . وتستخدم فى هذا الميدان أساليب عدة منها : المناهج المعملية ، وأساليب القياس والطب النفسى ، والمواد المتجمعة من السير ، والسير الشخصية ، والتاريخ المرضى .

بقلم : س . م . مـــاينى

و : ب . نوردبيك

يعمل كلاهما بالبحث فى قسم علم النفس بجامعة لوند بالســـويد . وقد اوليا فى الســـنوات الأخيرة اهتمامهما بسيكلوجية العلم حيث قاما بنشر عدد كبير من البحوث فى هذا الموضوع .

ترجمة : الدكتور عبد الستار ابراهيم

مدرس علم النفس بكلية الآداب جامعة القـاهرة — حصـل على دكتـوراه الفلســـفة بمرتبة الشرف الأولى فى سيكلوجية الابداع .

من بحوثه :

- الاصالة واسلوب الشخصية .
- الجمود العقائدى
- السلطية وقوة الأنا
- التذوق الفنى والنشاط الابداعى
- الأصالة بين المجاراة والمخالفة
- البناء المعروفى والمضمون الايديولوجى للتسلطية .

هذا عدا عددا آخر من المقالات والمترجمات

ولكل أسلوب من الأساليب السابقة عيوبه ومزاياه ، ولكن يبدو أن هـــذه المنطقة الحديثة تحتاج الى تضـــافر بين كل الزوايا ، والى اعتماد على المناهج المنظمة المفضية الى استخدام الملاحظة العلمية ، بهدف الاتجاه نحو بناء نظرية تضىء الغموض فى هذا الميدان . وقد استخدم الكاتبان الحاليان أساليب ومناهج متنوعة فى محاولاتهما للاستبصار ب « سيكلوجية الباحث وعملية البحث » وقد تركزت تلك الدراسات عامة — حول جمع عدد من الأفكار والتصورات ، وجوانب النشاط لدى المشتغلين بالبحث، والذين يمكن اعتبارهم بحق الجانب الحاسم فى انتاج المعرفة . ففى كل الأحوال التى يعمل فيها هؤلاء الأشخاص — سواء بصورة منفردة ، أو فى فريق ، أو فى وحـــدة بحوث — سيكونون بمثابة الحلقة الحيوية فى تطور العلم . وستكون الاجراءات التى يقوم بها كل منهم فى بحوثه هى وسيلتنا للالمام بالعملية الابداعية ، ودوافع البحث ، وغيرها .

ويقوم المقال الحالى بتلخيص ومناقشة نتائج ثلاثة بحوث واقعية قام بها المؤلفان،

ودارت حول اللحظات الحرجة (*) فى البحث ، والعملية الابداعية والدافع للبحث ٠ وقد أعتمد جمع البيانات فى البحث الأول على استبار (١) شبه مقنن لمجموعة من العلماء الطبيعيين (العدد الأكبر منهم علماء بيولوجيا) لسؤالهم عن اللحظات الحرجة التى عرضت لهم أثنـــاء اجرائهم لبحوثهم ٠ أما الدراســة الثانية فقد اعتمــدت على استخبار (٢) تلاه استبار لمجموعة من العلماء الاجتماعيين (العدد الاكبر منهم علماء نفس) ٠ أما الدراسة الثالثة فقد اعتمدت على المواد المتجمعة من دراسة السير الذاتية لجماعة من العلماء المدربين والعالميين ٠ وقد روعى فى تلك المجموعة من الدراسات أن تستخدم أساليب مختلفة ، وأن يكون الأشخاص موضوع تلك البحوث ممن ينتمون لميـادين متنــوعة من المعرفة (من المتمرســين بالبحث ، ومن المقيدين للدكتــوراة أو حملتها) ٠ وقد روعت تلك الشروط بهدف الفصل بين الجوانب النوعية ، والجوانب العامة فى البحث ٠

اللحظات الحرجة فى مسار البحث

تتضمن السير العلمية ، والكتابات المتجمعة من مصادر مختلفة عددا ملحوظا من التقارير عن وجود فترات حاسمة فى مسار البحث هذه الفترات هى ما نطلق عليهـــا مفهوم « اللحظات الحرجة » ٠ ويقصد بها تلك اللحظات المستقلة المتوالية ، التى يعانيها الباحث وتكون ذات أثر حاسم فى تقدم البحث ، واستخلاص نتائجه ومن الجـدير بالملاحظة أن تحديد تلك اللحظات يتوقف على تقرير العالم الذاتى بأن لحظات معينة دون غيرها قد لعبت دورا حاسما عاناه شـخصيا فى مســار بحثه ، وليس كل اللحظات (بصرف النظر عن طبيعتها الحاسمة) التى يمكن أن تحدث ، أو تحدث بالفعل أثنـاء البحث . ومن أمثلة تلك اللحظات الحرجة خبرات الاســتكشاف المفاجىء للحل(٣) والفترات التى تسيطر فيهـا على البـاحث مشاعر الاكتئاب وعدم النشاط .. الخ .

ويبدو ـ وفق نتائج البحوث ـ أن كل اللحظات التى يقرر فيها المشتغلون بالبحث أنها لحظات حرجة قد تميزت بخاصيتين هما **وجود تغيرات فى الدافع** ، الايجابى أو السلبى. ويقصد **بالدافع الايجابى** ازدياد الاهتمام بالبحث، أما **الدافع السلبى** فيقصد به هبوط هذا الاهتمام . أما الخاصية الأخرى فتتضمن وجود **تغيرات معرفية** منها : النمو المعرفى أو الركود النسبى فى ظهور أفكار أو معرفة جديدة .

---

(١) Interview أو المقابلة الشخصية التى يجريها الباحث مع الاشخاص حيث يوجه مجموعة الأسئلة أو يقوم بعدد من الملاحظات الخاصة بموضوع سلوكى معين (المترجم)

(٢) Questionnaire مجموعة من الأسئلة توجه ولكن لايشترط فيها موقت المواجهة كما هو الحال فى الاستبار (المترجم) ٠

(٣) أو سلوك الـ A.a (الآها) كاشارة الى نشوة الانتصار التى تبدر عن الشخص عند الادراك المفاجىء للحل (المترجم) ٠

ويشـير مفهوم الركود المعرفى الى عدم ظهـور أفكار جديدة ، فى الوقت الذى يكون فيه الفرد قادرا على تكوين جوانب من المعرفة والاسـتبصار ، واكتشـاف الاخطاء لكن دون أى تقدم ملحوظ .

اللحظات الحرجة الايجابية :

يقرر المشتغلون بالبحث العلمى أن اللحظات الحرجة الايجابية تتكون من عنصرين : هما وجود **دوافع** ايجابية ، **وتنمية** معرفية . وفيما يلى تلخيص بأهم الانماط العامة التى تجمع بين تلك اللحظات الايجابية :

١ ـ مواقف حرجة تختص بوجهة البحث : أى بتحديد واختيار مشكلة البحث وتعتبر هذه النقطة ذات أهمية خاصة ، لأنها ـ من الناحية النظرية ـ تشكل جانبا من أهم جوانب البحث على الاطلاق ولو أن الدوائر الاكاديمية الرسمية تميل الى النظر للعلميات المؤدية لتحديد المشكلةواختيارها بصفتها مرحلة سابقة عن العلم ، ولا تدخل فى اطار عملية البحث الفعلية . وتبين بعض الفحوص المماثلة لبحوثنا ان هذا النوع من الانماط الايجابية لم يتقرر ظهوره فى جماعات البحوث الثلاثة ، أو ظهر بصورة منخفضة نسبيا . وربما يعود هذا التعارض بين الآراء ـ فى اهمية تلك الانماط ـ الى اسباب عدة قد يكون من بينها مثلا أن العلماء الذين شرحوا خبراتهم بالبحث فى موقف الاستبار « الحر » أو الاستخبار ، كانوا يقومون ببحوثهم فى أماكن جامعية تتسامح فى حرية البحث أكثر من غيرها . **ومنها** أن غالبية العلماء فى البحوث الأخرى ربما كانوا يقومون ببحوثهم بنشاط فى أماكن أو منظمات تتحدد فيها مشـاكل البحث تحديدا واضحاً من قبل الرؤساء ، مما يحد من حرية الباحث فى الاختيار .

٢ ـ المواقف التفاعلية ذات الصبغة غير الرسمية وهى تعتبر من وجهة نظر الجماعات المشتغلة بالبحث أكثر أهمية من المواقف الرسمية (كالمحاضرات ، والكتب وغيرها) . وتتفق تلك الأهمية التى تعزى للاتصال غير الرسمى مع نتائج البحوث الأخرى (أنظر مثلا :

Pelz and Andrews 1966, Ekstam, 1968, Stankiewcz, 1968,
Crane, 1970, Garvey and Griffith, 1971

وعلى سبيل المثال يكتب « أولبى عن عادات العمل عنـد » فرانسيس كريك الحائز على جائزة نوبل مايلى : ـ

« كان كريك يناقش مع زميله « برنر » ـ كما كان يفعـل مع زميله السـابق ـ »

« أفكاره وخططه التجريبية يوما وراء الآخر دون كلل . ولم يتعاونا »

« فيما بينهما بمعنى القيام بنفس التجارب معا فى وقت واحـد . »

« بل أن الاهتمامات الخاصـة بالبحث لكل منهما كانت مكملة »

«لاهتمامات الآخر . وكانت القاعدة فيما بينهما هى تخصيص ساعة»

« يوميا لمناقشة المشكلات التى تواجه كلا منهما على انفراد • وعندما »
« كان يقاطع احدهما الآخر كان يقاطعه لكى يدخلا فى حوار ثنائى »
« حول الافكار البازغة التى تصدر عن « كريك » والتى كان برنر »
« يقابلها باستجوابات لا هوادة فيها »

٣ ـ المواقف التى تتضمن تغيرات انفعــالية ـ دافعية متعلقة بالبحث عامة أو بمشكلات خاصة فيه ، أو بالنشاط المبذول • وتنبنى تلك التغيرات غالبا على السلوك التفاعلى فى البند السابق ، وعلى بزوغ الأفكار وكمثال على ذلك ازدياد التعلق تدريجيا بالعمل لدى الباحث كلما تقدم فى محاولاته لحل مشكلة مرتبطة بتفســير البيانات المتجمعة وتكاملها •

٤ ـ المواقف التى تتضمن بزوغ أفكار بنجوث جديدة ، أو عندما يتحقق الباحث بنفسه من أهمية المنجزات التى يقدمها بحثه •

لحظات حرجة سلبية :

تشير اللحظات السلبية الى نقصان الدافع ، أو الى الركود المعرفى ، وتتضـمن المواقف الآتية :

١ ـ مواقف الهبوط الشديد فى الدافع للبحث • وقد تبين أن تلك المواقف من أكثر اللحظات السلبية شيوعا ، ومنها مثلا فشل منهج معين ، فيكون على العــالم أن يبدأ من البداية بمنهج آخر جديد • ومنها أيضا الصعوبات التى تواجه البــاحث عند كتابة النتائج بطريقة رسمية تمهيدا للنشر •

٢ ـ مواقف تفاعلية تتعلق بالمشرف على الباحث • وتسود بالذات بين الباحثين الصغار شكاوى عامة من افتقارهم للاشراف الجيد •

٣ ـ لحظات ترتبط بعيوب أو تغيرات فى مسار البحث • وكمثال على ذلك لدى العلماء السونيين (علماء النفس) وجود لحظات ترتبط باختفاء البحث فى مشـكلة معينة » أما العلماء الطبيعيون (علمــاء الاحياء) فيقررون وجود لحظات ترتبط باختبار المشكلة أو بصعوبات تحديد المشكلة تحديدا أضيق تمهيدا لبحثها .

الفروق فى اللحظات الحرجة :

بالرغم من أوجه التشابه التى عرضنا لها فى السطور السابقة فقد تبين وجـود فروق بين البحوث الثلاثة • بعض هذه الفروق يرجع جزئيــا الى نوعية تخصص العالم ، وبعضها يرجع الى التطويع الذاتى للمجالات العلمية المختلفة •

فهناك مثلا اختلاف بين علماء الطبيعة ، وعلماء الســلوك فى النظر الى مواقف « النقد » بصفتها من اللحظات الحرجة السلبية • اذ يرى السيكلوجيون أنها كذلك

وقد يرجع هذا الاختلاف الى اختلاف بين شخصيات العلماء (فالسيكلوجيون مثـــلا أكثر حساسية للعدوان) أو الى اختلاف فى مناخ البحث فى الأقسام المختلفة ٠

وبالرغم من أن مواقف « النقد » لا تعتبر من اللحظات الحرجة السـلبية لدى علماء الطبيعة ، فان عنصر « الوقت » ، قد شكل لديهم عاملا سلبيا حاسما أكثر ممـا عبر عن ذلك علماء السلوك ٠ ويمكن ارجاع هذا الفرق الى عوامل عدة منهـا مثلا : الفروق فى موضوعات الدراسة ، والتعريف الواضح بحـــدود البحث فى العلوم الطبيعية ، ممـــا يخلق منافسة شديدة بين العلماء للوصـــول الى مكاسب أسرع فى مباريات العلم .

وهناك طائفة أخرى من اللحظات السلبية تبين شيوعهـــا بين علماء الطبيعة وتتعلق **بالمعونات المادية** ، والأجهزة ، وأدوات البحث ٠ ويمكن تفسير هذا فى ضــوء المصروفات المطلوبة لتنفيذ البحث فى العـــلوم الطبيعية ، والتكاليف الكبيرة التى يحتاج اليها تصميم الأجهزة المناسبة ، وأدوات البحث ، خاصة لدى علماء الاحيـــاء الذين تحتاج بحوثهم الى عناية خاصة ٠

وقد تبين وجود فروق مماثلة عندما قمنا بتقسيم مجموعات البحوث الثلاثة الى طائفتين **بحسب العمر** : طائفة كبرى فى العمر والخبرة ، وأخرى صـغرى فى العمر والخبرة . وقد اتخذت تلك الفروق بين هاتين الطائفتين (بغض النظر عن مجـال التخصص) شكلا شائقا . فقد كشفت الطائفة الاولى (ذوو الخبرة) ، عن رجود لحظات حرجة متعلقة بالتاريخ المبكر ٠ فبسبب خبرتهم الطويلة استطاع أشـــخاص هذه المجموعة أن ينقبوا بعمق فى تاريخهم المبكر ، الذى يرجع لأيام الدراسة بالمدرسة الابتدائية لكى يحددوا الحوادث الحرجة التى حددت مستقبلهم فى حقـــل البحث العلمى بصورة ما ٠ وقد تحددت أهمية التاريخ المبكر فى تشكيل الشخصية فى دوائر التحليل النفسى ، كما ثبتت عمليا فى دراسات أخرى كثيرة ٠ ولما كانت نتائجنا فى هذا الصدد ليست مستفيضة بالشكل المناسب ، فاننا نكتفى بتوجيه النظر الى أهمية هذه النقطة ، على أمل أن يأتى من يستطيع أن يخضعها للبحث ٠

ومن الجوانب المميزة للحظات الحرجة لدى طائفة المتمرسين بالبحث تعبيرهم عن رغبتهم فى **السلام والعزلة** ٠ وقد أشاروا فضلا عن ذلك ــ الى قراءة النصوص العلمية والبحوث الأكاديمية بصفتهما مصدرين للأفكار والأثارة الفكرية ٠ ولم تظهر هاتان الخاصيتان للحظات الحرجة بين الطائفة الثانية (طائفة المحدثين) ، وقد ظهرت بدلا منهما مشـــكلات متعلقة بالجوانب الادارية ، والبيروقراطيــة ، والواجبـات نحو الرؤساء . وقد عبرت طائفة الباحثين المحدثين أيضا عن رجود لحظات حرجة سلبية تتمثل فى توزع الاهتمام بين القيام بواجبات التدريس والبحث ، كما تتمثل فى العمل فى عدد كبير من البحوث فى وقت واحد ، أو فى الصعوبات المتعلقة بالاحتفاظ ببرنامج عمل منظم ولكنه غير واقعى .

ويبدو من المناسب هنا أن نتصدى لعرض مشاعر غالبية الباحثين المتمرسـين

بصدد تزايد الوقت المستغرق فى أعمال روتينية ، غير خلاقة تتمثل – فى رأيهم – فى قراءة بحوث الطلاب وغيرها من الواجبات • فقد عبر أحد أفراد هذه المجموعة عن ذلك عندما وصف نظامه اليومى على النحو الآتى :

« اتجه الى معملى – أثناء الدراسة – فى السادسة صباحا واغلق »
« الباب من ورائى• واستغرق فى عملى بسلام حتى الساعة التاسعة »
«صباحا• وعندئذ يبدأ القسم كله يدب بالنشاط، ويتبدد السلام»
« من حولى • وأبدأ فى أعمالى الادارية ، فأقضى بقية اليـوم فى »
« اجتماعات مماثله •• الخ وبذلك تكون ساعات البحث الحقيقية »
« بالنسبة لى هى ساعات الصباح المبكرة فحسب » •

وقد أمكن لغالبية الباحثين (المتمرسين والمحدثين على السواء) أن يطوروا نظما يومية مماثلة يستطيعون من خلالها أن يتفرغوا لمشكلات بحثهم •

بزوغ الافكار الجديدة وعلاقته بالعملية الابداعية :

أشرنا الى أن المواقف ، أو اللحظات التى تحدث فيها الافكار الهامة الجديدة • والملاحظات والاستبصارات ، تعتبر من اللحظات الحرجة الهامة فى العملية الابداعية• فالأفكار الجديدة ما هى الانتاج نهائى لعمليات طويلة ممتدة تسبق بزوغها • ولعـل من الواضح أن الابداع ليس مجرد ظهور مفاجىء للافكار – كما تميل الى تصـويره بعض الافكار الساذجة التى تفسد تعقد الفـكر الابداعى بالتركيز على عنصر البزوغ المفاجىء للافكار – ولكن الفكر الابداعى يعتبر فى واقع الأمر نهاية ناجحة لفترة مليئة بالاحباط والجهد •

ويمكن أن نلخص أهم ما تشير له بحوثنا من نتائج فيما يتعلق ببزوغ الافـكار الجديدة والعمليات التى تسبقها فى النقاط الآتية :

١ – يبدو ان الأفكار الحاسمة تميل للظهور عادة بعد فترة من الالفة بالمشكلة المتصلة بالفكرة • ومن الطريف أن بعض البحوث تبين أن المستجدين فى مجـال البحث مثلهم فى ذلك مثل من مرت عليهم ست سنوات من الخبرة أو أكثر قد سجلوا عددا أقل من الأفكار بالمقارنة بغيرهم • لهذا يبدو أن المعرفة فى مجـال أو جانب معين تصـل الى حد معين من التشبع تتحول بعـده الألفة الى عامل محبط ومعطل لظهور وتوالد أفكار جديدة أو حاسمة .

٢ – يرتبط حدوث التغيرات الفكرية الهامة غالبا بفترتى : الانتهاء من تحليل البيانات وتكاملها ، وبتحديد مشكلة البحث خلال الاجزاء المبكرة من عملية البحث ، عندما يكون الباحث لا يزال بعيدا عن ايجاد الحل النهائى لمشكلته ••

٣ ــ يحدث البزوغ المفاجىء للفكرة عندما يتم التركيز على شيء آخر يختلف عن المشكلة الفعلية ، أو على صلة ما بها ، بشرط ان يكون هذا الشيء الآخر أو هذا الجانب على صلة قريبة بالمشكلة . ويعتبر هــذا شكلا من اشــكال انتقال الأفكار . وتبين السير الشخصية انها خبرة تشيع لدى كثير من المفكرين .

٤ ــ تتميز الفترة الســـابقة على ظهور الفكرة مباشرة بخاصـــية أو بأكثر من الخصائص التالية :

(أ) خبرة فشل، أو اضطراب، واستجابة انفعالية قوية تبدو فى تلك الظروف بمثابة الشرط الضرورى لظهور الصياغة المعرفية .

(ب) مناقشات وحوار مع الزملاء ذو طابع علمى منشط .

(جـ) فترة طويلة أو قصيرة (بالمقارنة بالفترة السابقة مباشرة) تتميز بتناقص ملحوظ فى النشاط العقلى الواعى ، المتعلق بالمشكلة ، أو بجوانب الفكرة الجديدة . وتشـــبه تلك الفترة فترة « الاختمار » التى يتحدث عنها المفــكرون ــ من أمثــال بوتكاريه ــ فى سيرهم الذاتية .

٥ ــ وهنا آثار ايجابية لتلك الفترات ذات النشاط المحدود وتحدث تلك الآثار عندما يكون هبوط النشاط ناتجا عن تناقص فى الدافع نحو العمل . أما فى فترات الاحباط الناتجة عن الضغوط الخارجية فان الآثار تكون سلبية ، أو مختلطة ، ولكنها نادرا ما تكون ايجابية .

أطوار العملية الابداعية :

يشير التلخيص الســـابق الى أن الفــكرة الجديدة ، أو الفكر الابداعى يبرع بأشكال مختلفة ومتعددة . ومن العسير أن نجــــد وصفا عاما يغطى كل الحـــالات (مختلف الأفراد ومختلف المشكلات) ويمدنا فى نفس الوقت بوصف مفصل نسبيا بالعملية الابداعية .

ويقوم الملخص الآتى لاطوار العملية الابداعية أساسا على وصـــــف العمليات الظاهرة ، أو الواعية كما يعبر عنها أفراد البحث ، وكما تتبين من خـــلال المعطيات التجريبية . وتمدنا معطياتنا أيضا بنتائج أساسية عن دور الأحلام ، والحـــالات الشبيهة بالأحلام (كحالات الافاقة من التخدير) فى العملية الابداعية . لكن ينبغى لهذه الجوانب أن تدرس بأساليب أخرى كالأساليب المعملية ، أو من خلال العـــلاج بالتحليل النفسى .

والدليل على ان تلك العمليات السابقة على الشـــعور ذات أهمية حيوية فى العملية الابداعية يمكن أن نسمعه من أى عالم مهتم بتأمل عملياته العقلية الابداعية ، ولو أن هذا لا ينفى أهمية العوامل الشعورية . وقد فصل « كريس Kris »

، ١٩٦٤) القول بأهمية العوامل السابقة على الشعور فى الابداع ، خاصـة الابداع العلمى بقوله : **ان أعمال الفكر فى البحث والاستقصاء لا يعنى فحسب القيام بالبحث عن حل • ان جزءا من العمل يتم فى اللاشعور الذى يتحول فجأة الى وحى فى شكل أفكار مفاجئة • وانه لمن الممكن دائما تقريبا أن نجد آثار علاقة متبـادلة بين بعض الدوافع الظاهرة وبين العملية اللاشعورية •**

وتحدث الفكرة ، أو الفكر الجديد أحيانا بشكل سلسلة من التغيرات المتتالية ، حيث تلتحم الاجزاء جزءا فجزءا الى أن تبزغ الفكرة الجديدة بوضوح • وتتميز تلك العملية بوجهة منظمة ، ومضبوطة ، ولا تتضمن الاقدرا محدودا من العناصر المباغتة غير الملتحمة •

أما فى الطرف الآخر، فتتميز العملية الابداعية بقدر اكبر من البلورة المفاجئة ، لهذا نجدها تتضمن عنصر المباغتة • ويمكن وجود أشكال مختلفة بين هذين الطرفين • ومعنى هذا ان العملية الابداعية الممتدة تتضمن أو تقوم على عمليات فكرية ابداعية أصغر من هذا النمط أو ذاك • وفضلا عن هذا ، فان العملية التى تؤدى الى أى تغير جزئى صغير تتضمن بشكل عام ــ كما توضح نتائجنا ــ نفس الاطوار مصغرة ، تماما كما تؤدى العملية الأكثر امتدادا الى صياغة مفاجئة وحاسمة فى محتوى التفكير •

وقد اثارت المراحل التقليدية للعملية الابداعيـة كما بلورها والاس (١٩٢٦) جدلا عميقا بين السيكلوجيين فى الكتابات السيكلوجية عن الابداع • وبالرغم من أن بعض الانتقادات لها ما يبررها فان المراحل التى يحددها والاس ، والتى تبينهـا نتائجنا التالية يمكن استخدامها ــ فى رأينا ــ كعملية لوصف البيـانات المتجمعة المتصلة بدراساتنا عن بزوغ الافكار وكنموذج (شكل ١) يحتاج للتحقق التجريبى • ففى العملية الابداعيـة ــ التى تتضمن تغيرا معرفيا حاسـما ــ نسـتطيع أن نميز الأطوار الآتية :

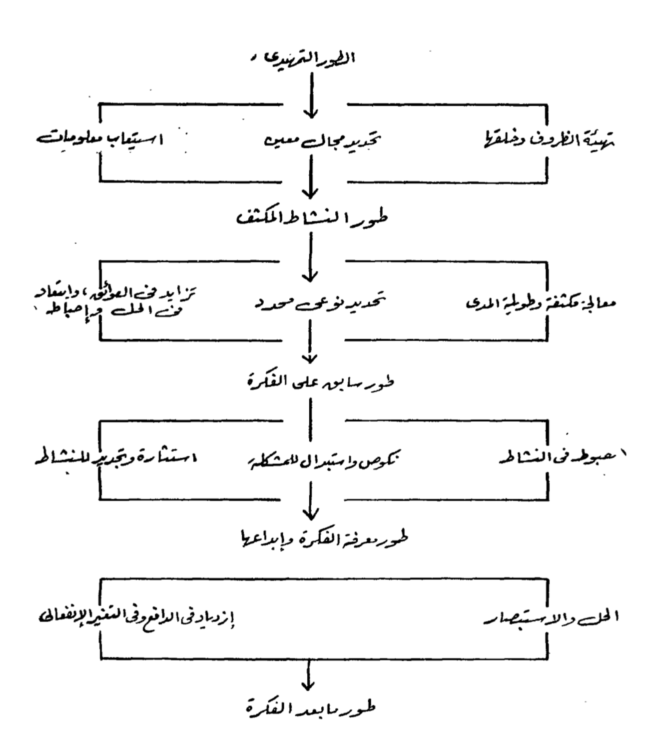
١ ــ طور تمهيدى ، يتضمن :

(أ) مرحلة سابقة تقتصر على وجود الشروط الأولية للابداع •

(ب) تحديد جانب معين والاهتمام به •

(جـ) التهيوء فى عملية لجمع ، واستيعاب المعلومات •

٢ ــ طور من النشاط المكثف : ويتميز هذا الطور بالعمل المكثف والمركز لتأييد الفكرة • هذا الطور يعتبره الكثيرون المرحلة العلمية الحقيقية فى حل المشـكلات • فيه يتحول النشاط الفكرى الى نشاط موجه نحو هدف ، ومجال أكثر تحديدا من الطور السابق • وتبدأ الأهداف النهائية فى التراجع تدريجيا بسبب تزايد الصعوبات وخبرات الاحباط فى هذه الفترة • وتتراكم نتيجة لهذا الخبرات غير الساره ، ويؤدى هذا غالبا الى سيطرة الشعور



الشكل (١) وهو يوضح التصور الخاص بأطوار العملية الإبداعية السابقة على إبداع الفكرة. (لاحظ أن تلك الأطوار قد يطرأ عليها تغيير وتعديل في الترتيب بحسب الفرد، ونوع المشكلة. فضلاً عن هذا، فإن أحد هذه الأطوار أو أكثر قد يبرز أكثر من غيره ويسيطر على مختلف مراحل عملية البحث).

بالفشل والاحباط بدرجات متفاوتة . ويتضمن هذا بدوره تناقصا ملحوظا فى الدافع للعمل ، واستمرار النشاط .

٣ ـ **طور سابق على الفكرة** : يمهد الاحباط (الذى يمكن ملاحظته بصعوبة فى المواقف الصغرى) مع تناقص الدافع لطور آخر يبدأ فيه النشاط العقلى فى الهبوط . ويطفو التفكير الواعى بالمشكلة ويفيض بصورة دورية . فيتقيد أحيانا بجوانب من المشكلة بشكل نمطى وتيرى ، وأحيانا أخرى يأخذ شكلا متبلورا كاملا . وينشغل النشاط العقلى خلال هذه الفترة بصورة دائمة أو جزئية بما وراء الفكرة أو المشكلة . وهذا ما يطلق عليه أحيانا « التبلور » . ومن المعروف أن لحظات « الانهباط » تظهر ، حتى فى الاطوار الأخرى ، ولكنها فى هذا الطور تظهر بصورة أكثر وضوحا وشيوعا بالمقارنة بغيره من الأطوار . وتقطع هذا « الانهبـاط » وانخفاض النشـاط مرحلة ـ تسبق ظهور الفكرة أو الاستبصار ـ يزداد فيها النشاط العقلى الذى يدور حول الفكرة الأساسية ، أو الجوانب الوثيقة الصلة بها . وتتميز هذه الفترة من ازدياد النشاط بحالات نكوصية خاصة ، وأيضـا بوجود مواقف متباينة من حيث درجات الاثارة .

٤ ـ طور التعرف على الفكرة : فى هذا الطور يبدأ الادراك الواضـح للعناصر الأولية الأساسية للفكرة الجديدة . غير أن من الصعب تمييز هذا الطور عن غيره من المراحل السابقة أو التالية .

٥ ـ طور ما بعد الفكرة :ويتكون من لحظات متعددة منها تقويم المشكلة فضـلا عن التطور ، والتغيرات الواسعة فى ملامح الأفكار الأساسية .

الدافع للبحث :

لا شك فى صحة القول بوجود حاجات أساسية تدفع الانسان والحيوان بصورة متشابهة ومن هذه الحاجات الجوع ، والجنس وغيرها . غير أن هناك دوافع أخرى بدرجات متفاوتة منها على سبيل المثال : الحاجة للأمان ، والاعتبـارات المادية فى ارضاء بعض الرغبـات الأساسية ، لكن ما هى الدوافع التى تظهر لدى الباحثين ـ خاصة المبدعين ـ فتميزهم عما عداهم ؟ هل هى تتمثل فى المحاولات الدائبة للمبدع فى البحث أو فى الكشف عن مشكلات وحلول جديدة ؟ أم هى فى المشـكلات التى لا يلاحظها الناس بدرجة كافية من الحساسية وتؤدى الى الاحباط ، والشعور بخيبة الامل ؟ ولا شك فى أن تفرد الشخص المبدع وما يعطيه لنا عمله من ثمار (بعضـها مباشر وبعضها غير مباشر) يدفعان بعالم النفس الى الاتجـاه نحو دراسـة دوافع المبدعين ، وشخصياتهم ، والعملية الابداعية بدرجة كبيرة من التحدى والاهتمام .

وتلخص السطور الآتية نتائج بحوثنا فى مجال الدوافع . وقد أولينا اهتمامنا

ـ بلغة التحليل النفسي ـ للدوافع الثانوية أو المستويات الصريحة فى الدوافع (أى الدوافع الشعورية) ٠

ولكى نحقق قدرا أكبر من الرؤية الواضحة بالدوافع المؤثرة فى سلوك الباحث، قمنا بتحليل الصفات المميزة للحظات الحرجة ، واجابات الاشخاص عن بعض الأسئلة الخاصة بالدوافع (مثل : ماهى أهم اللحظات اثارة لاهتمامك أثناء البحث؟) كذلك طلب من العلماء فى الدراسة التى اعتمدت على السيرة الذاتية أن يصفوا بمزيد من التفاصيل أهم ما يدفعهم للبحث ٠

وفى هذا التلخيص العام بالعوامل الشائعة المؤثرة فى دوافع المبدعين الباحثين. يتبين وجود عوامل واقعية عامة تسود لدى غالبية العلماء ٠

ومن أهم العوامل شيوعا عامل « الاستثارة العقلية » وهو عامل يتضمن جوانب متعددة منها : الانشغال الشخصى ، حب الاستطلاع ، الانشغال بالعمل ، وحب الابتكار وغير ذلك ٠

ولو أنه يجب أن ننظر الى الدافع للاستثارة العقلية فى اطار أكثر اتساعا من هذه المظاهر ٠ فهو لا يقتصر على مجرد الرغبة فى الحل ، ولكنه يتضمن أيضا القدرة على الاستمرار فى طرح الأسئلة (البريئة) التى تؤدى بالتدريج الى استيعاب كل المشكلات التى تحتاج للحل ٠ ولا يقنع الباحث المبدع عادة بمجرد « اكتشاف أساس » كبير وما يضيفه له من تفصيلات لاحقة ، لأن العالم الحقيقى يرى باستمرار المشكلات، ويتوقعها ، ويسيطر عليه الشعور بعدم الاتزان الشخصى فى المواقف التى يمر عليها الآخرون مر الكرام ٠

لكن الاستثارة العقلية وحدها لا تكفى اذ أن طاقة الباحث الابداعية تندفع الى الظهور بفعل حالة وجدانية تكاد تقرب من الحوار العقلى ، ينظر لها أشخاصنا الباحثون على أنها مشحونة بالانفعال ومن خلال هذا الشعور الغامر ، وتلك البهجة الواقعية التى يخلقها حل المشكلات ، قد يظهر الباحث بمظهر الخجل فى المواقف الاجتماعية وهو مظهر قد يفسر ما يتميز به العلماء (خاصة علماء الطبيعة) من ميول نحو الانطواء ، ولو أن هذا الانطواء يمكن تفسيره تفسيرا أعمق فى ضوء نمط الحساسية لدى العلماء المبدعين ، خاصة اذا تذكرنا أن العالم المبدع لا تتجه حساسيته نحو الظواهر البيئية فحسب ، بل نحو خبرات وحوادث داخل ذاته أيضا ، وهى نوع ممن الحساسية الداخلية ٠

أما العامل **الآخر** الذى كشفت عنه بحوثنا فيمكن أن نطلق عليه عامل « الرغبة فى تقديم مساهمة أصيلة » ، وهو جزء لا يتجزأ من الحاجة للجدة والتغيير ، ويتفاعل أيضا مع عامل الاستثارة العقلية . لا ينبغى أن تقتصر النظرة لهذه الرغبة على مدى اشباعها لحاجة الفرد الخاصة لكن يجب النظر اليها وفق منظور اجتماعى أكثر

رحابة . ولو أن الباحث لا يتجاهل بالطبع حاجات العلم والمجتمع . فالعالم لا يفكر الا فى الرغبة فى القيام بمساهمة أصيلة للعلم ، وبهذا يزداد تراكم المعرفة العلمية فى مجال ذى صلة عميقة باهتماماته . ويكمن فى تلك المعادلة الجانب « المجتمعى » فضلا عن الصيت الذى يحصل عليه الباحث فى الأوساط العلمية وبين أشباهه من العلماء الجادين . وتقوم هذه الوظائف بجانب تدعيمى للدافع الأصـلى نحو متابعة البحث والاستمرار فيه . ولقد كشف البـاحثون بالفعل عن الاهتمام بالشـهرة فى الدوائر العلمية وبين الانداد . أما الرغبة فى الشهرة الاجتماعية فقد ظهرت بدرجة أقل ، ولو أنها من المفروض أن تقوم على الشهرة العلمية .

وقد احتلت عوامل الدفاع الخاصة بالتطبيقات العملية للعلم ، والمسئولية الاجتماعية درجة منخفضة . وربما يكون السبب فى هذا أن العينة تمثـل باحثين فى الجامعات يولون اهتمامهم « للبحوث الأساسية » ، ولكن من المعقول ان نفترض أن الجانب التطبيقى يحتل مكانا « هامشيا » أثناء عملية البحث ، وتبدأ أهميته فى الظهور فى مرحلة استخلاص النتائج ، وكتابة التقرير .

أما **المكاسب المادية** فقـد احتلت بدورها ـ كعامل دافع ـ اهتماما أقل بين الباحثين . وقد ترجع ضآلة الدور الذى تلعبه الدوافع المالية فى البحث الى اعطاء استجابات يغلب عليها التأثر بالمثاليات الاجتمـاعية . ومن المعقول أن نفترض أن العوامل المادية تكتسب أهميتها « الدافعية » لدى العلماء المبدعين الى الحد الذى ترضى فيه احتياجاتهم الأساسية للبحث ، أما ما عدا ذلك فان النقود لا تلعب دورا مهما . وفضلا عن هذا فان العلماء بسبب انشغالهم واهتمامهم بمشاكلهم العلمية ، يحتاجون الى ادخار طاقتهم العقلية لجوانب أولى بالاهتمام . ولهذا تحتل الأمور المادية لديهم مكانا ثانويا بحق . وقد تأيدت هذه النتيجة بنتـائج البحوث الأخرى التى اهتمت بالمخترعين ، والمبتكرين فى مجال الصناعة . وهناك دليل آخر على ضآلة أهمية العوامل المادية تمثل فى عزوف أشـخاصنا الباحثين عن المكافآت المـادية ، أو الرغبة فى الاستشهاد بهم والرجوع اليهم ، وغير ذلك من رموز الهيبة الاجتماعية ذات التأثير الدافع . فمن الصعب حقيقة أن نتصور عالما مبدعا ، أو فنانا يجلس على مكتبه بينما يدور فى خلده ما يأتى :

« أننى أود أن تزداد ألفتى بهذا الموضوع (وليكن مثلا أشعة اكس) »
« لأنه من الموضوعات الثرية المشحونة بالامكانيات الجديدة . فاذا تم »
« لى ذلك ، فسيكون من نصيبى أن أحصل على جائزة نوبل ، وأن يرجع »
« الباحثون الى مؤلفاتى ، وأن تطبق شهرتى الآفاق »

وبهذا الصدد نشير الى ما كتبه « زاكرمان » عام ١٩٦٦ عن التأثير المحيط فى السلوك الابداعى الذى تتسبب فيه الجوائز العلمية كجائزة نوبل وغيرها ، وقد أثبت

أن الانتاج الابداعى يتضاءل بعد الحصول على تلك الجائزة بين العلماء الذين حصلوا عليها .

صلة الدافع بالعملية الابداعية :

يمكن أيضا دراسة الدوافع التى أشرنا اليها منذ قليل من حيث صلتها ودورها فى العملية الابداعية . فاذا عرفنا أطوار العملية الابداعية السابقة ، واذا راعينا ان العملية الابداعية تمتد بالساعات ، أو الأيام ، أو الشهور أو حتى السنين ، نستطيع اذا عرفنا ذلك أن نقدر الدورالحيوى الذى تلعبه العوامل الدافعة فى عملية البحث لدى العالم . فالطور التمهيدى فى العملية الابداعية يؤدى مثلا من خلال الدافع لالقاء الأسئلة الى ازدياد الاهتمام بالمشكلة . أما فى الطور الثانى ، فان العالم عندما يكثف جهده وينعزل عن بيئته ؛ يبدى بفضل ذلك مزيدا من الاهتمام والنشاط فى الجزء الذى يتعلق به . فاذا أمكن التغلب على الاحباطات والمصاعب التى تواجهه ، بسبب غياب الحل ، فان اهتمامه ، وانشغاله الشديد هذا سيضمن لنا بانه لن يترك المشكلة وهى فى مرحلة عدم النضوج ، ولكنه سيثابر فى محاولاته لتحقيق الحل . أما فى الطور **الثالث** من العملية الابداعية (مرحلة هبوط النشاط) فان العودة للمشكلة بين الفينة والأخرى يصحبها تقدم فى العمليات السابقة على الشعور . ولا تحدث تلك المعالجة السابقة على الشعور بالحل الا اذا كانت هناك زيادة فى الطاقة ، وفى التوحد بالعمل . وتلعب العوامل الدافعة خلال هذه الفترة دورا هاما لا شك فيه ، غير أن ديناميات هذا الدور لا يزال يحوطها الغموض . ومع ذلك ، فان من الجدير بالملاحظة أن نؤكد هنا على دور تلك العوامل فى ترسيخ وتنشيط اهتمام العالم بالمشكلة .

وبفضل الحاجة الى حب الاستطلاع ، والاستثارة العقلية ينتقل العالم الى عملية شاقة تتمثل فى مرحلة اثراء العمل . وتعتبر تلك الفترة « الحامية » التى تتلو فترة الالهام « أو بزوغ الفكرة » هى فترة « جهاد » فى المكان الأول . أما الشعور المفاجىء بالجذل والجلال (وهو شعور يراه البعض قريبا من الشعور الدينى) عند الوصول الى حل مقنع ، ومشبع من الناحية الجمالية ؛ هذا الشعور يعتبر فى حقيقته عاملا دافعا كما تبين دراستنا فى موضوع اللحظات الحرجة . فالاحباطات وخيبات الأمل السابقة على بزوغ الفكرة تختفى ، بظهور السرور الذى تبعثه ولادة الفكرة والذى يدفع الى استمرار الاهتمام ، وتعميقه حتى يسهل تحقيقه .

الخلاصــة :

تتكون الغالبية العظمى من معرفتنا بالنشاط الفردى فى عملية البحث من خلال الخبرات الشخصية ، والحكايات التى ترد فى السير الشخصية للعلماء · وتعتبر تلك المعلومات ذات فائدة ضخمة لصياغة عدد كبير من الفروض للبحث فى مجــال « سيكلوجية العلم » ، والمجالات المرتبطة به · غير أنه يجب معالجة البيانات ــ فى شكلها الأصلى ــ بحــذر كبير ، خاصة عند اشــتقاق أى تعميمات علمية · وتعتبر المناقشات التى عرض لها هذا المقال ، والتى قامت على بحوث واقعية منظمة مســاهمة فى بناء هذا الميدان الجديد نسبيا · ولكن حاجتنا الى بحــوث عملية أعمق لا تزال قوية ، قبل اقامة معرفة أساسية ، وتفصيلية بعملية البحث ككل وبالمجالات الثلاثة التى عرضنا لها وهى : اللحظات الحرجة ، والعملية الابداعية ، ودافع البحث .

صحيح أن نتائج بحوثنا لم تقم على علماء مبدعين ، مشهورين ، أو كبــار ، وصحيح أن الجماعات ــ التى قمنا ببحوثنا عليها ــ كانت من جمــاعات الباحثين العاديين ممن تمرسوا بالبحث العلمى ، ومن حملة الدكتوراه ، أو المسجلين لها · غير أن النتائج قد أكدت بمقارنتها بالتقارير الخاصة الواردة فى الســير الذاتية لكبــار العلماء أن هناك وجوها مختلفة للشبه تمثلت فى أهمية الدور الذى يلعبه الاتصال غير الرسمى وفى وجود فترة من الانهباط تسبق بزوغ الفكرة الجديدة ، فهذه العوامل يمكن تعميم فاعليتها بالنسبة لكبار العلماء أيضا ·

ويبدو ــ بحسب نتائجنا ــ أن هناك تشــابها كبيرا بين العلماء بتخصصاتهم المختلفة فيما يتعلق باللحظات الايجابية التى تؤثر فى عملية البحث لديهم . وقد أكدت النتائج أيضا ضمن ما أكدت أهمية المرحلة التمهيدية فى عملية البحث بمــا فيها تحديد المشكلة واختيارها، والآثار السلبية لعامل الوقت على عملية البحث. ويبدو لنا أن دراسة اللحظات الحرجة منهج ثرى ، لبحث مختلف العوامل المؤثرة فى عملية البحث عامة وفى مختلف الميادين .

هناك أيضا قدر لا بأس به من المعلومات الشــائقة عن الدافع للبحث أمكن استنتاجه من الدراسات الحالية · فالاستثارة العقلية ، والحاجة للجدة ــ وهما من أهم الدوافع التى كشفت عنها بحوثنا ــ يمكن النظر اليهما على انهما مفاهيم واســعة لوصف جانب واحد من الموقف « الدافعى » المعقد للبحث . وينبغى أن يتجه البحث

فى المستقبل نحو مزيد من القاء الضوء على أهمية تلك الدوافع ، وبنائها ، وظهورها، فضلا عن دورها فى العملية الابداعية والاعمال العلمية · ويبدو لنا أن الطور التمهيدى ، والطور السابق على بزوغ الفكرة فى العملية الابداعية من أكثر الجوانب أهمية فى الابداع من وجهة النظر الدافعة والمعرفية ·

غير أن **المشكلات المنهجية** ذات تأثير معقد سواء فى مستوى دراسة العملية الابداعية ، أو عملية البحث بشكل عام · فمن الصعب مثلا على أى فرد أن يصف بدقة ، أو أن يعيد بناء سلسلة الاحداث التى تسبق معرفة الفكرة ، أو اللحظات الحرجة التى حدثت فى فترة سابقة ، أو قريبة · ولعل أفضل حل — فى الحدود الراهنة للمعرفة — لتلك المشكلات المنهجية أن نستخدم مختلف المناهج الصالحة لهذا الغرض ومنها الأساليب التجريبية ، وأساليب التحليل النفسى ، وتحليل السير الذاتية ، والذكريات ، والقيام بالاستبارات الطولية والعرضية · فمن شأن المقارنة بين النتائج المستخلصة من تلك الأساليب والمناهج المختلفة أن لا تساعد فحسب على زيادة حصيلتنا من المعرفة الواقعية فحسب ، بل انها ستكون أيضا ذات أثر فعال فى صياغة نظرية ملائمة ·

المؤتمرات الدولية القادمة

١٩٧٤

ـ أوربا : اتحاد المربين الدولى للسلام العالمى : أول مؤتمر عالمى
IAEWP. International Secretariat, Huntsville, Alabama, 35762 (United States).

ـ بوخارست : الاتحاد العالمى لدراسات جنوب شرقى أوربا : المؤتمر الثالث ـ
International Association of South-East
European Studies : Third Congress.
IASEES, 9, Rue I.C. Frimu, Bucharest (Rumania).

ـ ريودى جانيرو : الاتحاد الفدرالى الدولى لجمعيات الاخصاب : المؤتمر العالمى الثامن للاخصاب والعقم .
Dr. G.T.M. Swyer, Secretary-General, IFFS, University College Hospital,
London, W.C.1 (United Kingdom).

٣ ـ ٧ مارس : جمعية علم السموم : الاجتماع العلمى السنوى.
وشنطون
Society of Toxicology : Annual Scientific Meeting.
Dr. R.A. Scala, SOT, c/o Med. Div. Esso R and Co., Linden,
N.J. 07036 (United States).

١٨ ـ ٢٤ أبريل : اتحاد السكان الامريكى : الاجتماع السنوى
نيو يورك
Population Association of America : Annual Meeting,
PAA, Bo 14182 Benjamin Franklin Station,
Washington, D.C. 20044 (United States).

٥ ـ ٢٧ يونيه : منظمة العمل الدولية : المؤتمر الدولى للعمل ، الدورة التاسعة والخمسون .
جنيف
International Labour Organisation : International Labour Conference,
Fifty-ninth Session.
ILO, 1211 Geneva 22 (Switzerland).

يوليه : الاتحاد الدولى للرفاهية الاجتماعية : ؤتمر الدولى السابع
ـيروبى
International Council on Social Welfare :
Seventh International Conference.
ICSW, 345 East 46th Street, New York, N.Y., 1007 (United States).

٢٨ يوليه : الاتحاد الدولى لعلم النفس التطبيقى : اجتماع
الى ٢ أغسطس ـ
مونتريال
International Association of Applied Psychology :
Meeting. Mr. G. Deautels, 195 Bloomfield, Outremont, Montreal (Canada).

أغسطس : الاتحاد الدولى للتاريخ الاقتصادى : المؤتمر السادس .
كوبنهاجن
International Economic History Association : Sixth Congress.
Professor Dr. J.F. Berigier, Rindermark 6, 8001, Zurich (Switzerland).

١٨ ـ ٢٤ أغسطس : الاتحاد الدولى لعلم الاجتماع : المؤتمر العالمى الثامن لعلم الاجتماع (الموضوع : علم الاجتماع والثورة فى مجتمعات اليوم)
تورنتو
International Sociological Association : Eighth World Congress of Sociology
(Theme : Sociology and Revolution in today's societies.
IS, Via Daverio 7, 20122 Milan (Italy).

١٩ — ٣٠ أغسطس : ادارة الشئون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للامم المتحدة : المؤتمر العالمى الثالث للسكان .

نيويورك

United Nations Department of Economic and Social Affairs :
Third World Population Conference.
United Nations, New York, N.Y. 10017 (United States).

٢٦ — ٢٩ أغسطس : الاتحاد الدولى لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوى .

مونتريال

American Sociological Association : Annual Meeting
ASA, 1001 Connecticut Avenue, N.W., Washington D.C. 20036 (United States).

سبتمبر : الجمعية الاقتصادية : المؤتمر العالمى الثالث .

الولايات المتحدة

Economic Society : Third World Congress
P.O. Bo 1264, Yale Station, New Haven, Connecticut 06520 (United States).

١ — ٧ سبتمبر : معهد أثينا للانسان : المؤتمر الدولى السادس للطب النفسى الاجتماعى .

أثينا

The Athenian Institute of Anthropes : Sixth International Congress
of Social Psychiatry.
The Congress Secretariat, The Athenian Institute of Anthropos,
8, Demetriou Douydou St., Athens-602 (Greece).

١٩٧٥

المجلس الدولى للرفاهية الاجتماعية : حلقة دراسية اقليمية عن آسيا وغربى المحيط الهادى .

هنج كنج

International Council on Social Welfare : Regional Asian and Western
Pacific Seminar
Miss Shirley Lian, Hong Kong Committee ICSW, Ann Black Red
Cross Building Harcourt Rd., P.O. Bo 474 (Hong Kong).

١٨ — ٣٠ أغسطس : اتحاد الباسفيكى للعلوم : مؤتمر الباسفيكى الثالث عشر للعلوم : (الموضوع : مستقبل الانسان فى الباسفيكى) .

فانكوفر

Pacific Science Association : Thirteenth Pacific Science Congress
(Theme : Mankind's Future in Pacific)
University of British Columbia, Vancouver 8 (Canada).

٢٥ — ٢٨ أغسطس : الاتحاد الامريكى لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوى .

سان فرنسسكو

ASA, 1001 Connecticut Avenue, N.W.,
Washington, D.C. 20036 (United States).

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسى : مؤتمر .

الولايات المتحدة

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven,
Connecticut, 06520 (United States).

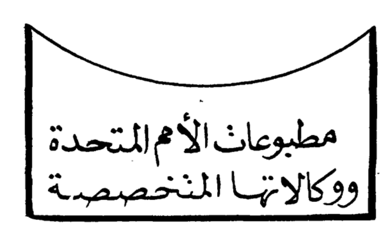
١٩٧٦ :

— فرنسا : الاتحاد الدولى لعلم النفس : المؤتمر : المؤتمر الحادى والعشرون

International Union of Psychological Science :
Twenty-first International Congress.
Professor E. Jacobson, Secretary-General,
Department of Psychology, Michigan State University,
East Lansing, Michigan (United States).

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسى : مؤتمر .

Econometric Society : Conference
P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven,
Connecticut 06520 (United States).



السكان ، والصحة ، والطعام ، والبيئة :

السكان :

تقرير عن قياس الاخصاب ، ومصادر البيانات . معالم الاتجاهات العامة بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٦٥ وفقا للاقاليم : أوربا ، وأمريكا الشمالية ، والأوقيانوسية ، والاتحاد السوفيتى ، وأمريكا الوسطى ، وأمريكا اللاتينية ، وآسيا ، وافريقيا

(UN/ST/SOA/SER. A/52)

تقرير عن مؤتمر السكان العالمى سنة ١٩٧٤ ، خطط وتنظيمات المؤتمر : الوثائق والتقارير التى تعدها مختلف الدول عن اتجاهات السكان ، والنتائج غير المباشرة للتنمية .

(UN/E/CN. 9/265)

تقرير عن عام السكان العالمى ١٩٧٤ : الاجراءات التى تتخذها السلطات المعنية لتعزيز هذا العام السكانى العالمى ، والتقدم الذى حققه الاعداد للبرنامج .

(UN/E/CN. 9/266 and Add. 1)

تقرير المجموعة الاستشارية الخاصة من الخبراء عن السياسة السكانية ، والبحث الذى تقوم به الامم المتحدة وبرنامج التعاون الفنى فى هذا المجال .

(UN/E/CN. 9/267)

تقرير لجنة السكان التابعة للمجلس الاقتصادى الاجتماعى فيما يتعلق باستراتيجية العقد الثانى للتنمية للامم المتحدة ، وهدف الاستراتيجية العالمية للسكان والتنسيق بينها وبين غيرها من الاستراتيجيات السكانية .

(UN/E/CN. 9/268)

اللجنة التحضيرية للمؤتمر السكانى العالمى لسنة ١٩٧٤ : تقرير عن دورة الانعقاد الثالثة

(UN/E/CONF/ PC/3)

تقرير عن الدورة الاولى لمؤتمر علماء احصاء السكان الافريقيين ، يعالج مسألة السكان فى افريقية والبيانات الخاصة بالسكان وتحليلها ، والقوة البشرية والعمالة والنتائج غير المباشرة على التنمية الاقتصادية والاجتماعية أو العكس : البرنامج السكانى الافريقى . تقرير عن أنشطة الاحصاء السكانى للجنة الاقتصادية الخاصة بأفريقيا .

(UN/E/CN. 14/553)

تقرير عن مؤتمر أكرا الافريقى عن توقعات الاحصاء السكانى فى افريقيا : الحجم ، والتكوين ، والسمات الاجتماعية الاقتصادية للسكان ، والاخصاب ومعدل الوفيات ، والتوزيع الجغرافى للسكان ، والهجرات الداخلية وعملية التموين ، وتطبيق الاحصاء السكانى على تخطيط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

(UN/E/CN. 14/562)

تقرير عن الاجتماع الثانى لمنظمات الدول خارج نطاق الامم المتحدة المهتمة بالعمل الاحصائى فى افريقيا ، وأنشطة مختلف المنظمات التى تؤثر فى السكان ، انواع مشروعات البحث ، وبرنامج الاحصاء الافريقى والمسح العالمى للاخصاب .

(UN/E/CN. 14/564)

دراسة اقليمية مقارنة لرموز الانماط الخاصة بالتموين على أساس الجنس والسن مع تحليل مقارن لهذه الانماط فى دول مختلفة فى العام نفسه (١٩٦٠) وفى جميع القارات

(UN/E/CN. 14/POP/65)

توزيع السكان فى افريقيا ، وعرض لسياسات الحكومات التى تؤثر فى توزيع السكان .

(UN/E/CN. 14/POP/68)

التمدين فى افريقيا : المستويات ، الاتجاهات والتوقعات . قصور البيانات ، مقارنة بين التمدين فى افريقيا وفى غيرها من أقاليم العالم . الموقف فى مختلف الدول الافريقية .

(UN/E/CN. 14/POP/67)

المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للتمدين فى افريقيا : نمو سكان المدن ، تصور التمدين السكانى بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٠ ، والتنسيق بين التمدين والاتجاهات فى التعليم والعمالة والصحة والاسكان

(UN/E/CN. 14/POP/69)

حلقات دراسية :

اللجنة الاقتصادية لامريكا اللاتينية : الحلقة الاولى عن اعداد واستخدام الجداول الاحصائية الخاصة بالاسكان . والحلقة الثانية خاصة بجداول احصاء السكان . الثالثة توضيحية لتحليلات الجداول الاحصائية . وتتعلق هذه الجداول بالاخصاب ، ومعدل الوفيات ، والهجرات ، والتوزيع الجغرافى ، والتعليم ، والاقتصاد والاسرة (من ١٤ ـ ١٩ أغسطس ١٩٧٢) .

(UN/ST/ECLA/CONF. 43/L.6.)

الصحة :

تقرير عن الطب النفسى للشيخوخة : حجم المشكلة علم الأوبئة الخاص بالاضطرابات العقلية عند المسنين ، بحث فى العلم النفسى للشيخوخة (WHO منظمة الصحة العالمية ـ ١٩٧٢).

مجموعة تقارير فنية عن التعليم والتدريب للتخطيط الأسرى فى الخدمات الصحية . منظمة الصحة العالمية ١٩٧٢ . مؤسسات التعليم والتدريب المهنى . اعداد وتنفيذ برامج تعليمية وتدريبية لتدريب مجموعة موظفى الخدمات الصحية . تقويم التعليم والتدريب المتاحين .

الفحوص الصحية الجماعية ، مقالات الصحة العامة (منظمة الصحة العالمية ١٩٧٢) .

المشكلة وصحة الاختبارات المستعملة ، الاعتبارات القانونية والاخلاقية ، عمليات مسح ومراقبة . الحالات الوبائية . توقعات المستقبل .

تقرير عن الاحصاءات العالمية للصحة (منظمة الصحة العالمية)

اجزاء من الملخصات المستمرة للاحصاءات الخاصة بأثر مختلف الامراض فى جميع أنحاء العالم ، بالاضافة الى الجداول الاساسية ، ويضم كل جزء دراسة خاصة مثل الاحصاءات الخاصة بالمستشفيات واحصاءات الحوادث .

الطعام :

حالة الطعام والزراعة (منظمة الطعام والزراعة FAO — ١٩٧٢) .

البيئة :

تقرير عن مؤتمر الامم المتحدة عن البيئة البشرية . يضم قائمة بالمقالات التى تؤلف وثائق المؤتمر، والتقارير القومية والدراسات وغيرها من المقالات التفسيرية التى وصلت الى سكرتارية المؤتمر من الدول المدعوة ومنظمات الامم المتحدة والمؤسسات الأخرى

(UN/A/CONF. 48/14)

تقرير مؤتمر الامم المتحدة عن البيئة البشرية (استكهلم من ٥ — ١٦ يونية) ، يتضمن خلفية واجراءات المؤتمر ، والقرارات ، وبيان عن البيئة البشرية ، وخطة العمل من أجل هذه البيئة .

(UN/A/CONF. 48/14)

التعاون الدولى للسيطرة على التلوث والطرق التطبيقية ، فبراير سنة ١٩٧٢

(تقارير عن البحوث رقم ٩ معهد الامم للتدريب والبحوث) . UNITAR

الاقتصاديات :

الاحصاءات وطرق الاحصاء

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن تنسيق البرامج الاحصائية الدولية وتكاملها . احصاءات الدول النامية فيما يتصل بالعقد الثانى فى التنمية للامم المتحدة . برنامج العمل والاولويات . يولية سنة ١٩٧٢ .

(UN/E/CN. 3/420

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن احصاءات الاسعار والكميات ، والحسابات الوطنية فى الاسعار الثابتة . أهداف ومدى وتركيب النظام الذى يقترحه المؤلفون فى الوثيقة بتحديد وتصنيف مجموعة الفهارس التى ستضمها . الصيغة المستخدمة فى تصنيف الجداول . أغسطس سنة ١٩٧٢ .

(UN/E/CN.3/427

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن جمع وتصنيف احصاءات الاسعار والكميات . طبيعة ومميزات المؤشرات الأساسية الملائمة لهذه المجالات . الاجماليات . طرق اختيار وجمع البيانات — استخدام المجموعات — أغسطس سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/428

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

الاحصاءات . يولية سنة ٩١٧٢

(UN/E/CN. 3/430

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن نظام للاحصاء السكانى والقوة البشرية والاحصاءات الاجتماعية واحصاءات الهجرة .

فصل قصير عن اتجاه احصاءات القوة البشرية . موجز عن المعايير الدولية ، تحليل للمطالب الجديدة فى احصاءات القوة البشرية ، التوسع المطلوب فى مثل هذه الاحصاءات فى نطاق الاحصاءات الاجتماعية . يونية سنة ٩١٧٢

(UN/E/CN. 3/433

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن الحاجة الى الاحصاءات المتعلقة بالهجرات الدولية . توجيه لتنقيح توصيات الامم المتحدة فيما يتعلق بهذه الاحصاءات ، يولية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/434

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

اقتراحات لتحسين احصاءات الهجرة الداخلية ، المشكلات النوعية التى تنطوى عليها اجراءات الهجرة الداخلية مصادر البيانات الخاصة بمثل هذه الهجرات ، مسح ميدانى . سجلات سكانية ـ توجيهات بسحب توصيات الامم المتحدة ما يتعلق بهذه الاحصاءات . يولية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/435

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقارير عن أنشطة احصاءات التنمية وقطاع التنسيق . فرع المال والاسعار ، قطاع المشروعات الخاصة . قطاع الاحصاءات الصناعية . مركز الاحصاءات التجارية . فرع الاحصاءات السكانية والاجتماعية . قطاع نفقات المعيشة .

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن برنامج العمل والاولويات . نشرات احصائية ، جمع البيانات والمعاملة الشرعية السارية المفعول ونوع الاحصاءات المنشورة والازدواج ، يولية سنة ١٩٧٢

(UN/E/CN. 3/439

لجنة المجلس الاقتصادى والاجتماعى للاحصاء :

تقرير عن الاحصاءات الخاصة بالدول النامية فى العقد الثانى من التنمية للامم المتحدة ، الاحصاءات المطلوبة والطرق وأولويات الجمع : المؤشرات المطلوبة لتقويم التقدم الذى حدثه بأن العقد الثانى للتنمية لتحقيق الاهداف المقررة وفقا للإستراتيجية الداخلية ، تقديم توصيات أبعد مدى . ضرورات المساعدة الفنية فى هذا المجال : سبتمبر سنة ١٩٧٢

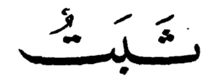
(UN/E/CN. 3/423

الكتاب السنوى للاحصاءات الحسابية الاهلية : جزءان ، يحتوى الاول على بيانات الدولة ، والثانى على جداول دولية ، وهى تتعلق بعشرين دولة واقليمها، وتتضمن المقدمة وصفا لطريقة الحسابات والتعريف بها : ١٩٧٢ (الامم المتحدة) .

تقرير المجموعة العاملة التابعة للجنة الاقتصادية لافريقيا ، عن احصاءات القطاع المنزلى :

مصادر وطرق تقدير البيانات الخاصة بالدخل والاستهلاك والتكديس فى القطاع المنزلى : مصادر المعلومات الاساسية المتاحة لتقدير وتوزيع الدخل والاستهلاك والتكديس . عينات من عمليات المسح المنزلى افسطس سنة ١٩٧٢

(UN/CN. 14/NAC/52).



المقال		العدد وتاريخه
• أ٠ب٠ الكين	A.P. Elkin	المجلد الخامس عشر
• شلزو فيرتادو	Celso Furtado	العدد : الأول
• أتو كلاينبرج	Otto Klineberg	والثانى ١٩٧٣
• رينيه كونيج	René König	
• أ٠ر٠ لوريا	A.R. Luria	
• ت٠هـ٠ مارشال	T.H. Marshall	
• على ٠أ٠ مازروى	Ali A. Marui	
• ويلبرت ٠أ٠ مور	Wilbert E. Moore	
• م٠ن٠ سرينيفاس	M.N. Srinivas	
• جان شزبانسكى	Jan Szczepanski	
• جون فايزى	John Voizey	
• مجلة ترانساكشان بقلم : ارفنج لويس هوروفتس	Transaction magazine by Irving Louis Horowitz	
• اللحظات الحرجة فى العملية الابداعية والدافع للبحث بقلم : س٠م٠ ماينى و ب٠ نوردبيك	Critical moments, the creative process and research motivation by S.M. Maini and B. Nordbeck	

مطابع الهيئة المصرية العـامة للكتاب

رقم الايـداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٧٣

مركز مطبوعات اليونسكو
ومجلة رسالة اليونسكو

يقدم مجموعة من المجلات الدولية بأقلام كتاب متخصصين وأساتذة دارسين .
ويقوم باختيارها ونقلها إلى العربية نخبة متخصصة من الأساتذة العرب ، لتصبح إضافة إلى المكتبة العربية تساهم في إثراء الفكر العربي ، وتمكينه من ملاحقة البحث في قضايا العصر .

مجلة رسالة اليونسكو
تصدر شهريا

المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية
مستقبل التربية
يناير / أبريل / يوليو / أكتوبر

مجلة اليونسكو للمكتبات
مجلة (ديوچين)
فبراير / مايو / أغسطس / نوفمبر

العلم والمجتمع
مارس / يونيو / سبتمبر / ديسمبر

مجموعة من المجلات تصدرها هيئة اليونسكو بلغاتها الدولية ، وتصدر طبعاتها العربية بالاتفاق مع الشعبة القومية لليونسكو ، وبمعاونة الشعب القومية العربية ، ووزارة الثقافة والإعلام بجمهورية مصر العربية .

الثمن ٢٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجلة الدّولية للعلوم الاجتماعية

خطط التنمية في العالم بين مجموعة من الضرورات والمحاذير

العدد السادس عشر - السنة الرابعة
يوليو / سبتمبر ١٩٧٤

تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو



العدد السادس عشر
السنة الرابعة
٥ جمادى الآخرة ١٣٩٤
٥ يوليو ١٩٧٤
٥ تموز ١٩٧٤

تصدر من مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو
١ شارع طلعت حرب
بميدان التحرير بالقاهرة
تليفون : ٢٢٤٠٢

محتويات العدد

مفكرو هذا العصر

ان الذى يشغل المفكرين فى العالم اليوم شىء يختلف تماما عما كان يشغل مفكرى العصور السابقة .

ان التناقض بين رأس المال وحقوق العمال ، على أثـر الثـورة الصناعية ، قد قضى بظهور مجموعة من المفكرين يحاولون أن يجدوا حلا لهذا التناقض .

وشهدت عصور سابقة مناقشات حول هذا التناقض ، ومحاولات الوصول الى حلول . واذا كانت الماركسية قد كانت أظهر ماتفتقت عنـه فلسفة تلك العصور فذلك لأنها قد حملت مارآه مفكرو ذلك العصر اسلم الحلول لحسم الصدام بين رؤوس الاموال والطبقة العاملة .

لكن تلت ذلك العصر عصور أخـرى ، شـهدت ألوانا من الصراع جديدة . بل ربما جاءت ألوان الصراع الجديدة هذه نتيجة طبيعية لما اسفرت عنه الحلول الماركسـية من أشكال جـديدة فى طبيعة القـوى العاملة .

لقد سيطرت القوى العاملة على مصادر الانتاج بصورة أو باخرى . وشهد العصر الماضى صيغا مختلفة لتحديد سلطة رأس المال أو تصفيتها لحساب الطبقة العاملة . وادى هذا الى تغير النظرة الى السلطة ، التى تحد من مسيرة الشعوب نحو غاياتها .

والتيارات الفكرية ، كالثورات ، كالامراض ، كالمودات ، عمليات سريعة العدوى ، وسريعة الانتقال من مكان الى مكان .

وهى فى انتقالها الزمنى أو المكانى قد تاخذ صورة مغايرة ، لكنها — مع هذا — تتفق مع الطبيعة الأصيلة فيها ، وهى التحرر من القهر أو التحكم ، بمختلف صوره واشكاله .

ولقد سرت عقب هذا العهد ، فى بقاع مختلفة من العالم ، تيـارات

ومجموعة من المتناقضات

اخرى ، تعكس صراعا بين أنواع أخرى من القوى . وأخذ الصراع هـذه المره شكل التحرر من الاحتلال الأجنبى ، والتخلص من قهر الاستعمار ، الذى كان قد توهم أنه استقر على الارض التى يحتلها ، حتى لقد أخـذ يحاول تغيير الخريطة الجغرافية للعالم بضم المستعمرات الى أرضه ، بصرف النظـر عن الحـدود والموانع والبعد المكانى ، واختلاف الطبيعة والأجناس واللغات والأديان والمصالح .

وشهد مطلع هذا القرن مجموعة من ثورات التحرر من الاستعمار، والمطالبة بجلاء جنود الاحتلال عن الأراضى التى تحتلها بقوة السلاح .

ورأينا تناقضا جديدا ، أخذ شكل الصدام الدامى بين قوى الاحتلال والقوى الوطنية الثائرة عليه .

وكان من الطبيعى أن يكون لهذه الثورات صـدى مختلف الوقع ، فبينما تشوهها الدوائر الاستعمارية ، وتتهمها بالتمرد وانكار الجميل ، كانت الطبقة العاملة التى سيطرت على مصادر الانتاج تتحمس لها وتؤيدها وتطالب بالاستجابة لها ، وتحقيق مطالبها فى التحرر والاستقلال .

وبرغم أن بعض ثورات التحرر قد نشأت من قاعدة رأسـمالية ، وبرغم أن الذين قادوا بعضها قد كانوا من طبقات اقطاعية ، فان ذلك لم يمنع الطبقات العاملة من تبنى قضاياها ، والانتصار لمطالبها .

ولسنا هنا نريد تحليل الأسباب التى كانت تربط بين هذه التيارات، لكننا نكتفى بأن نرصد الظاهرة ، حتى لاندخل فى تفصيلات متشعبة كثيرة، فى تفسيرها .

والذى لاشك فيه أن قوى التحرر قد سجلت انتصارات هائلة خلال هذا القرن ، وأن الثورات الوطنية قد نجحت فى تطهير الأرض من محتليها، واجلاء قوات الاحتلال ، بالنضال المسـلح ، أو بالثـورة الوطنية ، أو باستسلام الاستعمار نفسه لمنطق العصر الجديد .

المهم أن ألوان التناقض السياسى أو الاجتماعى قد كانت شاغل المفكرين من رجال العصور السابقة . وكان همهم الاول هو أن يجدوا الصيغة المناسبة لحلول سليمة ، يتفادون بها الصدام بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد ، أو بين القوى الوطنية فى مجتمع ، والرغبة فى السيطرة عليه من مجتمع آخر أكثر تقدما .

واذا كانت هناك سمة مشتركة تجمع هذه التيارات فهى بالقطع مستمدة من عنصر أساسى راسخ فى كيان الانسان نفسه . فالانسان بطبعه حر . بل أن تصور الحياة بغير الحرية – حتى فى النبات والحيوان – تصور عقيم .

وقد تأخذ الحرية الكامنة فى الانسان أشكالا مختلفة فى التعبير عن نفسها ، وقد تختلف هذه الأشكال باختلاف البيئات ، أو باختلاف الأزمان ، أو باختلاف الظروف ، لكنها فى النهاية لابد أن تجد صيغة ما من صيغ التعبير عن نفسها .

ان تحكم رأس المال قد أدى الى ظهور مذاهب تدعو لتحرير القوى العاملة من هذا التحكم .

ويأخذ التحرير أشكالا شتى ، ويمضى الى غايته بنسب تتفاوت ، لكنها جميعا تتلاقى عند تعبير الانسان عن حريته ومطالبته بضمانات تكفلها له .

كذلك قد أدى تحكم قوى خارجية فى مجتمع ، عن طريق احتلال اراضيه بالقوة ، الى الثورة . وأخذت الثورات الوطنية فى أحيان كثيرة ، ولاتزال تأخذ شكل العنف المسلح والصدام الباسل ، انتزاعا لحق الانسان فى الحرية .

وانتهى الأمر فى الأغلب الى تحقيق ارادة الانسان فى التحرير ، حتى ليمكن أن نرى فى بقايا المستعمرات مجرد ثغرات ، فى سبيلها الى أن تصفى .

لكن هل انتهى الصراع ؟ وهل وقف عند هذا الحد ؟ .

الحقيقة : لا .

ان الانسان قد استغل الحريات التى انتزعها لنفسه ، فى سبيل تحقيق أكبر قدر من التقدم .

فى المجتمعات التى تسود فيها الطبقة العاملة ، وتأخذ بمبدأ الاقتصاد الموجه ، حاولت الطبقة العاملة أن تحقق التقدم ، دفاعا عن نفسها ، على الأقل ، ضد مجتمعات أخرى .

وفى المجتمعات التى تاخـذ بمبدأ الاقتصـاد الحـر مضت النظم تستخدم أحدث أنواع المبتكرات والتكنولوجيا الحديثة ، فى محاولة دائبة لتحقيق مجتمع الرخـاء ، دفاعا عن نفسـها كذلك ضـد المـذاهب الجديدة .

ومن خلال هذه المنافسة الشديدة وصل العالم الى نوع آخر من التناقض ، صار يقض مضاجع المفكرين فيه .

والتناقض هذه المرة هو من صنع الانسان نفسه . وكما أن الحاجة عبء على أصحابها فقد صار الرخاء كذلك عبئا على أصحابه .

وصل التقدم بالانسان الى تلويث البيئة التى يشغلها ، وافسـاد الجو والأرض ، وتسميم مصدر الحياة وهـو الماء بمخلفات التكنولوجيا الحديثة .

ووجد الانسان نفسه فى مجتمعات الرخاء أمام أحد اختبارين ، كلاهما صعب : اما أن يضحى الرخاء ، ويعود الى الحياة البسيطة ، على مافيها من شظف ، أو يضحى البيئة فى سبيل المضى فى تيار التقدم .

لكن الضرورة قد صارت تحتم على الانسان أن يراجع موقفه على كل حال .

هل هذا هو التناقض الوحيد ؟

ان هنـاك تناقضـا أخطر ، فبينما المتقدمون يزدادون تقـدما ، ويندفعون الى مايمكن أن يسمى بعالم المخزون السلعى الفائض عن حاجة الاستهلاك، نجد أن الجزء المتخلف من العالم عاجز عن اللحاق بهذا التقدم وعاجز فى الوقت نفسه عن استيراد حاجاته من المخزون السلعى فى الجزء الآخر من العالم ، لأنه يفتقد القدرة على دفع ثمن مايحتاج اليه .

والعالم كله مع هذا يزداد اكتظاظا بالسكان ، وبملايين وفيرة تطلب ان تاكل وأن تلبس وأن تعيش .

ومع زيادة السكان تشح موارد الغذاء ، حتى لقد أصبحنا نخشى شبح الجوع على أبناء عصرنا .

وخريطة العالم مع هذا مختلة .

أماكن فاضت فيها الثورة ، حتى لم تعد تجد طريقا لاستهلاك ماينتج عنها .

وأماكن فاضت فيها أعداد البشر ، حتى لم تعد تجد القوت .

ومصادر للطاقة فى بقاع خاوية خالية الا من هذه المصادر ، تتناثر

فيها أعداد من الناس ، لايكادون يكونون مدينة واحدة من المدن العظمى .
ومع هذا فان هذه البقاع لاتعتبر مناطق استهلاك ، لقلة سكانها .

هذه التناقضات تشكل اليوم عبئا على المفكرين فى هذا العصر .

وعندما يتوفر رأس المال ، ولاتتوفر المادة الخام ، يختل الميزان .

وعندما تتوفر المادة الخام ، ولا تتوفر الخبرة فى استغلالها ، يختل الميزان .

وعندما تتوفر القوى العاملة ، مجردة من رأس المال ، ومن التكنولوجيا العصرية ، يختل الميزان كذلك .

مشاكل الاختلال فى كل مكان .

واختناقات اقتصادية فى كل شبر على هذه الأرض .

حيث التقدم ، البيئة ملوثة .

وحيث البيئة بكر لاتزال ، نجد التخلف ضاربا أطنابه .

ورأس مال بلا خبرة ، وخبرة بلا رأس مال .

ماذا يفعل الناس ؟ كيف يتصرف الانسان امام مجموعة قيود تتحدى حرياته أيضا ، كما كان يتحداها القهر ، فى أى شكل من الأشكال .

وبدأ المفكرون ينشغلون بمصير مجهول مخيف .

هل تؤدى الهوة بين جزءى العالم المتقدم والمتخلف الى تعكير صفو السلام ؟

هل يثور المحتاجون ؟

وعلى من يثورون ؟

ان ثاروا على الكبار فان تطور التسليح ، وأدوات الدمار ، قد صارت تهدد بخراب نووى ، لا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سيؤدى اليه .

وان سكتوا على ما هم فيه فان الهوة تتسع ، حتى ليمكن أن نتصور عهدا جديدا من الاستعمار ، يأخذ فى هذه المرة شكل التفوق العلمى .

اذن كيف يكون الحل أمام عالم التناقضات والاختناقات هذا الذى نعيش فيه ؟

ويكثر الكلام حول التخطيط . ويرتبط التخطيط بالتصنيع . ويرتبط التصنيع بالتكنولوجيا . وترتبط التكنولوجيا بالانفاق الضخم على الابحاث وعلى التطبيق .

ويكثر الكلام عن التزاوج بين الخبرة ورأس المال ، ليتحقق التقدم فى المناطق المتخلفة .

لكن لذلك محاذير يجب أن تكون فى الاعتبار .

وهكذا نجد أنفسنا أمام احتياج الى التقدم ، على أوسع رقعة من رقاع الأرض ، لتسود العدالة ويستقر السلام .

وسيجد مفكرو هذا العصر انهم مطالبون بحل هذه المتناقضات ، قبل أن يصاب العالم بدوار .

ان العزلة لم تعد ممكنة بين أجـزاء العالم بعـد ثـورة وسـائل المواصلات .

لكن الاتصال أيضا محفوف باخطار يجب تداركها قبل أن تؤدى الى متناقضات جديدة .

ولم يعد هناك لأحد القدرة على أن يخطط لنفسه ، فى حدود قدراته وطاقاته وحدها .

واذا كان الكبار قادرين على أن يحموا أنفسهم بقدرتهم على الردع فان الصغار محتاجون الى أن يحموا أنفسهم من الكبار ، عندما يستعينون بخبراتهم فى تطوير مجتمعاتهم .

ولست أدرى كيف يمكن أن تكون هذه الحماية .

هل يصدر ميثاق دولى يضمن أن لاتتجاوز الخبرة حدودها ،وأن لا تتطور لتصبح شكلا جديدا من أشكال الاستعمار ؟

ومن الذى يضمن تنفيذ هذا الميثاق ؟

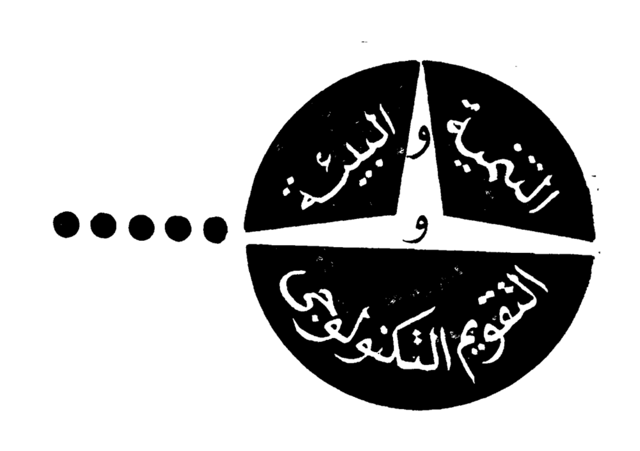
صحيح أن العالم قد تجاوز مرحلة الحساسية المفرطة من هـذا الجانب .

لكن صحيح أيضا أن أطماع السيادة والقدر جزء من طبيعة البشر .

... وعلى كل حال فالموضوع صعب .

لكن حله لن يكون مستحيلا .

عبد المنعم الصاوى



— ١ —

يحسب الانسان أنه مسخر الطبيعة وسيدها . ولكنه فى الواقع ليس سوى ضحية ابتكاراته وأسير اختراعاته . فهو يدمر عن طريق تفنناته و « ابداعاته » . وهو يقتضى المجتمع ثمنا باهظا مقابل بعض منجزاته التكنولوجية المرموقة . وفى حين أنه يعتقد اعتقادا راسخا بأنه يحمى المستقبل ويؤمنه فهو يهدده ويكاد يودى به . ان هذه الملاحظات مألوفة لنا وليست جديدة فى حد ذاتها . وانما الجديد هو الوعى بعدم انعكاسية عمليات معينة : فمع نمو نطاق النشاطات الانسانية نموا مطردا لم تعد تهددنا القلاقل المحلية وحدها . وانما تتهددنا كذلك التوازنات المختلفة التى تؤثر على العالم ككل .

فهل يجب ، اذن ، ايقاف النمو ؟ ان العلاج سيكون أسوأ من المرض . ففى عالم من عدم المساواة الاجتماعية يكون التكلم عن الغاء النمو معادلا للحكم على أغلبية البشرية بفقر ميئوس منه . والواقع ان مساندى هذه النظرية يكتفون بمجرد الكلام عن ضرورة اعطاء كل شخص شطيرة أكثر عدلا من الكعكة . ولكن من يستطيع أن يأخذهم بجدية عندما نتفكر فى عجزنا عن تصحيح التوزيع السىء للدخل ، سواء بين

بقلم : انياسى ساكس ترجمة : الدكتور أنور محمود عبد الواحد

اقتصادى من أصل بولندى . درس فى البرازيل والهند وبولندة . كان مديرا لمركز بحوث الاقتصاديات غير النامية فى وارسو . يعمل مديرا للدراسات فى المدرسة العملية للدراسات العليا فى باريس. كان مستشارا لبعض المنظمات الدولية.

مهندس ميكانيكى . مدير عام مصانع شركة النصر لصناعة المراجل البخارية وأوعية الضغط . حصل على الدكتوراه فى الهندسة الميكانيكية من جامعة الاسكندرية (١٩٥٣) . والدكتوراه فى العلوم التطبيقية من جامعة بروكسل ببلجيكا (١٩٥٥) . ترجم كتاب « مكافحة تلوث البيئة » ، وترجم وراجع العديد من الكتب العلمية والتكنولوجية . ساهم بترجمة عدة مقالات لمجلات مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة .أشرف على تحرير « موسوعة الثقافة العلمية » التى نشرتها مؤسسة الأهرام بالقاهرة . مؤلف « المعجم الهندسى » الذى نشرته دار الشروق بالقاهرة . يشرف على تحرير سلسلة كتب « الأسس التكنولوجية » . وسلسلة « المعاجم التكنولوجية التخصصية » التى تنشرها مؤسسة الأهرام بالقاهرة بالتعاون مع « دار النشر لايبزج » بجمهورية ألمانيا الديموقراطية .

الامم او فى نطاقها ، على مدى ربع قرن من النمو السريع كان من المحقق أن يجعل هذه المهمة أكثر سهولة ؟ وعلاوة على ذلك فان الرؤيا ليست للغد : فالموقف بالنسبة للمصادر الطبيعية التى لا يمكن تجديدها لا يبرر بالتأكيد وجهات النظر المنذرة التى ينادى بها انبياء المصير المحتوم . والأسلوب الجارى للمالتوسيانية ليس هو الأول من نوعه منذ أن كتب مالتوس مؤلفه الشهير ، كما أن الأحداث أثبتت خطأ أساليبها السابقة . ويجب أن نستخلص من ذلك أن الحالة ستظل هكذا دائما ، وأن نلجأ الى نوع من « فلسفة المنطق المتفائل » التى يساندها التحالف المتستر بين المهيمنين على الصناعة والتكنوقراطيين اليساريين . وليس من شك فى أن سفينة الفضاء التى نعيش عليها ، والى اسمها «الأرض»، محدودة الامكانيات ، وانه تبعا لذلك ستصل المنحنيات الأسية للنمو ان عاجلا أو آجلا الى حد محدود . وكل شىء يتوقف على موعد ذلك ، وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن هذا الموعد ليس على اية حال من القرب بحيث يستلزم الدعوة للتوقف على الفور . ومن الناحية الأخرى من المهم أن نوقف كافة الضيعات فى اقرب وقت ممكن ، وأن نتنبه الى الاستعمالات التى نحصل عليها من النمو .

ولا يفيد ادراكنا لامكانيات النمو المحدودة الا فى ابراز الوطأة العاجلة للمشاكل

الاجتماعية ، وضرورة تصحيح الأخطاء التى ارتكبت فى حق دول العالم الثالث ، فحرمتها منذ وقت طويل من مصادرها ، أو أجبرتها على بيعها بثمن بخس ، والحاجة الملحة الى التحكم فى التكنولوجيا واحكام العنان على الأغراض التى تستخدم فيها . وبمعنى آخر يجب أن نركز انتباهنا على الوشائج بين الأساليب الاجتماعية والطبيعية ، بين اقتصاديات المجتمع واقتصاديات الطبيعة ، مؤكدين أهمية الدور الحيوى للتكنولوجيا فى أوسع مفاهيمها . واذا أمكننا أن نعرف الثقافات بمقدرتها على انتاج سلع وخدمات (ل) تناظر الاحتياجات التى تولدها فيمكننا أن نأخذ بالصيغة التقريبية الآتية التى صاغها لسلى أ . هوايت

ق × ت × ب ـ ل

حيث ق = الطاقة ، ت = التكنولوجيا ، ب = البيئة .

ومع ذلك فان هذا لا يحل مشكلة الدور الدقيق للبيئة من ناحية ، وللتنظيم الاجتماعى من الناحية الأخرى ، فهل تؤدى الظروف الطبيعية دورا اجباريا بحيث تقوم بتشكيل الثقافات الفردية ؟ أن الأنثروبولوجيين على حق فى اتفاقهم على نبذ الحتمية الجغرافية العمياء . ولكنهم لا يستطيعون الهرب منها تماما ، حيث أن التناسق القائم بين ثقافة ما وبين خلفيتها الطبيعية الكامنة يصبح معيارا لتقويم الثقافة ، مع أسبقية مؤشرات مثل كمية السلع المتاحة لكل فرد من السكان .

وعلى ذلك فان مجرد الوعى بالمصادر الطبيعية يكتسب بعدا ثقافيا ، وبالتالى تاريخيا ، كما أن المدى الذى تستقدم فيه مصادر جديدة الى داخل النظام الاقتصادى لمجتمع ما انما يشكل نوعا من الحدود المتحركة بينه وبين البيئة . والبيئة تعنى فى الواقع كل شىء يظل خارج النظام الجارى اعتباره ، ولكنها تحدد الى حد ما اداء هذا النظام . واذا حدث أن جاء يوم يحتوى فيه التنظيم الاقتصادى للمجتمع احتواء حقيقيا كل مصادر سفينتنا الفضائية ـ الأرض ـ ويتحكم فى استعمالها ، فان البيئة تكون قد ردت الى حدود الفضاء الخارجى .

ما هى الدوافع والطرق للسيطرة التقدمية على البيئة ؟

هناك رأى يكثر ترديده ، يقرن بين : السكان ، والبيئة ، والتقدم التكنولوجى . ويدلل على أن الضغط السكانى على البيئة هو أساس التجديد التكنولوجى ، الذى يزيل العوامل المقيدة ويمكن من حدوث أسلوب من النمو السكانى التراكمى .

والواقع ان هذه العلاقة تبدو فى ضوء مختلف عن هذا تماما حسب الحالة التى توضع تحت الاعتبار . فلقد ألقى البحث التاريخى الضوء على الفعل المدمر لبعض تجديدات تكنولوجية معينة على البيئة ، مما نتج عنه القضاء على السكان . وكانت هذه هى الحالة ، مثلا ، مع انشاء الطرق والسكك الحديدية على الجسور فى البنغال خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأدى ردم نظام المجارى

الطبيعي الى اجتذاب البعوض الحامل للملاريا ، مع العواقب الواضحة لذلك على السكان المحليين .

وفيما بين هاتين الحالتين القصويين توجد حالات يجب فيها التعرف من جديد فى كل مرة على العلاقات المتداخلة بين : السكان ، والبيئة ، والتكنولوجيا ، والتنظيم الاجتماعى ، على أساس من البحث التاريخى أو الانثروبولوجى . وكل ذلك بعيد تماما عن الفرضية المفرطة التبسيط الواردة فى المسح الذى قام به معهد ماساشوستس التكنولوجى تحت عنوان « حدود النمو » .

ولا يمكن لعالم البحث فى المستقبل أن يمضى فى بحثه بأسلوب يختلف تماما عن أسلوب المؤرخ أو الأنثروبولوجى . فمن واجبه أن يكشف بقدر الامكان عن وقع الاختيارات التكنولوجية على المجالات المتشابكة للبيئة والمجتمع ، آخذا فى الاعتبار حقيقة أن التلف الذى يحيق اليوم بالبيئة سيؤثر على امكانيات التنمية فى المستقبل .

ونوع التناول الذى نعرضه هنا ينبنى على تقويم الممارسات التكنولوجية ، كما لو كان الأمر مجرد اختيار بينها .

– ٢ –

لسنا فى حاجة الى أن نتمعن طويلا فى الطرق المستعملة لدراسة الاختيار بين الممارسات . فهى تنبنى عادة على حساب « التكلفة ــ المنفعة » الذى يأخذ فى الاعتبار بعض تكاليف وتأثيرات غير مباشرة معينة يتضمنها اختيار المجتمع . ومن المؤكد ان مثل هذا الأسلوب يمثل خطوة الى الأمام اذا قورن بالاختزالية الاقتصادية المتطرفة التى تبسط كل شىء الى عملية حسابية مباشرة للربحية عند مستوى المؤسسة . ومع ذلك يجب ان نلاحظ أولا أن قرارات القطاع الخاص الصناعى تنبنى فى التحليل الأخير على معيار الربح (الذى يقصر امكانية تطبيق طرق « التكلفة ــ المنفعة » على حالات ينتمى فيها صانعو القرارات الى القطاع العام) . كما يجب أن نلاحظ ثانيا أن طريقة « التكلفة ــ المنفعة » تتأثر هى نفسها تأثرا ملحوظا بالاختزالية الاقتصادية التى انتقدناها .

والواقع أنه علاوة على التكاليف فان التأثيرات تختزل كذلك الى مقام مشترك ، وتحسب عادة بدلالة النقود . ومن المحقق ان طرق التقويم التى تستعمل عادة فى دول أوربا الشرقية لتقويم العائد على الاستثمارات تتفادى الى حد ما هذا الانتقاد . ولكن مجال تطبيقها أضيق بكثير ، حيث أن غرضها هو مقارنة التقنيات البديلة لصنع منتج واحد بعينه . وأسلوب اختزال كل شىء الى قيم نقدية ــ حقيقية أو نظرية ــ ينطوى على مخاطر جسيمة . ففى بعض الأحيان يجرى التقدير الكمى بواسطة طرق فذة ولكنها مصطنعة تماما ، تنبنى دائما على مثال ظاهرة السوق . الا تجرى محاولات لتقويم بعض تأثيرات بيئية معينة عن طريق تحديد مدى استعداد المتأثرين بها لتحمل تكاليف بحيرة أقل تلوثا أو هواء أكثر نقاء ؟ . ان الطبيعة

المصطنعة لهذه الحسابات واضحة ، حيث أن هذا الاطار العقلى الواهى لا يكون قادرا على الالمام بما هو كامن وراء حدود التسويق ، ويظل مرتبطا بما كان يسمى « العقلية السوقية البائدة » ، التى تظل متحكمة دون فحص أو مراجعة حتى مرحلة التحليل النهائى ، فيعتبر أن كل ما يمكن حصره كميا هو الأنسب والأوفق واخيرا فان طرق « التكلفة ـ المنفعة » طيعة طواعية ممتازة ، فى أيدى الجماعات المعنية : اذ يكفى اعتراض تتابع التأثيرات عند هذه النقطة او تلك لتقصير أو تطويل الفترة الزمنية حسب المطلوب ، أو استعمال أسلوب معين للتعبير عن التكاليف غير النقدية كى تجرى الحسابات بحرية . ونحن نعرف من التجربة أن مشروعات التنمية الرديئة قد أخذ بها دائما على أساس حسابات « تكلفة ـ منفعة » جذابة جدا وتكون خالية فى ظاهرها من العيوب . والتعمق فى الظروف المحيطة بالقرار هو وحده الذى يجعلنا نتحقق من التداخل المعقد للاهتمامات المتضمنة والاستراتيجيات الموضوعة للوصول الى حساب « التكلفة ـ المنفعة » ، وبالتالى لاتخاذ القرارات المتوخاة .

وقد تجدر الاشارة هنا الى أن اساءة استعمال طريقة ما ليست تدليلا ينقص ما فيها من مزايا كامنة . فالاعتراض صحيح ، ولكن من الواجب عدم فصل الطرق عن الموضوع الذى تستعمل فيه وعن الأغراض التى تخدمها . وعلاوة على ذلك فان الاهتمام بالكميات والاهتمام بمظهرها الزائف للدقة هما وسيلتان لهدف ايديولوجى ، ونعنى به تبرير التكنوقراطية .

ولا يمكن أن توجد طريقة للتقويم مستقلة عن مقياس القيم الذى يتم اختياره كمعيار . فهذه القيم تكون فى الغالب ضمنية وغير محددة ، ومن ثم فمن اللازم اولا جعلها واضحة ومحددة . وتتسم عادة المواقف التى يجرى فحصها بوجود استراتيجيات واهتمامات متناقضة ، لذلك فمن الضرورى أن يحدد القائم بالتقويم مقدماته المنطقية . فاذا ظهر أن هناك اتفاقا عاما اجتماعيا فان المهمة تكون اسهل وأيسر . واذا لم يمكن حل التناقضات فمن الأوفق عمل تقويم تؤخذ فيه وجهة نظر المخطط والمخطط المضاد ، كل بدوره . ولعلنا نلاحظ أننا قطعنا شوطا بعيدا عن الثقة والحيادية المزعومة لأسلوب « التكلفة ـ المنفعة » . فلا عجب أن نتردد فى استعمال مقياس موزون لوضع قاسم مشترك بين المعايير العديدة والمتفاوتة المتضمنة .

ومن الممكن بمجرد اتخاذ قرار ما محاولة استنتاج العوامل المؤثرة الواضحة ، وترتيب الأولويات التى تنتج عنها ، ولكن قد يكون القرار نفسه نتيجة لتوليفات مختلفة من الاعتبارات ذات الوزن التى تتسم بها المعايير المختلفة . وبالاضافة الى ذلك فان معادلة اسلوب اتخاذ القرار مع اختيار نظام للوزن انما تؤدى الى استبعاد وجهتين جوهريتين للتقويم ، اولاهما : أسلوب التوضيح التام بقدر الامكان لكافة العواقب المستقبلة للأسلوب التكنولوجى على : البيئة ، والعلم ، والمجتمع ، مقرونا بالظروف التى سيستعمل فيها ، وثانيتهما : حقيقة الدخول فى مناقشة مع

جميع ألوكلاء ذوى النفوذ للحصول على تفهم أفضل ــ وتناسق أوفق عند اللزوم ــ لمواقفهم واستراتيجياتهم .

يمكننا أن نرى اذن أن التقويم التكنولوجي يذهب الى ابعد من تحليل « التكلفة ــ المنفعة » ، سواء من حيث الاتساع أو العمق . وهو يحتفظ بالاجراء الأساسى الذى يتكون من اقتفاء التأثيرات الى ابعد ما يسجلها السوق ، ومن أخذ التكاليف غير المباشرة فى الاعتبار . ولكنه يتجنب بعناية البحث عن «قاسم مشترك» لجميع التكاليف والبقاء سجينا لنواحى القصور فى المعالجة الكمية البحتة . ان هدفه الأساسى اجراء تبادل بين الوكلاء المعنيين . ان من الواجب التوقف عن تطبيق الطريقة الكارتيزية التى تقسم الصعوبات وتتناولها واحدة بعد أخرى ، كما لو كان من المؤكد أن الكل لا يساوى أكثر من مجموع أجزائه .

ولقد ذكر ألان تورين من وقت قريب اننا لم نعد نعيش فى العالم الميكانيكى الذى عاش فيه ديكارت ، كما اننا لا نعيش فى العالم التطورى للقرن التاسع عشر. ان مجالاتنا الفكرية الحالية مختلفة ، وبالتالى فان تصرفاتنا مختلفه .

فالتقويم التكنولوجي يستمد استلهاماته أساسا من تناول النظم . ومن الواضح أن هذه الممارسة لا يكون لها معنى الا اذا كان الأسلوب المقوم يهدد بقطع العلاقات القائمة ، والا اذا ثبت ان هناك مغزى لتأثيراته على البيئة وعلى المجتمع . ان الطريقة التى أشرنا اليها آنفا لا ينبغى أن تستعمل الا فى تقويم التطورات التكنولوجية المؤثرة ، والمشروعات الصناعية الرئيسية . ومن الأفضل على وجه الخصوص اللجوء اليها اذا كان من المرجح أن تنجم عن التكنولوجيا الجارى تقويمها (او التطوير الجارى دراسته) عواقب على البيئة الطبيعية أو على المجتمع لا يمكن ان تلاحظ الا بصعوبة ، أو لا يمكن ملاحظتها على الاطلاق .

ــ ٣ ــ

تخفى المناقشات الحديثة عن البيئة بعض الغموض . فغالبا ينشأ خلط بين المخزون المحدود للمصادر التى لا يمكن تجديدها وبين الأجواء التى يجب أن نعيش فيها .

وعند تقويم الممارسات التكنولوجية يلزم اجراء تمييز واضح بين هاتين الوجهتين وتحليل تأثيراتهما ، كل على حدة ، على الموقف فيما يتعلق بالمصادر وبحالة أجوائنا الطبيعية . وبالاضافة الى ذلك يجب أن تحلل بالطبع تأثيراتها على المجتمع . والقصد فى الواقع هو التعرف على أهداف المجتمع النهائية ، مع النص بصفة خاصة على مجالات النشاط الآتية ، وهى مجالات وثيقة الصلة بعضها ببعض :

ــ ادارة المصادر الطبيعية لتجنب النمو العاتى الذى يرجح أن يورط المستقبل .

- حماية البيئة الطبيعية لمنع تدهور « جودة الحياة » ، بالمعنى الحرفى ، بل بالمفهوم البيولوجى ، للكلمة .
- تنمية قوى انتاجية وانشاء مؤسسات قادرة على ضمان الانتاج المتزايد من السلع والخدمات وتوزيعها العادل ، وهذا يتضمن – من بين اشياء اخرى – الاستخدام الكامل لهذا الانتاج .
- تطوير البحوث الموجهة الى تلك الأهداف .

والاستعمال الطائش للمصادر غير المتجددة يمكن أن يعرض للخطر ، فى نهاية الامر ، الأداء المستقبل للاقتصاد ، من حيث أن هذه المصادر يمكن أن تستنفد فعلا ولا يمكن تعويضها ، وفى حين يبدو لنا أن الآراء المنذرة لنادى روما مبالغ فيها الى حد كبير فانها لا تستتبع بأية حال أن تواصل الدول الصناعية تبديدها للمصادر كما تفعل فى الوقت الحالى . وفيما يتعلق بالتلف الذى يلحق بالبيئة فانه يكاد يكون دائما نتيجة موقف يخضع وجهة النظر الاجمالية للتنمية الى وجهة النظر الاقتصادية ، الضيقة بوجه عام . واذا تركت الأعمال الاقتصادية وشأنها فانها ستحاول دائما أن تخفى الأرباح وتبرز التكاليف ، وبمعنى آخر ستحاول أو تلقى عبء التكاليف على المجتمع . فهل يعنى هذا وجود تعارض لا حل له بين حماية البيئة وبين النمو ؟

اننا نعتقد أن الامر كذلك فعلا . ويمكن لاستراتيجية تنمية سليمة أن تشتمل بصورة جيدة تماما على عنصر بيئى . وهى أيضا مشروع تأمين طويل الأجل المجتمع ، وحيث أن الاجراء الوقائى يكون فى العادة أقل تكلفة بكثير من الاجراء العلاجى بعد وقوع الحدث فان أعطاء بعض الأولوية للاجراء الأول هو مجرد تخطيط لعملية التنمية بأفضل طريقة مرشدة ، كما يشاهد على نطاق زمنى أطول ما هو ملائم للمؤسسات الفردية ، والجمع بين الادارة المرشدة للبيئة وبين التنمية الاقتصادية والصناعية يتضمن التوصل الى اتقان التكنولوجيات الملائمة ، ومن ثم تبرز الأهمية القصوى للسياسة العلمية والتكنولوجية فى جميع استراتيجيات التنمية .

ولا يمكن ان توجد صيغة واحدة تتضمن كل شىء ، بل ولا عدة صيغ جاهزة ، وتتوافق مع التشكيلة العظيمة للأوضاع السائدة فى المجتمعات المختلفة . وهذا هو السبب فى أننا نقتصر فى هذا البحث على التمييز بين المستويات . فمن الواجب تحليل كل حالة على حدة ، بكيفية سليمة ، وفى سياقها التاريخى . والتقويم التكنولوجى ، بالمفهوم الذى نقدمه هنا ، غير ممكن الا بالرجوع الى مخطط خاص للحضارة . وبالرغم من ذلك فهناك ملاحظة عامة تتمشى مع هذه النقطة : فمن الواجب علينا ان نتجنب بأى ثمن المعالجة الجزئية التى تتكون من عزل حقيقة تقنية ما ، مهما كانت اهميتها ، وفحصها فى معزل عن القرائن ، فى حين أن التحليل المبنى على القرائن يمكن – على العكس من ذلك – من الالمام بالنمط الشامل

للعلاقات بين اجمالية الأهداف التى يسعى المجتمع وراءها وبين منشآته ومنتجاته .
وعلى ذلك لا يمكن — على سبيل المثال — تقويم نظم بديلة للنقل وتأثيراتها على البيئة وعلى المجتمع دون التطرق الى الوضع الذى تشغله صناعتا السيارات والبترول فى الدول الصناعية ، ناهيك عن الاستثمارات الثابتة التى انفقت فعلا على الهيكل الاساسى نتيجة لتفوق النقل بالسيارات . اننا نستنتج من ذلك أن النقل العام يستحق أن يعاد تأهيله فى أسرع وقت ممكن . ومن الناحية الأخرى يجب ان نتحقق من أننا لا نتناول مقترحات تقنية صرفة . فالحاجة تدعو لاجراء تغيير أساسى فى الهياكل الصناعية . وقد يستدل من ذلك على أن بعض دول العالم الثالث قد تكون فى وضع أفضل من وضع الأمم الصناعية لتنفيذ حلول مستحدثة حقا فى هذه المنطقة الحيوية ، ما لم تصبح بعد سجينة تماما لأنماط المستهلكين فيما يسمى المجتمعات المزدهرة .

— ٤ —

يجب فى ضوء ما تقدم أن نتفهم الاتهام الذى يوجهه بارى كومونور الى التكنولوجيا بوصفها المصدر الأساسى للتمزق البيئى . وحيثما قدم بديل تقنى اكثر ملاءمة للبيئة فانه من اللازم التأكد من أن البديل يعادل المنتج موضوع البحث . وكومونور على حق عندما يطالب بسماد ومبيدات حشرية أقل ، وعلى نطاق أوسع ، وبزراعة مكثفة فى حالة الولايات المتحدة . ومن الناحية الأخرى فان جدله يتزعزع عندما يلح فى طلب الرجوع الى الصابون بدلا من المنظفات الصناعية ، وذلك حيث أن مواصفات هذين المنتجين متطابقة . واستبدال الصابون بالمنظفات الصناعية يتضمن تغييرا فى نمط الاستهلاك . ومثل هذا التغيير ممكن تماما ، وقد يثبت أنه مفضل ، ولكن الاجراء لم يعد له مثل ضرورة اختيار أفضل طريقة لانتاج القمح . وهذا يؤدى بنا الى تأكيد أن البحث عن حلول تقنية للمشاكل البيئية يجب أن يقع فى نطاق سياسة سليمة ومتكاملة تغطى المجالات الآتية :

- البحوث فى التقنيات غير الملوثة ، والعمل على تشجيع استعادة المواد القيمة من المواد المبددة ، فى مواجهة اللجوء الى الاجراءات العلاجية : دورة الانتاج ، التلوث ، مكافحة التلوث ، التى لا يمكن السماح باستمرار تصاعدها كما هى الحال الآن .
- التحكم فى معدل الابطال والالغاء : فبدلا من تشجيع استبدال المعدات والاستعاضة بعضها عن البعض ، كما هى الحال الآن ، يجب توجيه العناية الى الجودة والمتانة ، ولا يبدو أن ذلك يخرج عن نطاق سلطات سياسة ضريبية ملائمة تحقق الأهداف التى نجد عكسها فى الوقت الحالى
- رسم سياسة تعدينية تتعلق باختيار المواقع الصناعية بحيث تتمشى مع متطلبات الادارة المرشدة للمصادر وتأمين جودة البيئة . ويمتد نطاق الامكانيات فى هذا المجال من اختيار موقع بعينه الى اعادة توزيع

الصناعات على مستوى عالمي . ويجب فى نطاق هيكلية التقسيم الصناعي للعمالة ان تحصص مكانة اكثر أهمية لدول العالم الثالث ، التى تكون فى وضع يمكنها من تبنى سياسة صناعية لحمايه البيئة بتكلفه اقل بكثير مما تتكبده معظم الدول الصناعية ، والتي فى حوزتها أيضا مصادر وفيره غير ملونه للطاقه ، وعلاوة على ذلك يجب وضع قيود على نقل الشحنات الضخمة عبر المحيطات ، كما يجب تصنيع المواد الخام التى تنتجها دول العالم الثالث فى مواقع استخراجها . ويجب أن تضاف الى ذلك النقطه التى سبق ذكرها . والتى يجب ان تكون فى صالح تلك الدول، ومن صميم حقوقها ، وهى أن تستفيد بحق من مصادرها غير القابلة للتجديد ، التى حرمت منها حتى الآن .

– اجراء تغييرات فى نمط الاستهلاك وتنظيم أسلوب الانتاج بهدف تجنب تبديد المصادر والطاقة .

وهذا يعيدنا ثانية الى مشكلة اختيار « مخطط للحضارة » تشكل فيه البيئة ، كما سبق أن ذكرنا ، وجهة واحدة فقط . وشروط هذا الاختيار « درامية » على وجه الخصوص لدول العالم الثالث التى تسابق الزمن ولا يمكن أن تسمح لنفسها برفاهية المرور خلال مرحلة من التبديد الصفيق الذى تتسم به الراسمالية الصناعية فى الدول المتقدمة .

ومن المهم فى هذا المجال أن نكون واضحين تماما فيما يتعلق بنظام القيم الذى يجب أن تتبناه دول العالم الثالث لتعمل بنفسها على اقامة التكنولوجيا التى تعرضها عليها الدول المتقدمة ، وفى الوقت نفسه لتقرر أولويات البحث الخاصة بها .

ومن المتفق عليه الآن بوجه عام أن معظم التقنيات الصناعية للعالم المتقدم قد هيء تهيئا سيئا للظروف الاجتماعية والاقتصادية لدول العالم الثالث . فهذه التقنيات لا تخلق فرص عمل كافية ، وتتطلب انفاقات باهظة بالعملات الصعبة ، وتربط دول العالم الثالث بعجلة الدول المتقدمة صناعيا ، عن طريق اعتمادها التكنولوجى الدائم عليها . كما أنها تنشر نمطا منفرا للاستهلاك ، يستورد جاهزا ولايتاح الا لصفوة مختارة . وتكون النتيجة اذن هى التخلف ، من حيث ان هذا النمط يتمثل فى عدم المقدرة على اتخاذ قرارات مستقلة مدعمة بتدفق متواصل من التجديدات المستحدثة فى نطاق الدولة النامية .

ان دراسة تأثيرات التكنولوجيات المستجلبة على البيئة الطبيعية قد بدأت أو كادت . والصورة هنا مثبطة أيضا . فعلى سبيل المثال نجد انه فى كثير من الدول الاستوائية الرطبة ، التى تتسم نظمها البيئية بنوعية خاصة ، لا تؤخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار عند اختيار المحاصيل والتقنيات ، بل تبذل جهود عقيمة وباهظة التكاليف تستهدف تغيير هذه النظم البيئية لجعلها أكثر شبها بنظم الأجواء المعتدلة ، وبذلك تهيئها لاستعمال تقنيات لا تصلح الا لأجواء اخرى وفى ظروف اخرى . وهذا الأسلوب يجب أن يعكس تماما بالطبع .

ويصور البعض « الثورة الخضراء » بأنها ترياق لمشاكل الغذاء فى العالم الثالث . وهى بالرغم من ذلك تجمع بين كل من السمتين السلبيتين اللتين ذكرناهما. فعند المستوى الاجتماعى نجد أنها تستقطب المجتمعات الريفية بمحاباة جماعة محدودة من كبار الزراع يمكنها الاستحواذ على الماء والقروض والتقنيات الجديدة . وبقوة المنطق يولى هؤلاء الزراع وجوههم شطر الميكنة الزراعية . وعلى ذلك فبعد مرحلة من « الاستخدام ، والابداع » تنتهى الثورة الخضراء بزيادة تفاقم البطالة . وهى على المستوى البيئى تخوض فى خطر ذى ثلاث شعب : عدم تنوع المحاصيل مع المجازفة بالتعرض للأوبئة ، والاستعمال المفرط للماء ، واللجوء المتزايد باستمرار للمبيدات الحشرية والأسمدة التخليقية . وهذا لا يعنى ، كما يحاول بعض المتحمسين للفلاحة البيولوجية اقناعنا به ، أن كل استعمال للأسمدة والمبيدات الحشرية ردىء حتما . ويبدو أن هناك امكانية أخرى مفتوحة لدول العالم الثالث فى كل من التنظيم الاجتماعى للزراعة وفى البحث ، فبدلا من توزيع سلالات قليلة رائعة من القمح قد يكون من الأفضل دراسة امكانيات الانتاج المتنوعة جدا لكل تربة ، بالتعاون مع الأهالى الزراعيين أنفسهم .

— ٥ —

تبين النقاط ووجهات النظر التى أوردناها انه بأخذ البيئة فى الاعتبار توجد فرص واسعة فيما يتعلق باختيار التقنيات ، والأهم من ذلك ، فيما يتعلق بتقويم التكنولوجيا ، أن نعرف هل من الممكن اذن تطوير منهج دقيق لتقويم التكنولوجيا التى يمكن تطبيقها على وجه التعميم فى جميع الحالات ؟

اننا لا نظن ذلك . ومن الطبيعى انه من الممكن صياغة قواعد عملية من أجل بناء قوالب لتسجيل وقع التكنولوجيا أو تحليل الاهتمامات المتشابكة . ولكن المضى أكثر من ذلك قد يعنى الانزلاق ثانية الى روتين تحليل « التكلفة ــ المنفعة » الذى تنشد الطريقة المبنية على التقويم التكنولوجى أن تتحرر منه . ومن ثم فاننا نعتقد أن هذه الطريقة تمثل مرحلة هامة فى تطوير العلوم الاجتماعية التطبيقية . ومن الآن فصاعدا سيكون من اللازم انشاء هيكل تحليلى محدد لكل حالة ، تمهيدا لدراسة الوشائج المتبادلة بين الأساليب الطبيعية والاجتماعية . وقد يبدو لأول وهلة أن ضرورة انشاء هذا الهيكل من جديد فى كل مرة ، وتجديد الأدوات التحليلية ، أمر مثبط . ومع ذلك فبالاضافة الى فاعلية هذا الهيكل فى التحرز من العمل الروتينى ــ ودوره المخرب فى العلوم الاجتماعية معلوم لنا جيدا ــ فانه يسمح بالمناقشة المرشدة المستنيرة عن الدور الملائم لتقنيات التخطيط ، وذلك بالتأكيد على شرعية الحوار الاجتماعى . واذا أمكننا بهذه الوسيلة أن نكتسب الخبرة اللازمة لممارسة التحكم الاجتماعى على التكنولوجيا والعلم واستعمالاتهما فاننا نكون بذلك قد اتخذنا خطوة حاسمة الى الأمام .

ويجب تأكيد مسئولية المجتمع العلمى فى تقويم التأثيرات المحتملة لنتائج البحوث . لذلك فاننا نحبذ الاقتراح الذى قدم حديثا فى مؤتمر بوجواش الثانى والعشرين عن « العلم والشئون العالمية » بتخصيص ما يتراوح بين ١٪ و ٥٪ من ميزانية كل مشروع بحث تكنولوجى لتقويم نتائجه .



اختيار الأساليب الفنية للإنتاج والتغير التكنولوجي كمشاكل فى الاقتصاد السياسى

ان الموضوعات المتعلقة بالأساليب الفنية للانتاج والتغير الفنى تناقش غالبا فى الدول النامية باعتبارها مشاكل اقتصادية . ولكن الاقتصاديين لا يأخذون فى اعتبارهم بطريقة منهاجية نظم الاقتصاد السياسى التى تشير اليها مناقشتهم . والهدف الأساسى من هذا المقال هو أن الاخفاق من أن نكون منهاجيين فيما يتعلق بالموضوعات الخاصة بالاقتصاد السياسى قد يؤدى الى توصيات مبسطة جدا فيما يتعلق بسياسات التكنولوجيا ، وقد يؤدى الى تفاؤل قائم على أساس غير منطقى فيما يتعلق بفاعلية التكنولوجيا الملائمة كعلاج لمشاكل البطالة وسوء توزيع الدخل .

وانه لمن المفيد بغرض التوضيح أن نبدأ بمناقشة موجزة لبعض النقاط الخاصة بتحليل الأساليب الفنية للانتاج كما جاءت فى كتاب الاقتصادى «سن» .

وعلى أية حال فأقل افتراض يمكن ملاحظته فى كتاب « سن » هو افتراض اقتصاد مخطط . فكل فائض زيادة عن احتياجات الاستهلاك الجارى يكون تحت الرقابة المباشرة للدولة ويعاد استثماره . ان الموارد القابلة للاستثمار نادرة ، ويختار المخططون الأساليب الفنية للانتاج بغرض الوصول الى الغاية القصوى من الأهداف الوظيفية فى كل القيود المفروضة بهذه الندرة .

بقلم : شارل كوبر

كان عضوا بمجلس مديرى الشئون العلمية الملحق بمنظمة التنمية والتعاون الاقتصادى حيث كان مسئولا عن الدراسات الخاصة بالعلم والتكنولوجيا فى منطقة البحر المتوسط . وهو يعمل حاليا زميلا أول فى وحدة بحث السياسة العلمية بمعهد دراسات التنمية بجامعة سسكس البريطانية منذ عام ١٩٦٩ . وقد نشر حديثا عددا خاصا من مجلة دراسات التنمية (اكتوبر ١٩٧٢) عن العلم والتكنولوجيا فى الدول النامية ، وسوف يظهر فيما بعد فى شكل كتاب .

ترجمة : الدكتور على لطفى

أستاذ الاقتصاد بكلية التجارة بجامعة عين شمس . حصل على بكالوريوس التجارة مع مرتبة الشرف من جامعة عين شمس عام ١٩٥٦ ، وعلى الدراسات العليا من الجامعة نفسها عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، وليسانس العلوم الاقتصادية من جامعة لوزان عام ١٩٦٠ ، دبلوم المنشآت الاقتصادية من جامعة لوزان أيضا عام ١٩٦١ ، وحصل منها كذلك على الدكتوراه فى الاقتصاد عام ١٩٦٣ . له مؤلفات عديدة فى الاقتصاد باللغة العربية ، ودراسات وبحوث ومقالات عدة بالعربية والانجليزية والفرنسية .

ومن الواضح أن افتراض الاقتصاد المخطط يتعلق بملكية وسائل الانتاج . فهناك ملكية الدولة حيث تمثل الدولة المجتمع . ولاتواجه الدولة اية صعوبات اجتماعية أو سياسية حينما تتخذ قرارات تتعلق باختيار الأساليب الفنية للانتاج. ومن الناحية التحليلية فان النتيجة الأكثر أهمية المترتبة على هذه المجموعة من الاقتراحات هى أن مشكلة اختيار الأساليب الفنية للانتاج تصبح مجرد عمل اقتصادى . واذا توافرت لدينا بعض البيانات التحليلية عن الأهداف الاجتماعية وبيانات عن القيود الموضوعية ، مثل نقص موارد الاستثمار ، فان كل ما نحتاج اليه لحل المشكلة هو بيانات عن الخصائص الفعلية للأساليب الفنية للانتاج ، الحالية أو الممكن تحقيقها ، والمتاحة للحصول على الأنماط المرغوب فيها من المنتجات . ومن المؤكد أن عددا من المشاكل العملية يظل قائما . فقد لا يكون هناك مجال للاختيار بين الأساليب الفنية للانتاج ــ لأنه لا يوجد أسلوب فنى واحد للانتاج للحصول على كل منتج ــ وهذه الأساليب قد يكون فيها رأس المال كثيفا الى حد بعيد . أو اذا كانت هناك أساليب فنية للانتاج بديلة كثيفة العمل فقد تكون غير فعالة ، بمعنى أنها قد تحتاج الى قدر أكبر من الاستثمارات كما تحتاج الى قدر اكبر من العمل لكل وحدة من الانتاج الاضافى أكثر من الأساليب الفنية

للانتاج الفعالة التى تحتاج ـ رغم ذلك ـ الى قدر أكبر من الاستثمار للعامل الواحد . واذا كان التوظف بذاته هدفا اجتماعيا فهذا يعنى انه قد يكون من الضرورى اجراء مناوبات صعبة . ولكن رغم أنها قد تكون هامة فى أوضاع عالمية حقيقية فانها مشاكل فنية بحتة يمكن الى حد ما ايجاد حلول فنية لها . ان المشاكل نفسها يمكن تحديدها تماما اذا ما توافرت لدينا البيانات الأساسية عن الأهداف الاجتماعية وقيود الموارد والمدى المتاح للاساليب الفنية للانتاج .

وبقدر ما تسير الأمور فمن الممكن أن لا يكون هناك اعتراض على هذا الأسلوب من التحليل . انه يقوم على أساس منطقى سليم ، ويعتبر نقطة بداية مفيدة للتفكير فى اختيار الأساليب الفنية للانتاج والتغير الفنى فى اقتصاد مخطط . ان الصعوبة انه ليس دائما من المسلم به أن يكون التحليل متعلقا باقتصاد مخطط واقتصاد مخطط ذى خصائص محددة بطريقة قاطعة . وانه ليس على الاطلاق خطأ «سن» أن يبتعد الأفراد عن افتراضه ويعدوا اقتراحات السياسة لأشكال أخرى من الاقتصاد مستخدمين تحليله ، ولكنه يكون خطأهم هم ، وينتج عن ذلك خلط كبير وخسائر ضخمة .

ان النقطة الجديرة بالاهتمام هى أن تحليل « سن » لا يمكن أن يطبق كما هو فى اقتصاد تسوده الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ان المشاكل التى يأخذها « سن » فى اعتباره يمكن أن تظل ظاهرة فى هذا الشكل من الاقتصاد ، ولكن هناك مشاكل أخرى لم يأخذها « سن » فى اعتباره نظرا لأن افتراضه خاص باقتصاد مخطط . ان هدفنا هنا هو أن نناقش مشكلة اختيار الأساليب الفنية للانتاج فى النظم المختلفة للاقتصاد السياسى بما فى ذلك النظام الذى يفترضه « سن » ، وبصفة خاصة فى نظم الملكية الخاصة .

ومن المؤكد اننى سأتهم غالبا بأننى لا أقف على أرض صلبة . ان الاقتصاديين ـ وبصفة خاصة هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم اسم «الاقتصاديون المتخصصون فى التنمية » ـ يوافقون عادة على أنه ليس من الملائم اخذ بناء تحليلى يتم اعداده خصيصا لنظام معين من الاقتصاد السياسى وتطبيقه على نحو أعمى فى نظم أخرى. وفى الواقع اذا كان هناك أى تقدم فى فهم طبيعة التخلف فانه يكون قد تم التوصل اليه من خلال تحديد أفضل للاقتصاد السياسى فى الدول النامية . وكما تقدمت معرفتنا عن خصائص التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى الدول النامية فاننا تعلمنا أن نتأكد من ان أشكال التحليل التى نستخدمها تتلاءم مع النظام الاقتصادى والاجتماعى محل الدراسة .

اننى لا ارى اطلاقا اننى لا أقف على أرض صلبة . ان معظم الناس سوف يوافقون لفترة قصيرة على انه من الخطأ ومما يؤدى الى الخلط أن نستخدم نموذج « سن » الدقيق الملائم والخاص بالأساليب الفنية للانتاج للتنبؤ بالسلوك فى الحقيقة غير الملائمة للتخلف الرأسمالى . ان عددا قليلا جدا منا يمكن أن يدعى أننا

تجنبنا هذا النوع من الانحراف بطريقة متماسكة ومنهاجية . والواقع أن هنـاك اتجاها عاما لنكون غير منهاجيين . ان الاتجـاه هو أن يؤخذ فى الاعتبـار التنظيم الاقتصـادى والاجتماعى فى الجزء التشـخيصى عن العمـل ، مثلمـا يبحث أحد الأشخاص لماذا نستخدم أساليب فنية معينة للانتاج ، وما هى النتائج التى تترتب عليها ، ولكن ليضع جانبا مشاكل الاقتصاد السياسى فى الجزء الارشادى . ومثلما يتقدم أحد الأشـخاص باقتراحات عن كيفية الحصـول على اختيـار أكثر ملاءمة للأساليب الفنية للانتاج .

وعلاوة على مشكلة اختيار الأساليب الفنية للانتاج هناك مسألة السياسات الخاصة بالتغير الفنى . وعلى قدر اهمية هذا الموضوع فاننا مازلنا فى البداية . ان معلوماتنا عن كيفية تأثير نظام الاقتصاد السياسى على اتجاه ومعـدل التغير الفنى مازالت ضئيلة جدا وتكاد تكون منعدمة . فبالنسبة لكثير من الاقتصـاديين مازال التغير الفنى هو الغذاء السماوى أو الروحى .

ان معظم طرق التحليل الخاصة بالأسـاليب الفنية للانتـاج تركز اهتمامها حول الاجابة عن ثلاثة أسئلة :

١ ــ ما هى العوامل التى تفسر الاختيارات التى تمت حتى اليوم فى الاقتصاد ؟

٢ ــ ما هى النتائج الاقتصادية والاجتماعية لهذه الاختيارات ؟

٣ ــ كيف تعمل الحكومة حتى يستطيع المنظمون القيام باختيارات أفضـل فى المستقبل (مفترضين أننا نتعامل مع أقتصاد تسوده الملكية الخاصة لوسـائل الانتاج ، وان الاختيارات التى تمت حتى الوقت الحـالى هى اختيـارات مثـالية جزئيا من وجهة النظر الاجتماعية لا من وجهة نظر المنظم الخاص) ؟

وفى أيامنا هذه فان السؤالين الأول والثانى ينظر اليهما عادة كمشـاكل فى الاقتصاد السياسى لا فى الاقتصاد فقط فى معناه الضيق . ان الصعوبة تكمن فى أنه عندما ننتقل الى السؤال الثالث ــ وهو المتعلق بالسياسات ــ فاننا نكون عرضـة لأن ننسى هيـكل النظام الاقتصـادى ، ونتصرف كمـا اذا كنا نعتقد أنه لا توجد صعوبات اجتماعية أو سياسية فى مواجهة تنفيذ السياسات المرغوب فيها . ان هذه هى النقطة الأساسية فى مناقشتى . انها تشـير بصفة أسـاسية الى النقطة الثالثة المذكورة ولكننى سأعالجها عن طريق بحث الأسئلة الثلاثة على التوالى .

ان المعايير الاقتصادية التى تحدد اختيار الأساليب الفنية للانتاج بواسـطة المنظمين واضحة تماما . والمعايير الأساسية هى : نمط الطلب على السلع الوسيطة وعلى الاستهلاك النهائى للسلع ، معدلات الأجر الحقيقى للفئات المختلفة (العاملون بما فى ذلك المديرون) ، توافر و « سعر » موارد الاستثمار ، توافر وسعر المواد الخام . ولا يمكن اعتبار أن من هذه المعايير ــ باستثناء سعر المواد الخام فى بعض الأحيان ــ معايير ذات حدود وأبعاد اقتصادية بحتة .

وبعبارة اخرى فان انماط الطلب ومعدلات الأجر الحقيقى ومعدلات الفائدة تتوقف على التنظيم الاجتماعى لا على جهاز سوقى محايد (ومن ثم عادل) الى حد ما من الناحية الاجتماعية . ان الخطوة الحقيقية الهامة نحو فهم اختبار الأساليب الفنية للانتاج فى اقتصاد ما انما تأتى بعد أن نقوم بقياس هذه الحدود والأبعاد الاقتصادية ، حينما نحاول أن نوضح ونفصل القوى الاجتماعية التى تحدد أسباب هذه القوى وانواعها . ان هذا هو الذى يأخذنا الى ما وراء التحليل الاقتصادى فى الاقتصاد السياسى فيما يتعلق باختيار الأساليب الفنية للانتاج .

ولسوء الحظ ليست هناك اجابات عامة مرضية لتساؤلات الاقتصاد السياسى ونحن نحتاج بالضرورة الى نظرية مدعمة تماما للتوزيع حتى يمكن أن نتعامل مع هذه التساؤلات ، وليست لدينا هذه النظرية . وعلى الرغم من ذلك فان أولية الأهمية لهذه العوامل خارج الاقتصادية معترف بها تماما فى كل ماكتب فى هذا الموضوع ، وبصفة خاصة الدور الحاسم لتوزيع الدخل فى تحديد أنواع المنتجات المطلوبة ، ومن ثم نموذج الانتاج لاحلال الواردات فى اقتصاد شبه مغلق .

ان التقارير التى قدمتها بعثات التوظف التابعة لمنظمة العمل الدولية الى كل من كولومبيا وكينيا تؤكد ان كثافة الاستثمار المرتفعة والمتزايدة للأساليب الفنية للانتاج الصناعى فى هاتين الدولتين هى نتيجة لأن النخبة القليلة ذات الدخل المرتفع لها تأثير مرجح على الطلب على السلع الاستهلاكية . انهم يطلبون بصفة عامة أنواع السلع الاستهلاكية المطلوبة فى أسواق الدول المتقدمة اقتصاديا ، وغالبا المنتجات ذات العلامة التجارية المعروفة .

ان نجاح أسواق المنتجات ذات العلامات التجارية المعروفة لايعنى حتما أنها اكثر كفاية من المنتجات التقليدية من حيث امداد المستهلكين بالخدمات الضرورية بتكاليف اجتماعية أقل . ان الاسواق أبعد بكثير جدا من أن تكون مثالية ، وبصفة خاصة فى الدول النامية حيث يكون من الأسهل أن نعتقد فى سيادة المنتج أكثر من اعتقادنا فى سيادة المستهلك .

ان كثيرا من السلع التى تنتج تكون على الأقل بعيدة جدا عن اشباع الحاجات الضرورية للمستهلك ، ومن المحتمل أن يكون تأثيرها الرئيسى هو تشجيع الاستهلاك على حساب الاستثمار . وهناك سلع أخرى تحل محل السلع الاستهلاكية التقليدية حتى ولو كانت تشبع الحاجات نفسها بتكلفة أعلى حيث انه قد تم تمييزها وقامت حملات ناجحة لترويجها . لقد وجد « فرانسز ستيوارت » ـ على سبيل المثال ـ أن دقيق الذرة المكرر الذى يحل محل الدقيق غير المكرر لعمل «البوشو» فى كينيا يجعل تكلفة انتاج الوحدة ومن ثم سعر السوق أكثر ارتفاعا ، علاوة على أن القيمة الغذائية للسلعة تكون أقل منها فى حالة استخدام الدقيق غير المكرر ، كما أن كثافة رأس المال تكون أكبر . ولكن هذه السلعة تنتج بواسطة الشركات الكبيرة فى كينيا التى تمتلك موارد للأساليب المختلفة لترويج المبيعات وخاصة فى المدن الكبيرة .

وهناك بالتأكيد أكثر من ذلك بكثير ممـا يمكن قوله فيما يتعلق بآثار توزيع الدخل على الطلب وبصفة أساسية على اختيار الأساليب الفنية للانتاج ، ولكن هذا يكفى ببساطة لتوضيح وجهة النظر . ان المناقشة الفنية التى تسند الى كل ذلك هى أن الأساليب الفنية للانتاج التى تستخدم لعمل المنتجات الجديدة تكون كثيفة الاستثمار بطريقة متأصلة ، وليس هناك بدائل متاحة كثيفة العمل . وهى كذلك لانها تقدمت فى الدول ذات الأجر المرتفع حيث تكون موارد الاستثمار وفيرة نسبيا . وفى كل الاحتمالات فهناك معدل مرتفع لتنمية الوسائل الفنية الجديدة للانتاج لهذه الأنواع من السلع ، لذلك ليس هناك وقت لاستنباط بدائل كثيفة العمل ، حتى ولو كان من الملائم فنيا عمل ذلك . ولكن فى خطوط الانتاج التقليدية جدا ، كصناعة النسيج مثلا ، نرى نقيض ذلك ، فان بطء معدل التجديد يدل على أن التكنولوجيا الكثيفة الاستثمار والتكنولوجيا الكثيفة العمل يمكن أن توجدا معا الى حد بعيد .

واذا أخذنا فى الاعتبار نمط توزيع الدخل فهناك العوامل التى تحدد هيكل معدلات الأجر الحقيقى وحرية استخدام موارد الاستثمار . وكذلك فان معدلات الأجر وتكلفة الاقتراض لها تأثير مباشر على الاختيار الفنى ، ومن الواضح تماما أنها بذاتها حصيلة عمليات اجتماعية معقدة لانعلم عنها الا القليل ، ولكننا نستطيع أن نتنبأ بها الى حد ما . فمثلا العمال المستخدمون فى القطاع الحديث ــ أو الرسمى ــ فى دول مثل كينيا وكولومبيا يكونون منضمين فى نقابات ، وهنـاك شك وان يكن ضعيفا فى أن النقابات ناجحة فى زيادة الأجور الحقيقية . ومن البديهى أن هيكل الأجور المرتفع نسبيا فى هذه القطاعات يؤثر فى رجال الأعمال ويجعلهم يستخدمون أساليب فنية للانتاج أكثر آلية .

وفى بعض الأحيان يمكن بيان الدليل على ذلك على مستوى المصنع حيث نجد على سبيل المثال بعض العمليات المساعدة التى تكون آلية ولكن يحتمل أداؤها يدويا اذا كانت معدلات الأجر أكثر انخفاضا . ولكن تأثير معدلات الأجر المرتفعة على اختيار الأساليب الفنية للانتاج قد يكون اقل وضوحا عن ذلك . ويبدو لى أنه من الممكن أن تكون معدلات الأجر المرتفعة قد أسهمت فى احلال المنتجات الجديدة الكثيفة رأس المال محل المنتجات الكثيفة العمل نسبيا من خلال القطاع الحديث نفسه ، ونتيجة لذلك تكون قد قوت بعض الآثار التى تنتج عن ذلك بسبب توزيع الدخل غير العادل . ولنأخذ مثالا افتراضيا : ان زيادة فى معدلات الأجر قد تجعل انتاج آلات الحلاقة الكهربائية بالطرق الآلية المرتفعة أكثر ربحا من انتاج أمواس الحلاقة العادية بطرق غير آلية نسبيا . وقد لايكون هذا مثالا جيدا جدا ولكنه يوضح أن أثر معدلات الأجر المرتفعة قد لايظهر على مستوى اختيار الأساليب الفنية للانتاج بالنسبة لمنتج معين (حيث قد تكون البدائل المتاحة قليلة جدا) ولكنه يظهر أكثر على مستوى الاحلال بين المنتجات التى تؤدى مثل الوظيفة المتسعة للمستهلك .

اذا كانت هذه المناقشات صحيحة فان انشاء قطاع حديث نقابى للطبقة العاملة

على أقل الاحتمالات له أثر فى النمو البطىء لفرص العمل الرسمى ، وأكثر من ذلك بالنسبة للنمو لما يسمى «القطاع غير الرسمى» فى الأحياء الفقيرة بالمناطق الحضرية والريفية . أن معدلات الأجور والمكاسب السنوية تكون عادة منخفضة جدا فى القطاع غير الرسمى ، كما أن جزءا كبيرا من النشاط الانتاجى فى هذا القطاع ـ الذى يكون غالبا غير مرخص ومن ثم غير قانونى ـ يكون كثيف العمل الى حد بعيد وموجهـا نحو طلبات المستهلكين ذوى الدخول المنخفضة . ان عدم قانونية هـذه الأنشطة الانتاجية يعكس ـ فى حد ذاته ـ تنظيما اجتماعيا . ففى كينيا كان نظام تراخيص الأعمال موروثا من الادارة الاستعمارية البريطانية التى كانت تهدف الى حمـاية منتجى السلع الاستهلاكية ذات الأجور المرتفعة القادمين من الخارج ضد المنافسة من صغار المتعهدين المحليين الذين يرغبون (أو يكونون مضطرين) أن يقبلوا مكاسب سنوية منخفضة جدا والذين ينتجون منتجات كثيفة العمل ومنخفضة التكاليف . أن هذا النظام مازال قائما كما هو ، ومازال يخدم الغرض نفسه بصفة عامة ، الا أنه يفيد فى الوقت الحالى من كانوا مميزين فى عهد الاستعمار .

ان عدم قانونية منشآت القطاع غير الرسمى الكثيفة العمل وصغرها المطلق وتعرضها للمخاطرة (وذلك ليس الا أسما كبيرا وضخما بالنسبة لهم) يعنى بوضوح أنها ليست لديها عمليا القدرة على اقراض رأس المال ، أو اذا توافرت هذه القدرة فانها تكون ممكنة فقط من خلال المقرض المحلى للنقود . فهناك تحيز وظيفى ظاهر فى سوق راس المال لصالح المنشآت الكبيرة الكثيفة الاستثمار . وهـذا الاتجـاه يقوى غالبا بالطريقة التى تعمل بها بنوك التنمية حاليا (لا الطريقة التى يجب أن تعمل بها) وكذلك بنظم الائتمان التى تضمنها الدولة .

أن عاملا مهيمنا فى كل ذلك هو الدولة ـ كما هى ممثلة بحكومة وخدمة عامة ـ وهى تنتمى دائما لبعض الأشخاص ولاتنتمى الا نادرا جدا الى جميع الأشخاص . ان العلاقة بين أجهزة الدولة والمستهلكين ذوى الدخول المرتفعة تكون غالبا وثيقة جدا ومركبة . ان تقارير بعثة منظمة العمل الدولية تترك شيئا من الشك فى ذلك فى حالات كينيا وكولومبيا . وفى هذه الظروف يميل جزء كبير من السياسة وكثير من التشريعات بطريقة ضمنية الى الاحتفاظ بالهيكل القائم . وتمثل الدولة مصالح المميزين من القوم (معتدلة ومقيدة الى حد ما بالحاجة الى أصوات الجمـاهير فى الاجل الطويل) ، أو لا تكون قادرة على اصلاح الهياكل الا فى حدود معينة ، وبصبر ، وقد لايكون ذلك الا فى فترات أزمات اجتماعية حقيقية أو وشيكة الحدوث . أن المعايير الاقتصادية الأساسية التى تحدد اختيار الأساليب الفنية للانتاج بواسـطة أصحاب رؤوس الأموال هى حصيلة هذه التفاعلات المركبة .

ومن الواضح أن نتائج الاختبارات الفنية الخاصة فى هذا الشكل من التنظيم الاقتصادى تكون غالبـا مختلفة تمـاما عن النتائج المتوقعة فى نظـام اقتصـاد مخطط .

ان الخاصـية الأولى لهذا الشكل من التنظيم الاقتصادى هى أنه من المحتمل

وجود اتجاهات شديدة للتقوية التلقائية العمل . ان استخدام التكنولوجيا الآلية المتقدمة فى القطاع الحديث يؤدى الى استمرار سوء توزيع الدخل . وليس هذا ببساطة بسبب ارتفاع معدل عائد الاستثمار (اذا كانت هناك أساليب فنية للانتاج كثيفة العمل وفعالة متاحة ، واذا كانت معدلات الآجر الحقيقى مماثلة تماما لتلك التى استخدمت ، فمن المحتمل أن يكون معدل عائد الاستثمار أعلى مما هو عليه فى الوقت الحالى) . ان الآثار المتعلقة بالتوزيع تظهر كذلك لأنه بكمية محدودة من الاستثمار ، لن يكون متسع الاستثمار لجزء صغير نسبيامن القوة العاملة فىالوظائف ذات الأجر المرتفع فى القطاع الحديث . ان التكنولوجيا الكثيفة الاستثمار المتقدمة تقوى قبضة اتحادات العمال وتجعل من الممكن لطبقة العمل العليا المنظمة ان تحقق معدلات أجر مرتفعة بقدر اعطاء رجالالأعمال دخلا مرتفعا . ولكن جمهور القوة العاملة يحال بينه وبين دخول الدائرة السحرية .

والخاصية الثانية وهى الخاصية الخطيرة — هى أن الطريقة التى يسمو بها اقتصاد أى دولة لاتتوقف ببساطة على النسبة المتاحة فعلا من الناتج القومى الاجمالى للاستثمار أنها تتوقف بشكل حاسم على من يسيطر على موارد الاستثمار الكافية ، وماذا يريدون ان يفعلو بها .

ومن الواضح أن عمال المناطق الحضرية ذوى الأجور المرتفعة يسيطرون على جزء من هذا الفائض . وهناك مناقشات مفيدة حول ما يفعلونه بهذا الفائض . ومن المؤكد فى كينيا أن جزءا هاما من مكاسب العمال فى القطاع الحديث يتجه لتدعيم افراد الأسرة الكبيرة الأقل يسرا ، ولذلك فهناك تساؤل الى متى يظل هذا السلوك قائما مقاوما العملية الحضرية .

ان الأبطال هم بحق رجال الأعمال المحليون ، والأجانب الذين يملكون وسائل الانتاج ، ويقدر مايكونون مهتمين تكون هناك بديهية طبيعية ولكنها مؤثرة ، وهى أن نسبة طيبة من موارد اعادة الاستثمار الفعلية لم يتم بعد اعادة استثمارها . أن هذه البديهية معروفة جيدا ، ولكننا انما نذكر بها . وتتميز طبقة رجال الأعمال المحليين غالبا بارتفاع الميل للاستهلاك ، وبصفة خاصة عن طريق بناء القصور وما شابه ذلك . وعلاوة على ذلك فانهم ينقلون أرباحهم غالبا الى الخارج بحثا عن الأمان فى الاستثمار ، وهو اتجاه يظهر بصفة خاصة فى فترات عدم الاستقرار الاجتماعى والسياسى . وبالمثل فان الفائض الذى يتكون فى المنشآت الأجنبية يتم نقله الى الخارج — لا فى شكل أرباح فقط ولكن خلال عمليات تحويلية مستخدمة جهاز الاثمان تحت أسماء متعددة .

ان دور المنشآت الأجنبية فى نقل الفوائض الى الخارج هو بالتأكيد اكثر تعقدا من ذلك . ونظرا لأن الشركات المملوكة محليا تعتمد غالبا على الشركات الأجنبية لأنواع متعددة من الملكية الصناعية — ممتدة من المعرفة المسجلة الى العلامات التجارية — فان الارتباط البسيط بين ملكية وسائل الانتاج والسيطرة على الفائض

تتحطم . ان أصحاب التراخيص الأجانب قادرون على الاستيلاء على نصيب من شبه الريع الذى تخلقه المنشآت المحلية بتأثير التكنولوجيا أو العلامات التجارية أو المهارات التسويقية التى يأتى بها صاحب الترخيص حتى ولو لم يكن له نصيب فى الملكية . وفى الدول التى تتميز بالتبعية التكنولوجية المتقدمة نجد أن الموارد التى لاتتاح للدولة فى هذه الطرق المختلفة يمكن أن تقارن الى حد بعيد بالاستثمار الاجمالى السنوى فى القطاع الحرفى .

ان كل ذلك يعنى أن العلاقات البسيطة التى يقيمها «سن» بين اختيار الأساليب الفنية للانتاج ونمو سبل العمل والانتاج توشك أن تتحطم مع الملكية الخاصة فى الدول النامية . ففى مثل هذه الدول من المحتمل أن يعتمد على رجل الأعمال لاختيار الأساليب الفنية للانتاج التى تسمح بتجسيم الفائض . ان هذه الأساليب الفنية للانتاج تعطى – فى الاقتصاد الذى يتفق مع افتراضات «سن» – الحد الأقصى لمعدل نمو الانتاج والتوظف ، حتى ولو كانت هذه الأساليب كثيفة الاستثمار نسبيا وقد تعطى توظفا اضافيا اقل فى الأجل القصير ولكن معدلات النمو هذه تحدث لان الفوائض يعاد استثمارها . واذا لم يعد استثمار هذه الفوائض فان فرص التوظف فى القطاع الحديث لن تنمو . وبصفة عامة فان الجدل يثار بسبب عادات الاستهلاك لأصحاب رؤوس الأموال وبصفة خاصة تكاليف مايسمى «تحويل التكنولوجيا» ، فان استخدام الأساليب الفنية للانتاج التى تجسم الفائض يكون من المحتمل أن يعطى أسوأ مافى الدنيتين فى الدول النامية ذات النظم الاقتصادية التى تعتمد على الملكية الخاصة . ان الأساليب الفنية للانتاج التى تجسم الفائض تعطى فى الوقت الحالى توظفا ضعيفا لكل وحدة من الاستثمار ، وليس هناك تعويض فى شكل معدل مرتفع لنمو فرص التوظف أو الانتاج . وبسبب البحث الحديث عن تحويل التسعير فى أمريكا اللاتينية – وبصفة خاصة بحوث «فاتسوس» فى كولومبيا – يتجه السوق الى حد بعيد لالقاء معظم اللوم على «التبعية التكنولوجية» ان هذه المشكلة الخاصة ببطء معدل نمو فرص العمل فى القطاع الحديث تضاعفت بسبب الانحراف فى التغير الفنى تجاه الأساليب الفنية للانتاج التى تكون كثيفة الاستثمار أكثر من غيرها .

وليست هناك صعوبة كبيرة فيما يتعلق بكل ذلك . ان الأمر ليس أكثر من انه اقرار الحكمة المقبولة عن كيفية معالجة مشكلة اختيار الأساليب الفنية للانتاج، وجميع الدراسات التحليلية الدقيقة تتفق حول التعرف على مشاكل الاقتصاد السياسى على هذا المستوى التشخيصى . ومع ذلك تبدأ الصعوبة مع الجزء الوصفى ، حينما يحاول الناس اعداد السياسات المتعلقة بالموقف ، حيث لدينا اتجاه واضح لنتجاهل مايتعلق باطار الاقتصاد السياسى حينما نقدم اقتراحات السياسة ، لنرتد الى الأوصاف التى يمكن أن يكون لها معنى فى الاقتصاديات المخططة ، ولكن من المحتمل أن لاتحدث أثرها فى النظام الاقتصادى فى الشكل الذى نناقشه . ان نوع السياسة التى تقدمها غالبا جماعة تنمية التكنولوجيا الوسيطة

تعتبر مثـالا طيبا عن ذلك ، بحيث أن تحليلهم يركز اهتمامه على هـدم النظم الاقتصادية والاجتماعية التقليدية التى تنشأ من نوع تنمية القطاع الحديث الذى اخذناه فى اعتبارنا ، وبصفة عامة فانهم يقترحون حل هـذه المشاكل عن طـريق تشجيع التنمية واستخدام التكنولوجيا الوسيطة الكثيفة العمل ، وبصفة خاصة فى الصناعات الريفية ذات الأحجام الصغيرة . ويترتب على ذلك توقف الاتجـاه نحو المدن ، ومن ثم التمزق الاجتماعى والثقافى . وسيزداد كذلك العمل فى الفترة القصيرة ، كما يصبح الميل للادخار واعادة الاستثمار بالنسبة للمتعهدين ملائمـا (وهذه نقطة لم تناقش بعمق) ، كما أن العمل يزداد بدرجة أسرع . وهناك العديد من النقاط المتعلقة بهذا الافتراض ، وهى تزعجنى . وبعضها نقاط فنية اقتصادية، فمثلا التأكيد الوحيد تقريبا على تكاليف الاستثمار لكل مكان عمل كمعيار استثمار يمكن أن يؤدى الى نتائج خاطئة جدا بالنسبة لأى نظام اقتصاد سياسى . ولكن ليست هذه هى المشاكل الأساسية ، فبقدر مايزداد اهتمامى تظهر الصـعوبات الأساسية ، لأن هذا الاقتراح يجعل التساؤل عن كيفية تغيير الهيكل الاقتصادى والاجتماعى القائم الى الوضع المرغوب ، بعيداتماما عن وضعه الصحيح . ان الوضع ليس كما لو أن نقطة البداية فى الدول النامية هى حاليا نظام اقتصادى واجتماعى تقليدى متناسق يحتاج الى انقاذه من «التحديث» المهدد . ان نقطة البـداية هى نظام اقتصادى حيث «التحديث» قد مزق النظم السابقة للنظم الحالية ، وخـلق طبقات جديدة ومجموعات ذات مصالح (طبقة رأسمالية حضرية ، ارسـتقراطية العمل ، وهكذا) تتحكم عادة فى العملية السياسية والاقتصادية . وعلى قدر ماتكون النظم الاجتماعية التقليدية مهتمة يكون ماتبقى للمحافظة عليه هو القليل جدا .

ومع ذلك فان الفكرة العامة المتعلقة بضرورة المحافظة على النظام التقليدى من شىء ما ، هو التحضر الذى لم يحدث بعد ، تكون حاسمة بالنسبة للمناقشـة كلهـا . واذا كنا نطرح هـذه الفكرة فلن يكون أمامنا اختيار الا أن نقـر التنظيم الاجتماعى كما هو موجود حاليا . وفى هذه الحالة يجب علينا أن نواجه المشكلة من حيث كيفية اعداد برنامج للتكنولوجيا الوسيطة التى تكون فى نواح أساسـية متعددة فى تضارب مباشر مع مصالح الطبقات المتميزة سياسيا واقتصاديا .

وليس كافيا أن نعتمد على برنامج ضخم لتصنيع الريف يعتمد على الصناعات ذات الحجوم الصغيرة لتحقيق اعادة توزيع الدخل . ان قياس اعادة توزيع الدخل يكون عادة شرطا أساسيا لمثل هذا البرنامج . ان برنامجا من هذا النوع يتطلب على الأقل سيطرة مباشرة الى حد ما على أنمـاط اسـتهلاك الأغنياء وعلى الأنشـطة التشجيعية لمنشآت القطاع الحديث ذات الأحجام الكبيرة . ان الانفاق الترفى يجب التخلص منه ، ولابد من وجود وسائل أكثر فاعلية وصرامة لمنع من كانوا يلجأون الى الاستهلاك الترفى من أن يحـولوا الى الخـارج الموارد التى كان من الممكن أن تستهلك . ان دور المنشآت الاجنبية ، وكذلك دور العديد من المنشآت المحليةالتى تستخدم الأسماء الاجنبية ، يجب أن يوضع تحت الرقابة مع ضرورة تغييره . ان

الصعوبة تكمن فى أن هذه السياسات تسير غالبا فى اتجاه مضاد لمصالح طبقات المجتمع الأكثر قوة ونفوذا . وليس من الواضح انهم سيكونون قادرين على تنفيذها. ومن الممكن أن نتصور بطبيعة الحال أن الأزمات الاجتماعية الوشيكة الحدوث ستؤدى الى تنازلات مستقبلة تقوم بها الحكومة للتهدئة . ولكن الطبقات المتميزة ليست بالضرورة بعيدة النظر ، ففى أغلب الأحيان تنبثق الأزمة دون أن يتنبهوا اليها . وحينئذ يكون رد الفعل العادى هو الدفاع عن الوضع الراهن . ان الأشياء لاتحدث دائما بهذه الصورة ، ففى بعض الأحيان يكون التغير التقدمى ممكنا . ومع ذلك فان النقطة الأساسية هى أنه ليس الأمر واضحا من تلقاء نفسه . ان الصورة تكون دائما هكذا ، وهذا يفترض غالبا بطريقة ضمنية .

وبالاضافة الى ذلك فان بادرة التحويل الى التكنولوجيا الوسيطة والصناعات الصغيرة فى الريف عملية هامة تقتضى اعادة تخصيص موارد الاستثمار فى المجتمع بطريقة مباشرة والى الحد الذى يكون فيه البرنامج كبيرا بشكل يجعله فعالا ، فان رجال الأعمال فى القطاع الحديث سيجدون أن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لتمويل برامجهم الاستثمارية وكذلك الأمر بالنسبة للمنشآت الأجنبية . وقد تجد المجموعتان أنهما تواجهان ارتفاعا كبيرا فى أعباء الفائدة ، أو بطريقة أخرى تحديد حصص رأس المال . وليس من الواضح أن يكون هذا مقبولا سياسيا وخاصة فى الحالات التى يكون فيها اتحاد وثيق ، أو حينما يكون كل من الطبقة البيروقراطية هى التى تشكل مجتمع الأعمال الكبير ، أو يكون مجتمع الأعمال هو الطبقة البيروقراطية .

لقد ركزت كل هذه الاتهامات اتجاهها على التكنولوجيا الوسيطة كمثال . ومع ذلك فان كثيرا من هذه الاتهامات ينطبق الى حد ما على اقتراحات سياسة أخرى ، حيث تؤدى سياسة التكنولوجيا دورا هاما فى خلق التوظف واعادة توزيع الدخل . ان الصفة المميزة لمناقشة التكنولوجيا الوسيطة هى أننا نبدأ من نظام اقتصادى تقليدى من الضرورى المحافظة عليه . وهناك دراسات تحليلية أخرى (كدراسات بعثة منظمة العمل الدولية) أكثر واقعية لأنها تقر بطريقة صريحة بأن نقطة البداية هى نظام الاقتصاد السياسى القائم والأكثر تعقدا الذى نطلق عليه اسم التخلف . ولكنهم ، على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من أنهم لايجهلون الحقائق السياسية والاجتماعية ، يلحقون باقتراحات السياسة التى تكون قائمة على حساب غير منهاجى أو غير كامل للصعاب التى يمثلها النظام الحالى للتنظيم . واذا اخذنا فى الاعتبار الدراسة الخاصة بكينيا فاننى أشك فى أن المشاكل الأساسية تكون مثلا فى اطلاق سراح القطاع غير الرسمى من القيود الشديدة المتعلقة بنظام التراخيص لتغيير تخصيص المواردللأشكال المختلفة لتنمية الاسكان القليل التكاليف وما شابه ذلك ، ولاتخاذ قرارات أكثر حرصا فيما يتعلق بأنواع سلع الاستهلاك التى يجب أن تكون متاحة . أن هذه الاقتراحات وكثيراً غيرها مما جاء فى التقرير يعنى ضمنا تحديا للأغنياء فى مصلحة الفقراء . اننى لا أعتقد أن الأثر السياسى أو

امكانية التطبيق السياسى قد تم تحليلهما بالكامل . وبالنسبة للجزء الأكبر فعليهم ان يعيشوا على أمل ان الدولة والطبقات ذات الدخل المرتفع والعمل الأجنبى فى كينيا تكون تقدمية بطريقة متأصلة أو تكون مهتمة بالتوتر الاجتماعى الحقيقى لعمل تنازلات فى الوقت المناسب . واننى ببساطة لا اعرف هل هم من هذا النوع أم لا .

ان الافتراض الأساسى الموجود بطريقة ضمنية فى عـدد كبير من اقتراحات السياسة التى يتم اعدادها عن سياسات التكنولوجيا ، وانا أتكلم هنا بصفة عامة، هو انه من الأسهل تحقيق أهداف توزيع الدخل عن طريق استخدام التكنولوجيا الملائمة وزيادة فرص العمل بدلا من تحقيقها عن طريق استخدام الطرق المالية أو غيرها . ومن الواضح أن الطرق المالية كانت الى حد ما أداة ضعيفة لاعادة التوزيع. ان كل ما أريد أن أقترحه هنا هو أن سياسة التكنولوجيا قد لاتكون أكثر فاعلية حينما ننظر الى الحقائق السياسية ، وكنا نميل فى اقتراحاتنا الى اهمال مشـاكل التنظيم السياسى والاجتماعى المتاحة بالتكنولوجيا الملائمة ، وما الى ذلك .

والنقطة الأخيرة التى أود أن أذكرها ، واو باختصـار ، تتعلق بالسـياسة العلمية فى الدول النامية ، وكذلك السياسات من أجل التغير الفنى . ان هنـاك اهتماما قويا فى الوقت الحالى بتوجيه البحث والتطوير والتصميم الهندسىوقدرات البناء ونظم التعليم العلمى والفنى فى الدول النامية نحو تكنولوجيا أكثر ملاءمة . وهذا يعتبر عادة كأساليب انتاج كثيفة العمل لانتاج السلع غير المعقدة نسـبيا فى المنشآت الريفية والحضرية ذات الأحجام الصغيرة . وهناك عدد من المشاكل المتعلقة بهذا النوع من السياسة ، ولايتسع المجال هنا الا لذكر عدد قليل من المشـاكل الدقيقة .

ان المشكلة الاولى هى انه نظرا لأن العوائد الاجتماعية للاستثمار فى العـلم والتكنولوجيا تتوقف بطريقة حتمية على الحصول على نتائجها مطبقة فى النظـام الانتاجى فان نوع السياسة يكون عرضة لجميع المشاكل التى سبق أن ناقشناها فيما يتعلق باختيار الأساليب الفنية للانتاج . ان هذا ليس نقدا للمفهوم الفنى الأساسى . ان من الصعوبات الكبيرة عدم وجود بحوث وتطوير او اى مجهود هندسى عن التكنولوجيا التقليدية الكثيفة العمل التى يجب ان تستخدم فى الدول النامية. ويمكن القول بأن مجهود العالم فى البحث والتطوير فى مجال التكنولوجيا الانتاجية يدور حول أساليب الانتاج الآلية الكثيفة الاستثمار الى حد بعيد ، ولذلك فحتى

لو كانت أساليب الانتاج الكثيفة العمل فعالة فى الوقت الحالى فانها ستكون غير فعالة فى المستقبل . اننا لانستطيع أن نفصل مشكلة اختيار الأساليب الفنية للانتاج عن مشكلة الحصول على التغير الفنى الكثيف العمل . ولكننا لانستطيع أن نتجاهل الصعاب السياسية والاجتماعية التى تواجه التطبيق على نطاق واسع لأساليب الانتاج الفعالة الكثيفة العمل التى يمكن أن تستنبط وتطور فى المعامل وعلى لوحات الرسم (أى بعيدة عن الواقع العملى) ، ومع ذلك فهناك مجموعة أخرى من المشاكل متعلقة بتحقيق اعادة التوجيه المرغوبة للمجهود الفنى . وسأختصر هذه المشاكل فى نقطتين رئيسيتين :

١ ــ ان الأنشطة العلمية والفنية الموجودة فى الدول النامية تميل الى أن تكون علاقاتها بالقطاعات الانتاجية محدودة جدا ، ويرجع ذلك بصفة أساسية الى الاعتماد الكبير على التكنولوجيا الأجنبية للانتاج .

٢ ــ ان الدور المحدود الذى تؤديه هذه الأنشطة موجه بدرجة كبيرة جدا تجاه انواع التكنولوجيا التى تسود أصلا فى النظام الاقتصادى .

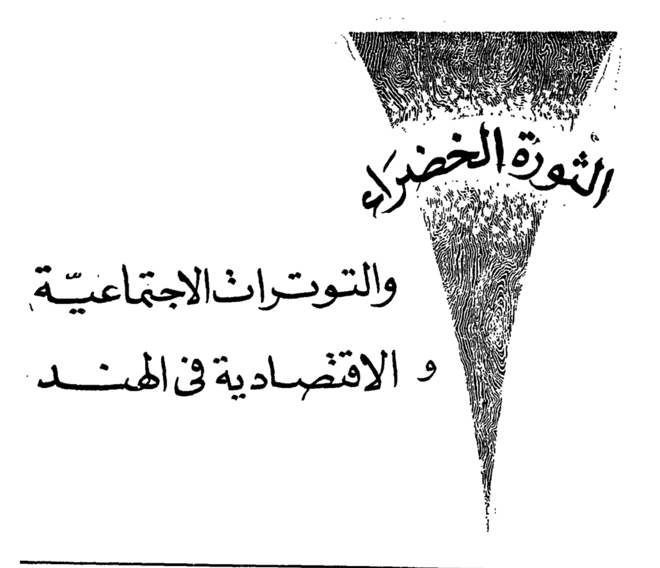
لقد ناقشت هذه المشكلات فى موضع آخر ، ولن أعود الى التكرار هنا . ان كل ماأريد ان أفعله الآن هو أن أشير الى أنه ليس من الملائم أن نفكر فى النظام العلمى والهندسى كشىء يمكن توجيهه أو اعادة توجيهه حينما نريد دون حدوث اضطراب شديد فى البيئة الاقتصادية والاجتماعية التىيوجد فيها هذا النظام العلمىوالهندسى حيث أن نتائج مثل هذا التفكير يمكن أن تكون لها أضرار أكثر من فوائدها . وأن المثالين التاليين يمكن أن يساعدا فى توضيح هذه النقطة :

المثال الأول أن انشاء « المجلس العلمى والفنى » فى تركيا فى بداية العقد السابع كان الهدف من انشائه على وجه التحديد هو التوصل الى طرق أكثر انتاجية باستخدام البحث العلمى الذى يعتبر ، من وجهة النظر العلمية البحتة ، متقدما نسبيا فى تركيا . ويضم المجلس مخططين ، وموظفين عموميين ، ورجال صناعة ، كما يضم علماء أكاديميين . وباستعراض ما أنجزه المجلس منذ انشائه يتضح أنه لم يحقق الا القليل على الرغم من الحماسة والرغبة الصادقة اللتين بدأ بهما المجلس . ولاشك أن جانبا من المشكلة ذو طابع ادارى . لقد ظهرت أشكال متعددة من الخلافات بين المجلس والوزارات التى تشرف على البحث العلمى فى الدولة . ولكن جانبا هاما من المشكلة هو انه ليس هناك حقا الا القليل جدا لما

يمكن أن يفعله المجتمع العلمى التركى ، على الأقل بقدر الاهتمام بالتكنولوجيا الصناعية حيث تتولى المنشآت الأجنبية امداد الدولة بها . فرجال الأعمال الأتراك يفضلون بطريقة منطقية تكنولوجيا الانتاج الخاصة بالدولة المتقدمة ، لأنهم ينتجون منتجات الدول المتقدمة ، ولأنهم يعرفون أن التكنولوجيا التى تتولى المنشآت الأجنبية جلبها هى التى ستعمل . ومع ذلك فمن المؤكد أن قرارات رجال الأعمال هذه تكون فى مصلحة الدولة فى مجموعها . ان النتيجة يمكن أن تكون تدهورا فى وظيفة المجلس . انها يمكن أن تأتى لتخدم وتحمى مصالح البحث للمجتمع الأكاديمى الذى كان من المفروض أن يتغير .

والمثال الثانى عن كينيا يتعلق بكلية الهندسة بجامعة نيروبى . وهو اننا أثناء بعثة التوظف الخاصة بمنظمة العمل الدولية أردنا أن نعرف كم من البحوث التى تمت فى الكلية اهتمت بأنواع التكنولوجيا المتعلقة بالأراضى الزراعية المستأجرة ذات المساحات الصغيرة والصناعات ذات الأحجام الصغيرة . وكانت الاجابة التى لا تدعو للدهشة أنه عدد قليل جدا . ومع ذلك فان الأسباب كانت شائقة : ان السبب لم يكن هو أن أعضاء الكلية غير منتبهين أو غير مهتمين بتكنولوجيا الوحدات الصغيرة . انهم قاموا بتدريس قدر لا بأس به ، وكثير منهم يقوم حاليا باعداد بحوث فى هذا المجال عن نوع التكنولوجيا حتى فى أوقات فراغهم . ويبدو أن المشكلة الرئيسية هى أن البحث الذى يتم فىالكلية يكون متصلا بشدة بحكم الظروف والحاجة بالمناهج التى يتم تدريسها . وهذه المناهج يتم اعدادها بالضرورة لاعداد الطلبة للعمل فى منشآت القطاع الحديث ذات الأحجام الكبيرة ، لأنها الى حد بعيد هى المصدر الرئيسى للتوظف لخريجى كليات الهندسة فى كينيا . وفى هذه الحالة فان امكانية اقامة شكل جديد من نشاط البحث والتصميم تتوقف بشكل قاطع على الشروط التى تقع تحت اشراف المجتمع العلمى نفسه . وانه لمن الواضح تماما أن اعادة توجيه البحث والتعليم فى هذه الكلية ، سيؤدى فى حالة عدم وجود أى تغييرات خارجية ، الى ايجاد أفراد يصعب توظيفهم .

لقد اثرت هذه النقطة الأخيرة لأنها ــ كما يبدو لى ــ تحدد بدقة المشاكل الحقيقية لما يسمى السياسة العلمية فى الدول النامية ، ولنوضح أنه بينما قد يبدو امرا حسنا أن نقيم معاهد بحث ذات مظهر خارجى مقنع فان قيام هذه المعاهد بأعمال جيدة هو امر آخر . ان هذا الموضوع ، شأنه فى ذلك شأن مسألة اختيار الأساليب الفنية للانتاج ، يورطنا فى أنواع من التحليل معقدة وغير سهلة .



الثورة الخضراء والتوترات الاجتماعية والاقتصادية فى الهند

كان للاكتشـافات الكيماوية والبيولوجية المتتالية فى تكنولوجيا الزراعـة فى السنوات الأخيرة وتطبيقها فى مساحات كبيرة فى الدول الفقيرة فى العالم أثر كبير وتطور ملحوظ يوصف فى تعبير غير دقيق بأنه « الثـورة الخضراء » . فاسـتعمال الأنواع الجيدة للبذور التى تعطى انتاجا كبيرا مع اسـتخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية ومدخلات أخرى مستحدثة فى فنون الزراعة قد غير انمـاط الانتاج الزراعى فى بعض المناطق ، وارتبط هذا التغيير بآثار اجتماعية واقتصـادية واسعة المدى ، وتأخذ النظرة الحالية لمضمون الثورة الخضراء طريقين مختلفين .

الأول هو تأكيد أن التكنولوجيا الحديثة تكسر دائرة الجمود التى توورثت عن القرون الماضية فى طرق الزراعة التقليدية واسـتخدامها بحيث تنقلها الى مرحلة عصرية فعالة ، واسلوب زراعى راسمالى ناجح يعود بنتاجه على الجميع ، حتى المزارعين الفقراء والعمال الذين لايملكون أرضا ، لأن الانتاج والكسب يكون وفيرا فى هذه الحالة .

والطريق الثانى يتركز على القوى المتولدة عن الثورة الخضراء التى تميل الى اظهار التفاوت الكبير السائد فى النظام الاقتصادى ، وتضم الذين يؤمنون بالارتباط

بقلم : كاليانا بردهان
و پراناب بردهان

يشغل كاليانا بردهان وظيفة أستاذ اقتصاد فى المعهد الهندى للاحصاء بنيودلهى . نشرت له كتب أهمها : النمو الاقتصادى ، والتنمية والتجارة الخارجية . كما نشر له عدد من المقالات العلمية . أما براناب بردهان فهو باحث متخصص فى مركز بحوث الاقتصاد الزراعى بجامعة دلهى . نشرت له عدة مقالات علمية فى عديد من المجلات العلمية .

ترجمة : الدكتور إمام محمد سليم

وكيل وزارة التخطيط . حاصل على بكالوريوس الزراعة من جامعة القاهرة ، ودبلوم العلوم السياسية من السوربون ، والماجستير فى المجتمع الريفى ، والدكتوراه فى التخطيط الاجتماعى من جامعة نورث كارولينا : له مؤلفات عديدة منها : المجتمع الريفى ، السياسة الاجتماعية ، قاموس المصطلحات الاجتماعية ، طرق البحث الاجتماعى . كما نشرت له مقالات علمية عديدة .

الوثيق بين الزيادة فى عدم المساواة وتزايد عدم الرضا والتوتر فى الجهاز الزراعى حيث تلاحظ بذور ثورة عارمة ربما يتغير لونها فى النهاية الى اللون الأحمر . وقد ازداد عدد أصحاب هذا الرأى الثانى بشكل جماعى وفردى ، وبخاصة فى السنوات القليلة الأخيرة ، بحيث أصبحنا أمام فئات من الناس من ذوى المعتقدات السياسية المتباعدة الاتجاه . فبعضهم يرى فى ازدياد الرأسمالية والتوتر الاقتصادى فى اطار الثورة الخضراء جزءا حتميا من النسق التاريخى للزراعة لايمكن تجاهله ، وهى تعمل فى طريقها تجاه هدف واضح . ويرى الآخرون فى هذه الظاهرة انذارا بالاتجاه نحو كارثة يجب تجنبها بأى ثمن .

وفى هذه المقالة سنناقش العلاقة المتداخلة بين التطور الزراعى المسمى بالثورة الخضراء والتوتر الاجتماعى الاقتصادى مع الاشارة بالأخص الى الزراعة فى الهند .

بالرغم من التأكيدات الكثيرة التى تشير الى العكس لا يتبين من تطور الزراعة فى الهند عامة براهين واضحة لأثر الثورة الزراعية عليها . وبمقارنة معدلات ازدياد الانتاج الزراعى للفدان فى الفترة من ١٩٥٠/٤٩ الى ١٩٧١/٧٠ نجد أن الانتاج

الزراعى قد ازداد لكل فدان بمعدل سنوى تراكمى ١٫٦٦٪ ، مع أن معدل الزيادة فى الانتاج لفترة الثورة الخضراء (وهى مابين سنة ١٩٤٩/١٩٥٠ وسنة ١٩٦٤/١٩٦٥) كانت ١٫٦١٪ سنويا ، وكانت معدلات الزيادة فى انتاجية الفدان من الحبوب فى هاتين الحقبتين ١٫٧٤٪ و ١٫٦٣٪ على التوالى . وعلى ذلك فان معدلات الزيادة للانتاج الزراعى العام أو الحبوب تظهر أن الثورة الخضراء لم تقم بأى تغيير كبير . ولو درسنا محاصيل الحبوب كلا على انفراد ، واخترنا أهم محصول بالنسبة لكمية الانتاج فى الهند وهو الأرز ، فان معدل الزيادة فى انتاجية الفدان كانت أقل فى السنوات الأخيرة بالمقارنة بفترة ما قبل الثورة الخضراء ، فى حين ازدادت انتاجية الفدان من القمح ، وهو تقريبا المحصول الرئيسى الوحيد ، حيث حدث تغير تكنولوجى ملموس فى زراعته بين ١٩٦٥/٦٤ و ١٩٧١/٧٠ بمعدل ٧٫٥٪ سنويا ، وبالتالى أصبحت الثورة الخضراء فى الهند خاصة بمحاصيل معينة ، وأصبحت مركزة فى منطقة صغيرة فى شمال الهند تضم : البنجاب ، الهاريانا واوتار ، برادش الغربية . وساهمت فعلا وبقوة فى زيادة انتاجية الحبوب منذ سنة ١٩٦٥/٦٤ فى مناطق أخرى حيث حدثت هناك ثورة خضراء ، ولكنها عمليات تجريبية عديدة فى محليات منفرقة .

وبسبب طبيعة هذه المحلبات لم يتضح الأثر الاجتماعى للثورة الخضراء على المستوى الشامل ، ولكن تظهر فى بعض الأحيان اتجاهات فى عمليات التنمية الاقتصادية والسياسية يرون فيها آثارا متولدة عن الثورة الخضراء ، ولكن على المستوى المحلى أو الجزئى . ويوجد الكثير من الدلائل بأن التكنولوجيا الحديثة قد حطمت شبكة العلاقات شبه الاقطاعية وصقلت نظام الانتاج والاتجاهات والاعتقادات التقليدية ، اذ أن القوة الظاهرة المدهشة للتكنولوجيا الحديثة فى رفع الانتاجية قد ازالت خيوط العنكبوت عن قرون الجمود وعدم الدراية والمعتقدات التقليدية فى سنة الفقر ، وقد وصفها أحد المشاهدين بقوله :

« ولأول مرة منذ أن وجه العالم المتطور اهتمامه ونظرته الى الفلاح ، لأن حالته قابلة للتنبؤ والتوجيه ، فان الفقر والجهد الكبير بدون عائد أصبحا قابلين للشفاء بمجهودات الانسان التى توجد أصولها فى زيادة وتنويع الموارد التى يجب أن تستغل بمساعدة الفرص التى قدمها العلم الحديث ، تلك الفرص الهادفة المتاحة لكل الناس بغض النظر عن مكانتهم أو مراتبهم الاجتماعية» .

ومع الآمال المتزايدة للفلاحين الفقراء (مع تعريف أوضح للقوى التى تحاول أن توقفهم) ازدادت القيمة السيكولوجية للتكنولوجيا الحديثة ، التى تهدف الى زيادة الربح فى الزراعة ، وهذا شجع الكثير من ملاك الأراضى على الاهتمام بزراعة اراضيهم ، ومهدت لذلك ايضا سياسة الحكومة الهندية عن طريق مساندة سياسة الأسعار والضرائب الزراعية المنخفضة .

وقد حفزت التكنولوجيا الحديثة فى ميدان الزراعة بأرباحها وعائدها الكبير

عدة ملاك كبار وجهوا انشطتهم واهتمامهم الى الزراعة ، ومهدت لذلك سياسة الحكومة الهندية عن طريق مساندة سياسة الأسعار المرتفعة والضرائب الزراعية المنخفضة . وكان كثير من ملاك الأراضى الذى يؤجرون معظم أراضيهم قد تحولوا الى مزارعين راسماليين مستثمرين . وقد اتجهت حسابات التفاضل لأكبر المكاسب للرأسمالية الباردة فى تقويم وضعها على التزاماتها التقليدية (وذلك هو تبادل الخدمات وتبادل المنفعة) بالنسبة للمستأجرين أو العمال المؤقتين . فالأرباح الناتجة عن التكنولوجيا الحديثة والارتفاع المترتب عليها فى قيمة الأراضى جعلا ملاك الأراضى أقل ترددا فى طرد المستأجرين واسترجاع الأراضى بقدر المستطاع لزراعتها على الذمة . أما من حيث السماح للمستأجر بالبقاء فالمالك يصمم غالبا على رفع قيمة الايجار أو اقتسام المحصول ، ويحاول أن يخادع المستأجر بطرق مختلفة حتى لايكون له أى حق فى الزيادة المحصولية . وقصور فاعلية قوانين حماية المستأجر او تنظيمات الايجار الموجودة حاليا تعجز فى معظم الحالات عن منع كل ذلك من الحدوث .

ومثل هذا يحدث فى استخدام العمال الزراعيين وفصلهم ، فتميل ترتيبات المساومات غير الشخصية عن طريق الوسيط الى احتلال مكانة العلاقة التقليدية بين العامل وصاحب العمل . وعلاوة على ذلك فان جزءا كبيرا من المرتبات والعلاوات العينية التى تعودوا أن يدفعها لهم أصحاب العمل تدفع الآن نقدا ، وهذا يعتبر مكسبا لصاحب العمل وميزة فى حالة زيادة الأسعار . ولذلك يجد عدد كبير من العمال انفسهم الآن ، وقد أصبحوا غير مطمئنين للنظام اليومى لسوق العمل غير المستقر ، فى جو أكثر اطمئنانا نسبيا تحت ظل العلاقة شبه الاقطاعية التى تربط مالك الأرض بمزارعيه .

وكان لسرعة انهيار وتخلخل العلاقات التقليدية للانتاج الزراعى المنفذ فى بعض المناطق بسبب ظهور من يسمون «المزارعين الوجهاء» (وهم من أصل حضرى ، كضباط الجيش المتقاعدين ، والموظفين ، وأصحاب الأعمال الذين اتجهوا الى الزراعة وادارة مزارع حديثة فى الريف المحيط بالمدن التى يسكنونها . فهم لاينتمون الى الطبقة التقليدية للزراع ، وغير مرتبطين بالروابط الاجتماعية ، وغير ملزمين بالنظم التقليدية للريف) ان عملوا على تذليل مشاكل الاشراف على العمالة وجعلها اقتصادية ، وقد كانوا من الأوائل الذين أدخلوا الميكنة الزراعية فى عمليات الحرث والرى والحصاد لتحل محل العمالة اليدوية .

فبالرغم من رفع وتحسين وتوثيق الاتجاهات الاجتماعية فى العلاقات بين الملاك الكبار والمستأجرين ، والملاك الكبار والعمال ، فان الأسلوب التكنولوجى الحديث كان أقوى وله أثره الموجه للأنظمة الاقتصادية فى تجمعات الزراع والعمال الزراعيين . ويقال فى معظم الأحيان أن التكنولوجيا الحديثة هى «ميزان طبيعى للتعادل» ، وهذا يعنى أن سلالات الحبوب ذات الانتاج الكبير يمكن استخدامها وتطبيقها على مستوى متكافىء من الكفاءة والكفاية فى المزارع الصغيرة والكبيرة . وهذه حقيقة علمية بالنسبة

لاستخدام البذور المنتقاة والمخصبات والمبيدات الحشرية ، ولكن فى حدود . وحيث ان استخدام المدخلات الأكبر عائد مطلوب يحتاج الى توقيت محكم لتنظيم كميات مياه الرى ، مع ان وضع الفلاح الصغير هو وضع غير المنتفع بنظام الرى الحالى ، حتى ولو كانت قنوات الرى والمشروعات الحكومية والاستثمار فى الآبار الأرتوازية بمضخات وآلات وأدوات تكميلية ميكانيكية لتزويد الحقول بالمياه ميسورة ، فان هذا يتعارض مع كفاءة استغلال التكنولوجيا الحديثة ، وتأمين توقيت منظم للرى ، حتى ولو كانت الأمطار كافية ، لأن عمليات الرى تحتاج الى استثمارات فى أعمال تكميلية ، مثل مشاريع لخزن الماء ومضخات لرفعها ، وهذه ضرورة حتمية . ولما كان الفلاحون لهم قدرات مختلفة فى الاستثمار فالمزارع الصغيرة التى كان لها فائض متواضع لايكفى استثماره فىمشروعات التكنولوجيا الحديثة ليس لها من هذا التوازن شىء فى هذه الحالة ، فهى تحتاج الى الكثير منها ، وبالاضافة الى ذلك فالمزرعة الصغيرة لايمكنها فى اغلب الاحيان الانتفاع الأمثل من الآبار الارتوازية أو الأجهزة المماثلة .

وبالنسبة لصغار المزارعين فانمدخراتهم المتواضعة لاتكفى لتمويل الاستثمارات اللازمة فى مشروعات الرى الاضافية وسد حاجتهم لشراء الأسمدة والصرف على العمليات الزراعية الكبيرة المتعددة التى تفرضها عليهم التكنولوجيا الحديثة ، فلايجد المزارع أمامه الا مصدرا واحدا هو الاقتراض . والاقتراض فى ريف الهند سواء كانت مصادرة خاصة أو حكومية ينحكم فيه وضع المالك ومركزه . وحيث تكون الأرض المملوكة ـ فى هذه الحالة ـ هى الضمان الرئيسى فى مباحثات القروض فان عقبات تلازم اتفاقيات اعطاء القرض بشروط ملائمة ، حتى الجمعيات التعاونية للتسليف والبنوك العقارية للرهون ، وهى تتميز بسياسة تسليف متحررة ، تشترط عادة أن يكون الزراع فى وضع يمكنهم من رهن ما لا يقل عن اربعة أفدنة واحيانا سبعة أفدنة من ارضهمواحيانا سبعة أفدنة بصفة ضمانحتى يستطيعوا الحصول على قرضطويل أو متوسط الأجل لتكلفة بئر ارتوازى أو مضخة . ومن شأن هذا استبعاد أغلبية صغار الزراع فى نطاق الأرز . ونتيجة لذلك لايكون لدى صغار الزراع مصدرمضمون للماء . وهذا بالتالى يعنى عدم استطاعتهم استخدام قروض الانتاج القصيرة الأمد لشراء أسمدة ، الخ ، وتلك ظاهرة يفسرها أحيانا موظفو البنك التعاونى بأنها نقص فى الطلب . وتظهر المشكلة بالطبع بصورة أكثر حدة بالنسبه لعدد كبير من المستأجرين والمزارعين بالحصة ، الذين لا يملكون أرضا ويزرعون بالمشاركة ، ولذلك ليس عندهم أى ضمانات تتيح لهم فرصة الاقتراض ، وغالبا يرتبط صغار المستأجرين بارتباط شفوى فلا تتاح لهم فرص الاقتراض ، ولا حتى القروض التعاونية القصيرة الأمد ، ليمولوا الانتاج المستمر ، فيتوجهون جميعا يتلمسون عطف مرابى القرية .

اما بالنسبة للعمال الزراعيين فيمكن أن يقال أن الثورة الخضراء قد صاحبها تمنيات لهؤلاء الذين يعملون اجراء فى مزارع صاحب الأرض . ويتمثل ذلك أولا

فى زيادة الطلب على اليد العاملةلحصاد ودراس الغلات الوفيرة المنتجة . ويتمثل ثانيا فى تحسين العمليات الاجرائية فى التسميد واستعمال المخصبات وتداخل عروات المحاصيل وبخاصة المحاصيل القصيرة المواسم والسريعة النمو والوفيرة الغلة . ومن ناحية أخرى فان الكثير من الأعمال المعدلة ، كالاستعمال الشامل للأسمدة الكيماوية ، تجعل المحاصيل والحصاد المتضاعف للأنواع السريعة النمو ذات الغلة الكبيرة من الأهمية بمكان . وتحتاج انجازات هذه الأعمال طبعا الى عدد كبير من العمال ، مما قد يزيد من الطلب على العمال المأجورين وتضمن لهم عمالة مستمرة ، حتى الجرارات التى تعد بديلة لليد العاملة فى عملها فى الحرث واعداد احواض البذور تعد مستغلة لليد العاملة عندما تستعمل فى ضخ المياه وفى الحصاد على نطاق واسع . وفى دراسة للباحث ماهاراشترا اتضح أن ٥٤٪ من زيادة الانتاج فى المناطق التى تتبع دورة ثنائية تستلزم استخدام الجرارات . ويمكن القول ان النتيجة الظاهرة لاستعمال الجرارات أنها استبدال لليد العاملة وان لم يكن ذلك مؤكدا ، ولكن المدخل أو العامل الذى له أثر على خفض الطلب من اليد العاملة هو قاتل الأعشاب الضارة الذى يمثل جزءا هاما من العملية المحسنة ، أما الآلات الميكانيكية الأخرى كالمحاصد الميكانيكية فهى تعد بالطبع بديلة لليد العاملة .

هذا ، وبغض النظر عن موضوع تقديم عمالة مستمرة ، وبمعدل اكبر ، فالتكنولوجيا الحديثة تضع جدولا زمنيا منظما للعمليات الزراعية . وعدم اتاحة فاصل زمنى أطول بين المحاصيل يزيد من الحاجة الى عمل سريع ومركز من جانب العمال ، وهذا أيضا يزيد من قوتهم فى مساومة أصحاب العمل على الأجور .

اما بالنسبة للجانب الآخر المتعلق بعملية طرد المستأجرين ، المفترض أنها بسبب الرغبة فى زيادة الربح عن طريق الزراعة على الذمة ، فيمكن أن يحل بطريق غير مباشر ، أى بسن القوانين الخاصة بتأجير الأراضى ، حتى تقابل الضغط المتزايد للسكان على الأرض ، ولتواجه مشكلة تضخم أعداد العمال الزراعيين فى سوق العمالة . وبمقارنة البيانات الاحصائية فى الهند فى سنة ١٩٦١ وسنة ١٩٧١ نجد أن نسبة العمال الزراعيين لمجموع القوى العاملة الزراعية فى الريف (وهم من الذكور) قد تزايدت من ١٥٪ الى ٢٥٪ . وتشير احصائيات كل ولايات الهند الى أن هذه الزيادة صحيحة .

وفى هذا الموضوع المهم يجوز أن نستشهد ببعض البراهين التى توضح حالة العمال الزراعيين وظروفهم فى ولاية هاريانا ، وهى حقا قلب الثورة الخضراء فى الهند . لقد وجد من دراسة فئة تضم ١٤٢ من الأسر العاملة فى عام ١٩٧٠/٦٩ أن عدد أيام العمل الفعلية كانت نصف الأيام المحتملة للعمل ، ومع ذلك فان الرقم القياسى لمتوسط معدلات الأجر الحقيقى للعامل الزراعى لم يطرأ عليه أى تحسن فى هاريانا فى الفترة الزمنية من ١٩٦٣ الى ١٩٧٠ . وقدر أيضا أن مستوى حوالى

٦٠٪ من العمال ذوى الأسر فى هذه الولاية يقع تحت مستوى الفاقة (عرف مستوى الفاقة بدخل ٢٠ روبية هندية أو ٢٫٧٥ دولار امريكى للفرد فى الشهر : تقدير لجنة التخطيط لحكومة الهند ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠) .

وتوضح النتائج الاحصائية للسكان الريفيين على المستوى العام للهند أن النسبة المئوية للأفراد الذين وصلوا الى ماتحت مستوى الفاقة قد تزايدت نسبتهم بعد عام ١٩٦٠ . وفى الحقيقة يتكرر مثل هذا فى معظم الولايات بما فيها هذه الولاية التى أحدثت بها الثورة الخضراء تقدما واضحا . وتوحى هذه الحالة بأن الثورة الخضراء لم يكن لها من القدرة ما تستطيع به رفع كاهل الفقر عن الزراع والعمال الزراعيين المعدمين .

وتحت تأثير هذه الظروف ينتظر طبعا توتر أو تبرم فى تلك المناطق الرراعية . واكبر برهان على ذلك انه تخللت السنين القليلة الماضية حالات عدم الاستقرار والاضطراب والاعتداءات وأعمال العنف فى كل مكان فى ريف الهند . وقد سجل تقرير وزارة الشؤون الاجتماعية فى حكومة الهند لعام ١٩٦٩ عن الأسباب الطبيعية لتيارات التوتر فى المناطق الزراعية اثنتين وستين حالة من حالات الاضغرابات فى المناطق الزراعية عن عامى ١٩٦٧ و ١٩٦٨ ، وكانت ٥١ حالة من هذه الاضطرابات قد قامت بها فئة المعدمين ضد مالكى الأرض للضغط عليهم لتلبية مطالبهم ، وهى : زيادة الأجور للعامل الزراعى ، والاستقرار والطمأنينة للمستأجرين ، ونصيب أكبر للزراعيين بالمشاركة ، واعادة توزيع الأراضى (أى العناصر الرئيسية للاصلاح الزراعى) . ومن السهل طبعا الاعتراض على وجود علاقة بين نشوب هذا الصراع الزراعى والثورة الزراعية ، حيث يكون الأمر دقيقا وحساسا بالنسبة للتنمية الزراعية ، فقد وقعت معظم الأحداث فى السنين القليلة الماضية فى بعض الأقاليم بشرق الهند وجنوبه ، وبالأخص فى المساحات الكبيرة فى غرب البنغال وكيرالا ، وجزئيا فى اشبرا براديش وفى دلتا كافيرى فى تاميلناد .

وهذه المناطق فى الطليعة بالنسبة للثورة الخضراء ، وهى فى الحقيقة أقاليم زراعة الأرز فى الهند ، فى حين أن الثورة الخضراء اخذت طريقها أولا ــ كما سبق أن ذكرنا ــ فى مناطق انتاج القمح ، وعلاوة على ذلك فان مناطق زراعة الأرز ليست هى المناطق المتقدمة من الناحية التكنولوجية .

ولو حاولنا تحليل بعض الخصائص العامة لقيام هذا الصراع فى هذه المناطق فان كثيرا من العوامل التى أوضحت الموضوع تملى نفسها علينا ، فمعظم هـذه المناطق أقاليم مزدحمة بالسكان ، حيث أن معدلات كثافة الأفراد بالنسبة للأرض عالية جدا . وينتج عن ذلك خصائص أخرى فى معظم هذه المحليات كارتفاع نسبة العمال غير المالكين عن المتوسط . فمثلا وجد فى ١٩٦٤/١٩٦٥ أن نسبة عامل رب أسرة (وهو يعتمد أساسا على أجره وليس مزارعا له ملكية) الى مجموع أرباب الأسر ٤٣٪ فى كيرالا ، و ٣٤٪ فى أنهرا براديش ، وكذلك حوالى ٢٥٪ فى البنجاب، أما فى هاريانا فكانت حوالى ١٧٪ .

وفى المناطق التى ترتفع فيها نسبة العمال الذين لا يملكون أرضا ، أو يملكون مساحات ضئيلة ، ينبثق الصراع على المصالح بين الذين يملكون الأراضى والذين لا يملكون من الوعى الاجتماعى وتوجيـه التنظيمات السياسـية . وقد أكد أحد المراقبين أنه بمقارنة زراعة الأرز المائى بزراعة القمح يلاحظ أن الأولى تتطلب عملا شاقا ومضنيا ، وكان نتيجة لذلك أن طبقة الفلاحين المتوسطة فى السلم الاجتماعى (بعكس مناظريهم فى مناطق زراعة القمح) يميلون الى تجنب العمـل البدائى فى هذه الزراعة . وذلك يبين أن التفرقة بين الذين يقومون بالعمل اليدوى فى الحقول والذين لا يعملون هو فى حد ذاته فرق كبير فى مناطق زراعة الأرز .

وتظهر نقطة أخرى مرتبطة بموضوعنا هذا ، هى أنه فى بعض المناطق يوجد بين العمال الزراعيين علاقة مترابطة من التجـانس الطائفى ، وهـو عامل مهم له فاعليته فى ثاجافور الشرقية فى تاميلنادر وفى بعض مناطق كيرالا . وقد سـهلت هذه الظاهرة للقادة السياسيين المحليين اقتراح سياسة عامة لتعريف الجمـاعة وتوحيدها . ومع ذلك فهناك درجة مشابهة من التجانس الجمـاعى نلاحظهـا فى بعض مناطق القبائل فى البنغال الغربية ، بيهار واندربراديش ، حيث قام الفلاحون بتمرد متناثر فى السنوات الأخيرة . وقد سـاهم فى ذلك ارتفـاع نسـبة التعليم واستثارة وعى الفلاحين من الناحية السياسية والاقتصادية كما هو فى كيرالا .

وبعض هذه الأسباب لا يثير الدهشة ، فمن الملاحظ ان اتحـاد التجـارة الزراعية كمثال قد أصبح ناجحا نسبيا فى بعض هـذه المناطق . وقد يكون من الصعب أن نشرح بصراحة لماذا ارتفعت نسبة أجور العمال الزراعيين بسرعة كبيرة فى سنوات العقد السابع فى كراه وتاملناد واندرابرادش ، بالرغم من ضغط زيادة

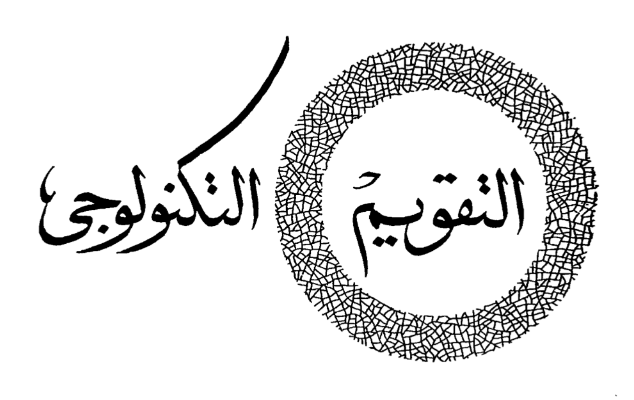
عدد السكان الكبير نسبيا على الأرض بالمقارنة ببعض المناطق فى الشمال الغربى للهند حيث تعتبر الثورة الخضراء فى أوج مجدها .

ونحن لا نقصد بكل ما سبق ذكره أن نشير الى أن الثورة الزراعية لم تسهم فى تزايد التوتر فى المناطق الزراعية ، ولكن نريد أن نقول كما ذكرنا من قبل أن ازدياد قيمة الأرض وكذلك الفائدة التى تعود على الزراع على الذمة توعز بتشجيع كبار الملاك على طرد المستأجرين ، وتضعف من طمأنينة المستأجرين ازاء رفع الايجارات . وقد أثر ذلك وساهم فى رفع الأجور الزراعية ، وكان أيضا ممهدا للبواعث لاحلال العمالة البشرية بالميكنة فى العمليات الزراعية . وتساعد هذه الظروف السائدة من عدم المساواة فى تركيب نظام الملكية الزراعية وتوزيع الأصول الأخرى وامكانيات القروض والتسويق فى اظهار الثورة الخضراء بأنها ساهمت فى حل مشكلة الفوارق البغيضة فى توزيع الدخول المحتملة بين كبار وصغار الزراع ، فيستطيع الأول أن يكتسب نصيب الأسد فى تدفق المكاسب ، فى حين أن الأخير يشقى بسبب يقظة فكره المفاجئة ورغبته المعطلة فى تحسين أملاكه وانتاجه . وكان للمحاكاة وتأثير التكنولوجيا الحديثة والرخاء المترتب عليها لمن يملكون الموارد الوفيرة اللازمة لها أثر على الروابط والواجبات التقليدية ، وتحللهم منها باستنكار بعض التشريعات الاجتماعية التى تدعم القانونية لتقارب الفروق الاقتصادية ، ولتحل محل الميول التقليدية فى الانقياد والخضوع عن طريق زيادة تأكيد معاونة الفقراء . وهذا التوتر المستغل يمكن أن لا يظهر واضحا ويتخذ شكلا من الأعمال المكتسبة والمتفق عليها ، الأمر الذى يعتمد على درجة التنظيم الاجتماعى والسياسى . ويظهر هنا مقدرة القيادة فى تركيز الاهتمام على المواضيع الحقيقية وتوجيه القرارات الى برامج بسيطة ولكنها فعالة .

وقد صاحب التوتر بين المالك والمستأجر الرأسمالى والعمالى مساهمة الثورة الخضراء بطريق غير مباشر فى التوتر والصراع بين العمال الزراعيين انفسهم فى كثير من المناطق ، فقد سببت التكنولوجيا الحديثة ارتفاع الأجور الناتج عن زيادة الانتاج ، مما دعا للحد من العمل على استيراد الأيدى العاملة من مناطق أو ولايات أخرى تمتاز بوفرة العمالة وانخفاض الأجور ، وبخاصة خلال مواسم الزراعة والحصاد ، وتكون النتيجة أن العمال المهاجرين يستطيعون خفض الأجور المحلية واضعاف قوة المساومة على الأجر بالنسبة للعمال المحليين الذين يعارضون هذه الأوضاع . وحدثت أمثلة كثيرة لمصادمات عنيفة بين الجماعتين من العمال

ومساندة أصحاب العمل للعمال المهجرين . وبالرغم من ذلك كانت المظاهرات فى ثانجافور سنة ١٩٦٨ من أكثر البراهين التى تدعم هذا القول ، حيث توجد كثير من النقط لابد من تحليلها ومعرفتها تدور حول المناطق المتقدمة فنيا فى مناطق مختلفة فى الهند . وهذه مشكلة لم تلق كثيرا من التفاصيل والبحث والاهتمام فى المؤلفات التى كتبت عن الثورة الخضراء ، وتعد أيضا واحدة من أصعب الموضوعات التى يحاول زعماء الأحزاب السياسية القومية وضع نظم لحركة العمال الزراعيين لمواجهة المستقبل القريب .

وختاما نقول أنه فى حيز أطر التنظيم غير المتكاملة فى ميدان الاقتصاد الزراعى فى الهند فان الثورة الخضراء ، حتى ولو أنها تفيد فى كثير من الأحيان كل الطبقات ، مازالت تهتم بالحرمان النسبى عند الفقراء . ومع التوسع فى محو الأمية والمواصلات والاتصالات والانتخابات الرشيدة ورفع الحواجز التقليدية للحركة الاجتماعية فان هذا الاحساس بالحرمان يظهر غالبا فى شكل عدم الاستقرار والتوتر . وينحصر الصراع فى المراحل الأولى للثورة الخضراء فى مناطق غنية فى شمال الهند وفى الشمال الغربى منها ، وهى المناطق التى كانت سببا للنسبة المرتفعة لمساحة الأرض المزروعة بالقمح والمزودة بنظام رى متقدم فى البلاد . ويمتاز هذا الجزء من الهند بأن أغلبية المزارع فيه شاسعة ومتكاملة نسبيا من حيث الامكانيات ، وتشغلها طبقات الفلاحين الذين يزرعون بنظام الأسر المنتجة ، ويقل اعتمادهم على عمال التراحيل . وانتشار التكنولوجيا الحديثة فى مناطق أوسع ، وبخاصة فى مناطق انتاج القمح فى بيهار والبنغال الغربية واورسا واندرابرادش وتاميلنادر وكيرالا ، هذه المناطق التى تتميز بمعدلات مرتفعة (فرد — مساحة زراعية) ونسب كبيرة من الممتلكات الصغيرة ، سيكون غير اقتصادى بسبب الأعداد الكبيرة من العمال الزراعيين والفروق الاقتصادية والصراع بين اهتمامات واتجاهات الطبقات التى تميل لأحداث توترات اجتماعية وسياسية فى هذه المناطق .



في ١٣ اكتوبر ١٩٧٢ أصدر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قانونا بانشاء مكتب مسئول امام الكونجرس للتقويم التكنولوجي عن المساعدة فى التعرف على الاستخدامات التكنولوجية الحالية وبحث التعارض بينها . وتنص مقدمة هـذا القـانون على أن الاستخدامات التكنولوجية كبيرة وآخذة فى النمو ، وانها تمتد وتنتشر ، وأن آثارها على البيئة الطبيعية والاجتماعية ــ مفيدة كانت أو ضارة ــ حرجة للغاية . وبناء على ذلك يرى الكونجرس الأمريكى أنه من الضرورى توقع نتائج الاستخدامات التكنولوجية وتفهمها وأخذها فى الاعتبار قبل اقرار أى سياسة عامة متعلقة بالمشـاكل القوميـة الحالية أو مايستجد منها .

وهذا التشريع وثيقة جديدة تغطى مدى أوسع مما يحويه القـانون السـابق الخاص بسياسة البيئة القومية الذى يتضمن انشاء مجلس «دراسة البيئة» المسئول عن اعداد القرارات الفيدرالية التى تؤثر فى مستوى البيئة التى يعيش فيها الانسان الأمـريكى . ويتناول التشريع بالاضـافة الى المشروعات التكنولوجية الفيـدرالية الاجراءات المنظمة للحد من تشجيع تطوير التكنولوجيا فى القطاع الخاص أو الحد من ذلك ومن الصعب التكهن فى الوقت الحالى بنتيجة التأثير النهـائى لكل من هـذين

بقلم : هـارفى بـروكس

عميد كلية الهندسة والفيزياء التطبيقية ، وعضو كلية الادارة العامة بجامعة هارفارد • رئيس لجنة العلم والسياسة العامة بأكاديمية العلوم بالولايات المتحدة • حجة فى المشكلات الخاصة بالعلاقات بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع •

ترجمة : المهندس إبراهيم عادل جندية

مدير المتابعة بديوان عام وزارة الصناعة •

التشريعين أو الارتباط بينهما نظرا لأن اختصاصات كل منهما متداخلة فى اختصاصات الآخر .

ويعرف «التقويم التكنولوجى» بأنه وسيلة للتخطيط والتنبؤ المنظم عن طريق الوقوف على تأثير التكنولوجيا على قاعدة منسجمة ذات زوايا متعددة . انـه تقويم للنواحى الايجابية والسلبية لنتائج استخدام التكنولوجيا ، تقويم للمكاسب والخسائر للبدائل ، هو تجميع للمعلومات على أساس شامل يهدف الى تسهيل عملية اتخاذ القرارات . هو باختصار برنامج شامل متعدد الجوانب يعتمد على تجميع الفنون التقنية الحالية واستخدامها فى جميع مراحل التحليل . ويحتاج التقويم التكنولوجى فى كل مرحلة من مراحل تنفيذ أى مشروع الى اجراء تنبؤات عن التكنولوجيا التى يجرى تقويمها وعن التكنولوجيات الأخرى المتعلقة بها والتى يحتمل أن تتنافس معها هذا بالاضافة الى أنه من الضرورى أن تؤخذ فى الاعتبار الظروف الاجتماعية والقيم التى يعمل بها المجتمع الذى ستطبق عليه التكنولوجيا الجارى دراستها .

ويمكن تحديد واجبات «التقويم التكنولوجى» بما يلى :

١ ــ تعـريف التناقضـات الحـالية أو المحتملة للتكنولوجيـا أو البرامـج التكنولوجية .

٢ ـ ايجاد الصلة بين الأسباب والنتائج ، ما أمكن ذلك .

٣ ـ تحديد الطرق التكنولوجية البديلة لتنفيذ البرامج المحددة .

٤ ـ تحديد البرامج البديلة للوصول الى الأهداف الضرورية .

٥ ـ اعداد تقديرات ومقارنات عن التناقضات بين الطرق والبرامج المختلفة .

وقد اصبحت الحكومة الفيدرالية مطالبة اليوم بالاهتمام ببرامج التنفيذ كاهتمامها بكيفية التنفيذ وتكاليفه ، بعد أن كانت المشاكل الى وقت قريب تحل عن طريق وضع الأولويات المناسبة لها ، ثم تعريفها وتخصيص الاعتمادات المالية لها . واستتبع ذلك ضرورة الارتفاع بمستوى قياس تأثير جميع الأنشطة فى القطاعين العام والخاص ومستوى الحكم عليه .

والنجاح الذى أحرزته الولايات المتحدة فى برنامج الوصول الى القمر يعضد فكرة أن المال والتصميم على بلوغ الهدف كفيلان بحل أى مشكلة ، كما أن نجاح أى تكنولوجيا مفيد من حيث هو ، يعكس هذه الفائدة أوتوماتيكيا على ما حوله ولكل تكنولوجيا أو مشكلة آثار غير منظورة ، لم تكن متوقعة ضمن الأهداف التى أعد البرنامج من أجلها ، وكلما زاد المجتمع تعقدا واعتمادا بعضه على بعضه الآخر أصبح التأثير الثانوى أوسع انتشارا ، وربما كان أهم من الهدف الاساسى نفسه ، وقد أدى ادراك هذه الظاهرة الى ضرورة تقويم التكنولوجيا وتقويم السياسة عامة .

يعتبر اصطلاح «التقويم التكنولوجى» مضللا لأنه يوحى بالاهتمام بوجه خاص بالتكنولوجيا ، فى حين أن القرار بالنسبة للتكنولوجيا لايمثل غير ناحية اجتماعية واحدة ، قد لاتكون بالضرورة أهم من النواحى الأخرى التى لاتتناول التكنولوجيا بطريق مباشر ، وهناك حالات كثيرة تكون فيها البدائل لاستخدام التكنولوجيا أو تنظيمها غير تكنولوجية اطلاقا . وعلى سبيل المثال فان حل أزمة الطاقة المعاصرة بالولايات المتحدة لايكون باستنباط تكنولوجيا جديدة لتوليد الطاقة ، ولكن بتغيير سياسة الحكومة تجاه تسعيرة انواع الوقود المختلفة وتجاه تحديد حصص الاستيراد او احتياجات الشحن من ناقلات البترول الأمريكية .

واذا اعتبرنا بعض البرامج الاجتماعية (مثل : التعليم الالزامى ، الضريبة على الدخل ، طرق التمويل ، الأحقية فى الرعاية الطبية الشاملة) كتكنولوجيا اجتماعية امكن اعداد برامج لها داخل نطاق «التقويم التكنولوجى» ، ويمكن تأكيد أن تفهم المشكلة واتباع الطرق العلمية لتقويم هذه البرامج لايختلفان عن الطرق المتبعة فى تقويم التكنولوجيا الطبيعية . هذا بالاضافة الى انه كثيرا ماتصبح التكنولوجيا ـ التى تبدو اجتماعية ـ متداخلة فى التكنولوجيا الطبيعية وآثارها الثانوية . وعلى سبيل المثال فان العلاج الطبى الشامل بالولايات المتحدة يتطلب بيانات وافية عن الأشخاص، ومع عدم توفر الضمان التكنولوجى والتشريعى فى القانون قد يساء استخدام هذه البيانات .

ومن المؤكد أن تنظيم استخدام التكنولوجيا أو منع استخدامها أمر له ما على النتائج غير المنتظرة من الأثر ، كاستخدام التكنولوجيا الجديدة ، وقد تكون المشاكل فى حالة عدم وجود تكنولوجيا أكثر صعوبة من تقويم أى تكنولوجيا مقترحة . وفى حالة اتخاذ قرار بمنع استخدام نوع من التكنولوجيا أو الحد من انتشاره فانه يلزم تحديد نوع آخر من التكنولوجيا يحل محله ، نظرا لأن أى تعديل فى الهيكل الاجتماعى قد يحدث آثارا غير مرغوب فيها . من أمثلة ذلك تأثير انخفاض كمية القوى الكهربائية فى ولاية نيويورك على مستقبل العمالة بالنسبة للسكان ذوى الدخل المنخفض . ومثال لفشل تقويم التكنولوجيا البديلة عدم امكان تحديد الأضرار الصحية التى قد تنجم عن استبدال الفوسفات المستخدم فى صناعة مواد التنظيف . ومثل آخر هو احتياج محطات التوليد الكهربائية الى فحم تكون نسبة الكبريت فيه منخفضة، وما لذلك من تأثير على عملية استخراج الفحم من المناطق القاحلة فى غرب الولايات المتحدة . ومما سبق يتضح صعوبة تجزئة «التقويم التكنولوجى» أو «تقويم ظروف البيئة» .

وهناك وجه آخر لتقويم المشروعات يتعلق بالنظم الاجتماعية التى تقوم بمساعدة هذه المشروعات وتمويلها ، وغالبا تكون علاقة هذه النظم بالآثار الثانوية أكبر من علاقاتها بالتكنولوجيا نفسها . وتبدو هذه العلاقة واضحة فى مجال التلفزيون ، فان طبيعة البرامج التلفزيونية وتأثيرها الاجتماعى فى الولايات المتحدة تكيفها المساندة المالية للاعلانات التى تقدمها الشركات الكبيرة . ويعتبر هذا النظام ذاتيا للمساندة بمعنى أن التلفيون يقوم بتسهيل ايجاد سوق محلى متجانس ، وهذا بدوره يقوم بتوجيه البرامج التليفزيونية . والعلاقة بين التكنولوجيا والنظم الاجتماعية فى مجال الاعلام والمواصلات وثيقة ولايمكن فصلها ، كما لايمكن النظر الى التكنولوجيا على أساس أنها متغير مستقل تعتمد عليه البرامج والاستخدامات . فالتكنولوجيا تخلق بعض المجالات للتأثير على تطور نظم المساندة المالية ، ولكن هذه النظم بدورها تحدد نوع التكنولوجيا التى يختارها المجتمع .

وفى بقاء وتطور نظم المساندة المالية مايؤكد أن النظام التكنولوجى يتضمن قدرا كبيرا من التقويم التكنولوجى . ومن الخطر اعتبار التكنولوجيا «متغيرا مستقلا» واعتبار التطور التكنولوجى حتمية يحددها المنطق التكنولوجى وحده ، لا التأثير الخارجى . ولايمكن تفادى استرجاع الحوادث بالنسبة للاتجاهات التكنولوجية ، اذ أنها كالتاريخ ذات جاذبية خاصة . وبالحكمة والفراسة يمكن التعرف على الاتجاهات التى تتحكم فى المستقبل والتغاضى عن باقى الاتجاهات التكنولوجية الأخرى . والتطور التكنولوجى ، كتطور علم الأحياء ، عملية وفيرة ، ولها احتمالات كثيرة ، علاوة على مايضيفه التطور نفسه من استخدامات .

والمنطق التكنولوجى مثل المواد التكوينية التى تمر من جيل الى جيل ، وادراكه الوراثى لايتأثر كثيرا بالبيئة الاجتماعية ، ولكن المجتمع يتدخل عن طريق التحكم فى اتخاذ القرار الذى يحدده المنطق التكنولوجى . وبتحديد الخط التكنولوجى الذى

يتبع يكون المجتمع قد حدد القائمة التكنولوجية التى منها يبدأ التطور المنطقى التالى. وبهذه الطريقة يمكن تحديد المنطق العلمى والتكنولوجى الذى يبدو مستقلا استقلالا ذاتيا عند النظر اليه خلال مقياس دقيق بهيكل وآراء المجتمع عند النظر اليه خلال مقياس زمنى أطول ومحيط أوسع .

عند ظهور نظرية داروين عن الاختيار الطبيعى كان من الصعب على الناس أن يفهموا كيف ان نظرية الوراثة لاتتأثر بالعوامل المحيطة ومع ذلك تتأثر بالعوامل الخارجية . واغلب الذين يكتبون حاليا عن التكنولوجيا والمجتمع يتجهون الى تطبيق نظرية الوراثة على التطور الثقافى ، ويعتقدون أن المجتمع لايؤثر فى التكنولوجيا الا اذا تحكم مباشرة فى تطورها ، غير مدركين كيف أن الطرق الثقافية المستقلة مثل العلوم والتكنولوجيا تطبق على الظروف الاجتماعية المحيطة بسبب استخدام نظرية التطور .

ويتضح أن الاستقلال الظاهرى للتكنولوجيا يكون حادا خلال الفترة التى تمر فيها الظروف المحيطة بتغيرات سريعة . وبما أن التكنولوجيا هى عملية تطوير طويلة الأمد فانها لاتتمشى مع القيم والتوقعات الجديدة لأنها فى الحقيقة بعثت خلال جو مختلف من القيم والآراء .

ومما سبق يتضح أن «التقويم التكنولوجى» هو وسيلة ثقافية وسياسية جماعية لاكتشاف وتقويم واقرار انسب الحلول التى تتيحها التكنولوجيا ، بما فى ذلك التكنولوجيا التى ستتطور وتستخدم وتنتشر .

ومع انه يمكن تحليل نتائج الاختيارات التكنولوجية المختلفة فانه لايوجد أساس علمى ملموس يستند اليه القرار النهائى . واتخاذ القرارات عملية سياسية تعتمد على طرق تبادلية معقدة وعلى مفاضلات بين مصالح وقيم اقتصادية وسياسية وعقائدية متضاربة ، وتتضمن عوامل المفاضلة مايتم الوصول اليه بالمناقشة ، بالاضافة الى المصالح والقيم المتضاربة . وعلى سبيل المثال فان سبب معارضة الكثيرين لوسيلة النقل بالطائرات التى تفوق سرعة الصوت يرجع بصفة أساسية الى أنه رمز للتكنولوجيا المطلقة ، لا لتأثيره على الظروف المحيطة أو للامكانيات الاقتصادية . ومما لا شك فيه أن الضغوط لخلق أدوات تقويم التكنولوجيا ترجع الى توقعات غير صحيحة بأن آراء الخبراء وحدها يمكنها تحليل الاختيارات الصعبة . ويعتبر التحليل العلمى الملموس فى النظام الأمريكى وسيلة جذابة لتقنين الاتفاقات السياسية العامة، ولتفادى النقد الذى يقدم على هيئة خبرة ، والذى يمثل غالبا مجموعة مختلفة من المقترحات بالاضافة الى الاقتراح السائد .

ولاينبغى الاقلال من قيمة التحليل على أساس ان الاختيار النهائى عملية سياسية ، فالتحليل يوضح الصلة بين القيم ويكشف التناقضات والاختلافات الأساسية بين القيم ، كما يوضح أن التعارض فى المصالح بين الجماعات وهمى ، وأن هناك بعض السياسات يمكن أن تستفيد منها مجموعتان مصالحهما متعارضة .

وباظهار التكاليف المتعلقة بالاختيارات المتخلفة يمكن للتقويم التكنولوجى أن يقود الناس الى اعادة التفكير فى قيمة الاهتمامات التى تخصهم . وقد تقاوم بعض المجموعات ــ بدرجات متفاوته ــ الجهود لتحسين البيئة وفقا للتكاليف التى تتحملها الحرية الشخصية أو التنمية الاقتصادية ، ولكن تمسك هذه المجموعات يقل بمجرد اكتشافها للثمن الاجتماعى الحقيقى لبعض القيم والاختيارات عند تحليلها . وقد يظهر التحليل أن بعض الاختيارات التى تعتبر قيما تتحول الى تنبؤات متخفية تتعلق بقيم أساسية أكثر أهمية ، وعلى ذلك فالتمييز بين القيم والحقائق نسبى الى حد ما ، ويتوقف على مستوى المعرفة ، وكلما تقدمت المعرفة أمكن تطبيق عدد كبير من الاختيارات على عدد قليل من القيم الواسعة الانتشار . والواقع ان هذا الأمل الأخير يبرر أهمية القيمة السياسية للتقويم التكنولوجى .

ويمكن فى بعض الحالات استبدال «التقويم التكنولوجى» بتقويم «الهدف من التكنولوجيا» ، اذ قد يؤدى ذلك الى اكتشاف أن الهدف الأساسى يتعارض مع أهداف أكثر أهمية للمجتمع . ولذلك فمما هو أكثر فائدة التحدث عن «تقويم المشاكل» بدلا من «التقويم التكنولوجى» . ويوصى «التقويم التكنولوجى» بالبدء من تكنولوجيا محددة ، تكون غالبا تكنولوجيا جديدة ، ثم محاولة استكشاف أكبر مجموعة من الوسائل لمقابلة هذه الحاجة أو لحل تلك المشكلة . وقد يكون تقويم نتائج التكنولوجيا البديلة جزءا من الطريقة ، ولكن بعض هذه التكنولوجيات لا يكون فى حاجة الى تقويم لأنه غير مناسب لكى يتخذ سبيلا لحل المشكلة . وبالاضافة الى ذلك لا تخلو عملية تقويم المشاكل من العوائق لأن المشاكل تعرف بأهدافها الرئيسية ، فى حين أنه قد ينتج عن حلها آثار ثانوية لأهداف أخرى . واختيار الحلول للمشاكل قد يؤدى الى مكاسب أو أضرار للمجموعات الاجتماعية المختلفة ، بما فى ذلك بعض المجموعات التى لا صلة لها بعملية التقويم .

ويعتبر الحجم أحد العناصر المهمة فى التقويم التكنولوجى ، اذ قد يكون معدل الزيادة فى التأثير الاجتماعى أو البيئى لاستخدام التكنولوجيا أكبر بكثير من معدل الزيادة فى حجم استخداماتها .

واذا نحينا مؤقتا المسائل المتعلقة بتكنولوجيا الحرب فسيتضح لنا أن أسباب البدء فى استخدام أى تكنولوجيا هو أنها تؤدى منفعة لبعض الأشخاص بتكاليف أقل بالنسبة للاشخاص الآخرين . وكثيرا ماننسى أن فساد الجو الذى تحدثه السيارات بالنسبة لنقل الراكب الواحد مسافة ميل واحد يقل عما تحدثه الخيل ، وأن الأراضى الزراعية التى تحتاج اليها السكك الحديدية بالنسبة لنقل عدد من الركاب مسافة ميل واحد اقل من الأراضى اللازم تخصيصها لامداد الخيل بالغذاء لتقوم بنقل هذا العدد من الركاب هذه المسافة .

وتعتبر ازمة النقل مثلا للأضرار الناجمة عن الزيادة السريعة فى عدد الركاب بالنسبة لعدد السيارات وعلى ذلك يمكن اعتبار أن عددا كبيرا من التأثير الجانبى

الضار للتكنولوجيا هو نتيجة لتجاوز استخدام هذه التكنولوجيا عن الحد المقرر لها، وعليه يجب تحسين التكنولوجيا وتغييرها واستبدالها أو تعـديلها كلمـا زاد حجم استخداماتها . فكلما زاد استخدام السيارات أصبحت فى حاجة الى طرق حديثة ونظم دقيقة للتحكم فى المرور ، وكلما زاد استخدام الطائرات كانت الحاجة أكبر الى المطارات والى نظام للتحكم الجوى والتحكم فى الاقلاع والهبوط والى تخفيض الصوت الناتج عن المحركات النفاثة والى التوقيت العلمى لتحرك الطائرات . ومن ذلك يتضح أن الأضرار الناجمة عن استخدام التكنولوجيا ليست نتيجة للتكنولوجيا الجديدة أو التقدم التكنولوجى ، ولكن سببها هو الحاح التكنولوجيا القديمة التى أصبح حجم استخداماتها يفوق امكانياتها ، أو سببها هو التخلف فى تطوير التكنولوجيات المساعدة لهـا .

واذا نضج نوع من التكنولوجيا فانه يصبح متجانسا وأقل استعدادا للتغيير أو التبديل ، ويؤدى نجاحه هذا الى تجميده فى قالب يمليه عليه الخوف من الانحراف عن النمط الناجح ، والخوف من القاء أعبـاء جـديدة على التمويل أو على هيكل التسويق .

خلال المراحل الأولى لاستخدام أى تكنولوجيا جديدة تظهر احتمالاتواختيارات كثيرة ، وتتنافس الوحدات الصغيرة ، كل منها يسـاند نوعا مختلفا من التكنولوجيا الأساسية ، وكل منها يحاول أن يسيطر على المجال ، ثم يبدأ بالتدريج أحد الأنواع فى النجاح . وعلى الفور يقوم الحجم الاقتصادى للانتاج والتسويق بمساعدته ضد الاختيارات المنافسـة . ويضيق مجـال الاختيارات التكنولوجية التى تسـتحق الاهتمام ، وتتجه الأبحاث الى تحسين الانتاج الحدى ، أو الى تحسين جودة الانتاج ، ويعتبر التوسع فى الاستخدامات قضية مسلما بها . ثم تقوم التكنولوجيا الجديدة ونظم المساندة المالية المتعلقة بها خلال نجاحها بتكوين نظام اجتماعى قائم بذاته ، يزيد فى النمـو باسـتمرار ، ويصـبح غـير قابـل للتكيف مع التغيير الذى يوجبـه نجاحه .

وهناك عدة ردود فعل محتملة للحالة السابق توضيحها . التقويم التكنولوجى هو أحد هذه الحالات . وفى هذه الحالة يكون هـدفه هـو توقع النتائج الناجمة عن الاستخدامات المتزايدة ، واجراء البحوث ، ومراقبة النتائج المتعلقة بها ، واستخدامها كدافع نحو التطوير المستمر . بعض ذلك يمكن أن يتم قبل اسـتخدام التكنولوجيا الجديدة ، ولكن من النادر أن يكون التحليل أو التنبؤ دقيقا بالدرجة التى تمكننا من توقع نتائج الاستخدامات الكبيرة لهذه التكنولوجيا مقدما ، وعلى ذلك فان التقـويم التكنولوجى يجب أن يكون أقل اهتماما أو تعلقا بالتكنولوجيا الجديدة ، وأن يكون أكثر اهتماما بمراقبة نتائج التكنولوجيا القائمة لمحاولة دفعها نحـو التطور المناسب للتغيير فى حجم التشغيل بالاضافة الى التغيير المحتمل فى المجتمع .

تعتبر المساهمة العامة احدى دعائم الادارة الاجتماعية والتحكم فى التكنولوجيا،

وهي تتعلق بالتكنولوجيات التي تعتمد على التمويل العام مثل الطاقة الذرية ، ويمكن القول بأن المساهمة العامة فى اتخاذ قرار بالنسبة للتكنولوجيا يتم عن طريق السوق، فالجمهور يدلى بصوته عن طريق محفظة نقوده ، وهو يكافىء الذين يخترعون وينتجون التكنولوجيا التى يحتاج اليها . وقد يغير الاعلان مايعتقد المستهلك انه يريده ، ولو انى أعتقد أن تأثير الاعلان على الخليط التكنولوجى المطلوب هو تأثير مغالى فيه . وقد يؤثر الاعلان فى الاختيار بين الطرازات المتباينة والتصميمات المتعلقة بسلع تكنولوجية أساسية مثل السيارات ، ولكنى اشك فى انه يؤثر فى حاجة الجمهور الى سلعة ذات مواصفات محددة .

وقد يحجب الانتاج الاقتصادى لنوع من التكنولوجيا عن بعض طبقات المستهلكين التكنولوجيات الاخرى التى تفيدها والتى ليس لها سوق كبير . واستبدال النقل العام بالسيارات الخاصة هو مثال لهذه الظاهرة ، اذ أن اقتصاديات النقل العام بالمدن تتأثر بحجم التشغيل ، وهى وسيلة مهمة جدا لتوصيل طبقة العمال ذات الدخل المنخفض الى مكان عملها ، ولكن هذه المجموعات من العمال ليست سوقا كافيا وفقا للقواعد الاقتصادية لتبرير الاستثمار فى النقل العام ، وتؤدى السيارات الخاصة المتاحة للطبقة القادرة الى تسرب الجمهور الذى يمكنه أن يجعل النقل العام قادرا على الصمود الاقتصادى .

وفى مجال الاختيار الحكومى تقدم التكنولوجيا للجمهور على أساس القبول أو الرفض ، لا على أساس تحليل منطقى للبدائل مع توضيح تكاليف كل بديل ونفعه للمجموعات المختلفة ، ويبدو القرار فى هذه الحالة ذا هدف علمى ظاهريا ، ولكنه فى الواقع يخفى القيمة المستقرة للنتائج .

واذا قدمت نتائج الاختيارات التكنولوجية للجمهور فقد لايختار الخطوط المحددة للتطور الذى تم فى بعض التكنولوجيات مثل الطيران والمفاعلات الذرية والسيارات والتلفزيون . ولكن السؤال الذى يجب طرحه هو : من كان له القدرة على التنبؤ بنتائج الاختبارات التى عرضت منذ عشرين عاما ؟ أو : هل كان لأى شخص أن يصدق التنبؤات حتى لو كانت صادقة ؟ ويشعر المدافعون عن مساهمة الجمهور فى اتخاذ القرارات أنه اذا أعطى الجمهور معلومات كافية فانه سيتوصل الى اتفاق عام على التكنولوجيا التى يحتاج اليها أو التى يريدها ، وعلى التكنولوجيا التى يرفضها أو التى يستغنى عنها . وهذا يبدو كأمل غير واقعى ، اذ يحتمل فى حالة المساهمة فى الاختيار أن تستغل المجموعة المعارضة حق الفيتو ضد التكنولوجيا المعروضة ، بغض النظر عن المنافع والقيم الأخرى .

ومما يؤسف له أن جميع السياسات ، بما فى ذلك المتعلق منها بالتكنولوجيا ، تحتاج الى مقياس للتماسك والاستمرار بين الأهداف ، الأمر الذى يصعب المحافظة عليه بديمقراطية المساهمة فى اتخاذ القرارات ، وتكون القرارات التكنولوجية

والاجتماعية شبكة معقدة من العمليات المتداخلة . وتستطيع المجموعة التى تعارض قرارا ما أن تتجاهل كل شىء فيما عدا قيمها واهدافها ، لأنها لاتتحمل مسئولية حل المشكلة أو ايجاد بدائل لها . ولايهم المجموعة المحلية التى تعارض اقامة محطة لتوليد الكهرباء أو طريق رئيسى أو مطار ان المجتمع عامة فى حاجة الى هذه الخدمات ، ويمكن لهذه المجموعة أن تضفى أهمية أو قيمة أو أفضلية على اختيار ما بدون موازنته بالاختيارات الأخرى . وقد لا تكون الحالة خطيرة اذا كان الاخفاق فى استخدام التكنولوجيا أو تطويرها غير ضار ، ولكن الأمر كما سبق أن أشرت ليس كذلك .

ويحتاج الأمر الى عبقرية سياسية للتوفيق بين الرغبة الشرعية لمشاركة الجمهور وبين الاحتياجات المعقولة لمجموعة مختلفة من المصالح المتضاربة التى تتأثر بالقرار .

ومن المتعذر توعية الجمهور بالنسبة لجميع الاختيارات ، وهناك خطورة طبيعة تنتج عن المشاركة الزائدة ، فقد تميل الكفة نحو مصالح محددة متعلقة بالبيئة أو بالتكنولوجيا ، بدون محاولة موازنة جميع المصالح الأخرى التى تتأثر . هذه حالة لايمكن حلها حلا كاملا ، ولكنها عرضة لأن تمر بدورات من ضرورة اتخاذ القرارات بواسطة المشاركة ضد اتخاذ القرارات بواسطة الخبراء . وقد نتج عن تأكيد اتخاذ القرارات بواسطة المشاركة فى الولايات المتحدة نوع من المعارضة الشديدة من جانب الذين لم تقدر آراؤهم ، ويبدو أن هناك ميلا نحو الاتجاه الآخر .

وليس من الممكن تحديد التوازن الامثل بين المشاركة فى اتخاذ القرارات وبين اتخاذ القرارات بواسطة الخبراء ، وهذا أحد أسباب الخلافات السياسية ، وسيحل فى النهاية بطريقة سياسية . وسيؤدى شلل اتخاذ القرارات عن طريق المشاركة الى العودة الى الخاصة المثقفة مع المطالبة بالنتائج وفقا للقيم الاجتماعية . وفى النهاية سيصبح التأثير على بعض التوقعات الاجتماعية واضحا بدرجة أن يعود عدم الثقة بالخبراء ، وتقوم موجة أخرى من المطالبة بالمشاركة ، الى أن تؤدى معارضة المصالح الاجتماعية المختلفة الى العودة الى الخبراء .

وستكون وظيفة التقويم التكنولوجى فى هذه الطريقة الدورية هى امتصاص حدة الذبذبات الناجمة عن التغيير فى حجم استخدام التكنولوجيا وتوقعات المجموعات الاجتماعية المختلفة ، حتى لايتذبذب النظام كثيرا قبل أن تتدخل القوى التعويضية .

هذه النظرة الى عملية التقويم التكنولوجى تجعل واجب هذا التقويم ميسرا ، لأنه ليس على التقويم أن يتوقع كل نتائج التكنولوجيا المحتملة وانما عليه أن يتفوق على الأدوات المستعملة حاليا .

وعلى سبيل المثال يمكن تلخيص العوامل التى يلزم أخذها فى الاعتبار عند النظر فى بناء ناطحات السحاب لاستخدامها كمساكن للجمهور فيما يلى :

١ ــ توجد علاقة مهمة بين ارتفاع المبنى والموقع ، ولذلك يلزم مراعاة الدقة فى الاختيار للمحافظة على هذه العلاقة .

٢ ــ ارتفاع المبانى يتناقض مع البيئة المحيطة ، فهو يؤثر على الضوء والرطوبة والتهوية والتربة ، ولذلك يلزم بحث نتائج اقامة المبانى المرتفعة على الأماكن المحيطة بها .

٣ ــ يلزم أخذ المضار المحتمل حدوثها فى الاعتبار .

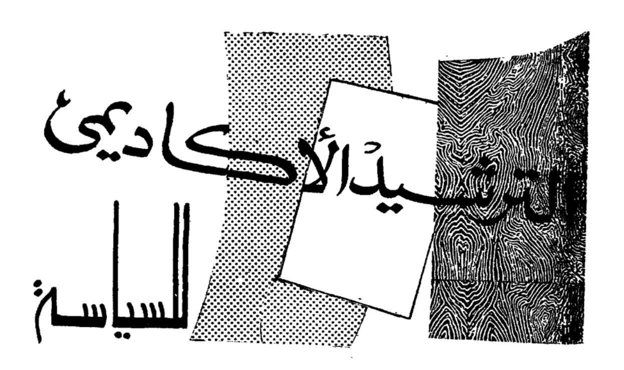
٤ ــ يجب مراعاة المرونة فى الاستخدام وفى امكان مسايرة متطلبات السكان المتغيرة .

٥ ــ يجب الوصول الى وسيلة لتخفيض استهلاك الكهرباء والمياه والتصرف فى المخلفات .

٦ ــ يجب الاهتمام بالخدمات المشتركة بين السكان .

٧ ــ ونظرا لأنه من الممكن أن تصبح المبانى المرتفعة مملة فيجب عند تصميمها مراعاة خلق جو بهيج وغنى بالمناظر المتنوعة .

٨ ــ بما انه من الممكن تطبيق عدة تكنولوجيات فى اقامة المبانى العالية فانه من الأنسب استغلال جميع التكنولوجيات الممكنة .



يحمل عنوانى القصير مدلوله ، ذلك الانني لا أدعى ان هنـاك ترشـيدا فى السياسـة . كما أنه لا يعنى زوال أو انقضـاء الاعتقاد فى أى فكرة حول الدم أو الشوك والعظام والمصير الكامل . وهى أفكار لا يبدو أن احدها كان أساسا قامت عليه يوتوبيات افلاطون وماركس وماركيوز المجردة . فيوتوبيات كثير من الفلاسفة والعلماء والقديسـيين والدارسـين كانت ذوات طابع مجرد حافل بالحزن والألم والموت ، ذلك أن الوقائع الأخلاقية مرفوضة فى طبقاتنـا ، وان لم تكن كذلك فى حياتنا . طابع يسمو على الفكر ان لم يكن أيضا متعاليا على الواقع .

ولحسن الحظ وسوئه ـ فى وقت واحد ـ ليست هناك حكومة فى التاريخ كانت يوتوبية ، وبالتأكيد أيضا لا تعد حكومة الولايات المتحدة الامريكية كذلك . واذا كانت مهمـة الأكاديميـة أن تكون فى طابعهـا (ونحن نعلم كم من الأسـاتذة مقصرون فى السنوات الأخيرة) ، فان مهمة الحكومة أن تحـكم مادام هناك اناس يحكمون) ، ولكى تحكم لا يكفى أن تقوم بهذا من خلال أساليب القوة ، ولكن أيضا أن تفى بالضرورات والخدمات الأساسية .

والعمل الأكاديمى واحد من الضرورات والخدمات ، حتى يتم دعم خدمات

رؤيا منقحة لمقال قدم فى اجتماع الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٧٠، حول « الأكاديمية والسياسة » .

بقلم : هارولد أورلانس

زميل أول فى معهد بروكنجس للدراسات الحكومية بوشنطن له عدد من الكتب والمقالات فى السياسة العلمية والبحوث الاجتماعية وموضوعات أخرى . ومن أحدث مؤلفاته الأبحاث الاجتماعيــة التى ترعاها الحكومــة ، ومعهد البحوث فيما لا يحقق ربحا (١٩٧٢) .

ترجمة : الدكتور أحمد الخشاب

« لقد انتقل الأستاذ الدكتور أحمد الخشاب الى رحمة الله بعد أن ترجم هذا المقال فكانت الخسارة العلمية فيه فادحة لقد شغل منصب أستاذ قسم الاجتماع بكلية الآداب ، وتولى منصب وكيل الكلية حتى توفاه الله . وللفقيد أعماله وآثاره العلمية مما سيحفظها له السجل العلمى . رحمه الله » .

الحكومة له فى الولايات المتحدة، فهذا يعنى ممارسة الحــكومة لقــدر واضح من التأثير عليه (كالتأثير على هيئة أفراده ، ومشرفيه ، والمواطنين المعينين) ، وعلى شئون كثير من الهيئات ، كمكتب التعليم ، وخدمة الصحة العامة ، وهيئة الدعم القومى للعلم، واجتماعات الكونجرس . وبالطبع، نظرا لاهتمام الرجال الاكاديميين بمصالح الدولة ومصالحهم فهم يهتمون بالمستويات العليا للفروع والتخصصات ، وكذلك بالمستويات الحكومية ، ومن ثم يلقى اهتمامهم هذا فى معظم الأحيان قبولا من قبل الجهاز الفيدرالى ، وفى بعض الأحيان قليلا من المقاومة . ولهذا يــستغل التعليم الاكاديمى وكذلك البحث الاكاديمى اســتغلالا سريعا من قبــل الحــكومة والفروع الاكاديمية الأخرى ، كالمناهج والأفكار واللغة المتأصلة فى الأكاديمية ، التى تقوم بغارات ملحوظة على بيروقراطية الحكومة .

وبقليل من الملاحظة ، والنظرة المتأنية للعلوم الاجتماعية ، نجــد ان حوالى ثمانية آلاف شخص من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية قد وظفتهم الوكالات الفيدرالية والحكومة فى الولايات المتحدة ، وتنفق عليهم وعلى بحوثهم حوالى ٣٠٠ مليون دولار سـنويا منها ١٢٠ مليــونا للجــامعات . ويوجد خــلال العقد الأخير تأثير واضح وملموس للبحث الاكاديمى ، على مجالات الاقتصاد وشئون الدفاع والصحة العقلية

والتعليم والفقر والرفاهية ، وحديثا جدا لقيت مجالات الجريمة والعنف قدرا من الاهتمام . وهناك قليل من المجالات والميادين الاجتماعية لم يقترب الدعم الحكومى بعد من بحوثه . ولم يضف أى من هذا أو كله مجتمعا شيئا الى سيطرة الحكومة على الوسط الأكاديمى والفكرى ، ولكن هذا الوسط هو الذى يقدم بعض الملاحظات الناقدة القيمة للحكومة .

وفيما سبق استخدمت بعض الهيئات رجل قانون ، أو مؤرخا أو مجرد ادارى خبير لتحليل احدى العمليات أو مشكلة سياسية ، لوضع سلوك بديل لها وأما الآن فمازال بعض الرجال يستخدمون فى الوكالات ، ولكن هؤلاء يعتمدون فى بعض ما يوكل اليهم على العلوم الاجتماعية ، ويقوم الاقتصادى أو عالم السياسة أو القائم بالبحث بتحديد المهمة .

ان أسلوب تفكير العلم الاجتماعى والتعبير المعقد فى لغته المنهجية والتعميمية وغير الشخصية والحذلقة يقابل من قبل البيروقراطية بشىء من التعجب . فلغة البحث الاجتماعى واجراءاته وأساليبه السلوكية والكمية واجراءاته البيروقراطية المطولة والاتكال تلقى هى الأخرى بطبيعة الحال مثل هذه الدهشة ، وكل من التفكير والتعبير يحاول توضيح المسائل السابقة تفصيلا ، ويحاولان ترتيب الأشخاص والوقائع ترتيبا عقليا بتجميعهم فى فئات يمكن علاجها مكتبيا ومن خلال الآلات الحاسبة ، وكلاهما يحاول تجاهل العاطفة والفردية أو يعزلها ، مرة بقصد مناشدة الحقيقة التى تبقى غير واقعية الى حد ما ، ومرة أخرى من أجل كفاءة وسلامة العمليات التى تبقى مع ذلك ساذجة وغير كاملة .

وبالاضافة الى ذلك يبدو أن العلماء الاجتماعيين ، فى بحثهم عن الحقيقة الثابتة ، يتبنون بل يلجأون الى الأساليب التى يستخدمها البيروقراطيون ، بفرضهم قدرا من النظام المطول فى التنبؤ واستنباط الحقائق على أشياء قومية بسيطة . وكما تعتمد الحكومة فى الحفاظ على النظام العام ، بمناشدتها طاعة السلطة ، والقبول الطوعى ، والأوامر الالزامية ، وضوابط السلوك ، كذلك أيضا تستند المعرفة العلمية الاجتماعية الى موضوعات مطيعة لها ، واستجابات أمينة مفروضة ، وقبول طوعى أو قسرى ، لتصنيف هذه الموضوعات فى فئات يضعها المحلل . ويتبدى النظام الفكرى أو الضبط المتأصل فى البحث عن قوانين السلوك أكثر وضوحا فى الاجراءات التجريبية ، التى تمثل ملجأ للطاعة أو القوة . وبذلك تظل الملاحظات والاقتباسات محافظة على معانيها الدارجة والمهنية .

ويمكن لنا تقديم تفسير تاريخى ملائم لنمو العلم الاجتماعى واستغلاله فى الولايات المتحدة وفى غيرها من البلدان . والذى لا شك فيه أن هناك عدة تفسيرات تبدو ضرورية لهذا ، لأن هذه النظم الفكرية تخدم أغراضا عديدة ، وتقدم معرفة أصيلة ، وأيضا أيديولوجية أصيلة ، على أن الحاجة الى هذه العلوم تختلف وفقا لدرجة التعليم والتصنيع والاتجاه التقليدى فى أى دولة من الدول ، فالتأريخ

للعلوم الاجتماعية يوضح ازدياد احترامها ، بعد تجاهلها فى الماضى ، بسبب اتجاه المجتمع الى العلمانية وانتشار التعليم انتشارا كبيرا واسعا ، ولقد تأثر منظور هذه العلوم الاجتماعية — سواء فى مضمونها أو حجمها أو تأثيرها — بسياسة كل دولة وتنظيمها الاجتماعى والثقافى وتقاليدها . ويعزى نموها الكبير نسبيا من قبل الحكومة الامريكية فى جانب منه الى انفتاح ومرونة الخدمة المدنية الامريكية ، ويعزى فى جانب آخر الى تفاؤل الامريكيين وميلهم نحو التقدم والعلم والعقلانية والبرجمانية والليبرالية ، ومثال هذه الرغبة فى زيادة السعادة الانسانية عن طريق الاصلاح السياسى والاجتماعى .

هل أساطير وحقائق علم الاجتماع والاقتصاديات بامكانها مساعدة المجتمع الحديث ودعمه فى الوقت الذى لا تقوى فيه النظم الكلاسيكية والكنسية على الوفاء بهذا ؟ هذا ممكن ، وغير ممكن ، لأن هناك نزعة محافظة بجانب راديكالية ، وبالمثل باتجاهات ساذجة ، لأن هناك عقولا متعصبة ، وهناك صانعوالأساطير والخرافات، وهناك أيضا قتلة الأساطير فى هذه الميادين . ولعل المشكلة والاضطراب يأتيان من انه ليس هناك من يستطيع أن يقرر بدقة ما هى الحقائق وما هى الأساطير التى تستطيع أن تساعد على الحفاظ على المجتمع أو تحطمه ؟

واذا نظر الى الأمر رقميا وعدديا نجد أن النظرة السياسية السائدة لدى العلماء الاجتماعيين الأمريكيين هى نظرة ليبرالية ديمقراطية ، مع وجود قدر من الاقليات المحافظة والراديكالية فيما بين هؤلاء العلماء ، ولكن هذا لا يقوم قياسا دقيقا منضبطا لنظرة أولئك العلماء الذين توظفهم الحكومة ، والذين يفيدون من الدعم الحكومى للبحث العلمى . ومن قبيل الاحتمال فان الاتجاه الراديكالى العرضى غير ممثل ، أو يراعى قليلا فى البحوث الأساسية ، فى الوقت الذى تلقى فيه القوى المحافظة والليبرالية دعما قويا من خلال الادارات المحافظة ، (أو بعبارة أخرى تمارس كل ادارة من الادارات قوى من القوة السياسية تشابه الطيف) . وأيا كان الأمر فان اللون السياسى لادارة معينة وتسييس الخدمة المدنية وادخال بعض الأبعاد السياسية الأكاديمية منذ ١٩٦٠ والابقاء على خصائص تنظيمات التعاقد من أجل البحث ، كل هذا ساعد على اعطاء طبقة مغلقة سياسيا تتكفل بالبحث الحكومى . وذلك لاختيار العنصر الفنى فى هذا البحث ومعادلة الأبعاد السياسية بالسياسات التشريعية أو المركزية أو بالقوة غير العادية للتشويش التى أمدت البيروقراطيين والعلماء الاجتماعيين بنوع من التلوين السياسى المصون .

ولو كان هناك شخص مريض مرضه طبيبان فهذا المريض هو مجتمعنا ، فالله سوف يشفيه لا العلماء الاجتماعيون . فالسرب والحشد الذى يشبه القزم حول مضجع جاليفر ينخز ويدفع الجسد العضوى ، مريضا أو سويا ، وبعد ذلك يفشل فى سبر غوره كله . ووفقا لتطوير العلماء الاجتماعيين لمناهج للملاحظة والفهم ثابتة ودقيقة فان نسق المعرفة الذى يتم الوصول اليه يقدم لنا علما يتعلق

بالاجزاء ، بالمكونات لا بالكل ، علما حول العموميات لا الخصوصيات ، والنظام لا التغيير ، والتكرار لا التجديد ، وحول الأمس لا حول اليوم ، وهم لا يلمون بدقة بالاحكام والوقائع والخطأ والأفعال والتصرفات التلقائية والوقائع الأصيلة الجوهرية . كما أن هؤلاء العلماء لا يهتمون بالأصل ، وانما بالطارىء والمصطنع ، ولا يلمون بكل نشاط الأفراد والتاريخ . والعلماء الاجتماعيون باستثناء علماء الاقتصاد يهتمون بأشياء متواضعة وبالبيروقراطية الروتينية ، وتلك أشياء أحرزوا فيها نجاحا اكثر من نجاحهم فى مجال بحوث الحكومة ، حيث يكون النجاح معتمدا على الدور السريع والفنى للقوى المتنقلة .

والمواطن السوسيولوجى الجيد هو الذى ينجز عمله بقدر من السواء ، شأنه فى ذلك شأن الطالب، لأن هذا السوسيولوجى يتعمق بناء على قواعد سوسيولوجية ومن السهل علينا الزج بقواعد معينة ــ يحوى كل كتاب من كتب علم الاجتماع مئات منها ــ تكون بمثابة تفسيرات وايضاحات زائدة لكيفية وسبب حدوث وظائف المجتمع . ولكن هذه القواعد الزائدة يجب أن لاتتناقض مع الواقع الفعلى ، كما أن التفسير التعميمى يجب أن لا يتناقض أو يتعارض مع المحدد ، وكذلك يجب أن لا يتعارض المعروف والمعلوم مع غير المعلوم ، كم هو شىء غريب أن يكون المستقبل غير معلوم أو غير معروف ، والماضى هو وحده القابل للتفسير . ! . فبعد تفسير الباحث للواقعة يبدو التفسير كالنبوءة ، حيث يكون من السهل توضيح أن الذى حدث قد حدث ، لأسباب تكون معلومة لدى الدارس لا لدى الفاعل ، فلكثير من الاغراض الفكرية تحدد معانى ومدلولات الوقائع ، حتى ولو كانت هذه التحديدات غاية من حيث هى ، ومن ثم يكون هناك نمو من الفخر والتعالى فى القيام بذلك ، لان تقبل تفسير فعل الانسان ببساطة يعنى أن هذا الانسان بدوره يقوم بدور اللفن للمفكر . فالتاريخ الحقيقى بمثابة ملجأ فى حالة عدم التيقن . والعالم الاجتماعى الحقيقى يمكن أن يكون متواضعا ، لأن لديه ما يكفيه مما يجعله كذلك .

ان المثقف المتبجح الذى يعلن ثقته فى اجابته ، برغم تغير الحياة اليومية من حوله ، هو اكثر فائدة للحكومة وان لم يكن أكثر قربا من القادة السياسيين فى سلوكهم . وبالنظر الى الدولة ومكوناتها فان قادتها يجب أن يظهروا فى ثوب الواثقين والعارفين امام الجماهير . اننى لا أعرف ما الذى يجعل اعضاء مجالس الشيوخ ووزراء الخزانة يتجاسرون على الادلاء به للصحف ؟ وكيف يفعل الأستاذ فى قاعة الدرس ؟ وما الذى يقوله كل انسان امين لنفسه ؟ اننى لا أعرف ذلك . . !!

ان رجال الاحصاء يقومون بيانات بدونها لا يتمكن الحاسب الآلى والمخططون والاقتصاديون والوزراء ان يقوموا بعملهم ، فالحكومة لا يمكن ان تسير والسياسة لا يمكن أن تصنع بدون رجال الاحصاء ، ولكن رجال الاحصاء نفسه أكثر تواضعا من أن يضنع السياسة . فعقل الاحصائى لا يتحرك برتابة عندما ينظر للوقائع الكثيرة ، فى حين أن السياسة تصنع بتحديد قليل من العوامل التى تكون أكثر وزنا . واذا كان العلماء الاجتماعيون لا يقدمون عوامل قليلة واكثر وزنا حول جوهر طبيعة العلم الاجتماعى ، والتفسير التاريخى فى جملته ، فمن اذن يكون له التأثير الكبير على بناة النظام العظيم ؟

اننى لا أود فى هذا الصدد الاطناب فى أوجه الشبه بين المفكرين العظماء والعاديين أو بين المثقفين والأكاديميين . فهناك اختلافات كبيرة فى المدى والماهية والاقتناع بين العقول التى من الدرجة الأولى وتلك التى من الدرجة الثانية . لقد ميز كثير من الكتاب بين الثقفين الحقيقيين (الذين يشبهونهم) وبين الأكاديميين ، فالمثقفون قد يكونون مفكرين يظهرون الانكار بسرعة تشابه سرعة القائهم بالكلمات على الورق (١) ، فى حين أن الأكاديميين رجال ذوو خيال محدود ، وهم يحفظون حياتهم من التعامل مع أفكار الآخرين ، بكميات صغيرة ، ويحيطون الحقائق بكآبة ، ويقدمونها الى دارسين هم أيضا ذوو خيال محدود . كيف يمكن تصنيف العلماء الاجتماعيين الامبريقيين ؟ هناك قليل منهم يعدون مثقفين (كماركس وسبنسر وموس Moas وميردل Myrdal) ، وبعضهم يعدون أكاديميين أو فنيين . وفى تصنيف أكثر تملقا يمكن لهم أن يقوموا بوظيفة التجريبيين ، تاركين التنظير للمثقفين ، ومن وجهة نظرى هناك أنواع من العلماء الامبريقيين ، وبعضهم كتبة وبعضهم مفكرون ، وبعض منهم لديه أفكار كثيرة ، وبعض آخر لديه أفكار قليلة ، ولكن لو انهم امبريقيون امناء ، وليسوا أيديولوجيين أو بيروقراطيين محترفين فسوف يقومون بجهود واضحة للتمييز بين الحقيقة وبين ما يعتقدون فيه ، ولهذا يجب أن يكونوا دائما مستعدين لقبول أنهم على خطأ ، كما يجب أن يعرفوا الشواهد الواقعية التى يحصلون عليها للبرهنة على ذلك . ومع ذلك فبامكان المرء منا أن يكتفى بمزيج الأفكار والمعتقدات والحقائق التى تذهب الى ان تنوعات الرجال المحترفين المتخصصين كالمثقفين والدارسين والأكاديميين والعلماء الاجتماعيين قد استطاعوا أن يصلوا الى مكانة مرموقة لدى الحكومة ، أو على الأقل يعملون تحت تعاقدها أو بالتعاقد معها .

---

(١) عندما طلب من برتراند راسل ان يعرف المثقف أجاب بأنه لا يعد نفسه مثقفا « انى أظن أن المفكر يمكن تعريفه كشخص يزعم أن لديه ثقافة وفكرا أكثر مما لديه ، وآمل أن لا ينطبق هذا التعريف على » .

ودعنى احدد هنا باختصار ماهية ذلك المكان الذى وصلوا اليه لدى الحكومة . اننى اقرب نفسى الى المثقفين الذين يتركز موضوعهم الأساسى فى الانسان والمجتمع ، والذين يخرج عنهم أولئك العلماء والمهندسون الذين يتركز موضوع اهتمامهم فى الطبيعة والتكنولوجيا ، فمند زمن والكتاب والناسخون والمثقفون يؤدون دورا فى الحكومة ، واننى لا اعتقد أن دورهم فى أيامنا أكثر اهمية من ذلك الذى كانوا يؤدونه فيما مضى (وان كانت درجة تخصصهم ولغتهم قد اعتراها بعض التغير) ، كما أنه لا يمكن القول بأن فهمهم للمجتمع أصبح أكثر فائدة من فهم أسلافهم . والدور الجديد الذى يمكن ملاحظته لهم فى أيامنا هذه هو أن المجتمعات المعاصرة اخطأت حجم عملهم الذى حقق قدرا من النجاح والفائدة انجزها بعض المثقفين ، كما ان كل مجالات نجاحهم المتقدمة وفائدتهم قد رفع من قدر تأثيرهم حتى وصل الى مستوى عال من الفهم وسعة الأفق .

والأمر المؤكد ان حجم الكتابات والبيانات المنشورة أو غير المنشورة فى ازدياد سريع ، سواء كان هذا الحجم غثا او سمينا ، يتسم بالحياد أو غير الحياد ، والمعرفة المفيدة أو غير المفيدة . فالغابات وفضلات الطعام والمكتبات والمعامل بمضامينها تسجل لهم مهمة النقلة التى أحدثوها والتى تتعدى قدرة اى انسان . وفى جدهم فى طلب بيان صحيح فى الوقت المناسب خسروا معارك اجتماعية كثيرة وعديدة . وثمة آخرون كانوا وقتيين بشكل جعل تكرارهم ثانية أمرا نادرا . واذا جئنا امام المعرفة الاجتماعية والبيانات الاجتماعية فيمكن القول بأن هذه المعرفة ليست نهائية وبعضها لا يكاد يعد فى اهميته أهمية جريدة البارحة . وسواء كان النمو عظيما أو ناقصا فان العلماء الاجتماعيين توصلوا الى نظام أوثق من البيانات والنتائج الهامة التى ساعدت فى حل المشكلات الاجتماعية الهامة . ونظرا لتغير هذه المشكلات فان النتائج التى يتم التوصل اليها تفقد قيمتها، الأمر الذى يتطلب اعادة دراسة هذه المشكلات بطريقة او بأخرى .

ولعل من الأمثلة الحديثة على مثل هذه الانتصارات القصيرة الحياة فى مجال المعرفة الاجتماعية العلمية تلك التى تتعلق ببروز الاختبارات والقياسات الكمية ، باعتبارها وسائل موضوعية لانتقاء الطلاب ذوى القدرات ، وما يترتب عليها من وجود انواع معينة من التحيز ناجمة عن السيطرة الثقافية للطبقة الوسطى ، وعن نجاح الاقتصاديات الجديدة التى تمت فى ظل حكم الرئيسين كيندى وجونسون ،

والتى تبدو جميعها الآن كما لو كانت قائمة على ظروف سعيدة محظوظة هدات من روع التقلبات وهذبت من الظروف الاقتصادية الخشـــنة . على أن فكرة التوظيف الأنسب فيما يتعلق منها بالامتثال وبالنسق الاجتماعى الذى اســتند اليه كثير من اتجاهات النظرية الأنثروبولوجيــة والسوســيولوجية ، وان بدت ملائمــة للعقــد السادس ، قد فشلت فى مواجهة سنوات التمرد التى تلت ذلك . كم هى مصطنعة تلك النظرية التى لم تستطع ان توضح ، وتتصور القوى المنصهرة فى أعماق المجتمع وكم هم سذج أولئك الدارسون الذين يفكرون فى بساطة الأزمة الاقتصادية والتفكك الاجتماعى والجريمة والقتــل والفقر وما الى ذلك ، ويعالجونهــا من خلال نماذج حسابية الكترونيا بالاستناد الى أسئلة متعددة . ما الذى وضــعه الله فى أيدينــا كينابيع ومظاهر على قوته ؟ وهل هو أخذ على عاتقه عدم تجاوز حدود معرفتنا ؟ لقد سأل ذلك مونتنى ، وحتى الرجل الأمين لم يحدد نفسه ويربطها بأن يفعل غدا ما فعله اليوم ، وحتى لو عرف ورغب فهــل يســتطيع أن يضــع فى أيدى طلابه سر عمله ؟

قد يقال ان العلم أقوى وأمضى من السيف ، ان تلك دعوى براقة ، لأن جراح الســيف تبرز كل الوقت فى الوقت الذى لا يمكن فيه ملاحظة وابل الكلمـات التى ترتبط بجملها وسياقها ، كما أن تأثير الأفكار لا يتلاءم مع حقيقتها وواقعها . لأن الأفكار المتعارضة ــ كتلك التى تتعلق بالمساواة العنصرية وعدم المساواة العنصرية ــ قد يكون لها تأثير يتعادل باختلاف الزمان والمكان ، وحتى فى الزمان الواحد والمكان الواحد . فى المنطق فقط لا توجد التناقضات معا ، وأما فى المشاعر فقد توجد معا . لقد أشار فرويد فى احدى المرات الى انه لكى تكون الفكرة مؤثرة فهى لا تحتاج الى تصديقها بقدر ما تحتاج الى وجودها فى اليد .

وبالتالى لا جدوى ولا قيمة من استنتاجنا أن زيادة استخدام الحـكومة للعلوم الاجتماعية سوف يرفع من ترشيدها وعقلانيتها ، كما لو كنا أكثر مهارة من آبائنا ومن ادارة الرؤساء جونسون ونيكسون ، أو أكثر حـكمة وتعقلا من ادارة جيفرسون ولينكولن . وهناك ثلاثون تفسيرا وايضاحا أخرى يمكن أن تقترب من الحقيقة ، ولكن نظرا لانها أقل تأثيرا فهى أقل تواترا واطرادا .

ولقد قال ج.ب. مورجان ذات مرة «لكى تخبرنى بكيفية عمل ما أرغب فيــه فان ذلك لن يغطى كل استخدامات الحكومة وتوظيفها للعلوم الاجتماعية ، لكن ذلك يغطى قدرا لا بأس به» .

فالحكومة الجيدة أو الحسنة أو الخيرة ، والسياسات الحسنة ، تقتضى أن نضع فى الاعتبار عدة مذكرات تخطط لمئات الحروب التى لم تتم ، ولكى يعهد الينـا بأخذ مئتين من الدراسات لكى نحدد أى مائة منها مثمرة ، وأى عشر منها يمكن أن يقع عليها الاختيار ، فهذا أمر متروك للارادة لا لحكم العالم الاجتماعى الذى يكتشفه عدوه .

من أى مصدر غير انسانى يشتق العالم الاجتماعى منطقه المتعالى الذى يتبدى له أكثر وضوحا من منطق غيره من المواطنين ؟ أليس لهذا العالم يدان وأعضاء ، أليس له أبعاده وأحاسيسه وآلامه وآماله ؟ ألا يتغذى بنفس الغذاء ويتنفس ، ويعانى من المرض ، ويشفى ، بنفس الوسائل والأساليب ، ويدفى ويبرد ، بتعرضه للصيف والشتاء ، أليس هو فى النهاية مواطنا ؟

واذا كان المنطق قـد انتشر انتشارا واسع المـدى تحت تأثير العلم ، فلماذا يتناقص شعورنا بالمجتمع والهدف العام وشرعية السلطة تناقصا كبيرا ؟ هل يتجافى المنطق مع الادراك السليم ؟ وهل هو يخدم كل مصلحة خاصة لا المصلحة المشتركة؟ انه فقط للتحليل النقدى ، لا للعمل البناء ، أهو مجرد داع خاص ، أهو فى النهـاية أداة للسياسة والانفعال لا لشىء آخر ؟

ان الحقائق الاجتماعية تقرب الالتقاط على مصور شطآن بحر ثائر فيـه مياه ضحلة ومد وجزر ، وطقس غير مستقر . ففى العاصفة ليس هنـاك طـريق مأمون للعودة ، وقد توضع السفينة تحت رحمة الطريق أو المرفأ ، فكل شىء يكون بايجاز عشوائيا . ففى الدعوى تساؤل هل يمكن العالم الاجتماعى أن يقيس الأمور الجارية، وكذلك بالنسبة للعاصفة يكون التساؤل عن تحديد موقع الصخور القريبة من سطح الماء أو من قاعها ، ان تلك الصخور قد تصدر صوتا كالتنفس ، لكن وضع السفينة وقيمة الخريطة تكون أشياء غير متيقن منها ، وقد لاتكون المماثلة بين العالم الاجتماعى وسط الحقائق الجارية وبين السفينة التى تتقاذفها الامواج مماثلة ملائمة ، لأن لكل حزب سياسى أساليبه الخاصة وكذلك لكل مدرسة فكرية . ويلقى اللوم عادة على الحزب الآخر ، وبذلك يصبح من الصعب الاشارة الى أن الرحلة المأمونة يرجع أمنها الى أحوال البحر والى الملاحة ، أو الى حسن الحظ ، ولكن نظرا الآن كل رحلة لاتشبه الأخريات ، فلكل ظروفها ، بالمثل ، ولذلك فان الدولة ككل لا تصل للأمان ، ولكن تحقق نجاحا ومكسبا نسبيا .

واذا ماتعجلنا الخلط الذى ندركه حول اتجاهنا فان وظائف العلم الاجتماعى الاكاديمى تصبح كالدين العلمانى ، لكننا بكل امانة وبكل تصور عميق نشير الى أن مثل ذلك ليس هو القصد والرغبة ، لاننا نرغب فى البداية والنهاية أن نعمل كعلماء. لقد كتب دوايت والدو يقول : «ولكن لو أن التفتيت القديم عاد الى ازمة السلطة ، الا يمكن هنا أن نقول أن العلم نفسه يقدم دعاوى لاكساب القرارات صفة شرعية ؟ انه لايوجد من يستطيع انكار أن العالم الاجتماعى يمكن أن يمارس الدور الاجتماعى الذى كان يقوم به القسيس الرومانى الذى كان يقرأ المستقبل من أحشاء الثيران . على الرغم من العالم الاجتماعى يقرأ المستقبل من تقرير او خريطة ، أو حاسب الكترونى» . على أن العار الذى يمكن أن يلحق بالعالم الاجتماعى ليس هو ذلك الناجم عن تطلعاته ، وانما هو ذلك النابع من فشله فى تحديد مضامين الوقائع .

المؤتمرات الدّوليــة القادمة

الصيف الصيف Econometric Society : Meeting.

جرينوبل : جمعية الاقتصاد القياسى : اجتماع

Ms C. K. Stiglitz, Econometric Society, Bax 1264, Yale Station, New Haven, Connecticu 06520.

(United States)

يولية Pugwash Conferences on Science and World Affairs.

فرنسا : مؤتمرات «بجواش» عن العلم والشئون العالمية .

Russell Mansions, 60 Great Russel St., London, WCIB 3BE.

---

٥ – ٩ يولية : الاتحاد الدولى لمدارس الخدمة الاجتماعية : المؤتمر الدولى

اديس أبابا : السابع عشر :

Dr. K.A. Kendall, International Association of Schools of Social Work, Inc., 345 East, 46th Street, New York, N.Y., 10017 (United States)

١٤ – ٢٠ يولية : المجلس الدولى للرفاهيــة الاجتماعيــة : المؤتمر الدولى السابع عشر .

نيروبى

Mrs. Kate Katz ki, ICSW, 345 East 46th Street, New York, N.Y. 10017 (United States).

١٥ – ١٩ يولية : جمعية لدراسة الخصب : المؤتمر السنوى

كارديف :

SSF, 1451 Newmarket Road, Cambridge (United Kingdom).

٢٨ يولية – ٢ اغسطس : الاتحــاد الدولى لعلم النفس التطبيقى : اجتمــاع

منتريال :

Mr. G. Desautels, Secretary General, 242, Staton Youville, Montreal, Quebec (Canada).

اغسطس : الاتحاد الدولي للتاريخ الاقتصادي ـ المؤتمر السادس

كوبنهاجن : Professor Dr. J.F. Bergier, Rindermarket 6, 8001, Zurich (Switzerland).

٥ ـ ٩ اغسطس الاتحاد الدولي الانساني والأخلاقي : المؤتمر السادس .

امستردام Oudegracht 152, Utrecht (Netherlands)

١٢ ـ ١٦ اغسطس الجمعية الدولية للتنمية : المؤتمر العالمي السادس .

ابدجان

W.P.J. Boichel, International Headquarters, Society for International Development, 1346 Connecticut Ave, N.W., Washington, D.C. 20036, (United States).

١٢ ـ ١٦ اغسطس علم الاجتماع والطب : المؤتمر الدولي الرابع

السينور : Dr. P.J.M. McEvan, SSM.

١٣ ـ ١٩ اغسطس الاتحاد الفدرالي الدولي لنساء الجامعات : مؤتمر يعقد كل ثلاث سنوات .

طوكيو IFUW, Case Postale 398, 1211 Geneva 2 (Switzerland).

١٨ ـ ٢٤ اغسطس الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع : المؤتمر العالمي الثامن .

تورنتو : (الموضوع : علم الاجتماع والثورة في المجتمعات الراهنة)

ISA, Via Daverio 7, 20122 Milano (Italy).

١٨ ـ ٣٠ اغسطس الاتحاد العلمي لدول المحيط الهادى : المؤتمر الثالث عشر .

فانكوفر University of British Columbia, Vancouver 8 (Canada).

١٩ ـ ٢٠ أغسطس ادارة الشئون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة :

نيويورك مؤتمر السكان العالمي الثالث

The Secretary General, World Population Conference, United Nations, New York, N.Y., 100I17 (United States).

١٩ ـ ٢٤ اغسطس الاتحاد المجرى الاقتصادى : المؤتمر العالمي الرابع للاقتصاديين .

بودابست : (الموضوع : التكامل الاقتصادى)

Hungarian Economic Association.

٢٦ ــ ٢٩ اغسطس : الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوى
منتريال

ASA 1001 Connecticut Ave, N.W., Washington D.C., 20036 (United States).

٢٨ اغسطس ــ ٢ سبتمبر مؤتمرات «بجواش» عن العلم والشئون العالمية
بادن
Pugwash Conferences on Science and World Affairs,

(الموضوع : نزع السلاح ومشكلات الطاقة ، والتعاون الدولى .

9 Great Russell Mansions, 60 Great Russell Street, London WCIB 3BE (United Kingdom).

٣٠ اغسطس ــ ٣ سبتمبر : الاتحاد الامريكي لعلم النفس : الاجتماع السنوى
نيو اورلبانز :

Dr. K.B. Little, Exec. Secretary, 1200 17th Street, N.W., Washington D.C., 20036 (United States).

سبتمبر : جمعية الاقتصاد القياسى : المؤتمر العالمى الثالث
الولايات المتحدة

P.O. Box 1264, Yale Station, New Haven, Connecticut 06520 (United States).

١ ــ ٧ سبتمبر معهد اثينا لعلم الانسان : المؤتمر الدولى السادس للطب العقلى الاجتماعى .

اثينا
Dr. G. Wassiliou, c/o The Congress Secreariat, The Athenian Institute of Anthropos, 8 Demetriou Douydou Street, Athens 602 (Greece).

٤ ــ ١٩ سبتمبر : الاتحاد الفدرالي الدولى للوثائق : حلقة دراسية ، ومؤتمر دولى ، وتداول .

برلين
FID Secretariat, 7 Hofweg, The Hague (Netherlands).

١٧ سبتمبر ــ ٢٠ ديسمبر : الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الانعقاد التاسع والعشرون .

نيويورك
United Nations, New York, N.Y., 10017 (United States).

---

٣ – ٤ أكتوبر : المجلس الدولى للبحث فى المبانى ، دراسات وتوثيق (CIB)
المؤتمر السادس
بودابست

Professor Dr. G. Sebestyen, Institute for Building SCI-ETI, Budapest, 81, David Ferenc U. 6 (Hungary).

٣٠ أكتوبر – ٢ نوفمبر : جمعية علم الشيخوخة – اجتماع سنوى
بورتلاند

E. Kaskowitz, Executive Director, 1 Dupont Circle, Washington, D.C., 20036 (United States).

نوفمبر : اجتماع اللجنة الاقتصادية للخبراء ، الخاصة بآسيا والشرق الأقصى ، عن الاجراءات الخارجة عن متناول تخطيط الأسرة لانقاص التوالد .

بانكوك ECAFE, Sala Sanitham, Bangkok 2 (Thiland).

٣ – ٩ نوفمبر : الاتحاد الفدرالى لجمعيات الخصب : المؤتمر العالمى الثامن .
بيونس ايرس

IFFS, Vicente Lopez, 971, Martinez F.C.N.M., Buenos Aires (Argentina).

٨ نوفمبر : اليوم العالمى لتخطيط المدن : العيد السنوى الخامس والعشرون
بيونس ايرس Secretary, WTPD, Ombu, Buenos Aires (Argentina).

---

١٦ – ٢٠ ديسمبر :
دوبروفنك Pugwash Conferences on Science and World Affairs.
(الموضوع : العلم والأخلاق)

9 Great Russell Mansions, 60 Great Russell Street, London WCIB, 3BE (United Kingdom).

١٩٧٥

هنج كنج : المجلس الدولى للرفاهية الاجتماعية : حلقة دراسية اقليمية خاصة بآسيا وغرب المحيط الهادى .

Miss Shirley Lian, Hong Kong Committee ICSW, Ann Black Red Cross Building, Harcourt Road, Box 474 (Hong Kong).

يناير — الاتحاد الاشتراكى النيوزيلندى لنقد العلم المؤتمر السادس والاربعون كانبرا .
Executive Secretary, ANZAAS (?)

فبراير — مارس الاتحاد الدولى للجمعيات منظمة السياحة الوطنية اليابانية اليابانية المؤتمر الاول عن تنظيم المؤتمر ، فى آسيا وجنوب المحيط الهادى

كيوتو

Département du Congrès de l'UAI, 6, Rue aux Laines, 1000 Bruxelles (Belgium).

---

٩ — ١٣ مارس : جمعية علم السموم : الاجتماع السنوى العلمى .

وليامزبرج

Dr. R.A. Scale, c/o Med. Res. Division Esso and Co., Linden, New Jersey, 07036 (United States).

---

١٦ — ١٩ ابريل : اتحاد سكان امريكا — الاجتماع السنوى

سيتل

PAA, Box 14182, Benjamen Franklin Station, Washington, D.C. 20044, (United States).

٢٢ — ٢٧ يونية : الاتحاد الدولى لعلم الشيخوخة ، الجمعية الاسرائيلية لعلم الشيخوخة : المؤتمر الدولى العاشر .

تل أبيب

Professor S. Bergman, POB 16271, Tel Aviv (Israel).

---

٢٠ يولية — ١٠ اغسطس : المجلس العالمى للكنائس : الانعقاد الخامس .

جاكارتا

World Council of Churches.

---

١٨ — ٣٠ اغسطس : الاتحاد العلمى لدول المحيط الهادى : المؤتمر العلمى الثالث عشر :

(الموضوع : مستقبل الانسان فى دول المحيط الهادى)

فانكوفر

Thirteenth Pacific Science Congress,
University of British Columbia, Vancouver, (Canada).

٢٥ ــ ٢٨ أغسطس : الأتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع : الاجتماع السنوى .
سان فرنسسكو

1001 Connecticut Ave., N.W., Washington, D.C. 20036 (United States).

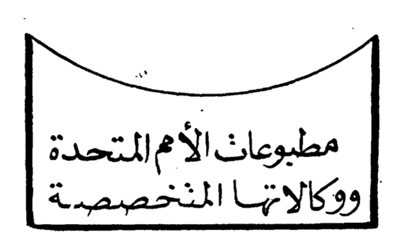
١٩٧٦

فرنسا : الاتحاد الدولى لعلم النفس : المؤتمر الدولى الحادى والعشرون

Mme H. Gratio-Alphandery, Laboratoire de Psycologie, Université de Paris, 28, Rue Serpente, Paris, 6e, (France).

ديسمبر : جمعية الاقتصاد القياسى : مؤتمر
الولايات المتحدة

Box 1264, Yale Station, New Haven, Connecticut 06520 (United States).



السكان : الصحة ، الطعام ، البيئة :

السكان :

Preparations for the World Population Conference (UN/ECN.9/275).

خطط لبرنامج وتنظيمات المؤتمر السكانى العالمى لسنة ١٩٧٤ .

Report on the African Census Programme (UN/E/CN.9/277).

مذكرة السكرتير العام للأمم المتحدة عن البرنامج الاحصائى الافريقى .

Report of the 2nd Asian Population Conference (UN/E/CN.11/1065).

المركز الاحصائى للسكان فى آسيا منذ سنة ١٩٦٣ ، وماينطوى عليه من تقدم زراعى وصناعى ، وتخطيط للأسرة .

Review of available evidence on fertility differentials in Africa (UN/E/CN.14/POP/71).

جوانب النقص فى احصاءات المواليد خلال الستينات فى افريقيا ، والعلاج المستطاع ، والاتجاهات فى السنوات العشرين الأخيرة .

Indications of current and future methodological trends in the collection of data on fertility levels and differentials in Africa (UN/E/CN.14/POP/72).

مؤشرات الاتجاهات المنهجية الراهنة والمستقبلة فى جمع البيانات الخاصة بمستويات التوالد وتباينها . فى افريقيا .

Levels and trends of fertility in the countries of Africa (UN/E/CN.14/POP/75).

تقرير أعده قسم السكان بالأمم المتحدة ، عن مستويات واتجـاهات المواليد بالدول الافريقية وهو تغطى الفترة من سنة ١٩٦٠ ــ سنة ١٩٧٠ .

Interim report on conditions and trends of fertility in the world, **1960-1965**
(UN/E/CN.14/POP/76).

تقرير مؤقت يضم خلاصة للكشوف الخاصة بأحوال واتجاهات **المواليد فى** العالم .

Activities of the Latin American Demographic Centre (UN/E/CN.12/950).

انشطة مركز الاحصاء السكانى لأمريكا اللاتينية التى تمت فى ١٩٧١ ــ **١٩٧٢** وبرنامج ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ ، ومذكرة السكرتارية . تتضمن التدريس فى **المركز** ، وعدد التلاميذ والمدرسين ، والمواد التى تدرس ، وخطط المستقبل

Seminar on the status of women and family planning
(UN/ST/TAO/HR/46)

حلقة دراسية عن مركز المراة وتخطيط الأسرة ، وتأثيرات الاتجاهات **الراهنة** لنمو السكان فى هذا المركز

الصحة :

Handbook of Resolutions and Decisions of the World Health Assembly **and** of the Executive Board (WHO)

كتيب يضم قرارات واحكام جمعية الصحة العالمية والمجلس التنفيذى **لمنظمة** الصحة العالمية .

Model for the allocation of resources for public health planning : **Case studies** in the control of tuberculosis (WHO)

نموذج لتوزيع الموارد على تخطيط الصحة العامة ، دراسات فى السيطرة **على** مرض السل وتطبيقها فى كوريا فى السنوات الأخيرة مع الاحصاءات والنتائج **من** سنة ١٩٥٥ ــ ١٩٦٥ ، اجرتها منظمة الصحة العالمية .

Principles of health planning in the USSR (1973)
(Public health papers, 43) (WHO)

مبادىء التخطيط الصحى فى الاتحاد السوفيتى ، وطريقتهم فى الشـئون الصحية هى : النظرية ، وطرق الاحصاء ، وتدريب هيئة الأساتذة .

Approaches to national health planning
(Public health papers, 46) (WHO)

طرق طبقت فى عدد من الدول الشديدة التباين : الولايات المتحدة ، والهند ، والاتحاد السوفيتى ، والسويد ، وبيرو ، وتايوان ، وتركيا .

Evaluation of community health centres, by I. Romer 1973
(Public health papers, 4) (WHO

مراكز الصحة (مراكز الاسعاف الأولى ، الخدمات المتخصصة ، والعيادات العامة) مختلف طرق التقييم ، والنفقات والنتائج .

Health practice research and formalized services managerial methods 1973.
(Public health papers, 51) (WHO)

استخدام الطرق الرسمية مثل نظام التحليل ، وتحليل العمل ، والأغراض أو الأداء .

Development of educational programmes for the health services.
(Public health papers, 52) (WHO)

تقدم البرامج التعليمية فى الخدمات الصحية .

The prevention of blindness.
(Technical report series, 518) (WHO)

تقرير فنى لمنظمة الصحة العالمية عن الوقاية من العمى ، والأمراض التى تؤدى الى فقدان البصر ، وطرق تسجيل الأسباب ــ التوصيات : العمل الدولى ، والتنسيق ، والعمل الوطنى .

Training and preparation of teachers for schools of medicine and of allied health sciences.
(Technical report series, 518) (WHO)

تقرير لمنظمة الصحة العالمية عن احتياجات العالم الكمية والنوعية ، والمسئوليات التى يجب أن تدرب هيئة التدريس على القيام بها . تدريب وبحث ، برنامج طويل المدى لمنظمة الصحة العالمية .

Energy and protein. Report of a Joint FAO/WHO Ad Hoc Expert Committee 1973.
(Technical report series, 552).

تقرير لجنة الخبراء لمنظمة الزراعة والطعام بالاشتراك مع منظمة الصحة العالمية عن الطاقة وتحديد الحاجة الى البروتين ، مع التطبيق العملى على شعب معين . والتوصيات بالبحث فى المستقبل .

WHO Expert Committee on Drug Dependence, 1973.
(Technical report series, 526) (WHO).

انشطة الوكالات المتخصصة المختلفة فى مجال الاعتماد على المخدرات .دراسة فى علم الأوبئة . الطريقة والمناهج والمصطلحات الفنية . تقدم الطرق النسبية . الاشراف الدولى على نوعين من المخدرات :التحضيرات القائمة على الديفبنوكسيليت والنيكودينيكوتين .

ثبت بمراجع مختلفة : الوثائق التالية تحتوى قوائم بالمراجع (من ١٠٠ الى ٤٠٠ تقريبا تعتمد على الموضوع :

Delivery of health care in developing countries of Asia, Africa, Central and South America
(WHO/LIB/BIB/118).

توزيع العناية بالصحة فى الدول النامية بآسيا وافريقيا وامريكا الوسطى والجنوبية . ابريل ١٩٧٣ .

Prevalence of nutritional disorders in the Eastern Mediterranean.
(WHO/LIB/BIB/120).

تفشى الفوضى فى التغذية باقليم شرقى البحر المتوسط : ١٩٧٠ . ابريل ١٩٧٣ .

Emigration and imigration of physicians and nurses
(WHO/LIB/BIB/122).

الهجرة ، وهجرة الأطباء والمرضين . ١٩٧٠ . مايو ١٩٧٣ .

Utilization of health services and forces affecting it
(WHO/LIB/BIB/130).

الافادة من الخدمات الصحية ، والقوى المؤثرة فيها : ١٩٧٠ . مايو ١٩٧٣ .

Evaluation studies in medical education and use of questionaires.
(WHO/LIB/BIB/132).

دراسات تقييمية فى التعليم الطبى ، واستخدام الاستفناء : ١٩٧٠ . يونية ١٩٧٣ .

Measurement of health services performances
(WHO/LIB/BIB/136).

قياس انجازات الخدمات الصحية : ١٩٧٠ – يونية ١٩٧٣ .

Medical research policy
(WHO/LIB/BIB/137).

سياسة البحث الطبى : اغسطس ١٩٧٢ – يونية ١٩٧٣ . يونية ١٩٧٣ .

World Health Statistics Report (WHO).

تقرير باحصاءات عالمية صحية ـ منظمة الصحة العالمية :

الكراســات من رقم ٢ ـ ٨ من المجلد رقم ٢٦ (١٩٧٣) . وهى من مجموعة الاحصاءات الدائمة لحدوث مختلف الأمراض ، وتغطى كل أنحاء العالم ، بالاضافة الى الجداول الأساسية التى تكرر بانتظام ، وتحتوى كل كراســة على دراســات خاصة ، وتوجد بين هذه الكراسات بيانات عن حوادث الانتحار (رقم ٣) مصــنفة بحسب الطريقة المستخدمة (١٩٥٠ ـ ٧٠) ، وجداول عن حوادث القتل (١٩٥٠ ـ ٧٠) فى الكراسة رقم ٤ ، وفى الكراستين ٧ و ٨ قسمان من الكتاب عن الأورام الخبيثة على أساس أحدث الاحصاءات ، بأرقام وفقا للجنس والسن لكل ١٠٠,٠٠٠ من السكان .

الطعــام :

The World Food Programme and its activities in Asia and Far East, 11th report, 23 March 1973 (UN/E/CN.11/1075).

قائمة بعمليات التنمية والضرورات الملحة التى نفذها البرنامج العالمى للتغذية خلال السنوات العشر الأخيرة فى خمس عشرة دولة آسيوية .

الاقتصاديات :

الاحصاءات والطرق الاحصائية .

Inventory of data bases of economic and social statistics (UN/ST/STAT.64).

مسودة تقرير أعدته السكرتارية بالتعاون مع الوكالات المتخصصة ، ويضــم قائمة بجميع أنواع البيانات الاحصائية المتاحة للأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة .

Yearbook of national accounts statics
: (UN/ST/STAT/SER).

مقارنة الحسابات الوطنية لمعظم الدول الأعضاء بهيئة الأمم المتحـدة لسنة ١٩٧٠ .

Revision of the Standard International Trade Classification (UN/E/CN.3/429).

تقرير للسكرتير العام للأمم المتحدة بضم قائمة بالقطاعات والاقسام والمجموعات والمجموعات الثانوية ، لجميع المنتجات التى تدار فيها التجارة الدولية .

Statistics of the distribution of income, consumption and wealth (UN/CN.3/426).

تقرير مجموعة الخبراء عن توزيع الدخل والاستهلاك والتكديس ، مع ملاحظات منهجية ، ونتائج اجتماع مجموعة الخبراء المنعقد فى جنيف فى ابريل سنة ١٩٧٢ .

Sample surveys of current interest (UN/E/73/XVII.5)

دراسات اجتماعية من خلال عمليات مسح لمشكلات شتى اجريت فى خمس عشرة دولة تقريبا .

Technical guide. Vol. 11 (ILO).

دليل فنى يضم احصائيات عن العمالة والبطالة ، وساعات العمل والاجور ، أصدرته منظمة العمل الدوليـــة ، ليكمل المعلومات القصـــيرة الواردة فى جـــداول المذكرات ، مع طرق الاحصاء المستخدمة فيها .

Report of the Conference of Asian Statisticans
(UN/E/CN.11/1057).

تقرير عن مؤتمر الاحصائيين الآسيويين (الدورة ١١) ١٩٧٢ .

Report on the Working Group on Household Sector Statistics, Addis Ababa, 1972.
(UN/E/CN.14/586).

مشكلا فى الاحصاءات الافريقية . المفاهيم والتعريفات والمصادر . صعوبات خاصة قابلتها المجموعة العاملة فى احصاءات القطاع المنزلى فى هذه القارة عند تطبيق طريقة حسابات الأمم المتحدة .

التخطيط الاقتصادى (والتخطيط بوجه عام)

Report on a unified approach to development analysis and planning. 1972.
(UN/E/CN.5/477).

تقرير مبدئى للسكرتير العام ، يضم مختلف أنواع التنمية ـ الخطط ، وطرق الملاحظة ، والمؤشرات وأجهزة الاستعلامات ، كطريقـــة موحـــدة لتطوير التحليل والتخطيط .

Report on a unified approach to development analysis and planning.
(UN/E/CN.5/490).

تقرير السكرتير العام عن اجتماع مجموعة الخبراء ، الخاص بوضع طريقـــة موحدة لتطوير التحليل والتخطيط ، المنعقد فى استكهلم من ٦ ــ ١٠ نوفمبر ســـنة ١٩٧٢ . المعلومات الخلفية ، مفهوم الطريقة ، الجـــوانب المنهجية لاســـتخدامها ، والتوصيات .

Report on the activities of the Latin American Institute for Economic and Social Planning
(UN/E/CN.12/951).

تقرير عن المعونة الفنية لمختلف دول أمريكا اللاتينية ، والبحث الاقتصادى والاجتماعى اللازم لها .

Lectures given at the bilingual training course in budget-plan harmonization, Addis Ababa, 1971.
(UN/E/CN.14/BUD/17).

محاضرات تبين وظيفة التخطيط المركزى فى افريقيا ، والعلاقة بين التخطيط والميزانية ، والطرق المختلفة ، ووجهة نظر الحكومات ، والشركات المؤممة والشركات الخاصة .

Participation of employers and workers in planning, 1973 (ILO).

مفهوم فكرة مشاركة أصحاب العمل والعمال ، تنظيمات للمشاركة فى التخطيط ، تقنيات ، مشكلات تطبيق التخطيط ، والنتائج .

التنمية الاقتصادية (والتنمية بوجه عام) والتصنيع

United Nations Development Programme
(UN/E/5185/Rev. 1).

تقرير المجلس الحاكم فى دورته الرابعة عشرة (١٩٧٢) ، ويضم البرامج الريفية، والتخطيط لعدة قوميات ، والمتطوعين من الأمم المتحدة ، واختبار المنظمة ، والأنشطة ، ودور برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة ومركزه المالى فى سنة ١٩٧١ .

(UNE/5238). 1973.

تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة عن دور العلم الحديث والتكنولوجيا فى تقدم الشعوب . والحاجة الى تقوية التعاون الاقتصادى والعلمى الفنى بين الدول

The application of space technology to development
(UN/ST/ECA/161).

تطبيق تكنولوجيا الفضاء على التنمية : الاتصالات ، ومراقبة الأرض بواسطة القمر الصناعى فى خدمة التنمية .

Disarmament and development
(UN/ST/ECA/174). 1972

تقرير جماعة من الخبراء عن نتائج نزع السلاح الاقتصادية والاجتماعية ، والعلاقة بين نزع السلاح والتنمية . طرق تعبئة الرأى العام ، نتائج وضع صيغة لاعادة توزيع النفقات العسكرية على اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية .

Implementation of international development strategy for he second United Nations Development Decade.
(UN/E/AC.54/L.51 and Add. 1).

تنفيذ استراتيجية التنمية الدولية الخاصة بالعقد الأول من التنمية للأمم المتحدة : أوراق تمهيدية عن النظرة الكلية وتقييم التقدم . الدول النامية واستراتيجية التنمية الدولية . الانجازات الأساسية ، والعقبات الجوهرية فى سبيل التنمية فى الفترة من ١٩٦٠ – ١٩٧٠ ، ودرجة تعبئة الموارد البشرية والمالية والطبيعية .

Implementation of international development strategy for the second United Nations Development Decade.
(UN/E/AC.54/L 52).

اجراءات تتعلق بالتجارة ، تأثيرات السياسات المحلية ، معلومات قانونية .

Implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade.
(UN/E/AC.54/L.53).

التجارة : الاتجاهات ، والمستقبل المتوقع ، التوسع فى التجارة مع الدول النامية . برامج التعاون الصناعى .

Implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade, 1973.
(UN/E/AC.54/L.54).

التعاون والتكامل الاقتصادى بين الدول النامية .

Implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade, 1973.
(UN/E/AC.54/L.55).

عرض انتقائى للأهداف الموضحة فى الخطط الحديثة للدول النامية .

The international development strategy
(UN/E/AC.54/L.60). 1973.

تقرير تمهيدى للسكرتير العام يتضمن التغيرات فى أولويات التنمية ، وتغيرات طرق الانتاج والمشكلات ، واتجاهات العلاقات التجارية .

Proposals for action on finance for housing, building, and planning 1973
(UN/E/C.6/106 Rev. 1 (ST/ECA/168), 1973.

مقترحات للتنفيذ عن تمويل الاسكان والبناء والتخطيط : المشكلة ، الحلول الممكنة ، طرق التمويل ، فى الدول النامية ، قاعدة المعونة الأجنبية ، البرامج الاقليمية والدولية ، توصيات المجلس الاقتصادى والاجتماعى .

Science and technology in the second United Nations Development Decade, 1973
(UN/E/C.8/10).

مذكرة السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة بتحديد الأغراض فى العقد الثانى للتنمية .

Action programmes in science, and technology for developing countries,
(UN/E/C.8/11).
1973

برامج عمل فى العلم والتكنولوجيا ، وتطبيق تكنولوجيا الآلة الحاسبة .

An Asian plan of action for the application of science and technology to development, 1973
(UN/E/CN.11/1071).

خطة اسيوية فعالة لتطبيق العلم والتكنولوجيا فى التنمية .

Asian Institute for Economic Development and Planning, 1973.
(UN/E/CN.11/1083), 1973.

تقرير المجلس الحاكم بالمعهد الآسيوى للتنمية الأقتصادية والتخطيط ، عن التدريب والبحث والخدمات الاستشارية .

Latin America and the international development strategy.
(UN/E/CN.12/947 and Add. 1).

اول تقييم اقليمى ، يتناول التغييرات الاجتماعية والنمو الاقتصادى والعلاقات الاقتصـــادية الخارجية ، والتمويل الخارجى ، والتكـامل الاقليمى ، وتحليل للستينات .

World plan of action for the application of science and technology to development. Summary of the regional plan for Latin America.
(UN/E/CN.12/949).

تطبيق العلم والتكنولوجيا فى التنمية فى مختلف المجالات : الصحة والتعليم ، وخاصة فى الاقتصاديات

Co-ordination of activities of the United Nations system in the field of industrial development
(UN/ID/B/102).

التقرير التحليلى الثانى ، به تصنيف للأنشطة وفقا للأصل والوظيفة والاقليم (افريقيا وآسيا وأوروبا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية)

Interrelationship between health programmes and socio-economic development.
(Public health papers, 49) (WHO).

تقرير لمنظمة الصحة العالمية عن المناقشات التى جرت فى جمعية الصحة العالمية سنة ١٩٧٢ : نص الوثيقة الاساسية ، وتقرير عن المناقشات نفسها .

الموارد الطبيعية والمواد الخام والطاقة .

Developments in the field of natural resources.
1972
(UN/E/C.7/32 and Add. 1).

التنمية فى مجال الموارد الطبيعية ــ الماء والطاقة والمعادن ، وتوصيات مؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة البشرية فيما يتعلق بالموارد الطبيعية ، ومذكرة للسكرتير العام .

Developments in the field of natural resources
(UN/E/C.7/35). 1972

التنمية فى مجال الموارد الطبيعية ــ الماء والطاقة والمعادن ــ الجوانب الفنية والاقتصادية لتطوير حياض الأنهار الدولية ، مى عرض للتعاون الثنائى والجمعى . النتائج والتوصيات .

Projections of natural resources, supply and future demand
(UN/E/C.7/40 Add. 1 and 2). 1972

اتجاهات وتصورات استهلاك الطاقة ، الاحتياطيات التقديرية ، والاجراءات المقترحة مع مذكرة للسكرتير العام .

World energy supplies 1961-1970
(UN/ST/STAT/SER. J/15).

مجموعة احصائيات تغطى الانتاج والتجارة وأستهلاك الطاقة لنحو ١٨٥ دولة. الفحم الحجرى ، وفحم الكوك ، والبترول ، والغاز الطبيعى ، والكهرباء ، والطاقة النووية والحرارة الأرضية .

Electricity costs and tariffs : a general study
(UN/ST/ECA/156).

العوامل المؤثرة فى التكاليف ، وأمثلة مستمدة من خمس وعشرين دولة .

الزراعة والسلع الأساسية

Report of the seminar on inra-sub-regional economic co-operation and trade in agriculture in West Africa
(UN/E/CN.14/566). 1973

تحليل لأنواع التعاون التى تمارس فى الاقليم الفرعي فى الوقت الحاضر .

Index, FAO Conference and Council Decisions, 1945-1972
(FAO/MD/D5920/E/6.73/1/3100).

فهرس لمنظمة الطعام والزراعة ، وقرارات المجلس .

FAO Commodity review and outlook 1972-1973 (FAO).

الوقف والمستقبل المتوقع فيما يتعلق بالسلع الأساسية . اتجاهات ومشكلات التجارة الدولية ، مركز كل سلعة والمستقبل المتوقع لها .

Agriculture : Report of the Intergovernmental meeting on the establishment of an Asian Rice Trade Fund
(UN/E/CN.11/L 373). 1973

تقرير عن انشاء اعتماد مالى لتجارة الأرز الأسيوية . نص المخطط التمهيدى .

National grain policies : 1972-1973 (FAO).

السياسات الوطنية للحبوب ، تغطى جميع الدول الأعضاء فى منظمة الزراعة والطعام .

The Green Revolution : an economic analysis (UN. RISD), 1972
by Keith Griffin.

تأثير الميكنة والاستخدام المكثف للمخصبات على الانتاج الزراعى العالمى . بقلم كيث جريفن

البناء والصناعة والنقل

Report of the UNECA Task Force on Financing of Housing, Building and Physical Planning
1972
(UN/E/CN.14/585).

تقرير حملة ادارة التعاون الاقتصادى التابعة للأمم المتحدة عن تمويل الاسكان والبناء والتخطيط المادى ، ومركز افريقيا ككل ، والتوصيات المقدمة للحكومات .

Shipping in the seventies, 1972
(UN/TD/177).

الشحن البحرى فى السبعينات والمركز الراهن وتوقعات المستقبل ، والاستراتيجية الدولية لتنمية الشحن .

التعاون الاقتصادى

Regional co-operation study on regional structure. Report of the Secretary-General, 1972
(UN/E/5127).

تقرير السكرتير العام عن التركيبات الاقليمية الموجودة وطـرق تشـجيع التعاون ، وأنشطة الوكالات المتخصصة فى هذا المجال .

Regional co-operation. United Nations export promotion and development efforts
(UN/E/5254).

تقارير عن عمل اللجان الاقليمية الاقتصادية الأربع ، وعمل الوكالات التسـع المتخصصة لسنة ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ مع مشروعات لسنة ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ .

Repor of the panel of experts on intra-African economic co-operation and Africa's relations with the European Economic Community
(UN/E/CN.14/584).

تقرير هيئة الخبراء عن التعاون الافريقى المشترك ، وعلاقات افريقيا بالجماعة الاوربية الاقتصادية وقائمة بالوثائق التى أصدرتها الهيئة فى هذا الموضوع .

The impact of regional economic groupings of the developed countries on international trade including the trade of developing countries. Comparison of the major groupings
(UN/TD/131).

تأثير التجمعات الاقتصادية للدول المتقدمة ، على التجارة الدولية ، ومن بينها تجارة الدول النامية . مقارنة بين دول الاتحاد الأوربى للتجـارة الحـرة ، ودول الوحدة الاقتصادية الأوربية ، ومجلس المساعدة الاقتصادية المشـتركة ، والأدوار التى تقوم بها الدول الأعضاء فى كل منظمة ، والعلاقات مع العـالم الثـالث من ١٩٦٠ ــ ١٩٧٠ .

ــ المجتمع ، وظروف المعيشة والتشغيل ، والعمالة ، والسياسة الاجتماعية

التخطيط الاجتماعى ، والتقدم الاجتماعى ــ

Social planning, social development
Social development. Promotion of the co-operative movement during the Second United Nations Development Decade
(UN/E/5246).

التقدم الاجتماعى . تعزيز حركة التعاون ابان عقد التنمية الثانى للأمم المتحدة .

Review and appraisal of the implementation of the international development strategy for the second United Nations Development Decade
(UN/E/CN.5/476).

توصيات عن المشاركة العامة فى انشطة التنمية والقرارات . ثمار التنمية وتوزيعها .

Report on national experience in achieving far-reaching social and economic changes for purposes of social progress, 1972. (UN/E/CN.5/478/and Add. 1, 2 and 3).

تقرير عن التجربة الوطنية فى احرار تغيرات اجتماعية واقتصادية بعيدة المدى لأهداف التقدم الاجتماعى . اجابات ٥٠ دولة على أسئلة عن سياستها الاجتماعية .

Integration of women in development, 1972. (UN/CN.5/481).

دور المرأة فى المجتمع الريفى ، العمل والأسرة . توصيات .

Studies on social development in the Middle East, 1971. (UN/ST/ECA/175).

المشكلات المتصلة بالشباب والاسكان والاصلاح الزراعى ، والأمن الاجتماعى فى الصناعة .

Planning for youth development : The Hong Kong experience. 1972 (UN/TAO/HOK/1).

التخطيط لتطوير الشباب : تجربة هنج كنج .

السياسة الاجتماعية

Social policy

The aged and social change, 1972 (UN/E/CN.5/482).

تقرير للسكرتير العام عن الاتجاهات السكانية والتأثيرات الاجتماعية على المسنين بالدول الصناعية .

Multinational enterprises and social policy, (ILO), 1973.

طبيعة واهمية المشروعات المشتركة بين مجموعة من الدول ، وعلاقاتها بالقوة العاملة . ظروف العمل . علاقات الموظفين فى هذه البيئة . مقاييس منظمة العمل الدولية . تقرير عن اجتماع هذه المنظمة فى هذا الموضوع .

Employment policy in the Second Development Decade.

منظمة العمل الدولية ١٩٧٣

خصائص السياسة المتفق عليها فى التوظيف . تقييم .

Migrant workers. Report VII (1). International Labour Conference (ILO), (Geneva 1974).

عمال التراحيل . المضار . السياسات الاجتماعية المطبقة . المقاييس الدولية للتوظيف والاقامة .

Urban unemploymen in developing countries (ILO), 1973.

طبيعة المشكلة . عوامل فى البطالة فى المدن . التضخم . الاندفاع الى المدن . التوصيات .

Labour inspection : purposes and practice (ILO).

الخدمات الاجتماعية

التفتيش العمالى

الهدف : قانونى ، واقتصادى واجتماعى ومسئوليات ادارية . الطرق العملية والقواعد . الحصول على احصاءات دقيقة .

Encyclopaedia of medicine, Health and safety at work (ILO).

موسوعة طبية وصحية وحماية العامل خلال العمل . الوسائل الفنية المختلفة والمنتجات والأخطار المرتبطة بها .

مشكلات العمل ، وظروف العمل

Directory of labour relations institutes (1973).

قائمة خاصة بكل دولة . معلومات عامة . انشطة التدريس والبحث ـ شروط القبول ـ نشرات .

Labour relations institutes : structure and functions (ILO), 1973.

دراسة لكل اقليم على حدة : شمال وجنوب أمريكا ، آسيا ، غربى وشرقى اوربا ، افريقيا . المنظمات والأنشطة وأعمال البحوث فى هذه المؤسسات .

Minimum age for admission to employment (ILO), 1973.

ادنى سن للقبول فى الوظيفة ، واجابات الحكومات . نصوص مشروع الاتفاقيات والتوصيات .

The social repercussions of new handling mehods (ILO), 1973.

تقرير عن الصدى الاجتماعى لطرق المعالجة الجديدة للأرصفة . اجابات الحكومات والتعليقات . ومشروع الاتفاق ، والتوصية المقترحة فى المؤتمر الدولى للعمل .

Organizations of rural workers and their role in economic and social development (ILO), 1973.

المشكلات الكبرى التى يواجهها عمال الريف اليوم . منظمات مصنفة بحسب اصول اعضائها وطبيعة انشطتهم ، العقبات فى سبيل تقدمهم . الاجراءات التى تضاعف مشاركتهم لهذه المنظمات فى التنمية .

Second technical tripartite meeting for the timber industry (forestry):

الاجراءات التى اتخذت فى مختلف الدول ، بشأن : الحوادث ، وظروف المعيشة والعمل ، وعلاقات ادارة العمل ، والاجراءات التى اتخذتها منظمة العمل الدولية وفقا لعمليات المسح التى اجرتها .

Second technical tripartite meeting for the timber industry (forestry):

المشكلات المتعلقة باستقرار العمل فى صناعة الخشب : تركيب العمل ،والعوامل الاساسية فى استقراره وبخاصة التبرير . مقارنة بين الدول الصناعية والدول النامية . (منظمة العمل الدولية ـ جنيف) .

General report : recent events and development in the textile industry (ILO), 1973.

تقرير عام عن مركز الفروع المختلفة لصناعة النسيج . الجوانب الاجتماعية : البطالة ، والأجور ، وساعات العمل ، والاتجاهات الحديثة فى المساومات الجماعية .

Safety and health in the textile industry (ILO), 1973.

الأمن والصحة فى صناعة النسيج

Industrialization and wages in Japan (ILO), 1973.

التصنيع والأجور فى اليابان ، قبل وبعد سنة ١٩٤٥ . اتجاهات عامة ، وتوصيات .

مسائل قانونية وسياسية ، حقوق الانسان

United Nations Commission on International Trade Law. Vol. III (UN/A/CN.9/CER/A/1972).

كتيب بالأحداث الكبرى فى تطور القانون الدولى فى سنة ١٩٧٢ . فحص موضوعات خاصة : البيع الدولى للسلع ، المدفوعات الدولية ، التحكيم التجارى ، التشريع الدولى المسيطر على الشحن البحرى .

Commentary on the draft convention on prescription (limitation) in the international sale of goods (UN/A/CN.9/73).

تفسير لمشروع الاتفاقية الخاصة بالتقييد فى البيع الدولى للسلع .

International payments, 1973
(UN/CN.9/77).

وسائل صالحة للتفاوض ، مسودة قانون التماثل الخاص بمشروعات قوانين التبادل الدولى والمذكرات الدولية التعهدية . تقرير المجموعة العاملة عن الوسائل الدولية الصالحة للتفاوض .

Tax treaties between developed and developing countries, 1972.
(UN/ST/ECA/166).

فرض الضرائب على شركات النقل ، التهرب من الضريبة الدولية .

Peace, independence
Youth : (UN/A/878/Add. 1-3).

تقرير عن الشباب وتعليمه وحرياته الاساسية ، ومشاركته فى التنمية الدولية، ومثله العليا فى السلام والتفاهم بين الشعوب ،من السكرتير العام ، ويتضمن تعليقات من ثلاث حكومات : الولايات المتحدة ، وباربادوس ، واليونان .

Report of the United Nations visiting mission to observe he elections to Papua New Guinea, 1972
(UN/T/1739).

القطر ، شروط العلاقة ، والانتخابات ، وتعليقات اللجنة ، والتوصيات .مثال لمجتمع فى دور التحول .

Human rights, discrimination.
Elimination of all forms of racial discrimination, 1972
(UN/A/8813).

القضاء على كل صور التمييز العنصرى ، مع اجابات لنحو خمسين حكومة .

Capital punishment, 1973
(UN/E/5242).

عقوبة الاعدام : تقرير السكرتير العام عن الموقف الراهن ، الضمانات الممنوحة للمتهم . القانون والتطبيق ، قائمة بالدول التى الغت عقوبة الاعدام قانونا وعملا ، الدول المحتفظة بها .

Seminar on human rights and scientific and technological developments
(UN/ST/TAO/HR/45).

حلقة دراسية عن حقوق الانسان والتنمية الفنية والتكنولوجية وتأثيرها فى

تطوير مختلف حقوق الإنسان ، وبخاصة حق الحرمة الشخصية . الاجراءات التى يجب اتخاذها لتأمين هذه الحقوق .

Commission on Human Rights, 1972
(UN/ECN.4/1023/Add. 6).

مسألة تحقيق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى يتضمنها الاعلان العالمى لحقوق الانسان . معلومات مستمدة من الحكومات والولايات المتخصصة .

Periodic reports on human rights, 1972
(UN/E/CN.4/1100 and Add. 1).

تقارير دورية تضم اجابات من منظمة العمل الدولية ، واليونسكو ، ومنظمة الصحة العالمية ، عن الحقوق المدنية والسياسية ، وحق تقرير المصير ، وحق الاستقلال .

Report of sub-commission on prevention of discrimination and protection of minorites, 1972
(UN/E/C.4/1101).

تقرير اللجنة الفرعية عن تحريم التمييز ، وحماية الاقليات المقدم للجنة حقوق الانسان فى دورتها الخامسة والعشرين .

Periodic reports on human rights, 1973
(UN/CN.4/1102).

ثبت بوثائق الأمم المتحدة المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية ، مع جدول تحليلى بالمحتويات .

Review of studies of problems of race relations, 1972
(UN/CN.4/110).

تقرير السكرتير العام عن دراسات خاصة بمشكلات علاقات الاجناس وصيانة أوضاع الأجناس .

The widening gap, 1973
(UN/E/CN.4/1108 and Add 1-9).

الجزء الأول من دراسة تحقيق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، للمراسل الخاص للجنة حقوق الانسان .

Study of equality in the administration of justice.
(UN/E/CN.4/1112 and Add 1-4).

تقرير للسكرتير العام يحتوى على دراسة للمســاواة فى ادارة العــدل ، مع تعليقات وآراء لثلاث عشرة حكومة .

Human rights and scientific and technological developments, 1973
(UN/E/CN.4/1112 and Add 1-4).

تقرير السكرتير العام عن حقوق الانسـان والتقدم الفنى والتكنولوجى والتأثيرات الايجابية والسلبية لهذه العوامل على حق العمل (الظرف والأجــور والاتحــادات التجارية) ، وحق السكنى .

Human rights and scientific and technology developments, 1973

تقرير للسكرتير العام حقوق الانسـان والتقدم الفنى والتكنولوجى :
(UN/E/CN.4/1116 and Add. 3).

احترام خصوصية الأفراد ، وسلامة وسيادة الشعوب فى ضــوء التســجيل وغيره من الوسائل التقنية .

Human rights and scientific and technology developments, 1973
(UN/E/CN.4/1116 and Add. 1, 2).

تقرير للسكرتير العام عن حقوق الانسـان والتقدم الفنى والتكنولوجى . احترام خصوصية الافراد وسيادة الشعوب فى ضوء تقدم التسجيل وغيره من الوســـائل التقنية ، وتنظيمات للسيطرة على أجهزة الاستماع والمراقبة فى الوقت الحاضر ، والاجراءات التى يجب اتخاذها .

الادارة العامة

United Nations directory, 1973
(UN/ST/TAO/M/47/Rev. 1).

دليل الأمم المتحدة الخاص بالوكالات والمؤسسات الوطنية لتحسين الادارة العامة .

Inter-regional seminar on electronic data processing in government, 1973
(UN/ST/TAO/M/63/Add. 1).

حلقة دراسية اقليمية مشتركة عن البيانات الالكترونيــة ، وعرض للموقف الراهن لخبراء من خمس قارات ، ومشكلات الدول النامية .

Report ofthe inter-regional seminar on electronic data. Vol. 1

تقرير عن حلقة الدراسة الاقليمية المشتركة يتضمن :
(UN/ST/TAO/M/63).

اقرار واستخدام ، وتنظيم وادارة علم الآلة الحاسبة فى الحكومة ، وبخاصة فى الدول النامية ، التعاون الفنى .

Report on the meeting of consultants on administration of public enterprises, 1973
(UN/E/CN.12/946).

تقرير عن المشروعات العامة وادارتها فى أمريكا اللاتينية

Social defence, delinquency

A policy approach to planning in social defence, 1972
(UN/ST/SOA/114).

منع الجريمة ومعاملة المجرمين ، ودور التخطيط فى هذه المجالات ، وسياسة الامم المتحدة .

Work programme for 1974-1975 and report on activities 1971-1972, 1972
(UN/E/CN.5/479).

تقرير السكرتير العام عن مؤتمر وزراء أوربا المسئولين عن الرفاهية الإجتماعية

The evaluation and improvement of manpower training programmes in social defence
(UNSDR 1/2).

تقييم وتحسين تدريب القوة البشرية فى الدفاع الاجتماعى ، أعده معهد البحث للدفاع الاجتماعى التابع للأمم المتحدة .

Perceptions of deviance, 1972
(UNSDR 1/3).

مدركات البحث ، واقتراحات للبحث الثقافى المتعارض . معهد البحث للدفاع الاجتماعى للأمم المتحدة بروما .

اللاجئون

Report of the United Nations High Commissioner for Refugees, 1972
(UN/A/8712).

الحماية الدولية للاجئين : مبادىء عامة ، عرض للموقف الراهن ، المعونة المادية فى افريقيا وبخاصة بورندى ، وفى آسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية .

التعليم ، والعلم

بحث فى السلام والصراع

International repertory of institutions for peace and conflict research. Social science series (UNESCO), 1973.

ترجمة كاملة حديثة للمجموعة الأولى التى ظهرت سنة ١٩٦٨ ، وقد تضاعفت منذئذ مؤسسات السلام خمسة اضعاف . التحديد النظري للموضوع ، تقدم واتجاهات البحث ، ثبت بالمؤسسات ووصف موجز لنظامها وانشطتها .

التعليم

Practical guide to functional literacy (UNESCO).

النظر الى المعرفة الفعالة بالقراءة والكتابة كأداة للتنمية . وصف لأقوى الطرق فعالية .

The teaching of reading (UNESCO/Ginn).

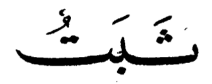
مجموعة دراسات عن تقدم هذه الطرق فى المدارس الابتدائية .

International directory of programmed instruction (UNESCO) 1973.

دليل دولى للتثقيف المنهجى يغطى جميع وجوه استخدام التكنولوجيا العصرية فى التعليم ، مع قائمة تضم المؤسسات والاتحادات والناشرين ، والدوريات المتخصصة فى مختلف الدول ، وثبت بالكتب والمقالات التى نشرت منذ سنة ١٩٦٨، والمؤتمرات والاجتماعات ، والبحوث التى تمت أو التى يجرى فيها العمل .

Education and the employment problem in developing countries (ILO) 1973.

النتائج التى انتهى اليها الخبراء فى اقتصاديات التعليم ، فيما يتعلق بالربط بين التعليم وأشكال الاستخدام . الحلول التقليدية والمعاصرة .



المقال وكاتبه		العدد وتاريخه
● التنمية والبيئة والتقويم التكنولوجى بقلم : انياسى ساكس	Development, environment and technology assessment *by* Ignacy Sachs	مجلد : ٢٥ العدد الثالث ١٩٧٣
● اختيار الأساليب الفنيــــة للانتاج والتغير التكنولوجى كمشــاكل فى الاقتصـــاد السياسى بقلم : شارل كوبر	Choice of techniques and technological as problems in political economy *by* Charles Cooper	مجلد : ٢٥ العدد الثالث ١٩٧٣
● الثورة الخضراء والتوترات الاجتمــــاعية الاقتصادية فى الهند بقلم : كالبانا بردهان برناب بردهان	The green revolution and socio-economic tensions the case of India *by* Kalpana Bardhan *and* Pranab Bardhan	مجلد : ٢٥ العدد الثالث ١٩٧٣
● التقويم التكنولوجى بقلم : هارفى بروكس	Technology assessment as a process *by* Harvey Brooks	مجلد : ٢٥ العدد الثالث ١٩٧٣
● الترشيد الاكاديمى بقلم : هارولد أورلانس	Academization in the polity *by* Harold Orlans	مجد : ٢٤ العدد الرابع ١٩٧٢

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٧٣

يقدم مجموعة من المجلات الدولية بأقلام كتاب متخصصين وأساتذة دارسين .
ويقوم باختيارها ونقلها إلى العربية نخبة متخصصة من الأساتذة العرب ، لتصبح إضافة إلى المكتبة العربية تساهم في إثراء الفكر العربي ، وتمكينه من ملاحقة البحث في قضايا العصر .

تصدر شهريًا

يناير / أبريل / يوليو / أكتوبر

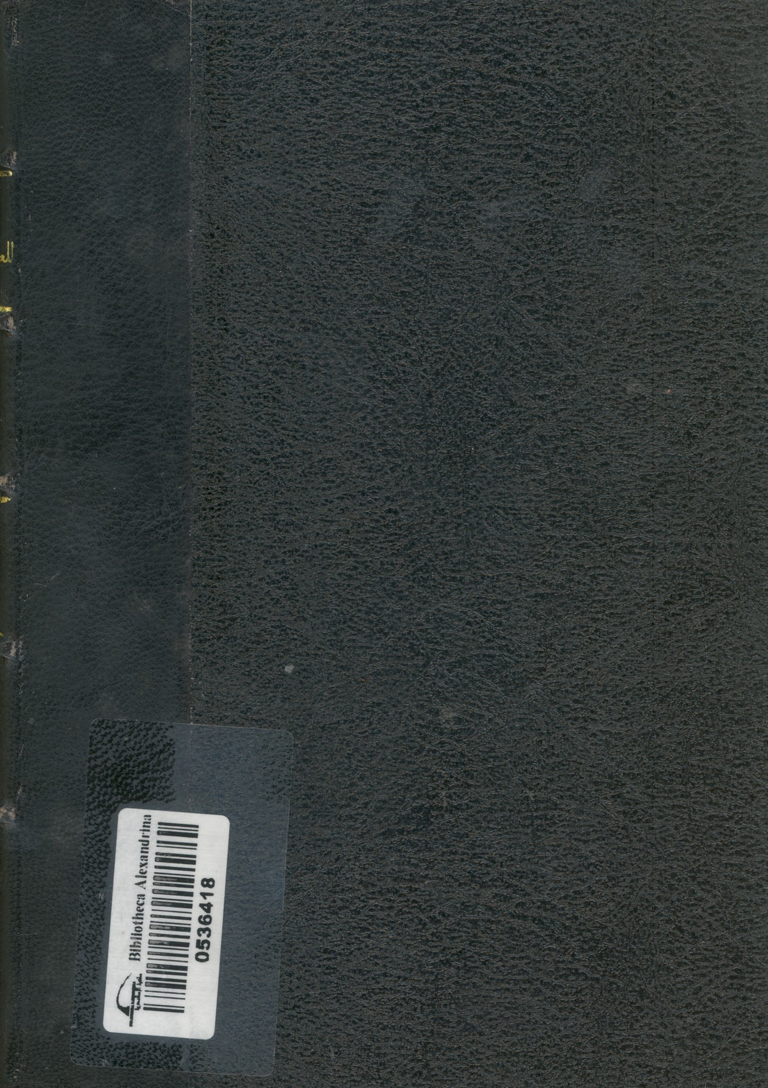
فبراير / مايو / أغسطس / نوفمبر

مارس / يونيو / سبتمبر / ديسمبر

مجموعة من المجلات تصدرها هيئة اليونسكو بلغاتها الدولية ، وتصدر طبعاتها العربية بالاتفاق مع الشعبة القومية لليونسكو ، وبمعاونة الشعب القومية العربية ، ووزارة الثقافة والإعلام بجمهورية مصر العربية .

الثمن ١٠ قروش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب


Bibliotheca Alexandrina
0536418